دايفد باتريك هوتون

علم النفس السياسي

ترجمان

ترجمة: ياسمين حداد

التصويت

الانتخابات



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

علم النفس السياسي
أوضاع، وأفراد، وحالات

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

علم النفس السياسي
أوضاع، وأفراد، وحالات

دايفد باتريك هوتون

ترجمة

ياسمين حداد

مراجعة

سامي الخصاونة




الفهرسة في أثناء النشر ـ إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

هوتون، دايفد باتريك

علم النفس السياسي: أوضاع، وأفراد، وحالات/دايفد باتريك هوتون؛ ترجمة ياسمين حداد؛ مراجعة سامي الخصاونة.

464 ص.: إيض. ، جداول ؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 419 - 442) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-046-8

1. علم النفس السياسي. 2. الإرهاب - الجوانب النفسية. 3. العلاقات الخارجية - الجوانب النفسية. 4. الأعصاب، علم. 5. السلوك (علم نفس) أ. حداد، ياسمين. ب. الخصاونة، سامي. ج. العنوان. د. السلسلة.

320.019

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

Political Psychology

by David P. Houghton

عن دار النشر

Taylor & Francis Group LLC.

Authorized translation from English language edition published
by Routledge Inc., part of Taylor & Francis Group LLC.

الناشر

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع رقم: 826 ـ منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية ـ الدفنة، ص. ب: 10277 ـ الدوحة ـ قطر
هاتف: 44199777 ـ 00974 فاكس: 44831651 ـ 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب ـ شارع سليم تقلا ـ بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 ـ 11 ـ رياض الصلح ـ بيروت 2180 1107 ـ لبنان
هاتف: 8 ـ 991837 1 ـ 00961 فاكس: 1991839 ـ 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى

بيروت، آب/أغسطس 2015

المحتويات

قائمة الأشكال والجداول 7

تمهيد 9

مقدمة 15

1- المخطط المفهومي لهذا الكتاب 17

2- موجز لتاريخ علم النفس السياسي 47

الباب الأول: الموقف 65

3- السلوكية وحرية الإنسان 67

4- علم نفس الطاعة 81

5- صناعة «صندوق فاسد» 99

6- صناعة القرارات الجماعية 115

الباب الثاني: الفرد 137

7- السيرة النفسية 139

8- الشخصية والاعتقادات 165

9- المعرفة 187
10- العاطفة والانفعال 217
11- علم الأعصاب 235
الباب الثالث: ربط الاثنين معًا 255
12- علم نفس سلوك الانتخاب 257
13- علم نفس القومية، والصراع الإثني والإبادة الجماعية 275
14- علم نفس العنصرية وعدم التسامح السياسي 303
15- علم نفس الإرهاب 333
16- علم نفس العلاقات الدولية 357
17- خاتمة: وجهة نظر شخصية 383
الثبت التعريفي 399
ثبت الأعلام 409
المراجع 419
فهرس عام 443

قائمة الأشكال والجداول

الأشكال

(2-1) العلاقة بين العلوم السياسية والعلوم الأخرى 48

(4-1) البطاقات التي استُخدمت في تجارب سولومون آش
عن ضغط الجماعة 84

(5-1) لوحة م. ك. إشير «حدود الدائرة IV» 101

(5-2) تفسير زمباردو لتجربة ستانفورد 106

(5-3) واحدة من الصور التي سُرِّبت عام 2004، تُظهر مجندين
أميركيين يعذبون محتجزين في سجن أبو غريب 109

الجداول

(2-1) ملخص الملامح الخاصة بنموذج «الإنسان الاقتصادي»
ونموذج «الإنسان النفساني» 64

(3-1) ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة للسلوكية 79

(4-1) ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة لنموذج ملغرام
في الطاعة 97

(5-1) ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة لمقاربة
زمباردو المتعلقة بـ «الصندوق الفاسد» 113

(7-1) تصنيف باربر للرؤساء المعاصرين 157

(16-1) بُعدا التضامن والمكانة 369

تمهيد

إذا لم تخنّي الذاكرة، فقد دأبت منذ زمن بعيد في الاهتمام بالأسباب الكامنة وراء السلوك السياسي والاقتصادي وغيرها من أشكال السلوك الاجتماعي، ولكنني لم أتبين إلا في وقت لاحق أن ما كان يستحوذ على اهتمامي له اسم محدد، وأنه يكوّن حقلًا أكاديميًا خاصًا به هو: «علم النفس السياسي». والحقيقة أنني لم أعثر على ما كنت أبحث عنه إلا عند قدومي إلى الولايات المتحدة طالب دراسات عليا. فقد نشأت في ظل النظام الجامعي البريطاني، ولا أذكر أنني سمعت بهذا المصطلح أثناء دراستي في جامعة شيفيلد (مع أن هذا الموضوع يدرَّس الآن، لحسن الحظ، على نطاق واسع في بريطانيا). وقد بدأتُ دراستي العليا طالب اقتصاد، معتقدًا أنني سأتعلم شيئًا عن أسباب السلوك الاقتصادي بدراسة الاقتصاد الجزئي. وخاب أملي حين وجدت أن كثيرًا من الاقتصاديين يأخذون بافتراضات مبسطة عن السلوك الإنساني - ويتعاملون معها بوصفها «مسلّمات» - ويبنون عليها نموذجات نظرية مختلفة.

وهناك طرفة قديمة عن مهندس، وقسيس، واقتصادي وقعوا في حفرة عميقة، وراحوا يتجادلون في كيفية الخروج منها. وبعد شيء من التفكير خرج كل منهم بمقترح؛ فقال المهندس «دعونا نحفر حُفرًا لمواقع أقدامنا واحدة بعد الأخرى، ويتسلق بعضنا على أكتاف بعض لنتمكن من الخروج». وجاء بعده القسيس ليقترح حلًا روحانيًا، كما يمكن أن نتوقع، وقال: «فليمسك كل منا بأيدي الآخر ونصلِّ لله، وهو سيسعفنا بحل لمشكلتنا». ثم جاء دور الاقتصادي فأخذ برهة من التفكير، وقال للآخرين ببساطة: «افترضوا أن لدينا سلمًا!» وقد

حاول مدرسو الاقتصاد الجزئي عبثًا ملء رأسي بمنحنيات التفضيل ورسم الخطوط البيانية بناء على افتراضات في السلوك الإنساني، ويتعاملون معها بوصفها معلومات تامة، لا وجود فيها للإعلانات [أو أي متغيرات نفسية]. هم يعترفون أنها معلومات غير حقيقية، ولكنهم يبنون عليها (على خطى ميلتون فريدمان) «وكأنها» حقيقية. ولم يكن هذا بالتأكيد ما أبحث عنه، فلم أمض معهم طويلًا، لأني لم أشأ أن أفترض شيئًا عن السلوك الإنساني، كنت أريد أن أعرف كيف يفكر الناس حقيقة في عالم الواقع، ولماذا يفكرون على النحو الذي يفكرون به.

على الرغم من أن قسم العلوم السياسية بجامعة شيفيلد لم يكن يطرح مساقًا خاصًا في علم النفس السياسي، فإنه وفّر لي تعليمًا جامعيًا ممتازًا. وعرّفني المُنظِّر السياسي المتميز على الدوام، أنطوني أربلاستر (Anthony Arblaster)، بتجارب ستانلي ملغرام (Stanley Milgram) ذات الصدمات الكهربائية، وبكتاب حنة أرندت (Hannah Arendt) **آيخمان في القدس**، وهو ما سنتناوله لاحقًا في هذا الكتاب، وسحرني ذلك الكتاب حتى يومنا هذا. وفي الوقت نفسه أخذت عددًا من المساقات من قسم علم النفس في السنة الأولى من الدراسة، غير أن ما حاولوا تعليمي إياه لم يعلق طويلًا في ذهني. فكانوا معنيين بملاحظة السلوك التعلُّمي (أو غيره) لفئران المختبر، ووضع بحوث غير متناهية لهذه الأغراض، والحديث عن التركيب الفيزيولوجي للدماغ، ولكن ما يدعو للسخرية هو أنني اكتشفت لاحقًا مدى أهمية ذلك كله لفهم السلوك السياسي، غير أنني خرجت بانطباع خاطئ كل الخطأ، على الرغم من أنه كان قويًا في ذلك الحين، مفاده أن علم النفس وعلم السياسة مغلقان إغلاقًا محكمًا وليس لأحدهما شيء يمكن أن يقوله للآخر. وفي السنة الدراسية الثانية كان عليّ أن أختار إما علم النفس وإما السياسة، ولأنني علمت أن السياسة تتضمن الدراسة الميدانية لسلوك الانتخاب، على سبيل المثال، وليس مجرد افتراضات عمّا يفعله الناس في الانتخابات، أو ما يجب عليهم فعله، بدت السياسة لي الطريق الواعد في ذلك الحين.

ولم أتبيّن أن الحقل الذي يغطيه هذا الكتاب حقل قائم فعلًا إلا بعد

وصولي إلى الولايات المتحدة في مطلع العقد الثالث من عمري. ووقع اختياري على مكان ممتاز آخر للدراسة هو قسم العلوم السياسية في جامعة بتسبرغ. ومدينة بتسبرغ شبيهة إلى حد كبير بابنة عمها شيفيلد في إنكلترا، مدينة صناعة حديد في حقبة ما بعد الصناعة. ولعل أكثر ما يشعرني بالندم حين أذكر حياتي كطالب دراسات عليا هو أنه لم يتح لي المجال لأدرس مع الراحل العظيم هربرت سيمون (Herbert Simon) الأستاذ بجامعة كارنيغي ميلون، لأنني لو فعلت لتبيّنت أمري في وقت مبكر. وبوصفي طالبًا في جامعة بتسبرغ، كان أمر السماح بدراسة مواد في جامعة كارنيغي ميلون مستحيلًا (وهي لا تبعد سوى بضعة دقائق سيرًا على الأقدام من جامعة بتسبرغ). ولكن سيمون كان عملاقًا في عدد من الحقول الأكاديمية، وكانت مساقاته تغص بالطلبة على الدوام. غير أنه حالفني الحظ بدراسة مساق **السياسة الجماهيرية** (Mass Politics) مع جون هورويتز (Jon Hurwitz) في جامعة بتسبرغ، فأثار اهتمامي بعلم نفس الجماهير وحقق توازنًا مع اهتمامي الأولي بتفكير النخبة وسلوكها [وهما جناحا البحث في علم النفس السياسي].

والمثير للسخرية أنني لم أعثر على ضالتي إلا في واحد من أواخر المساقات التي درستها، وجاء «اكتشافي» المتأخر للتراث العلمي الذي يمثّل العمود الفقري لهذا الكتاب فكان بريان ربلي (Brian Ripley) - الذي أصبح صديقًا لي في ما بعد وشريكًا في التأليف - يدرِّس مساقًا في جامعة بتسبرغ بعنوان «الثقافة والمعرفة في السياسة الخارجية» (Culture and Cognition in Foreign Policy) ولم أكن متيقّنًا بما يعنيه هذا العنوان مطلقًا، ولكنني بعد أن تحدثت مع بريان قررت أن أخوض المحاولة. وبمهارة فائقة جلب بريان إلى علمي - وهو أفضل مدرس رأيته في حياتي - موضوع صنع القرار في السياسة الخارجية وأثلج صدري حين وجدته يتكئ على نظريات علم النفس الاجتماعي وعلم النفس المعرفي لتفسير صناعة القرارات. وما أن أخذت في التعمق في هذا الموضوع أكثر فأكثر، حتى أدركت أنه المجال الذي كنت أبحث عنه من وقت إلى آخر طوال سنوات، وأنه إرث لا يقتصر على ما جاء به هربرت سيمون وإنما يشمل عظماء آخرين مثل ألكسندر جورج (Alexander George)،

وروبرت جيرفيز (Robert Jervis)، وأول هولستي (Ole Holsti)، وند ليبو (Ned Lebow)، وآخرين. ووضعت أطروحة الدكتوراه في موضوع قياس التمثيل/المماثلة (analogical reasoning) في السياستين الداخلية والخارجية، وألفت كتابًا لاحقًا عن صنع القرار في أزمة الرهائن الإيرانية معتمدًا هذا المنظور، وعملت على نشر مقالات عنه وعن غيره من الموضوعات لعقدٍ من الزمن حتى الآن - ولكنني تعمدت ألّا أثقل هذا الكتاب بإسهاماتي المتواضعة.

ومع أن هناك كتابين تدريسيين ممتازين يقدمان علم النفس السياسي للطلبة - بعد أن نفدت جميع طبعات الكتب السابقة - فإن أيًا من الكتابين لا يعكس ما أرغب في تدريسه لطلبة المرحلة الجامعية الأولى بالقدر الكافي. وهذا أمر مفهوم في ضوء ما يتميز به هذا الحقل من خصوصية، فنجد أساتذته المختلفين يدرسونه بطرائق مختلفة. والحقيقة أن الأسباب التي دعتني إلى وضع هذا الكتاب هي نفسها الأسباب التي تدعو كثيرًا من الأكاديميين إلى وضع كتب دراسية؛ فلم أستطع العثور على كتاب من الكتب الموجودة حاليًا يغطي في مجلد واحد جميع المواضيع التي أرغب التطرق إليها. وعلى وجه التحديد، أردت وضع كتابٍ يتصف بالصفات التالية: (أ) أن يقدم تعريفًا عريضًا لعلم النفس السياسي ويتضمن أعمالًا لعلماء نفس وباحثين ممن يتناولون موضوعات سياسية في الأصل - سواء أعدّوا أنفسهم «علماء نفس سياسي» أم لا، (ب) يتناول الإرثيْن الموقفي والنزوعي في علم النفس على قدم المساواة، (ج) يتضمن مقدمة عامة تشتمل على أداة تنظيمية واضحة تكون ذات فائدة لأغراض التدريس. وها هو ذا الكتاب الذي بحثت عنه. وإني لآمل، بطبيعة الحال، أن يفي بالأغراض التي وضع من أجلها ليس لي فحسب، وإنما للآخرين كذلك. وآمل أن يُقنع الآخرين الذين يدرسون مساقات في هذا المجال أن يضمّنوا مساقاتهم جانبًا، في الأقل، من الموضوعات التي يتناولها هذا الكتاب مما لا يغطونه في العادة. وآمل أن يكون هذا الكتاب ذو فائدة ككتاب دراسي مدخلي للمتخصصين بالسلوك السياسي للجماهير، وللمهتمين بدراسة القادة والنخبة في إطار العلاقات الدولية والسياسة الخارجية؛ فكثيرًا ما يعمل أتباع هذين «المعسكرين» في علم النفس السياسي بمعزل عن بعضهما، ولكنني آمل أن ينجح هذا الكتاب في جذب المتخصصين من كلا الطرفين.

لقد حظيت بمساعدة العديد من الناس أثناء كتابتي لهذا الكتاب، وأود أن أخص منهم بعرفاني أنّا كارول، ومايكل كيرنز، وسارة فيليبس وإليزابث رينير من دار راوتلدج للنشر (Routledge): ولقد شجعني مايكل بوجه خاص لمتابعة هذا المشروع حين كان مجرد فكرة خام ملحقة برسالة بريد إلكتروني، كما أخص أنّا وإليزابث خبيرتا التحرير اللتين أسهمتا في تحسين المخطوطة إلى حد يصعب تقديره. كذلك فقد أسهم العديد من المراجعين (غير المسمّيين) بمقترحات ثمينة أدخلتها الكتاب لما وجدت فيها من فائدة. أما ماركو لاكوبوني (Marco Lacoboni) من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس (UCLA)، وجفري بدويل (Jeff Bedwell) من جامعة وسط فلوريدا (UCF) فقد زوّداني أفكارًا قيّمة للفصل الحادي عشر الذي تناول علم الأعصاب، وهو موضوع جديد بالنسبة إلي في معظمه، إذ لم يكن لدى كثير من علماء النفس السياسي في الوقت الذي حصلت فيه على الدكتوراه سوى لمحة إلى الموضوع، هذا إذا ما كان لديهم أي معرفة به على الإطلاق. وكان جيف كريمًا بوجه خاص وقام بمراجعة مسودة أولية من ذلك الفصل، وصحح بعناية بالغة بعض مفاهيمي الخاطئة فيه. كما أن دايفد بيرل (David Pearl) من جامعة ولاية واشنطن ساهم في إثارة اهتمامي بموضوع علم الأعصاب من حيث المبدأ، وأتقدم إليه بالشكر على دفعي إلى الاطّلاع على آخر التطورات في طرائق القياس العصبي التي يدرسها طلبة الدراسات العليا في علم النفس السياسي في الوقت الحاضر. وكان لستيفن دايسون (Stephen Dyson)، أحد طلبتي القدماء في جامعة إيسيكس والذي يعمل أستاذًا مساعدًا الآن في جامعة كنوكتيكوت، دورٌ مماثل في إطلاعي على آخر المستجدات في تحليل عقيدة صانع القرار، وله بدوره أتقدم ببالغ الشكر أيضًا.

وقد قمت بتجريب المسودات الأولى للكتاب على طلبتي في مساق علم النفس السياسي في جامعة وسط فلوريدا (UCF)، والشكر موصول لكل واحد منهم على خدمتهم لي في تجريب أفكاري ومسوداتي الأولى. وأخص منهم بالشكر أولئك الذين قدموا لي الاقتراحات، والنصائح، والتشجيع على مدى الطريق، حتى لو اقتصرت مساعدتهم على تصحيح أخطاء طباعية، وتصحيح عناوين العروض التلفزيونية التي وثقتها في هذا الكتاب! وهؤلاء الطلبة هم

(بالترتيب الأبجدي): داشيا أندرسون، وفريدريك آير، وبريندان بايرن، ومايكل كرانو، وترافيس داوري، وليسي فتزباترك، وماغي فاندورا، وديل غرينشتاين، وباتريك هاينز، وكيني كلامبر، وبينيت ليسمان، ودايفد ماكفرن، وجنفياف نابوليتانو، وكمبرلي سويفت. وإني على يقين أنكم جميعًا ستنجزون إنجازات عظيمة في حياتكم.

وما كان لهذا الكتاب أن يرى النور، كسابقيه، لولا الحب والتشجيع المتواصلين اللذين لقيتهما من والديّ. كما كان من المستحيل متابعة تعليمي العالي لولا إنقاذهما المتكرر لي من السحوبات البنكية التي تجاوزت الرصيد مرارًا على مدى الطريق، فلهما مني الشكر على ذلك أيضًا. وفي نهاية المطاف يتيح لك إنجاز كتاب قضاء مزيد من الوقت مع العائلة، بعد إهمالك الطويل لهم، وأنت موصد الباب على نفسك في غرفة تنقر مفاتيح كمبيوتر. فأشكر زوجتي أنّابيل، وابنتي إيزابيل وابني كارلوس على حبهم وصبرهم، وخصوصًا أنّابيل التي تولت ترفيه الأطفال في ديزني وورلد، واستوديوهات يونيفيرسال بينما كان الوالد ملازمًا البيت يكتب، ويأخذ قيلولة بين الفقرات، ويأخذ كأسًا من المارغريتا أحيانًا لعله يأتي بشيء من الإلهام. آملًا أن تتحسن تكنيكات الأبوة لدي من الآن فصاعدًا.

أورلاندو، فلوريدا

نيسان/أبريل 2008



1
المخطط المفهومي لهذا الكتاب

إن الصور لا تكذب، فهؤلاء جنود أميركيون، رجال ونساء، يضحكون ويشيرون إلى الأعضاء التناسلية لسجناء عراقيين عراة ومذعورين. وهذه صورة أخرى لرجل عراقي جُرِّد من ملابسه ورُبِط من عنقه برسن كالكلب، منبطح على الأرض أمام سجانته. وهذا سجين آخر يظهر واقفًا على صندوق، رأسه مغطى بكيس ورق، وجسمه مربوط بأسلاك تظهر من تحت معطف [على الطراز الأميركي الجنوبي]. هذه الصور لم تصدر عن دعاية معادية وإنما هي صور حقيقية تكشف فظائع ارتكبها أميركيون على أرض الواقع[1].

صُدِم العالم في بداية عام 2004 بالصور المقززة التي نشرتها **النيويوركر** (*The New Yorker*)، وبثتها شبكة سي بي أس (CBS) الأميركية في برنامج «ستون دقيقة 2» والتي أظهرت التعذيب والإهانة اللتين تعرض لهما موقوفون عراقيون على أيدي جنود أميركيين في سجن «أبو غريب» السيىء الصيت. ومن سخرية القدر أن يكون هذا السجن نفسه قد استخدم لسنين عديدة من دكتاتور العراق السابق صدام حسين لحبس كل من احتسبه عدوًا محتملاً له أو تهديدًا لسلطته، وقد تعرّض عدد لا يحصى من العراقيين في ذلك السجن للتعذيب المبرح

(1) Craig Whitney, «Introduction,» in: Steven Strasser, ed., *The Abu Ghraib Investigations*, The Official Reports of the Independent Panel and Pentagon on the shocking Prisoner Abuse in Iraq (New York: Public Affairs, 2004), p.3.

أو الإعدام الفوري. وها هم الآن ممثلو الولايات المتحدة، محررو العراق المفترضون ينتهكون حقوق الإنسان ويصورون فظائعهم في فيلم. ولعل ما فعلته هذه الصور أكثر من أي شيء آخر، هو أنها قوّضت شرعية أميركا في العراق منذ البداية. وبعد العديد من التحقيقات التي اقتصرت على المراتب الدنيا من سلم السلطة، جرى إخضاع سبعة أفراد للمحاكمة بشأن الانتهاكات التي ارتُكبت في سجن «أبو غريب».

وقد تصدّى عالم النفس الاجتماعي فيليب زمباردو (Philip Zimbardo) في كتابه الرائع **تأثير الشيطان** (*The Lucifer Effect*) لتفسير ما جرى في «أبو غريب» - حيث قام حراس سجن عاديون (أسوياء نفسيًا) بتعذيب سجناء عراقيين وإهانتهم - فقال إن ما جرى لم يكن ناتجًا عن خصائص أو نزعات شخصية كامنة لدى الأفراد الذين ارتكبوا تلك الأفعال، وإنما كان ناتجًا عن تأثير القوى الموقفية العصيبة التي واجهتهم[2]. وعبر عن موقفه في هذا الصدد قائلًا: «إنني صُدمت ولكني لم أُفاجأ»، وذلك بعد أن تفجرت الفضيحة في أيار/مايو من عام 2004، وانتشرت صور الإساءة المأساوية للسجناء عبر التلفزيون والإنترنت. ويضيف زمباردو:

«لقد سألت وسائل الإعلام كما سأل «رجل الشارع» كيف استطاع أولئك الرجال والنساء السبعة ارتكاب مثل هذه الأفعال المشينة، أولئك الذين وصفهم قادتهم العسكريون بأنهم «جنود قذرون» أو «بضع تفاحات فاسدة». أما أنا فقد سألت بالمقابل عن الظروف التي أحاطت بتلك الوحدة في زنزانات السجن فقلبت الموازين، وقادت حتى جنودًا صالحين إلى أن يرتكبوا مثل هذه الأفعال القبيحة. ولا بد هنا من تأكيد أن التحليل الموقفي لمثل هذه الجرائم لا يجيزها أو يجعلها مقبولة أخلاقيًا، غير أني كنت بحاجة إلى أن أجد معنى لهذا الجنون. أردت أن أفهم كيف يمكن أن يحدث تحوّل في شخصيات هؤلاء الشبان في فترة وجيزة ويؤدي بهم إلى القيام بهذه الأفعال التي لا يمكن تصورها»[3].

---

(2) Philip Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil* (New York: Random House, 2007).

(3) المصدر نفسه، ص 19.

إن تمييز زمباردو بين «التفاحة» و«الصندوق» يساعدنا على شرح ما نقصده بمصطلحَي الموقفية (situationism) والنزوعية (dispositionism)، وسيكون للتمييز بينهما أهمية خاصة في هذا الكتاب برمته. فهل كان السبب وراء أحداث «أبو غريب» المروّعة يعود إلى «التفاحات الفاسدة» أم إلى الصندوق الذي احتواها وحوّلها إلى تفاحات فاسدة؟ وتُعرّف الموقفية في هذا الكتاب كمقاربة (an approach) أو مدخل لفهم السلوك الإنساني تُعتبر فيه البيئة، أو الموقف المحيط بالفرد - أو «الصندوق» وفق مصطلح زمباردو - أكثر أهمية في تكوين سلوك الفرد من نزعاته أو شخصيته؛ أما النزوعية فتُعرّف أنها المقاربة التي تُعتبر فيها شخصية الفرد وما لديه من اعتقادات وقيم - أو «التفاحة» بحسب تعبير زمباردو - أكثر أهمية في هذا المضمار. ويمكننا النظر إلى السلوك على أنه حدث إما أن يكون مدفوعًا بأسباب داخلية (نزعات) وإما بأسباب خارجية (مواقف)، وإما بمزيج من هذين النوعين من الأسباب بطبيعة الحال. وضمن دائرة الأسباب الموقفية هناك أشكال متنوعة من الأسباب الخارجية التي يمكن أن تؤثر في السلوك - تُراوح بين الموقع الذي تحتله الدولة في النظام الدولي أي [أسباب بعيدة غير مباشرة] والأدوار الاجتماعية المحددة التي نقوم بها في حياتنا اليومية [أسباب قريبة أكثر مباشَرة]. وضمن نطاق المقاربة النزوعية هناك وجهات نظر متنوعة عن ماهية الأسباب التي تقف وراء سلوك الأفراد، تشمل بدورها البنى المعرفية [أو الأفكار] التي يحملونها في أذهانهم، واعتقاداتهم، وشخصياتهم، وما إلى ذلك. ولكننا سنعتمد هذا التمييز البسيط [بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية] لشرح نظريات نفسية متنوعة ذات صلة بالسياسة، والمقابلة بينها، ثم نُبيِّن كيف يمكننا تفسير عدد من الظواهر بناء على هذه النظريات، أي ظواهر من مثل: الإبادة الجماعية، والسلوك الانتخابي، والتعصب العنصري، والصراع بين الدول، وأشكال متنوعة أخرى من السلوك السياسي.

ولقد كانت فكرة التمييز بين العوامل النزوعية والعوامل الموقفية بوصفها قوى فاعلة في السلوك الإنساني فكرة محورية في علم النفس الاجتماعي ولا تزال، ويأخذ بها كبار الباحثين في هذا المجال في الوقت الحاضر[4]. وفي حين

(4) Lee Ross and Richard Nisbett, *The Person and the Situation: Perspectives of Social Psychology* (Philadelphia, PA: Temple University Press, 1991).

يأخـذ العديـد مـن علمـاء النفـس الاجتماعـي الجانـب الموقفـي مـن هـذا الجـدل، فـإن معظمنـا، بالمقابـل، نزوعيـون بالفطـرة؛ إذ إننـا نميـل إلـى ظـن أن مـا نحملـه مـن اعتقـادات بشـأن العالـم، ومـا نحـن عليـه مـن شـخصية يؤثـر تأثيـرًا جذريًـا فـي سـلوكنا. كمـا أن نُظمنـا السياسـية والقانونيـة تنطـوي بدورهـا علـى هـذا الافتـراض وتُحمِّلنـا المسـؤولية الرئيسـة عمـا نقـوم بـه مـن أفعـال[5]. ونحـن بذلـك ننقلـب علـى وجهـة النظـر الغالبـة فـي علـم النفـس الاجتماعـي، والتـي تؤكـد أن الموقـف الـذي نواجهـه (أينمـا نكـون) يؤثـر فـي سـلوكنا تأثيـرًا يفـوق تأثيـر خصائصنـا الشـخصية فـي كثيـر مـن الأحيـان، وإلـى حـد أكبـر ممـا يمكننـا تصـوره. ومـن هنـا، فإننـا نميـل إلـى اعتقـاد أن سـلوكنا السياسـي مـن قبيـل: لمـن ندلـي بأصواتنـا، ومـا الشـكل الـذي تتخـذه مشـاركتنا السياسـية، ومـا مـدى تسـامحنا أو تحملنـا للاختـلاف، ومـا إلـى ذلـك مـن أشـكال السـلوك السياسـي نميـل إلـى اعتقـاد أنهـا يتكـوّن بفعـل مـا نحـن عليـه مـن خصائـص. فهـل هـذا صحيـح؟ هـذا هـو السـؤال المحـوري الـذي يطرحـه الكتـاب الـذي بيـن أيدينـا والقضيـة التـي تـدور حولهـا موضوعاتـه.

ومن الأهمية بمكان أن نشـير هنا إلى أن التمييز بين الفرد ومحيطه يظهر عمليًا في المجالات العلمية التي تحلل السـلوك الاجتماعي جميعها. ففي العلوم السياسـية، وفي فرع العلاقـات الدوليـة على وجـه الخصوص، هنـاك تمييز بين «مسـتويات التحليـل» (levels of analysis) أو بيـن «الفاعلين/الـوكلاء» (agents) أو «البُنـى»[6] (structures). كما أن **نظرية العلاقـات الدوليـة** تفصل بين النزوعيين (وخصوصًا أولئك الذين يدرسـون الجوانب النفسـية لصناعـة القـرار فـي السياسـة الخارجيـة) والموقفييـن (ومـن ضمنهـم الواقعيـون المحدثون مثـل كينيث والتـز (Kenneth Waltz)، والليبراليـون الجدد مثل روبـرت كيوهاين (Robert

(5) *The Person and the Situation: Perspectives of Social Psychology*, p. 320.

(6) على سبيل المثال، انظر: Kenneth Waltz, *Man, The State and War: A Theoretical Analysis*, Topical Studies in International Relations (New York: Columbia University Press, 1959); J. David Singer, «The Level-of-Analysis Problem in International Relations,» *World Politics*, vol. 14, no. 1 (October 1961), pp. 77-92; Alexander Wendt, «The Agent-Structure Problem in International Relations Theory,» *International Organization*, vol. 41, no. 3 (Summer 1987), pp. 335-370, and Martin Hollis and Steve Smith, *Explaining and Understanding International Relations* (New York: Oxford University Press, 1991).

(Keohane). ومـع أننـا نجـد نظريـات موقفيـة فـي مجـال تحليـل السياسـة الخارجيـة، إلا أن معظمهـا خـرج مـن نظريـة التنظيمـات (organizational theory) وليـس مـن علـم النفـس الاجتماعـي[7]. وفي مجـال الاقتصاد ثمة تمييز شـائع بيـن الاقتصاد الكلـي والاقتصاد الجزئـي (macro and micro economics) (إذ يشـير الثانـي إلـى اقتصاديـات الأعمـال أو المؤسسـات الفرديـة ويشـير الأول إلـى اقتصـاد الدولـة الكلـي). كمـا أن هنـاك جـدلًا مماثلًا فـي علـم الاجتمـاع والتاريـخ ومجـالات أخـرى بيـن مـن يعتقـدون أن الأفـراد هـم الذيـن يصنعـون الأحـداث، ومـن يعتقـدون أن القـوى الموقفيـة هـي صاحبـة الأثـر الأقـوى فـي صناعـة الأحداث.

وممـا تجـدر ملاحظته أيضًا أن علم النفس السياسـي اسـتند إلى الجانـب النزوعي من الميـدان الأم الـذي خـرج منـه، وهـو ميـدان علـم النفـس، إلـى حد صـارخ. ووفـق ملاحظة روز مكديرمـوت (Rose McDermott)، فـإن جانبًـا كبيـرًا مـن علم النفس السياسـي يعمل علـى المسـتوى الفـردي مـن التحليـل (the individual level of analysis) - بحسـب التعريـف التقليـدي لـه كمجـال أكاديمـي في الأقـل - أي إنـه نزوعي من حيث إنـه يفترض أن الأفـراد «عناصـر فاعلـه» وأن سـلوكهم يعـود إلى فـروق فـي اعتقاداتهم وشـخصياتهم[8]، علـى الرغـم مـن أن كثيـرًا مـن بحـوث علـم النفـس الاجتماعـي تتسـق مـع الموقفيـة أكثر ممـا تتسـق مـع النزوعيـة. ولـم يكـن للبحـوث التـي اسـتقصت دور المواقـف الاجتماعيـة فـي تكويـن السـلوك أثـر فـي علـم النفـس السياسـي بمقـدار مـا كان للفرويديـة (نسـبة إلـى فرويـد) وعلـم النفـس المعرفـي (اللذيـن يدرسـان العقـل الإنسـاني وإن كان بطرائـق مختلفـة). فضـلًا عـن ذلـك، فـإن أدبيـات علـم النفـس السياسـي لا تعتـرف بـأن بحـوث علمـاء نفـس اجتماعـي، مـن مثـل سـتانلي ملغـرام (Stanley Milgram) وفيليـب زمبـاردو (Philip Zimbardo)، بـكل مـا تحملـه مـن منطويـات سياسـية عميقـة، تبتعـد جذريًـا عن

---

(7) Graham Allison and Philip Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Misssile Crisis*, 2nd ed. (New York: Longman, 1999).

الاستثناء الأساس لهذا هو كتاب **التفكير الجمعي** الذي يبني على التراث الغني لعلم النفس الاجتماعي. وسنتناول هذا العمل في الفصل السادس من هذا الكتاب.

(8) Rose McDermott, *Political Psychology and International Relations,* Analytical Perspectives on Politics (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2004), p.3.

النزوعيـة، أي عـن الفكـرة القائلـة إن الخصائـص الفرديـة تـؤدي الـدور الحاسـم فـي تكوين السـلوك. والأسـباب القائمـة وراء واقـع الحـال هـذا غيـر واضحـة، ولكننا سـنفرد نصف هذا الكتـاب تقريبًـا للنظـر فـي الحجـج التـي يقدمهـا كبـار الموقفييـن لتفسـير مظاهر أساسـية مـن مظاهر للسـلوك السياسـي.

ما هو السلوك السياسي؟

أمـا وأن هـذا الكتـاب يتناول السـلوك السياسـي موضوعًـا لـه فلا بد لنا مـن أن نوضح المقصـود بهـذا المصطلـح منـذ البداية؛ فالسـلوك السياسـي فـي تعريفه الواسـع يشـير إلى أي نشـاط يرمـي إلـى تحقيـق غايـة سياسـية، ويشـمل ذلـك نطاقًـا واسـعًا مـن النشـاطات السياسـية التـي يزاولهـا البشـر، مـن السـلوك المتطـرف كالإرهـاب والحـرب إلـى السـلوك العـادي المألـوف كالتصويـت فـي الانتخابـات. ويتضمـن كذلك صنـع القرار - على مسـتوى الأفـراد المصوتيـن، وعلـى مسـتوى النخبة فـي الحكومة - وما يتعدى ذلك. وتشـمل دراسـة السـلوك السياسـي البحـث في أسـئلة متنوعة مـن مثل «لـمَ ينشـأ التعصب؟»، «لمَ يشـارك البشـر فـي الإبادة الجماعيـة؟»، «ما الذي يحدد اختيـارات الأفراد الانتخابيـة؟» و«لمَ تذهب الـدول إلـى الحـرب؟» وسـترى لاحقًـا أن هنـاك طرائـق مختلفـة للإجابة عـن هذه الأسـئلة. إذ إن بعـض هـذه الطرائـق يتبـع المنطـق الاقتصـادي مفترضًا أن البشـر مخلوقـات عقلانية أساسًـا، تـزن المرابـح والتكاليـف للأفعـال المختلفـة المتاحة لها، وتقـرر ما تفعلـه في ضوء ذلـك. فـي حيـن أن بعضهـا الآخـر يتبـع المنطـق الاجتماعـي المسـتوحى مـن ميدان علـم الاجتمـاع والـذي يضـع الجماعـة (وأهدافها) فـي بؤرة اهتمامه [ويفسـر السـلوك السياسـي فـي ضـوء اعتبـارات اجتماعية]. لذا، فـإن علماء النفس السياسـي لا يقدمون سـوى منظومة واحـدة مـن الإجابـات عـن مثـل هـذه الأسـئلة، ولكن هـذا الكتـاب يرمـي إلـى التحقق من مدى قـوة إجاباتهم.

ما الذي يحدد سلوكنا؟

تشـير سـوزان فسـك (Susan Fiske) وشـيلي تايلـر (Shelley Taylor) (الباحثتـان البارزتـان فـي علـم النفـس الاجتماعـي) إلـى أن مـن الصعـب عمليًـا أن نحـدد إذا

كان سلوك شخص ما يعود إلى الموقف الخارجي [الذي يواجهه] أم إلى نزعاته الداخلية [أو الشخصية]. وتقدمان المثال المعبر الآتي: «إذا كانت «بث» شخصًا لئيمًا وعدوانيًا مع الآخرين لأن أختها كانت تضربها وهي صغيرة»، وتتساءلان: «هل السبب في سلوكها الحالي داخلي أم خارجي؟»(9) [أي هل يعود إلى نزعة لؤم وعدوانية لديها، أم إلى الظروف التي مرت بها؟] إن معظم الطلبة المتميزين الذين علمتهم يدركون آخر الأمر، وبعد أن يدرسوا الإطار النظري الذي سنعرضه في هذا الكتاب، أن المرء لن يعدم الحجة إذا رأى أن كل شيء تقريبًا يتحدد موقفيًا في نهاية المطاف. وبعبارة أخرى، إن اعتقاداتنا المعرفية، أو الأطر الذهنية التي نفهم العالم من خلالها، ما هي إلا نتاج خبرة. وكثير من نزعاتنا، إن لم يكن جميع نزعاتنا، إنما تنتج من مواقف عشناها أو مررنا بها. وبالعودة إلى مثال فسك وتايلر، يمكننا اعتبار سلوك «بث» موقفيًا لأن سلوكها الحاضر يعود إلى ظروف واجهتها في الماضي.

من هنا، فإن الموقفية تفترض أن البيئة هي كل شيء وأنها المحدد الرئيس لسلوك البشر. وللدفاع عن النزوعية نقول إن هذه الحجة تستبعد احتمال أن نكون مُعدِّين جينيًا لنسلك بطرائق معينة، ربما نتيجة لآليات التطور التي أتاحت لنا فرصة البقاء كنوع. وإذا كان الحال كذلك، فإننا نكون قد وُلدنا ونحن نحمل في داخلنا نزعات معينة، وتاليًا فإن نزعاتنا هذه هي التي تحدد سلوكنا. وربما يكون من الغباوة أن ننكر الطبيعة الإنسانية، ونتعامل مع الأفراد كأنهم يولدون «صفحات بيضاء فارغة»(10). وكنوع آخر من الدفاع عن النزوعية، نقول إن الأفراد المختلفين يستجيبون للموقف الخارجي الواحد بطرائق مختلفة، فما هو ذلك الشيء في داخلنا الذي يكوّن هذا الاختلاف في السلوك؟ لكن مؤيدًا للموقفية قد يجيب بأن هؤلاء الأفراد المختلفين تعرضوا في الماضي لمواقف مختلفة، وأن تلك المواقف هي التي كوّنت نزعاتهم المختلفة، واستجاباتهم المختلفة

---

(9) Susan Fiske and Shelley Taylor, *Social Cognition,* Topics in Social Psychology (Reading, MA: Addison-Wesley, 1984), p. 92.

(10) Steven Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature* (New York: Viking Press, 2002).

تاليًـا. وهكـذا، نسـتطيع الرجـوع إلى الـوراء بهـذه الطريقـة لنتتبع قصة السـببية إلـى ما لا نهايـة، وهـو ما يسـمى في العلـوم الاجتماعيـة «الرجـوع غيـر المتناهـي» (infinite regression)، مـن حيـث إننا نسـتطيع الاسـتمرار بالعودة إلـى الوراء عبـر التاريخ، لتتبع أسـباب الأسـباب بعيـدًا عبر الزمـن تتبعًا غيـر متناهٍ.

وسـوف نناقـش هذه الإشـكالية باسـتفاضة في الفصـل الأخير مـن هذا الكتـاب، ولكننا سـنبدأ بنظـرة عامـة مختصـرة لوضـع الفصـول اللاحقـة فـي إطـار مناسـب. وبطبيعـة الحال، لا بـد لأي قصـة جيـدة مـن أن تبـدأ مـن نقطة مـا، لأسـباب عملية بحتـة؛ فنحن لا نسـتطيع أن نسـتحضر تاريـخ البشـرية كلـه لتفسـير حادثـة معينـة. فحـرب فيتنـام وقعت فـي جانب منهـا نتيجة للـدروس التي تعلمناها مـن الحرب العالمية الثانية، على سـبيل المثـال. والحرب العالميـة الثانيـة وقعـت بدورهـا نتيجـة لـردود فعـل القـادة الأوروبييـن للحـرب العالميـة الأولـى. والحـرب العالميـة الأولـى وقعـت جزئيًـا نتيجـة لسـوء الفهم بيـن القـوى الكبرى في تلـك الحقبة، وهكـذا دواليـك. ويذكرني هـذا الموضوع بفيلم كوميـدي يدعى «الطائـرة (2)» (Airplane 2) يـدور حـول طائـرة مفقـودة، فيطلـب مـن راصد جـوّي يدعى «جاكـوب» أن يقدم تقريـرًا موجـزًا عن مصيـر الطائرة. وأصدر إليه رئيسـه تعليمات قال فيها: «أريـد أن أعرف كل مـا حـدث حتـى الآن بالتفصيل التـام». فيقوم جاكـوب بإعطاء إجابـة غريبة يقـول فيها: «في البدايـة بـردت الأرض، ثـم ظهرت الديناصـورات، ولكنها كانـت كبيرة جدًا فماتـت، وتعفن كل شـيء وتحول إلى بترول واشـترى العرب سـيارات المرسـيدس بنز...» وتابع على هذا المنوال.

هـذه إجابـة صحيحـة على نحـو مـا - فمجـيء الديناصـورات واختفاؤها ربمـا يكونان ذوَي صلـة إذا رغـب المـرء فـي استكشـاف التاريـخ السـببي الكامـل لـكل مـا حـدث حتـى نقطـة معينـة مـن تاريـخ البشـرية. أمـا الفكاهة فـي إجابـة الممثـل (جاكـوب) فتكمن في أنهـا تخالـف معيـارًا اجتماعيًـا نتبعـه عندمـا نقـدم تفسـيرًا لحـدث مـا؛ إذ إننا نأخـذ الكثير مـن الأشـياء كمسـلّمات ونقتحـم سلسـلة الأسـباب عنـد نقطـة معينـة مـن دون تفكيـر في الأسـباب البعيـدة، آخذيـن الأسـباب المباشـرة أو القريبة بالحسـبان دون سـواها.

وعلـى أي حـال، هنـاك «منطقـة رماديـة» بيـن مفهـوم النزوعيـة ومفهـوم الموقفيـة. فكمـا أشـرنا فـي مـا سـبق، يمكننـا تصنيـف أي نظريـة نزوعيـة علـى أنهـا نظريـة موقفيـة مـن حيـث إن نزعاتنـا تتكـوّن جزئيًـا مـن خـلال المواقـف التـي نخبرهـا فـي خـلال حياتنا. غيـر أن هنـاك نقطتيـن هامتيـن لا بـد مـن الإشـارة إليهمـا هنـا: **أولاهمـا** أننا عندمـا نصف نظريـة مـا بالنزوعيـة فإننـا نقصـد أن النزعـات تؤثـر فـي السـلوك كعامـل مباشـر/قريب العهـد، فعلى سـبيل المثال، علـى الرغم من أن انتماءنـا الحزبي أو اتجاهاتنا نحو اسـتخدام القـوة العسـكرية ربمـا تكـون قـد تكوّنـت أصلًا بفعـل مواقـف، فإنهـا تصبح نزعـات دائمة لا تتغيـر كثيـرًا مـن انتخـاب إلـى انتخـاب أو مـن حرب إلـى حـرب. **ثانيًـا** - ولعلهـا النقطة الأكثـر أهميـة - وهـي أن معظـم المقاربـات النزوعيـة تفتـرض أن الأفـراد يختلفـون فـي ردود أفعالهـم نحـو المواقـف، فالـدروس التـي اسـتقاها كولن باول مـن حرب فيتنـام، مثلًا، تختلـف عـن الـدروس التـي اسـتقاها سـايروس فانـس أو جيمـي كارتـر، لأن الناس كثيـرًا ما يكوّنـون اتجاهـات واعتقـادات مختلفـة بنـاء علـى موقـف خارجـي واحـد بعينه.

وإضافـة إلـى «المنطقـة الرماديـة» بيـن النزوعيـة والموقفيـة، هنـاك أشـكال مختلفة مـن كل منهمـا، فضمـن المدرسـة النزوعية، على سـبيل المثـال، هناك معسـكران على الأقل يتفقـان علـى أن نزعاتنـا الأساسـية (وليس المواقـف التي نواجههـا) هي التي توجه سـلوكنا، إلا أن أحدهمـا يـرى أن كلًا منـا يحمـل نزعـات مختلفـة عـن الآخـر؛ فبعضنا يحمـل اعتقاد (س) والآخـر يحمـل اعتقاد (ص)، وهذه النزعات تقود إلى سـلوكيات مختلفة [والإشـارة هنا إلـى النزعـات التـي تكـوّن الفـروق الفرديـة بيننا. أمـا المعسـكر النزوعـي الثانـي، بالمقابل، فيأخذنـا إلـى مسـتوى أعلى من التجريـد ويقول إننا جميعًا كبشـر نحمل النزعات المسـبقة نفسـها [والإشـارة هنـا إلـى النزعـات الموروثـة العامـة لدينـا]. ومـن أتبـاع هـذا المعسـكر مثـلًا هانـز مورغنثـاو (Morgenthau)، الواقعـي الكلاسـيكي (الـذي كان يحمل نظرة سـوداء إلى الطبيعـة الإنسـانية، معتمـدًا علـى إرث هوبـز (Hobbes) ومكيافيلـي (Machiavelli))، وقد رأى أن اسـتمرار الحـروب عبـر التاريـخ يمكـن أن يُعـزى إلـى الطبيعـة الإنسـانية (أي إلـى نزعـات دائمـة لـدى البشـر جميعًـا، بكل بسـاطة).

وبالمثـل، تـرى المقاربـات البيولوجيـة - السياسـية (biopolitical approaches) أننـا نولـد جميعًـا بتركيـب جينـي يحمـل فـي بنيتـه نزعـات معينـة - علـى الرغـم مـن أن العديد من هـذه المقاربـات يتصـور النزعـات الإنسـانية علـى نحـو مخالـف جذريًـا لتصـور مورغنثـاو وأتباعـه. ويعتقـد أصحـاب هذه الاتجاهـات أن عمليـات التطـور والانتقـاء الطبيعي ضمنت وجـود نزعـات لدينـا عنـد الولادة حتـى لا نأتـي «كصفحـات بيضاء فارغـة»، ونكون فريسـة للقـوى الموقفيـة تدفعنـا فـي طريقهـا حيـث تشـاء. ولأننـا سـنتعرض فـي الفصـول اللاحقة مـن هـذا الكتـاب للمقاربـات البيوسياسـية سـيكون من المفيـد أن نوضـح للقارئ لـمَ نضع هـذه المقاربـات تحـت المظلـة النزوعيـة لا المظلـة الموقفية.

وهنـاك أنواع مختلفة مـن المقاربات الموقفية كذلك كما سـيرى القـارئ لاحقًا؛ بعضها يتنـاول الضغوط المباشـرة التـى تواجهها الجماعة فـي **مواقف اتخاذ القرار**، كما في دراسـات ظاهـرة التفكيـر الجمعـي (groupthink)، والتـي سـتتم مناقشـتها فـي الفصل السـادس. وبعضها الآخـر يتنـاول الأشـكال المباشـرة وغيـر المباشـرة مـن الضغـوط الاجتماعيـة التـي تؤثـر فـي السـلوك فـي **المواقـف التي يتلقـى فيها الفـرد تعليمـات أو أوامـر**، والتي تظهر فـي تجارب ملغـرام فـي الطاعـة، حيـث تعمـل هـذه الضغـوط، إضافـة إلـى قـوى السـلطة، وغيـر ذلـك مـن المعاييـر الاجتماعيـة علـى توجيـه سـلوك الفـرد - وهو ما سـنتناوله فـي الفصـل الرابع. وهنـاك مناح موقفيـة تتناول **التأثيـرات الخفية لـلأدوار الاجتماعية** كالتي ظهـرت في تجارب فيليـب زمبـاردو فـي جامعة سـتانفورد، حيـث عملت الأفـكار الشـائعة عن السـلوك المتوقع اجتماعيًـا من حراس السـجن والمسـاجين علـى التأثير فـي الأفراد الذيـن قاموا بهـذه الأدوار فـي تجاربـه، وهو ما سـنتناوله فـي الفصـل الخامس. وبوجـه عام، يمكـن أن يشـير الموقف إلـى السـياق الاجتماعـي المباشـر الذي يتعامـل معه الفـرد، أو إلـى جماعة ينتمـي إليها في مجـال العمـل، أو إلـى الجماعـات التي تكـوّن هوياتنـا داخل المجتمـع، أو إلى عوامل الشـد والجـذب فـي التحالفـات التي نطورها تجـاه أمتنـا ودولتنا. وكما سـنرى في الفصل السـادس عشـر، هنـاك منظـورات موقفيـة مُغاليـة فـي موقفيتها، مثـل منظور كينيـث والتز الـذي رأى أن الـدول تسـتجيب حصريًا وفق الأدوار المرسـومة لها فـي النظام الدولي. وهـو بذلك يمثل المنطق «الموقفـي المفرط».

ولـن تُقـام في هذا الكتـاب أي محاولـة لحل الجـدل القائم بيـن الموقفيـة والنزوعية حـلًا تامًـا، حتـى فصـل الختام في الأقل. والسـبب فـي ذلك يعـود جزئيًا إلى هـدف الكاتب مـن وضـع كتـاب مـن هـذا النـوع؛ إذ إن هناك أسـلوبان فـي التدريـس من حيث الأسـاس؛ أسـلوب يعـرض فيـه المدرسـون تصورهـم عـن العالـم ويتوقعـون مـن طلبتهـم تقبلـه، بعد أن يُشـبع أولئـك المدرسـون رغبتهـم فـي نسـف وجهـات نظـر الطلبـة (فـي مـا لـو اجترأوا علـى البـوح بهـا)، مسـتخدمين مهـارات معـدّة مُسـبقًا تدربـوا عليهـا وشـذبوها كفـن رفيـع عبر السـنين. ولا شـك فـي أن النبرة التي تصبغ العبارات السـابقة سـتدعوك إلـى اعتقاد أن المؤلـف سـيدعي أنـه مـن النـوع الثاني مـن المدرسـين الـذى يعرض علـى طلبتـه وجهات النظـر المتعارضـة ويتـرك لهـم حريـة الاختيـار بينهـا. وثمـة سـببان للانحيـاز إلـى الاتجـاه الثانـي: **أولهمـا** يعـود إلـى أن تدريـس السياسـة يجـب أن يتسـم بدرجـة مـن التواضع على الـدوام لأنـه ليـس هنـاك جـواب قاطـع للعديـد مـن القضايـا فـي هـذا المجـال، وكل مـن يدعي أنه اكتشـف «قوانين» السـلوك السياسـي يجب ألا يؤخذ بجديـة. و**ثانيهما**، أن مؤلف هـذا الكتـاب لا يـزال فـي عمر يسـتطيع معـه أن يتذكـر كلا الأسـلوبين وأنه وجد الأسـلوب الأول منفـرًا عندمـا كان الطـرف المتلقـي للتعليـم (خصوصًا عندمـا كان يخالـف وجهة نظر المـدرس بشـأن العالـم، والتـي عـادةً ما تكـون نظرة غايـة في الوضـوح ولا تحتمل جـدلًا!).

وفـي حيـن أننا قد لا نسـتطيع حـل اللغز الـذي يطرحه هـذا الكتاب حـلًا نهائيًا على الأرجـح، فـإن واحـدًا مـن أهدافـه الرئيسـة هـو تشـجيعك علـى التفكيـر بعمق وأنـت تقرأ فصولـه المتعاقبـة عندمـا يعـرض حالـة ممثلـة لوجهـة نظـر أو أخـرى فـي تفسـير السـلوك السياسـي. وكمـا سـترى وأنـت تقـرأ هـذا الكتـاب، فـإن الفصـول اللاحقـة منظمـة حـول التوجهيـن الموقفـي والنزوعـي، مـع أن الفصـول الأخيـرة قصـدت أن تدفعك برفـق في هذا الاتجـاه أو ذاك - مـن دون أن ترغمـك أبـدًا علـى أخذ أي منهمـا. وبعد قراءة هـذا الكتاب قـد تسـتطيع أن تقـرر مـا إذا كنـت موقفيًـا أم نزوعيًـا؛ أو أن تتبنـى منحًـى يدمجهمـا معًا، بنـاء علـى مجـال السـلوك السياسـي الذي تحـاول تفسـيره ربما. والأمـر يعود لـك، أو «أنت مـن يقـرر»، كما درجـت إحـدى وكالات الأخبار البـارزة في الولايـات المتحـدة أن تقول في مثـل هـذه الحالة.

تنظيم الكتاب

إذا ما أخذنا بالفكرة القائلة إن الأفراد بوصفهم أشخاصًا لهم أهمية في صنع السياسة فعلًا، وإن المواقف لا تحدد استجابات الأفراد لها بالكامل، فإن السؤال المطروح هنا هو «ما مدى - ومتى تبرز - أهمية كل منهما؟» يرى المتأثرون بعلم النفس الاجتماعي أن العوامل الفردية أقل أهمية من الضغوط الاجتماعية وبنية الموقف المحيط. وبالمقابل، فإن أولئك المتأثرين بعلم النفس المعرفي، وبالإرث الأقدم لعلم النفس التحليلي أو السيكوديناميي، يتبنون الحجة المضادة. وبوجه عام، فإن **علماء النفس** الذين يبحثون في المسائل السياسية يميلون إلى المقاربة الأولى، أما **علماء السياسة** فإنهم يبنون على النظريات النفسية التي تميل إلى المقاربة الثانية.

والتمييز الأساس بين العوامل الفردية والعوامل الموقفية الذي نعتمده هنا، يضع لنا الأساس التنظيمي لهذا الكتاب. إذ إننا سنقوم في الباب الأول بفحص مناح متنوعة من المقاربات القائمة على علم النفس الاجتماعي والتي تؤكد أهمية الموقف قياسًا بدور الأفراد وخصائصهم في توجيه السلوك. وسنبدأ بالتحليل الموقفي الأكبر المتمثل بالسلوكية (behaviourism). فقد كان لهذه المقاربة تأثير خاص في علم النفس السياسي في خلال الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، عندما انتقلت بؤرة الاهتمام في كل من علم النفس وعلم السياسة، بتأثير المد السلوكي، بعيدًا عن دراسة العقل واتجهت إلى التركيز على المفهوم «الأصلح علميًا» وهو مفهوم السلوك. ولدى البحث في أفكار ب. ف. سكنر (B. F. Skinner) في الفصل الثالث سنبحث وجهة نظره القائلة إن الدول تحسن صنعًا إذا عملت على إشراط مواطنيها [أي تعلمهم بالثواب والعقاب] على الأخذ بالسلوك «المرغوب فيه اجتماعيًا» وتجعلهم أفضل حالًا.

أما الفصل الرابع فيتناول موضوع الطاعة وتجارب ستانلي ملغرام في هذا الموضوع، ولعلها أبرع ما أُجري من تجارب في علم النفس (وإن كان بعضهم يصفها بالتجارب السيئة الصيت). وقد كان لأعمال ملغرام هذه تأثير كبير في فهمنا للطاعة (obedience) السياسية في إطار البنى التراتيبية للسلطة. ولكن علينا

أن نلاحـظ أن نتائـج تجـارب ملغـرام تبعـث علـى القلـق لأنهـا توحـي أن معظمنـا - وليـس جميعنـا - قـادر علـى ارتـكاب أفعـال تخالـف معتقداتـه الأخلاقيـة، حيـن يتـم تشـجيع هـذه الأفعـال مـن سـلطة يراهـا سـلطة شـرعية. وسـنحاول فـي الفصـل الرابـع أيضًـا أن نفسـر، ولـو بصـورة أوليـة، ظاهـرة الإبـادة الجماعيـة، مـع تركيـز خـاص، وليـس حصريًـا، علـى المحرقـة النازيـة فـي الثلاثينيـات. وفـي الفصـل اللاحـق سـنضع تحـت المجهـر تجربـة مناظـرة - فـي البراعـة والإثـارة - لتجربـة ملغـرام هـي تجربـة فيليـب زمبـاردو، أو تجربـة سـتانفورد الشـهيرة التـي درس فيهـا سـلوك «السـجناء» و«السـجانين»، وسـيكون التركيـز هنـا علـى متطلبـات الموقـف، وكيـف أن الأدوار المحـددة اجتماعيًـا يمكـن أن تكـوّن سـلوكنا. كمـا سـيتم البنـاء علـى تجربـة زمبـاردو فـي الفصـل الخامـس لإلقـاء الضـوء علـى فضيحـة «أبـو غريـب».

أمـا الفصـل السـادس، وهو الفصـل الأخير من هذا البـاب فيبحث في سـلوك الجماعة (group behavior)، ويتنـاول بوجـه خـاص أعمـال إيرفنـغ جانيـس (Irving Janis) عـن كيفيـة تغيـر سـلوك الفرد اسـتجابة لضغـوط الجماعة. ويزعم جانيس فـي كتابه الشـهير **التفكير الجمعي** (*groupthink*) أن الضغـوط الاجتماعيـة المختلفـة التـي يتعـرض لهـا الفـرد فـي جماعـات صنع القـرار قـد تُكبِّـل أذكى الأذكيـاء. ويضيف جانيـس أن هذا الأمر قـد يؤدي إلى نتائـج كارثية يكـون بالإمـكان تجنبهـا لـو أن أفـرادًا عملـوا علـى المهمـات الموكولـة إلـى الجماعـة علـى انفـراد وأنعمـوا النظر في البُـدَلاء العديـدة المتاحة[11]. وسـنكرس هنا انتباهًـا خاصًا لاثنتين مـن دراسـات الحالـة (Case studies) رأى جانيس أنهمـا توضحان ظاهرة التفكيـر الجمعي على أفضـل وجـه، وهمـا حملـة خليـج الخنازيـر عـام 1961، وقـرار «أمركـة» الحرب فـي فيتنام. كمـا نتنـاول فـي هـذا السـياق النقـد الذي يوجـه إلـى مقاربـة جانيـس هـذه، والمنظورات الأكثـر حداثـة التي تحلـل عملية صنـع القـرار الجماعي.

أمـا البـاب الثانـي، وهـو البـاب المخصـص لوجهـة النظـر النزوعيـة، فيبحـث فـي النظريـات النفسـية القائمـة علـى أسـاس فـردي. ولا بـد مـن القـول هنـا إن وجهـة

(11) Irving Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, 2nd ed. (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1982).

النظر هـذه كان لها ولا يـزال تأثيـر أكبـر فـي علـم النفـس السياسـي مـن وجهـة النظر الأولـى [أي وجهـة النظـر الموقفيـة]، سـواء أكان هـذا التأثيـر مبـررًا أم غيـر مبـرر. وربمـا يعـود ذلـك إلـى أنهـا تضـع الفـرد فـي موقـع أكثـر أهميـة مـن الموقـع الـذي تضعـه فيـه المقاربـات الأخـرى التـي ناقشـناها حتـى الآن.

وكمـا سـنرى فـي الفصـل السـابع كان للمقاربات القائمـة علـى التحليل النفسـي تأثير مبكـر فـي تطـور علـم النفس السياسـي بوصفه حقـلًا علميًـا قائمًا بذاتـه. فقد تركـت أعمال سـيغموند فرويـد وأتباعـه بصمـة قويـة علـى هـذا الحقـل فـي بدايـة تشـكله، ويعـود ذلـك جزئيًـا إلـى أن علـم النفس السياسـي تأسـس فـي زمن كانـت فيه النظريـات السـيكودينامية (التـي تركـز علـى الدوافـع المحركـة للسـلوك) فـي أوج شـعبيتها. وكان مـن الطبيعـي حينئذٍ أن تأخـذ الشـخصيات المؤثـرة في حقل علـم النفس السياسـي - ومن أبرزها تشـارلز ميريام (Charles Merriam) وهارولـد لاسـويل (Harold Lasswell) - بالمقاربـات الفرويديـة الطابـع وتدخلهـا فـي دراسـة السياسة.

وقـد أنتجـت الصبغـة التحليليـة - النفسـية التي طبعـت العلـوم السياسـية إذاك تراثًا كامـلًا يعـرف بالسـيرة النفسـية (Psychobiography) أو التاريـخ النفسـي (Psychohistory). هـذا، ولا نـزال نشـعر بتأثيـرات التحليل النفسـي في علـم النفس السياسـي حتـى الآن. ويعتبر كتاب **ودرو ولسـون والكولونيـل هـاوس** لمؤلفيْـه ألكسـندر جـورج وجولييـت جـورج (Alexander George And Juliette George)، وكتـاب **لينـدون جونسـون والحلم الأميركي** لمؤلفته دوريس كيرنز غودويـن (Doris Kearns Goodwin) عمليـن نموذجييـن فـي هـذا الفـرع مـن فـروع علـم النفس السياسـي. ويؤكـد نمـوذج السِـيَر النفسـية أن خبـرات الطفولـة تـؤدي دورًا حاسـمًا فـي تطـور الشـخصية مسـتقبلًا وفـي أدائهـا السياسـي[12]. فقـد ذهـب جـورج وجـورج - مثـلًا - متأثريـن بأسـتاذهم فـي جامعـة شـيكاغو، هارولـد لاسـويل (الـذي رأى أن السـلوك السياسـي ينطـوي جزئيًـا علـى عمليـة إحـلال (displacement) للصراعـات الخاصـة أو الشـخصية علـى الحيـاة العامـة)، ذهبـا إلـى القـول إن تصلـب ودرو ولسـون فـي قضايـا

(12) Alexander L. George and Juliette L. George, *Woodrow Wilson and Colonel House*: *A Personality Study* (New York: Dover Publications, 1956), and Doris Kearns Goodwin, *Lyndon Johnson and the American Dream* (New York: Harper and Row, 1976).

هامة كموقفه من إقرار معاهدة عصبة الأمم، إنما يمثل تعويضًا للميل المفترض لدى والده، الدكتور جوزيف ولسون، إلى حرمان ابنه الدفء والمكافآت العاطفية. وسنبحث في الفصل السابع هذا أعمالًا كلاسيكية من السير النفسية، وغيرها مما هو أكثر إثارة للجدل، وإن كان أكثر حداثة من غيره من الإسهامات في هذا التراث.

إن مصطلح «الشخصية» مصطلح محيِّر جرى استخدامه في أدب العلوم السياسية بطرق مختلفة، وهو يُستخدم أحيانًا كمصطلح يختصر جميع الخصائص الشخصية للفرد بما في ذلك ما يحمله من اعتقادات. ومما له صله بهذا المجال كتاب جيمس دايفد باربر (James David Barber) **الشخصية الرئاسية**. وعلى الرغم من كل ما تعرضت له هذه الدراسة من نقد، تظل مثيرة للتفكير في الشخصية الرئاسية. والكتاب عمل رائد في مجال السِيَر النفسية المقارن، وكان له من التأثير ما يجعل خلو أي كتاب في علم النفس السياسي من الإشارة إليه صعب التصور[13]. وسيجري بحث هذا العمل المقارن للسير النفسية مع غيره من نظريات الشخصية في الفصل الثامن، آخذين في الاعتبار نقاط القوة ونقاط الضعف في هذا النوع من التحليل. ومع مرور الوقت أخذت مناحٍ جديدة تحتل بؤرة الاهتمام - بدل المفاهيم الفضفاضة من مثل مفهوم الشخصية - تقوم على دراسة اعتقادات القادة، وأبرزها ما يعرف بِـ «تحليل عقيدة صانع القرار» (operational code analysis)، وهو ما تمت تغطيته في الفصل الثامن أيضًا.

أما الفصل التاسع، فيتناول ما يسمى «الثورة المعرفية» لفترة الثمانينيات والتسعينيات، وهي الحركة التي عمدت إلى طمس آثار المقاربات الفرويدية الطابع وإن ظلت تحافظ على منطلق نزوعي في الأساس، ونقلت بؤرة الاهتمام إلى البنى المعرفية القائمة في الذاكرة الإنسانية وكيفية تأثيرها في تكوين السلوك، حيث ينظر إلى السكيمات [أو المخططات المعرفية الأولية] (schemas) والنصوص/السيناريوهات (scripts)، والمماثَلات /التشبيهات (analogies) وغيرها

(13) James David Barber, *The Presidential Character: Predicting Performance in the White House* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1985).

كـ «لبنـات البنـاء» المكونـة للعقل الإنسـاني، والتـي تؤثـر بدورها تأثيـرًا جذريًا فـي كيفية معالجتنـا للمعلومـات. وانطلاقًـا مـن هذا المنظـور تنامـى اعتقاد أن البشـر «بخـلاء معرفيًا» (cognitive misers) يسـتخدمون طرائـق مختصـرة، وموجهات ذهنيـة [أو قواعد مبنية على الخبـرة العمليـة] (heuristics) حيـن يتخـذون القـرارات، علـى الرغـم مـن أن هـذا الاقتصاد المعرفـي قـد يكـون ضروريًـا فـي عالـم نتعـرض فيـه لوابـل متواصـل مـن المعلومـات، هـو يعـرّض تفكيرنا لأشـكال متعـددة مـن المخاطر.

ولا بـد مـن ملاحظة أن البشـر لا يتلقـون المعلومات بسـلبية، ولا يقومـون بمعالجتها بحياديـة، أو يُجـرون العمليـات الذهنيـة بتجـرد، وهو مـا يصطلح علـى تسـميته بالعمليات المعرفيـة «البـاردة»، إذ إنهـم يتأثـرون أيضًا بعمليات «سـاخنة» كالغضب، والحـب، والحزن، ومـا إلـى ذلـك. لكـن الحمـاس الزائد لـدى علمـاء النفـس السياسـي للتركيـز علـى المظاهر المعرفيـة الباردة، وخصوصًا لدى الذين عملوا في مجال سـلوك النخبة وسـلوك الجمهور في خـلال الثمانينيـات والتسـعينيات، قاد لاحقًـا إلى تركيـز تعويضي على العاطفـة والانفعالات، وهـذا مـا سـيتم تناولـه فـي الفصـل العاشـر. وعلـى الرغـم مـن المشـكلات الكثيـرة التـي تكتنـف دراسـة الانفعـال دراسـة دقيقـة، فإننـا سـنبحث فـي الفصـل الحـادي عشـر إحـدى الطرائـق التـي تمثّـل (ربمـا) خطوة إلـى الأمام في هـذا المجال مـع نظرة عامـة إلى بعض التطـورات الحديثـة جـدًا والمثيـرة للاهتمـام فـي دراسـة علـم الأعصـاب (neuroscience). إذ يبـدو أن هـذه الدراسـة تعِـد بتطـورات علـى صعيـد المقاربـات النظريـة ذات الصلـة بالسياسـة، إضافـة إلـى أنهـا تعِـد بتطوير طرائـق جديـدة لفحص الفرضيـات - القديـم منها والجديـد. فنحـن نشـهد الآن تطـورًا فـي علـم النفـس السياسـي يمكـن أن نسـميه «علـم الأعصـاب السياسـي» (political neuroscience) تُسـتخدم فيـه تكنيـكات متقدمة من مثل التصويـر الوظيفـي بالرنيـن المغناطيسـي (functional magnetic resonance imaging) (FMRI). وقـد دخلـت تكنيـكات التصويـر المتقدمـة هـذه فـي دراسـة سـلوك التصويت، علـى سـبيل المثـال، لفحـص الانفعـالات التـي يستشـعرها المقترعـون عندمـا ينظـرون إلـى مثيـرات سياسـية (Political Stimuli) كالدعايـات الانتخابيـة.

أما الباب الثالث والأخير، والذي يشمل الفصول من 12 إلى 17، فهو أكثر إمبيريقية [من حيث إنه يتناول ظواهر خضعت للدراسة العلمية القائمة على الأدلة الملاحَظة]. وسنحاول فيه جمع الموقفية والنزوعية معًا، ولو بصورة أولية، ثم نقوم باستخدام هذه الوسيلة المفهومية لتصنيف النظريات التي حاولت تفسير الظواهر المدروسة. فالفصل الخامس عشر مثلًا يسأل إذا كان بالإمكان اعتبار مرتكبي الأعمال الإرهابية أفرادًا «أسوياء» نفسيًا؟ من حيث إن كثيرين يفترضون أن الإرهابيين لا بد من أن يكونوا غير أسوياء، على نحو ما، أو حتى مختلين عقليًا. ولكن البحوث الحديثة عن سيكولوجية السلوك الإرهابي التى أجراها جون هورغان، وأندرو سيلك (John Horgan and Andrew Silke) وآخرون، أسقطت هذه النظرية الشائعة من الاعتبار إلى حد بعيد. كما أن محاولات اكتشاف «الشخصية الإرهابية» أو (وسم جميع الإرهابيين بسمات غير سوية كالنرجسية) قد باءت جميعها بالفشل. لذا، فإنه لم يبق لنا سوى الاستنتاج الذي خرج به ملغرام لتفسير الإبادة الجماعية، وهو أن الناس العاديين يمكن أن يرتكبوا أفعال عنف متطرفة في ظروف معينة. والفصل الخامس عشر يتناول البحوث التي تردّ الإرهاب إلى قوى موقفية وخصوصًا ما يتصل منها بآليات سلوك الجماعة. كما أننا سنفحص في الباب الثالث نظريات القومية والصراع العرقي، والعنصرية وعدم التسامح السياسي، وسلوك الانتخاب، والأمن الدولي، ونسأل في كل حالة عما إذا كانت المقاربة الموقفية تقدم التفسير الأفضل للسلوك موضوع البحث أم المقاربة النزوعية. وأخيرًا، نختتم نقاشنا في الفصل السابع عشر باقتراح طرائق نستطيع بها دمج الموقفية والنزوعية معًا، ومناقشة الاستنتاجات المحتملة التي يمكن الخروج بها.

قوة الموقف

ربما سيكون من الصعب عليك أن تتخيل ما سندعوك إلى تخيله، لكن حاول، ففي ذلك اختبار لقدرتك على التخيل من جهة، وقدرتك على التعاطف من جهة أخرى. تخيل أنك شاب ألماني ترعرع في فترة الثلاثينيات ورأى طوال حياته صورًا تُظهر اليهود على أنهم جشعون، وفاسقون، وأنانيون، وبشكل كان

يبـدو لـك مقنعًـا. نشـأت وأنـت تضحـك علـى أفـلام كرتـون تصـور اليهـود بشـعين، بُدنًـا، ومعقوفـي الأنـوف، ورأيـت رفاقـك فـي المدرسـة يضحكـون علـى أشـياء مـن هـذا القبيـل. إضافـة إلـى ذلـك جـرت تنشـئتك اجتماعيًـا لتشـعر بالنفـور مـن اليهـود، وكبقيـة أصدقائـك تنظـر إلـى اليهـود بوصفهـم أشـخاصًا قذريـن، وضيعيـن، وحتـى أدنـى مـن البشـر. وهم لا يطابقـون صـورة «الألمانـي النموذجـي» ولا يشـبهون فـي شـيء الصـورة النمطيـة للأشـقر، المفتـول العضـلات التـي تعلمـت أن تحملهـا فـي ذهنـك للشـخص الآري النموذجـي. ثـم تلتحـق بالشـبيبة الهتلريـة لأنـه ينبغـي لك ذلـك، من ناحيـة، ولأنـك تتعاطف مـع الموقف أو الوضـع الوطنـي المحيـط بـك مـن ناحيـة أخـرى. وبعـد هـذا وذاك ليـس أمامـك وجهـة نظـر أخـرى، فالجميـع يفكـرون بالطريقـة ذاتهـا، أو هكـذا يبـدو.

غيـر أنـك ربمـا لا تكـون مقتنعًـا فـي قرارة نفسـك بتلـك المحـاولات المهينـة لتجريد البشـر مـن إنسـانيتهم. وربمـا لا يكـون لديـك اهتمـام خـاص باليهـود أو قـد يكـون لديـك بعـض الجيـران والأصدقـاء منهـم. صحيـح أنهـم يمارسـون شـعائر دينيـة مختلفـة ويتبعـون تقاليـد مختلفـة، ويرتـدي بعضهـم ملابـس غريبـة الشـكل تعطيهـم مظهـرًا مختلفًـا عـن مظهـرك، ولكنـك لا تجـد ذلـك شـيئًا مسـتهجنًا. وربمـا أنـتَ لـم تـولِ ممارسـاتهم الثقافيـة المختلفـة هـذه كثيـرًا مـن التفكيـر. وفـي الوقـت ذاتـه أنـت تـرى نفسـك شـخصًا حميـد الأخـلاق، يحمـل قيمًـا دينيـة حقـة، وتقـول لنفسـك لا شـيء يمكـن أن يقـودك إلـى إيـذاء غيـرك مـن البشـر مـا لـم يكـن ذلـك ضروريًـا للدفـاع عـن النفس.

ثـم تنشـب الحـرب العالميـة الثانيـة، ويتـم تجنيـدك فـي الجيـش الألمانـي، ويتبيّـن لـك أنـك لـن تذهـب إلـى الجبهـة الروسـية، فتشـعر بكثيـر مـن الارتيـاح. وعوضًـا مـن ذلـك تُكلـف جمـعَ الأسـرى اليهـود وعائلاتهـم فـي قطـارات والإشـراف عليهـم. أمـا القطـار الـذي تتولـى أمـر الإشـراف عليـه اليـوم فهـو قطـار متجـه إلـى منطقـة تدعـى داتخـاو (Dachau)، وأثنـاء تأديتـك لهـذه المهمـة تـرى العديـد مـن اليهـود يبكـون وهـم يقـادون إلـى القطـارات - غالبيتهـم مـن النسـاء والأطفـال - ولكنـك تـرى بعـض الرجـال يبكـون كذلـك، وتـرى أمهـات يناديـن أطفالهـن، وأزواجًـا ينـادون زوجاتهـم. يضايقـك هـذا الأمـر فـي البدايـة، ولكنـك تشـعر بالضجـر ونفـاذ الصبـر بعـد حيـن،

ويداخلـك شـعور كأنـك منفصـل عـن نفسـك. ولكن لديـك عمل يجـب أن تؤديـه، ومع أنك تعـرف أن هـؤلاء النـاس يسـاقون إلى حتفهم لكنك لسـت مـن يقتلهم. أنت مجرد سـن في عجلـة، جـزء صغير من عملية كبيرة خارجة عن سـيطرتك. لا ينتابك الإحسـاس بالمسـؤولية، مـع أن العمـل الـذي تقـوم بـه عمـل بغيـض. لديـك قائمـة مـن الأسـماء ومهمتـك أن تنفذ عمليـة نقلهـم، وتضبـط سـير القطـارات فـي الوقـت المحـدد. لـم يسـاورك عصيـان الأوامر الموجهـة إليـك فـي أي حـال، ففـي نهايـة الأمر أنـت جندي تـدرّب علـى تنفيـذ التعليمات التـي يكلِّفك بها الرؤسـاء.

ربمـا يكـون تخيـل السـيناريو التالـي أسـهل قليـلًا مـن سـابقه، فأنـت أميركـي تعيش فـي نيويـورك بعد الحـرب العالمية الثانية بعشـرين سـنة، تشـاهد حلقة معادة مـن برنامج «Tonight's Show» لجونـي كارسـون ثـم تسـمع صوت امرأة تصرخ في الشـارع فجـأة، فنيويورك مدينـة مجنونـة، إلا أن شـيئًا مـا فـي صرخـات هـذه المـرأة يبـدو حقيقيًا جـدًا (لا هـذاءً)، يائسًـا، كمـا يبـدو صادقًـا، الأمـر الـذي يسـتثير فضولـك إلـى حـد كبيـر فتتـرك التلفزيـون وتنظـر من نافذة شـقتك إلـى الخارج فتشـاهد امرأة تتعـرض لهجوم، يطاردها شـخص يبدو مخبـولًا، يمسـك بها ويطعنها بسـكين مرارًا فتسـقط علـى الأرض. لا تصدق ما تـرى، ولكنك تلاحـظ أن هنـاك أشـخاصًا آخريـن يشـاهدون مـا يجـري، بعضهم يقـف على سـلّم الحريق فـي الخـارج، والعديـد منهـم يخرجـون رؤوسـهم مـن الشـبابيك ويتابعـون المشـهد. لديـك هاتـف فـي شـقتك فهـل تطلـب الشـرطة؟ تفكر فـي الأمـر قليـلًا، ولكن مـا يدهشـك، ربما أنـت قبـل أي شـخص آخر، أن تجد نفسـك عائـدًا لمتابعـة البرنامـج التلفزيونـي. فهناك في نهايـة الأمـر أنـاس آخـرون شـاهدوا مـا حـدث، ولا بـد أن أحـدًا منهـم قـد اتصل بالشـرطة. تشـعر بالاضطـراب لما حـدث، ولكنك فـي الحقيقة لا تقوم بفعل شـيء. وتجـد صعوبة في الخلـود إلـى النـوم تلـك الليلـة، ولكنـك تقنع نفسـك أن شـخصًا ما لا بـد مـن أن يكون قد مـد يـد المسـاعدة إلى تلـك المرأة التعسـة.

أمـا الحـدث الثالث فيجري في أواسـط الثمانينيـات، وأنت تعمل في شـركة مورتون - ثيوكـول (Morton-Thiokol) خبيـرًا فـي ما يدعى «حلقـات O» وهي الأجزاء التـي تربط المكوك بالصـاروخ الـذي يدفعـه فـي الفضـاء، وشـركتك تعمـل مـع وكالـة الفضـاء الأميركيـة (NASA) مقـاولًا فرعيًـا على درجـة كبيرة مـن الأهمية.

وكان مقـررًا أن يجـري إطـلاق مكـوك الفضـاء مـن كيـب كانافـرال فـي غضـون شـهر أو شـهرين، وتشـعر بكثيـر مـن القلـق حيـال ذلـك، لأن المنـاخ فـي فلوريـدا بـارد بشـكل غيـر مألـوف فـي هـذا الوقـت مـن السـنة، وأنـت خبيـر فـي «حلقـات o» علـى درايـة أن هـذه الحلقـات لـم تُختبـر فـي درجـات حـرارة مـن المسـتوى الـذي قـد يُواجهـه المكـوك عنـد الانطـلاق. وتُنـذرك الحسـابات أن حلقـات الوصـل تلـك لـن تثبـت طـوال الرحلـة فـي الفضـاء. وتسـتلقي فـي فراشـك يقظًـا في خـلال الليل تتصـور وقـوع كارثة إذا جـرى إطلاق المكـوك فـي هـذه الدرجة من الحـرارة. وتجمع شـجاعتك أخيرًا لتخبر رئيسـك بما يسـاورك مـن قلـق ولكنـه يخيـب ظنـك، ولا يأبـه لما تقـول، ويـرى أن قلقـك البالـغ بشـأن «حلقات o» يعـود إلـى كونهـا مجـال عملـك لا غيـر، ويحثك علـى عـدم الاهتمـام الزائد بهـا ويقول «انظـر إلـى الصـورة الكليـة للمهمـة». وتحـاول تحذيـر زمـلاء آخريـن، لكـن معظمهـم يـرد علـى تحذيراتـك علـى غـرار رد الرئيـس، قائليـن إن البيانـات العلميـة عـن درجـات الحـرارة غير حاسـمة، حتـى إن أحدهم يقارنك باسـتخفاف بالشـخصية الطفولية الخياليـة «الدجاجة الصغيـرة» (Chicken Little) لا تنفـك عـن الصـراخ محـذرة بـأن «السـماء ستسـقط».

ثـم يجـري تأجيـل إطلاق المكـوك مـرات متتالية في خـلال الأسـابيع القليلـة القادمة، ويتزايـد الشـعور بالإحبـاط لـدى ناسـا ولـدى الشـركة التـي تعمـل بهـا أنـت. ويأتـي اليـوم المشـؤوم إذ يبـدو أن قـرار الإطـلاق غـدا وشـيكًا، فيجـري عقـد مؤتمـر تشـاوري علـى الهاتـف بيـن مسـؤولي مورتـون - ثيوكـول وناسـا. وكانـت ناسـا حريصة علـى المضـي قدمًا فـي إطـلاق المكـوك وكذلـك كان حـال الغالبيـة العظمـى مـن مسـؤولي الشـركة الجالسـين حـول طاولـة المؤتمـر. لكنـك تظـل تشـعر بقلق شـديد بشـأن «حلقـات o» وإمـكان وقوع كارثـة. ويسـأل رئيـس الاجتمـاع الحضـور، هـل نسـير قدمًـا فـي عمليـة الإطـلاق؟ ويجيبون واحـدًا تلـو الآخـر بالإيجـاب. ويسـأل رئيـس الاجتمـاع «هـل يشـعر أحـد مـن الحاضريـن بـأن علينـا تأجيـل إطـلاق المكـوك»؟ الجميـع فـي الشـركة يعلـم علـم اليقيـن أن لديـك تحفظـات شـديدة بهـذا الشـأن، فتسـتدير جميـع العيون نحـوك بخشـية ونفاد صبـر. ولكن شـيئًا مفاجئًـا يجـري فـي داخلـك ولا تنطـق ببنـت شـفة، فـلا تثيـر قضيـة «حلقـات o»، مـع أن الجميـع يتوقـع منـك أن تعـزف عليهـا مـرة أخـرى، وتبقـى صامتًـا. وبهـذا الصمـت

تكـون قـد أعطيـت الموافقـة علـى أمـر تشـعر بأنـه خطـأ، غيـر أن مزيجًـا مـن العوامـل يمنعـك مـن أن تصـرح بمـا تفكـر بـه فيـه حقيقـة الأمـر.

ويجـري إطـلاق المكـوك أخيـرًا مـن مركـز كينيـدي للفضـاء وسـط فلوريـدا، وينظـر مشـاهدو التلفزيـون فـي الولايـات المتحدة وفي أنحـاء العالـم بذهول ورعب إلـى المكوك وهـو يتحـول إلى شـظايا في السـماء. أما فريـق المكوك المؤلـف من سبعة رواد فلم يقتل علـى الفـور، لكنهـم كانـوا فاقـدي الوعـي علـى الأرجح عندمـا ارتطم مـا تبقى مـن المكوك بالمحيـط الأطلسـي. كان يومًـا عصيبًا لكثير مـن الناس داخـل الولايات المتحـدة وفي أنحاء العالـم، لكـن قلـة مـن صنّـاع القـرار فـي ناسـا ومورتـون - ثيوكـول انتابهـم مـا انتابـك مـن مشـاعر عندمـا وجـدت لجنـة لاحقـة أن سـبب الانفجـار يعـود إلى تفـكك إحـدى «حلقات o» فـي صـاروخ الدفـع الأيمـن مـن المكوك، وهـي النكبـة بعينها التـي تنبأت بهـا وحاولت تحذيـر زملائـك مـن وقوعها. لقد كنـت على صواب طـوال الوقـت، فلماذا لم تنطـق بكلمة حيـن أتيحـت لك الفرصـة؟ ربما كان بمقدورك أن تجبر مسـؤولي ناسـا علـى الانتظار ريثما ترتفـع درجـات الحـرارة فـي كيـب كانافـرال، أو ربمـا كان هنـاك شـيء مـا باسـتطاعتك أن تفعلـه، غيـر أنـك فـي ذلك الاجتمـاع الحـرج لم تقل شـيئًا.

أمـا السـيناريو الرابـع فيدعـوك إلـى تخيـل أنـك شـاب أميركـي مـن مدينـة ديربـورن بولايـة ميشـيغن بعـد أيام قليلة مـن هجمات 11 أيلول/سـبتمبر، 2001، وكنت قد شـاهدت الأحـداث المروعـة التـى وقعت فـي ذلك اليـوم علـى التلفزيون وشـعرت بالعجـز والغضب كالعديـد مـن الأميركييـن. ولكـن ذلـك الحدث أثـار لديك رغبة فـي أن تخدم وطنـك للدفاع عنـه ضـد أولئـك الحيوانـات الذيـن ذبحـوا آلاف الأبريـاء فـي ذلـك اليـوم. وتـود أن تفهـم مـا الـذي دفـع أولئـك الإرهابييـن إلى مهاجمـة مركـز التجـارة العالمـي والبنتاغـون، غير أن الحاجـة الملحـة لديـك الآن هـي ضمـان عـدم تكـرار ما حـدث مـرة ثانيـة، تريـد أن تفعل شـيئًا حيـال ذلـك. فتقـوم فـي اليـوم التالـي بالالتحـاق بالجيـش، وفـي خـلال بضعـة أشـهر يتـم إبلاغـك النقـل للخدمـة فـي خليـج غوانتامـو. وبعد سـنة مـن ذلك، تطيـر إلـى العراق ضمـن قـوة الغـزو الأميركيـة الموجـودة هنـاك. فتتصـور نفسـك فـي الطريـق إلـى هنـاك علـى الخـط الأمامـي لمعركـة مصيـر، تحـرر فيهـا الشـعب العراقـي مـن الطاغيـة، السـيِّء

الذكر. ولم ينقض وقت طويل على وصولك حتى أوكلت إليك مهمة مملة لم تتدرب عليها من قبل، ألا وهي حراسة مشتبه فيهم جرى إلقاء القبض عليهم في الحرب ضد القوات الأميركية. ويجري إبلاغك أن هؤلاء يجب ألا يعطوا الحقوق التقليدية للسجناء المنصوص عليها في معاهدات جنيف التي وقّعت عليها الولايات المتحدة عام 1949. كما أن معاملة هؤلاء السجناء يجب ألا تتحدد بمعاهدة الأمم المتحدة ضد التعذيب التي وقّعت الولايات المتحدة عليها كذلك. وللصدق عليك الاعتراف بأنك لا تعرف على وجه التحديد ما هي الحقوق التي ضمنتها هاتان المعاهدتان للسجناء. وللإنصاف علينا أن نؤكد أن هؤلاء الناس أنفسهم لا يحترمون معاهدات جنيف، وهم من النوع الذي يقطع رؤوس سجنائنا ويبث صورهم على الإنترنت، فما الحقوق التي يستحقونها؟ لقد أبلغوك أن هؤلاء الناس هم من القاعدة، حثالة الأرض.

صدرت إليك تعليمات بتطويع هؤلاء «المقاتلين غير الشرعيين» وإخضاعهم لأشكال من التعذيب تحت إشرافك، كحرمان النوم، والسجن الانفرادي، والإذلال الجنسي، والتجريد من الملابس، والتقييد بالسلاسل، والتعرض لموسيقى روك صاخبة، واستخدام الكلاب الشرسة للترويع. وبعد أن تتلقى هذه التعليمات ينتابك تدريجًا شعور بأنك تجتاز حدًا ما؛ فقد بدأتَ هذه المهمة وأنت تشعر بأن ما تقوم به هو عين الصواب، جئت لتحمي بلدك من 9/11 أخرى. وعوضًا عن ذلك أخذ يغالبك شعور بأن ما تقوم به ليس في شيء مما يجب على القوات الأميركية القيام به. هناك عائلات بكاملها في «أبو غريب» - نساءً وأطفالًا - لا يملك العديد منهم أي معلومات استخبارية يمكن أن يفيدوك بها. فتجد نفسك في النهاية تأخذ صورًا لسجناء عراة، على رؤوسهم أكياس ورق، تعرضهم لجلسات تعذيب ساخرة ثم ترسلهم إلى جلسات، تكتشف لاحقًا، أنها جلسات تعذيب حقيقية يقوم بها خبراء مختصون من الاستخبارات. وتسأل نفسك: ما الذي أوصلنا إلى هنا؟ هل هذا ما تعمل الولايات المتحدة من أجله؟ هل هذا ما تعمل أنت شخصيًا من أجله؟

لا بد أنك تعلم، أو تكون قد خمنت أن السيناريوهات السابقة جميعًا تمثل أحداثًا حقيقية وليس فيها حدث واحد من ضرب الخيال. فالمثال الأول

منها، وهـو مثـال الألمانـي الذي تجرد مـن إنسـانيته إزاء محنـة اليهود، مأخوذ فـي نطاقه العـام مـن تفسـير كريسـتوفر براوننـغ (Christopher browning) للهولوكوسـت/المحرقة في كتابه **رجـال عاديـون**، والـذي يزعم فيـه أن التصويـر النمطي لليهـود، وتجريدهـم من إنسـانياتهم، وتصويرهم كشـياطين يسّـر أعمـال القتل الجماعـي التي ارتكبتها الشـرطة الألمانية، وسـاعد فـي جعـل «رجـال عادييـن» يرتكبـون فظائـع لا تخطـر علـى بـال. كذلـك فـإن هـذا المثال مبنـي علـى كتـاب دانيـال غولدهاغـن (Daniel Goldhagen) **جـلادو هتلـر الطوعيـون** المثيـر للجـدل الـذي يزعـم فيه أن العداء الثقافي الواسـع للسـامية كان موجودًا في ألمانيا لسـنين أو حتـى لقـرون قبـل الهولوكوسـت[14]. أمـا المثـال الثاني الـذي يصـور ألمانيًـا لامباليًا يطيع السـلطة بهـدوء، فهـي مبنيـة علـى تفسـير حنـة أرنـدت لسـلوك الموظـف النـازي أدولـف آيخمـان فـي كتابها **آيخمـان فـي القـدس**، ومبنيـة أيضًـا علـى فيلـم عـن الموضـوع نفسـه بعنـوان «المتخصـص». وأخيـرًا، فـإن هذه الصـور مبنية أكثر من أي شـيء آخـر على بحوث عالـم النفـس الاجتماعـي الراحل سـتانلي ملغـرام[15]، وهو الذي قام بوصفه أسـتاذًا مسـاعدًا فـي علـم النفس عـام 1961 بتجربـة بارعة، نناقشـها في الفصـل الرابع، وهـي التجربة التى صنعـت لصاحبهـا مكانـة مهنيـة مرموقـة، وأحاطتـه فـي الوقـت ذاتـه بنقـد ظـل ملازمًـا له بقيـة حياته.

أمـا الهجـوم علـى الشـابة فـي نيويـورك، والمفتـرض أن يكـون حادثًـا متخيـلًا

(14) Christopher Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland* (New York: Harper Collins, 1992), pp. 161-162 esp, and Daniel John Goldhagen, *Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust* (New York: Alfred Knopf, 1996).

يؤكد غولدهاغن، على نحو أكثر راديكالية وإثارة للجدل، من براوننغ أن القتلة في الحقيقة كانوا ساديين متحمسين. انظر: Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil*, pp. 307-311.

(15) Hannah Arendt, *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil* (New York: Viking Press, 1963), and Stanley Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View* (New York: Harper and Row, 1974).

يتّفق براوننغ على أن التجزيء البيروقراطي للعمل المطلوب لتنفيذ خطة القتل في المعسكرات النازية أدى دورًا في تسهيل تلك المهمة على الذين ساهموا فيها. فعندما كان يتمّ النفي «تريبلينكا» لم يكن يجري القتل على يد أشخاص آخرين غير الذين أجلوا المعسكرات وأرغموا اليهود على ركوب قطارات الموت فحسب، بل بعيدًا من أعينهم كذلك. انظر أيضًا: Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland*, p. 163.

أحجـم مشـاهدوه عـن القيـام بـأي فعـل مـن شـأنه أن ينقـذ المـرأة، فهـو حـادث حقيقي تمامًـا، يمثـل جريمـة القتل الشـنيعة التـي تعرضـت لهـا كيتـي جينوفيـز (Kitty Genovese) عام 1964. وقـد ألهـم هـذا الحـادث علمـاء النفـس الاجتماعـي فـي مـا بعـد لإجـراء فيـض مـن البحـوث حـول الظـروف التـى تدفـع الفرد لتقديـم المسـاعدة لمـن يتعرضون أمامـه للخطر أو لأي ضائقـة، أو تدفعـه للاحجـام عن ذلك. وأمـا المعارض [الذي خالـف رأي الأغلبية] ولم يتابـع معارضتـه فـي قضيـة مكـوك الفضـاء - وهـي كارثة تشـالنجر التـي وقعت عـام 1986 - ذلـك هـو روجـر بويزجولـي (Roger Boisjoly)، الموظـف التقنـي في شـركة مورتـون - ثيوكول حينئـذٍ، والـذي أمضى حياته بعد ذلك يحـث الناس على عدم الخضـوع للضغوط الاجتماعية ومتطلبـات السـلطة. وأمـا فضيحـة «أبـو غريـب»، وكما يعلـم الجميع، فهـي واقعيـة بالتمام والكمـال، وتقـوم التفسـيرات الواردة أعـلاه لجذور تلـك الفضيحة على كتاب فيليـب زمباردو (Philip Zimbardo) **تأثيـر الشـيطان** (*The Lucifer Effect*) وتجاربه الشـهيرة في جامعة سـتانفورد عام 1971. كمـا تعتمـد تفسـيرات هذه الفضيحـة أيضًا علـى الفيلم الوثائقـي الرائع «أشـباح أبو غريـب» لروري كينيـدي[16].

وعلـى الرغـم من أن جميـع هذه السـيناريوهات حقيقية، فـإن القليليـن يتوقعون من أنفسـهم أن يقومـوا فعـلًا بمـا طُلب منـك تخيله. فنحـن نرغب أن نكـون من أولئـك الناس الذيـن يـؤوون اليهـود أو أي فئـة أخرى [فـي تلك الظـروف] في بيتنـا، ونرفـض أن تكون لنا يـد فـي ترحيـل أنـاس أبريـاء (ناهيـك بإعدامهـم). ونحن نرغـب أن نكـون من أولئـك الذين يسـتدعون الشـرطة لدى سماع أي إشـارة خطر تحيق بمخلوق خارج مسـاكننا، وبأننا سنقوم بإبـلاغ مسـؤولي ناسـا بشـكل قاطع أن المهمـة المزمـع تنفيذها تتجـه نحو الكارثـة، ونرفض تحـت أي ظـرف من الظـروف إذلال أو تعذيب أحد من الناس. غير أن هنـاك قدرًا كبيرًا من البحـوث فـي علـم النفـس الاجتماعـي توحـي أن الغالبيـة العظمى مـن الناس لن يسـتجيبوا فـي ظروف الحيـاة الواقعية كالتي أشـرنا إليها أعلاه علـى نحو «أخلاقي». فقـد كانت واحدة مـن أبـرز النتائج التي توصـل إليها ملغرام هـي أن معظم الناس، على الرغم من اسـتنكارهم

(16) «Ghosts of Abu Ghraib», (Director Roykennedy, Writer Jack Youngelson, Moxie Fireacker Films, 2007).

الشديد لإمكان التصرف بشكل «غير أخلاقي» إذا ما واجهوا المعضلات المشار إليها هنا افتراضيًا، سيخالفون هذه التوقعات إذا ما وُضعوا في تلك المواقف فعلًا. وبالمثل، يؤكد زميل ملغرام، عالم النفس الاجتماعي فيليب زمباردو أن المواقف التي يجد الناس العاديون الطيبون أنفسهم فيها قد تجعلهم يتصرفون بطرائق غير أخلاقية. وباختصار، بينما يحمل معظمنا قيمًا واعتقادات نفترض أنها تحول دون قيامنا بالأفعال المشار إليها أعلاه، إلا أن قوة الموقف المحيط قد تطغى في أحيان كثيرة على هذه القيم والاعتقادات. وسوف ندعو وجهة النظر هذه بـ «الموقفية» أو «الحتمية الموقفية» (situational determinism).

قوة النزعات

يستخدم روبرت جيرفيز (Robert Jervis)، وهو باحث تطبيقي مشهور في مجال علم النفس السياسي، مثالًا نموذجيًا يوضح علاقة الموقفية بالسلوك السياسي[17]. فيدعوك جيرفيز إلى افتراض أن النيران اشتعلت فجأة في الصف الذي تجلس فيه. وإذا رأيت أن هذا المثال شطحة بعيدة في الخيال، افرض أن أحدًا ألقى بعقب سيجارة مشتعل على الأرض وأن النيران شبت فورًا في السجاد الرخيص القابل للاشتعال[18] في غرفة الصف التي نشغلها وأصبح واضحًا أن الغرفة ستحترق بكل ما فيها، أو أننا سنموت جميعًا من استنشاق الدخان إذا بقينا حيث نحن، فيهرع الجميع إلى الخارج.

هل نحتاج إلى دراسة الأفراد وخصائصهم الخاصة لتفسير السلوك في هذه الحالة؟ الجواب عن ذلك هو لا، على الأرجح. فخصائص الموقف أو بنيته هي التي ستحدد أفعالنا؛ فإذا لم نهرع إلى الخروج، سوف نواجه ميتة شنيعة، وليست في أوانها لمعظمنا. وتقترن المقاربة الموقفية لفهم السلوك الإنساني أحيانًا بافتراض العقلانية الذي يزعم أن السلوك الإنساني يخضع لنظام قابل

---

(17) Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976), pp. 19-21.

(18) إذا كنت تجلس في غرفة صف في جامعة ذات مستوى متوسط، فإن السجاد سيكون زهيد الثمن؛ وقابلًا للاشتعال، على الأرجح.

للتنبـؤ، وفـي هـذه الحالـة، ولأن معظمنـا يـدرك أن مصلحتنـا تقتضـي الحفـاظ علـى الـذات، فإننـا سنسـرع إلـى مغـادرة الغرفـة قبـل أن تلتهمنـا النيـران.

هنـاك بعـض السـيناريوهات فـي الحيـاة الإنسـانية مـا يشـبه مثـال البنايـة المحترقـة، بمعنـى أنهـا لا تتـرك سـوى حيز ضئيـل لحريـة الاختيار، علـى الرغم مـن أنه حتـى في هذا المثـال، هناك متسـع لقـدر من الاختلاف بيـن الأفراد؛ فـإذا كان هناك مخرجـان للغرفة مثلًا، يمكننـا أن نسـأل: مـا هـي الخصائـص النفسـية التـي تحـدد اختيارنـا لواحـد مـن المخرجين دون الآخـر؟ والأكثـر مدعاة للاهتمـام أن بعضنا قد يترك الغرفة بشـكل منظم، بينما يتسـلق بعضنـا الآخـر فـوق زملائهم فـي صـراع محموم للخـروج. فهـل تختفـي الالتزامـات الأخلاقية نحـو الآخريـن فـي التسـابق المذعـور للخـروج، أم مثل هـذا النوع مـن المواقـف يُظهر نبل بعـض منـا؟ وقد يأخـذ بعضنا دورًا قياديًـا (نأمل أن يكون الأسـتاذ في هذه الحالـة)، فيحاول تنظيـم الخـروج، وربمـا يحـاول أيضًـا البحث عـن مطفـأة حريق، أو ربمـا أحـد الطلبة يكون يائسًـا تمامًـا من إمـكان نجاحه فـي تلك المـادة فيختار البقاء فـي الغرفة لوضـع حد نهائي لمحنته.

هـذه مجـرد اعتراضـات أو (مشاكسـات) لا تزعـزع الافتـراض الأسـاس بـأن معظمنـا سيسـرع باتجـاه المخـرج فـي معظم الحـالات. إلا أن واحـدًا من هـذه الاعتراضـات له دلالة خاصـة؛ فمعظـم السـيناريوهات فـي (مجال) السياسـة لا يمكن وصفهـا كـ «بنايـات تحترق» مـن حيـث إنها تتيـح في الغالـب مجالًا أوسـع للاختيـار مما هو متـاح في المثـال المتطرف الـذي قدمنـاه. وينطبـق ذلـك حتى علـى موقـف يتعرض فيـه الأمـن الوطني لتهديـد خطير، ويتفـق جميـع المعنييـن بالأمر علـى أن «البناية تحتـرق» فعلًا. غير أن السياسـة فـي الحياة الواقعيـة لا تنطـوي علـى خيـارات واضحة تمامًـا كما في حالـة الخروج أو عـدم الخروج من غرفـة تحتـرق إلا فـي ما نـدر، إذ إن الموقـف قد يكون غامضًـا إلى حد يختلـف فيه العقلاء علـى الوجهـة التـي يجـب أن تسـير فيهـا الأمـور. ووفقًـا لجيرفيـز، كثيـرًا مـا تظهـر خلافـات عميقـة فـي مجـال السياسـة حول مـا إذا كانـت «الغرفـة تحتـرق أم لا» من حيـث المبدأ.

لننظــر ثانيــة فــي الأمثلــة التــي قدمناهــا فــي الجــزء الأول، والتــي صــورت الحـالات التـي تطغـى فيهـا المواقـف علـى الأفـراد فـي الغالـب. فنحـن نعـرف أنـه

في كثير من هذه الحالات هناك أفراد يتغلبون على الظروف، وليس العكس. ولعل أشهر مثال على ذلك في حالة الهولوكوست هو أوسكار شيندلر (Oscar Schindler) الذي وضع الكاتب الأسترالي توماس كينيلي (Thomas Keneally) قصة حياته في رواية درامية وصورها المخرج السينمائي ستيفن سبيلبرغ (Steven Spielberg) في فيلم «قائمة شيندلر»[19]. ومع أن شيندلر كان رجلًا غير عادي في كثير من الوجوه، وكان رجلًا شجاعًا بامتياز، فإنه لم يكن فريدًا في مخاطرته بحياته لينقذ أناسًا لم يقابلهم في حياته من قبل. هناك من يخاطر بكل شيء تقريبًا ليقوم بإطلاق «صفارة الإنذار» لكشف ما يجرى ارتكابه من أفعال مشينة. مثال ذلك كلايف بونتنغ (Clive Ponting) الذي كان أيضًا يشغل وظيفة متقدمة في الخدمة العامة البريطانية والذي لم يخسر وظيفته فحسب، ولكنه خاطر بالذهاب إلى السجن لأنه كشف لعضو البرلمان العمالي البريطاني تام داليل (Tam Dalyell) أن السفينة الأرجنتينية «جنرال بيلغرانو» كانت خارج «منطقة الحذر» التي حددتها الحكومة البريطانية منطقةَ حرب حول جزر الفوكلاند عام 1982[20]. فقام بونتنغ بتسريب وثائق للنائب العمالي تُبيّن أن السفينة كانت خارج منطقة الحذر، إضافة إلى أنها كانت تُبحر بعيدًا عن تلك المنطقة عندما هاجمتها الغواصة النووية البريطانية وأغرقتها. وكانت الحكومة البريطانية برئاسة مارغريت تاتشر حينئذٍ قد ادعت أن السفينة موجودة داخل منطقة الحظر وأنها تمثّل بذلك تهديدًا لحياة بريطانيين. وقد خضع بونتنغ للمحاكمة في ما بعد، إلا أن المحكمة لم تنجح في إدانته بناء على قانون المملكة المتحدة الخاص بأسرار الدولة - والذي لا يسمح لموظفي الخدمة العامة بإطلاق الصفارة حتى عندما يملكون الدليل على أن الحكومة البريطانية كذبت على الشعب - ولكن مهنته بوصفه موظفًا في الخدمة العامة انتهت طبعًا.

ولننظر أيضًا في فضيحة «أبو غريب» وكيف عرفنا بها. ربما كنا سنعرف بما كان يجري وراء الكواليس في سجن صدام السابق عاجلًا أم آجلًا، نظرًا

(19) الكتاب الأصلي الذي قام عليه الفيلم هو كتاب توماس كينيلي. انظر: Thomas Keneally, *Schindler's Ark* (London: Hodder and Stoughton, 1982).

(20) دخلت بريطانيا والأرجنتين في حرب عام 1982 بعد أن غزت الأرجنتين جزر الفوكلاند/ملفيناس (Malvinas) واحتلتها، ولكنهما حصرتا الصراع في المنطقة المحيطة بالجزر.

إلـى التـداول الواسـع لتلـك «الصـور التذكاريـة» علـى الإنترنـت. لكـن الحقيقـة أن انتشـار الفضيحـة يعـود فـي الجـزء الأكبـر منـه إلـى شـخصين يتمتعـان بشـجاعة اسـتثنائية والتزام أخلاقـي رفيع هما كين ديفيـز (Ken Davis) وجوزيف داربي (Joseph Darby) الموظفان السـابقان فـي القـوات العسـكرية الأميركيـة اللـذان أخرجـا الأمـر على المـلأ لاعتبـارات أخلاقيـة. وقد كان عليهمـا محاربـة البيروقراطيـة العسـكرية التي لم تكـن راغبة في معرفة مـا كان يجري فـي «أبـو غريـب»، وقـد أدى قيامهمـا بالعمـل الصائب إلـى خسـارتهما للمهنة العسـكرية. ولـم يرغـب أحـد مـن المسـؤولين كذلـك فـي أن يسـمع شـكوى ديفيـز أن متهمًـا تعـرض للتعذيـب حتـى الموت فـي «أبـو غريب».

كتـب هارولـد لاسـويل (Harold Lasswell)، أحـد عظمـاء المبدعيـن فـي علـم النفـس السياسـي «إن العلوم السياسـية من دون سِيَر ذاتية هـي نوع من التحنيـط»، ويعني بذلك أن علمـاء السياسـة يُمضـون وقتًـا طويـلًا فـي دراسـة المؤسسـات أو البنى التـي يعمل فيها الأفـراد المعينـون فـي العمـل السياسـي مـن دون دراسـة خصائـص أولئـك الأفراد أنفسـهم. وبعبـارة أخـرى، كثيـرًا ما ندرس القواقـع المحيطة بالسياسـيين ونهمل ما بداخلهـا. وبطبيعة الحـال، فـإن مـا يكمـن داخل تلـك القواقـع هم أفـراد من البشـر، وكمـا أنه ليـس بمقدورنا أن نفهـم سـلوك فيل شـاذ (مثـلًا) بالنظـر إلى نمـوذج فيل موضـوع في متحـف، كما يزعم لاسـويل، فإننـا ولا شـك فـي ذلـك، نكـون بحاجـة إلـى النظـر داخـل المؤسسـات السياسـة، وإلـى مـا فـي داخلهـا مـن كائنات بشـرية واقعيـة كي نفهـم السـلوك السياسـي فهمًـا تامًا. هـذا البديل للموقفيـة سـندعوه النزوعية.

ولقـد تبنـى علـم النفـس السياسـي تقليديًـا هـذه المقاربـة الأخيـرة فـي الغالـب من حيـث إنهـا افترضـت أن للأفـراد الأهميـة القصـوى فـي عالـم السياسـة. وقـد يبـدو هـذا الافتـراض مبنيًـا علـى الفطـرة السـليمة، وكثيـر منـا يـراه مقبـولًا سـلفًا، ويفتـرض معظمنـا كذلـك أن الأفـراد يصنعـون فرقًا فـي العمل السياسـي لأنه قيل لنـا إن هذا الافتراض سـليم، ونـادرًا مـا أوليناه كثيـرًا مـن التفكيـر. غيـر أن هـذا الكتاب سـيظل يشـجعك علـى التفكير بعمـق فـي السـؤال الآتـي: هـل الاعتقـاد السـائد بـأن خصائصنـا الفردية تكـوّن سـلوكنا هو اعتقـاد صحيح؟

وكمثال عملي على النزوعية [ودورها في توجيه السلوك السياسي] دعنا ننظر إلى حالة أُشبعت درسًا وهي أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962، عندما اكتشفت وكالة المخابرات الأميركية (CIA) دليلًا على أن الاتحاد السوفياتي يقوم بتركيب صواريخ بالستية متوسطة المدى في كوبا، وهي صواريخ قادرة على الوصول إلى شيكاغو ونيويورك. ولقد كان الرئيس جون ف. كينيدي ومستشاروه مجمعين على ضرورة القيام بعمل ما إزاء ذلك، ونظر الجميع إلى الأمر على أنه استفزاز سياسي وعسكري غير مقبول يتطلب ردًا[21]. لكن الاتفاق بين الرئيس ومستشاريه لم يتعدَّ هذا الحد، فحتى في هذه الحالة الخطرة كان هناك خلاف بين مستشاري كينيدي في نوع الخطر الذي يتهدد البلاد. فرأت هيئة الأركان المشتركة، مثلًا، أن المشكلة عسكرية من حيث المبدأ، بينما رأى وزير الدفاع روبرت مكنمارا أن التهديد القائم سياسي أو رمزي من حيث المبدأ، وقال: «الصاروخ صاروخ»، وإن الاكتشاف الجديد لم يغير موضوعيًا توازن القوى النووي.

وكان أخطر من ذلك ظهور اختلاف جذري في كيفية التعامل مع الموقف، حيث أراد بعضهم، ومنهم الجنرال كيرتس ليميه، شن ضربة جوية فورية على مواقع الصواريخ السوفياتية، في حين أراد آخرون التفاوض مع الزعيم الكوبي فيديل كاسترو أو رئيس الوزراء السوفياتي وقتئذٍ نيكيتا خروتشوف، بينما أراد فريق ثالث ضرب حصار بحري على الجزيرة دليلًا على الإصرار وصدق العزيمة، وللحيلولة دون وصول شحنات سوفياتية لاحقة. وفي هذه الحالة أجمع الجميع على أن البناية تحترق على نحو ما، ولكنهم اختلفوا في مدى انتشار الحريق، وما ينبغي القيام به لإطفائه.

نستطيع أن نجد نقطة مماثلة بالنظر إلى الموقف الذي واجهه جورج دبليو بوش بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. فقد اتفق معظم المحللين على أنه لم يكن هناك مجال - سواء من الناحية الأخلاقية أم الاستراتيجية أم السياسية - لأي رئيس للولايات المتحدة أن يتقاعس عن الرد على ما فعله

(21) Allison and Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Misssile Crisis.*

انتحاريـو القاعـدة ذلـك اليـوم. ومـع أن «الحـرب على الإرهـاب» بـدت أمرًا لا منـاص منه فـي حينـه، إلا أن «بـوش» صرح لاحقًـا أنه امتلك بـدلاء عدة للـرد حينئذٍ، وهو مـا بدا أكثر وضوحًـا بالتأمـل الاسـترجاعي للأحـداث. وعلـى الرغـم مـن أن معظـم الرؤسـاء، إن لم يكن جميعهـم، كانـوا سـيهاجمون طالبان في أفغانسـتان بشـكل أو بآخر كما فعلـت إدارة بوش، يبـدو مـن غيـر المرجـح، إذا شـئنا أن نفكر بخلاف مـا جرى مـن وقائع، أن الرئيـس آل غور (فـي مـا لـو كان الرئيـس) كان سـيغزو العـراق فـي السـنة التاليـة. ونسـتطيع ملاحظة هذه النقطـة بعينهـا فـي اسـتجابة روزفلـت لقصـف اليابانييـن لبيـرل هاربـر، إذ إنـه كان هنـاك عـدد لا بـأس بـه مـن الانعزالييـن فـي الكونغـرس ممـن رأوا حصـر الضربـات الانتقامية في اليابـان مـن دون الدخـول في حرب واسـعة.

وعلـى الرغـم مـن أن كل واحـدة من هذه الأحـداث - بيـرل هاربر، وأزمـة الصواريخ، والحـادي عشـر مـن أيلول/سـبتمبر - كان لها أثـر مزلزل، إلا أنهـا لا تمثل نموذجًـا للأحداث السياسـية اليوميـة. وهـي تقـف بـارزة فـي التاريـخ لأنهـا تبتعـد عـن نمـوذج الأحـداث السياسـية الرتيبـة المعتـادة، ولكنهـا تكشـف جليًـا حقيقـة أن صانعـي القـرارات يختلفـون حتـى فـي أخطـر الظروف فـي رؤيتهـم للأحـداث، وفي ميلهـم للاسـتجابة لهـا تاليًـا. إضافة إلـى ذلـك، عندمـا نأخـذ بالاعتبـار أحداثًـا أقـل حضـورًا فـي الذاكـرة، وإن كان لا يـزال لهـا دلالـة تاريخية، نجـد مجالًا لتفسـيرات كثيرة محتملة وخيـارات كثيرة كانـت متاحة. فعندما لا نكـون مجبريـن علـى التصـرف بطريقـة معينـة - كمـا فـي حالـة عمـارة تحتـرق - تـزداد قائمـة خياراتنـا اتسـاعًا، وتـزداد معهـا أهميـة حالاتنـا الذهنية والسـيكولوجية.

وبعـد أن قدمنـا الإطـار التنظيمـي لهـذا الكتـاب، أصبـح علينـا أن نوضـح مـا هـو علـم النفـس السياسـي؟ مـا الموضوعـات التـى يشـملها؟ متـى بـدأ طلبـة العلوم السياسـية بالاهتمـام فـي تطبيـق النظريـة النفسـية علـى السـلوك السياسـي؟ كيـف كان يُـدرس علـم النفـس السياسـي فـي الماضـي، ومـا النظريـات النفسـية التـي أثـرت فـي دراسـتنا للظواهر السياسـية؟ هـذه هـي المواضيـع التـي سـنتناولها فـي الفصـل الآتـي.

2

موجز لتاريخ علم النفس السياسي

يمكن تعريف علم النفس السياسي ببساطة على أنه العلم الذي يدرس التفاعل بين السياسة وعلم النفس، وخصوصًا تأثير علم النفس في السياسة. وإذا استطعنا أن نصور السياسة على أنها علم مركزي يحيط به كل شيء ويتصل بكل شيء من حوله - على ما في هذا التصور من ادعاء، يجب أن نعترف، على الرغم من قبول أرسطو إياه - فإننا نستطيع أن نصور العلوم السياسية في رسم بياني على شكل دائرة في المركز محاطة بدوائر متداخلة. المنطقة المتداخلة بين الاقتصاد والسياسة تدعى «الاقتصاد السياسي»، والمنطقة المتداخلة بين الاجتماع والسياسة تدعى «الاجتماع السياسي» وهكذا. أما المنطقة المتداخلة بين الرياضيات والسياسة فقد طورت مصطلحاتها الخاصة، من مثل الخيار العقلاني (rational choice)، النظرية الشكلية (formal theory) أو نظرية اللعبة (game theory)، وهي من حيث الأساس «الرياضيات السياسية».

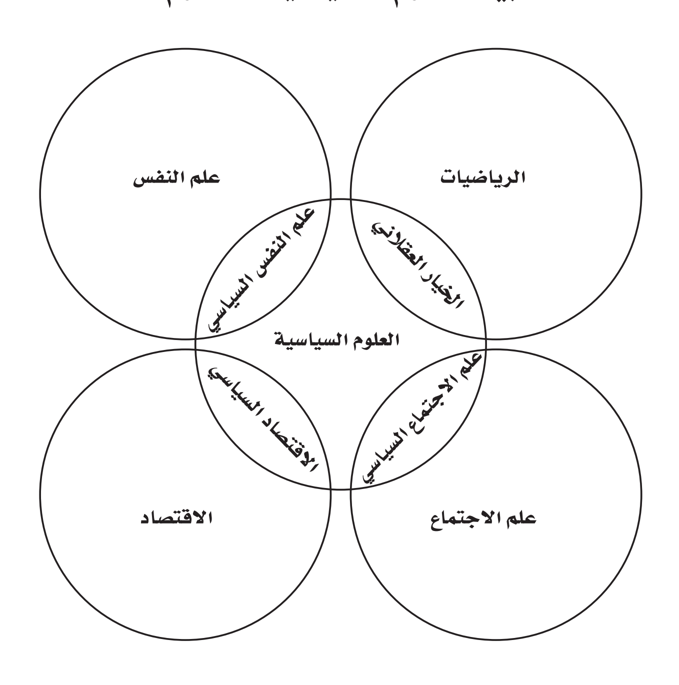
ويمكننا كذلك إضافة التاريخ، والفلسفة، والجغرافيا، والأنثروبولوجيا، وغيرها إلى الشكل الرقم (2-1) - إلا أنني لم أبيِّن التداخل بين الرياضيات والاقتصاد (مثلًا)؛ لأننا غير معنيين بذلك هنا - ولكن لا بد أن الفكرة العامة لما نقصده هنا قد اتضحت. وعلى الرغم من أن العلوم الاجتماعية المختلفة يمكنها طبعًا وضع علوم رئيسة أخرى في المركز، يحمل هذا التصور الذي نطرحه هنا شيئًا من المعنى لمعظم علماء السياسة. ونستطيع تصور علم النفس السياسي

بـكل بسـاطة كجسـر بيـن علميـن. وإذا مـا تجاوزنـا هـذا التعريـف البسـيط ونظرنـا إلـى بعـض الأعـداد السـابقة من المجلـة الأكاديميـة المكرّسـة لهذا المجـال الممتع الـذي يعنينا فـي هـذا الكتـاب - والمعنونـة بحـق علـم النفـس السياسـي - نجـد هنـاك حقـولاً فرعيـة مختلفـة، وتخصصـات مختلفـة داخلـه. لـذا، فإن هنـاك طرائـق مختلفة لتدريس مسـاق في علـم النفس السياسـي.

وضمـن هـذا الميـدان يمكـن التمييـز بيـن فريقيـن، أحدهمـا يهتـم بدراسـة سـلوك الجماهيـر (mass behaviour)، مثـل التصويـت فـي الانتخابـات، وتأثيـر الـرأي العـام علـى السياسـات الحكومـة، ومـا إلـى ذلـك، وفريق آخـر يهتم بدراسـة سـلوك النخبة وكيـف تؤثر وجهـات نظـر النخبـة وتصوراتهـا فـي سياسـات الحكومـة، وتأثيـر الشـخصية فـي القيـادة، وصناعـة القـرارات فـي السياسـة الخارجيـة، ومـا إلـى ذلـك. وهنـاك تمييـز آخـر فـي هـذا الميـدان سنناقشـه في ما بعد يتعلق بتفسـير السـلوك السياسـي؛ فهناك تفسـير متأثر بعلم النفـس الاجتماعـي - يؤكـد أثـر المواقـف فـي السـلوك، وهنـاك تفسـير آخـر متأثـر بعلـم النفـس المعرفـي والإرث القديـم لعلـم نفـس غيـر الأسـوياء - والـذي يؤكـد دور الخصائـص الفرديـة فـي تكوين السـلوك.

الشكل (2-1)

العلاقة بين العلوم السياسية والعلوم الأخرى



وثمة ملاحظات ثلاث على علم النفس السياسي بوصفه تخصصًا فرعيًا في العلوم السياسية لا بد من الإشارة إليها. **أولًا** وقبل كل شيء، هذا الميدان حديث نسبيًا كميدان أكاديمي معترف به. وعلى الرغم من أن الرواد الأوائل أمثال هارولد لاسويل كانوا يدرسون تأثير علم النفس في السياسة منذ العشرينيات، لم تكن الجامعات تطرح كثيرًا من المساقات في علم نفس السياسة قبل السبعينيات، حيث ظهر أول كتاب في سلسلة من الكتب الدراسية بعنوان **كتاب مرجعي في العلوم السياسية** (*A Handbook of Political Psychology*) عام 1973[1] وفي الوقت ذاته أخذ جهاز مهني متخصص ينشأ في هذا الموضوع، فشهد عام 1977 تأسيس الجمعية الدولية لعلم النفس السياسي (ISPP) (International Society for Political Psychology) وتأسست مجلة **علم النفس السياسي** بعد ذلك بعامين.

ثانيًا: إن الموضوع المسمّى «علم النفس السياسي» - كموضوع معترف به ويدرَّس في الجامعات - ذو توجه دولي في جوهره. ومع أن غالبية الأكاديميين فيه هم من الولايات المتحدة الأميركية، فإن شعبيته آخذة في الازدياد في أوروبا وأستراليا ومناطق أخرى من العالم كذلك. وكما أسلفنا، فإن علم النفس السياسي له طابع غير مألوف؛ فالهيئة الممثلة له ISPP (الجمعية الدولية للعلوم السياسية) عالمية الطابع في الحقيقة، تعقد اجتماعاتها في أماكن متباعدة كبورتلاند، وباريس، والبرتغال.

وقد جاء العديد من أصحاب الأفكار الرائدة التي أنشأت المجال الأكاديمي الذي يُعرف الآن بـ «علم النفس السياسي» من أوروبا. والتأثير الفييني (نسبة إلى فيينا) الذي جاء به فرويد، يمثل نموذجًا واضحًا لما نذهب إليه هنا، وهو ما سنتطرق إليه بعد قليل. ولكن نظرة عميقة إلى المادة التي تكوّن علم النفس السياسي تذهب بنا إلى القول إن هذا الموضوع قديم قدم السياسة، فحين يتأمل الناس في موضوع السياسة نجدهم يطرحون على أنفسهم

(1) Jeanne Knutson, ed., *Handbook of Political Psychology*, Jossey-Bass Behavioral Science Series (San Francisco, CA: Jossey Bass, 1973).

السؤال النفسي الرئيس: لماذا يفعل الناس ما يفعلونه؟ وأول ما يكتشفه المرء في الصفوف المدخلية للعلوم السياسية هو أن كل نظرة سياسية إلى العالم تُبنى في النهاية على نظرة في الطبيعة الإنسانية (ومن هنا فهي نظرة إلى النفس الإنسانية). فقد كانت نظرة نيكولا مكيافيلي إلى النفس الإنسانية سوداوية جدًا، وكان تفكير المحافظين الكلاسيكيين أكثر تشاؤمًا في هذا الشأن من الليبراليين الكلاسيكيين. وعلاوة على ذلك، طوّر توماس هوبز، وجون لوك، وجان جاك روسو مفاهيم متباينة جدًا لـ «الدولة الطبيعية» تصف وضعًا حقيقيًا أو مفترضًا لحالة غياب الدولة وانكشاف الطبيعة الأصلية للبشر على حقيقتها.

ولقد تتبع وليام ستون وبول شافنر (William Stone and Paul Schaffner)، في كتاب نفِدت طبعته للأسف الشديد، مختلف التأثيرات التاريخية العميقة التي تخمرت عبر القرون قبل أن ينبثق علم النفس السياسي بوصفه موضوعًا أكاديميًا معترفًا به في القرن العشرين[2]، حيث يقولان: «إن الاعتراف بقوة الدفع الألمانية لعلم النفس السياسي لا يفي القارة الأوروبية حقها عما أسهمته في هذا المجال... وخلافًا للاعتقاد السائد، نشأ علم النفس السياسي على يد كتّاب محافظين من الأقطار اللاتينية»، ففي فرنسا، على سبيل المثال، قدّم مفكرون محافظون من مثل هيبوليت تين (Hippolyte Tain) وغوستاف لوبون (Gustave Le Bon) في القرن التاسع عشر تفسيرات «علمية» تقع في باب علم النفس السياسي. أما في إنكلترا، فقد نشر غراهام ولاس (Graham Wallas)، الأستاذ في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، واحدًا من بواكير الكتب عام 1908، ما يؤهله لأن يكون واحدًا من الآباء المؤسسين لعلم النفس السياسي، وهو أمر يدعو للسخرية بالنظر إلى إهمال الجامعات البريطانية نسبيًا لهذا الموضوع. وقد حذّر ولاس في كتابه **الطبيعة الإنسانية والسياسة** الذي نشر ذلك العام، من النظر إلى القرارات والسلوك الإنسانيين نتيجةً لعمليات فكرية عقلية بحتة. ونصح ولاس بأنه

(2) William F. Stone and Paul E. Schaffner, *The Psychology of Politics*, 2nd ed. (New York: Springer-Verlag, 1988).
وقد شاءت الصدف أن يكون هذا الكتاب هو أول كتاب تدريسي في علم النفس السياسي (وصدر عام 1974).

«عندما يعي الرجال العمليات النفسية التي لم يكونوا واعين بها أو كانوا نصف واعين بها، فإنهم بذلك لن يحموا أنفسهم كما لن يحموا الآخرين من تعسف هذه العمليات فحسب، ولكنهم سيتمكنون من التحكم فيها من الداخل»[3]. أما أعظم الإسهامات في هذا الميدان فقد جاء من فيينا وفرانكفورت طبعًا، حيث كان لمفكرين من أمثال سيغموند فرويد (Sigmund Freud) وإريك فروم (Erich Fromm) تأثير خاص في تطور هذا الحقل في الولايات المتحدة - كما سنوضح بعد قليل في الجزء الخاص بدراسات الشخصية في هذا الفصل.

أما الملاحظة **الثالثة** التي لا بد من الإشارة إليها فهي أن علم النفس السياسي بوصفه تخصصًا فرعيًا من العلوم السياسية يدرس معظم (وليس كل) موضوعه على مستوى يسمى عادة التحليل على مستوى الفرد (The individual level of analysis). ودراسة العلاقات الدولية بشكل خاص تميز بين ثلاثة مستويات من التفسير أو «مستويات التحليل»: مستوى النظام [الدولي] (systemic)، ومستوى الدولة (state)، ومستوى الفرد[4] (individual). فهل تتحدد سياسة الدولة بما تتمتع به من قوة أو موقع في النظام الدولي؟ أم الخصائص الداخلية للدولة هي التي تحسم في تكوين سلوكها؟ أم نفسية قادة معينين هي التي توجه السياسة الخارجية للدولة في نهاية المطاف؟

وتواجهنا في العلوم السياسية العديد من النظريات التي تعمل على مستويات أعلى من مستوى الفرد، إذ تؤكد هذه النظريات، بعبارة أخرى، أهمية السياق أو طبيعة الحقبة الزمنية [المحيطة بالحدث] لا على طبيعة الأفراد. فالنظرية الواقعية الحديثة التي تعزو قدرًا كبيرًا من سلوك الدولة إلى موقعها في النظام الدولي (إذا كانت قوة عظمى، أم قوة متوسطة، أم قوة ضعيفة، وما إلى ذلك)، مثال جيد على هذا النوع من النظريات[5]. وبالمثل، فإن النظرية الماركسية تميل إلى التقليل من

---

(3) تمّ اقتباسه من: المصدر نفسه، ص 17.

(4) Kenneth N. Waltz, *Man, The State and War: A Theoretical Analysis*, Topical Studies in International Relations (New York: Columbia University Press, 1959), and J. David Singer, «The Level-of-Analysis Problem in International Relations,» *World Politics*, vol. 14, no. 1 (October 1961), pp. 77-92.

(5) Kenneth Waltz, *Theory of International Politics*, Addison-Wesley Series in Political Science (Reading, MA: Addison-Wesley, 1979).

شأن الأفراد في التاريخ، وترى أن العوامل «المادية» هي صاحبة الأثر السببي الأقوى وليس الأفراد. والعديد من النظريات المشتقة من الماركسية، مثل نظرية التبعية (dependency theory)، ونظرية أنظمة العالم (world-systems)، تقوم على افتراض محوري مماثل للافتراض الماركسي هذا. كذلك، فإن نظرية التعددية الكلاسيكية (classic pluralism) وإن كانت قد انبثقت من تراث مختلف عن الماركسية إلا أنها ترى أن الدولة تستجيب للتنافس القائم بين جماعات كبيرة منظمة، ولا تترك للأفراد ونفسياتهم حيزًا كبيرًا لإحداث أي تأثير.

وكما رأينا حتى الآن، يؤكد علم النفس الاجتماعي أهمية الشروط الموقفية في توجيه السلوك الإنساني، وهو ما كان له أثر خاص في علماء النفس الذين اتجهوا نحو المواضيع السياسية. وعلى الرغم من ذلك، فإن علم النفس السياسي كما يُدرس في نطاق العلوم السياسية، كان يميل دائمًا باتجاه من يعتقدون أن الأفراد - بما لديهم من معتقدات، وخبرات حياتية، وشخصيات - لهم شيء من الأهمية، في الأقل، في تحديد المخرجات السياسية. وقد كان الاعتقاد القائل إن التاريخ ليس مجرد رواية لدور الأنظمة والظروف في تأليف التاريخ والسياسة، ذا جاذبية خاصة لدى هؤلاء الذين يرون أن الأفراد هم الذين يؤلفون التاريخ والسياسة.

وهذه واحدة من النقاط القليلة التي يتفق عليها معظم المحللين في علم النفس السياسي، فليس هناك اتفاق حقيقي بينهم مثلًا حول أفضل النظريات لتحليل السلوك الإنساني، وصناعة القرارات. ووفق ملاحظة مكغواير (McGuire) في فصل كثيرًا ما جرت الإشارة إليه، أن طبيعة العلاقة بين علم النفس والسياسة تطورت عبر مراحل تاريخية متعددة في خلال الثمانين سنة الماضية تقريبًا[6].

---

(6) William McGuire, «The Poli-Psy Relationship: Three Phases of a Long Affair,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, Duke Studies in Political Psychology (Durham, NC: Duke University Press, 1993).

وقد طُبع أيضًا في: John T. Jost and Jim Sidanius, eds., *Political Psychology: Key Readings*, Key Readings in Social Psychology (New York: Psychology Press, 2004).

قام هذا الفصل على العمل الرائد لمكغواير (William McGuire)، على الرغم من أنه لم يحاول تناول الموضوع بالقدر ذاته من العمق والاتساع.

علاوة على ذلك، جرى تطور على نظريات علم النفس الرائجة في الميدان عبر الزمن، ومن حيث إن علم النفس هو الذي أثر في السياسة (وليس العكس) فإن التيارات داخل العلوم السياسية اقتفت التيارات داخل الميدان الأم أو تبعتها. ويميز مكغواير ثلاث مراحل عريضة في تطور علم النفس السياسي:

1- حقبة دراسات الشخصية في الأربعينيات والخمسينيات والتي هيمن عليها التحليل النفسي.

2- حقبة دراسة الاتجاهات السياسية وسلوك الانتخاب في الستينيات والسبعينيات، والتي اتسمت بشيوع افتراضات «الإنسان العاقل».

3- حقبة بدأت في الثمانينيات والتسعينيات وتركزت على دراسة الاعتقادات السياسية، ومعالجة المعلومات وصناعة القرارات، وتهتم بوجه خاص بالسياسة الدولية.

دراسة الشخصية

عُنيت الدراسات المبكرة في علم النفس السياسي - أي تلك التي أجريت في الأربعينيات والخمسينيات - بدراسة الشخصية، وعكست بوجه خاص أفكار نظرية التحليل النفسي، وكانت هي النظرية السائدة في علم النفس حينذاك. وقاد ذلك إلى ظهور العديد من الدراسات التي يمكن أن تسمى دراسات «التاريخ النفسي» (Psychohistory) أو «السيرة النفسية» (Psychobiography). هذه الدراسات مثلت المدخل المبكر والحيوي لدراسة القيادة، إذ إنها تسلط الضوء على الخصائص الشخصية للقادة السياسيين، وكيفية تأثير هذه الخصائص في أدائهم وهم في مواقع السلطة. وتصلح النظرية الفرويدية، أو نظرية التحليل النفسي، بوجه خاص، لتحليل الشخصية إضافة إلى إسهاماتها الأخرى؛ فهي تحلل الحاجات أو الدوافع التي تكمن، أو يُعتقد أنها تكمن لدى المخلوقات الإنسانية. وقد اعتبر فرويد العديد من هذه الدوافع لا شعورية في طبيعتها، لا تكشف عن نفسها إلا من خلال الأحلام وزلات اللسان (وهي التي تعرف بـ «الزّلات الفرويدية»). ويرى فرويد أننا نولد جميعًا ونحن نحمل الهو (Id)

والأنـا (Ego) والأنـا الأعلـى[7] (Super ego). واعتقـد أن الهـو يمثـل الطفـل فـي داخلنـا، فهـو يسـعى إلـى تحقيـق المتعـة والإشـباع الفـوري. ويتجلّـى ذلـك فـي مرحلـة الرضاعـة أو الطفولـة المبكـرة جـدًا، حيـث يسـعى الأطفـال إلـى كل مـا هـو ممتـع فـي الوقـت الراهــن مــن دون اعتبــار لأخلاقيــة الموقــف أو أي اعتبــار آخــر، فالطفــل لا يُعنــى بالواقـع الخارجـي أو حاجـات أي شـخص آخـر، وعندمـا يريـد شـيئًا، لا يكـون هنـاك أهميـة لأمـر سـواه، لأنـه يعمـل وفـق «مبـدأ اللـذة»، كمـا يـرى فرويـد.

وبعـد سـنوات قليلـة، ومـع ازديـاد تفاعـل الطفل مـع العالـم الخارجي، يأخـذ الجزء الثانـي مـن الشـخصية في التطـور، وهو الجـزء الذي يدعوه فرويـد بـ «الأنـا». ويقوم هذا الجـزء علـى «مبـدأ الواقع»، ويفهـم أن للآخرين حاجات ورغبـات وأن الأنانيـة والاندفاعية قـد تضرنـا على المـدى الطويل. وتتمثل وظيفـة الأنا في تلبيـة حاجات الهـو، آخذة بعين الاعتبـار الشـروط الواقعيـة للموقـف المحيط بهـا. وعندما يصـل الطفل إلى الخامسـة من العمـر أو إلـى نهاية المرحلـة القضيبيـة (Phallic stage) من مراحل نموه، يبـدأ «الأنا الأعلى» لديـه بالتطـور. والأنـا الأعلـى هـو الجـزء الأخلاقـي منـا، ويتطـور بتأثيـر القيـود الأخلاقيـة والأدبيـة التـي يضعهـا علينـا الوالـدان والمربـون. ويسـاوي العديد مـن العامليـن في هذا الميـدان بيـن الأنـا الأعلـى والضمير، مـن حيث إنه يملـي علينا شـروطه المتعلقـة بالخطأ والصواب.

ويعتقـد فرويـد أن الأنــا يجــب أن يكــون الأكثــر قــوة بيــن عناصــر الشــخصية الثـلاث ليكـون الشـخص سـليمًا نفسـيًا، فيتمكـن مـن العمـل منسـقًا بيـن متطلبـات الهـو ومتطلبـات الأنـا الأعلـى، آخـذًا متطلبـات الواقـع الخارجـي بعيـن الاعتبـار علـى الـدوام. فـإذا كانــت الغلبــة للهــو ســيطر علــى حيــاة الفــرد الســلوك الاندفاعــي، المتمركـز حـول الـذات. وبالمقابـل، إذا كان الأنـا الأعلـى متشـددًا تغلـب عليـه السـلوك المتعنـت، غيـر المسـاوم، والمغالـي فـي الأخلاقيـة. ومهمـة التوفيـق التـي يقـوم بهـا الأنــا بيــن قوتــي الدفــع هاتيــن ليســت بالمهمــة اليســيرة، وقــد تُحــدث صراعــات

(7) كان استخدام فرويد لهذه المصطلحات بوصفها تسميات مفهومية لمكونات الشخصية الإنسانية، وليس بوصفها خصائص موجودة فيزيقيًا في الدماغ ذاته.

نفسـية متنوعـة. فبينمـا يجلـس الهـو كشـيطان علـى أحـد الكتفيـن يجلـس الأنـا الأعلـى كمـلاك علـى الكتـف الآخـر، يخاطبانـا معًـا ويُحْدِثـان نوعًـا مـن حـرب الدوافـع فـي داخلنـا. ونسـمع نحـن لـكلا الدافعيـن وننعـم النظـر فـي منظوريهمـا ثـم نتخـذ القـرار بنـاء علـى ذلـك. ويمثـل هـذا القـرار صـوت الأنـا الـذي يعمـل علـى تحقيـق التـوازن بيـن العنصريـن الآخريـن. ولأن فعـل التـوازن هـذا مهمـة صعبـة فـي الغالـب، يزعـم فرويـد أن الأنـا يمتلـك «آليـات دفـاع» تسـاعده علـى أداء وظيفتـه. فعندمـا يواجـه الأنـا وضعًـا يصعـب عليـه التوفيـق فيـه بيـن قـوة دفـع الهـو وقـوة دفـع الأنـا الأعلـى يوظـف واحـدة أو أكثـر مـن هـذه الآليـات. وتتضمـن هـذه الآليـات الإحـلال (displacement)، والإنـكار (denial)، والكبـت (repression)، والإبـدال (transference)، وجميعهـا، كمـا يـرى فرويـد، تعمـل كآليـات دفـاع لحمايـة الأنـا.

وقـد شـرع فرويـد نفسـه فـي كتابـة السِـيَر النفسـية السياسـية إلـى جانـب السـفير الأميركـي وليـام بوليـت[8] (William Bullitt). علـى أن تأثيـر فرويـد فـي هـذا النـوع مـن الأدب جـاء مـن خـلال كتّـاب آخريـن، وقـد كان لأفـكاره المتعلقـة بالدوافـع اللاشـعورية، والتطـور النفسـي فـي مرحلـة الطفولـة، وآليـات الدفـاع التعويضيـة أثـر عميـق علـى تطـور السـير النفسـية السياسـية فـي خـلال تلـك الفتـرة المبكـرة. وكان تشـارلز ميريـام وهارولـد لاسـويل، وهمـا مـن الآبـاء المؤسسـين لعلـم النفـس السياسـي، أكثـر المتحمسـين لتطبيـق أفـكار فرويـد فـي دراسـة السياسـة. وكان لميريـام التأثيـر الفكـري الأولـي فـي لاسـويل كونـه أسـتاذًا لـه، ولأن الأخيـر هـو الـذي وضـع هـذه الأفـكار علـى الـورق وطورهـا، عُـدَّ عالـم النفـس السياسـي الأميركـي الأول، بـل عالـم النفـس السياسـي الأول علـى الإطـلاق. ويعـدُّ كتـاب لاسـويل **علـم النفـس والسياسـة** الـذي نشـر عـام 1930 معلمًـا فـي هـذا المضمـار، كذلـك يعـدّ كتابـه **القـوة والشـخصية** الـذي ظهـر عـام 1948 أول مـا ظهـر[9]. وخلافًـا لعلمـاء نفـس السياسـة اللاحقيـن، درس لاسـويل التطـورات الأخيـرة فـي نظريـة التحليـل

---

(8) Sigmund Freud and William C. Bullitt, *Thomas Woodrow Wilson, Twenty - Eighth President of the United States: A Psychological Study* (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1967).

(9) Harold D. Lasswell: *Psychopathology and Politics* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1930), especially pp. 75-76, and *Power and Personality*, New York Academy of Medicine. Thomas William Salmon Memorial Lectures (New York: W. W. Norton, 1948).

النفسي الفرويدية بعناية. ونتيجة لذلك خرج ليزعم أن ما يسمى «الشخصية السياسية» ينتج من إحلال المشكلات الشخصية على الحياة العامة. وكان على اقتناع بأن «الحركات السياسية تأخذ حيويتها من طريق إحلال العاطفة الخاصة على موضوعات عامة»[10]. واعتقد أن الفرد قد يسعى إلى القوة للتغلب على ما يضمره من تقدير متدنٍ لذاته، حيث افترض مثلًا، «أن التغلب على تقويم الذات المتدني يتم إما بتغيير سمات الذات وإما بتغيير سمات المحيط»[11]. وبعبارة أخرى، فإن الأفراد الذين يتجهون إلى السياسة كثيرًا ما يسعون إلى القوة السياسية تعويضًا عن شيء آخر.

وجاء كتاب ألكسندر جورج وجولييت جورج المعنون **ودرو ولسون وكولونيل هاوس** متأثرًا تأثرًا شديدًا بهذه المقاربة في التحليل[12]. والحقيقة أن هناك سلسلة تربط ميريام بلاسويل بالكاتبين جورج؛ حيث إن ميريام علّم لاسويل أهمية الأبعاد النفسية في السياسة، وهو ما نقله لاسويل إلى الكاتبين جورج في جامعة شيكاغو التي أصبحت نوعًا من الحاضنة الفكرية لتطور علم النفس السياسي في أميركا. وعلى الرغم من أن الكتاب لم يستخدم اللغة الفرويدية مباشرة، فإنه يرد سلوك ودرو ولسون السياسي بوصفها راشدًا، إلى خبراته الطفولية على يد والده القسيس البروتستانتي المتشدد. ولأن الأب لم يُظهر العاطفة لابنه، كما يزعم الكاتبان، ولم يكافئه على أدائه بشكل عام، سعى ولسون إلى كسب حب الشعب الأميركي تعويضًا عن ذلك. وكان للشهرة والجدل اللذين أثارهما كتاب **ودرو ولسون وكولونيل هاوس** أثر في مجموعة كبيرة من الأعمال اللاحقة من مثل كتاب دوريس كيرنز غودوين (Doris Kearns Goodwin) **ليندون جونسون والحلم الأميركي**، وكتاب بيتي غلاد (Betty Glad) **جيمي كارتر: البحث عن البيت الأبيض العظيم**[13].

(10) Lasswell, *Psychopathology and Politics*, p. 183.

(11) Lasswell, *Power and Personality*, p.39.

(12) Alexander L. George and Juliette L. George, *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study* (New York: Dover Publications, 1956).

(13) Doris Kearns Goodwin, *Lyndon Johnson and the American Dream* (New York: Harper and Row, 1976), and Betty Glad, *Jimmy Carter: In Search of the Great White House* (New York: W. W. Norton, 1980).

الاتجاهات وسلوك الانتخاب

وفي المرحلة الثانية من تاريخ علم النفس السياسي، انتقلت بؤرة البحث من الشخصية والثقافة إلى الاتجاهات وسلوك الانتخاب. وأصبحت الدراسات المسحية الواسعة هي المنهج المفضل وليس التحليل الكيفي المستخدم في مواد السير النفسية. وانتقل علم النفس السياسي عند تلك النقطة من الاعتماد على التحليل النفسي إلى مقاربة أو مدخل أكثر ملاءمة لدراسة الاتجاهات تمثله نظرية الاتساق المعرفي (cognitive consistency theory)، إضافة إلى منظور آخر أكثر «علمية» لدراسة السلوك الإنساني، والمتمثل بالنظرية السلوكية (behaviourism). وستكون السلوكية هي موضوع الفصل الآتي، ولذلك فإننا سنضع هذا الموضوع جانبًا الآن. أما نظرية الاتساق المعرفي أو نظريات التوازن المعرفي (cognitive balance theories) فترى أن التضارب (أو عدم الاتساق) في ما بين الاتجاهات التي يحملها الفرد تُنشىء حالة من التوتر يبعث بدوره على الضيق. ويُسمي ليون فستنغر[14] (Leon Festinger) هذه الحالة تسميته الشهيرة: «التنافر المعرفي» (cognitive dissonance). ولأن البشر لا يحبون هذا النوع من عدم الاتساقية أو التنافر، فإنهم يمتلكون دافعًا لتخفيضه بطريقة ما. وعلى سبيل المثال، أقامت الولايات المتحدة في خلال الحرب العالمية الثانية حلفًا مع الاتحاد السوفياتي ضد ألمانيا النازية، الأمر الذي أزعج غُلاة المناهضين للشيوعية من دون شك. ولكن هؤلاء كانوا يستطيعون التخفيف من التنافر القائم في هذه الحالة بإضافة عبارة أو اعتقاد ثالث لهذا الخليط من الأفكار، كالقول إن الأحلاف زواج مصلحة، ضرورية أحيانًا لتحقيق أهداف نبيلة. وقد بنى روبرت جيرفيز أفضل أعماله في مجال العلاقات الدولية بناء على هذا النوع من التنظير[15].

كما طوّر آنغوس كامبل (Angus Campbell) وزملاءه نموذجًا نظريًا للانتخاب (voting) في كتابهم **الناخب الأميركي** (*The American Voter*)، وكان لهذا الكتاب

---

(14) Leon Festinger, *Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957).

(15) Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976).

توجـه نفسـي صريـح[16]، وبينمـا انطلـق بـول لازرفيلـد (Paul Lazarsfeld) وآخـرون مـن منطلـق يـرى أن العوامـل الاقتصاديـة والاجتماعيـة تحـدد اقتـراع الفـرد، رأى كامبـل وزمـلاءه أن هنـاك متغيـرًا (variable) ذاتيًـا، نفسـيًا يـؤدي دورًا وسـيطًا بيـن العوامـل النفسـية الذاتيـة والاقتـراع. ويزعـم كامبـل وزمـلاءه أن المقترعيـن يطـورون فـي السـنوات المبكـرة مـن حياتهـم انتمـاءً طويـل الأمـد يربطهـم بحـزب سياسـي معيـن. ويأخـذ هـذا الانتمـاء شـكل الارتبـاط الطبيعـي الوثيـق لواحـد مـن الأحـزاب، شـبيه بالـولاء الدينـي[17]. واعتقـد كامبـل وزمـلاءه أن هـذه الكتـل مـن المقترعيـن الشـديدي التعلـق بأحزابهـم، كتـل ثابتـة عبـر الزمـن نسـبيًا، وأنهـا تمثّـل ثلثـي الهيئـة الانتخابيـة. وأمـا الثلـث «المسـتقل» - الـذي لـم يطـور الـولاء النفسـي (الحزبـي) لسـبب مـا - فهـم الذيـن يقـررون نتائـج الانتخابـات الرئاسـية، مـن حيـث إنهـم يؤلفـون نوعًـا مـن «الصـوت المتأرجـح» فـي مركـز الهيئـة الانتخابيـة. وقـد بُنـي هـذا النمـوذج النظـري، صراحـة علـى أسـاس مـن نظريـة الاتسـاق المعرفـي، حيـث إنـه يلمـح إلـى أن أصحـاب الـولاء الحزبـي الشـديد يسـتبعدون المعلومـات غيـر المحبّـذة بشـأن أحزابهـم أو يبررونهـا علـى نحـو مـا، ويصوتـون لأحزابهـم حتـى وإن كانـوا أحيانًـا لا يتفقـون معهـا فـي قضايـا معينـة (كمـا فعـل الديمقراطيـون الجنوبيـون الذيـن كانـوا يعارضـون الدمـج العنصـري الكامـل، لبضـع سـنوات بعـد إمـرار قانـون الأحـوال المدنيـة فـي منتصـف السـتينيات). ويجـادل فيليـب كونفـرس (Philip Converse) بوجـه خـاص أن معظـم المقترعيـن يفتقـرون إلـى نظـام مخصـوص بهـم مـن الاتجاهـات والاعتقـادات المتسـقة فـي مـا بينهـا، وأنهـم يعتمـدون بـدلًا مـن ذلـك علـى الروابـط الحزبيـة الطويلـة الأمـد لتقريـر أصواتهـم[18]. فالحزبيـون الموالـون لأحزابهـم بشـدة يفسـرون الأداء الاقتصـادي الضعيـف [للشـخص

---

(16) Angus Campbell [et al.], *The American Voter:An Abridgment* (New York: Wiley Press, 1964)

(17) تمّ إدخال هذا النموذج في دراسة الخيار الانتخابي البريطاني من دايفد باتلر وشركائه، على سبيل المثال، انظر: David Butler and Donald Stokes, *Political Change in Britain: Forces Shaping Electoral Choice* (New York: St. Martin's Press, 1969).

(18) Philip Converse, «The Nature of Belief Systems in Mass Publics,» in: David E. Apter, ed., *Ideology and Discontent*, Internaional Yearbook of Political Behavior Research; V. 5 (London: Free Press of Glencoe, 1964).

الـذي تولـى المنصـب السياسـي عـن حزبهـم] علـى أنـه نتيجـة لشـيء آخـر غيـر الخيـارات السياسـية للحـزب. فعندمـا أُثيـر الشـك فـي قـدرة أدلاي ستيفنسـون (Adlai Stevenson) بوصفهـا مرشـحًا للرئاسـة عـن الحـزب الديمقراطـي عـام 1956، كان يمكـن للديمقراطييـن المتشـددين أن يخفضـوا التنافـر الـذي ينتـج مـن هـذا الوضـع بالتقليـل مـن شـأن المعلومـة [المتعلقـة بقـدرة المرشـح] أو حجبهـا. هـذا، ويتوقـع أن يكـون المتشـددون مـن الحـزب الجمهـوري قـد فعلـوا الشـيء ذاتـه عندمـا ظهـر للعلـن أن المرشـح الرئاسـي بـاري غولدووتـر (Barry Goldwater) يحمـل وجهـات نظـر متطرفـة حتـى إنـه قـد يمثّـل خطـرًا علـى السـلم العالمـي.

وفـي الوقـت ذاتـه، بـدأت نظريـة الناخـب العاقـل أو الخيـار العاقـل (rational actor theory or rational choice) تـزداد أهميـة [فـي تلـك الحقبـة] كنمـوذج نظـري للسـلوك الانتخابـي قائـم بذاتـه - وهـو نمـوذج مبنـي علـى الرياضيـات والاقتصـاد وليـس علـى علـم النفـس - وكـوّن منافسًـا لنمـوذج الهويـة الحزبيـة (party identification model). وتـرى هـذه المقاربـة أن الناخبيـن أكثـر اطلاعًا في واقـع الأمر مما تفترضـه نظرية الهويـة الحزبية، فهـم يدلـون بأصواتهـم بناء علـى عمليـة توفيق بيـن اتجاهاتهـم الخاصـة ومواقـف أحزابهم بشـأن القضايـا المعينـة. وكثيـرًا مـا يفتـرض أنصار هـذه المقاربـة مثـلًا أن الناخبيـن يدلون بأصواتهـم بنـاء على تقدير لمـدى النفع المالي الـذي تحقق لهم في خلال السـنوات الأربع الماضيـة، ومـدى النفـع الـذي تحقـق للبـلاد كلهـا، أو علـى مزيـج مـن هذيـن التقديريـن. وقـد أضحى كتـاب أنطونـي داونـز (Anthony Downs) **نظرية اقتصادية فـي الديمقراطية** المرجـع الأسـاس لهذه المقاربـة[19]. وبمقابلـة هذين النموذجيـن يظهر التباين جليًا بينهما؛ فبينمـا يذهـب النمـوذج الأول منهمـا إلـى أن الناخبيـن يدلـون بأصواتهم بناء علـى ولاءات أو تعلقـات طويلـة الأمـد، يذهـب أنصـار المقاربـة الجديـدة إلـى أن الناخبيـن يقتربـون مـن «العقلانيـة الصافيـة» فـي قراراتهـم الانتخابيـة. وهـذان المنحيـان يقابـلان نموذجيـن متنافسـين لعمليـة صنـع القـرار يصفهمـا سـتيفن أنسـولابير (Steven Ansolabehere) وشـانتو آينغـار (Shanto Iyengar) بــ «الإنسـان الاقتصـادي» (Homo economicus)

(19) Anthony Downs, *An Economic Theory of Democracy* (New York: Harper and Row, 1957).

والإنسان النفساني (Homo psychologicus)؛ وهما يتعايشان بصعوبة مع بعضهما في الوقت الحاضر، كما سنناقش بعد قليل[20].

الاعتقادات السياسية، معالجة المعلومات، وصنع القرار

أما المرحلة الثالثة من تاريخ علم النفس السياسي التي يتحدث عنها مكغواير فقد أخذت بالتشكل خلال المرحلة الثانية. فمنذ الثمانينيات أصبحت المقاربات المعرفية هي المقاربات الأكثر تأثيرًا في علم النفس السياسي؛ وهي المنظورات التي تؤكد محتوى البنى المعرفية [من الأفكار والتصورات والاعتقادات] التي يمتلكها الناس ودورها في تكوين السلوك، وصناعة القرارات بوجه عام. وهي لا تتمثل في مقاربة واحدة فحسب، ولكنها تتضمن منظورات عديدة، وإذا شئنا أن نلخص أوجه الشبه بين هذه المنظورات المتنوعة، نستطيع القول إنها جميعًا تنطلق من افتراض أن البشر مخلوقات محدودة بالفطرة؛ فهم ليسوا كالكمبيوتر مثلًا، وقدرتهم على معالجة المعلومات التي تردهم محدودة، فماذا يقصدون بذلك؟ حسنًا، لكي تصنع قرارًا عقلانيًا تمامًا، تحتاج إلى كل المعلومات ذات الصلة بذلك القرار، وإلى النظر في جميع السبل المتاحة لتنفيذ ذلك القرار. ولكننا نعرف أن البشر في الحياة الواقعية لا يمتلكون المعلومات التامة على أي حال، ولا الطاقة المطلقة [لتجريب كل السبل المتاحة]. فالعالم مكان معقد إلى حد لا يصدق، والفرد العادي يتعرض لقصف متواصل من المعلومات لا يمكن لدماغ أي فرد منا تمثله تمامًا.

افرض أنك كلما اتخذت قرارًا كان عليك أن تجمع كل المعلومات ذات الصلة بذلك القرار. لنقل إنك رغبت في اتخاذ قرار عقلاني تمامًا عن المكان الذي ستتناول فيه طعامك كل ليلة. فلكي تحقق معايير العقلانية التامة بدقة، يجب عليك أن تقرأ قوائم الطعام في جميع المطاعم والمقاهي في بلدتك أو مدينتك، ويجب عليك أيضًا أن تتذوق الوجبات الرئيسة في كل مطعم متاح

(20) Stephen Ansolabehere and Shanto Iyengar, «Information and Electoral Attitudes: A Case of Judgment Under Uncertainty,» in: Iyengar and McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, pp. 322-328.

ذلك المساء، وتختبر مذاق الطعام، ونوعيته، وسعره، وتقرر الخيار الأمثل بالنسبة إليك وإلى ما تفضله. وبهذه الطريقة كما يقول الاقتصاديون نحقق «المنفعة القصوى» (maximum your utility) باختيار أفضل بديل نسبة إلى تكلفته. وبطبيعة الحال، فإن الفرد الإنساني نادرًا ما يتصرف على هذا النحو، وبدلًا من ذلك، كثيرًا ما نقوم بمعالجة المعلومات من خلال ما يسمى «الطرائق المعرفية المختصرة» (cognitive short cuts) أو الموجهات الذهنية العملية [القواعد المبنية على الخبرة] (heuristics). هذه الطرائق تحدنا في البحث عن معلومات إضافية وتؤدي بنا إلى الوصول إلى قرار أو آخر بسرعة أكبر مما لو لم نتبع تلك الطرائق. ونحن عمليًا نقوم باختيار المطعم أو المقهى ذاته في كثير من الأحيان لأننا نتوقع أن يكون الطعام أفضل أو السعر أفضل أو الاثنان معًا، إذا كان الحال كذلك في المرة الماضية.

وكان الرائد في تطوير وجهة النظر الواقعية هذه في صناعة القرار لدى الإنسان هو هربرت سيمون (Herbert Simon) وهو منظر في مجال التنظيمات وعالم نفس سياسي. وقد جاء سيمون باثنين في الأقل من المفاهيم المهمة سيظل يُذكر فضله بهما وهما: «العقلانية المحدودة» (bounded rationality) و«سلوك الاستكفاء»[21] (satisficing behaviour). ويزعم سيمون أن البشر في صناعتهم للقرار يكونون عقلانيين في حدود المعلومات المتاحة لهم (والتي كثيرًا ما تكون إما محدودة وإما وافرة جدًا يصعب معالجتها ذهنيًا). ونتيجة لذلك، كثيرًا ما «نكتفي» بما يتوافر لنا بدل أن نعمل على «تعظيم المنفعة». وبعبارة أخرى كثيرًا ما نمسك بأول بديل مقبول يمكن أن «يفي بالغرض» من بين منظومة غير محدودة من البُدَلاء الممكنة. لذا، فإنك إذا لم تكن قد قررت أين تأكل ذات مساء، فإنك لن تذرع الشارع من أقصاه إلى أقصاه (والشارع المجاور له أيضًا) وتفحص كل مكان فيه، وتختبر الأسعار ونوعية الطعام بتفصيل دقيق، ولكنك بدلًا من ذلك ستختار أول مكان مقبول تصادفه. وهذا ما يقوم به صانعو السياسة

(21) على سبيل المثال، انظر: Herbert Alexander Simon, «A Behavioral Model of Rational Choice,» in: Herbert Alexander Simon: *Models of Man, Social and Rational: Mathematical Essays on Rational Human Behavior in a Social Setting* (New York: Wiley Press, 1957), *and Reason in Human Affairs*, Harry Camp Lectures at Stanford University (Stanford, CA: Stanford University Press, 1983).

في كثير من الأحيان. فبناء على منظور «العقلانية المحدودة» عندما يواجه السياسيون عددًا غير محدود من الحلول الممكنة لمشكلة ما، فإنهم يختارون أول بديل مقبول متاح لهم. لذا، فإنه حين يتاح لك عدد هائل من البُدَلاء من «أ» إلى «ي»، مثلًا، فإنك ستبدأ بـ «أ»، وتنتقل إلى «ب»، ثم إلى «ج» وهكذا حتى تجد حلًا مقبولًا، ولنقل إنه كان «د»، عند ذلك ستقف على الأرجح ولن تسير أبعد من ذلك. وربما لا يكون «د» هو أفضل البُدَلاء أو الذي يحقق أعظم النفع - فقد يكون ذلك هو «ل» أو «ك» أو «ي» - ولكنك لا تستطيع النظر في كل ما هو متاح.

ومن الطرائق المختصرة التي سنناقشها لاحقًا في هذا الكتاب، طريقة قياس التمثيل/القياس بالمماثلة [بين موضوعين واستنتاج أن ما ينطبق على أحدهما ينطبق على الآخر] (analogical reasoning) - وتشير هذه الطريقة أساسًا إلى استخدام مواقف سابقة من أجل فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل. فعندما يواجه صانعو القرارات موقفًا جديدًا يكتنفه الغموض، كثيرًا ما يعتمدون على التاريخ ليفهموا ما يجري. فنسأل أنفسنا (بوعي وفي كثير من الأحيان بغير وعي) «ما الذي أراه في ذلك الموقف؟» كما نسأل أنفسنا، ماذا في خبرتي السابقة، أو في معرفتي بالتاريخ ما يعطيني دليلًا على ما يجري؟ والعلاقات الدولية مملوءة باستخدام القياس التاريخي، وقد جرى دراسة السكيمات (schemas) [الأطر المعرفية]، والنصوص/السيناريوهات (scripts)، وقياس التمثيل/المماثلة كطرائق معرفية مختصرة دراسة حثيثة في مجال السياسة الخارجية بوجه خاص.

الإنسان الاقتصادي والإنسان النفساني

لم يتأثر التطور الحديث في العلوم السياسية بعلم النفس فحسب، ولكنه تأثر بالاقتصاد إلى جانب ذلك. وهناك منظوران لتحليل صناعة القرار يهيمنان على تفكيرنا في الوقت الحاضر، أحدهما مشتق من علم الاقتصاد، والآخر من علم النفس[22]. والجدول (2-1) يلخص هذين النموذجين.

---

(22) Ansolabehere and Shanto Iyengar, «Information and Electoral Attitudes: A Case of Judgment Under Uncertainty,» pp. 322-328.

المنظـور الأول منهمـا يتمتـع بشـعبية علـى نحـو مـا، بوصفـه مقاربـة لفهم السـلوك السياسـي، وهـو يتـلاءم بحق مـع تسـميته بالخيـار العقلانـي. وعلى الرغـم من أننا سـنعود إلـى هـذا النمـوذج لصنـع القـرار فـي الفصـول اللاحقـة - كمـا لا بـد أن نسـلم أنـه يُقـدم اسـتبصارات قيمـة فـي السـلوك السياسـي - فإنـه لا يعتبـر (مـن وجهـة نظـر الكاتـب فـي الأقـل) مقاربـة لدراسـة علـم النفـس السياسـي بالمعنـى الضيـق للكلمـة. ومـع أن دمـج المنحييـن النفسـي والاقتصـادي لبنـاء نظريـة موحـدّة لا يـزال مـدار بحـث، إلا أنـه مـا من أحـد نجـح حتـى الآن فـي هـذه المهمـة. ويسـعى منظِّـرو الخيـار العقلانـي بوجـه خـاص إلـى جعـل افتراضاتهم أكثـر واقعيـة، إلا أن القـوة الكبرى في «الإنسـان الاقتصـادي» تكمن فـي أنهـا تقـدم طريقـة لتبسـيط السـلوك الإنسـاني وجعلـه قابـلًا للتنبـؤ بشـكل أو بآخـر. ويسـتخدم كثيـر مـن الاقتصادييـن هـذا المنظـور إطـارًا لمنظومـة مبسـطة مـن الافتراضات مـع علمهـم التـام بـأن هـذه الافتراضـات غيـر واقعيـة، ولكنهم مـع ذلـك يسـتخدمونها أملًا فـي أن تولـد هـذه الافتراضـات تنبؤات ونموذجات قوية لتفسـير السـلوك. ولا يسـعنا بذلك إلا أن نتكـىء علـى منظـور «الإنسـان النفسـاني» نظـرًا إلـى واقعيته الشـديدة، علـى الرغم مـن كل مـا ينطـوي عليـه السـلوك الإنسـاني مـن خصوصيـة، وعـدم قابليـة للتنبـؤ. وعلـى أي حـال، فـإن مـا تبقـى مـن الكتـاب سـيركز علـى هـذا المنظـور الأخيـر، علـى الرغـم من أننـا سنشـير إلـى منظـور «الإنسـان الاقتصـادي» لاحقًـا، لكنـه سيُشـار إليـه أساسًـا للمقابلة فحسـب لإبـراز مزايا نموذج «الإنسـان النفسـاني». وخلافًا للنمـوذج الأول، فـإن علم النفس السياسـي حقـل إمبيريقـي [يعتمـد للأدلـة العلميـة]، ويُعنى بوصف سـلوك السياسـيين في الواقـع وتفسـيره، ولا يهتـم أساسًـا بمـا يجب أن يكونـوا عليـه، أو بوضع افتراضات مبسـطة عـن الواقـع[23]. كمـا أنـه ليس هناك اتفـاق على الإطلاق بين علمـاء علم النفس السياسـي، بشـأن طبيعـة الواقـع، وتصوراتهـم عـن هـذا الواقع.

---

(23) أقترح على القرّاء المهتمّين بالاتجاه الاقتصادي لتفسير السلوك الإنساني مطالعة كتاب كينيث شيبزل ومارك بونشك. انظر: Kenneth Shepsle and Mark Bonchek, *Analyzing Politics: Rationality, Behavior and Institutions* (New York: W. W. Norton, 1997).

وللاطلاع على نقد أوسع لهذا المنظور، انظر: Donald Green and Ian Shapiro, *Pathologies of Rational Choice: A Critique of Applications in Political Science* (New Haven, CT: Yale University Press, 1994).

لقـد أوجزنـا حتـى الآن الفروق بيـن منحيين عامين لتفسـير السـلوك السياسـي، هما: الموقفيـة والنزوعيـة. وقـد عرضنـا تاريخ علم النفس السياسـي فـي خطوط عامـة، مهَّدنا به للعـرض التاريخـي المفصـل الـذي سـيتبع في الفصـول اللاحقـة. كما وصفنـا بإيجـاز مقاربة «الإنسـان النفسـاني» التـي تمثّل أسـاس هذا الكتـاب، وتمثّل كثيـرًا من افتراضاتـه الضمنية، إضافـة إلـى المقاربـة المنافسـة المنبثقـة مـن علـم الاقتصـاد. وعليـه، فـإن المهمـة الأتيـة تتمثـل فـي تحليـل المنظوريـن الموقفـي والنزوعـي كإطاريـن عاميـن يشـملان عـددًا مـن النظريـات والمقاربـات. وسـنبدأ هـذه المهمـة بمثال لنظريـة موقفيـة بامتياز هـي النظرية السـلوكية والتـي تنظـر إلـى البشـر «بوصفهـم صفحـات بيضـاء»، وتـرى أننـا نولد مـن دون نزعـات خاصـة مسـبقة، وأن البيئـة الاجتماعيـة حولنـا هـي التي تكـوّن سـلوكنا، وتحدد في الحقيقـة نوع الأفـراد الذين سـنكونهم.

الجدول (2-1)

ملخص الملامح الخاصة بنموذج «الإنسان الاقتصادي» ونموذج «الإنسان النفساني»

الإنسان الاقتصادي	الإنسان النفساني
- البشر أفراد عقلانيون تمامًا. - يمتلكون معلومات كاملة. - المقاربة مشتقة من الاقتصاد الجزئي أو ترتكز إليه. - يسعى الفرد إلى تعظيم «المنفعة الذاتية». - يوازن الفرد بين التكاليف والفوائد لأفعاله المختلفة. - يختار الفرد من ثم البديل الذي يوفر أعظم الفوائد نسبة إلى التكاليف.	- الفرد الإنساني «عقلاني بحدود». - الأفراد لا يمتلكون معلومات كاملة. - هناك حدود لقدرات الإنسان على معالجة المعلومات. - المقاربة مشتقة من علم النفس الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. - الفرد «يقنع» بما هو متاح بدل أن يسعى إلى تعظيم المنفعة. - يوظف الفرد طرائق مختصرة متنوعة لمعالجة «الحمل الزائد من المعلومات» أو المعلومات المحدودة المتاحة. - ضغوط الجماعة أو المحيط العام قد تقود الفرد إلى السلوك بطرق غير عقلانية، أو مناقضة لاعتقاداته وقيمه.

الباب الأول

الموقف

3

السلوكية وحرية الإنسان

هيمنت النظرية السلوكية أو نظرية المثير - الاستجابة (stimulus-response behaviorisim) على حقل علم النفس في خلال الخمسينيات من القرن الماضي. وكان الاعتقاد السائد أثناء فترة المد السلوكي هذه أننا نستطيع من حيث المبدأ إهمال ما يجري في أذهان البشر لأننا لا نستطيع قياسه، ولا يكون تاليًا موضوعًا مناسبًا للبحث العلمي. وظنّ بعض السلوكيين أن فرويد جانب الصواب في محاولته الحثيثة لكشف آليات عقلية، خافية على المشاهدة في معظمها. لذا، اعتبر العديد من السلوكيين ما جاء به فرويد علمًا رديئًا؛ لأن «الحالات النفسية الداخلية» لدى البشر غير قابلة للملاحظة المباشرة، وما يجب التركيز عليه هو ذلك القابل للملاحظة فحسب، أي السلوك الظاهر (ومن هنا جاءت تسمية «السلوكية») لأن السلوك الظاهر قابل للقياس والاختبار.

وقد كان لهذا المنظور أثر كبير على العلوم السياسية كغيره من الأفكار العلمنفسية الشائعة - وكان يتلاءم مع طموح علم النفس (الذي كان شديدًا في حينه) لأن يصبح «علمًا حقيقيًا» - بمعنى أن يطور منظومة من النظريات المختبرة والموثوقة، والتي تقود في النهاية إلى تراكم معرفي أصيل[1]. وبصورة أكثر تحديدًا نستطيع القول إن السلوكية ألهمت علم النفس السياسي في تلك

(1) Heinz Eulau, *The Behavioral Persuasion in Politics*, Random House Studies in Political Science (New York: Random House, 1963).

الحقبـة. ووفقًـا لمكغوايـر فـإن أحـد المصـادر الأساسـية للتوجـه «النظـري - البيئـي الملهـم» الـذي ظهـر فـي العلـوم السياسـية فـي الخمسـينيات كان «نظريـة المثيـر - الاسـتجابة» السـلوكية التـي بيّنـت أن شـخصية الفـرد السياسـية تتكـوّن بتأثيـر المؤسسـات المجتمعيـة المختلفـة ومـا تتضمنـه مـن مثيـرات، واسـتجابات، ودوافـع، ومعـززات»[2].

وجـون واطسـون (John Watson) هـو مؤسـس المدرسـة السـلوكية، وقـد أثّـر بـدوره فـي سـلوكيين بارزيـن مثـل إدوارد ثورندايـك (Edward Thorndike) وب. ف. سـكنر. وينظـر السـلوكيون إلـى العقـل الإنسـاني كصفحـة بيضـاء، أو «لـوح أملـس» (tabula rasa) يمكن أن يُكتـب عليه أي شـيء باسـتخدام الإشـراط البيئـي [أي إنه يمكـن التحكم في السـلوك من خـلال التحكـم فـي شـروط البيئـة المحيطـة]. ويصـف سـتيفن بنكـر (Steven Pinker) موقف السـلوكية هـذا بقولـه: «إن مواهـب الطفـل الرضيـع وقدراتـه لا تهـم السـلوكية لأنه ليس هنـاك ما يمكن أن نسـميه موهبة أو قدرة، فقد اسـتبعدها واطسـون مـن علم النفس مع غيرهـا مـن محتويات العقل مثـل الأفكار، والاعتقـادات، والرغبـات، والمشـاعر؛ لأنها ذاتية وغيـر قابلـة للقيـاس، بحسـب قولـه، ولا تتلاءم مـع العلم الذي يـدرس الأمـور الموضوعية القابلـة للقيـاس»[3]. وكمـا أشـرنا فـي نهايـة الفصل السـابق، فإن وجهـة النظر هـذه تمثل شـكلًا متطرفًـا مـن الموقفيـة (situationism) القائلـة إن أسـباب السـلوك تكمـن فـي البيئـة الخارجيـة، وليـس داخـل العقـل ذاتـه. وضمـن خطـاب ألقـاه سـكنر فـي مؤتمـر الجمعية الأميركيـة لعلـم النفـس عـام 1990، وكان خطابه الأخير قبل وفاته، اسـتنكر سـكنر دراسـة المعرفـة (cognition)، والعقـل الإنسـاني ووصفهـا بأنهـا من «اختلاقـات علم النفـس»، وهذا تعبيـر كلاسـيكي عـن وجهـة النظر التي تقـول إننـا يجـب أن نـدرس البيئات التـي تصنع الأفـراد، وليـس مـا يفعله الأفـراد لصنـع بيئاتهم.

---

(2) William McGuire, «The Poli-Psy Relationship: Three Phases of a Long Affair,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, Duke Studies in Political Psychology (Durham, NC: Duke University Press, 1993), pp. 12-13.

(3) Steven Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature* (New York: Penguin Books, 2002), p. 19.

ومما لا شك فيه أن الفكرة المركزية في جميع أشكال السلوكية هي الإشراط (conditioning). وتمثل تجربة بافلوف (Pavlov) الشهيرة التي أجراها عام 1927 نموذجًا للإشراط في شكله المعروف بالإشراط الكلاسيكي (classic conditioning). وقد جرى في هذه التجربة تدريب كلب بافلوف على إفراز اللعاب لدى سماع صوت جرس؛ حيث كان هناك جهاز يُسقط فتاتًا صغيرة من مسحوق اللحم على لسان الكلب كلما كان المجرب يقرع الجرس. وفي النهاية أصبح الكلب يُفرز اللعاب (وهذه هي الاستجابة المشرطة أو الشرطية) بمجرد سماع صوت الجرس (وهو المثير)، حيث تمكن الكلب من ربط شيء بشيء آخر. والتعلم بالإشراط الكلاسيكي يقوم على رد الفعل المنعكس/الطبيعي (reflex) وهو رد فعل غير إرادي، ولكن سكنر - على الرغم من تأثره البالغ ببافلوف - كان أكثر اهتمامًا بالسلوك الإرادي وبما أصبح يسمى الإشراط الإجرائي (operant conditioning) الذي يتم فيه تعديل [أو تشكيل] السلوك الإرادي. ويتمثّل الإسهام الخاص بسكنر في السلوكية بالفكرة القائلة إننا نتعلم القيام بفعل ما [أو نكرر القيام بفعل ما] إذا ما استُتبع هذا الفعل مباشرة بأثر سار - وهو ما يعرف بالتعزيز (reinforcement). وبناء على هذه الفكرة يزعم سكنر أن البشر يمكن أن يُدرّبوا من خلال الإشراط على القيام بالسلوك المقبول اجتماعيًا، والإحجام عن السلوك غير المقبول. وقد حدد سكنر الخطوط العامة لهذا التدريب في روايته **وولدن تو**[4] (*Walden Two*).

وفي هذه الرواية يخلق سكنر مجتمعًا خياليًا يحكمه «المديرون المخططون» (planner managers) - ما يستدعي إلى الذهن «الملوك الفلاسفة» لأفلاطون[5]. ويتخيل سكنر مجتمعًا يطيح السياسيين ليحل محلهم العلم والعقل. ويسخر بطل الرواية «فريزر» - وهو صورة عن سكنر ذاته بلباس تنكري واهٍ - يسخر من السياسيين والحكومة لعدم قدرتهم على تحسين حياة الناس. ويتضح ما يقوم به فريزر من خلال زيارة أستاذ علم النفس البروفيسور «بوريس» وصديقه

(4) B. F. Skinner, *Walden Two* (Indianapolis, IN: Hackett Publishing, 2005).

ظهرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عام 1948.

(5) هذا الكتاب محاكاة لـ **جمهورية أفلاطون** في العديد من النواحي. انظر: المصدر نفسه.

الفيلسوف «كاسل» لمجتمع **وولدن تو** اليوتوبي. فيلاحظ الزائران أن السكان خالون من العاطفة إلى حد ما، وغير عاديين إلا أنهم سعداء، وأن مجتمعهم خالٍ من مشكلات كالجريمة وإدمان الكحول. ولا يظهر السبب الكامن وراء واقع الحال هذا في الصفحات المئة الأولى من الرواية، إلا جزئيًا، حيث يتم تسليط الضوء في الجزء الأول من الكتاب على كيفية تنظيم الأمور الدنيوية البسيطة في هذا المجتمع (مثل التحكم بدرجة الحرارة في أسرة الأطفال). ويتضح في ما بعد أن فريزر «نجح في إشراط «النقائص» كالغيرة، بعيدًا عن أعضاء مجتمع **وولدن تو**، ويقول فريزر في هذا الصدد: «لسنا خالين من الانفعالات ولا نريد أن نكون، ولكن الانفعالات المقيتة والمزعجة - تلك التي تولد التعس - فإنها غير موجودة هنا تقريبًا، كالتعس ذاته. لم نعد بحاجة إليها في صراعنا للبقاء، والاستغناء عنها أكثر رفقًا بدورتنا الدموية، وأدعى للسعادة بكل تأكيد»[6].

ومع أن الرواية كانت من نسج الخيال، كأي رواية، إلا أنها توحي لقرائها أن خلق مثل هذا المجتمع أمر ممكن. وينطوي هذا المدخل للمخلصين من أنصار السلوكية على إمكانات واسعة للهندسة الاجتماعية. ويزعم سكنر أنه «إذا استطعنا تحويل المجتمع إلى صندوق سكنر كبير وتحكّمنا في السلوك قصدًا لا عشوائيًا لاستطعنا إزالة العدوان، وضبط الزيادة السكانية، والتخلص من الاكتظاظ، والتلوث، وعدم المساواة، ولاستطعنا تاليًا الوصول إلى اليوتوبيا»[7]. وعلى الرغم من أن نوايا سكنر وراء هذه الدعوة كانت حسنة من دون أدنى شك، فإن الجوانب السياسية الراديكالية في تفكيره ألحقت ضررًا بسمعته إلى أجل طويل بعد وفاته حتى إن هناك في الوقت الحاضر من يعتبره «شريرًا»[8].

وبناء على هذه الخلفية يعرض فيلم «الآلية البرتقالية» (Clockwork Orange) وكتاب أنطوني بورغس (Anthony Burgess) الذي يحمل الاسم ذاته قصة شاب يدعى «ألكس» وهو سفّاح خطر يتم إخضاعه لتجربة اجتماعية؛ فيلقى القبض

---

(6) هذا الكتاب محاكاة لـ **جمهورية أفلاطون** في العديد من النواحي. انظر: المصدر نفسه.

(7) Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature*, p. 92.

(8) Lauren Slater, *Opening Skinner's Box: Great Psychological Experiments of the Twentieth Century* (New York: W. W. Norton, 2004), p. 7.

عليـه ويُعهـد بـه إلـى عالـم نفـس يدعـى «برودسـكي» (وهـو مـن أتبـاع واطسـون وسـكنر بشـكل واضـح). ويجـري إشـراطه ليُطـور نفـورًا مـن العنـف، وذلـك مـن خـلال الربـط بيـن رؤيـة مشـاهد عنـف والإصابـة بالمـرض الجسـمي؛ حيـث كان يُعطـى عقـارًا يُسـبب الاسـتفراغ بينمـا كان يشـاهد مناظـر عنـف علـى الشاشـة، ويُجبـر علـى فتـح أجفانـه للتيقّـن مـن بمشـاهدته لتلـك المناظـر. ويسـمي «بورغـس» هـذا التكنيـك فـي روايتـه بــ «تكنيـك لادوفيكـو». وكان أن جعلـوا «ألكـس»، المجـرم الخطـر، مسـالمًا بالقـوة.

وقـد طـاول بورغـس شـيء مـن سـوء السـمعة، بغيـر حـق، عندمـا قـام المخـرج السـينيمائي سـتانلي كوربـرك بتحويـل كتابـه إلـى فيلـم عنف فـي بداية السـبعينيات. ولم يكـن بورغـس يقصـد مـن الكتـاب تمجيـد العنـف، بـل كان يقصـد طـرح قضيـة فلسـفية عـن الإنسـان وحريـة الاختيـار وهـو مـا يتناقض مـع طموحـات السـلوكية لتغييـر المجتمع. وبحسـب تعبيـر بورغـس ذاتـه كانـت الروايـة «إثباتًـا لحريـة الإرادة»[9]. وتتضـح فكـرة بورغـس هـذه عندمـا يقـوم الدكتـور برودسـكي بتقديـم ألكـس «المعـدّل» إلـى جمهـور، يُفتـرض أن يكـون صفًـا دراسـيًا مـن نوع مـا، قائـلًا: «هذا الشـخص الـذي اتخذنـاه موضوعًا للتجربـة، أُرغـم علـى الخيـر من حيـث إنـه كان مرغمًا على الشـر، ويـا للمفارقـة!». ويتابع برودسـكي مخاطبًـا الجمهـور: «جعلنـا أي نيـة لديـه للقيـام بفعـل عنـف يصاحبهـا شـعور شـديد بالإعيـاء الجسـمي، وللتخلـص مـن تلـك المشـاعر كان عليـه اتخـاذ اتجـاه مضـاد تمامًـا للنيـة الأولـى بـكل مـا فـي الكلمـة مـن معنـى». علـى أن أحـد السـائلين يعتـرض قائـلًا: «إن ألكـس الآن لا يملـك خيـارًا حقيقيًـا، أليـس كذلـك [...] هـو مـا عـاد يرتكـب فعـل الشـر، ولكنـه مـا عـاد مخلوقًـا قـادرًا علـى الاختيـار الأخلاقـي» [بمعنـى أنهـم جعلـوا امتناعـه عـن فعـل الشـر أمـرًا لا إراديًـا، وليـس خيـارًا إراديًـا]. ويـرد برودسـكي علـى هـذه الحجـج قائـلًا: لسـنا معنييـن بالجانـب الأخلاقـي مـن الأمـور، وإنمـا نحـن معنيـون بقطـع دابـر الجريمـة»[10]. ولكـن الفكـرة الأسـاس لـدى السـائل أن القـدرة علـى الاختيـار بيـن

---

(9) Anthony Burgess, *You've Had Your Time: Being the Second Part of the Confession of Anthony Burgess* (New York: Penguin Books, 1990), p. 245.

(10) Anthony Burgess, *A Clockwork Orange*, Restored Version (New York: W. W. Norton, 1986), p.126.

صدَرَ هذا الكتاب بداية عام 1962، كما ظَهَرَ هذا المشهد في فيلم كوبرك، حيث لعِب كاهن دور السائل.

الصواب والخطأ هي ما يجعل الإنسان إنسانًا، وإذا ما أُخذت منا هذه الميزة، بطريقة أو بأخرى، فإننا نفقد إنسانيتنا. والمغزى السياسي وراء ذلك هو أن الحكومة عندما عرّضت «ألكس» لهذه التجربة ألحقت به أذى يفوق الأذى الذي صنعته جرائمه.

ومن جانب آخر من السهل رؤية الفوائد الاجتماعية لمثل هذه التكنيكات إذا ما وُضعت موضع التنفيذ. لقد توفي سكنر قبل بضع سنوات من نشر كتاب بورغس ولكنه كان سيرد على نقده بشيء كالآتي: لقد تم إشراطنا جميعًا من خلال الظروف التي نعيشها وهذا ما يحدث حاليًا بطريقة اعتباطية، غير منظمة، ولكن ماذا لو سُمح لعلماء النفس والأطباء النفسيين بإِشراط عامة أفراد المجتمع، بدعم من الحكومة بطبيعة الحال، ليسلكوا بطرائق مقبولة اجتماعيًا، أو في الأقل لكي لا يسلكوا بطرائق عنيفة أو مضادة للمجتمع؟ إن كل ما ندعو إليه هو تنظيم عملية الإشراط التي تحدث طبيعيًا على أي حال. خذ على سبيل المثال جريمة الاغتصاب، إن معظم الذكور في المجتمعات الصناعية المتقدمة يربأون بأنفسهم عن ارتكاب مثل هذا الفعل، على الأرجح، حتى لو سمح لهم المجتمع بذلك، على الرغم من صعوبة قياس هذا الاتجاه للتحقق من مدى صحته. ولكن الذكور في المجتمعات التي تسيء معاملة النساء بوجه عام، قد يقومون بالإساءة إلى النساء فعليًا وبطرائق مختلفة إذا كان المجتمع يبيح ذلك أو يشجعه. ولكن ماذا لو تم إشراط جميع الذكور في المجتمع في عمر مبكر كي يجدوا الاغتصاب وغيره من جرائم العنف مقيتة وبربرية؟ ماذا لو تعلموا أن يجدوا هذه الجرائم مقززة إلى حد يجعلها لا تخطر على بال إطلاقًا؟ أليس هذا ثمنًا يستحق أن ندفعه؟ وقبل هذا وذاك لا بد أن يكون هناك حدود للحرية، ونحن نقبل هذه الحدود بقبولنا للقواعد والقوانين، والسلطة بمختلف أشكالها. ومع أن حرية الإرادة أمر مرغوب بلا شك، إلا أن أمورًا كحرية الاغتصاب والتعذيب والقتل لن تجد من يدافع عنها. ألا يكون المجتمع أفضل حالًا في نهاية الأمر لو أن «ألكس» وأمثاله فقدوا حقهم في حرية القرار الأخلاقي؟

ولكن من الذي يحق له أن يقرر السلوكيات التي يجب أن تشجّع، وتلك التي يجب ألا تشجّع؟ فنحن نتفق جميعًا على سبيل المثال على أن الاغتصاب

غير مقبول، ولكن ماذا عن قراءة الكتب الإباحية؟ وماذا عن شرب الكوكايين؟ هل يجب أن يتم إشراطنا جميعًا لنجد تعاطي المخدرات أمرًا لا يخطر على بال؟ هل يجب أن نُشرَط لكي لا نتعاطى تدخين التنباك أو شرب الكحول؟ النقطة المهمة هنا أن أحدًا ما يجب أن يقوم بوضع خط بين المقبول وغير المقبول، وأن يكون هذا الخط محددًا اجتماعيًا، وأن يتاح له تاليًا أن يكون موضوع جدل سياسي. ولنأخذ عددًا من الأمثلة الشهيرة في هذا السياق؛ فتعاطي الماريوانا مثلًا مشروع في مقاهٍ مرخّصة في هولندا، ولكنه قد يقود إلى تمضية ليلتين في السجن مع دفع غرامة كبيرة في لندن - ليس بعيدًا من هولندا. والبغاء مشروع في أجزاء من نيفادا ولكنه ليس كذلك في أوهايو. ويستطيع أي شخص اقتناء بندقية في الولايات المتحدة عندما يبلغ الثامنة عشرة ولكنه لا يستطيع طلب كأس من البيرة، في حين يستطيع كل من يبلغ الثامنة عشرة، أو حتى دونها، طلب ذلك في أي حانة في معظم أرجاء أوروبا الغربية، ولكنه سيجد من الصعب شراء سلاح ناري بطريقة قانونية. والمثير للسخرية أن شرب ويسكي البوربون «جاك دانيالز» في بلد المنشأ غير قانوني، حيث لا يُسمح فيها بشرب الكحول، بينما يستطيع المتسكعون على طول شارع بوربون في نيوأورليانز شربه من الزجاجة. وتُرجَم النساء الزانيات حتى الموت في إيران، في حين أن من يرتكب هذه الجنحة (سواء كان امرأة أم رجلًا) يُعاقب في الولايات المتحدة بمجرد تكشيرة. وهناك أمثلة لا حدود لها يمكن أن نوردها في هذا السياق، لكن النقطة الجوهرية هي أن المجتمعات المختلفة، وحتى الأجزاء المختلفة من البلد الواحد، لها وجهات نظر مختلفة في الصواب والخطأ. ويظهر ذلك واضحًا للعيان في نظام فدرالي كالولايات المتحدة - التي تمتلك خليطًا من القوانين يربك الزائرين لها ويحيرهم.

وقد كان سكنر ذاته واعيًا بهذه القضية، وسأل: «من ذا الذي يصنع البيئة الحاكمة ويحدد غاياتها؟» ويتابع، «يُفترض أن الإنسان الموجّه ذاتيًا يحكم نفسه بنفسه وفقًا لقيم مبنية في داخله، ويعمل لغاية خيّرة في نظره. ولكن، ما الذي يجده الحاكم المزعوم خيرًا، وهل سيعدّ ذلك خيرًا في نظر الذين يحكمهم؟»

إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة يقتضي حكمًا قيميًا طبعًا»[11]. كذلك كان سكنر واعيًا بقضية انتفاء القدرة على صنع القرارات الأخلاقية لدى الإنسان المشرَط. فقبل نقد بورغس بوقت طويل، جعل سكنر شخصًا يدعى «كاسل» في «وولدن تو» يوجه إلى فريزر نقدًا حادًا لأنه «انتزع الزنبرك الرئيس من الساعة»[12]. وقصد بذلك أن فريزر انتزع من أفراد مجتمع «وولدن تو» الشيء الذي يجعلهم بشرًا. ويتصدى فريزر لاحقًا لمسألة حرية الإرادة بشكل مباشر، فيقول إن الفكرة فكرة وهمية في مجتمع تم إشراطه في حقيقة الأمر بطريقة عشوائية اعتباطية، ويضيف:

> صديقنا كاسل قلق بشأن الصراع بين الدكتاتورية الشاملة وحرية الإرادة. ألا يعرف أنه يثير السؤال القديم عن المصير المحتوم وحرية الإرادة؟ كل ما يحدث يحدث وفق خطة معدّة سلفًا، ولكن الأفراد يجرون الخيارات ويحددون النتائج في كل مرحلة من مراحل تلك الخطة. وهذا ينطبق على «وولدن تو». فأعضاء مجتمعنا يقومون عمليًا بما يريدون - أو بما يختارون فعله - ولكننا نعمل على جعلهم يرغبون في ما هو أفضل لهم ولمجتمعهم. سلوكهم محدد [مخطط له]، ولكنهم أحرار»[13].

ويقول فريزر في مناسبة أخرى: إن هذه القضية الفلسفية ليست سوى مماحكة لا أهمية لها، «فنحن [في «ولدن تو»] لا نخلق الحيرة لأدمغتنا الصغيرة بالمفاضلة بين الحب والواجب... نحن ببساطة نرتب عالمًا لا تحدث فيه صراعات حادة إلا نادرًا، أو إطلاقًا إذا أسعفنا الحظ»[14].

غنت فرقة «الرولنج ستونز» في الستينيات أغنية من تأليفها تقول: «أنا حر أعمل ما أريد في أي وقت مضى». ولكن سكنر شكك في صحة الفكرة (الشائعة) بأننا أحرار لمجرد أننا نفعل ما نريد. ويُشكك سكنر في صحة الفكرة

---

(11) B. F. Skinner, *Beyond Freedom and Dignity* (Indianapolis, IN: Hackett Publishing, 2002), p. 22.

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام 1971.

(12) Skinner, *Walden Two*, p.103.

(13) المصدر نفسه، ص 279.

(14) المصدر نفسه، ص 149.

الشائعة بأن البشر يختارون اختيارات حرة ومستقلة، ويزعم أن مفاهيم الحرية والكرامة الإنسانية ما هي إلا أوهام - في معظمها - فنحن نريد ما نريد لأننا أُشرِطنا كي نريد الشيء الذي نريده، وذلك من خلال المعززات الإيجابية (المكافآت) والمعززات السلبية (العقوبات) أو كليهما. عند اقتراحه سيطرة الدولة على عملية الإشراط لم يساوره قلق من خطورة التحول إلى التوتاليتارية (الشمولية)، بل نادى بها. هذه الأفكار قرعت أجراس الإنذار لدى العديد من النقاد - في حقبة حارب فيها الغربيون خطر الفاشية، وشُغلوا بالتحدي الذي خلقته الشيوعية العالمية، فكان هذا هو الجانب المظلم من تفكير سكنر وهو ما أساء إلى سمعته إلى أمد طويل بين الطلبة والباحثين الذين لم يعرف بعضهم عن أعماله إلا القليل.

وفي نهاية الأمر قد يكون هذا الجدل عقيمًا - على الرغم من أهمية القضايا مدار النقاش فيه - حيث إن معظم علماء النفس اليوم يشككون في قدرة الإشراط على تغيير سلوكيات الفرد الأساسية من حيث المبدأ. ومع أن كتاب **الآلية البرتقالية** والفيلم المرتبط به يبينان أن الإشراط يفعل فعله، إلا أن تطبيق تكنيكات شبيهة بلادوفيكو في مواقف واقعية لم تلق النجاح، ومن ضمن هذه المحاولات محاولة تغيير التوجهات الجنسية المثلية[15]. والمشكلة في توقع نجاح هذا النوع من الإشراط تكمن في الافتراض بأننا «صفحات بيضاء» يمكن أن يُنقش عليها ما تحمله الثقافة والبيئة المحيطة من مضامين، ولكن بناءنا الجيني وشبكاتنا العصبية، ونزعاتنا - بالمعنى الذي استعملناه في هذا الكتاب - تؤدي دورًا حاسمًا في تكوين سلوكنا.

إلا أن من الخطأ افتراض أن الإشراط لا يعمل أبدًا - فهذا الافتراض مُجانب للصواب. لكن التكنيكات السلوكية بشكل عام، تعمل على أفضل وجه ممكن حين يكون التغيير المطلوب ليس تغييرًا جذريًا في أسلوب الحياة، حيث يمكن معالجة اضطرابات القلق بنجاح في كثير من الأحيان باستخدام الإشراط. ومن هذه الاضطرابات القلق الاجتماعي وما يصاحبه من نوبات

(15) Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature*, p. 94.

هلع في المواقف الاجتماعية أحيانًا. إذ يبدأ علاج هؤلاء الأشخاص بتهدئة روعهم مرات متتالية في مواقف «آمنة» أو تمثيلية حتى يحل الشعور بالأمن محل الشعور بالقلق عندما يكونون مع أناس لا يعرفونهم. فمعظم المدرسين المبتدئين يشعرون بالتوتر عندما يواجهون مئتين من الطلبة لأول مرة - كما حدث مع مؤلف هذا الكتاب قبل بضع سنين. ولكن الإشراط يساعد على التخلص من التوتر حين تتكرر مواجهة الفرد للموقف الباعث على القلق [في ظروف مريحة يوفرها المعالج] فتأخذ مشاعر القلق بالتبدد تدريجًا وتحل محلها مشاعر الارتياح عند مواجهة الموقف لاحقًا.

غير أن هناك حدودًا لتعديل السلوك من خلال الإشراط المنظم. فعلى سبيل المثال، حارب لاعب كرة القدم الأيرلندي جورج بيست معركة طويلة ضد إدمان الكحول. وكان بيست صاحب موهبة استثنائية، لعب مع فريق مانشستر يونايتد في أوج احترافه من نهاية الستينيات إلى نهاية السبعينيات. وأمضى في الولايات المتحدة المرحلة الأخيرة من حياته المهنية ضمن اتحاد أميركا الشمالية لكرة القدم (المنتهي). وعاش حياة المشاهير، وكان يُصَوّر في ملاهي لندن الليلية وهو يرفع زجاجات الشمبانيا بصحبة عارضات أزياء جميلات.

وكالعديد من مدمني الكحول، أصبح بيست شخصية غير موثوق بها في مجاله المهني حتى إنه ما عاد يذهب إلى المباريات. وبعد تقاعده من كرة القدم ظل بيست يشرب ويذهب إلى الحفلات إلى حد مبالغ فيه. وفي إحدى مراحل حياته قام الأطباء بزراعة جهاز في داخله يؤدي به إلى الاستفراغ كلما شرب الكحول - وهذا نوع من الإشراط الكلاسيكي على طريقة كلب بافلوف - أملًا في أنه سيربط بين طعم الشراب والإصابة بالمرض. ولكن ذلك لم ينجح وعاد إلى الشراب حتى بعد إجرائه زراعة للكبد. وتوفي في النهاية عام 2005 عن تسعة وخمسين عامًا فقط[16]. وباستثناء البرازيلي بيليه وربما الأرجنتيني

(16) تتمثّل المشكلة الخاصة في هذا التكنيك عند تطبيقه على الكحوليين في أن كثيرين منهم تعودوا الاستفراغ آخر الليل أو في الصباح الباكر لليوم التالي على أي حال، وبذلك فإن محاولة إشراطهم باستخدام عقوبة يلحقون بها أنفسهم بانتظام لن تؤدي إلى إحداث تغيير في السلوك على الأرجح.

مارادونا، يعتبره كثيرون أمهر لاعب على الإطلاق وأكثرهم موهبة وقدرة على إمتاع الجمهور.

لا شك في أن رؤية سكنر هذه تنطوي على جوانب سياسية راديكالية: فعندما يجادل في أن خياراتنا في الواقع لا تصدر عن إرادة حرة فإنه بذلك يقوّض - في ما يقوِّض - الفكرة الأساس التي يقوم عليها النظام القانوني الغربي. فذلك النظام يفترض - بأبسط صيغة ممكنة - أننا إذا قمنا بأفعال ذميمة، فإننا نستحق العقاب؛ خياراتنا لها تبعات ونحن مسؤولون عنها. ولكننا إذا ما قبلنا الحجة المضادة القائلة إن خيارات البشر ليست ذاتية [لا تصدر عن إرادة حرة]، فإننا بذلك لا نهدم فكرة أن الأفعال «السيئة» يجب أن تعاقب فحسب، ولكننا نهدم أيضًا فكرة أن الإنجازات «الحسنة» تستحق الثناء والمكافأة. وتصبح البيئة المحيطة بنا كأنها نوع من محرِّك الدمى. ويفيد سكنر أن الرؤية التقليدية للأمور بأن الفرد «يُعتَبر مسؤولًا عن سلوكه، ليس بمعنى أن يُلام أو يُعاقب عندما يخطئ فحسب، بل كذلك بمعنى أن يُنسب إليه الفضل ويُحاط بالتقدير لما يحقق من إنجازات». ومن جهة أخرى، يضيف سكنر: «إن التحليل العلمي ينقل الفضل كما ينقل اللوم إلى البيئة المحيطة، ولا تكون الممارسات التقليدية مبررة تاليًا. في هذه التغييرات في الرؤية راديكالية، وأولئك الذين يلتزمون النظريات والممارسات التقليدية سيقاومونها بطبيعة الحال»[17].

وسنعيد النظر في هذا النوع من الموقفية في الفصل الخامس من هذا الكتاب - وإن كان بمستوى أبسط من التناول - ونبيّن كيف أن هذا المنظور الموقفي يمثل تحديًا لفكرة مسؤولية الفرد القانونية، وذلك عندما نتناول تجربة ستانفورد، وفضيحة «أبو غريب»، وشهادة زمباردو في محاكمة أحد المتهمين في «أبو غريب» ومحاولته بيان أن المتهم لم يكن مسؤولًا عن أفعاله مسؤولية كاملة. وكما أشرنا في الفصل الأول، فإن القول إن المواقف تحدد أفعالنا يمثّل تحديًا هائلًا للأفكار الغربية المتعلقة بالمسؤولية القانونية، والتي تقوم على افتراض أنك إذا قمت بفعل ما، فإنك تُعتبر مسؤول قانونيًا عن ذلك الفعل

---

(17) Skinner, *Beyond Freedom and Dignity*, p. 21.

(والاستثناء لهذه القاعدة هو حالة القتل غير المتعمد، والذي يتعرض مرتكبه مع ذلك للعقوبة في معظم الأنظمة القانونية، كما أن إثبات الجنون طريقة أخرى طبعًا لتجنب المسؤولية القانونية عن فعلٍ ما).

لكن رؤية سكنر للعالم تنطوي على قدرٍ كبير من الديمقراطية في بعض جوانبها، فهي تلتقي «الحلم الأميركي» على سبيل المثال، الأمر الذي يفسر (ربما) الجاذبية التي تمتعت بها نظريته في حقبة الأمل التي جاءت بها الخمسينيات والستينيات. وربما يكون من السهل تصوير وجهة النظر الثقافية هذه كاريكاتوريًا، فالأميركيون يحملون منذ أمد طويل اعتقاد أن الأفراد أحرار في السعي إلى الأعمال وأساليب الحياة التي يرغبون فيها ماداموا لا يألون في ذلك جهدًا و«يلعبون وفق القانون». وبعبارة موجزة، تستطيع أن تكون ما تريد أن تكونه، وطريق حياتك ليس محددًا مسبقًا. وتتفق السلوكية كثيرًا مع هذه الرؤية وترى أن تطبيقها متاح؛ حيث يرى واطسون كما يرى سكنر أن نزعاتنا ليست ثابتة وإنما هي مرنة جدًا، وإن إنجازاتنا في الحياة تتحدد ببساطة بنوع الإشراط الاجتماعي الذي نتعرض له. فالشخص الذي أُشرط ليعتقد أنه قادر على تحقيق أشياء عظيمة في الحياة سيسعى إلى تحقيقها، على الأرجح، كما أن الشخص الذي أُشرط ليعتقد أن وضعه الاجتماعي يُكبّله لن يسعى إلى الانعتاق من ذلك الوضع [أي إن البيئة هي التي تُحْدث النزعات في كل الأحوال].

تقويم السلوكية

يبدو واضحًا أن هناك حججًا قوية تدعم السلوكية وحججًا قوية تعارضها سواء على صعيد تفسير السلوك السياسي أو على صعيد توجيه الممارسات السياسية. ويقدم الجدول (3-1) تلخيصًا لبعض من هذه الحجج.

خاتمة

إن القارئ مدعو لأن يقرر بنفسه بشأن هذه الحجج وأيها أكثر إقناعًا. ولعله من الغريب أن نجد قلة من الكتب الدراسية في علم النفس السياسي في الوقت الحاضر يُعنى بالمنطويات السياسية للسلوكية، نظرًا إلى أن الاهتمامات القائمة

في علم النفس في الحقبة الراهنة تلتقي بشكل مباشر الاهتمامات القائمة في مجال النظرية السياسية ومجال الممارسة السياسية على حد سواء. كما أن هذا الموضوع يتفق إلى حد كبير مع التمييز المفهومي بين الموقفية والنزوعية الذي ينطلق منه هذا الكتاب، من حيث إن السلوكية تمثل نموذجًا راديكاليًا للأول منهما. وحتى إذا بقيت غير مقتنع بهذا الشكل الصارخ من أشكال الموقفية، يظل هناك مناحٍ بديلة متاحة تحت المظلة العامة للموقفية، مما قد تجده أكثر قبولًا. وسنقوم بمناقشة هذه البُدَلاء في الفصول القادمة ونبدأ بعرض تجارب ملغرام ونتائجها المدهشة عن طبيعة طاعتنا للسلطة ومداها. ومقاربة ملغرام مقاربة موقفية في الجانب الأكبر منها، على الرغم من وجود بعض العناصر النزوعية في نظريته في الطاعة، كما يوضح الفصل الرابع من هذا الكتاب.

الجدول (3-1)

ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة للسلوكية

المؤيدة:	المعارضة:
- يمتلك العلم إجابات لايمتلكها السياسيون.	- في معرض نقد الآلية البرتقالية، يقال: إن ما يجعلنا بشرًا هو حقنا في الاختيار.
- نحن مُشرَطون [أي يتكوّن سلوكنا بالإشراط]، ولكن بطريقة اعتباطية [غير منظمة أو ممنهجة].	- مَن المخوّل بالقرار بشأن ما يجب أن نُشرط عليه، أو نشرط لئلا نكون عليه؟
- يجب أن نُشرط الناس لئلا يرتكبوا أفعال عنف (حتى إننا نستطيع أن نمنع وقوع الحروب).	- السلوكية قد تقود إلى الفاشية «من سيراقب الحراس؟».
- إن فوائد الإشراط تفوق تكاليفه إلى حد كبير.	- الإشراط ليس فعالًا في كثير من الأحيان.
- السلوكية ديمقراطية حقًا في بعض جوانبها.	

4
علم نفس الطاعة

يعتبر الراحل ستانلي ملغرام عالم نفس اجتماعي، وليس عالم نفس سياسي في أي حال؛ فقد أمضى حياته المهنية في أقسام علم النفس لا العلوم السياسية. ويُستخدم مصطلح علم النفس السياسي حصريًا (تقريبًا) في المجال الثاني، كما أشرنا سابقًا. وعلى الرغم من التسميات المختلفة التي يلصقها المهنيون من الحقول المختلفة بأعمالهم، فإن ملغرام يمكن اعتباره بحق واحدًا من أهم علماء نفس السياسة في زمانه. والحقيقة أن ملغرام بدأ دخوله إلى عالم الأكاديميا بوصفه طالب علوم سياسية، وبقي مهتمًا بالأبعاد النفسية للقضايا السياسية بقية عمره (التراجيدي القصير). ومع أن ملغرام قدم العديد من الإسهامات في دراسة السلوك الإنساني - مما له منطويات سياسية - فإنه سيُذكر دائمًا أكثر ما يُذكر على ما قام به من بحوث في مجال الطاعة السياسية (political obedience). فقد طرح ملغرام أسئلة جوهرية عمّا يجعل الأفراد على استعداد لإطاعة سلطة عليا كالدولة، حتى عندما تصطدم متطلبات تلك السلطة بشدة بالقيم والأخلاق التي نجلها ونقدرها أكثر من أي شيء آخر؟ وفي إجابته عن هذا السؤال قام ملغرام بدور فاعل في قلب التفسيرات النزوعية للطاعة (أو التقليل من جاذبيتها على الأقل)، وخصوصًا تلك التي تلت المحرقة النازية ووجهت اللوم إلى الشعب الألماني، مفترضةً أن لديه خصوصية غير مألوفة قادت إلى ذلك الحدث الكارثي.

الشخصية التسلطية

لكي ندرك التأثير الحقيقي لأعمال ستانلي ملغرام في ما حققنا من فهم

للطاعة السياسية وممارسات القتل الجماعي، لابد أن نفهم طبيعة الحقبة الزمنية التي أجرى بحوثه فيها. فقد عمل ملغرام على تجاربه في وقت كانت السيادة فيه لنظرية نزوعية تُعرف بـ «الشخصية التسلطية» (على الرغم من أنها كانت مثار جدل في ذلك الوقت). ففي الأربعينيات والخمسينيات حاول علماء اجتماعيون من حقول مختلفة فهم الأحداث الراعبة التي وقعت في معسكرات اعتقال مثل أوشويتز (Auschwitz) وداشاو (Dachau)، إذ أصبح سؤال «لماذا وقع الهولوكوست؟» أكثر الأسئلة إلحاحًا في العلوم الاجتماعية بعد عام 1945.

وكانت واحدة من الإجابات في ذلك الوقت تردّ ما حدث إلى شيء «غير عادي» أو استثنائي لدى الشعب الألماني، شيء جعل القتل الجماعي الذي ارتكبه النازيون أمر لا مناص منه، هذا إذا حاولنا تفسير الحدث استرجاعيًا. وبناء على كتاب **الشخصية التسلطية** الذي وضعه تيودور أدورنو (Theodore Adorno) وزملاءه ونُشر عام 1950، تُعتبر طبيعة الألمان أنفسهم، وبوجه خاص ممارساتهم المتعلقة بالتربية البيتية للأطفال، هي المسؤول المباشر عن خلق عدم التسامح، والتفكير المحافظ. ويؤكد أدورنو وزملاؤه في هذا الكتاب أن جذور الفاشية تعود إلى كبت الوالدين للأبناء والتسلطية التي يمارسونها عليهم[1]. والكتاب، وفق ما يشير إليه جيمس والر (James Waller)، متأثر بنظريات التحليل النفسي الفرويدية التى كانت مسيطرة في حينه، تأثرًا شديدًا. ويقول الكتاب:

> «إن جذور هذه الشخصية تتصل بدوافع فطرية غير مقبولة اجتماعيًا، أي دوافع الجنس والعدوان [بحسب المنظور الفرويدي]. وعندما تكون القيود المفروضة على التعبير عن هذه الدوافع شديدة بشكل غير عادي يصبح الفرد قلقًا، يفتقر إلى الشعور بالأمن، ويعتمد على السلطة الخارجية في توجيه سلوكه إلى حد كبير. ويتجاوز تبجيل هذه الشخصية للسلطة الاحترام المألوف، المتوازن، والواقعي الذي يكنّه معظمنا لها، ما يعكس حاجة عاطفية مبالغ فيها للخضوع»[2].

---

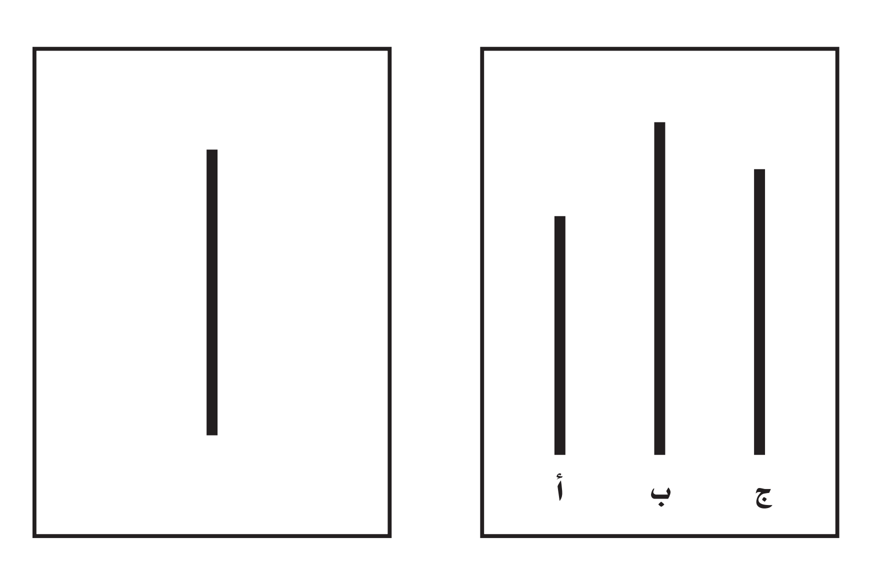
(1) Theodore Adorno [et al.], *The Authoritarian Personality*, Studies in Prejudice. American Jewish committee, Social Studies Series; no. 3 (New York: Harper and Row, 1950).

(2) James Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing* (New York: Oxford University Press, 2002), p. 77.

كذلـك فـإن ممارسـات التنشـئة المتشـددة للأطفـال تولّـد خوفًـا مكبوتًـا وعدائيـة، مـا يتطلـب مخرجًـا فـي وقـت لاحـق. ويأتـي هـذا المخـرج علـى شـكل إبـدال أو إحـلال (displacement)، يُسـتبدل فيـه العـداء للوالديـن بالعداء لجماعـات الأقلية، أو العـداء بوجه عام لأولئـك «المختلفيـن» [عـن الجماعـة التـي ينتمـي إليهـا الفـرد]. وقد طـوّر أدورنـو وزملاءه كذلـك مقياسًـا - يُعـرف اليـوم ببسـاطة بـــ «مقيـاس ف» (F-Scale) [وهـو مقيـاس للاتجاهات الفاشـية]. وقـد جـرى اسـتخدامه لقياس الارتبـاط بين سـمات شـخصية متنوعة والاسـتعداد لتصديـق الدعايـة الفاشـية أو المضـادة للديمقراطيـة.

تجارب ملغرام

كان سـتانلي ملغـرام موقفيًـا متشـددًا، ومُشـكّكًا فـي النظريـات النـزوعية كتلك التي أشـرنا إليهـا أعـلاه لأن هـذه النظريات تعزو سـلوك البشـر إلـى نزعاتهم فحسـب [من دون أخـذ المواقـف التـي يواجهونهـا بالاعتبـار]. وكواحـدٍ مـن أتبـاع عالـم النفـس الاجتماعـي سـولومون آش (Solomon Asch)، رأى ببصيرتـه النافـذة أن وضـع الأفـراد فـي موقـفٍ اجتماعـي ضاغـطٍ بقـدر مـن الشـدة، كفيـل بجعلهـم يسـيرون ضـد نزعاتهم بمـا فيهـا مـن اعتقادات وقيـم، وحتـى ضد مـا تراه أبصارهم، علـى غرار ما وجـد آش. وكان آش قد بيّن في سلسـلة مـن التجـارب التي نالت شـهرة واسـعة في الخمسـينيات، أن الأفـراد قد ينسـاقون فعلًا إلى إجمـاع الجماعـة حتـى عندمـا يتعـارض ذلـك الإجمـاع مـع مـا تـراه أبصارهـم. وقـد اعتمـد آش فـي تلـك التجـارب مهمة بسـيطة، هـي مهمة تقديـر أطوال خطـوط كتلـك المبينة في الشـكل الرقـم (4-1). وكمـا يظهر في هذا الشـكل هناك بطاقـة عليها ثلاثة خطـوط (أ، ب، ج)، وبطاقـة عليهـا خـط واحد. وإذا افترضنـا أنك تخضع لهـذه التجربة، فإنه سـيُطلب إليك الإشـارة إلـى الخـط من الخطـوط الثلاثـة الموجـودة علـى البطاقة الأولـى الذي يُقـارب في طولـه الخـط المنفـرد الموجـود علـى البطاقـة الثانيـة، ونتوقـع منك إعطـاء إجابـة صحيحة بـكل تأكيد.



الشكل (4-1)

البطاقات التي استُخدمت في تجارب سولومون آش عن ضغط الجماعة

وهذا ما وجده آش في الواقع عندما طلب إلى عدد من المبحوثين القيام بسلسلة من هذه المهمات كل على انفراد. ولم تكن هذه النتيجة شيئًا مزلزلًا بطبيعة الحال، لأن طفلًا بعمر الأربع أو الخمس سنوات يستطيع إنجاز ذلك بنجاح. غير أن آش لم يكن يُعنى بأحكام الأفراد على أطوال الخطوط ضمن هذا الوضع، فلم يكن ذلك الوضع سوى الشرط القاعدي للتجربة [أي الشرط الذي يُعطي الأفراد فيه أحكامهم من دون تأثير خارجي، في هذه الحالة]. وكان الغرض الحقيقي من التجربة استقصاء ما جاء لاحقًا، عندما كان المبحوثون يوضعون في مجموعات ويُطلب إليهم إعطاء تقديراتهم بعد سماع تقديرات الآخرين. غير أنه كان يجرى إدخال شيء من الإيهام (أو الخداع) المثير للاهتمام في هذه الحالة، حيث كان يوضع المبحوث في غرفة مع ستة أشخاص آخرين، هم في الحقيقة معاونون للمجرب يدّعون أنهم يشاركون كمجربَّ عليهم. وقد تلاعب آش في هذا الشرط التجريبي بحيث جعل الأشخاص الستة يجيبون إجابات صحيحة أحيانًا ليؤكدوا صدقيتهم، ويجيبون جميعًا إجابة خطأ في أحيان أخرى، وجعل ذلك يتكرر في إجابات لاحقة تاركًا المبحوث الحقيقي يواجه معضلة صعبة. فقد كان معاونو المجرب يتفقون جميعًا على أن الخط (ب)، على سبيل المثال، هو الأقرب في الطول إلى الخط المنفرد الموجود إلى اليسار.

افـرض أنـك تواجـه هـذا الموقـف بنفسـك، مـاذا كنـت سـتفعل؟ هـل كنـت سـتقف وتقـول للسـتة الآخريـن «أنتـم جميعًـا علـى خطـأ، وأنـا علـى صـواب، ألا تـرون أن البديـل الـذي اخترتمـوه هـو الإجابة الخطأ؟ أم ستشـعر بالخجل وتنسـاق مـع الأغلبية حتـى عندما تعـرف أنهـم يجيبون إجابـة غير صحيحـة؟ هل تجد غضاضة في التشـكيك فـي صحة حكم سـتة أشـخاص (وفـي ذكائهـم) وأنت تجلـس معهم وجهًـا لوجه، حتـى إن كنـت لا تعرفهم؟ أم سـتفكر فـي زيـارة نظاراتـي ليفحـص نظـرك؟ وجـد آش أن السـيناريوهات الأخيـرة هذه هـي الأكثـر شـيوعًا، بعبـارة أخـرى، انسـاقت الغالبية العظمـى مـن المبحوثين ببسـاطة مع الحكـم الخاطـئ للجماعـة، على الرغم مـن أنهم كانـوا يعرفون (أو يشـكون) أن ذلك الحكم كان خطـأ[3]. فقـد ذهـب 75 فـي المئـة منهـم ضـد حكمهـم الشـخصي [الصائب] مـرة في الأقـل عندمـا أجمعـت الجماعـة على إجابـة خطأ.

كان ملغـرام مهتمًـا اهتمامًـا بالغًـا بكيفيـة تأثيـر مثـل هـذه الضغـوط الاجتماعية في أحـكام الأفـراد، وبعـد تفكيـر طويـل خـرج بتصميـم بحـث غايـة فـي الإبـداع - وإن كان يتضمـن شـيئًا من الإيهـام (أو الخداع)، كما في بحث آش - وقد أكسـبه ذلك البحث شـهرة واسـعة، ولكنـه أثـار حولـه فـي الوقـت ذاتـه جـدلًا واسـعًا صاحَبه مـدى الحيـاة. فقـد أراد ملغـرام أن يعـرف مـدى اسـتعداد النـاس لإطاعـة الأوامـر حين تصدر عن سـلطة «شـرعية» وتقضـي بإيـذاء شـخص آخر، والحد الـذي يمكن أن يذهبـوا إليه بعد أن تـزداد هذه الأوامر قسـوة ولا إنسـانية. فابتكـر تجربـة يقـوم فيهـا شـخص فـي موقـع سـلطة (تمثّـل فـي رجل يرتـدي معطـف مختبـر) بالطلب مـن مبحوثين (يـوكل إليهم القيـام بدور معلميـن)، توجيه صدمـات كهربائيـة لضحيـة لا حـول لهـا ولا قـوة (تمثّلـت فـي شـخص يقـوم بـدور تلميـذ، يُعاقـب كلمـا أخطـأ)[4]، وأن يصعّدوا تلك الصدمـات لاحقًا (بحيث تزداد شـدة الصدمة كلما ارتكـب التلميـذ خطـأً جديـدًا). وكان يُبـرَّر هـذا الإجـراء للمبحوثيـن بأنـه جـزء مـن تجربـة

---

(3) كان لهذا البحث تأثير عميق واحد من أتباع الاتجاه الموقفي المعروفين، وهو إيرفنغ جانيس، كما سنرى في الفصل السادس من هذا الكتاب.

(4) Stanley Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View* (New York: Harper and Row, 1974).

علمية تدرس أثر العقاب على التعلم. وقد طبّق ملغرام هذا التكنيك التجريبي في ظروف (أو شروط) تجريبية متباينة من حيث قرب المبحوث (أي المعلم) من الضحية (أي التلميذ). ففي الشرط التجريبي التقليدي الذي صممه ملغرام كان «الضحية» يجلس في حجرة منفصلة عن الحجرة التي يجلس فيها المعلم بحيث يُسمع من وراء حائط غير سميك ولا يُرى. كذلك عدّل في جوانب أخرى من جوانب تصميمه الأساس هذا، غير أنه ظل يطلب إلى المبحوثين في كل الحالات أن يصعّدوا الصدمات التي يوجهونها إلى المتعلم إلى مستويات تتزايد شدةً.

ولم يكن «الضحية»، وهو في الحقيقة مساعد لملغرام يقوم بدور المتعلم، يتلقى أي صدمة كهربائية في الواقع على الإطلاق. وكان مولد الصدمات زائفًا أيضًا، لكن التجربة رُتّبت بطريقة مقنعة بحيث إن «المعلم» كان يعتقد حقيقة أنه يصدم «المتعلم». وقد أجرى ملغرام استطلاعًا قبل قيامه بهذه التجربة طلب فيه من أطباء ومختصّين نفسيين تقدير نسبة المبحوثين الذين يمكن أن يستمروا بتوجيه الصدمات إلى أقصى حد يُتيحه الجهاز، وهو حد 450 فولتًا. فأفاد هؤلاء المختصّون بأن النسبة لن تزيد على 2 في المئة[5]. غير أن ما أثار الذهول هو أن 65 في المئة من المبحوثين فعلوا ذلك في ظل الشرط التجريبي الذي جاء وصفه، واستمر جميعهم إلى النقطة التي وُصفت على الجهاز بأنها «خطر» أو بأنها درجة شديدة من الخطر «xxx». هذا، على الرغم من أن «الضحية» كان عندما يُصعق بمستويات معينة من الصدمة يصرخ بألم ويستغيث طالبًا الخروج من التجربة. كما لم تتبدل هذه النتائج عندما أدخل ملغرام نساء إلى التجربة كمبحوثات، وبقي معدل الطاعة 65 في المئة. وهذه النتيجة مثيرة للاستهجان لأننا نتوقع أن تكون النساء أقل طاعة (لأنهن يُعتبرن أكثر تعاطفًا) أو أكثر طاعةً (لأنهن يُعتبرن أكثر سلبية). غير أن ما يثير الدهشة أن النوع (الجندر) لم يكن له أثر يذكر.

(5) لو أن هذا الاستطلاع كان دقيقًا في تنبؤاته لما نال ملغرام الشهرة التي يحظى بها الآن؛ فالبحوث التي تأتي مطابقة للمعرفة التقليدية القائمة لا تجتذب الانتباه إلا في ما ندر.

ولـم يكـن هـذا كل مـا وجـده ملغـرام، إذ إنـه لاحـظ كذلـك عـددًا مـن ردود الأفعـال المثيـرة للانتبـاه - كعلامـات ضيـق وتوتـر ظاهـرة للعيـان لـدى المبحوثيـن جميعًـا - وإن كانـت بدرجـات متباينـة، عـلاوة علـى أن بعضهـم أخـذ فـي الضحـك، وأخـذ بعضهـم الآخـر فـي البـكاء. وبحسـب تقدير ملغـرام، لم يكـن ذلك الضحـك ناجمًا عن السـادية أو القسـوة، وإنمـا كان ردة فعـل للتوتر. كما اشـتغل المبحوثـون بجوانب تقنية، ضيقة مـن المهمة التي كانـوا يقومـون بهـا بعيـدًا عن جوهر مـا يفعلونـه، ولكنهم فـي نهاية الأمـر أنهم لـم يحمّلوا أنفسـهم مسـؤولية مـا فعلـوا. ويبـدو أن هنـاك تشـابهًا بيـن مـا انتـاب مبحوثي ملغـرام وما يحـدث للطياريـن الذيـن يقومون بقصـف المدنييـن بالقنابل إطاعـةً للأوامر. فقـد روى أحد الطياريـن الذيـن قامـوا بالعديد من الغـارات في فيتنام فـي فيلم وثائقي، حصـل على جائزة الأوسـكار للأفـلام الوثائقيـة، أنه كان يشـتغل بالمهمة التـي كان يقوم بها ولـم يكن يفكر في النـاس الذيـن يقصفهـم. وروى أنـه كان يشـعر كأنـه «مغني أوبـرا، يؤدي لحنًـا»[6].

كمـا عـدّل ملغـرام فـي الإجـراءات الشـكلية لتجربتـه بطرائـق ذات أهميـة نظريـة؛ فعمـل علـى إجـراء تعديـلات ليتعـرف الآثـار التـي تنتـج، علـى سـبيل المثـال، مـن تغييـر: (أ) الطريقـة التـي كانـت تُعطـى فيهـا الأوامـر، (ب) الموقع الذي تجـرى فيـه التجربة، (ج) المسـافة بيـن «المعلـم» و«المتعلـم». فكانـت واحـدة مـن النتائـج المثيـرة للاهتمـام تلـك المتعلقـة بالقـرب المكانـي أو المسـافة بيـن المعلـم والمتعلـم، حيـث تبيّن أنـه كلما قلّت المسـافة بينهمـا قلّـت الطاعـة (إلا أنهـا لم تختـف تمامًـا). وظهر ذلـك بوجه خـاص عندما وُضـع «المعلـم» و«المتعلـم» فـي غرفـة واحـدة، وعندما كانـت إجـراءات التجربـة تقتضي أن يضغـط المبحـوث يـد الضحيـة على لوحة الجهـاز المولـد للصدمة - وهو شـرط «القرب - الملامسـة»، فانخفضـت نسـبة الطاعـة إلـى 18 فـي المئـة، أمـا في شـرط «القـرب» الذي كان المبحـوث والضحيـة فيـه يجلسـان معًـا فـي الغرفة وحسـب، فقـد زادت نسـبة الطاعة قليـلًا ووصلـت إلـى 20 فـي المئـة. ومـن الجديـر بالملاحظـة أن الطاعـة ظلـت عالية حتى فـي هـذا الشـرط.

---

(6) «Hearts and Minds,» (Directed by Peter Davis; Produced by Bert Scheider, Columbia Pictures Industries, Inc. App1.au: BBS Productions, 1974).

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن المبحوثين الذين شاركوا في هذه التجربة (والذين تم انتقاءهم من طريق إعلان في جريدة محلية) كانوا أشخاصًا عاديين، ملتزمين القانون من أبناء المجتمع المحلي لمدينة نيوهيفن، كونيكتيكوت [في الولايات المتحدة]، وكانوا ممثلين لفئات المجتمع المختلفة من حيث المستوى الاقتصادي الاجتماعي، والدين، وغيرها من الخصائص. وعمل ملغرام على استبعاد أي شخص ظهر ما يشكك في صحته النفسيه - وخصوصًا من ظهرت عليه علامات الشخصية السادية - لكي لا تُعزى النتائج التي يتوصل إليها لاحقًا إلى نزعات لدى المبحوثين لا إلى الشروط التجريبية التي يواجهونها[7]، حيث يُفترض أن إجراءات الانتقاء هذه تضمن إظهار تأثير الموقف وتحييد نزعات المبحوثين الشخصية - وخصوصًا اعتقاداتهم الأخلاقية - ووضعها خارج الصورة. والمنطوى الضمني الأبرز لهذا كله هو أننا جميعًا قد نخالف أعز مبادئنا وقيمنا عندما نواجه موقفًا تحثنا فيه على الطاعة سلطة نرى أنها سلطة شرعية. ويرى ملغرام أن المناحى النزوعية الأخرى، كمقاربة الشخصية التسلطية، لا تفسر أثر القوى الاجتماعية على السلوك وكيف أنها قد تكون أقوى أثرًا من النزعات. وترتكب المقاربات النزوعية بذلك خطأً قاتلًا حين تفترض أن «الأفعال الشريرة» لا يرتكبها إلا «أناس أشرار».

اعتياد الشر

ويُبيِّن ملغرام في كتابه **الطاعة: وجهة نظر تجريبية** (*Obedience: An Experimental View*)، التناظر بين أعماله الخاصة في مجال الطاعة وتحليل حنة أرندت لأدولف آيخمان في كتابها **آيخمان في القدس**[8]. وكان آيخمان ملاحقًا لمدة طويلة من الاستخبارات الإسرائيلية كمسؤول كبير في العهد النازي، مكلف بنقل اليهود إلى أفران الغاز في خلال المحرقة، وهرب من ألمانيا بعد الحرب. وتم اكتشافه في الأرجنتين عام 1960 يعيش بهوية مزيفة، وقد

(7) Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View*, p. 15.

(8) المصدر نفسه، ص 5، و Hannah Arendt, *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil* (New York: Viking Press, 1963).

جـرى اختطافـه إلـى إسـرائيل لمحاكمتـه علـى مـا ارتكـب مـن جرائـم. وتمـت إدانتـه في القـدس وإعدامـه لاحقًـا. وقامـت أرنـدت بتغطيـة محاكمـة آيخمان فـي حينه، لكن مـا أثار اسـتغرابها أكثـر مـن أي شـيء آخـر هـو مظهـره العـادي. وقـد تـم بـث المحاكمـة بثًّـا حيًّا وكامـلًا فـي إسـرائيل. وبـدلًا مـن الوحـش السـادي الـذي توقـع معظـم الإسـرائيليين رؤيته، رأوا رجـلًا عاديًـا، شـاحبًا يقف أمـام المحكمـة. كان نازيًا، وظيفته الرئيسـة متابعـة الملفات والتيقّـن بـأن القطـارات التـي تنقـل اليهود تسـير فـي مواعيدها.

جـرى انتقـاد أرنـدت بشـدة علـى هـذه الملاحظة فـي ذلك الحين لأسـباب قـد تكون مفهومـة، ولكنهـا ابتدعـت تعبيـرًا لوصـف آيخمان وأمثالـه أصبح مشـهورًا منذ ذلـك الوقت وهـو «اعتيـاد الشـر». ولـم يكـن فـي ظنهـا إعفـاء آيخمـان مـن المسـؤولية عما فعـل على الإطـلاق، وإنمـا رأت أن فعـل الشـر كثيـرًا مـا يكـون نتيجـة نهائيـة لسلسـلة مـن الأفعـال لا يتحمـل مسـؤوليتها شـخص واحـد بعينـه، وأن حلقـات تلـك السلسـلة يمكـن أن تتألـف (وكثيـرًا مـا تتألـف) مـن أفعـال أشـخاص وصفهـم المـؤرخ كريسـتوفر براوننـغ (Christopher Browning) أخيـرًا بأنهـم «رجـال عاديـون»[9]. وبالمثـل، وجـد ملغـرام أن توزيـع مسـؤولية اختبـار «الضحيـة» (أي المتعلـم) وعقابهـا على عـدد من الأفراد، تزيد نسـبة الطاعة بشـكل ملحـوظ. وربمـا يكـون لواقـع الحـال هـذا انعـكاس سياسـي واضـح تمامًـا مـن حيـث إن مهمـات أي قـرار سياسـي (أو تنفيـذه) تتـوزع فـي الغالـب على سلسـلة مـن الأفـراد، وهذا مـا يدعـوه ملغـرام «الشـر المنظـم اجتماعيًـا»؛ فـلا يكـون هناك شـخص واحد مسـؤولًا عن عمـل معيـن وحده.

وبالنظـر إلـى هاتيـن الملاحظتيـن معًـا - واللتيـن أجريتـا بمعـزل عـن إحداهمـا عــن الأخـرى، وكانــت الأولــى منهمــا روائيــة فــي طابعهــا (هــي روايــة أرنــدت)، والثانيـة تجريبيـة (هـى تجربـة ملغـرام)، نجـد أنهمـا تعطيـان تفسـيرًا لمـا بـدا عصيًـا علـى التفسـير وهـو الذبـح الممنهـج لليهـود فـي بلـدان «متحضـرة» تقـع فـي قلـب

(9) Christopher Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland* (New York: Harper Collins, 1992).

أوروبا. إضافة إلى ذلك فإن كثيرًا من ملاحظاتهم تظل ذات معنى عند تطبيقها على مذابح جماعية أخرى أكثر حداثة. أما ما حدث في ألمانيا النازية من قتل لليهود فما كان له أن يتحقق على ذلك النطاق الواسع لولا أن أفرادًا عاديين من المجتمع الألماني - يعتبرون أنفسهم مواطنين شرفاء، وعلى خلق، وملتزمين القانون - كانوا على استعداد للمشاركة (بشكل مباشر في بعض الأحيان) في عملية ترمي إلى قتل أناس آخرين، جريمتهم الوحيدة أنهم مختلفون عرقيًا عن رؤية أدولف هتلر لما هو (نموذجي) أو «مثالي». ويمكننا هنا أن نلاحظ بوضوح أن الخط الفاصل بين ما ندعوه «خيرًا» وما ندعوه «شرًا» قد يكون خطًا واهيًا يمكن اجتيازه بسهولة - كما حدث في حالة القتل الجماعي الرواندي السيئة الصيت عام 1994، حين قتل الجار جاره - نتيجة لعداوة حديثة العهد نسبيًا بُنيت على أسس عنصرية أنشأها المستعمرون الغربيون بطرائق مختلفة لتُلائِم أهدافهم.

لماذا نطيع: الاتجاه نحو النزوعية

يفيد ملغرام أن البنى الترتيبية التي يعيش البشر في أُطرها (والمتمثّلة في العائلة، والمدرسة، والكلية، والعمل، والمؤسسة العسكرية، وغيرها) جاءت نتيجة لتحيز في عملية التطور (لأن الترتيبية أدت وظيفة) فتأسس لدينا [بيولوجيًا] الاستعداد لطاعة السلطة. والمثير للاهتمام أن هذه الحجة تمثل النقيض للمقاربات الموقفية المتشددة كمقاربة المثير - الاستجابة السلوكية، التي تنظر إلى الدماغ الإنساني على أنه «صفحة بيضاء». ويُلمح ملغرام إلى أن البشر يولدون وهم يحملون نزعة أساسية للطاعة، وهذا الافتراض يمثّل الحجة الأساس للقائلين إن النزعات تكون موجودة عند الولادة. وبعد هذه النقطة يصبح تفسير ملغرام موقفيًا في طبيعته؛ حيث يؤكد أن هذا الميل التطوري يتفاعل مع البنى الاجتماعية وظروف محددة يجد الأفراد أنفسهم فيها ليؤدي إلى مستويات معينة من الطاعة[10]. فهناك عوامل تاليًا جعلت المبحوثين أميَل

(10) Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View*, pp. 123-134.

إلـى الطاعـة حتـى قبـل الوصـول إلـى التجربـة (نتيجـة للتنشـئة علـى طاعـة «الوحـدات العليـا» فـي البنيـة الترتيبية الاجتماعيـة)، وهذه بدورها تفاعلـت مع الظروف التـى صَنَعَتها التجربـة لتسـتدعي الطاعـة على المسـتوى الذي لوحـظ في هـذه التجارب. وبعـد أن أطاع الأفـراد، انتقلـوا إلى حالة يدعوهـا ملغرام «حالة الوسـاطة» (agentic state) - وهـي تمثل ظرفًا سـيكولوجيًا يـرى الأفـراد فيـه أنفسـهم غيـر مسـؤولين عـن أفعالهـم [لأنهـم مجـرد منفذين للأوامر][11].

نسبة الـ 35 في المئة لدى ملغرام

ومـا يزيـد في تعقيـد نموذج ملغـرام النظـري (الموقفي مـن حيث المبـدأ) أن هناك دليـلًا علـى وجـود تبايـن ثقافـي في درجـة إطاعـة أعضـاء المجتمعـات المختلفة للسـلطة. فقـد وجـد دايفـد مانتـل (David Mantell) الـذي كـرر تجربـة ملغـرام فـي ميونيـخ فـي بدايـة السـبعينيات أن معـدل الطاعـة فـي الصيغـة «الكلاسـيكية» للتجربـة كان 85 فـي المئـة، أي بزيـادة 20 نقطـة كاملـة علـى معـدل الطاعـة الـذي وجـده ملغـرام فـي نيوهيفـن [في أميـركا][12]. وهنـاك دليـل روائـي مثيـر للاهتمـام يشـير إلـى أن الروانديـين لديهم اسـتعداد خـاص لإطاعة السـلطة. فعندما سُـئل فرانسـوا كزافييـه نكورونزيـزا (Francois Xavier Nkurunziza) وهـو محـامٍ مـن كيغالـي (فـي روانـدا) أبـوه مـن الهوتـو (Hutu) وأمـه مـن التوتسـي (Tutsi)، عندمـا سُـئل عـن سـبب إقـدام العديـد مـن الروانديـين عـام 1994 علـى قتـل أنـاس كانـوا جيرانًـا لهـم فـي كثير مـن الحـالات، قال:

«الامتثـال عميـق جـدًا، ومتجـذر جـدًا فـي التاريـخ الروانـدي، الجميـع يطيعـون الأوامـر. النـاس يحترمـون القـوة، وليـس هنـاك كثيـر مـن التعليـم، خـذ سـكانًا فقـراء وجهلـة وأعطهـم سـلاحًا وقـل لهـم: «هـذا لـك، خـذه واقتـل»، فإنهـم سيطيعون. إن الفلاحيـن الذيـن دُفـع لهـم أجـر، أو أُجبـروا علـى القتـل كانـوا ينظـرون إلـى ذوي المكانـة الاجتماعيـة الاقتصاديـة العليـا ليقـرروا كيف

(11) *Obedience to Authority: An Experimental View*, pp. 123-134.

(12) David Mantell, «The Potential for Violence in Germany,» *Journal of Social Issues*, vol. 27, no. 4 (Fall 1971), pp. 101-112.

يتصرفون. لذا، فإن ذوي النفوذ [...] هم الرجال الكبار أصحاب القرار في القتل الجماعي. قد يعتقدون أن هؤلاء لم يقتلوا لأن أيديهم لم تتلطخ بالدماء، ولكن الناس كانوا يأخذون الأوامر منهم. وفي رواندا، يمكن أن تُلقى الأوامر بكل هدوء»[13].

إذا صح ما قيل عن رواندا فإنه يلتقي تمامًا مع نظرية ملغرام في الطاعة. ولا بد لتفسير ملغرام أن يأخذ بعين الاعتبار إمكان وجود فروق ثقافية في الاستعداد للطاعة، حيث إن البشر ينشأون اجتماعيًا ضمن بُنى سلطوية مختلفة. وفي الحالة الرواندية، هناك دليل كافٍ على أن ذوي السلطة من مختلف الأوساط، كالأمناء الإداريين، ورجال الأعمال، وحتى رجال الدين تغاضوا عمّا حدث في رواندا عام 1994 (أو شجعوا عليه)، فكانت أسرع عملية قتل جماعي في القرن العشرين.

ولكن الاتجاه الموقفي يواجه إشكالية معقدة في عجزه عن تفسير رفض الخمسة وثلاثين في المئة من مبحوثي ملغرام إطاعة السلطة عندما جاءت تلك الأوامر مخالفة لما تمليه عليهم ضمائرهم أو قيمهم. وهذه النسبة من الأفراد وإن كانت تمثّل أقلية إلا أنها أقلية لا يستهان بها. غير أن ملغرام لم يعطِ في تحليله كثير اهتمام لأولئك الذين رفضوا الإذعان للأوامر، ولكن خبرات هؤلاء الأشخاص وقيمهم، على ما يبدو - أو نزعاتهم بعبارة أخرى - كانت من الأهمية بمكان في قراراتهم، فلم يشعروا معها بأنهم «لا يملكون خيارًا» [غير الإذعان]. ومن بين أولئك الذين رفضوا توجيه الصدمة الكهربائية للضحية، امرأة نشأت في ألمانيا النازية (وهي عاملة تقنية في المجال الطبي أطلق عليها ملغرام في كتابه اسم غريتشن براندت (Gretchen Brandt). إذ يبدو أن هذه المرأة أدركت أوجه الشبه بين الأحداث الواقعية التى جرت في ألمانيا وما طُلب إليها القيام به في تجربة ملغرام، وكان الشخص الآخر غير المطيع أستاذًا في العهد القديم (التوراة). كما أننا نعرف أن هناك من رفضوا الإذعان للأوامر لأنهم اعتقدوا أن ما طُلب إليهم فعله كان خطأ. وهذا يوحى في مجمله أن النزعات فعلت فعلها لدى خمسة وثلاثين في المئة من المبحوثين في تجربة ملغرام، هم الذين رفضوا

(13) مذكور في: Philip Gourevitch, *We Wish to Inform you that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda* (New York: Picador/ Farrar, Straus, and Girowx, 1998), p. 23.

الإذعـان. كمـا لـم يكـن الموقف الـذي تصنَّعه ملغـرام مؤثـرًا بدرجـة كافية فـي الحالة التي اقتضـت توجيـه صدمـة إلـى ضحيـة تجلـس أمـام المبحـوث مباشـرة، حيـث رفـض 80 فـي المئـة منهـم الإذعـان للأوامر في هـذه الحالة. عـلاوة على ذلك فـإن مبحوثـي ملغرام جرى إبلاغهـم أن مـا طُلـب إليهـم فعلـه [أي توجيـه الصدمـات] لن يُلحـق ضررًا بصحة الشـخص الـذي يتلقـى الصدمـة - وهـذا الأمـر بحـد ذاتـه يعقـد تفسـير نتائـج التجربـة إن لـم نقـل يدحضهـا. فـي حيـن أن مـن يشـاركون فـي المذابـح الجماعيـة يعلمـون علـم اليقيـن أنهـم يلحقـون أذى حقيقيًا بالآخريـن - يفـوق سـوءًا كل مـا عـداه من أنـواع الأذى.

وكمـا أشـرنا فـي مناقشـتنا للنزوعيـة والمحرقـة النازيـة فـي الفصـل الأول، كان هناك العديـد ممـن رفضـوا المشـاركة فـي إبـادة اليهـود، وعملـوا ضـد النازييـن فـي هـذا الإطار. ومـن أبـرز هـؤلاء أوسـكار شـيندلر (Oscar Schindler)، الصناعـي الألمانـي الـذي خاطـر بـكل شـيء لحمايـة المئـات مـن اليهـود، وهنـاك كثيـر ممـن خاطـروا حتـى أكثـر ممـا خاطـر به شـيندلر لحمايـة أنـاس غرباء عنهـم تمامًـا. ويقـال إن راؤول والنبيـرغ (Raoul Wallenberg) وبير آنجـر (Per Anger)، وهمـا دبلوماسـيان سـويديان، أنقـذا مـا يقـارب 100.000 يهـودي هنغاري مـن أفـران الغـاز باسـتخدام الحصانـة الدبلوماسـية وإصدار جـوازات سـفر سـويدية مزيفة. كذلـك فإن القـس الألماني ديتريش بونهوفيـر (Dietrich Bonhoeffer) هاجـم النازية في مواعظه فـي كنيسـته وتـم إعدامـه لاحقًـا علـى «جرائمه». وفـي الحالـة الرواندية، قام رجـل أعمال مـن الهوتـو يدعـى بـول روسيسـاباجينا (Paul Rusesbagina)، بإنقـاذ مـا يزيـد عـن ألـف رواندي معظمهـم مـن التوتسـي (Tutsis) بإيوائهـم في فندق ورشـوة المسـؤولين بالويسـكي، والمال، وغيـر ذلك، وقد سـاهم فيلـم «أوتيل روانـدا» في ذيوع شـهرته[14]. ولعل كتاب «الشـخصية الإيثاريـة»، لا يُجانـب الصـواب حيـن يقـول إننـا لا نسـتطيع أن نفسـر الأعمـال البطوليـة لهـؤلاء «المنقذيـن» إلا بالرجـوع إلـى شـخصياتهم[15].

---

(14) انظر: Adam Jones, Genocide: *A Comprehensive Introduction* (New York: Routledge, 2006), pp. 275-281.

(15) Samuel Oliner and Pearl Oliner, *The Altruistic Personality: Rescuers of Jews in Nazi Europe*, Foreword by Harold M. Schulweis (New York: Free Press, 1988).

وإضافة إلى ذلك، فإن نموذج ملغرام وحده لا يقدر على تفسير جميع مظاهر القتل الجماعي، على الرغم من أنه يوضح العديد من القوى النفسية التي تجرف الناس العاديين وتجعلهم يسيرون في إثرها في مثل هذه المواقف. فهناك شيء غائب عن تجربة ملغرام، ولكنه حاضر في جميع حالات القتل الجماعي، كما سنرى في الفصل الثالث عشر، ألا وهو الميل الممنهج والمنظم لتجريد الضحايا من إنسانيتهم. ويقول جيمس والر في هذا الصدد: «إن وضع الضحايا خارج دائرة واجباتنا الأخلاقية، واعتبارهم غير جديرين بالعطف تبعًا لذلك، يزيل الضوابط الأخلاقية أمام ارتكاب البشر للعدوان. إن جسد الضحية المجرد من بشريته لا معنى له، هو نفاية، وإزالته أمر تقتضيه النظافة لا غير. وفي هذه الحالة لا يكون هناك أي إطار أخلاقي أو عاطفي يربط المعتدي بالضحية ويردعه عن القتل»[16]. ولعل تجريد اليهود من إنسانيتهم في أوروبا هو أوضح مثال على هذه الحالة. ويصف فيليب جوريفيتش (Phillip Gourevitch)، وصفًا يثير القشعريرة، لما حدث في الحالة الرواندية، وكيف جرى تجريد التوتسي من إنسانيتهم في عيون الهوتو على مدى السنين قبل وقوع القتل الجماعي عام 1994، إذ يقول: «كان يوصف أهل التوتسي في رواندا بإينينزي (Inyenzi)؛ أي «الصراصير»[17]. وقد جرى إطلاق هذا الوصف بدايةً على عصابات التوتسي التي حاربت نظام الهوتو الجديد الذي تولى السلطة في ثورة عام 1959، بعد أن عانوا طويلًا من التمييز»[18]. وكان يُستخدم هذا التعبير على راديو رواندا باستمرار بعد مقتل الرئيس الهوتي «هابياريمانا»، وكان المذيعون يحرضون الهوتو على قتل التوتسي. وغني عن البيان أن ليس هناك أكثر تحقيرًا وإهانة لإنسان من تشبيهه بحشرة.

ومما يثير الاهتمام أن المبحوثين في تجربة ملغرام قاموا بشيء من هذا القبيل في تعاملهم مع «المتعلم» - حيث قال أحد المطيعين مبررًا الصدمات الكهربائية التي وجهها للمتعلم «إنه يستحق ذلك فقد كان غبيًا جدًا»، على أن

---

(16) Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*, p. 245.

(17) Gourevitch, *We Wish to Inform you that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda*, p. 32.

(18) المصدر نفسه، ص 64.

هـذا الجانـب [أي كيفيـة تبريـر المبحوثيـن لمـا فعلـوه] لـم يكـن ظاهـرًا فـي تصميـم ملغـرام لتجربتـه. وأمـا المظهـر الآخـر الـذي كان غائبًـا عـن تجربـة ملغـرام فهـو العامـل الانفعالـي القـوي المصاحـب للقتـل الجماعـي عـادةً؛ فإلـى جانـب الغيـاب التـام للكراهيـة العنصريـة فـي الموقـف الـذي تصنّعـه ملغـرام، لـم يكـن هنـاك أي مبـرر لـ «إهانـة» المبحوثيـن للشـخص الـذي يوجهـون إليـه الصدمـة. وبالمقارنـة، وكمـا يشـير آدم جونـز (Adam Jones) «يصعـب أن نجـد حالـة قتـل جماعـي فـي التاريـخ أو فـي الوقـت الحاضـر لا يكـون فيهـا الإذلال دافعًـا رئيسًـا»[19]. والمثـال الواضـح علـى ذلـك مشـاعر الحنـق والمهانـة التـي اعتـرت الألمـان بعـد فـرض معاهـدة فيرسـاي العقابيـة عـام 1919. واجتمـع إلـى جانبهـا التضخـم المفـرط لعـام 1920، والركـود الكبيـر فـي الاقتصـاد، كل ذلـك جعـل كثيـرًا مـن الألمـان يبحثـون مـن حولهـم عـن كبـش فـداء يحمّلونـه اللـوم علـى مـا حـل بهـم مـن مصائـب[20]. وبالمثـل، حـدث فـي روانـدا أن المسـتعمرين البلجيـك وغيرهـم مـن الغربييـن ميـزوا عـن قصـد ضـد الهوتـو وحاربـوا التوتسـي وعاملوهـم كطبقـة متميـزة (وخلقـوا الاسـتياء الـذي لا مفـر منـه لـدى الهوتـو)[21]. وبوجـه عـام، يبـدو أن ظروفًـا اقتصاديـة - اجتماعيـة معينـة تـؤدي إلـى وقـوع قتـل جماعـي، أو أنهـا فـي الأقـل تهيِّـىء الظـروف المناسـبة لوقوعـه[22].

وفـي حيـن أن بحـوث ملغـرام توضـح الآليـات التـي تجعـل أناسًـا طبيعييـن، عادييـن يرتكبـون الفظائـع، إلا أننـا لا نسـتطيع أن نجـادل أن هـذه الآليـات وحدهـا تفسـر وقـوع القتـل الجماعـي تفسـيرًا تامًـا. ويجـب ألا نطلـب مـن ملغـرام، طبعًـا، أن يعيـد إنتـاج جميـع الشـروط المرتبطـة بالقتـل الجماعـي فـي مختبـره - فهنـاك أسـباب عمليـة وأخلاقيـة واضحـة تحـد ممـا يمكـن القيـام بـه فـي مثـل تلـك البيئـة - وبحوثـه فـي الطاعـة تاليًـا هـي نقطـة بدايـة لا غيـر فـي طريـق فهمنـا لأسـباب حـدوث القتـل الجماعـي. وبالمقابـل، كثيـرًا مـا يؤكـد ملغـرام أنـه اسـتطاع اسـتجرار قـدر اسـتثنائي

---

(19) Jones, *Genocide: A Comprehensive Introduction*, p. 268.

(20) المصدر نفسه، ص 269.

(21) Gourevitch, *We Wish to Inform you that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda*, pp. 47-62.

(22) انظر: Kristen Renwick Monroe, «Review Essay: The Psychology of Genocide,» *Ethics and International Affairs*, vol. 9, no. 1 (March 1995), pp. 215-239.

مـن الامتثـال (conformity) لـدى مبحوثيـه فـي غيـاب الكراهيـة العرقيـة، والتجريـد مـن الإنسـانية، والإذلال، والضائقـة الاقتصاديـة التـي أشـرنا إليهـا أعـلاه. ويعبـر ملغـرام عـن هـذه النقطـة فـي نهايـة كتابـه قائـلًا:

> إن النتائـج التـي شـاهدناها وشـعرنا بها فـي المختبـر مثيرة للقلـق، وتوحـي أن الطبيعة الإنسـانية، أو - بشـكل أكثر تحديدًا - نوع الشـخصية التى ينتجها المجتمع الديمقراطي الأميركـي، لا يُرتكـن إليهـا في تحصين المواطنين ضد أوامر سـلطةٍ حاقدة تأمر بالقسـوة، والمعاملـة اللاإنسـانية. إن نسـبة كبيـرة مـن النـاس يفعلـون مـا يقـال لهـم أن يفعلـوه، بغـض النظـر عـن مضمـون ما هـو مطلـوب، ومـن دون رادع من ضميـر، ما دامـوا يرون أن الأمـر يصدر عن سـلطة شـرعية[23].

تقويم نموذج (Paradigm) ملغرام في الطاعة

يبـدو أنـه مـن المناسـب أن نختـم هـذا الفصـل كمـا فعلنـا فـي الفصـل السـابق في بحـث السـلوكية بنظـرة إلـى نقـاط القـوة ونقـاط الضعـف الرئيسـة فـي مقاربـة ملغـرام. وسـنلخص تاليًـا النقـاط الرئيسـة التـي تمـت مناقشـتها فـي هـذا الفصـل. ومـع أن هـذه القائمـة ليسـت شـاملة، إلا أنها لا بد أن تسـاعدك في تقريـر مدى الفائدة التـي نجنيها من تجـارب ملغـرام لتفسـير القتـل الجماعـي والسـلوك السياسـي المتطـرف بوجـه عـام.

خاتمة

لقـد قمنـا حتـى الآن بتحليـل اثنيـن مـن تفسـيرات السـلوك السياسـي التـي تؤكـد قـوة البيئـة الاجتماعيـة فـي تكويـن السـلوك، همـا: نظريـة سـكنر السـلوكية ونمـوذج ملغـرام فـي الطاعـة. وقـد بدأنـا هـذا الكتـاب بوصـف فضيحـة «أبـو غريـب» التـي أضـرّت بصدقيـة أميـركا فـي غزوهـا للعـراق، كمـا أضـرت بالصـورة العامـة للولايـات المتحـدة فـي عيـون العالـم. وسـنتناول فـي الفصـل القـادم منظـورًا موقفيًـا آخـر قـد

---

(23) Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View*, p. 189.

يلقـي شـيئًا مـن الضوء على «أبـو غريـب». فهل كان السـلوك المشـين الـذي ارتكبه حراس السـجن نتـاج شـذوذات عقليـة لديهـم، أم كان صـادرًا عـن «بضـع تفاحـات فاسـدة»، كمـا زعـم جـورج بـوش وأعضـاء إدارته؟ وبعبـارة أخـرى هل نُلقـي اللوم علـى النزعات النفسـية للأفـراد؟ أم هنـاك محرضـات موقفيـة قـد تؤدي إلـى تكـرار الممارسـات ذاتها حتـى لو جاء أفـراد مختلفـون تمامًـا ليقومـوا بالأدوار ذاتها؟ هذا هو السـؤال الذي سـنتناوله فـي ما يلي.

الجدول (1-4)

ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة لنموذج ملغرام في الطاعة

المؤيدة	المعارضة
- استطاع ملغرام إقناع الغالبية العظمى من مبحوثيه (وصلت إلى 65 في المئة) أن يقوموا بأفعال مخالفة لنزعاتهم (ما يعكس قوة الموقف).	- لا يستطيع ملغرام تفسير سلوك المتمردين الذين تصرفوا وفق نزعاتهم والذين مثّلوا نسبة 35 في المئة من المبحوثين.
- لم يلجأ إلا إلى قدر قليل من الضغط لاستدراج مستوى عالٍ من الطاعة (فكانت «السلطة» تتمثل برجل يرتدي رداء مختبر رماديًا فحسب).	- يبدو أن هناك فروقًا ثقافية في الاستعداد للطاعة، تعود إلى نزعات متباينة لدى الشعوب.
- تلتقي النتائج التى خرج بها مع نتائج بحوث مهمة في علم النفس الاجتماعي مثل بحوث سولومون آش (في التأثير الاجتماعي)، ما يحقق لها دعمًا قويًا.	- يقدم ملغرام ذاته نظرية في الطاعة تقوم على افتراض وجود نزعات تم توريثها في خلال عملية التطور.
- كانت نتائجه مشابهة لملاحظات أقل منهجية ولكنها لا تقل إثارة للاهتمام، هي ملاحظات حنة أرندت.	- كثير من العوامل المرتبطة بالقتل الجماعي غائبة عن تصميمه التجريبي.
- إن ما توصل إليه ملغرام من نتائج عن تباين نسبة الطاعة وفقًا لمدى القرب من الضحية يتفق مع الدروس المستخلصة من حروب العصر الحديث.	

5
صناعة «صندوق فاسد»(*)

رأينـا في الفصل السـابق أن السـلوكية ليسـت هي المنظـور الوحيد الـذي يؤكد أهمية المحـددات الموقفيـة فـي تكويـن السـلوك السياسـي، وسـنتناول فـي هـذا الفصـل منظـورًا موقفيًـا آخـر، ربمـا يكون - فـي بعـض النواحي - أكثـر راديكالية في اسـتنتاجاته مـن منظور ملغـرام، ذلـك هـو المنظـور الـذي يقدمـه فيليـب زمبـاردو. فمنظـور ملغـرام، كمـا سـبق أن أشـرنا، يتضمـن عناصـر نزوعية، غيـر أن بحوث زمبـاردو التي سـنتناولها في هذا الفصل أشـد موقفيـة فـي منطوياتها مـن منظـور ملغرام.

كان فيليب زمباردو - الأسـتاذ الشاب في جامعة كاليفورنيا عام 1979 - مهتمًا بدراسة أثـر الأدوار التـي يقوم بها العاملون في السـجون على سـلوكهم. وافترض أننـا إذا ما انطلقنا مـن منظـور موقفي، فإننا يجـب أن نكون قادرين علـى تحري أثر الموقـف إذا قمنا بتعيين أفـراد فـي أدوار معروفـة مسـبقًا تعيينًا عشـوائيًا، ولاحظنا تأثيـر هذه الأدوار على سـلوكهم. فـكان هـذا هـو جوهـر ما فعلـه زمبـاردو، وكما سـنرى بعد قليـل، فـإن النتائج التـى توصل إليهـا يمكـن أن تُعطـي تفسـيرًا للفضائـح التـي تقـع فـي السـجون مثل تلـك التـى تفجرت فـي «خليـج غوانتانامو وأبـو غريب» عامـي 2003 و2004 علـى التوالي، وهـذه النتائج هى الحجـة التـي اسـتخدمها زمبـاردو في العديـد من المقابـلات مع وسـائل الإعـلام، وتلك التي

(*) يستخدم زمباردو كلمة «برميل» (Barrel) للإشارة إلى الشيء الذي يحفظ فيه التفاح، ولكن الصندوق هو الشيء المألوف لدينا لهذا الغرض.

قدمها بوصفه شاهدًا خبيرًا في محاكمة شب فريدريك (Chip Frederick)، أحد المتورطين في الإساءات التي ارتُكبت في «أبو غريب».

وقد أفصح زمباردو أخيرًا عن النظرة الفلسفية القائمة وراء تجربته الشهيرة[1]. حيث يذهب إلى القول إننا اعتدنا التفكير في «الخير» و«الشر» بوصفها ثنائية شديدة الانفصال، نفترض أن بعض الناس «أشرار» بطبيعتهم، وأن بعضهم الآخر «طيبون» بطبيعتهم. وهذا تفكير شائع عن فلسفة الصواب والخطأ لا نحتاج معه إلى كثير من التأمل. ويميل رجال الدين من مختلف المذاهب والملل إلى رؤية العالم على هذا النحو، كما تقوم الأنظمة القانونية الغربية على هذه الفكرة كما أسلفنا. وعلاوة على ذلك فإن أفلام هوليود تصور انتصار الخير على الشر عادة، وتقودنا إلى نهايات سعيدة تنتصر فيها الفضيلة على الرذيلة. وإذا ما تأملنا في هذا المنظور بعمق نجد أنه يمثل مقاربة نزوعية من حيث الأساس. والافتراض هنا هو أننا نستطيع أن نختار بين الخير والشر ونكون تاليًا مسؤولين عن خياراتنا. غير أن زمباردو يرى أن التفكير في العالم على هذا النحو غير مجدٍ.

ويستخدم زمباردو لوحة م. ك. إشير (M. C. Escher) «حدود الدائرة (Circle Limit IV)» وهي لوحة غامضة إما أن نراها تصور شياطين وإما نراها تصور ملائكة - بحسب منظور المُشاهد (انظر الشكل الرقم (5-1)) - ويقول زمباردو إن هناك خيطًا رفيعًا للغاية بين الخير والشر، ويشير إلى ثلاث ملاحظات في هذا السياق. «**أولًا**، العالم مملوء بالخير والشر معًا؛ كان، ولا يزال، وسيبقى كذلك». وهذا افتراض لا جدال فيه تقريبًا يأخذ به معظم رجال الدين والفلاسفة على الأرجح. غير أن النقطة **الثانية** التي يوردها زمباردو أكثر راديكالية، إذ يقول: «إن الفاصل بين الخير والشر ضبابي وقابل للاختراق. **وثالثًا**، يمكن للملائكة أن تصبح شياطين كما يمكن للشياطين أن تصبح ملائكة - وهذا ما قد يصعب تصوره»[2].

---

(1) Philip Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil* (New York: Random House, 2007).

(2) المصدر نفسه، ص 3.

الشكل (5-1)

لوحة م. ك. إشير «حدود الدائرة IV»



المصدر: M. C. Eschers Website (2008), <http://www.mcesher.com>.

تجربة ستانفورد

أراد زمباردو عام 1971 اختبار الآثار النفسية لحياة السجن، وآثارها في الأفراد العاديين، الأصحاء عندما يصبح الفرد منهم سجينًا أو حارس سجن؟ وللقيام بهذا الاختبار نشر زمباردو إعلانًا في صحيفة محلية طلب فيه متطوعين للعمل بوصفهم مبحوثين في تجربة. وجرى إقامة سجن افتراضي في جانب من

طبقة التسوية في قسم علم النفس بجامعة ستانفورد. وكان زمباردو كما كان ملغرام، يرغب في أن يكون الأفراد المشاركون في التجربة بوصفهم مبحوثين أفرادًا «أسوياء» حتى لا يُنتقد لاحقًا بدعوى أن نزعات المبحوثين الخاصة هي التي حددت سلوكهم (وليس الموقف الذي وضعوا فيه)، وانتقى أربعة وعشرين مَن بين من استجابوا لذلك الإعلان مفضلاً الشباب على غيرهم. هذا، ولم يحصر انتقاءه بطلبة ستانفورد.

وقام زمباردو بعد ذلك بتطبيق اختبارات شخصية على الشباب المنتقين ليتيقّن بسلامتهم في جوانب شخصية ذات أهمية. وبعد أن تيقَّن بحصوله على مجموعة سوية من الأشخاص مستبعدًا كل من بدا ساديًا أو غريب الأطوار، قام بتقسيم مبحوثيه إلى حراس ومساجين. ولكي يبدو الأمر حقيقيًا اتفق مع شرطة «بالو ألتو» في كاليفورنيا كي يقوموا بإلقاء القبض على «المساجين» صوريًا، بتهمة ارتكاب جرائم. ولدى وصولهم إلى «السجن» كانوا يُجردون من ملابسهم ويُرغمون على ارتداء ملابس خاصة.

سارت الأمور في البداية سيرًا حسنًا، وظهر أن «المساجين» و«الحراس» كلهم يدركون الطبيعة المصنَّعة أو الزائفة لما يحدث. غير أنه في غضون يومين أخذ سلوك المجموعتين بالتدهور وبدا الموقف «حقيقيًا» لكليهما فأصبح بعض الحراس يتصرفون بسادية [يستمتعون بإيذاء المساجين] فيحرمون المساجين حقوقهم المختلفة ويبتكرون طرائق لمعاقبتهم عندما لا يطيعون الأوامر (علمًا بأنه لم يُسمح لهم باستخدام العقاب الجسدي). وكان أحد الحراس - سمّاه المساجين «جون وين» (نسبة إلى الممثل المعروف) - ماهرًا بوجه خاص في ابتداع وسائل عقاب مهينة، بما في ذلك ألعاب جنسية «أرغم» فيها «المساجين» على القيام بأفعال لواطية افتراضية. وقد تباينت ردات فعل المساجين لهذا الوضع فتمرد بعضهم، في حين اتسمت ردات فعل بعضهم الآخر بالسلبية، وظهرت دلائل انهيار انفعالي سريع على عدد منهم. وخلاصة القول، تدهورت الأمور بسرعة إلى حد أصبح لا بد معه من إيقاف التجربة بعد ستة أيام فقط، وكان مخططًا لها أن تستمر لمدة أسبوعين. وقد قرر زمباردو إيقاف التجربة بعد أن ألحّت طالبة الدراسات العليا المعاونة له في المختبر على أن استمرار التجربة

سيكون عملًا غير أخلاقي. لم يقبل زمباردو نصيحة مساعدته هذه - وهي فتاة تدعى «كريستينا ماسلاك» تزوجها زمباردو في ما بعد - إلا أنه سرعان ما رأى أنها كانت على حق، وأوقف الأمر برمته قبل أن يتسبب بمزيد من الضرر.

وقد قدّم زمباردو لاحقًا تفسيرًا لما لاحظه في تجربة ستانفورد يحمل وجهة نظر كلاسيكية تقليدية تتمثل في نظرية «الصندوق الفاسد». ويوضح زمباردو ذلك بقوله: ضع شبابًا أصحاء عاديين في موقف بغيض، أي في مكان سيء، ستجد أن الموقف يهيمن عليهم. ونتيجة لذلك سرعان ما استولت الأدوار الاجتماعية التى شغلها «السجناء» و«الحراس» عليهم جميعًا وساعدت البنية السلطوية التى تتغاضى عن (أو تسمح) بالإساءة على إحداث بيئة دفعت الأمور إلى التدهور السريع. ونشأت حلقة مفرغة عملت فيها السلطات عمل الصندوق الفاسد الذي حول التفاح بداخله إلى تفاح عفن. ويصور الشكل الرقم (5-2) أدناه مقاربة زمباردو الأساسية هذه.

ويوصف الموقف الذي وضع زمباردو مبحوثيه فيه بـ (تأثير أمير الذباب) (The Lord oF The Flies) إشارة إلى الرواية الكلاسيكية للكاتب وليام غولدنغ (William Golding) التي تحمل هذا العنوان[3]. وتحكي الرواية قصة طلبة إنكليز علقوا على جزيرة استوائية (بعد أن تحطمت طائرتهم) من دون أن يكون بينهم شخص ذو سلطة. وعلى الرغم من أن غولدنغ لم يوضح ملابسات هذه الظروف تمامًا فإن القصة، كما بدا، دارت بعد حرب نووية، وترك الأولاد يتولون أمورهم من دون إشراف من كبير عليهم. هذا السيناريو أعطى غولدنغ الفرصة لوضع شخوص روايته في ما يدعوه توماس هوبز وغيره، حالة الطبيعة أو الفطرة (A State of Nature)، أي ظرف حقيقي أو مُفترض ليس فيه نظام للسلطة يضبط سلوك الأفراد. وعلى غرار هوبز فإن رؤية غولدنغ لما يمكن أن يحدث في مثل هذا الموقف رؤية قاتمة وقاسية، فأصبح سلوك الأولاد وحشيًا بشكل متزايد (وفق تصويره) بعد أن سلخوا أنفسهم عن قيود المجتمع الحديث، ونشبت بينهم حرب كان «الجميع فيها ضد الجميع»، على غرار ما تصوّره هوبز أيضًا.

---

(3) William Golding, *The Lord of the Flies* (London: Faber and Faber, 1954).

ربما لا تكون المقارنة بين **أمير الذباب** وتجربة ستانفورد متكافئة، لأن التجربة أقامت بنية سلطوية داخلها (وإن كانت سلطة متراخية ومتساهلة). علاوة على ذلك، فإن النقطة التى يطرحها هوبز هي أن الحياة في حالتها الطبيعية تكون لئيمة، وقاسية، وقصيرة في غياب سلطة عليا تفرض القانون والنظام. وهو بذلك رأى أن البشر «أشرار» بالفطرة أو في الأقل مصلحيون وأنانيون إلى حد يكون معه الحفاظ على الذات لديهم هو الهم الوحيد في تلك الحالة الطبيعية. وبالمثل، تبنى غولدنغ وجهة نظر قاتمة في الطبيعة الإنسانية، ظهرت في أعماله المنشورة جميعها. ونرى بذلك أن هوبز وغولدنغ كلاهما نزوعي، أو بعبارة أخرى تبنى كل منهما وجهة نظر ثابتة في الطبيعة الإنسانية. أما زمباردو فيتبنى وجهة نظر موقفية مناقضة تمامًا لوجهة النظر الأولى: فنحن، من وجهة نظره لسنا «سيئين» أو «أشرارًا» ولكننا يمكن أن نتصرف بطرائق غير أخلاقية إذا ما أرغمتنا الظروف على ذلك.

وقد أوضح زمباردو هذه النقطة، على سبيل المثال، في مقابلة مع جون ستيوارت (John Stewart) في برنامج الحوار المسمى «الحوار اليومى» عام 2007، بعد ظهور كتابه **تأثير الشيطان**. وبدا واضحًا أثناء المقابلة أن ستيوارت، مقدم البرنامج، لم يقرأ الكتاب أو أنه لم يفهم الرسالة الرئيسة فيه، حيث لخّص رسالة الكتاب كما فهمها قائلًا: «إن الناس أسوأ بكثير مما يبدون عليه في الظاهر». فرد عليه زمباردو بقوة نافيًا أن يكون ذلك ما قصده على الإطلاق وقال:

«إن تجربة ستانفورد التي شرحتها بأدق التفاصيل في كتاب أثر الشيطان إنما تصف التحول التدريجي الذي طرأ على مجموعة من طلبة الجامعة في الرابعة والعشرين من العمر تطوعوا للعمل في هذه التجربة. لقد انتقينا الأصحاء الأسوياء منهم فحسب، وعيناهم «بالقرعة» ليكونوا إما حراسًا وإما مساجين. ولكننا رأينا كيف أن الأولاد الطيبين سرعان ما أصبحوا حراسًا قساة، وأن الأسوياء أصبحوا سجناء مرضى»[4].

---

(4) تستطيع مشاهدة هذه المقابلة في: Comedy Central Website, <http://www.comedycentral.com/motherload/ index. jhtml?ml_video =84518>.

على أن بعض النقاد أفادوا أن نتائج زمباردو لا تتمتع بالوضوح التام؛ من حيث إنه لم ينظم تجربته بالدقة التى اتبعها ملغرام في تجاربه، حتى إن بعضهم يشك في أنها تستحق أن تسمى «تجربة». والسبب في ذلك يعود جزئيًا إلى أنها لم تستكمل مهمتها وقُطعت قبل انقضاء الوقت الذى كان مخصصًا لها. ثم إنه لم يكن هناك تباين منتظم في التصميم (لاستقصاء أثر عوامل معينة في الموقف في سلوك المبحوثين). مثال ذلك، ماذا لو لم يكن الحراس يرتدون الزي الرسمي؟ ماذا لو أن الأدوار جرى عكسها لاحقًا، أو أن فريق العاملين تغير بالكامل؟ ماذا لو أنه تم تغيير الموقع الذي جرت فيه التجربة (مكان غير ستانفورد)؟ ماذا لو أن الحارس الذي سُمي «جون وين» مبتكر أساليب التحكم السادية لم يكن موجودًا؟ هل أدت قيادته دورًا حاسمًا (في ما لوحظ من سلوك)؟ وما إلى ذلك من اختلاف في الظروف. ونتيجة لافتقار التجربة إلى ذلك بقي هناك شك حتى اليوم في ماهية الميكانزيمات التى عملت في سيناريوهات زمباردو. فهل النتيجة الأساسية هى أن وضع أي شخص في دور معين يقود الشخص لأن يسلك على هذه الشاكلة، أم أن الدرس الأساس الذي نستخلصه هو أن غياب السلطة الواضحة بحد ذاته يقود الناس إلى السلوك على هذا النحو؟

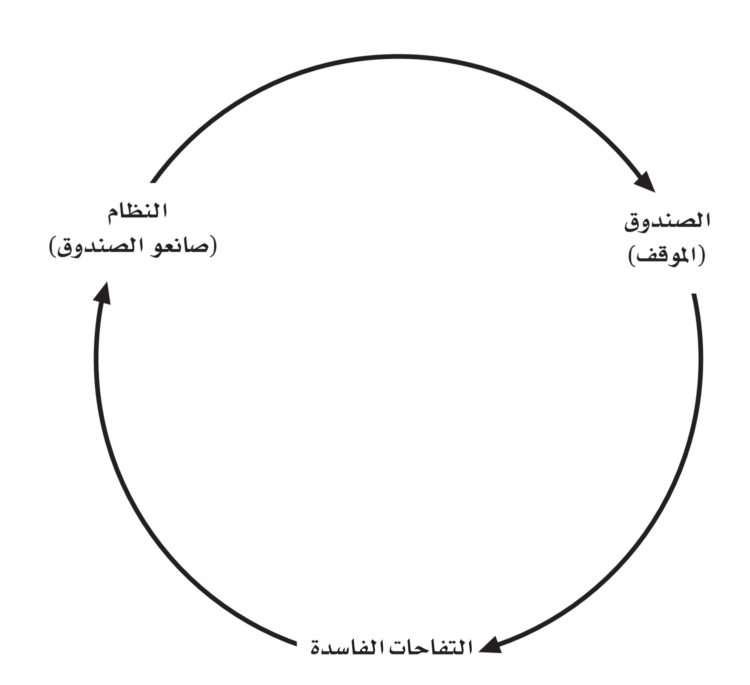
وهناك اعتبارات أخرى لا بد أن نلتفت إليها، **أولًا** وقبل كل شيء، لم يتصرف الحراس جميعًا بطريقة واحدة فكان هناك «حراس طيبون» و«حراس سيئون»، كما اعترف بذلك زمباردو، ولم يتصرف بالطريقة السادية إياها سوى ثلث الحراس فقط. كما كان هناك تباين في سلوك المساجين، فتمرد بعضهم على السلطة، بينما أذعن آخرون، (وكان أحد السجناء - وقد سمي سيرج (Sarge) - سلبيًا بوجه خاص). هذا يوحي بأن نزعات السجناء، وليس الموقف العام، هي صاحبة الأثر الأكبر في سلوكهم. **ثانيًا**، طلب زمباردو إلى الحراس وضع نظارات ذات زجاج فضي [كالمرآة] وذلك على غرار حارس سجن سادي ظهر في فيلم بعنوان (Cool Hand Luke)[5] لعب دور البطولة فيه بول نيومان (Paul Newman) عام 1967، وقد اشتهر الفيلم في ذلك الوقت،

(5) Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil*, p. 52.

وبحلول عام 1971 عندما أُجريت التجربة، لا بد أن يكون قد ظهر على شاشات التليفزيون في الولايات المتحدة وخارجها، ونحن نعرف أن بعض الحراس في تجربة زمباردو لا بد أن يكونوا قد شاهدوا الفيلم. ماذا لو لم يكن ذلك الفيلم قد ظهر إلى حيز الوجود؟ هناك احتمال أن بعض الحراس والمساجين كانوا يمثلون الأدوار التى رأوها في الفيلم، أو افترضوا أن زمباردو يريدهم أن يسلكوا على غرارها (فالنظارات ذات المرآة يمكن أن تكون قد أوحت إليهم بالسلوك المتوقع منهم القيام به). وأخيرًا، كان دخول المبحوثين إلى التجربة، على نحو ما، اختيارًا ذاتيًا أكثر منه عشوئيًا - فقد كانوا يعرفون أنهم يشاركون في تجربة عن حياة السجن - وربما استمر بعضهم فيها لمجرد حاجته إلى النقود (لأن زمباردو كان يدفع لهم أُجرة عملهم في التجربة).

الشكل (5-2)

تفسير زمباردو لتجربة ستانفورد



وقد اعترف زمباردو ذاته أنه ارتكب أخطاءً في تصميم التجربة. وخلافًا لملغرام - الذي كان حريصًا كلَّ الحرص أن ينأى بنفسه عن التجربة ومجرياتها بوصفه باحثًا رئيسًا، فلم يشارك فيها شخصيًا، وإن لم يستطع

أن ينـأى بنفسـه عمّـا آلـت إليـه مـن نتائـج - فقـد زمبـاردو لعـب فـي تجربتـه دور مراقـب السـجن. لـذا فإننـا لا نعـرف إذا كان لحضـوره أثـر فـي النتائـج أم لا. وقـد تعـرض زمبـاردو لكثيـر مـن النقـد بعـد نشـره نتائـج تجربتـة لأسـباب أخلاقيـة. والمعضلـة الأخلاقيـة فـي هـذه الحالـة شـبيهة بتلـك التـي واجههـا ملغـرام؛ فمـن جهـة، لحـق بالطلبـة شـيء مـن الأذى، كمـا هـو واضـح، ممـا يدفـع المـرء إلـى خشـية أن التجربـة لـم تكـن أخلاقيـة بالمعنـى المطلـق. وقـد عانـى فيهـا الحـراس كمـا عانـى المسـاجين، وسـمح لهـا زمبـاردو أن تسـتمر أكثـر ممـا يجـب. ومـن جهـة أخـرى، علينـا أن ننظـر إلـى الأخـلاق نظـرة نسـبية، فنضـع فـي الميـزان مـا حـاق بالمبحوثيـن مـن معانـاة مقابـل مـا جنـوه مـن معرفـة بذواتهـم نتيجـة لمشـاركتهم فـي التجربـة (فكانـت المعانـاة مقابـل المعرفـة). وكمـا هـو الحـال فـي تجربـة ملغـرام، وافـق المفحوصـون قانونيًـا علـى المشـاركة، وتـم تقديـم إيجـاز لهـم عـن التجربـة وأهدافهـا بعـد انتهائهـا. وقـد وظّـف بعضهـم هـذه المعرفـة لتحسـين أنفسـهم وتحسـين حـال غيرهـم. مثـال ذلـك دوغ (Doug) الـذي كان أول مـن تعـرض للانهيـار فـي السـجن، وهـو الآن عالـم نفـس إكلينيكـي يعمـل فـي نطـاق السـجون، ويعتـرف أن التجربـة غيـرت حياتـه. لكـن الجـدل حـول الفوائـد الاجتماعيـة فـي مقابـل الأذى الـذي تعـرض لـه المبحوثـون جـدل يقـع حلـه علـى عاتقـك إن أردت (وإذا كنـت تعتقـد أنـك قـادر علـى حلـه).

ويـروي زمبـاردو فـي فيلـم وثائقـي بعنـوان (تجـارب فـي السـلوك الإنسـاني)، أن ملغـرام شـكره شـخصيًا وقـال لـه: «لقـد أزحـت عنـي جانبًـا مـن الغضبـة الأخلاقيـة التـى تعرّضـتُ لهـا». فالجـدل حـول تجربـة سـتانفورد، كمـا رأى ملغـرام، شـتّت انتبـاه العالـم أخيـرًا عـن النقـاش الـذي اشـتعل حـول مـا قـام بـه ملغـرام نفسـه مـن تجارب. فهـا هنـا تجربـة أخـرى تتعـادل مزاياهـا وعيوبهـا الأخلاقيـة، وربمـا تزيـد، عـن تجارب الصدمـات الكهربائيـة التـي أجراهـا ملغـرام. وبغـض النظر عـن الجانب الأخلاقـي للأمر فـإن النتائـج التي توصـل إليها زمبـاردو - والتي بيّنـت أن مجموعة من الأولاد الأسـوياء نفسـيًا يمكـن أن يُسـاقوا بالتوقعـات المرتبطـة بـالأدوار التـى خصصت لهـم، والموقف الـذي أُحيطـوا بـه للتصرف بطرائـق سـادية - هـذه النتائـج تظـل مثيـرة للاهتمـام إلى

حـد كبيـر. عـلاوة على ذلك، فقـد تجدد الاهتمام بهـا بعد أحداث سـجن «أبو غريب» في العـراق عام 2004.

فضيحة «أبو غريب»: تغيير كامل في وجهة النظر

وصلـت قصـة «أبـو غريـب» إلـى العلـن عـام 2004، وأحدثـت صدمـة فوريـة داخـل الولايـات المتحـدة وفـي أنحـاء العالـم واسـتعصت علـى الفهـم، حيـث أظهرت الصـور التى بُثـت علـى نطـاق واسـع علـى التليفزيـون والإنترنـت، رجـالًا ونسـاء مـن الجيـش الأميركـي يعذبـون موقوفيـن عراقييـن - مـن خـلال أفعـال جنسـية مهينة وحرمان حسـي فـي معظم الحـالات - داخـل واحـدٍ مـن أكبـر السـجون إثـارة للخـوف فـي عـراق صـدام حسـين. أدى الاشـمئزاز الـذي أثارتـه تلك الصـور إلى اعتقـال بعض الأشـخاص المتورطين، وإجـراء العديد مـن التحقيقـات فـي «مكمـن الخطـأ» فـي مـا وقع فـي ذلك السـجن.

وكانـت واحـدة مـن مشـكلات تلـك الصـور - التي لـم تُبـث جميعها فـي الواقع لأن بعضهـا اعتبـر مقـززًا إلـى درجـة غير محتملـة - هي أنهـا تصور أفعـالًا جـرى ارتكابها من أشـخاص مختلفيـن، وفـى سـياقات مختلفـة [ربمـا لا يكونـوا منتميـن إلـى الفريـق الـذي ارتكـب معاصـي أبـو غريـب]. مثـال ذلـك، أن معظـم الصـور أظهـرت جنـودًا أميركييـن يحدقـون إلـى سـجناء عراقييـن عـراة، إلا أن الصـورة الأشـهر فـي هـذه المجموعـة، تلـك التـي تصـور «رجـل القبعة» المبينة في الشـكل الرقم (5-3) فهي تصور شـكلًا من أشـكال التعذيـب التـي لا يمكـن أن تخطـر ببـال تلـك الجماعـة مـن المجنديـن الحديثـي العهـد الذيـن التقطـوا صـور الإسـاءة الجنسـية. ووفـق ملاحظـة مـارك دانـر (Mark Danner) بهـذا الشـأن، فـإن هـذه الصـورة تظهـر شـكلًا مميـزًا ومتخصصًـا مـن أشـكال التعذيـب طورتـه الاسـتخبارات البرازيليـة ويدعـى «الفيتنـام»، ولم يُعـرف من الذي رتّب وضع الشـخص في هـذه الصورة.

ويلمّـح روري كينيـدي (Rory Kennedy) فـي فيلـم «أشـباح أبـو غريـب» (Ghosts of Abu Graib) إلـى أن مـا حـدث فـي «أبـو غريـب» كان إطاعـة لأوامـر عليـا، حيـث

يبدأ الفيلم بمشاهد من فيلم ملغرام الوثائقي «الطاعة» وبموسيقى تصويرية توحي بالمطاردة. وعلى الرغم من أن الفيلم لم يُفصح صراحة عن صلة نموذج ملغرام بموضوع الفيلم، فإن الاستنتاج الواضح الذي يخرج به المشاهد هو أن من ارتكبوا تلك الإساءات في السجن إنما كانوا يطيعون أوامر رؤسائهم. وهذا الطرح يقدم لنا بالتأكيد طريقة لتطبيق استبصارات علم النفس السياسي على هذه الأحداث البغيضة، وربما تكون أفضل الطرائق لفهم تلك الأحداث.

الشكل (5-3)

واحدة من الصور التي سُرِّبت عام 2004

تُظهر مجندين أميركيين يعذبون محتجزين في سجن أبو غريب



ولا بد من الإشارة أيضًا إلى أن أحداث «أبو غريب» تتشابه إلى حد صارخ مع تجارب ستانفورد. وقد قال زمباردو، بعد أن شاعت أخبار «أبو غريب»، «هناك تماثل مذهل بين تجربة السجن وما حدث في أبو غريب». ويضيف، «بعض المشاهد التي رأيناها تكررت في السجنين، بما في ذلك تجريد السجناء من ملابسهم، ووضع أكياس على رؤوسهم، وتقييدهم بالسلاسل، ودفعهم إلى

القيـام بأفعـال جنسـية مهينـة. وفـى كلا السـجنين تـم ارتـكاب أفظـع الإسـاءات فـي المناوبـة الليليـة». ولكــن زمبــاردو يعتــرف أن هنــاك اختلافــات طبعًــا، ويقــول فــي ذلـك: «إن حراسـنا لـم يسـتخدموا العنـف الجسـدي، إلا قليـلًا جـدًا (...) لقـد كنـت أقـول لهـم باسـتمرار إنـه غيـر مسـموح لهـم بممارسـة الإسـاءة الجسـدية، وعنـد ذلـك لجـأوا تمامًـا إلـى التحكـم النفسـي، والسـيطرة النفسـية».

ومن أوجه الشبه الواضحة للعيان بين تجربة ستانفورد و«أبو غريب»:

- وضـع أكيـاس علـى رؤوس السـجناء (لتجريـد الفـرد مـن إنسـانيته) (dehumanization) وفـرض حالـة مـن اللاتفـرد (deindividuation)
- تجريد السجناء من ملابسهم (اللاتفرد)
- الإهانة الجنسية (بإرغام السجناء على تمثيل أفعال لواطية)
- تولّي حراس غير مدربين مهمة الحراسة
- إهانة السجناء لمجرد شعور الحراس بالملل
- وقوع أبشع الإساءات في المناوبة الليلية
- تصاعد في طبيعة الأفعال المشينة
- ظهور شخصية «جون وين»[6].
- غموض سلسلة الأوامر المبيحة للسلوك غير المقبول
- وهناك اختلافات أيضًا، كما يمكن أن نتوقع - حيث إن تجربة عام 1971
- لـم تطلـب فيهـا الــ سـي آي إي (C I A) أو أي سـلطات عليـا مـن الطلبـة أن «يُليّنـوا» السـجناء
- لم تستخدم العنف الجسدي
- لم يجر فيها التقاط «صور تذكارية»
- لـم ينظـر أحـد إلـى السـجناء على أنهـم شـياطين، ولم يكـن الطلبـة مـن الفريقين أعـداء «حقيقيين»
- لم يكن هناك فروق عنصرية بين الفريقين عام 1971

---

(6) أدى هذا الدور شالز غرينر في حالة العراق.

- لم يكن هناك ضغوط ناجمة عن الحرب

- لم يكن هناك حاجة إلى معلومات استخبارية

ولأن وجـود تطابـق تـام بين أي موقفيـن أمر يصعب تحقيقـه فإن السـؤال البارز هنا ليـس سـؤال هـل هنـاك اختلافـات؟ «وإنما مـا أهمية تلـك الاختلافـات؟». وبحسـب ما يرى زمبـاردو فـإن المفتـاح لفهـم «أبـو غريـب» يكمـن فـي العمليـة ذاتها التـي وظفها لتفسـير نتائـج تجربـة سـتانفورد، ويقـارن زمبـاردو طويـلًا بيـن الحدثيـن فـي كتابـه **تأثير الشـيطان** مجـادلًا: إن صانعـي الصنـدوق (مشـيرًا هنا إلى سلسـلة الأوامـر الممتدة مـن البيت الأبيض والبنتاغـون (وزارة الدفـاع الأميركيـة) فصّلـوا بيئـة أو موقفًـا (أو صندوقًـا) أدّى إلى «إفسـاد التفاحـات». فكثيـر ممـن ارتكبـوا إسـاءات «أبـو غريـب» التحقـوا بالجيـش طواعيـة بعـد أحـداث الحادي عشـر من أيلول/سـبتمبر بدافـع الحماس الوطنـي، والتصميم علـى الحيلولة دون تعـرّض الولايـات المتحـدة مرة أخـرى لهجمات إرهابيـة قاتلة من هذا القبيـل. ولكنهم وجـدوا أنفسـهم فـي «أبو غريـب» يقومون بأفعـال لم يتخيلـوا القيام بها في أشـد أحلامهم غرابـة. قـال جافـال ديفيـز (Javal Davis) أحـد المجنديـن فـي «أبـو غريـب»: «هـذا المـكان حوّلنـي إلـى وحـش، كنـت غاضبًـا جـدًا. إن هـذا «الأبـو غريـب» يمكـن أن يغيـر تفكيـرك. أتعـرف أنـك يمكـن أن تذهـب إلـى «أبـو غريـب» لفترة وجيـزة فتتحول من شـاب مُسـالم مـرح إلى إنسـان آلـي»[7].

يعتقـد زمبـاردو أن الرئيـس جـورج دبليـو بـوش، ونائـب الرئيـس ديـك شـيني، ووزيـر الدفاع دونالد رامسـفيلد أنشـأوا نظام سلطة يشـجع التعذيب ضمنيًا أو صراحةً، ثم إن إدارة بـوش قـررت عـام 2002 أن اتفاقيات جنيـف (التي وقعتهـا الولايات المتحدة عـام 1949) لا تنطبـق علـى الوضع في سـجن «أبو غريب». وقد شـجعت الاسـتخبارات العسـكرية الحراس الأغرار في «أبو غريب» - عبر سلسـلة الأمر والنهي على «تليين» السـجناء لأغراض التحقيق. فـكان الصنـدوق الـذى صنعـوه إذًا، هـو الـذي حـوّل أناسًـا طيبيـن إلـى أنـذال. وبالمقابـل، فـإن الإدارة الأميركيـة ألقـت اللـوم على النزعـات الخاصة بالأفراد أنفسـهم. فدافـع بوش عن

---

(7) تمّ اقتباسه في فيلم المخرج روري كينيدي «أشباح أبو غريب». انظر: «Ghosts of Abu Ghraib,» (Director: Roy Kennedy, Writer Jack Youngelson, Moxie Firecracker Films, 2007).

وجهـة النظـر هـذه قائـلًا: «إن العـراق الجديـد سـيكون بحاجـة إلـى نظام سـجون إنسـاني يتـم الإشـراف عليـه بإحـكام، ففي عهـد الدكتاتـور كانت السـجون مثل سـجن «أبـو غريب» رمـوزًا للمـوت والتعذيـب... هـذا السـجن ذاتـه أصبـح رمـزًا لسـلوك مشـين ارتكبـه قلة من الجنـود الأميركييـن الذيـن جلبـوا العار لبلدنـا وأهانـوا قيمنا».

لقـد كررنـا مـرارًا أن الموقفيـة تمثّـل تحديًـا للنظـام القضائـي الغربـي وفكرته الأسـاس القائلـة إن الأفـراد مسـؤولون عـن خياراتهـم وأفعالهـم. ويـروي زمبـاردو فـي كتابـه **تأثيـر الشـيطان** مـا واجهـه مـن مشـكلات وهـو يحـاول المسـاعدة فـي الدفـاع عـن الرقيـب إيفـان شـب فريدريـك (Ivan Chip Fredrick) الجنـدي الـذي ظهـر ضاحـكًا أمام هـرم السـجناء العراقيين العـراة. وعلـى الرغم من أن مشـاعر زمبـاردو كانت مختلطـة إزاء الدفاع عـن فريدريك، وافق علـى تقديـم شـهادته من خـلال الفيديو المباشـر. وقـد أفاد زمبـاردو في دفاعـه إن فريدريك شـخص سـوي (وإن كان يفتقـر إلـى الشـعور بالأمـن، ومتـرددًا فـي اتخـاذ القـرار) وقـد وجد نفسـه فـي موقـف شـاذ جـدًا. ومـع أن زمبـاردو لـم يحـاول أن يجـد العـذر لفريدريـك، فقد سـعى إلـى فهـم سـلوكه، وربما دعـا إلى أخـذ العوامـل الموقفيـة بعيـن الاعتبار عنـد الحكم عليـه. وأفـاد زمبـاردو أن شـخصًا مثـل فريدريـك كان يمكـن أن يكون بطـلًا لو أنـه وُضع في صنـدوق أفضـل، ولكنـه كان فـي المـكان الخطـأ والزمـان الخطأ. وكمـا يمكـن أن نتوقع رفض القاضـي هـذه الحجـة، وقـال متبنيًـا وجهـة النظـر النزوعيـة التقليديـة: لقـد اختـار فريدريك أفعالـه بكامـل إرادتـه ولـم يجبـره أحـد على التصـرف بطرائـق غيـر أخلاقية.

ومـرة أخرى نطلب من القارئ أن يقرر بنفسـه أيهما على صـواب القاضي أم زمباردو، وهـل الصنـدوق هـو الـذى أدّى إلـى إفسـاد التفاحـات، أم التفاحـات كانـت فاسـدة مـن البدايـة؟ وهـذه القضية كمـا كررنا مرارًا، تقع في قلـب الجدل القائم حـول الموقفية مقابل النزوعيـة. ومهمـا يكـن قـرارك، فإنـه يجـدر ملاحظـة أن هنـاك أفـرادًا لا تغلبهـم المواقـف، أفـراد يمتلكـون حسًـا أخلاقيًـا يصعـب تجـاوزه. مثـال ذلـك كريسـتينا ماسـلاك ذاتهـا فـي تجربـة سـتانفورد - فعلـى الرغم مـن الضغوط الموقفيـة القويـة عليها (حيـث كان زمباردو هـو المشـرف علـى رسـالتها للدكتـوراه) - فإنهـا قالـت لـه: «إن ما تفعلـه مع هـؤلاء الأولاد خطـأ». وفـي «أبو غريـب»، أدى دور البطولـة الضابط جوزيف داربي، وهو الحارس الشـاب الـذى التقـط الصـور التذكاريـة وأرسـلها إلـى السـلطات العسـكرية. وقـد واجـه فـي البداية

مقاومة بيروقراطية شديدة، غير أنه أصرّ على إطلاق الصفارة على ما يجري في «أبو غريب». وداربي هو الذى يستحق الشكر مع اثنين آخرين في «أبو غريب». ويعود الفضل كذلك إلى جوزيف داربي في توقف تلك الممارسات المخزية. وقد دفع الجندي الشاب ثمنًا باهظًا لعمله البطولي، كما هاجمه بعضهم لكونه خائنًا. ولكي نُبرز النقاط الرئيسة في المقاربة التي تبناها زمباردو نضع تلخيصًا للحجج المؤيدة، والحجج المعارضة لقضيته في الجدول (5-1).

الجدول (5-1)

ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة لمقاربة زمباردو المتعلقة بـ «الصندوق الفاسد»

الحجج الداعمة	الحجج المعارضة
- التناظر بين تجربة ستانفورد والوضع في «أبو غريب» صارخ. - بدى الموقف في تجربة ستانفورد حقيقيًا لكل من الحراس والمساجين إلى حد استثنائي وسرعان ما هيمن الموقف على الأشخاص فيه. - انغمس المبحوثون بوجه عام في الأدوار الاجتماعية المتوقعة منهم بسرعة لافتة للنظر. - كان المبحوثون «أسوياء» نفسيًا - كما كان الحراس في «أبو غريب» - ولكن سلوكهم لم يكن كذلك (هذا ما يحدث «عندما نضع أناسًا طيبين في المكان الخطأ») كما يرغب زمباردو في أن يقول.	- هناك فروق بين ستانفورد و«أبو غريب» كافية لأن تضع التناظر بينهما موضع تساؤل في أقل تقدير. - التباين بين سلوك السجين وسلوك الحارس في كلتا الحالتين يوحي بأهمية النزعات وليس المواقف. - كانت آليات التحكم محدودة في تجربة ستانفورد، وربما معدومة كليًا، ما يعيق معرفة ما إذا كان أي تعديل في ظروف التجربة يمكن أن يقود إلى اختلاف في النتائج. - ربما ستانفورد و«أبو غريب» يكشفان جانبًا أساسيًا لا إنسانيًا أو نزعة إلى الشر لدى البشر كما يقول هوبز وكما ظهر في **أمير الذباب** أكثر مما يكشفان تأثير الموقف. - ربما كان المبحوثون في تجربة زمباردو يؤدون الأدوار التي اعتقدوا أن المجرب يتوقع منهم أداءها. كانت آليات التحكم التجريبي محدودة في تجربة ستانفورد، وربما معدومة كليًا، ما يجعلنا لا نعرف ما إذا كان أي تعديل في ظروف التجربة يمكن أن يقود إلى اختلاف في النتائج [لقد جرت الإشارة في سياق هذا الفصل إلى عدد من العوامل التي كان يمكن لزمباردو فحص أثرها في سلوك السجناء والسجانين للتحقق من التأثيرات الممكنة لتلك العوامل].

خاتمة

يذكر القارئ أننا في الفصل الأول من هذا الكتاب ناقشنا قضية روجر بويزجولي، المستشار التقنى في الشركة التي تعمل مع ناسا على بناء مكوك فضاء. وكانت ناسا في كانون الأول/يناير عام 1986 ترزح تحت ضغط شديد لإطلاق المكوك تشالنجر في الفضاء. وكان المناخ في وسط فلوريدا (حيث يجري إطلاق الصاروخ) أبرد مما هو مألوف في ذلك الوقت من السنة، ما أدّى، إضافة إلى صعوبات تقنية مختلفة، إلى إلغاء عملية الإطلاق مرات عدة، وفى مؤتمر عُقد عبر الفيديو بين شركة روجر، وهي شركة موتورن ثيوكول، ومسؤولي ناسا - وهو اجتماع ضم ألمع العقول من المنظمتين - تم اتخاذ قرار بإطلاق المكوك. وكان بويزجولي «مع واحد أو اثنين آخرين» قد حذروا مرارًا وتكرارًا من أن «حلقات o» - وهي الحلقات التى تربط مكوك الفضاء بالصاروخ الذي يقذف المكوك في الفضاء - ربما لا تَثْبت أمام درجة الحرارة المتدانية تلك، وقد تتشظّى كلية، وتتيح المجال لحدوث انفجار كارثي. أما تحفظات روجر فقد أسقطتها الغالبية العظمى من صانعي القرار في المنظمتين، ولكنهم أتاحوا له المجال للمرة الأخيرة في نهاية الاجتماع ليتكلم ويستنكر القرار الذي تبنته الأغلبية إذا أراد، ولكن بويزجولي خلد إلى صمت غريب، ووقعت الكارثة التى تنبأ بها بعد ذلك بوقت قصير. وفي 28 كانون الثاني/يناير من عام 1986 انفجر مكوك الفضاء تشالنجر بعد ثلاث وسبعين دقيقة من إطلاقه قاتلًا جميع أعضاء الفريق على متنه. ما السبب في أن أناسًا أذكياء يتخذون قرارات ضعيفة في كثير من الأحيان عندما يتخذونها في جماعات؟ وما الذي يدعو أفرادًا على المستوى ذاته من الذكاء ممن يعرفون أو يشعرون بأن القرار الذي تم اتخاذه قرار غير سليم، ما الذي يدعوهم إلى البقاء صامتين في كثير من الأحيان؟ ما الذي يمنع الناس من قول ما يفكرون فيه وهم داخل جماعة؟ هذه الاسئلة التى فتنت عالم النفس الاجتماعي إيرفنغ جانيس هي ما سنحاول الأجابة عنه في الفصل الآتي.

6
صناعة القرارات الجماعية

عندما نفكر في القرارات التي تتخذها الحكومة، نتصور شخصًا يجلس في مكتب بمفرده - هو رئيس الدولة أو رئيس الوزراء - يقلِّب الخيارات أو الأبدال في أمر ما، وبعد تفكير متروٍ يختار القائد السياسي - من الأبدال المتاحة - البديل الذي يحقق في نظره الهدف المرجو. كما أننا نتصور أن القرارات تُتخذ بطريقة نموذجية، على غرار ما تتصوره مقاربة الإنسان الاقتصادي (Homo economicus). وهذا السيناريو يمثل الطريقة التي تُصنع بها القرارات في المستويات العليا من الدولة، في بعض الأحيان على الأقل. فعندما كان رونالد ريغان رئيسًا للولايات المتحدة، على سبيل المثال، رُوي أنه كان يفضل أن تُقدم له ورقة واحدة تحمل عددًا من البُدَلاء، ليقوم هو من بعدئذٍ بوضع إشارة على البديل المفضل لديه، فهو نادرًا ما كان ينزل إلى المستويات الدنيا من إدارته أو يقرأ المذكرات المطولة التي تُعد له. وعلى الرغم من أن ريتشارد نيكسون كان يتمتع بشهية شديدة للمعلومات تفوق شهية ريغان بكثير، كان يتخذ قراراته في عزلة تامة، فيقبع في مكتبه في البيت الأبيض بعيدًا من معظم زملائه في الحكومة. وقد قادته شخصيته الانعزالية إلى اختيار طاقم لإدارة البيت الأبيض يعزز ميله إلى العزلة هذا، ما أدى في نظر كثيرين إلى سقوطه في نهاية المطاف.

غير أن القادة - وحتى الرؤساء التنفيذيون منهم، أمثال ريغان ونيكسون يجدون أحيانًا أن صنع القرار في إطار جماعة يحقق فائدة أكبر من صنعه على

انفـراد. ويبـدو أن صنـع القـرار جماعيًـا هـو النمـط المتبـع فـي العـادة وليـس القـرار المنفـرد. وثمـة عـدد مـن الأسـباب وراء ذلـك[1]؛ **أولهًـا** أن القـرار الـذي تتخـذه جماعـة يكتسـب قـدرًا أكبـر مـن الشـرعية مـن القـرار الـذي يتخـذه شـخص بمفـرده، بعـد قليـل مـن التشـاور مـع آخريـن. **ثانيًـا**، يُعطـي القـرار الجماعـي القـادة غطـاء سياسـيًا؛ فبعـد أن يقـوم المشـاركون فـي اتخـاذ القـرار بالتوقيـع عليـه، يصبـح مـن الصعـب عليهـم الخـروج علـى المـلأ بعـد ذلـك لمهاجمـة القـرار فـي الحالـة التـي يقـود فيهـا ذلـك القـرار إلـى فشـل ذريـع. **ثالثًـا**، يضمـن القـرار الجماعـي (مـن حيـث المبـدأ فـي الأقـل) أن يتعـرف قائـد صناعـة القـرار آراء متعـددة، وربمـا معارضـة لمـا لديـه مـن أفـكار أو معلومـات، مـا يزيـد احتمـال أخـذ القائـد فـي الاعتبـار جميـع الحقائـق المتاحـة. ويـرى ياكـوف فيرتزبيرغــر (Yaacov Vertzberger):

> أن صنّـاع القـرار عندمـا يعملون في إطـار جماعة يتلقون معلومـات وتحليلات جديدة بشـكل أسـرع ممـا لو عملـوا على انفـراد، كمـا أنهم قد يسـمعون حججًـا لا تتاح لهم معرفتهـا لـو أنهم عملـوا باسـتقلال عن الآخريـن. وهـذان الأمـران [تلقـي المعلومات، ومعرفـة الحجـج البديلـة] يحسّـنان طرائـق حـل المشـكلات لـدى أعضـاء الجماعـة، ومسـتوى تعلمهـم لهـذه الطرائـق [...] مـن حيـث إن الجـدل الـذي يُصاحـب عمليـة صنـع القـرارات الجماعيـة يعمـل علـى إجـلاء الغمـوض وعـدم الاتسـاقية، مـن خـلال تبـادل المعلومـات، وتعـرّف منظـورات بديلـة، مـا يسـاعد على كشـف نقـاط الضعف فـي البنيـة المنطقية للاعتقـادات القائمة، ونقـاط الضعف في المعرفـة المتراكمة عن الموضوع»[2].

رابعًـا، يفضـل بعـض القـادة العمـل فـي جماعـات عندمـا لا يمتلكـون الاطـلاع الكافـي فـي المجـال السياسـي المعيـن. فعلـى سـبيل المثـال، كانـت معرفـة لينـدون جونسـون فـي مجـال السياسـة الخارجيـة محـدودة نسـبيًا حيـن وصـل إلـى الرئاسـة، واعتمـد إلـى حـد كبيـر علـى مـن كان يسـميهم «جماعـة هارفـارد» (وهـم مستشـارو

---

(1) انظر: Fritz Gaenslen, «Decision-Making Groups,» in: Eric Singer and Valerie Hudson, eds., *Political Psychology and Foreign Policy* (Boulder, CO: Westview Press, 1992).

(2) Yaacov Y. I. Vertzberger, *The World in their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, Calif: Stanford University Press, 1990), p. 223.

السياسة المؤتمنون لديه من أمثال روبرت مكنمارا ودين راسك). كما أن الصناعة الجماعية للقرار تساعد على تخفيف الضغط النفسي على القادة الذين لا يرتاحون للتعامل مع قضية سياسية معينة أو مجال معين. **وأخيرًا**، فإن الصناعة الجماعية للقرارات قد تكون ملزمة من المشرع في بعض الحالات، كما في قانون الأمن القومي الأميركي لعام 1948[3].

غير أن هذا كله لا يعني أن الجماعات تصنع بالضرورة قرارات أفضل من القرارات التي يصنعها الأفراد - عندما يعملون على انفراد؛ إذ يؤكد فيرتزبيرغر أن هناك عمليات جماعية [ذات تأثيرات سلبية] تأخذ مجراها في النقاش الجماعي ويمكن أن تطغى على الفوائد المحتملة لصناعة القرار جماعيًا؛ ذلك لأن هناك «أعراضًا مرَضية» تنبثق من النقاش الجماعي، فتؤدي إلى تضييق نطاق المعلومات التي تعالجها الجماعة، من حيث الاتساع ومن حيث مستوى التعقيد، كما أنها تحد من اتساع أفق الجماعة وتشجع على الامتثال (أو الانسياق) لها»[4]. هناك طُرفة قديمة تقول «ما الجمل سوى حصان سباق صممته لجنة». والنقطة الجادة خلف هذه الطُرفة هي أن الجماعات - نتيجة لتشتت السلطة فيها، أو توزع القوة بين أعضائها - تضطر إلى إجراء تسويات بغرض الوصول إلى موقف يُجمع عليه الجميع. افرض أن حصان السباق هذا لم يكن موجودًا وأننا أوكلنا إلى جماعة من هذا النوع مهمة تصميمه. فربما يقترح أحد أعضاء الجماعة جعل الحصان أملس وإيروديناميًا (aerodynamic)، ومن دون أسنمة. وربما يعارضه آخر قائلًا إن سنامًا واحدًا يعطي سائقه شيئًا يتعلق به أثناء السباق. ويقول شخص ثالث، «لمَ لانعطيه ثلاثة أسنمة حتى يستطيع عدد أكبر من الأشخاص قيادته معًا؟» وفي نهاية المطاف ربما لا يتفقون إلا على حيوان بسنامين، شيء يشبه الجمل، ولكنه غريب الشكل قليلًا، ويعاني اختلالًا وظيفيًا. وهناك مثال كلاسيكي نورده هنا كمثال من المجال القانوني هو اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية (North American Free Trade

(3) Alexander George, *Presidential Decisionmaking in Foreign Policy: The Effective Use of Information and Advice*, Westview Special Studies in International Relations (Boulder, CO: Westview Press, 1980), p. 81.

(4) Vertzberger, Ibid., p. 224.

(Agreement - والتـي وقّـع عليهـا مجلـس الشـيوخ في الولايـات المتحدة عـام 1993. وكان لا بـد للاشـتراع الـذي حوّلهـا إلـى قوانيـن خاصـة بالولايات المتحـدة أن يضـع فيها كثيـرًا من الاسـتثناءات لضمـان إمـرار هـذه الاتفاقيـة. وقـد قامـت جماعات ضغـط مختلفة بفـرض تلك الاسـتثناءات، مـن مثل مزارعي البرتقـال في فلوريدا، ومزارعي السـكر فـي لويزيانا، وجماعات ضغـط بيئيـة أخرى، مـا جعل تلـك القوانين غير مطابقـة للاتفاقيـة الأصلية إلا بشـكلٍ جزئي.

يعـرض غراهـام أليسـون وفيليـب زيليكـوف (Graham Allison and Philip Zelikow) فـي كتابهمـا **جوهـر القـرار** (*Essence of Decision*) نموذجًـا نظريًـا شـهيرًا لصناعة القـرار - هو نموذج السياسـات الحكوميـة أو نمـوذج (3) - تتـوزع فيـه قـوة التأثيـر فـي صنـع القـرار علـى الجميـع، وتتحـدد مخرجـات القـرار مـن طريـق المفاوضـات والتسـويات. ويقتـرح النموذج أن يمتلـك كل عضـو فـي الجماعة قـدرًا من القوة يسـتطيع معـه الوقوف مـن دون تحقيق الأعضـاء الآخريـن لرغباتهـم، وأي قـرار يتـم الوصـول إليـه لا يمثل ببسـاطة سـوى «القاسـم المشـترك الأصغـر» لآراء الجماعـة، أو ذلـك الشـيء الـذي يتفقون عليـه جميعًـا. ولكنه ربما لا يكـون الشـيء الـذي رغـب فيـه أحـد فـي الحقيقـة، ليـس خيـارًا أولًا في الأقـل[5].

ومـا هـذه الحالـة فـي الواقـع (أي حالـة تـوزع القـوة) سـوى واحـدة مـن الحـالات التـي تـؤدي بالجماعـة إلـى إنتـاج مخرجـات غيـر فعالـة أو أدنـى ممـا هـو مأمـول، أو تـؤدي بالجماعـة إلـى اتخـاذ قـرارات أضعـف بكثيـر ممـا يمكـن أن يتخـذه شـخص مطلـع يعمـل علـى انفـراد. غيـر أننـا سـنكرس معظـم هـذا الفصـل لفحـص مقاربـة نظريـة أخـرى تبحـث فـي الصناعـة الجماعيـة للقـرار، وهـي نظريـة إيرفنـغ جانيـس فـي التفكيـر الجمعـي (groupthink)، المعروفـة علـى نطـاق واسـع. وهـذه المقاربـة، كمـا سنكتشـف لاحقًـا، تبتعـد عـن مقاربـة الإنسـان العاقـل أو «الإنسـان الاقتصـادي» مـن نـواحٍ هامـة. وفـي سـيرها بعيـدًا فـي ذلـك، تبيِّـن هـذه المقاربـة أن الأفـراد عندمـا يشـاركون فـي صناعـة قـرار بوصفهـم أعضـاء فـي جماعـة، فـإن مـا يعبـرون عنـه مـن

(5) Graham Allison and Philip Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Misssile Crisis*, 2nd ed. (New York: Longman, 1999).

وجهات نظر وتفضيلات خاصة، قد يختلف عما يعبرون عنه عندما يعملون على انفراد. والافتراض الرئيس هنا هو أن سلوكنا يتغيّر مع الجماعة بطرائق خفية بحيث إننا نسلك داخل الجماعة بطرائق تختلف عن تلك التي نسلكها عندما نعمل على انفراد. ومرة أخرى نقول ما يؤكد المغزى الرئيس لهذا الباب من الكتاب، وهو أن قوة «الموقف» تفوق في بعض الأحيان قوة الفرد الذي يتعامل معها إلى حد كبير.

كيف يحدث ذلك؟ دعنا نعود قليلًا الى نتائج تجارب سولومون آش المشوقة حول الامتثال أو الانسياق للجماعة (group conformity). فقد رأينا في الفصل الرابع أن الأغلبية تؤثر تأثيرًا قويًا في أحكام الأقلية؛ فعندما كان المبحوثون يوضعون في غرف منفردة، ويطلب إليهم مقارنة أطوال خطوط تعرض عليهم، كانوا يؤدون المطلوب أداءً صحيحًا. ولكنهم أخطأوا في 75 في المئة من الحالات عندما كانوا يجلسون في غرفة ملأى بحلفاء للمجرب يعطون إجابات خاطئة قصدًا. واللافت للنظر في هذه التجربة هو أن المشاركين فيها كانوا مستعدين لتعليق أحكامهم - حتى تلك التي كانوا متحققين موضوعيًا من صحتها - في سبيل الاتفاق مع وجهات نظر تُجمع عليها الجماعة. وقد مثّلت هذه البحوث عن الامتثال للجماعة نقطة البداية ليس لبحوث ستانلي ملغرام عن طاعة السلطة فحسب، وإنما لبحوث إيرفنغ جانيس الشائقة حول الصناعة الجماعية للقرارات في السياسة الخارجية الأميركية.

مخاطر التفكير الجمعي: أذكياء يصنعون قرارات غبية

يُقدم عالم النفس الاجتماعي إيرفنغ جانيس في كتابه الريادي **ضحايا التفكير الجميع** (*Victims of Groupthink*) الذي نشر عام 1972 وتمت مراجعته بعد عشر سنوات تحت عنوان «التفكير الجمعي» (Groupthink) يقدم جانيس تعريفًا للتفكير الجمعي بأنه «عملية تؤدي بالجماعة إلى الوصول إلى إجماع متسرع أو سابق لأوانه، وتغلق الباب على نفسها عن أي أفكار تأتي من الخارج»[6]. وبكلمات

(6) Irving Janis: *Victims of Groupthink: A Psychological Study of Foreign - Policy Decisions and Fiascoes* (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1972), and *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, 2nd ed. (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1982).

جانيس نفسه، التفكير الجمعي هو «شكل من التفكير يظهر لدى الجماعة عندما يكون أعضاءها في حالة تماسك شديد تصبح معه رغبتهم في توحيد الكلمة، والوصول إلى إجماع، أقوى من حاجتهم إلى تقويم البُدَلاء المتاحة تقويمًا واقعيًا»[7]. وتظهر حالة التماسك الشديد هذه، على سبيل المثال، عندما يكون أعضاء الجماعة على معرفة سابقة ببعضهم البعض أو عندما يتشابهون في التفكير إلى حد كبير، أو الاثنان معًا. وفي حين تستطيع جماعة من هذا القبيل صنع قرارات فعالة، فإن تماسك الجماعة وحده - وإن كان شرطًا ضروريًا - ليس شرطًا كافيًا لحدوث التفكير الجمعي، ولا تصبح الجماعة فريسة لهذا المرض إلا إذا كان أعضاؤها يفضلون الإجماع والاتفاق على التفكير العقلاني في كل ما هو متاح لهم من سبل للتعامل مع القضية موضوع الاهتمام. ويقارن جانيس بين هذا الوضع والوضع الذي تقوم فيه الجماعة بصناعة قراراتها صناعة متأنية وحذرة مبنية على التقويم الدقيق والشامل لجميع البُدَلاء المتاحة. ويقدم جانيس أزمة الصواريخ الكوبية كمثال بارز لحالة أخذت فيها عملية التفكير الجمعي مجراها على أوضح ما يكون[8].

ووفقًا لجانيس فإن التفكير الجمعي يتضمن عددًا من العناصر (أو «الشروط المسبقة»)، إضافة إلى التماسك الشديد بين أعضاء الجماعة، وهي:

- عزل الجماعة نفسها عن أي نصيحة من الخارج، فلا تسعى، أو لا تسمح لأحد من خارجها بتقديم الرأي لها.

- تكون القيادة قوية وصاحبة رأي، حيث يطرح القائد آراءه بوضوح تام في البداية أو أثناء النقاش على نحو يعيق أي نقاش حقيقي لاحقًا.

- الافتقار إلى معايير خاصة بالبحث الممنهج، أي عدم وجود تقليد داخل الجماعة يشجع البحث الشامل في البُدَلاء المتاحة بطريقة منهجية منظمة.

- التجانس بين الأعضاء في الخلفية أو الأيديولوجية، حين يأتي معظم

---

(7) Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, p. 9.

(8) المصدر نفسه، ص 132-158.

الأعضـاء مـن خلفيـة اجتماعيـة وتعليميـة متشـابهة، إضافـة إلـى احتمـال التشـابه الشـديد بينهـم فـي طريقـة التفكيـر.

- تواجـه الجماعـة في حينـه ضغوطًا شـديدة نتيجة لمشـكلة تعترضهـا، كالحاجة إلى الوصـول إلى قرار سـريع.

- شعور أعضاء الجماعة بحالة عارضة من التقدير المتداني للذات[9].

كيـف نعـرف أن التفكيـر الجمعـي أخـذ مجـراه لـدى جماعـة قائمـة فـي الحاضـر؟ يُعـرِّف جانيـس بثمانيـة أعـراض يمكـن اعتمادهـا كمعاييـر لتشـخيص هـذه الحالـة:

- توهُّـم الحصانـة، أو وجـود إحسـاس غير مبـرر بالحصانـة - إذ يتطور لـدى الجماعة تفـاؤل مفرط يُشـجعها علـى المخاطرة.

- التبريـر الجمعـي، يُسـقط أعضـاء الجماعـة من حسـابهم مـا يصلهم مـن تحذيرات، ويُغفلـون النظـر في مـا يكمـن خلفها مـن افتراضـات جوهرية.

- الاعتقـاد بالصـلاح الأخلاقـي للجماعـة، يتطـور لـدى الأعضـاء اعتقـاد بـأن قضيتهـم صحيحـة «أخلاقيًـا»، ويسـيئون تقديـر التبعـات المحتملـة لقراراتهـم مـن الناحيـة الأخلاقية.

- النظـرة النمطيـة للجماعة الخارجيـة [أو الأخرى]، حين تطـور الجماعة نظرة مفرطة في تبسـيطها، وفي سـلبيتها لمن يعتبرونهم «الأعداء».

- ممارسـة الضغـط المباشـر علـى الخارجيـن عـن الجماعـة، يواجـه الأعضـاء ضغطًـا شـديدًا مـن الجماعـة عندمـا يخرجـون عـن آرائهـا.

- الرقابـة الذاتيـة، يُحجـم الأعضاء عـن التعبير عن شـكوكهم واختلافهم مـع ما تجمع عليه الجماعة.

- وهـم الإجمـاع، يسـود الافتـراض أن رأي الأغلبيـة هـو الـرأي المجمـع عليـه مـع أن بعـض الأعضـاء تسـاورهم الشـكوك فـي الواقـع حـول صحـة ذلـك الرأي.

- «حراسـة فكـر الجماعـة»، يتولـى بعـض الأعضـاء حمايـة الجماعـة وقائدهـا

---

(9) *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, pp. 176-177.

الأميركيـون اللاحقـون - بمـن فيهم جـون ف. كينيدي - بالمجـاز السـيكولوجي الذي تنطوي عليـه هـذه النظرية بحماس شـديد (علـى الرغم من أنهـا الآن محاطة بكثير من الشـك في ضوء النظرة الاسـترجاعية للأحداث).

وبهـدف الخـلاص مـن كاسـترو، دبّـرت الـ سـي آي إي خطة سـرية لغـزو كوبـا، وإطاحة كاسـترو، باسـتخدام مُبعَديـن كوبييـن كواجهـة للتدخل الأميركي. وجـرى تنفيذ الخطـة على يد إدارة كينيـدي الجديـدة التـي أعطـت إشـارة البـدء لغـزو كوبـا مـن خليـج الخنازير فـي بداية عـام 1961. غيـر أن المغامـرة فشـلت فشـلًا ذريعًـا؛ لأن قـوات كاسـترو توقعـت ذلـك الغـزو، وكانـت مسـتعدة لمواجهتـه، فتعـرّض مئـة وأربعـون رجـلًا من تلـك القـوة للقتل، وتـم القبض علـى 1200 رجـل منهـم تقريبًـا. ووفقًـا لأحـد التقاريـر الرسـمية، فـإن غـزو كوبـا أسـفر عـن مقتـل 1800 شـخص تقريبًـا عند أخـذ الإصابات المدنيـة بعين الاعتبـار[11]. وقـد تعرضت إدارة كينيـدي لكثيـر مـن الحـرج عندمـا اضطـرت إلـى دفـع فديـة لكاسـترو كـي تسـتعيد السـجناء المعتقليـن لديه.

ويفتتـح جانيـس النقـاش حـول قـرار كينيـدي جمـع الموافقـة علـى خطـة غـزو كوبا باقتبـاس لمـا قالـه كينيـدي ذاتـه بعد الفشـل المـدوي لتلـك الحملـة. إذ يُـروى أن كينيدي قـال لشـقيقه روبـرت وآخرين: «كيف يمكـن أن أكـون بهذه الغبـاوة؟»[12] وقد سـبّبت تلك الحملـة حرجًـا سياسـيًا وعسـكريًا هائـلًا لإدارة جديـدة لـم يزد عمرهـا في حينـه عن بضعة أشـهر. وكان جانيـس مهتمًـا جـدًا بفهـم الأسـباب التـي أدّت بهـذه الحكومـة بالـذات إلـى ارتـكاب مثـل هذا الخطـأ الفادح. فقـد كانـت إدارة كينيدي ملأى بالشـباب المتعلـم الواثق الذيـن انتقاهـم كينيـدي بعنايـة بالغة لعزمـه على جمـع أفضـل المواهب مـن الأكاديميين ورجـال الأعمال فـي إدارته.

وفــي ضــوء نظــرة اســترجاعية لمــا حــدث يؤكــد جانيــس، أن كينيــدي وزمــلاءه ارتكبــوا ســتة أخطــاء كبيــرة[13]. **أولهــا** اقتناعهــم بــأن عامــة النــاس - داخــل الولايــات

---

(11) Peter Kornbluh, ed., *Bay of Pigs Declassified: The Secret CIA Report on the Invasion of Cuba* (New York: W. W. Norton, 1998), pp. 2-3.

(12) Janis, *Groupthink*: *Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, p. 16.

(13) المصدر نفسه، ص 19-27.

مـن وجهـات النظـر المخالفـة ومـن المعلومـات التـي قـد تهـدد الإجمـاع المفتـرض لـدى الجماعـة[10].

وبطبيعـة الحـال، فـإن تنـاول حالـة تاريخيـة واقعيـة يجعـل من السـهل أن نـرى كيف تأخـذ هـذه العمليـة النظريـة [المفترضـة] مجراهـا. وسـنقدم هنا مثاليـن توضيحييـن يُعتقد أن التفكيـر الجمعـي أدى فيهمـا دورًا رئيسًـا فـي صنـع القـرار، وهمـا: حملة خليـج الخنازير الفاشـلة عـام 1961، والتصعيـد فـي حـرب فيتنـام عـام 1965. وقـد أعطـى جانيـس هاتيـن الحالتيـن مكانـة خاصـة فـي كتابـه، مبيّنًـا أن كليهمـا يمثـل نموذجًـا كلاسـيكيًا لـِ «متلازمـة التفكيـر الجمعـي» (groupthink syndrome). غيـر أن هنـاك أدلـة جديـدة ظهـرت فـي السـنوات الأخيـرة تصـدت لتفسـيرات جانيـس لكلتـا الحالتيـن، وسنسـلط الضـوء فـي مـا يلـي علـى التحديـات الإمبيريقيـة والنظريـة التـي تواجههـا نظريتـه، ثم نختم هـذا الفصـل بالبحث في مقاربـة جديـدة - هـي «متلازمـة الجماعـة الجديـدة» (newgroup syndrome) التي تُبـرز الأعراض المرضيـة لصناعـة القـرار فـي الجماعـة، علـى غرار مـا أبرزتـه نظريـة جانيس.

مثال (1): خليج الخنازير

بحلـول عـام 1961، أصبح النظام الشـيوعي المسـيطر فـي كوبا بقيادة الشـاب الثوري فيديـل كاسـترو يمثّل شـوكة فـي خاصـرة الإدارات الأميركيـة المتعاقبة. وعلـى الرغم من أن ذلـك لـم يُعتبر خطـرًا أمنيًا بحـد ذاته، فإن وصـول حكم مـوالٍ للاتحاد السـوفياتي في كوبا أزعـج الرؤسـاء الأميركييـن لسـببين في الأقـل. أولهما، أن تحول حليف سـابق «مجـاور للعم سـام»، لا يبعـد عن شـواطئ فلوريـدا الجنوبية سـوى 150 كم، إلـى الشـيوعية لا بد من أن يكون مدعاة للحرج السياسي. إلا أن ما كان أكثر مدعاة للقلق، هو أن تحول كوبا لن يكون سـوى خطـوة أولى لانتشـار سـريع للشـيوعية فـي دول أميـركا اللاتينيـة. وقد خـرج الرئيس الأميركـي دوايـت أيزنهـاور فـي حينـه بــ «نظريـة الدومينـو» الشـهيرة التي رأت أن سـقوط قطعـة دومينـو واحدة سـيقود إلى سـقوط سـريع متتابع للقطـع الأخرى. وقد أخذ الرؤسـاء

(10) *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, pp. 174-175.

المتحدة وخارجها - سيصدقون رواية الـ سي آي إي أن العملية برمتها قامت على أكتاف «كوبيين مُبعَدين». وقد اقتضت الخطة إنزال فرقة المبعَدين أولئك على الأراضي الكوبية لتلتحق لاحقًا بالجماعات المناوئة لكاسترو داخل كوبا، وتشن هجومًا على هافانا، وتطيح بكاسترو. ولم يكن من السهل إخفاء اليد الأميركية حينئذٍ، حيث إن الخطة لم تكن قد تسربت فحسب، وإنما نُشرت في **النيويورك تايمز** قبل الغزو! وتَمَثّل الخطأ **الثاني** في أن كينيدي ومستشاريه اعتقدوا أن سلاح الجو الكوبي كان قاصرًا تمامًا. **وثالث** هذه الأخطاء أن ذلك السلاح كان من السهل القضاء عليه باستخدام الطائرات الحربية القديمة التي زوّدت الـ سي آي إي فرقة المُبعدين الغازية إياها. وكان كينيدي قد ألغى ضربة جوية أميركية للقوات الكوبية لخوفه من إظهار مشاركة الولايات المتحدة في الغزو بشكل واضح، ما حد من قدرة القوة الغازية على شل الدفاعات الجوية الكوبية [التي اعتقدوا أنها دفاعات قاصرة]. **رابعًا**، افترضت الإدارة الأميركية أن جيش كاسترو كان ضعيفًا إلى حد يمكن معه للفرقة المُبعَدة إنشاء قاعدة بحرية قابلة للحماية عند نقطة الإنزال. **خامسًا**، افترضت الإدارة أن الروح المعنوية للقوة الغازية المؤلفة من 1400 كوبي مبعد عالية إلى حد يجعلها دون حاجة إلى دعم من قوة أرضية أميركية. وقد انطوى هذان التوقعان على مشكلات بحد ذاتهما، إذ إن الروح المعنوية لدى المبعدين كانت سيئة جدًا جعلتهم يتمردون على رجال الـ سي آي إي الذين تولوا أمرهم.

و**أخيرًا**، افترض الرئيس ومعاونوه خطأ أن الغزو سيبعث بشرارة ثورة شعبية «فورية»، وكان هذا الافتراض محفوفًا بالكثير من المخاطر، حيث إن وصول أنباء الخطة لكاسترو منحه الوقت للقبض على كل من اعتقد أنه قد ينضم إلى قوة الغزو، والإلقاء بهم في السجن. وقد ظن كينيدي ومعاونوه أن القوة الغازية تستطيع، في حالة عدم حدوث الثورة الفورية، التراجع إلى جبال إسكمبريه والانضمام إلى العصابات المناوئة لكاسترو. ويبدو أن أحدًا لم يبلغ الرئيس أن موقع الإنزال الأصلي قد تم تغييره، ما جعل الهرب أمرًا مستحيلًا في حال عدم قيام الثورة الفورية المفترضة (وهو ما ثبتت صحته على أرض الواقع لاحقًا). فحتى يتمكن الغزاة من الهرب كان عليهم اجتياز مئات الأميال

مـن أراضـي المسـتنقعات، ولكـن أحـدًا مـن مستشـاري كينيـدي لـم يأبـه للنظـر إلـى الخريطـة، وكانـت النتيجـة «فشـلًا تامًـا»، كمـا يقـول جانيـس[14].

كيـف أقنـع كينيـدي ومستشـاروه أنفسـهم بـأن مثـل هـذه العمليـة المعيبـة يمكـن أن تنجـح؟ ومـا الأسـباب التـي دعتهـم إلـى ذلـك؟ يـرد جانيـس هـذا الفشـل الذريـع، كمـا فـي حالـة حـرب فيتنـام، إلـى خطأ جسـيم فـي عملية صنـع القـرار. ولـدى تطبيـق جانيس نظريتـه علـى هـذه الحالـة وجـد مـا يـدل علـى الأعـراض الآتية:

- وهـم الحصانـة: يـرى جانيـس أن «الـرواد الجـدد» (وهـو تعبيـر اسـتُخدم لوصـف موظفـي كينيـدي) ظنـوا أنهـم «عصيِّـون علـى الفشـل». إذ يبـدو أن العديد من مستشـاري كينيـدي كانـوا يشـعرون كأنهـم يمتلكـون مـا دعـاه تيـد سورنسـين (Ted Sorensen) «اللمسـة السـحرية»، ولـم يكـن كينيـدي نفسـه معتـادًا خسـارة أي شـيء فـي حياتـه، كمـا كان حال معظـم مستشـاريه الرئيسـيين.

- وهـم الإجمـاع: لـم يُبـدِ أحـد أي نـوع مـن الشـك فـي صلاحية خطـة الغـزو عندما نوقشـت فـي الاجتماعـات الرسـمية العديـدة التـي عُقدت لمناقشـتها.

- كتـم الشـكوك الشـخصية: صرح بعضهـم في ما بعد بأنهـم أخفوا شـكوكًا عميقة لم يصرحـوا بها فـي حينه، ومن أبرز هـؤلاء آرثر شـلزنجر (Arthur Schlesinger).

- حراسـة فكـر الجماعـة: عمـل روبـرت كينيـدي وديـن راسـك بشـكل خـاص كحراس فكـر فـي هـذه الحالـة علـى مـا يبـدو؛ إذ قيـل إن روبـرت كينيـدي طلب مـن شـلزنجر ألّا يصـرح بشـكوكه لأن الرئيـس قـد حـزم أمـره علـى المضـي فـي تنفيـذ الخطة.

- تشـجيع القيـادة الدمثـة (غيـر المقصـود) للانقيـاد لها: ربمـا أن كينيدي ذاته شـجع الإذعـان وسـهولة الانقيـاد لـدى أعضـاء الجماعـة بسـماحه للسـي آي إي السـيطرة علـى النقـاش [وإيـلاء تقديراتهـم اعتبـارًا زائدًا، كما ظهـر في ما بعد]، وعدم تشـجيع مستشـاريه علـى طـرح الأسـئلة الصعبـة التـي قد تُسـاهم في الكشـف عـن مكامـن الخطأ فـي الخطة.

---

(14) *Groupthink*: *Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, p. 14.

- تحريـــم اســتعداء الأعضـــاء الجـــدد: كان مديـــر الـــ ســـي آي إي ألان دالـــز (Allen Dulles) ومديـــر التخطيـــط لديـــه ريتشـــارد بيســـيل (Richard Bissell) كلاهمـــا مؤيـــدًا للخطـة - التـي كانـت الإدارة السـابقة قـد وضعتهـا - وكان لهمـا اعتبـار كبيـر لـدى الجماعـة. ويؤكـد جانيـس أنـه فـي ظـروف مـن هـذا النـوع يصبـح مـن الصعـب - علـى الصعيـد الاجتماعـي - تحـدي أولئـك الذيـن «يعرفـون مـا يفعلـون» والشـك فـي حكمتهـم[15].

مثال (2): تصعيد حرب فيتنام

يؤكـد جانيـس أن قـرار لينـدون جونسـون ومستشـاريه أمركـة - حـرب فيتنـام عـام 1965 يُمثّـل ظاهـرة التفكيـر الجمعي فـي أوضح صورها؛ حيث تـم اتخاذ قـرار إنزال قوات أرضيـة أميركيـة علـى الأراضـي الفيتناميـة ذلـك العـام لتبقـى ثماني سـنوات لاحقـة. انتهت الحـرب بسـقوط سـايغون عـام 1975 وفـرار آخـر الأميركييـن مـن سـفارة الولايـات المتحدة بالهيليكوبتـر. وجـرى قصـف فيتنـام الشـمالية بالقنابـل فـي تلـك الأثنـاء بمقـدار يفـوق ما تـم إسـقاطه فـي الحـرب العالميـة الثانية كلها. وقـد لاقـى 58،000 أميركي حتفهـم في تلك الحـرب، مـع ملاييـن مـن الفيتنامييـن: كل ذلـك فـي محاولـة عبثية لـدرء خطـر كان يمكن تداركـه لـو أن الولايـات المتحـدة دعمـت إعـلان هو شـي منـه (Ho Chi Minh) الاسـتقلال عن فرنسـا عـام 1945. وضاعـت الفرصـة، التـي لاحـت حينئـذٍ كمـا في مناسـبات أخـرى عديدة طـوال تلك الفتـرة، لتجنب الحـرب[16].

وقـد لاحـت واحـدة مـن تلـك الفـرص بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة مباشـرة، حيـث كانـت قـوات هـو شـي منـه الشـيوعية قـد تحالفـت مـع الولايـات المتحـدة ضـد اليابـان، ومـدت منظمتـه (المعروفـة بفييـت منـه (Viet Minh) يـد العـون فـي اسـتعادة الطياريـن الأميركييـن الذيـن أُسـقطت طائراتهـم فـوق فيتنـام وكمبوديـا، ولاوس. وفـي عـام 1945 أعـادت بريطانيـا فيتنـام لسـيطرة مسـتعمريها الفرنسـيين، ولكـن

(15) *Groupthink*: *Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, pp. 35-47.

(16) انظر: Robert S. McNamara, James G. Blight and Robert K. Brigham, *Argument without End: In Search of Answers to the Vietnam Tragedy* (New York: Public Affairs, 1999).

هـو شـي منـه اختـار إعـلان الاسـتقلال مـن طـرف واحـد، وقـد حظـي ذلـك الإعـلان بموافقـة أعضـاء الـ أو إس إس (OSS) الأميركييـن وهـم أسـلاف الـ سـي آي إي - حتـى إن هـو شـي منـه اسـتهل إعـلان الاسـتقلال بالعبـارات الأولـى مـن إعـلان الاسـتقلال الأميركـي. لكـن مـا يدعـو للأسـى هـو أن القـرار الـذي اتُّخـذ فـي واشـنطن قضـى بالوقـوف إلـى جانـب الفرنسـيين؛ وكانـت حجـة العديـد مـن مسـؤولي وزارة الخارجيـة أن الولايـات المتحـدة يجـب أن تدعـم جهـود الفرنسـيين لاسـتعادة سـيطرتهم علـى مسـتعمرتهم السـابقة؛ لأن التقاعـس عـن ذلـك سـيهدد الدعـم الفرنسـي لحلـف الناتـو (NATO) فـي أوروبـا. وكانـت تعتبـر أوروبـا فـي ذلـك الوقـت مسـرحًا للمصالـح الأميركيـة يفـوق جنـوب شـرق آسـيا أهميـة إلـى حـد كبيـر.

ولكـن جانيـس لا ينظـر إلـى الحرب ضمـن هذا السـياق الواسـع، وإنمـا يفضل فحص قـرار جونسـون بدفـع القـوات البريـة إلـى الحـرب[17]. ويبـدو أن مـا أثـار اهتمـام جانيـس بوصفهـم عالـم نفـس اجتماعـي هـو أن جونسـون ومستشـاريه اتبعـوا السـلوك الامتثالـي/ الانسـياقي ذاتـه الـذي يظهـر لـدى الجماعـات فـي الدراسـات المخبريـة. ولكـن مستشـاري جونسـون كانوا هـم الألمع والأفضل، بحسـب وصف دايفـد هالبرسـتام (David Halberstam)، إذ كانـوا ذوي خبـرة، يتمتعـون باحتـرام بالـغ، ورثهم جونسـون عن سـلفه جون كينيـدي. ومع ذلـك دعمـت الغالبيـة العظمـى مـن أولئـك الرجـال - بـكل جوارحهـا - تصعيد حـرب ثبت فـي نهايـة المطـاف أنهـا كانـت كارثة علـى البلاد.

وكانـت الحلقة الرئيسـة التي شـاركت جونسـون في صنع القـرارات المتعلقـة بفيتنام، وفـق ما يـرى جانيس، هـي جماعة غـداء الثلاثـاء (Tuesday Lunch Group) وهـي جماعة صغيرة غيـر رسـمية، ولكنهـا شـديدة التماسـك تتألف مـن أفراد يثـق جونسـون بهم أكثـر مما يثق بأحـد غيرهـم، رجـال مـن مثل وزيـر الخارجية ديـن راسـك، ووزير الدفـاع روبـرت مكنمارا. وبالنظـر إلـى هـذه الجماعـة مـن الداخـل، يلاحظ جانيـس وجود دلائـل على أعـراض تمهِّد لظهـور التفكير الجمعـي، وتتمثل هـذه الدلائل بـ:

---

(17) Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, pp. 97-130.

- أنهـم جماعـة صغيرة من صنّاع القرار ذوي عقليات متشـابهة، متماسـكون ويقدِّرون وحدة الجماعة.

- وجود إحساس جماعي بالحصانة من الفشل، والتفاؤل المفرط.

- تجانس وجهات النظر داخل «الدائرة الضيقة» من هؤلاء المستشارين.

- وجـود ميـل إلـى تجنـب النصيحـة الخارجيـة التـي يمكـن أن تأتـي بفائـدة (مـن أشـخاص مثـل السـيناتور وليـام فولبرايـت، والسـيناتور مايـك مانسـفيلد).

- ظهـور حـراس فكـر (مثل مستشـار الأمـن القومـي والـت روسـتو (Walt Rostow)، وكبح الشـكوك الشـخصية لدى أعضـاء الجماعة.

- الإقصاء التدريجي للذين هددوا إجماع الجماعة.

- «تدجين» المنشقين أو إقصائهم.

غيـر أنـه كان هنـاك عـدد مـن المنشـقين حتـى ضمـن الدائـرة الضيقـة المحيطـة بجونسـون، ومـن أبـرز هـؤلاء مسـاعد وزيـر الخارجيـة جـورج بـول (George Ball)؛ فقد سـاور جـورج بـول كثيـر من الشـك فـي جـدوى أمركـة الحـرب، وعبَّر عـن ذلك مـرارًا وتكـرارًا في الاجتماعـات. ولكـن جانيـس يقـول إن الجماعـة كانـت تعطـل وقـع انشـقاقه بالإشـارة إليـه كــ «محامـي الشـيطان». ويعود هـذا المصطلح إلـى الاعتقـاد الكاثوليكي وتقاليـد الفاتيكان حيـن يتجهـون إلـى تطويـب قديـس، إذ يشـير هـذا المصطلـح إلـى الكاردينـال الـذي يتـم اختيـاره تقليديًـا ليقـف ضـد تطويـب القديـس ويأخـذ بذلـك «جانـب الشـيطان». ويكـون الكرادلـة الآخـرون علـى علم أن المحامـي لم ينقلب حقيقـة إلى ذلك الموقـع، ولكن (مثله فـي ذلـك مثـل المحامـي الـذي يجـب عليـه الدفـاع عـن مجـرم فـي المحكمـة) عليـه أن يأخـذ هـذا الموقـف. وبالمثـل، رأى العديـد ممـن ناصـروا تصعيد الحـرب أن بـول (Ball) لم يكـن جديًـا فـي انشـقاقه، وإنمـا كان يجـادل الأغلبيـة ليتيقّـن بأن النقـاش أحـاط بمختلف المواقف.

ظـل العديـد ممـن سـاهموا فـي صنـع قـرارات جونسـون فـي حـرب فيتنـام طـوال حياتهـم يؤكـدون أن بـول لـم يكـن سـوى مدافـع عـن الشـيطان - مثـال ذلـك مسـاعد

وزير الخارجية لشؤون شرق آسيا وليام باندي (William Bundy) - ولكن ذلك لم يكن صحيحًا لأن بول كان يعارض الآخرين معارضة حقيقية ومن الأعماق. غير أن صرف النظر عن الانشقاق، أو تدجينه بهذه الطريقة، هو ما يمكن توقعه بالضبط حين يكون التفكير الجمعي آخذًا مفعوله. وبالمثل، كان ليندون جونسون ذاته يُبطل مفعول انتقادات الناطق الصحافي بل مويرز (Bill Moyers) بالتعريف بمقدمه حين يدخل الغرفة بقوله: «ها قد جاء السيد أوقفوا القصف!» فيُبطل بذلك أثر كل ما يمكن أن يقوله مويرز ضد الحرب قبل أن يتفوه بكلمة[18]. وعندما بدأ الشك في حكمة الذهاب إلى الحرب يساور أحد مهندسي الحرب الأصليين - هو روبرت مكنمارا - وراح يفصح عن ذلك خارج الجماعة، أخذ جونسون يقارنه بالابن الذي زلّت لسانه أمام «من كان سيشتري بيت العائلة المعروض للبيع، قائلًا إن هناك تشققات في طبقة التسوية»[19]. كما رُوي عن جونسون أنه قال عن مكنمارا في غيابه وأمام مستشاريه - أي مستشاري جونسون - عام 1967، «إنه على وشك الانهيار» - ليزعزع الثقة بآرائه.

نقد منظور جانيس

واجهت مقاربة التفكير الجمعي انتقادات من زوايا متعددة؛ فقد أسفرت الدراسات التي اختبرت هذا النموذج اختبارًا دقيقًا، يفوق ما اتسمت به دراسات جانيس ذاته من دقة، أسفرت هذه الدراسات عن نتائج مختلطة[20]. وبوجه عام، جرى انتقاد نموذج جانيس لضعف تماسكه النظري، واستطاع بعض النقاد الإفادة من مواد [أرشيفية] كُشف النقاب عنها حديثًا، لدحض الحجج الإمبيريقية [المبنية على الأدلة المادية] التي قدمها جانيس. ووفقًا لملاحظة فيليب تيتلوك (Philip Tetlock) وزملاءه، يواجه الجانب النظري من أعمال جينيس أربعة انتقادات واسعة: **أولها**، أن جانيس اعتمد منهج دراسة الحالة كيفيًا/وصفيًا

(18) Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, p. 115.

(19) المصدر نفسه، ص 118.

(20) انظر: Philip E. Tetlock [et al.], «Assessing Political Group Dynamics: A Test of the Groupthink Model,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 63, no. 3 (1992), pp. 403-425.

(qualitative case studies)، وهـو منهـج يُغـري الباحـث بالتركيـز علـى الدليـل الـذي «يناسـب» النظريـة وعلـى إهمـال الدليـل الـذي لا يناسـبها. **ثانيًـا**، هنـاك «ارتبـاط تـام، مثيـر للشـك» فـي كتـاب جانيـس بيـن ظهـور التفكيـر الجمعـي وصناعـة القـرارات الخاطئـة - علـى الرغم مـن أنـه هو نفسـه يعترف أن هـذه العملية ليسـت كل شـيء في صناعـة القـرار، وأن قرارًا ناجحًـا قـد يخـرج مـن رحـم إجـراءات مغلـوط فيهـا - بالحـظ المجـرد. **ثالثًـا**، هنـاك مـا يثير الريبـة فـي التطابـق التـام الـذي يظهر بيـن الحـالات التـي يسـتخدمها جانيـس للتدليل على حـدوث التفكيـر الجمعـي، مـن جهـة، [حيـث نجدها تنطبـق عليـه انطباقًـا تامًـا]، والحالات التـي يسـتخدمها للتدليـل علـى صـدور قـرارات حـذرة - إذ نجـد تلـك الأدلـة تنطبـق علـى القـرارات الحـذرة انطباقًـا تامًـا - مـن جهـة أخـرى [كأن الأحـداث فُصِّلـت لتتطابـق مـع النظريـة تطابقًـا تامًـا]. و**أخيـرًا**، هنـاك مشـكلات نظريـة متنوعـة تعتـري النمـوذج ذاتـه، وخصوصًـا مـا يتعلـق منـه بالتمييـز بيـن أسـباب التفكيـر الجمعـي ونتائجـه[21]. فعلى سـبيل المثـال، يتسـاءل لونجلـي وبـروت (Longley and Pruitt) في نقدهما الكلاسـيكي لنمـوذج جانيس (بيـن مـا يثيـران مـن تسـاؤلات) عـن مبـرر إدخـال «الاعتقـاد بالصـلاح الأخلاقـي للجماعـة» و«النظـرة النمطيـة للجماعـات الخارجية» فـي قائمة أعـراض التفكير الجمعـي، من حيث إن هذيـن العامليـن، خلافًـا للعوامـل الأخـرى، لا يتصلان اتصـالًا وثيقًـا بعملية تكـوُّن الإجماع أو بالسـعي إلـى الاتفـاق[22]. وباختصـار، لا يحتـاج المرء إلـى أن يحمـل نظرة مبسـطة لأعدائه، أو نظـرة ممجِّـدة للموقـف الأخلاقي الخـاص بجماعته، ليصنع قرارًا متسـرعًا أو سـابقًا لأوانه، مسـتبعدًا فيـه وجهـات نظـر الأقليـة [أي إن التفكيـر الجمعـي قـد يأخـذ مجـراه مـن دون هذيـن العامليـن اللذيـن يضعهمـا جانيـس ضمـن العوامـل الممهـدة للتفكيـر الجمعي].

أمـا فـي الجانـب الإمبيريقـي مـن نمـوذج جانيـس فـإن دايفـد باريـت (David Barrett) [لـدى مراجعتـه للأدلـة الموضوعيـة التـي تكشـفت لاحقًـا] يعـارض القـول

(21) «Assessing Political Group Dynamics: A Test of the Groupthink Model,», p.104.

(22) Jeanne Longley and Dean G, Pruitt, «Groupthink: A Critique of Janis's Theory,» in: Ladd Wheeler, ed., *Review of Personality and Social Psychology* (Beverly Hills, CA: Sage Publications, 1980), p. 91.

إن ليندون جونسون لم يتلق نصائح مضادة لموقفه تجاه فيتنام. صحيح أن معظم مستشاريه دفعوا باتجاه التصعيد، وفقًا لملاحظة باريت، إلا أن أقلية ذات شأن منهم دفعت بالاتجاه المضاد، حيث وقف ستة منهم على وجه الخصوص هذا الموقف المناوئ، وهم: جورج بول، كما سبق أن أشرنا، والسناتور وليام فولبرايت، ونائب الرئيس هيوبرت همفري، والسيناتور مايك مانسفيلد، والسيناتور ريتشارد راسل، والمستشار الرئاسي كلارك كليفورد. وقد عبّر هؤلاء جميعًا أمام جونسون مباشرة عن مشاعر مناوئة للحرب[23]. لذا، فإن الصورة التي رُسمت لجونسون بوصفه رئيسًا يصد النصيحة الخارجية بعناد، ويعتمد حصريًا على مجموعة صغيرة من الأفراد ذوي العقليات المتشابهة، إنما هي صورة لا تتلاءم مع الوقائع التي حدثت فعلًا - من وجهة نظر باريت.

لقد عرفنا منذ زمن أن بول لم يكن الوحيد الذي تحفظ على التصعيد؛ فالعديد من رجال الـ سي آي إي، ووزارتا الدفاع والخارجية ساورتهم كذلك شكوك قوية بشأنه، ولكن معظم هؤلاء كانوا من ذوي المراتب الدنيا في سلّم السلطة. وما قد يفوق هذا كله أهمية، هو الدليل الذي نمتلكه الآن على أن جونسون ذاته كابد عناء قرار التصعيد بشدة. فبعد أن تم رفع الحظر عن التسجيلات الصوتية لاتصالات جونسون الهاتفية في البيت الأبيض في أواخر التسعينيات، تبيّن أن جونسون كان متشائمًا دائمًا بشأن فرص نجاح عملية التصعيد، ولم يكن يُبدي دلائل على وجود «وهم الحصانة من الفشل» لديه، فنحن نعرف الآن أن جونسون وزملاءه كانوا «محاربين مترددين»[24] - بحسب تعبير باريت.

أما بالنسبة إلى حملة خليج الخنازير، فقد صرح روبرت مكنمارا أن

(23) David M. Barrett, «The Mythology Surrounding Lyndon Johnson, His Advisers, and the 1965 Decision to Escalate the Vietnam War,» *Political Science Quarterly*, vol. 103, no. 4 (Winter 1988), pp. 637-663.

(24) David M. Barrett, *Uncertain Warriors: Lyndon Johnson and his Vietnam Advisers*, Modern War Studies (Lawrence, KN: University Press of Kansas, 1993).

للاطلاع على مضامين كثير من المكالمات الهاتفية ذات الصلة، انظر: Michael R. Beschloss: *Taking Charge: The Johnson White House Tapes, 1963-1964* (New York: Simon and Schuster, 1997), and *Reaching For Glory: Lyndon Johnson's Secret White House Tapes, 1964-1965* (New York: Simon and Schuster, 2001).

الشعور الغالب لدى مستشاري كينيدي عند توليهم مهامهم الرسمية لم يكن الشعور بالقوة الكاملة أو بامتلاك «اللمسة السحرية»، كما يوحي وصف جانيس، وإنما غالبهم شعور «دفاعي» قوي [أو خشية الفشل]. فعلى الصعيد الداخلي، فاز جون كينيدي بالرئاسة عام 1960 بأصغر فارق انتخابي في تاريخ الولايات المتحدة، والأهم في ذلك هو أن الشعور الغالب إزاء السياسة الخارجية كان التأهب لمواجهة خطر التمدد الشيوعي المتواصل في ذلك الحين[25]. ويؤكد رودريك كريمر (Roderick Kramer) أن ما نعرفه الآن عن حرب فيتنام، وحملة خليج الخنازير، يُضعف تفسيرات جانيس لهاتين الحالتين فيقول:

> لم يكن جانيس مطلعًا على السجلات السرية لاجتماعات كبار مسؤولي الـ سي آي إي ومذكراتهم الرسمية، بطبيعة الحال، عندما قدم حجته على أن كينيدي ومستشاريه أظهروا أعراض الثقة المفرطة و«وهم الحصانة» عندما قرروا السير في تنفيذ عملية الـ سي آي إي، حيث تشير هذه الأدلة التي أصبحت متاحة للباحثين الآن إلى أن تقويم كينيدي للخطة لم يكن متأثرًا بتقويمات الـ سي آي إي الاستخبارية المضلِّلة عن عمد فحسب، وإنما كانت، إضافة إلى ذلك، متأثرة بملاحظات ماكرة، ذات دوافع سياسية أفاد بها الرئيس السابق أيزنهاور لكينيدي في اجتماعات سرية جدًا عُقدت بينهما[26].

ومن هنا يري كريمر أن كينيدي لم يكن واقعًا تحت تأثير عمليات جماعية [معطَّلة، تنبثق من النقاشات الجماعية]، ولكنه لم يكن ليصدِّق أن دوايت أيزنهاور، «المنظِّم العبقري لأعظم وأنجح عملية غزو برمائي عسكرية في تاريخ الولايات المتحدة وأكثرها تعقيدًا»، قد يدعم عملية غزو برمائي أصغر جدًا، وأقل طموحًا بأشواط، ما لم يكن لها فرصة قوية للنجاح[27]. إضافة إلى ذلك،

---

(25) McNamara, Blight and Brigham, *Argument without End: In Search of Answers to the Vietnam Tragedy*, pp. 25-31.

(26) Roderick M. Kramer, «Revisiting the Bay of Pigs and Vietnam Decisions 25 Years Later: How Well has the Groupthink Hypothesis Stood the Test of Time?,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes*, vol.73, nos. 2-3 (1998), p. 245.

(27) المصدر نفسه.

وفي حالة حرب فيتنام، وحملة خليج الخنازير، ربما كان القرار الذي وصل إليه كل من الرئيسين قائمًا على عمليات قياس تمثيل (analogical reasoning) تجري على مستوى الفرد (انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب) أكثر مما هو قائم على عمليات جماعية. مثال ذلك، أن الثقة التي كان كينيدي ومستشاروه يولونها لمنظمة الـ سي آي إي قد تكون نابعة من نجاحها في عملية مشابهة، هي عملية خلع جياكومو آربنز (Giacomo Arbenz) في غواتيمالا عام 1954. إذ يبدو أن جون كينيدي ومستشاريه توقعوا هروب كاسترو من البلاد عندما يُواجَه بخطة أعدتها الولايات المتحدة لخلعه، تمامًا كما فعل آربنز قبل سبع سنوات.

متلازمة الجماعة الجديدة

لاحظ عدد من الباحثين حديثًا أن ظاهرة التفكير الجمعي لاقت قدرًا مبالغًا فيه من الاهتمام في البحوث والكتب الدراسية - وهذا الاعتراض قد يكون له ما يبرره. فلا يعد أي فصل من كتاب يبحث في صناعة القرار مكتملًا ما لم يُكرّس فيه حيِّز واسع لتناول التفكير الجمعي، كما هو حال الكتاب الحالي؛ فنظرية جانيس تقف كالفيل في الغرفة، يصعب غض النظر عنها عند البحث في الجماعات السياسية. وقد دعت الانتقادات للجانبين، الإمبيريقي والنظري، من نموذج جانيس العديد من المحللين لصناعة القرار في السياسة الخارجية للنظر إلى ما هو أبعد من التفكير الجمعي، فأعادوا النظر في الأدب المتعلق بسلوك الجماعات في ميدان علم النفس الاجتماعي بحثًا عن دلائل تساعد على بناء أطر نظرية أخرى[28]. ومن هذه المقاربات النظرية ما يُعرف الآن بمتلازمة الجماعة الجديدة[29]. وقد اقترح إريك ستيرن وبنغت سنديليوس (Eric Stern and Bengt Sundelius) هذه المقاربة «للإمساك بدينامية الامتثال المَرَضية المفترضة،

---

(28) Paul't Hart, Eric K. Stern and Bengt Sundelius, eds., *Beyond Groupthink: Political Group Dynamics and Foreign Policy-Making* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1997).

(29) Eric Stern and Bengt Sundelius, «'The Essence of Groupthink': Groupthink in Government: A Study of Small Groups and Policy Failure by Paul't Hart,» *Mershon International Studies Review*, vol. 38, no. 1 (April 1994), pp. 101-108, and Eric Stern, «Probing the Plausibility of New Group Syndrome: Kennedy and the Bay of Pigs,» in: Hart, Stern and Sundelius, eds., *Beyond Groupthink: Political Group Dynamics and Foreign Policy-Making.*

المرشحة للظهور لدى الجماعات السياسية الحديثة التكوّن [...] أو في الجماعات الخاصة التي أُعطيت موقعًا حديثًا في التنظيم، والتي تمر في مرحلة التكوّن»[30]. ويفسران ذلك على النحو الآتي:

تفتقر الجماعات المتكوّن حديثًا إلى ثقافة جماعية خاصة بها، كما تفتقر إلى معايير إجرائية [لتسيير شؤونها]، فيحُدث هذا الفراغ حالة من عدم اليقين بين الأعضاء. ويميل الأعضاء في هذه المرحلة إلى القلق، والتردد، والاعتمادية، وينزعون بوجه خاص إلى الأخذ بتوجيهات القائد أو الأعضاء الأقوياء في الجماعة. هذه الشروط تخلق حوافز لدى الأعضاء للإذعان والتذويت (Internalization) [أي الأخذ بثقافة الجماعة، في هذه الحالة، وتبنيها ذاتيًا]، ما يؤدي إلى ميل إلى الامتثال أو الانسياق لدى الجماعة ككل[31].

ويفترض ستيرن وسنديليوس، اعتمادًا على بحوث بروس تكمان (Bruce Tuckman)، أن الجماعات تمر بعدد من المراحل النمائية في خلال فترة وجودها، بدءًا من مرحلة التكوّن إلى النقطة التي تنفضّ بها رسميًا، ويفترضان أن نوعًا مختلفًا من الديناميات يعمل في كل مرحلة. ويُعنى ستيرن وسنديليوس بوجه خاص بالمرحلة الأولى من حياة الجماعة، عندما تتولى إدارة جديدة شؤون الجماعة، أو عندما يحدث تبدل مهم في العضوية (من خلال الاستقالة أو التعيين أو الفصل) ما يُحدث دينامية جديدة داخل الجماعة. وفي هذه المرحلة المبكرة قد تتخذ الجماعة قرارات غير فعالة أو مضطربة، إلا أن ذلك كله يعتمد على نوع المعايير التي يشجعها القائد في البداية. ويؤكد سنديليوس أن الجماعة تظل في هذه المرحلة تنزع إلى الحذر وإلى الانسياق (ما يعوق التفكير الناقد والمنفتح).

ويُطبّق ستيرن هذه المقاربة على حالة خليج الخنازير، وسيكون من المفيد أن نقارن مقاربة ستيرن هذه بمقاربة جانيس ونحن نعرض هذا التطبيق. ويزعم ستيرن، على غرار جانيس، أن الامتثال كان يمثّل مشكلة خاصة في صناعة القرار لدى جماعة كينيدي، ويرد ذلك إلى حقيقة أن كينيدي كان يدير العمل

(30) مقتبس من: Stern, «Probing the Plausibility of New Group Syndrome: Kennedy and the Bay of Pigs,», p. 165.

(31) المصدر نفسه.

بطريقة خاصة وغير رسمية، بعد أن أزال البنى المختصة بصناعة القرار في إدارة أيزنهاور، وأزاح جهاز السياسة الخارجية الذي ينظر إليه العديد من الباحثين الآن بتقدير كبير[32]. وقد كان اللاعبون الكبار في إدارة كينيدي لا يعرفون بعضهم بعضًا، ويحاولون تلمس طريقهم في مجال العمل. إضافة إلى ذلك، لم يكن لدى الرئيس ذاته خبرة إدارية أو تنفيذية ذات شأن، فكان عضوًا في الكونغرس وثم أصبح سيناتورًا. ويلخص ستيرن ملاحظاته [للظروف التي أحاطت بقرار حملة خليج الخنازير] بالقول: «نظرًا إلى نمط الإدارة المتساهلة نسبيًا التي كان كينيدي يتبناها، فإنه لم يحاول أن يوجه مرؤوسيه بشكل مقصود، وأن يوضح لهم ثقافة صنع القرار الجماعي، ليبدّد عدم اليقين [نظرًا إلى حداثة الجماعة] ويعزز التفاعل الناقد بينهم (...) ويظهر أنه كان غير واع بأثر شخصيته وقوة مكتبه في زملائه. وبالمثل، توحي الأدلة أنه لم يكن واعيًا بالمعايير الجماعية المنبثقة داخل الجماعة، والتي تتطلب الإذعان للرئيس ولذوي الخبرة (وعززها سلوكه الشخصي عن غير قصد)»[33].

الفرد في إطار الجماعة

إن تطبيق المنظور الموقفي على مستوى الجماعة [لا على مستوى الفرد، فحسب] يوحي بأن الجماعات تصبح أكثر من مجرد مجموع أفرادها؛ فحين يؤلّف صانعو السياسات جماعة، قد يصبح الكيان الناتج «مهيمنًا» على أعضائه، ويأخذ دورة حياة خاصة به. ويرى ستيرن أن كينيدي لم يُقدِّر هذا الإمكان في البداية على ما يبدو؛ «فقد أولى الموهبة جل اعتباره، معتقدًا أن في ذلك مفتاح النجاح السياسي (...) بعبارة أخرى، اعتقد كينيدي أنه يكفي أن نجمع عددًا من الأفراد الموهوبين، ونضعهم في غرفة، وننتظر الحصول على نتائج باهرة»[34]. ويمثل هذا المنظور من وجهة نظرنا نوعًا من النزوعية الضيقة؛ حيث إن كينيدي

(32) على سبيل المثال، انظر: John P. Burke and Fred I. Greenstein, *How Presidents Test Reality: Decisions on Vietnam, 1954 and 1965* (New York: Russell Sage Foundation, 1989).

(33) Stern, «Probing the Plausibility of New Group Syndrome: Kennedy and the Bay of Pigs,» p. 182.

(34) المصدر نفسه، ص 177.

أغفل في البداية الدينامية التي تأخذ مجراها عندما نجلب الأفراد ليعملوا معًا، وكما سبق أن أشرنا فإن جانيس - صاحب الاتجاه الموقفي - يؤكد أن هذه الديناميات لا تتمخض عن آثار إيجابية دائمًا (كما رأينا في حالتيْ خليج الخنازير، وحرب فيتنام). غير أن أزمة الصواريخ الكوبية التي وقعت في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1962 جعلت كينيدي يدرك الآثار التي قد تتركها معايير الجماعة، وغيرها من العوامل الاجتماعية، في صناعة القرار، فاتخذ خطوات عدة ليضمن أن حضوره (على سبيل المثال) لا يتحتّم القرارات التي يتم الوصول إليها. ولحسن الحظ، كان كينيدي على ما يبدو سريع التعلم.

خاتمة

رأينا كيف أن حجج الموقفيين تأخذ أشكالًا عديدة، غير أن المقاربات الرئيسية التي ناقشناها والمتمثلة بنظرية سكنر السلوكية، ونموذج ملغرام في الطاعة، ونظرية «الصندوق الرديء» لزمباردو، ومقاربة جانيس في التفكير الجمعي، تتفق جميعًا على أن نزعاتنا لا تحدد سلوكنا بقدر ما يحدده الموقف الذي نجد أنفسنا فيه. ولكن هناك، كما ألمحنا مرارًا في نقدنا للمقاربات الموقفية المتنوعة، وجهة نظرة أخرى منافسة في أسس السلوك السياسي؛ هي وجهة النظر النزوعية. والمقاربات النزوعية تتصدى بقوة للفكرة القائلة إن المخلوقات البشرية تتصرف عامة على نحو متشابه حين توضع في الموقف المعين ذاته؛ وكما رأينا في الفصل الأول، يعتقد النزوعيون بوجود تباين هائل لدى البشر في الاعتقادات، والاتجاهات، والأطر الذهنية، وما إلى ذلك، ويوردون أمثلة تُبرز الاختلافات في السلوك السياسي التي تنتج من هذه الفروق. وستكون مهمتنا الآتية مناقشة المنظورات المتنوعة التي تأخذ هذه المقاربة النزوعية، وسنبدأ مهمتنا هذه في الفصل الآتي بفحص المقاربة الأقدم في علم النفس السياسي، وهي السيرة النفسية. وكما سنرى، فإن هذا الكيان البحثي يفترض في طبيعته الأساس أن العوامل الخاصة بالأفراد لها دور مهم في تكوين سلوكهم.

الباب الثاني

الفرد

7
السيرة النفسية

أحدث كتاب الدكتور جستن فرانك (Justin Frank) عاصفة لدى صدوره عام 2004، والمعنون **بوش على الأريكة: سبر عقل الرئيس** *(Bush on the Couch: Inside the Mind of the President)* [ويلخص رحلته داخل عقل الرئيس قائلًا]:

> لو أن أحد مرضاي كان يقول شيئًا ويفعل شيئًا آخر، لرغبت أن أعرف السبب. ولو وجدت أنه كثيرًا ما يستخدم كلمات تخفي حقيقة معناها، وتصنّع شخصية تخفي حقيقة أفعالها، لانتابني كثير من القلق. ولو عبر عن وجهة نظر متزمتة إزاء العالم تميز بين الصواب والخطأ، والخير والشر، والحلفاء والأعداء تمييزًا مفرطًا في التبسيط لساورني الشك في قدرته على فهم الواقع. ولو أن أفعاله كشفت لا مبالاة منكرة - وحتى سادية - إزاء معاناة البشر وغلّفها بادعاءات كاذبة بالتعاطف لساورني القلق بشأن أمن الناس الذين له مساس بحياتهم. لقد راقبت برعب متزايد على مدى السنوات الثلاث الماضية التناقض والإنكار لدى شخص من هذا النوع. ولكنه ليس أحد مرضاي، إنه رئيسنا[1].

يُقيم فرانك تحليله لشخصية جورج بوش بناء على نظريات التحليل النفسي المتشددة لميلاني كلاين (Melanie Klein)، ويزعم أن تكوّن شخصية بوش في الطفولة المبكرة يمثل المفتاح الرئيس لفهم سلوكه. ويعتقد فرانك أن نمو

(1) Justin Frank, *Bush on the Couch: Inside the Mind of the President* (New York: Harper-Collins, 2004), p. xi.

جـورج بـوش المبكـر تأثـر بالمعاملـة التـي تلقاهـا مـن والديـه؛ إذ كان جـورج بـوش الأب غائبًـا عـن الأسـرة فـي كثير مـن الأحيان يقضـي معظم وقتـه في واشـنطن، أما باربـرا بوش فكانـت أُمًـا متسـلطة وتفتقر إلـى الـدفء العاطفي.

وكـردة فعـل لهـذه التنشـئة، تطور لـدى بوش منظـور مانـوي (Manichaean) يـرى العالم إمـا أبيـض وإما أسـود [والمانوية عقيدة تُنسـب إلى مانـي الفارسِـي (216-276م) الذي دعا إلـى الإيمـان بـأن الحياة قوامهـا صراع بين النـور والظلام]. كمـا تنامت لديه أوهـام العظمة والقـوة الفائقـة. ويؤكـد فرانـك أن سـلوك بـوش بوصفـه رئيسًـا يعكـس «دافع طفـل معاق انفعاليًـا، لـم يلـق الرعايـة الكافيـة». ويأخـذ تاريـخ بـوش بوصفـه مُدمـن كحـول، وامتناعـه عـن العثـور علـى عـلاج مـن بيـن خيـارات العـلاج المتميـزة التـي كانـت متاحـه لـه مثـل [مؤسسـة] «الكحوليـون المجهولـون» - يأخـذ فرانك ذلك دليـلًا على أن لدى بـوش «أعراضًا مرَضيّـة متعـددة وشـديدة لـم تخضع للعـلاج». ويؤكد فرانـك أن عزل بوش مـن منصبه كان «العـلاج» الوحيـد لصالحه وصالـح البلاد.

والحقيقـة أن أطروحـة فرانـك هـذه تمثـل واحـدة مـن أحـدث الإضافـات لتـراثٍ لعلّـه الأقـدم فـي حقـل علـم النفـس السياسـي يصطلـح علـى تسـميته «السـيرة النفسـية» (psychobiography) أو «التاريـخ النفسـي» (psychohistory). وتفتـرض هـذه المقاربـة أن الأفـراد يـؤدون دورًا مهمًـا [فـي عالم السياسـة] من حيث إن خصائصهم النفسـية تؤثـر في أحداث العالـم الواقعيـة ومخرجاتهـا (وهـو مـا يُصطلـح علـى تسـميته أحيانًـا بنمـوذج «البطـل في التاريـخ»). وتشـترك السـير النفسـية جميعها في هـذه الرؤية، كما تشـترك في أنها تسـتند، بشـكل صريـح أو ضمنـي، إلـى نظرية نفسـية ما، تسـتخلص في ضوئهـا معنـى لتاريخ حياة الشـخص موضـوع السـيرة وخياراته.

وممـا تجـدر الإشـارة إليـه أن هـذه المقاربـات لا تتمتـع فـي الوقـت الحاضـر بالشـيوع الـذي كان لهـا فـي الماضـي، فـي أي حـال، ولعـل ذلـك يعكـس تراجـع المقاربـات التحليليـة النفسـية بشـكل عـام. ونجـد كثيـرًا مـن النقـاد يُسـقطون هـذا الطـرح مـن اعتبارهـم ويرونـه «ثرثـرة نفسـية» أو تحليـلًا غيـر علمـي يجـري فـي بـرج عاجـي. غيـر أن هنـاك أطبـاء نفسـيين وعلمـاء نفـس - وليـس علمـاء سياسـة - مـا

زالـوا يعملـون فـي إطـار هـذا التـراث، ويؤكـدون أن مثـل هـذه المقاربـة أساسـية لفهـم لسـلوك الراشـدين، بمـا فـي ذلـك سـلوك كبـار السياسـيين. أمـا السـؤال عـن قيمـة هـذه الأعمـال فـي نهايـة الأمـر، فـإن هـذا الفصـل لـن يقـدم إجابـة بصـدده، فهـذا أمـر متـروك للقـارئ. ومهمـا كانـت مزايا السـيرة النفسـية وعيوبها، فإنها تظـل جديرة بالاعتبـار، في أقل تقديـر، إن لـم تكـن مثيـرة لكثيـرٍ مـن الاهتمـام.

الدور التأسيسي لسيغموند فرويد

تأثـر كثيـر مـن كتاب السـير النفسـية فـي الماضـي والحاضر بنظريـة التحليل النفسـي وطروحـات مبتكرها سـيغموند فرويـد. وقد كان لاعتقـاد فرويد أن أحداث الطفولـة تترك أثرًا قويًـا فـي النمـو اللاحق أهميـة خاصة في هذا النـوع من الدراسـات. ولا بد أن القـارئ يذكر مـن مناقشـتنا السـابقة أن فرويـد يعتقد أن البشـر مسـيّرون بدافعيـن اثنين فحسـب، وهما: العـدوان والجنـس (واللـذان يعمـلان وفق «مبـدأ اللـذة»). ورأى فرويـد أن الشـخصية تتألف مـن ثلاثـة مكونـات: الهـو (the id) والأنـا (the ego) والأنـا الأعلـى (the super ego). وكان لافتـراض فرويـد أن خبـرات الطفولـه تتـرك أثـرًا مهمًـا فـي سـلوكنا فـي الرشـد، ولا يتقلّـص مـع الزمن، كان لهـذا الافتـراض أثـرًا خاصًـا فـي كتابـة السِـيَر النفسـية. وإضافة إلـى تأكيد فرويـد أهمية الخبـرات الطفوليـة المبكـرة، أكّـد أهمية العمليات اللاشـعورية فـي توجيه السـلوك. ويتضمن اللاشـعور وفـق مـا يـرى فرويـد، رغبـات لاشـعورية، «غيـر مقبولـة» اجتماعيًـا. ويشـير باتلـر ومكمانـس (Butler and McManus)، إلـى أن هـذه العمليات:

> يمكـن اسـتنتاجها مـن الأحـلام، وزلات اللسـان، والسـلوكيات المميـزة للشـخص [...] ويُفتـرض أن تكـون الصراعـات اللاشـعورية علـى وجـه الخصـوص [التـي تكتنـف هذه العمليات] السـبب الرئيس وراء التوتر النفسـي. ويسـتطيع المحلل النفسـي أن يساعد فـي شـفائها بمعاونـة الفرد علـى التعبير عنهـا، وباسـتخدام النظريات السـيكودينامية، المبنيـة علـى نظرية فرويـد، لتفسـير سـلوك المريض[2].

(2) Gillian Butler and Freda McManus, *Psychology: A Very Short Introduction* (New York: Oxford University Press, 1998), p. 5.

ويعتقد فرويد، على سبيل المثال، أن الأحلام تُعبر عن رغباتنا وأسرارنا، وأن المحلل النفسي الماهر يستطيع فك رموزها والكشف عن صراعات لا شعورية كامنة لدينا. أما الصراعات اللاشعورية هذه فقد تنشأ بين جوانب الشخصية المختلفة، ويؤدي نشوءها إلى إحداث حالة من القلق لدى الأنا. وحين يصعب على الأنا التعامل مع هذا القلق تلجأ إلى مكنزمات دفاع لاشعورية متنوعة مثل الكبت (repression)، والتبرير (rationalization)، والإنكار (denial)، والإبدال/الإحلال (displacement)، والإسقاط (projection) لمعالجة الصراع والقلق المصاحب له.

ويتضمن الإرث الفرويدي مزيجًا مركبًا من الأفكار الأصيلة[3] أبرزها فكرة اللاشعور. ويزعم عالم النفس درو ويستن (Drew Westen) أنه، «لم يكن أحد يُدرك قبل فرويد أن عقلنا الواعي لا يمثّل سوى قمة جبل الجليد الذهني لدينا». ويشير ويستن إلى أن هذا المفهوم ينطوي على افتراض أننا قد نتصرف بدوافع وأسباب لا تكون معروفة حتى بالنسبة إلينا أنفسنا. ويأخذ علماء النفس اليوم بفكرة اللاشعور كفكرة مسلَّم بها، كذلك فإنهم يسلّمون بفكرة أن النمو في الطفولة قد يترك أثرًا أساسيًا في سلوك الراشد (وكان ذلك افتراضًا راديكاليًا في زمن فرويد). ويضيف ويستن، إن فرويد كان مصيبًا أيضًا بشأن (ميكانزم أو آلية) الإنكار، حيث يؤكد، «إن البحوث تُظهر بوضوح تام أننا ننظر إلى الجهة الأخرى لئلا نرى ما يضايقنا «[أي إننا نتعامى عن الحقيقة حتى نظل جاهلين بها، على مستوى الوعي]. وقد أصبحت بعض أفكار فرويد مقبولة وشائعة على نطاق واسع حتى أنها ما عادت مرتبطة به في الأذهان»[4]. إلا أن اختزال فرويد لدوافعنا في دافعيْ الجنس والعدوان فحسب، يمثل رؤية مبسطة جدًا للطبيعة الإنسانية في نظر كثيرين في الوقت الحاضر. هذا، وكثيرًا ما لاقت مناهجه في البحث اعتراضات شديدة لأنها اعتُبرت مناهج غير علمية.

وقد كتب فرويد ذاته عدة سِيَر نفسية، لعل أشهرها دراسته عن ليوناردو دافنشي التي بُنيت أساسًا على حلم رواه الفنان وعلى رسومه التشريحية المفصلة

---

(3) Marilyn Elias, «Freud: So Wrong and Yet So Right,» *USA Today*, 4/5/2006.

(4) انظر: درو ويستن، مقتبس من: المصدر نفسه.

لمن رسم من الرجال، استخلص فرويد أن دافنشي كان مثليّ الجنس[5]. ومن الأعمال ذات الصلة الأوثق بالسياسة التي يُفترض أن يكون فرويد قد قام بها، مشاركته في تأليف السيرة النفسية لودرو ولسون (مع وليام بوليت (William Bullitt)) التي كُتبت في الثلاثينيات من القرن الماضي، في ما يبدو، ولكنها نُشرت عام 1967[6]. غير أن تأثير فرويد في علم النفس السياسي كان غير مباشر، ويظل استصفاء التطبيقات والمنطويات السياسية الكبرى لإسهام فرويد في هذا المجال متروكًا لغيره ممن تأثروا بالإرث الذي خلّفه.

الدور التأسيسي لهارولد لاسويل

نشر هارولد لاسويل (Harold Lasswell) كتابه الرائد **المرض النفسي والسياسة** (*Psychopathology and Politics*) في الثلاثينيات[7]. وكان لاسويل متأثرًا تأثرًا بالغًا بتشارلز ميريام الذي أوحى له استكشاف العلاقة بين علم النفس والسياسة. وقد قام لاسويل بما هو غير مألوف لعالِم سياسة؛ حيث انكب على دراسة النظريات النفسية المعروفة في تلك الأيام دراسة ذاتية. ولأن علم النفس في ذلك الوقت كان مثقلًا بتأثير التحليل النفسي الفرويدي، كان من الطبيعي أن تحمل أعمال لاسويل بصمة تلك النظرية. وبغرض التبسيط، يمكن القول إن الفكرة المحورية في طرح لاسويل هي أن «الشخصية السياسية» تنتج من إحلال (displacement) المشكلات الشخصية على الحياة العامة. فالشخص الذي يُحرَم الحب في البيت قد يبحث في ما بعد عن حب الشعب الأميركي، على سبيل المثال. ويستحضر هذا الطرح موضوع آليات الدفاع أو التعويض الفرويدية بقوة، وخصوصًا مكنزم الإحلال (displacement). كذلك رأى لاسويل

(5) Sigmund Freud, *Leonardo da Vinci: A Memory of His Childhood* (London: Routledge, 1999).

ظهر هذا الكتاب أول مرّة عام 1910.

(6) Sigmund Freud and William Bullitt, *Thomas Woodrow Wilson, Twenty - Eighth President of the United States: A Psychological Study* (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1967).

شكّك إريك إريكسون، أحد الأتباع البارزين لمدرسة التحليل النفسي، بأصالة هذا الكتاب كما شكّك غيره.

(7) Harold Lasswell, *Psychopathology and Politics* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1930).

أن الطموح السياسي، والسعي إلى القوة، يعملان كتعويض للتغلب على التقدير المتداني للذات. وقد أوضح لاسويل ذاته أن حجته الأساس هي أن «الحركات السياسية تكتسب حيويتها من إحلال العاطفة الخاصة على الموضوعات العامة»[8]. كذلك رأى لاسويل، بوصفه فرويديًا، أن الجنس والعدوان هما الدافعان المسيطران لدى البشر، وسلّم أيضًا بتمييز فرويد المتعلق بالهو، والأنا، والأنا الأعلى [كجوانب رئيسة للشخصية]. ويؤدي كبت الدوافع اللاشعورية على وجه الخصوص، دورًا رئيسًا في أعمال لاسويل. وكان لكتابه **المرض النفسي والسياسة**، ثم كتاب **القوة والشخصية**، اللذين تابع فيهما فكرته بأن السياسيين كثيرًا ما يُحلِّون حاجاتهم الخاصة، مثل حاجتهم لتقدير الذات، على الحياة العامة، كان لهذين الكتابين أثر بالغ في جيل كامل من الباحثين الشباب، وأقاما رابطة فكرية هامة بين فرويد وأعلام من مثل ألكسندر جورج (Alexander George)، وهو من سنناقش أعماله في ما يلي[9].

طفولة ودرو ولسون المضطربة

يعتبر كتاب **ودرو ولسون والكولونيل هاوس** (*Woodrow Wilson and Colonel House*) لمؤلفيْه ألكسندر وجولييت جورج (Alexander and Juliette George) واحدًا من أشهر النموذجان في باب السِيَر النفسية وأكثرها خضوعًا للنقاش. وكتلاميذ للاسويل، حملت نظرياتهما عن ودرو ولسون بصمة قوية لمعلمها السابق وأفكاره[10]. وقد انطلق المؤلفان جورج وجورج، على غرار لاسويل، من نقطة أن القوة السياسية التي يحققها السياسي موضوع البحث، تمثل تعويضًا عن التقدير المتداني للذات في شكله المزمن. وكما فعل لاسويل من قبلهما، اعتمد المؤلفان في تحليلهما فكرة وجود دوافع لاشعورية قابعة وراء السطح، وأوليا النمو في مرحلة الطفولة الأهمية التي يوليها التحليل النفسي لهذه المرحلة.

---

(8) *Psychopathology and Politics*, p. 183.

(9) Harold Lasswell, *Power and Personality* (New York: W. W. Norton, 1948).

(10) Alexander George and Juliette George, *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study* (New York: Dover Publications, 1964).

ظهر هذا الكتاب أوّل مرّة عام 1956.

وكانـت الفكـرة المركزيـة فـي كتـاب **ودرو ولسـون وكولونيل هـاوس** هي أن ولسـون أضمر غضبًـا لاشـعوريًا شـديدًا تجـاه والـده علـى مـا تلقـاه مـن معاملـة خـلال سـنوات طفولتـه. حيـث كان الدكتـور جوزيـف ولسـون، القسـيس البروتسـتانتي، صارمًـا لا يليـن، ويقـال إنـه دفـع ابنـه ودرو للإنجاز بقسـوة (وكان ودرو يعانـي صعوبات تعلمية فـي طفولته المبكرة)، ولكنـه نـادرًا مـا كان يكافـئ ابنـه علـى إنجازاته بعطـف وحنان. ويدّعـي المؤلفـان أن الأب لـم يكـن قـطّ راضيًا عـن أداء ابنه، وأنـه عامله بلا مبـالاة وبرود. وكثيـرًا مـا كان يثير غيظه تـاركًا إيـاه يعانـي الإحسـاس بالنقـص والغبـاوة، والقبـح، وعـدم الجـدوى، وبأنـه غيـر جدير بالحـب»[11]. وكان ودرو ولسـون «غيـر راضٍ عن نفسـه على الـدوام»، ويعتقـد المؤلفان أنه سـعى طيلـة حياتـه ليحقق إنجـازات مهمـة للتعويض عـن هذه المشـاعر السـلبية[12].

ويلاحـظ المؤلفـان أن قلـة المرونة كانـت واحدة من أبرز صفات ولسـون الشـخصية، وافترضـا أن هـذه الصفـة تعـود أيضًـا إلـى نشـأته فـي الطفولـة، حيـث إن إغاظـة والـده المسـتمرة لـه أفقدتـه الشـعور بالأمـن، وجعلتـه متصلبًـا فـي حياتـه اللاحقـة وغير مسـتعد للوصـول إلـى تسـويات. كمـا افترضـا أن نشـأته الطفوليـة هـذه دفعتـه نحو سلسـلة طويلة مـن النزاعـات مـع «شـخصيات أبويـة» [أو فـي منزلـة الأب] مثـل ديـن وسـت فـي جامعة برنسـتون، والسـيناتور هنـري كابـوت لـودج لاحقًـا. والمثيـر للسـخرية أن ولسـون كان على وعـي تـام بأهميـة التفـاوض وعقد الصفقـات في النظـام السياسـي الأميركي، غيـر أن رفضه التسـوية بشـأن اتفاقيـة عصبـة الأمـم أدت إلـى سـقوطه فـي النهايـة. فقـد كانـت الاتفاقية أساسًـا مـن بنـات أفكاره، ولكـن جورج وجـورج يعتقـدان أن مجلـس الشـيوخ الأميركي كان سـيوافق علـى مقترحهـا لـو أن ولسـون كان مسـتعدًا للوصـول إلـى تسـوية بشـأنه. فكانت خاصيـة التصلـب بالـرأي هـذه، مـن وجهـة نظـر المؤلفيْـن، هـي التـي قـادت إلـى رفض الاتفاقيـة بالتأكيـد، إضافـة إلى السياسـات الكارثيـة التي صنعها ولسـون بنفسـه، والتي تنبع مـن هـذه النزعة إلـى التصلـب ذاتها.

---

(11) *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study*, p. 8.

(12) المصدر نفسه، ص 3.

غيـر أن جـورج وجـورج في كتابهما الأصلـي عرضا أفكارهمـا بلغة غير قاطعـة؛ فكثيرًا مـا اسـتخدما كلمـات مـن مثـل «ربمـا» و«يسـتطيع المـرئ أن يُخمِّـن»، ولـم يعطيـا آراءً قاطعًـا عـن شـخصيته. وقـد يكـون أحـد مراجعـي الكتـاب (أو أحـد المؤلفيـن أو كلاهمـا) أصـر علـى ذلك، ليكـون القارئ علـى بيّنة مـن أن الحجج المطروحـة مبنية علـى افتراضات غيـر قابلـة للاختبـار. وينكـر المؤلفـان أيضًا أنهما يحاولان تفسـير سـلوك ولسـون بنـاء على شـخصيته فحسـب[13]. ومـن حيـث إننـا لا نعـرف ما هو موجـود فـي لا شـعورنا - وإلا فإن تعبيـر «لاشـعور» يكـون لا معنى لـه - فإنه من المسـتحيل تقريبًـا اختبار طروحـات مؤلفيْ الكتـاب [عـن أثـر طفولـة ولسـون في شـخصيته]. ولعلـه مـن المثير للدهشـة أن نجـد أنه بالرغـم مـن الموقـع المحوري الـذي تحتله طفولة ولسـون فـي تحليلهما، فـإن المؤلفين لم يكرِّسـا لهـذا الموضوع سـوى بضـع صفحات مـن الكتاب.

وقـد تكـرس معظـم الكتـاب لإظهـار مـدى عنـاد ولسـون وقلـة مرونتـه (أي لإظهار أن الأنمـاط السـلوكية ذاتهـا تكررت طـوال حياته). ولكـن هذا لا يعني بالضـرورة أن تلك الأنمـاط تعـود إلـى التفسـيرات السـيكولوجية التـي قُدِّمـت فـي الكتـاب، ويجـد المـرء نفسـه، بعـد قـراءة تحليـل المؤلفيـن لحيـاة ولسـون، أنـه إمـا أن يثق بهـذه التفسـيرات، أو أن يبحــث لنفســه عــن تفســيرات أخــرى. ولقــد أخــذ إدويــن فاينشــتاين (Edwin Weinstein) وزمـلاءه بالخيـار الثانـي، ورأوا أن جـذور التصلـب لـدى ولسـون فيزيولوجيـة وليسـت سـيكولوجية[14]. فمـن المعـروف فـي الدوائـر الطبيـة، أن الجلطـات (Strokes) قـد تـؤدي إلـى تقلـبٍ فـي المـزاج والسـلوك، ونحـن نعـرف أن ولسـون تعـرّض لسلسـلة من الجلطـات، كان أشـدها تلـك التـي أصابته فـي تشـرين الأول / أكتوبـر عـام 1919. وربما يحظـى هـذا التفسـير بقبـول أوسـع الآن مما يحظـاه تفسـير جـورج وجـورج - وكدليـل

---

(13) *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study*, p. xxii.

(14) انظر: Edwin A. Weinstein, James W. Anderson and Arther S. Link, «Woodrow Wilson's Political Personality: A Reappraisal,» *Political Science Quarterly*, Vol. 93, no. 4 (Winter 1978-1979), PP. 585-598, and Juliette L. George an Alexander L. George, «Wood row Wilson and Colonel House: A Reply to Weinsten, Anderson, and link,» *Political Sscience Quartely*, Vol. 96, no. 4 (Winter 1981-1982), PP. 641-665.

على ذلك، عرضت شبكة PBS الأميركية فيلمًا لسيرة حياة ودرو ولسون لم يتم التطرق فيه إلى أطروحة جورج وجورج من قريب أو من بعيد[15]. ولكن هذا الفيلم أثار في حينه نقاشًا حادًا بين فاينشتاين وأندرسون ولينك من جهة، وجورج وجورج من جهة أخرى، ومع أن هذا الاختلاف يظل باعثًا على الاهتمام فإنه يُبيّن صعوبة وقوف التفسيرات القائمة على التحليل النفسي أمام التفسيرات الأخرى الممكنة.

شخصية ليندون جونسون المعقّدة

يمثّل ليندون جونسون حالة قائدٍ ذي شخصيةٍ معقدة، ويكشف التصدي لدراسة هذه الحالة الصعوبات التي تنشأ عند التعامل مع قائد تحمل شخصيته وجوهًا عديدة متضاربة على هذا النحو. فقد وُصف جونسون بأنه نشيط، ولكن ذو تفكير سلبي، نرجسي، وارتيابي [مفرط الشكوك]، يتناوب عليه الهوس والاكتئاب، وبأنه ضحية لتنشئة أمّ قاسية. وقد جاء أول التحليلات النفسية لشخصية جونسون، وأفضلها، على يد مؤرخة الرئاسة، وصديقة جونسون المقرّبة، دوريس كيرنز غودوين. واستخدمت غودوين في كتابها **ليندون جونسون والحلم الأميركي** (*Lyndon Johnson and the American Dream*)[16] - مقاربة التحليل النفسي لتحليل شخصية جونسون، وقد نُشر الكتاب أول ما نُشر عام 1976 بعد ثلاث سنوات فقط من وفاة جونسون. وتفصح غودوين في هذا الكتاب عن اعتقادها بأن تنشئة جونسون المبكرة - وعلاقته بوالدته بوجه خاص - صبغت تفاعلاته المستقبلية مع موظفيه، وغيرهم في عالم السياسة. وكانت والدة جونسون امرأة تتسم بالذكاء والطموح، ولكن زواجها بسام جونسون (والد ليندون) سلَبَها مهنة واعدة كانت تتوق إلى العمل بها. وكان سام رجلًا جلفًا بكل المقاييس، وكثيرًا ما شرب حتى الثمالة، فاتخذت الوالدة

(15) PBS American Experience, «Woodrow Wilson Website,» <http://www.pbs.org/wgbh/amex/wilson/>.

(16) Doris Kearns Goodwin, *Lyndon Johnson and the American Dream* (New York: Harper and Row, 1976).

مـن ابنهـا بديـلًا لتحقق مـن خلالـه طموحاتهـا، وفق مـا رأت غودويـن. وكانـت تلجأ إلى حرمـان لينـدون محبتهـا حينمـا يُخفـق فـي تحقيـق توقعاتهـا العاليـة بشـأنه، وهـو مـا انعكـس علـى تعامـل لينـدون اللاحـق مـع موظفيـه وأصدقائـه.

كتبت رينيه ماريا رلكه (Rainer Maria Rilke) حول ذلك قائلة:

«كثيـرًا مـا يرقـص الأطفـال علـى إيقـاع الحياة التـي لـم يعشـها والداهـم [...] وصورة ربيـكا بينـس جونسـون (Rebekah Baines Johnson) التـي تظهـر مـن خـلال هـذه القصص هـي صـورة امرأة غير سـعيدة علـى الإطـلاق، انقطعت عن كل الأشـياء التي أسـعدتها فـي حياتهـا ذات مـرة، وانعزلت في كـوخٍ على جدول شـحيح مع رجل اعتبرته سـوقيًا فظًـا. وظهـرت مـن خـلال هـذه القصـص امـرأة مُحبَطة تحمـل كثيـرًا مـن الطموحات المخنوقـة، وتحـاول مـن خلال ابنها البكـر إيجاد بديـل لوالد ميت، وزواج غير سـعيد، ومهنـة لـم تحقـق النجاح. ويبـدو أنها كانـت ترزح تحت تأثير وسـواس قهـري يدفعها إلـى أن تحقـق مـن خلال ابنهـا المخططـات والمشـاريع التي لـم تسـتطع أن تحققها لنفسـها. وسـيحقق الابـن فـي مـا بعـد الأحـلام المتمنـاة التـي لـم تسـتطع هـي أن تحققها، وسـيصبح شـخصية ذات شـأن لم تسـتطع هـي أن تكونها[17].

ويستذكر جونسون:

اكتشـفت والدتـي سـريعًا أن والـدي لـم يكـن الرجـل المناسـب لتناقـش وإيـاه أمـور الحيـاة الكبيـرة. فكانـت تـرى حيـاة زوجهـا سـوقية وجاهلـة، إذ اقتصـرت رؤيتـه للمتعـة علـى السـهر حتـى منتصـف الليـل مـع الأصدقاء، وشـرب البيـرة، وروايـة القصـص، ولعب الدومينـو. شـعرت بأنهـا وحيـدة تمامًـا، وكانـت السـنة الأولـى مـن زواجها أسـوأ سـنوات حياتهـا. ثـم جئـت أنا، وفجـأة أصبح كل شـيء على ما يـرام ثانيـة، فأنا أسـتطيع أن أقوم بـكل ما لم تسـتطع هـي القيام بـه[18].

رعـت ربيـكا «الأنـا» المضخمـة لـدى ابنهـا لينـدون؛ وبكلماتـه هـو: «جعلتنـي أشـعر بأننـي كبيـر ومهـم، واعتقـدت أننـي أسـتطيع أن أقـوم بـأي شـيء فـي العالـم».

(17) *Lyndon Johnson and the American Dream*, pp. 22-24.

(18) المصدر نفسه، ص 22.

ولكـن حبهـا وعطفها كانـا مدًا وجـزرًا، وكثيرًا ما كانا يُسـحبان عندما يأتي جونسـون الصغير إلى البيت حاملًا من المدرسـة كشـف علامات سـيء.

وتؤكد غودوين أنه:

«عندمـا كان لينـدون يُخفـق في تحقيـق رغباتها، لم يكـن يتعرض للانتقاد فحسـب وإنما كان يُسـحب العطـف عنـه تمامًا. ويـروي جونسـون في هذا الصدد أنه: «عندمـا أقلعتُ عـن تلـك الدروس ظلـت أيامًا تجـول في المنـزل تتظاهر كأنـي ميت. ولكـي تجعل الأمر أكثـر سـوءًا، كنتُ ألاحـظ أنها تصبح أكثـر دفئًا ورقـةً مع والـدي وأخواتي».

وتكـررت هـذه التجربـة مـرة أخـرى فـي مـا بعـد عندمـا رفـض جونسـون الالتحـاق بالجامعـة فأهملتـه ربيـكا لعـدة أسـابيع، رافضـة التحـدث أو حتـى النظـر إليـه[19].

وتلاحـظ غودويـن تماثـلًا واضحًا بين طريقـة والدة جونسـون في إغـداق الحب على ابنهـا ومنعـه بالتنـاوب، والطريقـة التـي عامـل بها جونسـون موظفيـه «وجميـع علاقاته مع الكبـار تقريبًـا» فـي مـا بعـد. فـكان باسـتطاعته إغـداق العاطفـة والعطـاء علـى أصدقائـه، وزملائـه، ومرؤوسـيه، ولكـن العاطفـة والعطـاء كان سـريعًا مـا يتحـول إلـى غضـب وعدائية حيـن كانوا يخفقون فـي الوصول إلى مسـتوى المعايير التي يضعها لهـم. وتضيف غودوين:

كان جونسـون يتطلـب قـدرًا كبيـرًا مـن الشـكر والـولاء، علـى نحو يجعـل خيبة الأمـل واقعة لا محالـة. وعندما كانت تحل خيبة الأمل، كان جونسـون يميل إلى سـحب عاطفتـه واهتمامـه، ويتحول إثـر ذلك إلى حالـة «الجمود الجونسـوني»، فيـؤذي الآخريـن بالطريقـة ذاتها التـي آذته بهـا أمه قبل سـنوات مضت.

وينظـر روبـرت داليـك (Robert Dallek)، وهـو مـؤرخ رئاسـي بـارز آخـر، إلـى جونسـون كمثـال دراسـي مناسـب لحالـة بارانويـا سياسـية. ومـع أننـا لا نسـتطيع اعتبـار داليـك كاتـب سـيرة نفسـية فـي أي حـال، فإنـه لا بـد مـن الإشـارة إلـى أنـه زعـم فـي كتابـه **المـارد المتصـدع** (*Flawed Giant*) أن جونسـون «كان يقتـرب مـن حالـة

(19) *Lyndon Johnson and the American Dream*, p. 25.

جنـون العظمـة (البارانويـا) المَرَضيـة إلـى حـد مفـزع»[20]، ويعلـق داليـك علـى هـذا الجانـب قائـلاً:

> كان يـؤرق جونسـون اعتقاد غيـر عقلاني بأن خصومـه المحلَيين يضمـرون نيّة لتدمير المؤسسـات الوطنيـة. ويثيـر جنـون العظمـة لـدى جونسـون تساؤلات عـن أحكامـه، وقدرتـه علـى صنع قـرارات عقلانية تتعلق بالحيـاة والموت. إنني لا أثيـر هذه القضية عَرَضًـا، إنهـا قضيـة صعبـة إلى حـد مخيف، لم تتصـدّ لها البـلاد بجدية قـط[21].

ويؤكـد داليـك وجهـة نظـر بـل مويـرز (Bill Moyers) التي نسـبها إليه ريتشـارد غودوين سـابقًا، بـأن جونسـون عانـى نوبـات بارانويـا شـديدة، ويقتبـس من مويـرز أن السـيدة بيرد جونسـون كانـت قلقة بشـأن حالـة البارانويا لدى زوجها أكثر من أي شـخص آخـر[22]. كذلك فـإن داليـك يقدم دليـلًا على أن وزيـر الخارجية دين راسـك كان قلقًا بهذا الشـأن. فقد كان جونسـون، علـى غـرار خلفه نيكسـون، يـرى مؤامرات آتيـة مـن كل اتجاه، مـن اليمين ومن اليسـار. ولكـن اعتقـادات جونسـون بشـأن أعدائـه لـم تكـن مبنية على أسـاس، علـى الرغم مـن ثقتـه بهـا، ولم تكن سـوى «هـراء مخبول» علـى حد وصـف داليك[23].

وكان ريتشـارد غودويـن كاتـب خطابـات جونسـون السـابق وزوج دوريـس كيرنـز غودويـن أشـد المناصريـن للرأي القائـل إن جونسـون عانـى البارانويا، وقد خلقـت مذكراته **ذكريـات أميـركا** (*Remembering America*) عاصفـة عندمـا صـدرت عـام 1988 لأول مـرة، ويعـود ذلـك فـي الجـزء الأكبـر منـه إلـى وصفـه السـلوك الغريـب الـذي كان يعتـري جونسـون بشـكل متزايـد فـي الوقت الذي اتُّخـذت فيه القرارات الحاسـمة بشـأن فيتنام[24]. ويسـتذكر غودوين:

---

(20) Robert Dallek, *Flawed Giant: Lyndon Johnson and his Times, 1961-1973* (New York: Oxford University Press, 1998), p. x.

(21) المصدر نفسه، ص 627.

(22) المصدر نفسه، ص 283.

(23) المصدر نفسه، ص 627.

(24) Richard N. Goodwin, *Remembering America: A Voice from the Sixties* (New York: Perennial Books, 1989).

فـي خـلال عـام 1965، وخصوصًـا فـي الفتـرة التـي أحاطـت بقـرار منتصف الصيـف الحاسـم الذي حـوّل فيتنـام إلـى حـرب أميركيـة، أصبحـتُ أكثـر اقتناعًا بـأن الأطـوار الغريبـة التي اعتـرت الرئيس علـى الـدوام قـد أخـذت قفـزة هائلـة نحـو اللامعقـول. لـم تظهـر هـذه الحالـة فـي بحـث كل المواضيـع، وليـس طـول الوقـت بالتأكيـد [...] غيـر أنه ما من شـك لديَّ فـي أن جو البيـت الأبيض والقـرارات التـي اتخـذت حتـى 1965 (وهـي الفتـرة الوحيدة التـي لاحظتها شـخصيًا) تأثَّـرا بنوبات الاضطـراب التـي انتابـت عقل جونسـون وروحـه[25].

ويخلـص غودويـن، بنـاءً علـى ملاحظتـه المباشـرة لجونسـون لعـدة سـنوات، إلـى أن لينـدون جونسـون، «مـر بنوبـات خاصـة، أعتقـد أنهـا نوبـات بارانويـا، وأن هـذه الملاحظـة يُشـاركني فيهـا آخـرون كانـوا علـى اتصـال وثيـق، ومتكـرر، بالرئيـس»[26]. وفـي عـام 1965 شـرع كل مـن غودويـن ووزيـر الإعـلام بل مويـرز، كل علـى حدة ومـن دون علـم أحدهما بالآخـر - فـي استشـارة أطبـاء نفسـيين وقـراءة كتـب دراسـية فـي علـم النفس فـي محاولة لفهـم التدهـور العقلـي الـذي لاحظـاه علـى الرئيس.

كيـف لنـا أن نفهـم شـخصًا معقـدًا نفسـيًا مثـل جونسـون؟ فإضافـةً إلـى الدلائـل التـي تأتينـا مـن طفولتـه ومـن شـخصية «جايـكل وهايـد» [المزدوجـة] التـي عاشـها، وإضافـة إلـى أمـارات البارانويـا القويـة، هنـاك دليـل علـى شـيء مـن النرجسـية لديـه. ففـي زيـارة للفاتيـكان عـام 1966، قـدم جونسـون نفسـه للبابـا تقديمـه الشـهير قائـلاً إن كل شـخص فـي عائلتـه يدعـى «لينـدون ب. جونسـون»، وكأنـه يولـي نفسـه اعتبـارًا تاريخيًـا [فـي ذلـك المـكان] يسـعى مـن ورائـه إلـى الخلـود. كمـا أنـه جـرى تشـخيصه عــن بُعــد مــن جهــة الدكتــور جابلــو هيرشــمان (Jablow Hershman) علــى أنــه يعانـي حالـة هَـوَس واكتئـاب (Manic-depressive)، وإن ظـل هـذا التشـخيص موضـع جـدل[27]. ويحـذر فرانـك فـي كتابـه مـن أن التعقيـد الكامـن فـي الشـخصية الإنسـانية يحـول دون فهمنـا لهـا إلا فـي حـدود ضيقـة؛ فحتـى الأشـخاص الذيـن يوحـون بأنـه

---

(25) *Remembering America: A Voice from the Sixties*, p. 393.

(26) المصدر نفسه، ص 394.

(27) D. Jablow Hershman, *Power Beyond Reason: The Mental Collapse of Lyndon Johnson*, Preface by Gerald Tolchin (Fort Lee, NJ: Barricade Books, 2002).

مـن السـهل فهمهـم، مـن مثـل جـورج دبليـو بـوش، قـد يكونـون فـي الحقيقـة نتاجًـا لخبـرات سـيكولوجية ليـس بمقدورنـا فهمهـا إلا فـي أضيـق الحـدود.

السيرة النفسية المقارنة

يمثّـل كتاب جيمس دايفـد باربـر (James David Barber) المعنون **الشـخصية الرئاسـية** (*The Presidential Character*)[28]. العمل الأبرز في مجال السـيرة النفسـية بوجه عام، والسـيرة النفسية المقارنـة بوجـه خـاص، ولا يعتبـر تناول هذا الموضـوع تامًا ما لـم يتطرق إليـه. ويؤكد بول كوويـرت (Paul Kowert)، علـى سـبيل المثـال، أن الأعمـال التـي تتنـاول سـيرًا نفسـية مفـردة تتسـم بالخصوصيـة، وتركـز علـى منظومة فريدة مـن المتغيـرات، ولا توفر تاليًا أساسًـا كافيًا للمقارنـة»[29]. وقـد كان كتـاب باربـر واحـدًا من أوائـل الكتب التـي تناولت تحليل الرؤسـاء الأميركييـن بطريقـة مقارنـة، وأول مـن وضـع إطـارًا صالحًـا للمقارنـة يمكـن تطبيقـه علـى جميـع الرؤسـاء، مهمـا كانت خلفياتهم، أو اعتقاداتهم، أو أسـلوب عملهـم. وكان مهتمًا فوق كل شـيء بتفسـير نجـاح بعض الرؤسـاء وفشـل بعضهـم الآخر، كمـا أنـه كان مهتمًـا بالتنبؤ بمـن يُحتمـل أن ينجـح أو يفشـل قبـل أن تظهـر النتيجة علـى أرض الواقـع. والحقيقـة أننا نسـتطيع معرفـة ذلـك الهـدف بالنظـر إلـى العنـوان الفرعـي للكتـاب، وهـو: **التنبـؤ بـالأداء فـي البيـت الأبيـض** (*Predicting Performance in the White House*). مـا الـذي فعلـه باربـر لتحقيـق ذلـك الهـدف؟ انطلـق باربـر لأداء مهمتـه مـن افتـراض أن النجـاح أو الفشـل يعـود أساسًـا إلـى نـوع شـخصية الرئيـس. ويمضي فـي متابعة هـذه الفكرة فيشـير إلى بُعدين أساسـيين فـي الشـخصية يسـاعدان الرئيس على القيـام بهذه المهمة، وهما: بُعد النشـاط - اللانشـاط (active-passive dimension) وبُعـد الإيجابيـة - السـلبية (positive-negative dimension).

ويشير بُعد النشاط إلى مقدار الطاقة التي يصرفها الرئيس في عمله.

---

(28) James David Barber, *The Presidential Character: Predicting Performance in the White House*, 3rd ed. (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1992).

(29) Paul Kowert, «Where Does the Buck Stop?: Assessing the Impact of Presidential Personality,» *Political Psychology*, vol. 17, no. 3 (September 1996), pp. 421-452.

فالرؤساء الناشطين يتحركون ويحَرّكون، إذا رغبوا؛ هم أفراد مشحونون بالدافعية، ويمتلكون قدرًا وافرًا من الطاقة، وينغمسون في العمل بحماس. وعلى العكس من ذلك نجد الرؤساء غير الناشطين أقل اهتمامًا بالتفاصيل إلى حد كبير، لا يعملون بجد بالقدر نفسه، ويفضلون إدارة الأمور بشكل متوازن وليس بإثارة الصراعات أو تحدي الوضع الراهن. أما بُعد الإيجابية مقابل السلبية [في الاتجاه نحو العمل الرئاسي] فيشير إلى مقدار الرضا الذي يستشعره الرئيس في أدائه لعمله (أي مدى اقتناعه، بكلمات أخرى) واستعداده لممارسة السلطة. وعلى الرغم من أن جميع الرؤساء يبدأون عملهم وهم راغبون في أداء مهمة الرئاسة، فإن بعضهم يجد أنه لا يستمتع بالعمل في الحقيقة بعد أن يصل إلى المركز. فمن الواضح أن مسؤوليات المنصب - وما يتحمله شاغله من ضغوط وأعباء - مسؤوليات هائلة قد تجعل الشخص يستاء من كونه رئيسًا. ويعتقد باربر أن بعض الأشخاص يكونون سلبيين [لا يرغبون في تولي السلطة]، بمعنى بأنهم يشعرون أنهم ملزمون بالواجبات والمسؤوليات للإمساك بالسلطة، مع أنهم في حقيقة الأمر يكرهون ممارستها أو لا يحبون المتطلبات التي تأتي معها. أما بعض الرؤساء الآخرين فيحملون اتجاهات إيجابية نحو العمل الرئاسي، بمعنى أنهم يستمتعون بتولي المنصب إلى حد كبير، ويشعرون بالرضا عن العمل فيه إلى حد كبير كذلك.

ويقول باربر إن أفضل ما يمكن أن يكون عليه الرئيس هو أن يكون نشيطًا - إيجابيًا. فالناشطون - الإيجابيون أفراد متوازنون، قانعون بالحياة، يحترمون أنفسهم، منفتحون على الأفكار الجديدة، ومستعدون للتعلم من الخبرة. هؤلاء هم أناس أصحاء، يتمتعون بالطاقة، يعتقدون أنهم قادرون أن يعملوا ما يريدون، ويؤدّون أداءً جيدًا في المكتب الرئاسي، في الغالب. ويقع ضمن هذه الفئة من الرؤساء: روزفلت، ترومان، كينيدي، فورد، كارتر، جورج بوش (الأب)، وكلينتون. فقد استطاع ترومان، على سبيل المثال، إعادة صياغة السياسة الخارجية الأميركية بكاملها: أقام الناتو (NATO)، ووضع خطة مارشال، وتدخل في كوريا، والأهم في ذلك كله هو أن أميركا تبنت في عهده سياسة الاحتواء؛ وهي السياسة التي بقيت المفتاح الأهم للسياسة الخارجية الأميركية حتى

منتصف عهد بوش. ويعتقد باربر أن إحساس ترومان بمقدرته كشخص، وتمتعه بالطاقة، والقدرة على الحسم هو ما يقف وراء كل تلك الإنجازات. ويأتي جيمي كارتر كمثال آخر؛ فعلى الرغم من أن إنجازاته تقل كثيرًا عن إنجازات ترومان فإنه كان منغمسًا انغماسًا شديدًا في عملية الحكم، واستمتع بكونه رئيسًا أكثر من أي شيء آخر في حياته. والحقيقة أن أداءه العام منذ أن ترك المنصب، يدل على أن منصب الرئاسة أسره، حتى إنه لا يزال يتصرف وكأنه الرئيس الحالي!

أما أسوأ ما يمكن أن يكون عليه الرئيس فهو أن يكون ناشطًا - ذا اتجاه سلبي (active-negative) - وفق ما يرى باربر. فهؤلاء الرؤساء يكونون خطرين لأنهم يمتلكون نزعة إلى الوسواس التسلطي (compulsiveness) والعدوان، ويميلون إلى العناد وعدم المرونة إلى حد يجلب الكارثة عليهم وعلى البلاد. وكثيرًا ما ينسحبون بعيدًا عن المعارضة، ويتقوقعون حول أنفسهم. ويزعم باربر أن ريتشارد نيكسون وليندون جونسون هما من هذا النوع من الرؤساء - أي ناشطون - سلبيون - حيث تمسك كل منهما بوجهةٍ خاصة في تسيير الأمور قادته إلى التهلكة (جونسون في فيتنام، ونيكسون في ووترغيت). فقد قرر جونسون توسعة الحرب في فيتنام بغزو كمبوديا عام 1970، ووقع في فخ التمسك بخط سياسي ثبت فشله. وعلى غرار جونسون، كان نيكسون مرتابًا يرى المؤامرات تحيط به من كل جانب، وأنهى كل منهما فترته الرئاسية في عزلة تامة.

أما الحالة الأقل سوءًا، وإن ظلت بعيدة من حالة النشاط - الإيجابية، فهي حالة اللانشاط - التوجه الإيجابي (passive-positive) وحالة اللانشاط - التوجه السلبي (passive-negative). حيث يزعم باربر أن الرؤساء غير الناشطين - الإيجابيين يسعون إلى محبة الآخرين وتعاطفهم من طريق الملاطفة والتعاون بدلًا من التصادم. فهم متفائلون، لطفاء، متجاوبون؛ وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بالعمل الرئاسي فإنهم لا يسعون إلى إنجاز الكثير ولا يشعرون بأنه مطلوب منهم الكثير. ويعطي باربر رونالد ريغان كمثال وحيد على هذه الحالة بين الرؤساء الحديثين. ويعتقد أن ريغان يمثل هذه الحالة لأنه كان شخصًا

مقبـولًا وجذابًـا، ولكنـه لـم يحـب القيـام بعمـل شـاق. وكثيـرًا مـا كان يصوغ مـا يرغب في عملـه صياغـة عامـة، ويتـرك الأمر لمستشـاريه ليقـرروا كيفية تنفيـذ تلك المبـادئ، ووضعها حيـز التنفيـذ. بعبارة أخرى، كان ريغـان مديرًا ذا توجه عـام (macro-manager) أما جيمي كارتـر فـكان يمثل المديـر الجزئـي (micro-manager) الذي انغمس فـي التفاصيل اليومية لعملية صنع السياسـة.

وأمـا الحالـة الأخيـرة فهـي حالـة اللانشـاط - التوجه السـلبي؛ والأفـراد الذيـن يمثلون هـذه الحالة يفضلون أي شـيء علـى أن يكونوا رؤسـاء، إلا أنهم يمتلكون إحساسًـا بالواجب يدفعهـم إلـى هـذا العمـل. وهـذا النـوع مـن القـادة لا يحقـق كثيـرًا مـن الرضـا بالعمـل الرئاسـي، ولا يبـذل كثيـرًا مـن الجهـد لتحقيـق إنجـازات كبيـرة. ويعتقـد باربـر أن دوايـت أيزنهـاور يقـع ضمـن هـذه الفئـة من الرؤسـاء. حيـث إن أيزنهـاور لم يسـعَ لإحـداث تغيير دراماتيكـي أثنـاء فتـرة رئاسـته، وبـدى أنـه زاول عمله بنفـور بالـغ. ويُذكر أنه جـرى إلحاقه بالترشُّـح عـن الحـزب الجمهـوري عـام 1952 مـن دون أن تكون لديـة رغبة قويـة في ذلك. ويقـول باربـر إن أيزنهـاور، «لم يشـعر بواجـبٍ لانقاذ العالـم أو لأن يصبح بطـلًا، وإنما أراد أن يسـهم [فـي الخدمـة العامـة] بأقصـى مـا لديه مـن مقدرة».

وعندمـا نضـع البعديـن [اللذيـن أشـرنا إليهمـا] معًـا: النشـاط فـي مقابـل اللانشـاط، والإيجابيـة فـي مقابـل السـلبية، فإننـا نخرج بجـدول كالجـدول الـوارد أدناه (انظـر الجدول (7-1)).

ولقــد أثــارت نظريــة باربــر كثيــرًا مــن الجــدل لــدى علمــاء السياســة منــذ نشــرها عــام 1972، وأصبــح كتابــه عنهــا موضوعًــا للاقتبــاس والمناقشــة علــى نطــاق واســع فــي علــم السياســة الأميركــي. وتذكرنــا هــذه النظريــة فــي أســوأ الأحــوال بــأن الأداء الرئاســي هــو نتيجــة لخليــط معقــد مــن العوامــل، ولا تحــدده عوامــل الشــخصية فحسـب. وهـي فـي أحسـن الأحـوال تقـدم مـا تدعـي أنهـا تقدمـه (ربمـا)، أي بمخطـط يسـاعدنا علـى التنبـؤ بالنجـاح والفشـل فـي المنصـب الرئاسـي. غيـر أن النقـاد، فـي الآونـة الأخيـرة، ألقـوا الضـوء علـى عـدد مـن المشـكلات فـي نظريـة باربـر هـذه،

ما قاد إلى تداني شعبيتها. وهناك ثلاثة انتقادات لإطار باربر النظري تجدر ملاحظتها هنا، وهي:

1- إن نظرية باربر تبالغ في تبسيط العالم بطريقة قد تكون مضللة في نهاية الأمر. إذ يمكننا القول جدلًا إننا نستطيع تصنيف الشخصيات الرئاسية في عشرات - إن لم يكن في مئات - من الأصناف [فما مبرر الاقتصار على هذا التصنيف؟]، كما أن وضع مثل هذا الإطار المبسط قد يؤدي إلى التقليل من شأن الفروق بين الرؤساء الذين يبدون متشابهين في ظاهر الأمر في حين أنهم مختلفون في العديد من الجوانب. واستخدام مثل هذا التصنيف [الجامع المبسط] لا يتيح لباربر أن يحقق الهدف الذي عمل من أجله، وهو التمييز بين الشخصيات التي تنجح في العمل الرئاسي وتلك التي تبوء بالفشل. هل يقع ترومان وكارتر ضمن الفئة ذاتها؟ وهل يقع روزفلت وجيرالد فورد ضمن القائمة ذاتها كذلك؟

2- يصعب وضع رؤساء معينين في صنف معين، فهناك دائمًا مجال للاختلاف في ما إذا كان رئيس ما نشيطًا أم غير نشيط، وما إذا كان إيجابيًا أم سلبيًا إزاء تولي العمل الرئاسي. وإذا نظرنا إلى ليندون جونسون مثلًا، نجد أنه تم تصنيفه ضمن فئة نشيط - ذي توجه سلبي، أي إنه بذل جهدًا شاقًا في العمل ولكنه لم يجنِ كثيرًا من الرضا. غير أن جونسون ظهر في بداية رئاسته مستمتعًا بكونه رئيسًا في الحقيقة، إلا أنه حين واجه معارضة أميركا لحرب فيتنام بدأ يكره عمله. ومع ذلك، كان من الصعب عليه أن يفعل في نهاية الأمر ما فعله - أي أن يترك الرئاسة قبل الأوان ويقرر عدم الترشح لفترة رئاسية ثانية. خذ بل كلينتون كمثال آخر: هل استمتع بل كلينتون حقيقة بكونه رئيسًا؟ هناك دليل يوحي بأنه استمتع بعمله فعلًا، وبالمقابل، يروي بوب وودوارد (Bob Woodward) في كتابه **الأجندة** قصصًا عدة تكشف أن كلينتون كان محبَطًا في عمله، وأنه كان يثور على الدوام في نوبات غضب عندما لا تسير الأمور وفقًا لما يريد. وبعبارة أخرى، فإن تقويم الأشخاص على هذه الأبعاد يستدعي قدرًا من التخمين، ويستدعي - كما يقول بعضهم - قراءة العقول؛ فأمثلة من هذا النوع قد تدعو ناقدًا إلى القول إن الإطار النظري الذي يقدمه باربر غير موضوعي وغير علمي.

الجدول (7-1)

تصنيف باربر للرؤساء المعاصرين

سلبي التوجه (negative)	**إيجابي التوجه** (positive)	
ودرو ولسون هربرت هوفر ليندون جونسون ريتشارد نيكسون	روزفلت هاري ترومان جون كينيدي جيرالد فورد جورج بوش (الأب) بل كلنتون جيمي كارتر	**نشيط** (active)
كالفنغ كوليدج	وليام تافت وورن هاردنغ رونالد ريغان جورج دبليو بوش	**غير نشيط** (passive)

المصـدر: James David Barber, *The Presidential Character: Predicting Performance in the White House*, 3rd ed. (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1992).

3- وربمـا يكـون أكثـر الانتقـادات لنظرية باربـر أهمية هـو أن الأداء الرئاسـي يتكوّن بفعـل الأحـداث والظـروف أكثر مما يتكـوّن نتيجـةً لنوع الشـخصية أو الطبـاع (وهذا يمثل النقـد «الموقفـي» الـذي أصبح مألوفًـا لنـا الآن). إضافـة إلى أن الظـروف المحيطـة، وعلى رأسـها الظـرف الاقتصـادي، كثيـرًا مـا تحـدد نجـاح الرئيـس أو فشـله، بغـض النظـر عمّـن تَصَـادف أن يحتـل المنصـب. فقـد كان جيرالـد فـورد وجيمـي كارتـر غيـر محظوظيـن، لأن كلًّا منهمـا اعتلـى المنصـب فـي وقـت عانـى فيـه الاقتصـاد العالمـي ركـودًا، في حيـن جاء رونالـد ريغـان بعـد عـام 1982 حيـن أخـذ الاقتصـاد العالمـي فـي الانتعـاش. ويبـدو أحيانًا أن «نجـاح» الرئاسـة يأتـي بمجـرد الحـظ، أو قلَّتـه؛ فقـد تولـى روزفلت المنصـب في وقت تحمّـل فيـه جمهوريـو هربـرت هوفـر وزر «الركود الكبير» واسـتطاع بسـط النفوذ الرئاسـي فـي أعقـاب الحـرب العالميـة الثانية.

وتـزداد قـوة المنصـب الرئاسـي، وفـرص الوصـول إلـى العظمـة، أكثـر مـا تـزداد

فـي أوقـات الأزمـات الحـادة. ومن هنـا، يمكن اعتبـار روزفلـت محظوظًـا بأن واجـه اثنتين مـن هذه الأزمـات أثناء فتـرة رئاسـته: الركـود الكبير، والحـرب العالميـة الثانيـة. وبالمقابل، كان لينـدون جونسـون غيـر محظوظ حيـن تولى الرئاسـة في وقـت اقتضى اتخـاذ القرارات الصعبـة المتعلقـة بفيتنـام. إذ راوغ كل مـن أيزنهـاور وكينيـدي فـي السـنوات السـابقة، ولـم يحسـما مسـألة إرسـال قـوات أميركيـة لحمايـة فيتنـام الجنوبيـة مـن جارتها الشـمالية الشـيوعية. وبحلـول عـام 1965، أي بعـد عـام ونصف مـن تولي جونسـون منصب الرئاسـة، لـم يكـن بوسـعه تأجيل ذلـك القـرار وقتًا أطـول. فقرر جونسـون تكثيـف الوجـود الأميركي فـي الحـرب، وقـد يقـول قائـل إن أي رئيـس كان سـيتخذ مثـل هـذا القـرار لـو أنـه واجـه الظـروف الموضوعيـة ذاتهـا. وحقيقـة الأمـر أن فيتنـام الجنوبيـة كانـت سـتنهار مـن دون مسـاعدة أميركيـة مكثفة، وكان جونسـون غير محظوظ أن يكون الشـخص الـذي اضطر إلى أخـذ ذلـك القـرار الصعـب، وهـو القـرار الـذي أدى إلـى تدمير رئاسـته فـي نهايـة المطاف كمـا نعرف.

هل السِيَر النفسية في تراجع؟

لا بـد مـن الاعتـراف بـأن بعـض السـير الذاتيـة التـي ظهـرت فـي السـنوات الأخيـرة لا ترقـى فـي مسـتواها مـن حيـث الأسـلوب والجـودة إلـى تحليـل جـورج وجـورج للرئيـس نيلسـون، أو تحليـل بيتـي غـلاد للرئيـس كارتـر، علـى سـبيل المثـال. هـذا، وهناك ميـل إلى تسـييس التحليـل الخـاص ببعـض القـادة، كمـا فـي حالـة كتـاب **بـوش علـى الأريكـة** الـذي تحـوم حولـه الشـكوك حتـى مـن اليسـار [المعـارض لبوش]. وسـنختم هـذا الفصل بالإشـارة إلـى كتـاب يحلـل بل كلينتـون نفسـيًا، وإن كان معظـم علماء النفس السياسـي لـم يأخذوه علـى محمـل الجـد عندما نُشـر فـي التسـعينيات. ونأمـل أن يكون النظـر في هـذا التحليل مفيـدًا فـي الكشـف عـن بعـض الأخطـاء التي وقـع فيهـا أدب السِـيَر النفسـية بوجـه عام.

أمـــا بـــل كلينتـــون فقـــد كانـــت أواســـط التســـعينيات فتـــرة مخـــاض سياســـي عسـير لـه؛ إذ حاصرتـه اتهامـات بالكـذب فـي العديـد مـن العلاقـات خـارج الـزواج، وإشـــاعات عـــن تجـــاوزات ماليـــة فـــي قضيـــة وايـــت ووتـــر، فأضحـــت رئاســـته كأنهـــا

تسير على حبال مشدودة قبل عودته إلى الظهور على المسرح السياسي في انتخابات 1996. وقد تابع عالم النفس الإكلينيكي بول فك (Paul Fick) عن بُعد الصعوبات السياسية التي واجهها بل كلينتون، ووضع تحليله في كتاب عام 1995، قبل عشر سنوات من نشر فرانك لكتابه عن بوش، ولكن بأسلوب مشابه لأسلوب فرانك إلى حد صارخ. وكما كان الحال مع فرانك، لم يحدث أن قام فك بفحص كلينتون شخصيًا، ولكنه لاحظ تماثلًا هائلًا بين سلوك الرئيس واضطراب في الشخصية اعتاد معالجته في عيادته الخاصة. حيث رأى فك أن سلوك كلينتون يعكس خصائص الأفراد الذين يتربون لدى والد (أو أكثر) من مدمني الكحول، فيقول:

> «لدينا رئيس يصنع الفوضى لنفسه [.....] ويحيا على ما صنعه. قام بتشويه الحقيقة علانية، وأنكر أنه شوّه الحقيقة، وادعى الأمانة المطلقة في كل الأوقات [..] لقد ذهب سلوكه أبعد من المناورات السياسية المألوفة، هذا السلوك يمثل جوهر شخصيته. لقد صُعقت حين أدركت أنه بدل أن يصبح الرئيس القادم للولايات المتحدة، فإن وليام جفرسون كلينتون لا يعدو أن يكون سوى واحدٍ من مئات من أبناء الكحوليين الذين عالجتهم في المستشفى أو في عيادتي الخاصة»[30].

ويُشخِّص فك عن بُعد الأعراض المتلازمة (syndrome) المسمّاة «الأبناء الراشدون للكحوليين» (adult children of alcoholics) أي أولئك الذين تربوا في عائلات كحولية، فيقول إنهم يكذبون كثيرًا، مترددون في اتخاذ القرارات، ينزعون إلى التدمير الذاتي (self-distruction) في الرشد، على نحو يُذكِّر بسلوك بل كلينتون إلى حد صارخ قبل الرئاسة، وبعدها. لقد كان أبوه بالتبني، روجر كلينتون، كحوليًا، ويمارس العنف ضد والدة بل أحيانًا. واستجابة لذلك الوضع تولى، رئيس المستقبل، **دور البطل** - كما يجري في العادة لدى أبناء الكحوليين الذين عالجهم فك، إذ ينهض الطفل ويؤدي دور الأب أو الأم (اعتمادًا على أي منهما يكون الغائب أو غير الموثوق به). ولكن هذا الدور يُلحق بالبطل أضرارًا

(30) Paul M. Fick, *The Dysfunctional President: Inside the Mind of Bill Clinton* (New York: Birch Lane Press, 1995), pp.11-12.

نفسية بالغة؛ حيث يظل يحمل في داخله كثيرًا من الاستياء. إضافة إلى ذلك، فإن أبناء الكحوليين يعيدون خلق عالم الفوضى الذي نشأوا فيه، وربما أنهم يعيشون عليه.

مشكلات مقاربة السير النفسية بوجه عام

تواجه أعمال السير الذاتية من هذا القبيل العديد من الاعتراضات، ربما بعضها خطر لك وأنت تقرأ هذا الفصل. وتتعلق **إحدى** هذه المشكلات بما يسميه العلماء الاجتماعيون مشكلة الدحض (Falsificationism). ولعل أشهر فلاسفة العلم الذين ناقشوا هذا الموضوع هو الراحل كارل بوبر (Karl Popper). فقد شن بوبر هجومًا على النظريات التي «لا تُدحض» في كتابه **فقر التأريخية** (*The Poverty of Historicism*) وفي غيرها من الأعمال. وحجته في ذلك أن النظرية التي لا تُدحض هي نظرية غامضة وعامة في طبيعتها، وقد تتفق مع أي نتيجة يمكن أن تخطر في الذهن على الإطلاق. وكثيرًا ما يقال إن «النظرية التي تفسر كل شيء، لا تفسر شيئًا». وقد يجد بعض الطلبة هذا الأمر محيّرًا، فالنظرية التي تستطيع تفسير أي نتيجة هي نظرية جيدة ولا ريب. غير أن ذلك لا يكون صحيحًا في كثير من الأحيان لسوء الحظ. خذ المثال الذي نتحدث عنه هنا، وهو الفرويدية؛ إذ يعتقد بوبر أن المشكلة الرئيسة في نظريات فرويد هي أنه اعتبرها صحيحة بغض النظر عن أي دليل جاء به حولها. وبالمثل، فإن أحد الاعتراضات التي تُوجّه للعملين المتعلقين بكلينتون وبوش هو أن مؤلفيْه، بدوَا مصمميْن على إثبات صحة نظرياتهما فيهما حتى إن أي دليل إمبيريقي [مادي] يصادفانه يمكن أن يطوّعاه لإثباتها. فعندما كذب كلينتون اعتُبر ذلك دليلًا رئيسًا على صحة نظرية فك، أما عندما بدا صادقًا، فإنه «كان يُخفي الحقيقة عن نفسه». وبالمثل عُزيَت نزعة بوش للكذب إلى تنشئته، ولكن، ألا يكذب جميع السياسيين إلى حد ما؟

ثانيًا، هناك مشكلة التحيز لإثبات صحة المعتقد (confirmation bias). فكما أن الأفراد يرون في المرشح المحتمل ما يريدون أن يروه فيه، ويُسقطون من حسابهم نقاط الضعف (أو القوة) لديه، كذلك فإن الباحث في دراسته لحالة

قائد معين يميل إلى استبعاد الدليل الذي لا يتناسب مع النظرية التي يقترحها، وإلى الاحتفاظ بالدليل الذي يدعمها. وبعبارة أخرى، هناك رغبة على الدوام في جعل الدليل يناسب النظرية، أكثر مما هناك رغبة في ترك الدليل يمد النظرية بالدعم (أو يدحضها) من دون تطويع. ولا تقتصر هذه المشكلة في أي حال على السير النفسية - كما أن مشكلة الدحض لا تخصها وحدها كذلك - إلا أنها مشكلة ذات صلة بهذا الموضوع ولا بد أن تؤخذ بالاعتبار.

ثالثًا، هناك مشكلة الإتاحة (The problem of access)؛ إذ إن المؤهلين منا لوضع الرئيس «على الأريكة» قليلون، وما من رئيس يقبل أن يخضع للعلاج لدى عالم نفسي سياسي سواء كان مؤهلًا أم غير ذلك. والقادة الذين لا يتمتعون بصحة عقلية تامة لا يعترفون على الأرجح بهذه النقيصة، ولا يسمح المرشحون للمناصب العامة في معظم دول العالم مناقشة مشكلاتهم النفسية علانية، ويعتبرونها منطقة محرّمة. لقد اضطر توماس إيغلتون إلى الانسحاب من الترشح بوصفه نائبًا للمرشح الرئاسي عن الحزب الديمقراطي، جورج مكغوفيرن عام 1972 عندما عرف الناس أنه راجع طبيبًا نفسيًا في الماضي، وتلقى علاجًا بالصدمات الكهربائية. وعندما لا يتاح لنا إمكان الوصول إلى الشخص مباشرة، نضطر إلى فحص الرؤساء، وغيرهم من القادة، عن بُعد، وهي الوسيلة التي لجأ إليها جميع المؤلفين الذين ناقشنا كتبهم في هذا الفصل، ربما باستثناء دوريس كيرنز غودوين، نظرًا إلى ما أُتيح لها من مجال استثنائي للوصول إلى ليندون جونسون بعد أن غادر المنصب. ولكن هناك مشكلات واضحة في هذه الحالة أيضًا؛ فالدليل الذي نمتلكه عمّا دار في ذهن الرئيس من أفكار في وقت معين في الماضي، لا بد أن يكون متحيزًا، وقد يكون غير موثوق به، أو حتى غير موجود أصلًا. وربما لا يستطيع أحد أن يرى «ما بداخل رأس» شخص آخر على الإطلاق. وحتى عند الإفراج عن الوثائق السرية، فإننا ربما لا نستطيع الكشف عن حقيقة ما فكر فيه الرئيس في حينه.

وأخيرًا هناك مشكلة الاختزالية[31] (reductionism)، [أي حصر تفسير الظاهرة

---

(31) James William Anderson, «The Methodology of Psychological Biography,» *Journal of Interdisciplinary History*, no. 11 (Winter 1981), pp. 455-475.

بعوامـل محـدودة]، فقـد تـم فـي الفصـل الأول من هذا الكتـاب إلقـاء الضوء على مـدى تأثر سـلوك الفرد بالموقـف الذي يواجهه (أي إن سـلوكه يتحدد بالعالم الخارجـي أكثر مما يتحدد بالعالـم الداخلـي). إلا أن معظـم السـير النفسـية هـي فـي الأسـاس نزوعيـة؛ أي إنهـا تتبنـى وجهـة النظـر القائلـة إن قيمنـا واعتقاداتنـا تحـدد سـلوكنا، أو إن جانبًـا مما يدور فـي عقولنا يوجـه ذلـك السـلوك. ولكـن هل نسـتطيع حصـر تفسـيرنا للسـلوك بمتغيـرات نفسـية بحتة؟ أليـس للسـياق الذي يعمل فيـه القائد أهمية بقدر ما لخصائصه الشـخصية مـن أهمية؟ وكما سـبق أن رأينـا، فـإن هـذا الاعتبـار يمثّـل المشـكلة الرئيسـية فـي مقاربـة كتلك التـي اتخذها جيمـس دايفـد باربر فـي كتابه **الشـخصية الرئاسـية** - حيث اعتبـر المتغيرات الشـخصية هي المحـددات الرئيسـية للسـلوك - والمقصـود هنا سـلوك الرئيس. ومع أن التفسـيرات البسـيطة تعطينـا طريقـة مريحـة نفسـيًا لفهـم العالـم مـن حولنـا، إلا أن النظريـة الكامنـة وراءهـا قـد تكـون مغاليـة فـي البسـاطة. وربمـا يمثـل هـذا الأمـر مشـكلة خاصـة بجميـع الأعمـال التـي ناقشـناها هنـا ممـا يركـز علـى أهميـة مرحلـة الطفولـة فـي تفسـير السـلوك اللاحـق؛ فهناك بحـوث تؤكـد أن أحـداث الطفولـة لا تُسـهم فـي تكويـن السـلوك اللاحق بوجـه عـام، بالقدر الـذي نظـن، حيـث تزعـم سـالي باتـل (Sally Patel)، مثـلًا، أن «الحرمـان المبكـر يزيـد احتمـال تطـور الطفـل إلى راشـد مضطـرب، ولكنـه لا يَحتـم ذلك فـي أي حـال». ويجـد المتخصصون فـي العلـوم الاجتماعيـة أنـه حتى المعاملة السـيئة الحـادة لا تؤثـر في نمو الطفـل على نحو منتظـم أو قابـل للتنبؤ بالقـدر الذي نظـن[32].

خاتمة

علـى الرغـم مـن كل هـذه النقائـص - التي تتفـاوت في أهميتهـا - يظل لهـذا الحقل مـن الكتابـة جاذبية خاصة على المسـتوى الذهني. ويُبدي وليام أندرسـون (William Anderson) ملاحظـة في هذا الشـأن يقـول فيها:

> «حتـى أولئـك الموغلـون فـي نقـد السِـيَر النفسـية يعترفـون أن تطبيـق علـم النفـس علـى السـير الشـخصية ممكـن. ومـن حيـث إن الدراسـات السـيرية الشـاملة لا

(32) Sally Patel, «The Perils of Putting National Leaders on the Couch,» *New York Times*, 29/6/2004.

بـد أن تتضمـن تحليـلًا لشـخصية صاحـب السـيرة، يكـون مـن المنطقـي إجـراء مثـل هـذا التحليـل بشـكل ممنهـج، وعلى أسـس نفسـية رصينـة»[33].

ولعـل الجـواب يكمـن (كما يوحـي هـذا الاقتباس) فـي تطوير وسـائل دقيقـة ومتفق عليها لتحليـل الأطـر الذهنيـة لقـادة معينيـن، أو أنـه يكمـن فـي وضـع التحيـز لمدرسـة التحليـل النفسـي جانبًـا - وهـو التحيـز الـذي طغـى علـى هـذا الفـرع مـن علـم النفـس السياسـي. ولعلنـا بحاجـة إلـى بـذل المزيـد مـن الجهـد للاسـتغناء عـن الجوانـب المثيـرة للجـدل فـي هـذه الأعمـال (مـن مثـل فـك وفرانـك اللـذان يمثـلان الأطـراف المتضـادة من الطيف السياسـي، ويشـتركان فـي أن كلّا منهما ينفر من الشـخص موضوع دراسـته إلى حد كبيـر، وأن لديـه هدفًـا سياسـيًا خاصًـا فـي الكتابة عنـه). غير أنه قـد يكون من المسـتحيل تفسـير أفعـال القـادة مـن دون شـيء مـن التحليـل لخصائصهـم النفسـية، وهـذا يعنـي أن مقاربـة السـيرة النفسـية أو التاريخ النفسـي سـتبقى معنـا بكل تأكيـد. وربما يسـأل القارئ مـا إذا كان هنـاك طرائـق بديلـة لدراسـة شـخصيات القـادة، والجـواب عـن ذلـك هـو أن بعـض علمـاء النفـس السياسـي يحاولـون ذلـك فعـلًا، والفصل القـادم يتنـاول ما يجـري من محـاولات لدراسـة دور الشـخصية فـي السياسـة بطرائـق أكثـر تَنظيمًا.

(33) Anderson, Ibid., pp. 455-460.

8
الشخصية والاعتقادات

تحليل الشخصية

إن افتقار السيرة النفسية إلى الموضوعية قد يدعو المرء إلى رفضها بوصفها مقاربة لدراسة الشخصية، إلا أننا لا نستطيع تنحية موضوع الشخصية جانبًا، عند هذا الحد لأن هناك ولا ريب طرائق أخرى لمقاربته. ومن حيث إن الشخصية لا تمثل العامل الحاسم في كل الظروف، كما هو واضح، فإن علماء نفس السياسة المهتمين حاليًا بالعوامل الشخصية حذرون في ما يطرحونه من وجهات نظر بهذا الشأن. ويضع فريد غرينشتاين (Fred Greenstein)، أحد أبرز المناصرين للمقاربات الشخصية في دراسة السياسة، أساسًا لتقويم دور القائد بوصفه شخصًا في تكوين السلوك السياسي - أي ما إذا كان للنزعات أهمية في تشكيل السلوك. فيميز غرينشتاين بين ما يدعوه ضرورة الفاعل (actor dispensability) وضرورة الفعل[1] (action dispensability). ولعل هذا التمييز يقدم لنا طريقة مناسبة لفهم القوى التي تؤلف التاريخ والسياسة.

افرض أن فاعلًا/شخصًا - دعنا نقول إنه جورج دبليو بوش في هذا المثال - اتخذ قرارًا؛ ولنفرض أن القرار استهدف غزو العراق. لكي يكون لهذا القرار

---

(1) Fred Greenstein, «The Impact of Personality on Politics: An Attempt to Clear Away the Underbrush,» *American Political Science Review*, vol. 61, no. 3 (September 1967), pp. 629-641.

أهمية تاريخية، يجب أن يكون الفاعل (بوش هنا) لا يمكن الاستغناء عنه [لكي يتم اتخاذ القرار]؛ وهذا يمثل طريقة أخرى للقول إنه لو لم يكن بوش رئيسًا - لو كان آل غور مثلًا أو جون كيري في البيت الأبيض - لما تم اتخاذ قرار غزو العراق (أما لو تم اتخاذ القرار سواء كان بوش هو الرئيس أم لا، فإن الفاعل يكون في حكم المستغنى عنه). غير أن هناك اختبارًا آخر لا بد من اجتيازه ليكون للفرد تأثير ملموس في التاريخ؛ فالقرار يجب أن يكون مهمًا بحد ذاته. وهذا ما يدعوه غرينشتاين مدى ضرورة الحدث (action dispensability)، إمكان الاستغناء عن الحدث. فإذا كان الفعل (غزو العراق) غير ذي أثر في مجرى التاريخ، فإن الفعل يكون غير ضروري/مستغنى عنه. على أن معظم الناس سيتوصلون/في هذه الحالة إلى استنتاج معاكس: فغزو العراق ترك أثرًا هائلًا في عدد من الأصعدة، تشمل الأوضاع المعيشية للعراقيين، والسياسة المحلية في الولايات المتحدة، والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط، والعلاقات الأميركية الأوروبية، وغير ذلك. فإذا اجتاز القائد كلا الاختبارين - ضرورة الفاعل وضرورة الفعل - يكون له أو لها أثر ملموس في الأحداث.

ربما تكون السيرة النفسية لا تحظى بالشعبية التي تمتعت بها سابقًا، إلا أن دراسة الشخصية في إطار علم النفس السياسي تبقى مجالًا حيويًا. وقد تطرقنا في الفصل السابق إلى قضية الإتاحة (أو إمكان الوصول إلى القائد)؛ حيث يصعب وضع القادة الحاليين أو السابقين «على الأريكة». غير أن دايفد ونتر (David Winter) يؤكد أننا نستطيع قياس الصفات الشخصية للقادة «عن بُعد» وبوسيلة موضوعية وثابتة (يمكن الاعتماد عليها)[2]. وذلك بتحليل مضمون خطابات الرئيس مثلًا، أو بالطلب إلى خبراء يعرفونه (أو ممن كتبوا عنه) الاستجابة لاستبيانات شخصية كأنهم الشخص موضوع الاهتمام. فقد استخدم بول كوويرت (Paul Kowert)، على سبيل المثال، تكنيك (Q-sort) للوصول إلى تقدير

(2) David Winter, «Things I've Learned about Personality from Studying Political Leaders at a Distance,» *Journal of Personality*, vol. 73, no. 3 (June 2005), pp. 557-584, and Mark Schafer, «Issues in Assessing Psychological Characteristics at a Distance,» *Political Psychology*, vol. 21, no. 3 (September 2000), pp. 511-527.

عـام للسـمات الشـخصية لعـدد مـن الرؤسـاء الأميركييـن[3]. وشـملت قائمـة الخبـراء الذيـن استعان بهـم لهـذه المهمة أولئـك الذين عرفـوا الرؤسـاء شـخصيًا، وأولئك الذيـن كتبـوا عنهم مـن منظـورات تاريخيـة، أو علميـة - اجتماعيـة، أو صحافيـة[4]. ويتميـز هـذا التكنيـك بأنـه يتيـح الحصـول علـى معلومـات مُجْمَـع عليهـا، أو الحصـول علـى لوحـات شـخصية للرؤسـاء يرسـمها أشـخاص عديـدون، بـدل الاعتمـاد علـى سـيرة نفسـية تقـوم علـى تفسـيرات مؤلف واحد.

وهنـاك إجـراء آخـر لقيـاس شـخصية الرئيـس يتمثـل فـي تحليـل مضمـون أحاديثـه العامـة - مـا يتفـوه بـه مباشـرة أمـام الجمهـور - وتحليـل خطاباتـه، ثـم تقديـر مـا يمتلكـه مـن خصائـص شـخصية بنـاء علـى ذلـك - كتقديـر الأسـلوب المعرفـي (cognitive style) الخـاص بـه. وفـي النطـاق المعرفي، يبحث بعـض علماء النفس السياسـي فـي ما يسـمونه «التركيب التكاملـي» (integrative complexity) للأفـكار والمعلومـات، على سـبيل المثال[5] ويوضح سـودفيلد وتيتلـوك (Suedfeld and Tetlock) مـا يعنيـه هـذا المصطلـح فـي الاقتبـاس التالـي (والـذي يميّـز أساسًـا بيـن أسـلوبين معرفييـن فـي صنـع القـرار: أسـلوب مبسّـط، وآخـر مركّـب).

> تتميـز القـرارات الممثّلـة للجانـب البسـيط مـن هـذا البُعـد بأنهـا تتمحـور حـول النقـاط البـارزة فحسـب فـي القضيـة المرجعيـة موضـوع القـرار؛ وتنحصـر رؤيتهـا فـي جانـب واحـد مـن جوانـب القضيـة أو المشـكلة؛ بأنهـا تهمـل الفـروق أو نقـاط التشـابه الخفيـة فـي وجهـات النظـر الأخـرى؛ ويُنظـر فيهـا إلـى المشـاركين

---

(3) Paul Kowert, «Where Does the Buck Stop?: Assessing the Impact of Presidential Personality,» *Political Psychology*, vol. 17, no. 3 (September 1996), pp. 421- 452.

(4) سُمِّيَ «مقياس كيو» لفرز السِّمَات بهذه التسمية لأنه يتطّلب من الخبراء، أو «الحكام» كما يدعوهم كوويرت (Kowert)، فرز بطاقات من مجموعة من البطاقات التي يحمل كل منها سمة شخصية [كُتبت عليه]، وانتقاء البطاقات التي تصف شخصية القائد موضوع البحث أفضل وصف من بين هذه السمات. انظر: المصدر نفسه، ص 424-427.

(5) Peter Suedfeld and Philip Tetlock, «Integrative Complexity of Communications in International Crises,» *Journal of Conflict Resolution*, vol. 21, no.1 (March 1977), pp. 169-184.

إن أعمال سودفيلد في هذا الموضوع منذ الستينيات غزيرة للغاية، وللتعرف إلى تطبيقاته الحديثة لهذا المفهوم، انظر على سبيل المثال: Peter Suedfeld, «President Clinton's Policy Dilemmas: A Cognitive Analysis,» *Political Psychology*, vol. 15, no. 2 (1994), pp. 337-349.

الآخريـن، وإلـى الأبـدال السـلوكية الجـاري العمـل بهـا أو التـي يمكـن السـير فيهـا علـى أنهـا إمـا حسـنة وإمـا سـيئة؛ وتتميز بالسـعي إلى حلـول سـريعة ونهائيـة لإزالة الغمـوض وعـدم اليقيـن إلـى أقصـى حـد ممكـن. أمـا القـرارات التـي تمثـل الجانـب المعقـد مـن هـذا البعـد فتتميـز بمعالجـة مرنـة ومنفتحـة للمعلومـات؛ والنظـر إلـى الأبعـاد المختلفـة [لأجزائهـا المختلفـة]؛ والبحث المتواصل عـن الجديد، وعـن المزيد مـن المعلومـات؛ والقـدرة علـى تنـاول وجهـات نظـر متعـددة فـي آن واحـد، وربطها علـى نحـو متكامـل، وثم الاسـتجابة لهـا بمرونـة[6].

ولـدى مقارنـة جـون كينيـدي بجـورج دبليـو بـوش، علـى سـبيل المثـال، وجـد دايفـد ونتـر، أن كينيـدي، «حقـق درجـة أعلى مـن جورج بوش فـي التركيـب التكاملـي، وأن تعبيره اللفظي كان متماسـكًا، وموشـحًا بالسـخرية والفطنة. أما لغـة بوش، بالمقارنـة، فكانت تفتقر إلـى البراعـة، وتمتلـئ بالمواعـظ التقليديـة المنمقـة»[7].

ويسـتخدم دايفـد ونتـر تحليل المضمـون في معظـم أعمالـه لتقدير «دوافـع» القادة السياسـيين، مـع التركيـز بشـكل خـاص علـى منظومـة مـن الأبعـاد الشـخصية وهـي: مقدار السـعي إلـى القـوة، وإقامـة الصلات مـع الآخريـن، ومحاولـة إنجاز أشـياء عظيمة، والسـعي إلـى التحكم فـي مجريـات الأحداث.

ويجـد ونتـر وسـتيوارت (Winter and Stewart)، علـى سـبيل المثـال، أن الحاجـة إلـى القـوة (need for power) والحاجـة إلـى الانتمـاء (need for affiliation) (أو إقامـة الصـلات مـع النـاس) تمثّـل دوافـع مهمـة لـدى الرؤسـاء الأميركييـن بوجـه خـاص[8]. ووفقًـا لمـا يـرى ونتـر، فـإن الشـخصية شـيء مركـب، لا تشـمل الدوافـع فحسـب

(6) المصدر نفسه، ص 172. جرى ربط «التعقيد المعرفي» كذلك بالمماثلات التاريخية التي يستخدمها القادة. انظر: Stephen Dyson and Thomas Preston, «Individual Characteristics of Political Leaders and the Use of Analogy in Foreign Policy Decision Making,» *Political Psychology*, vol. 27, no. 2 (April 2006), pp. 265-288.

(7) Winter, «Things I've Learned about Personality from Studying Political Leaders at a Distance,» p. 570.

(8) David Winter and Abigail Stewart, «Content Analysis as a Method of Studying Political Leaders,» in: Margaret Hermann, ed., *A Psychological Examination of Political Leaders* (New York: Free Press, 1977).

(مقدار سعي القائد إلى القوة مثلًا)، ولكنها تشمل سمات شخصية أيضًا (مدى انطوائية أو انبساطية القائد، مثلًا). وفي حين أن السمات ثابتة نسبيًا، فإن الدوافع قد تتغير مع الزمن، ما يُسبغ على قياس الشخصية مزيدًا من التعقيد. كما يضيف ونتر في تعريفه للشخصية عناصر لا تُدرج تقليديًا تحت هذا التعريف، حيث تشمل الشخصية في تعريفه الأفكار أو الاعتقادات (cognitions or beliefs) (كرأي القائد بموضوع الإجهاض، على سبيل المثال)، إضافة إلى «السياق الاجتماعي أو السياسي» الذي يعمل فيه القائد (أي «الموقف» المحيط بالقائد، وفق مصطلحاتنا).

وإلى جانب ونتر، تعتبر مارغريت هيرمان (Margaret Hermann) أكثر مَن عمل مِن الباحثين لدفع موضوع الشخصية إلى الواجهة في علم النفس السياسي. وعلى الرغم من أن لديها العديد من الدراسات مما يمكن أن نتناوله هنا، فإننا سنقتصر على مناقشة واحدة من أكثر دراساتها شهرة، ألا وهي الدراسة التي أجرتها عام 1980 على خمسة وأربعين قائدًا سياسيًا[9]. فقد لاحظت هيرمان، بناء على البحوث السابقة في هذا المجال، أن «القادة الأشداء (Aggressive Leaders) يمتلكون حاجة شديدة إلى القوة، وقدرة ضعيفة على التعامل مع المفاهيم المركبة، وأنهم يشكّون في الآخرين، ومتعصبون قوميًا، ويعتقدون في الغالب أن لديهم قدرًا من السيطرة على مجريات الأحداث المتصلة بهم». وبالمقابل، يشير هذا البحث إلى أن «القادة الاسترضائيين (conciliatory leaders) يمتلكون حاجة عالية إلى الانتماء، وقدرة عالية على التعامل مع المفاهيم المركبة، يثقون بالآخرين، غير متعصبين قوميًا، ولا يعتقدون في الغالب أنهم يمتلكون قدرًا كبيرًا من السيطرة على مجريات الأمور المتصلة بهم»[10]. وقد بنت هيرمان على هذه البحوث في ما بعد ما سمته «تحليل سمات القيادة» (Leadership trait analysis)، حيث نظرت إلى الشخصية كتجمع لسبع سمات أساسية، هي: الاعتقاد بامتلاك القدرة على التحكم في مجريات الأحداث، القدرة على التعامل مع المفاهيم

(9) Margaret Hermann, «Explaining Foreign Policy Behavior Using the Personal Characteristics of Political Leaders,» *International Studies Quarterly,* vol. 24, no. 1 (March 1980), pp. 7-46.

(10) المصدر نفسه، ص 8.

المركبـة، الحاجـة إلـى القوة، الشـك في الأخريـن، التحيز للجماعـة الخاصة، الثقـة بالنفس، والتركيـز علـى العمـل. وقـد اسـتخدم أصحـاب هـذه المقاربـة منهـج تحليل المضمـون عن بُعـد (at a distance content analysis) لخطابـات القـادة السياسـيين، علـى غـرار المنهـج الـذي اعتمـده دايفد ونتـر[11].

كمـا قـام سـتيفن دايسـون (Stephen Dyson) أخيـرًا بتطبيق هـذه المقاربة على شـخصية طونـي بليـر، رئيس الـوزراء البريطاني السـابق[12]، واسـتقصى الدور الذي أدته شـخصية بلير فـي توجيـه القـرارات البريطانيـة المتعلقـة بالحـرب علـى العـراق، وذلـك بنـاء علـى تحليل اسـتجابات طونـي بليـر للاسـتجوابات البرلمانيـة بهـذا الشـأن. ولـدى تطبيق دايسـون الإطار الـذي وضعتـه هيرمان، اسـتنتج أن طونـي بلير «لديه اعتقـاد قوي بقدرته علـى التحكم في الحـوداث، ودرجـة متدانيـة مـن القدرة علـى التعامل مـع التعقيد فـي المفاهيـم (conceptual complexity)، وحاجـة شـديدة إلى القـوة». ويؤكد دايسـون أنه:

> بالنظـر إلـى القـرارات التـي اتُّخـذت بشـأن العـراق، فـإن الأدلـة تدعـم التقديـرات المتعلقـة بسـلوك بليـر وتفضيلاتـه الشـخصية. فقد ظهـر أن لدى بليـر توجهًا سياسـيًا ناشـطًا/فعالًا، واعتقـادًا بالقـدرة على السـيطرة على مجريـات الأحداث، وأسـلوبًا ثنائي الاتجـاه [يعـرض وجهتـي النظـر المتعارضتيـن] فـي معالجـة المعلومـات، وتأطيرهـا [وضعهـا فـي إطـار يناسـب وجهـة نظـره] (framing)، وميـل إلـى صنع السياسـات وفق عمليـات محـددة بدقـة[13].

وقـــد وجـــدت مارغريـــت هيرمـــان وتومـــاس بريســـتون (Margaret Herman and Thomas Preston) لـــدى مراجعتهمـــا لأدب الموضـــوع، أن هنـــاك خمســـة عوامـــل كوّنـــت دراســـة أســـلوب القيـــادة، وهـــي: «الانغمـــاس فـــي عمليـــة صنـــع السياســـات، الاســـتعداد لتحمـــل الصـــراع، دافعيـــة الرئيـــس أو الســـبب الـــذي دفعـــه إلـــى القيـــادة،

---

(11) Margaret Hermann, «Assessing Leadership Style: Trait Analysis,» in: Jerrold Post, ed., *The Psychological Assessment of Political Leaders* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2003).

(12) Stephen Dyson, «Personality and Foreign Policy: Tony Blair's Iraq Decisions,» *Foreign Policy Analysis*, vol. 2, no. 3 (2006), pp. 289-306.

(13) المصدر نفسه، ص 303.

الاستراتيجية المفضلة لديه لإدارة المعلومات، والاستراتيجيات المفضلة لحل الصراع»[14]. ثم قاموا بربط هذه العوامل بنوع النظام الاستشاري المفضل لرؤساء أميركيين مختلفين. وعمل بريستون لاحقًا على وضع هذه الأفكار في إطار أكثر اتساعًا لتصنيف أسلوب القيادة بناء على بُعدين: الحاجة إلى القوة، والانغماس في عملية صنع السياسات من جهة، والقدرة على التعامل مع التعقيد في المفاهيم أو الحساسية للسياق (أو الموقف المحيط)، من جهة أخرى. وبالنظر إلى البعد الأول، على سبيل المثال، نجد أن بعض القادة يمتلكون حاجة عالية إلى التحكم، ودرجة عالية من الاهتمام والخبرة في عملية صنع السياسات، على حد سواء. ويصطلح بريستون على تسمية هؤلاء بـ «الموجِّهين» (Directors). أما بعضهم الآخر فحاجتهم إلى التحكم ضعيفة، ودرجة اهتمامهم متدانية، ويسمى هؤلاء بـ «المفوِّضين» (delegators). كما أنه من الممكن جمع درجة عالية من القوة، مع قليل من الاهتمام، ويسمى بريستون هؤلاء بـ «الحكام» (magistrates)، أو حاجة منخفضة إلى القوة واهتمام عالٍ، ويسمي هؤلاء بـ «الإداريين»[15] (administrators).

ويصنف بريستون الرؤساء كذلك بناء على بُعدين؛ مستوى التعقيد المعرفي (cognitive complexity)، (كخاصية شخصية ثابتة نسبيًا) من جهة، والاهتمام بالسياسة الخارجية من جهة أخرى. ويقسم القادة هنا إلى«الملّاحين» (Navigators)، و«المراقبين» (Observers)، و«الحراس» (Sentinels)، و«المنشقين/الخوارج» (Mavericks). «والملاحون» على سبيل المثال، لديهم درجة عالية من الاهتمام بالسياسة الخارجية مع حاجة عالية للمعلومات ودرجة عالية من التعقيد المعرفي. أما الحراس فلديهم درجة عالية من الاهتمام وحاجة منخفضة للمعلومات ودرجة منخفضة من التعقيد، وما إلى ذلك. ومن ثم، فإن وضع

(14) Margaret G. Hermann and Thomas Preston, «Presidents, Advisers, and Foreign Policy: The Effect of Leadership Style on Executive Arrangements,» *Political Psychology*, vol. 15, no. 1 (March 1994), p. 81.

(15) Thomas Preston, *The President and His Inner Circle: Leadership Style and the Advisory Process in Foreign Affairs*, Power, Conflct, and Democracy (New York: Columbia University Press, 2001), pp. 16-17.

هذيـن التصنيفيـن معًـا يتيـح لنـا وضـع الرؤسـاء (أو أي نـوع مـن القـادة) ضمـن مخطـط رئيـس (Master Scheme) أكثـر غنـىً وتفصيـلًا وموثوقيـة مـن ذلك الـذي اقترحه جيمـس دايفد باربـر، مثـلًا. وبنـاء على هـذا التصنيف، يصنـف بريسـتون بل كلينتـون، على سـبيل المثال، كـ «مفـوَّض - مراقِـب» (delegator-observer)؛ بعبـارة أخـرى هـو مفـوَّض وفقًـا للبعـد الأول - بمعنـى أنـه اعتمـد علـى المرؤوسـين والخبـراء إلـى حـد كبيـر - وبأنه مراقـب وفقًـا للبعد الثانـي (فمع أن تعقيـده المعرفـي كان عاليًـا، فـإن اهتمامـه بالسياسـة الخارجيـة كان محـدودًا). وبالمقابـل، فـإن جـورج بـوش يمكـن أن يصنـف علـى أنـه «مفـوِّض - منشـق» (delegator-maverick) فهـو يشـابه كلينتـون فـي موقعـه علـى البعـد الأول، إلا أن حاجتـه إلـى المعلومـات، وتعقيـده المعرفـي كانـا منخفضيـن[16].

تحليل نظم الاعتقاد

يواجـه بعـض الطلبـة مبدئيًـا صعوبـة فـي تصـور الفـرق بيـن الشـخصية (personality) والاعتقـادات (beliefs) علـى المسـتوى النظـري. ويتنـاول بعـض الباحثيـن الاعتقـادات فـي حقيقـة الأمـر كمظهـر مـن مظاهـر الشـخصية (ولعـل ونتر أبـرز مثال علـى ذلك). غيـر أننا فـي هـذا الفصـل سـنعمد إلـى تناولهمـا كل على حـدة بغـرض الإيضـاح. ولعل واحـدة من أفضـل الطرائـق للتمييـز بيـن الشـخصية والاعتقـادات علـى أوضـح صـورة تكـون بالمقارنـة بيـن اثنيـن مـن الأفراد يحمـلان نظم اعتقـاد متشـابهة، ولكنهمـا يختلفان في الشـخصية، أو أثنيـن متشـابهين في السـمات الشـخصية، ولكنهمـا مختلفان فـي الاعتقـادات. وكمثال على الصنـف الأول دعنـا نأخـذ غـوردون بـراون وطونـي بليـر رئيسـا وزراء بريطانيا السـابقان.

لقـد كان كلاهمـا عضـوًا قياديًـا فـي مـا أصبـح يُعـرف بحركـة «العمـال الجـدد» ضمــن حــزب العمــال البريطانــي. فبعــد أن مُنــي الحــزب بخســائر متلاحقــة فــي الانتخابــات البريطانيــة، أصبــح «العمــال الجــدد» يشــعرون بــأن عليهــم التحــرك

(16) *The President and His Inner Circle: Leadership Style and the Advisory Process in Foreign Affairs*, pp. 22-23.

نحـو الوسـط أو حتـى نحـو اليميـن إزاء العديـد مـن القضايـا السياسـية. وكان كل مـن بـراون وبليـر من المعتدلين سياسـيًا داخـل الحزب، ومـن المنادين بتبني هذه الاسـتراتيجية بقـوة. وأصبـح طونـي بليـر زعيمًـا لحزب العمـال عام 1994، واسـتمر بسياسـة الاتجـاه نحو الوسـط التـي بدأهـا زعيـم الحـزب السـابق له، وفـي عـام 1997 حقق حـزب العمـال الفوز فـي الانتخابـات العامـة بعـد ثمانية عشـر عامًا مـن الوقوف فـي المعارضـة. وفـاز «العمال الجـدد» بجولتيـن انتخابيتيـن، بزعامـة طونـي بليـر، حتـى تنحيـه عـام 2007، وتبـوَّء بـراون زعامـة حزب العمـال ورئاسـة الـوزارة البريطانيـة معًا.

ولعـل مـا يثيـر الاهتمـام فـي هـذا المثـال، بوجـه خـاص، هـو أن بـراون وبليـر كانـا متشـابهين إلـى حد كبير فـي نظام الاعتقـاد الأيديولوجـي، إلا أنه ظهر لكل منهما شـخصية مختلفـة عـن شـخصية الآخـر اختلافًا صارخًـا. ومع أننـا لا نمتلك فـي الوقت الـذي نعد فيه هـذا الكتـاب مقارنـة منظمـة بين شـخصية بـراون، وشـخصية بوش علـى أبعـاد مختلفة، إلا أن هنـاك إجماعًـا علـى بعـض الفـروق بينهمـا. فبينمـا كان بليـر منفتحًـا اجتماعيًا وسياسـيًا علـى غـرار صديقـه بـل كلينتـون، بـدا بـراون أكثر هـدوءًا وتحفظًـا. وفـي حين ظهـر براون بصـورة الحـذِر، كان بليـر أكثـر ميـلًا إلـى المخاطـرة السياسـية، وأوضـح مثـال علـى ذلـك ذهابـه ضـد حزبـه، وضـد غالبية كبيرة مـن الرأي العـام البريطانـي، لدعم قرار جـورج بوش غـزو العـراق. وبينمـا بـدت علاقة بلير ببـوش علاقة شـخصية طيبـة، كان بـراون واضحًا منذ البدايـة فـي أنـه لا يرغـب في مثـل هـذه العلاقة مـع الرئيـس الأميركي.

إن الغموض وعدم الدقة اللذين يكتنفان مفهوم الشـخصية - والصعوبات التي تواجهنا فـي تتبـع العمليات التـي تؤدي بصفات شـخصية معينة إلى إنتـاج قرارات معينـة - قاد إلى شـيء مـن عدم الرضـا عن هـذا المفهوم. وقد أسـفر ذلك عن تحـول عدد متزايـد من علماء النفس السياسـي من دراسـة العوامل الشـخصية إلى النظر في اعتقادات الناس، أو أفكارهم، لمـا يبـدو لها من علاقة مباشـرة بقرارات القائـد. وعلى الرغم من أننا رأينـا في الباب الخاص بالموقفيـة مـن هـذا الكتـاب أن هناك اسـتثناءات رئيسـية في ذلك، يبـدو واضحًا أن سـلوكنا فـي العديـد من المواقف يكـوّن وفقًا لاعتقاداتنا. ويكـون هذا هو واقع الحـال، بوجه خاص،

عندما يعمل قائد محلي ذو شعبية واسعة، في ظروف لا تنطوي على كثير من القيود الموقفية.

ويبدو كذلك أن مفهوم نسق الاعتقاد (belief system) مفهوم سيكولوجي بسيط، ويسهل التعامل معه؛ لأنه مصطلح شائع الاستعمال في اللغة (الإنجليزية) المتداولة. وتعتبر الاعتقادات واحدة من أكثر الأبنية الذهنية (mental constructs) التي نستخدمها أساسية ومركزية، ومع ذلك ليس هناك اتفاق كبير على ماهيتها، أو كيف يمكن أن نعرِّفها، أو كيف يجب أن نقيسها. ويفضل بعض المحللين تسميات بديلة أخرى، مثل الاتجاهات (attitudes)، أو الآراء أو الأيديولوجيات. غير أننا سنعتمد هنا التعريف الذي استخدمه ياكوف فيرتزبيرغر (Yaacov Vertzberger) في كتابه **العالم في أذهانهم** (*The World in Their Minds*). ووفقًا لفيرتزبيرغر، فإن منظومة اعتقادات الفرد تمثل جميع الفرضيات، والنظريات التي يكون الفرد مقتنعًا بصدقها في لحظة معينة[17]. كما أننا نستطيع أن نميز بين الاعتقادات المعيارية (normative beliefs) (الاعتقاد حول ما يجب أن يكون) والاعتقادات القائمة (positive beliefs) (اعتقادات حول ما هو كائن)؛ وبين الاعتقادات المركزية والاعتقادات الهامشية (central and peripheral beliefs) (الاعتقادات الراسخة والاعتقادات الأقل مركزية)؛ وبين الاعتقادات المنفتحة والاعتقادات المنغلقة (Open and Closed Beliefs) (نظم الاعتقاد القابلة أو غير القابلة للتغيير). ونستطيع أن نميز كذلك، كما سنناقش بعد قليل، بين ما يسميه ألكسندر جورج (Alexander George) الاعتقادات الفلسفية والاعتقادات الذرائعية (philosophical and Instrumental beliefs).

وتعمل الاعتقادات في ميدان السياسة، كما في غيرها من ميادين الحياة، على تحديد ماهية ما نرى؛ فهي تساعدنا في تعريف طبيعة الموقف الذي نواجهه (أي إنها تساعدنا على التشخيص (diagnosis)، وتحديد نوع البَدُلاء أو الحلول التي نجدها مناسبة، أي الاستشراف، (Prognosis). ويمكن اعتبار الاعتقادات،

(17) Yaacov Y. I. Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1990), p. 114.

مـن منظـور علـم النفـس المعرفـي، نوعًـا مـن الطرائـق الذهنيـة المختصـرة (mental short cut)؛ يطورهـا الفـرد ليُسـبغ مـن خلالها معنـى على العالـم المحيـط. كما تعمـل الاعتقادات علـى فـرز الإشـارات والمعلومـات التـي يمكـن أن تربكنـا حيـن تجتـاح حواسـنا دون ذلـك. وسـنتناول فـي مـا تبقـى من هـذا الفصـل اثنتين مـن المحـاولات الكلاسـيكية التي درسـت دور الاعتقـادات فـي العلاقـات الدوليـة دراسـة رصينـة، وهمـا: دراسـة أول هولسـتي (Ole Holsti) حـول نظـم الاعتقـاد والصـور القوميـة، المنشـورة عـام 1962، ومقاربـة عقيـدة صانع القـرار (operational code) التـي ارتبطت بألكسـندر جورج، سـتيفن والكر، مارك شـيفر، سـكوت كريشـلو وسـتيفن دايسـون، وغيرهم (Alexander George, Stephen Walker, Mark Schafer, Scott Crichlow, Stephen Dyson, and Others).

أول هولستي: نظم الاعتقاد، والصور القومية

يمثـل تحليـل أول هولسـتي لاعتقادات جـون فوسـتر دالاس (وزير الخارجيـة الأميركي الأسـبق) واحـدًا مـن أولـى الدراسـات فـي نظـم الاعتقـاد الخاصـة بصنّـاع قـرارات السياسـة الخارجيـة وأكثرهـا شـهرة[18]. وقـد كان دالاس وزيـرًا للخارجيـة فـي عهـد الرئيـس أيزنهـاور معظـم فتـرة الخمسـينيات، واشـتهر فـي تبنيـه مقاربـة متشـددة، لا هـوادة فيهـا، تجـاه الاتحـاد السـوفياتي. وكان كثيـرًا مـا يركـز علـى مظاهـر الشـمولية والإلحـاد فـي الشـيوعية، وكثيـرًا مـا يصفهـا بأنهـا مـن دون إلـه (Godless). ووفقًـا لوجهـة نظـر هولسـتي، كان نسـق الاعتقـاد الخـاص بـدالاس ثابتًا أو مغلقًـا، بمعنـى أن اعتقاداته كانت متشـددة، وعصية على التغييـر. قـام هولسـتي بتحليـل خطابـات دالاس المتعلقـة بالاتحـاد السـوفياتي فـي خـلال الخمسـينيات، ووجـد أن نسـق اعتقـاد دالاس المغلـق أثّـر تأثيـرًا شـديدًا فـي إدراكـه لنيات السـوفيات. فعندمـا أظهـر السـوفيات إبان الحـرب البـاردة، دليلًا علـى رغبتهم في تحسـين العلاقـات، فسّـر دالاس ذلـك إشـارةً إلـى الضعـف، لا إلـى ميـلٍ صـادق نحو السـلم.

---

(18) تمّ نشر هذه المقالة بداية في مجلة **حل النزاعات** عام 1962، وأعاد أول هولستي طباعتها عام 1969. انظر: «The Belief System and National Images: A Case Study,» in: James Rosenau, ed., *International Poltics and Foreign Policy: a Reader in Resarch and Theory*, 2nd ed. (New York: Free Press, 1969).

وبنـاء علـى تحليل هولسـتي نسـتطيع اعتبـار دالاس مثـالًا لمـا يدعوه «نمـوذج الظن السـيىء المتأصـل» (The inherent bad faith model). وكمثـال آخـر علـى سـوء الظـن، عندمـا قـرر السـوفيات تخفيـض قواتهم بتعـداد 1،2 مليون رجـل، رأى دالاس في ذلك إشـارة إلى تراجع قوتهـم، لا إلـى رغبـة حقيقيـة فـي التغييـر. وتسـتند هـذه المقاربـة إلـى نظريـة الاتسـاق المعرفـي (Cognitive Consistency Theory)، علـى رغـم مـن أن هولسـتي لـم يذكـر ذلـك صراحـة. حيـث تفتـرض هـذه النظريـة - التـي تسـمى أحيانًـا نظريـة التنافـر المعرفـي (Theory of Cognitive Dissonance) - أننـا عندمـا نتلقـى معلومـات تتعـارض مـع واحـد مـن اعتقاداتنـا، فإن ذلـك يعرّضنـا لحالـة مـن الضيـق النفسـي، وأن هـذه الحالـة تسـتثير لدينـا دافعًا لاسـتعادة الانسـجام أو الاتسـاق بيـن اعتقادنا السـابق ومـا علمنا لاحقًـا. ويعني هذا فـي حالة دالاس أنـه سـيعمل علـى اسـتبعاد الدليـل علـى رغبـة السـوفيات فـي التسـوية أو الحلول الوسـط مـن خـلال تبريـر هـذا الدليـل علـى نحـو يتناسـب مـع اعتقـاده المبـدأي. فالاعتقـاد بـأن الشـيوعيين لا يُؤمَـن جانبهـم، أصبح يثير مشـكلة لدالاس، عندما تلقى إشـارات إلى «حسـن نيـة» لديهـم. ولكـي يسـتعيد وزيـر الخارجيـة التـوازن كان عليـه التأكيـد أن أي تبـدّل فـي موقـف السـوفيات يـدل علـى تـأكّل نظامهم مـن الداخل.

غيـر أن تحليـل هولسـتي هـذا يواجـه عـددًا مـن المشـكلات؛ واحـدة منهـا منهجيـة. فعندمـا وضـع هولسـتي تحليلـه كان دالاس قـد توفـي، ولـم يُتـح لـه بذلـك وسـيلة اتصـال مباشـر بوزيـر الخارجيـة، وربمـا مـا كان سيُسـمح لـه بمقابلتـه حتـى لـو حـاول ذلـك. ومن هنـا اضطر هولسـتي إلـى تحليل خطابـات وزيـر الخارجية لقيـاس مضاميـن اعتقاداته. فهل تمثّـل هـذه الخطابـات مقياسًـا جيـدًا لاعتقـادات القائـد الحقيقيـة؟ نحـن نعلـم أن بعـض الخطابات يسـتهدف أصلًا إرسـال إشـارات معينة إلى الخصم، بينما تسـتهدف إشارات أخرى الجمهـورَ المحلـي مـن حيـث الأسـاس. على سـبيل المثـال، هـدد فلاديميـر بوتيـن (Vladimir Putin) فـي خطـاب له عـام 2007 بتوجيه صواريخ نوويـة نحو أوروبا الغربية لـو أن الولايات المتحـدة مضـت فـي خططهـا بشـأن الدفـاع الصاروخـي القومـي. فهـل كان ذلـك تهديـدًا حقيقيًـا نابعًـا مـن إحسـاس واقعـي بعـدم الأمـن؟ أم كان مجـرد قعقعة سـيوف اسـتهدفت

إرضاء جمهور محلي لا زال يرى روسيا قوة كبرى تستوجب الاحترام؟ أما الاعتراض الآخر على تحليل هولستي فهو اعتراض نظري في معظمه؛ فهل الاعتقادات هي التي تكوّن السلوك من حيث الأساس، أم العكس هو الصحيح؟ يعتقد داريل بيم (Daryl Bem) واضع نظرية إدراك الذات (Self-Perception Theory)، أننا نتصرف أحيانًا من دون أن نعرف السبب وراء ما نفعل، حين لا يكون لدينا اعتقادات محددة إزاء ما نفعل. وعندما يحدث ذلك، فإننا كثيرًا ما نبني اعتقادات بعد قيامنا بالفعل لكي نبرر ما فعلنا. وإذا كان بيم على صواب، فإن الاعتقادات ربما لا تكوّن سلوكنا بالقدر الذي نظنه.

والواقع أن الاعتراضين، الأول والثاني، لا يفسران حالة دالاس بالذات؛ فهناك اتفاق واسع على أن خطابات دالاس الحادة تعكس وجهات نظره الحقيقية، وهو تاليًا لم يُطوِّر هذه الاعتقادات بعد الوقائع بكل تأكيد (كما تتوقع نظرية إدراك الذات). والأهم في هذا وذاك هو أن هناك اعتراضات إمبيريقية تواجه تحليل هولستي في الوقت الحاضر. ففي وقت وضع فيه هولستي تحليله، كان هناك افتراض شائع أن دوايت أيزنهاور رئيسًا «لا يفعل شيئًا» يُمضي معظم وقته في حقل الغولف، وأنه فوَّض شؤون السياسة الداخلية إلى كبير موظفي البيت الأبيض شيرمان آدمز (Sherman Adams)، وشؤون السياسة الخارجية إلى دالاس. غير أن المراجعة البحثية دحضت حاليًا تلك الصورة غير المشرقة لرئاسة أيزنهاور. والفضل في ذلك يعود إلى كتاب فريد غرينشتاين الرائد «رئاسة الأيدي الخفية» (The Hidden-Hand Presidency)؛ فنحن نعرف الآن، على سبيل المثال، أن أيزنهاور وليس دالاس هو المهندس الحقيقي للسياسات الخارجية للإدارة الأميركية. ويزعم غرينشتاين، بناء على أدلة مقنِعة، أن أيزنهاور تعمد الظهور وكأنه لا يقوم بدور سياسي، لأنه رغب في المحافظة على شعبيته التي انبثقت من الجانب الرمزي من الرئاسة، إذ كان أيزنهاور يعرف أن شعبيته الواسعة أتت من مكانته كرمز أبوي، وكان يعرف أنه إذا ما تلوّثت يداه بالجانب السياسي من الرئاسة فإن ذلك سيقود إلى تآكّل شعبيته لا محالة، فتعمد الظهور بمظهر الرئيس غير المنغمس في صنع السياسة، تاركًا دالاس وآدمز يتحملان وزر القرارات

التـي لا تحظـى بالشـعبية، وكان يقـوم بتسـيير شـؤون الرئسـة بهـدوء مـن وراء السـتار، مسـتخدمًا بذلـك مـا يسـميه غرينشـتاين تكنيـكات «الأيـدي الخفيـة»[19].

وعلـى أي حـال، فـإن هنـاك تناظـرًا بيـن تحليـل هولسـتي لعلاقـة دالـز بالاتحـاد السـوفياتي ومـا ورد مـن ملاحظـاتٍ على علاقـة جـورج بـوش الأب بالاتحاد السـوفياتي في الفتـرة التـي شـارفت فيها الحـرب الباردة علـى الانتهاء. أمـا رونالـد ريغان، فقد أقـام علاقة شـخصية دافئـة بمخائيـل غورباتشـوف، مخالفًـا بذلـك كل التوقعـات، حيـن كانـت الحـرب البـاردة تضـع أوزارهـا. لكـن كثيـرًا مـن أعضـاء إدارة بـوش اللاحقة كانوا يشـكّون فـي نيات السـوفيات، وظلوا متمسـكين بنمـوذج «النوايا السـيئة المتأصلة» على غرار مـا فعل دالاس، وكان ديـك شـيني يشـك في نيـات غورباتشـوف بوجه خـاص، كمـا كان الرئيس بـوش ذاته.

تحليل عقيدة صانع القرار

تعتبـر المقاربـة المسـماة «تحليـل عقيـدة صانع القـرار» مـن المقاربات البـارزة التي اسـتخدمها علـم النفـس السياسـي لدراسـة الاعتقـادات السياسـية[20]. وقد وضع ناثـان ليتس (Nathan Leites) أسـس هـذه المقاربـة فـي أوائـل الخمسـينيات حيـن اسـتقصى الاعتقـادات السياسـية للينيـن، وتروتسـكي، وسـتالين. وأعـاد ألكسـندر جـورج صياغـة أفـكار ليتـس عن الاعتقـادات السياسـية، ووضَعهـا فـي صنفيـن رئيسـيين: الاعتقـادات الفلسـفية والاعتقـادات الأدواتيـة (instrumental beliefs). ويؤكـد جورج أن عقيدة القائد تمثـل «منظومة من الاعتقادات العامـة فـي قضايـا تاريخيـة أساسـية مـن حيـث إن هـذه المسـائل تنعكـس بدورهـا علـى ميدان الفعـل»[21].

---

(19) Fred I. Greenstein, *The Hidden-Hand Presidency: Eisenhower as Leader* (New York: Basic Books, 1982).

(20) للاطلاع على كتاب ممتاز حول هذا الموضوع يعرض أعمال الباحثين الذين يستخدمون هذا التكنيك، انظر: Mark Schafer and Stephen G. Walker, eds., *Beliefs and Leadership in World Politics: Methods and Applications of Operational Code Analysis* (New York: Palgrave Mcmillan, 2006).

(21) Alexander L. George, «The «Operational Code»: A Neglected Approach to the Study of Political Leaders and Decision Making,» *International Studies Quarterly*, vol. 13, no. 2 (1969), pp. 191.

على سبيل المثال، انظر أيضًا: Alexander George, «The Causal Nexus between Cognitive Beliefs and Decision Making Behavior: The «Operational Code» Belief System,» in: Lawrence Falkowski, ed., *Psychological Models in International Politics*, Westview Special Studies in International Relations (Boulder, CO: Westview Press, 1979).

1- الاعتقادات الفلسفية

- ما الطبيعة الأساس للحياة السياسية؟ هل العالم السياسي في أساسه قائم على الانسجام أم على الصراع؟

- ما الفرص المتاحة لتحقيق القيم والطموحات السياسية على أرض الواقع؟ هل يستطيع المرء أن يكون متفائلًا، أم يجب عليه التشاؤم في هذا الشأن؟

- هل يمكن التنبؤ بالمستقبل السياسي؟

- ما مقدار التحكم أو السيطرة الممكنة للفرد على التطورات التاريخية؟ ما دور الفرد في تأليف التاريخ وتوجيهه في الاتجاه المرغوب فيه؟

- ما دور «الصدفة» في الشؤون الإنسانية؟

2- الاعتقادات الأدواتية

- ما أفضل الطرائق لوضع أهداف لفعل سياسي ما؟

- كيف يمكن متابعة الأهداف بأقصى درجة من الفعالية؟

- كيف يمكن حساب مخاطر الفعل السياسي، والتحكم في هذه المخاطر، وتقبلها؟

- ما أفضل توقيت للقيام بالفعل الذي يضمن دفع مصالح الفرد إلى الأمام؟

- ما فوائد الوسائل المختلفة المتاحة، وما دور كل منها في دفع مصالح الفرد إلى الأمام؟

وتتصل المجموعة الأولى من الاعتقادات بالفلسفة العامة للفرد حول طبيعة الحياة السياسية، بينما تتصل المجموعة الثانية بمسائل «عملية» كاختيار الطريقة المناسبة لتحقيق الأهداف السياسية. وبنظرة موجزة إلى هذه الأسئلة نلاحظ أن الاعتقادات الفلسفية للقائد تحيي أفكار المفكرين السياسيين

الكلاسيكيين من أمثال توماس هوبز وجون لوك. وقد كانت نظرة هوبز إلى الطبيعة البشرية نظرة متشائمة إلى حد استثنائي، بينما كان لوك أكثر تفاؤلًا. وفي حين رأى لوك العالم مكانًا ينعم بالانسجام، خرج هوبز برأيه الشهير القائل، لو أن الإنسان انعتق من القيود التي تفرضها عليه الدولة لحفظ النظام، لكانت الحياة «منعزلة، فقيرة، مقزِّزة، بهيمية، وقصيرة». ومقابل هذه الأسئلة الأساسية عن «طبيعة عالم السياسة»، هناك أسئلة تتعلق بـ «كيف يمكننا تحقيق أهدافنا»، وهي الأسئلة التي تتصل باعتقاداتنا الذرائعية.

يرى سكوت كريشلو (Scott Crichlow) أن هذه المقاربة هي في الأساس مقاربة نزوعية من حيث إنها تركز على الفروق في ردود فعل القادة نحو البيئة السياسية الواحدة. فإذا كان الموقف هو كل شيء (أي هو الذي يحدد السلوك)، فإننا لا نكون مضطرين إلى إزعاج أنفسنا بدراسة اعتقادات القائد، لأن هذه الاعتقادات لا تضيف كثيرًا إلى تفسير السلوك السياسي (فهي مجرد ظاهرة مصاحبة/ثانوية (epiphenomenal)، باستخدام التعبير العلمي الاجتماعي). ولكن كريشلو يشير إلى أن «تحليل عقيدة صانع القرار يعطينا وسيلة لفحص نزعات القائد الأساسية نحو الفعل السياسي»، ومن ثم، فهم مصادر الاختلاف في سلوك القادة عندما يواجهون مواقف متشابهة[22]. ويؤكد جورج أن الموقف أو البيئة قد «تغل يد القائد» أحيانًا، إلا أن الاعتقادات الأساسية، بوجه عام، هي التي تكوّن السلوك في العديد من الأحوال[23].

دعنا نأخذ ليندون جونسون وكيف تعامل مع قضية فيتنام كمثال على بعض الاعتقادات الفلسفية والذرائعية. فإذا تناولنا عددًا من الأسئلة الواردة أعلاه يمكننا أن نقول بثقة:

---

(22) Scott Crichlow, «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres,» *Political Psychology*, vol. 19, no. 4 (December 1998), p. 684.

(23) George,«The Causal Nexus Between Cognitive Beliefs and Decision Making Behamior,» p.104.

حول هذا الموضوع، انظر أيضًا: Stephen G. Walker, «The Evolution of Operational Code Analysis,» *Political Psychology*, vol. 11, no. 2 (June 1990), pp. 408-409.

- إن جونسـون لـم يمتلـك كثيـرًا من الخبـرة، لذا فإنـه اعتمد على اعتقادات بسـيطة، وإن كانت أساسـية، فـي تعامله مع قضيـة فيتنام.

- إن جونسـون رأى الطبيعـة الأسـاس للحيـاة السياسـية كحلبة صراع؛ فهـي حرب بين الخير والشـر (كما رآهـا هوبز).

- إن جونسون اعتقد بقدرته على التحكم في ما كان يجري في فيتنام من أحداث.

- إنـه اتخـذ «طريقًا وسـطًا» علـى الصعيدين، المحلـي والدولي، كافيًـا لتهدئة الصقور فـي الداخـل ولكن ليـس بالقدر الـذي يدفع الصين إلـى التدخل فـي الحرب.

- إن اسـتراتيجيته في اسـتخدام القصـف التدريجي للقنابل أتاحت لـه ضبط المخاطر (والتحكـم فيها إلـى حد ما).

- إنـه اعتقـد، مـن الناحيـة الذرائعية، بإمـكان التفـاوض، المدعـوم بالتهديـد (ومع أن هـذا التكنيـك خدمـه فـي مواجهة مجلس الشـيوخ الأميركـي، إلا أنه، لسـوء الحـظ، لم يكن ليعطـي ثمارًا مع خصمه الشـيوعي هو شـي منـه)[24].

وبعـد أن أرسـى ألكسـندر جـورج القواعـد الأساسـية لتحليـل عقيـدة صانـع القـرار لم يقـم هـو ذاتـه بكثير مـن التحليـل، ولكنه تـرك لأتباعه تطبيـق النظريـة إمبيريقيًـا. وقد كان أوفـر هـؤلاء إنتاجًـا هـو سـتيفن والكـر (Stephen Walker)، إذ يفـوق مـا أجـراه والكـر مـن هذه التحليـلات فـي خـلال عملـه الأكاديمـي مـا أجـراه غيره مـن الباحثيـن إلى حـد كبيـر. ولعل أكثـر مقالاتـه شـهرة تلك التـي أجرى فيهـا تحليـلًا لعقيـدة هنري كيسـينجر، مستشـار الأمن القومي، ووزير الخارجية الأميركي الأسـبق. ولدى فحص والكر لأعمال كيسـينجر بوصفه عالم سياسـة، قبـل أن ينضـم إلى إدارة نيكسـون عام1969، بيّـن والكر أن هناك ارتباطًـا وثيقًا بين كتابـات كيسـينجر بوصفـه أكاديميًـا وممارسـاته العمليـة، مـا عدا قضيـة واحـدة ذات أهمية

(24) Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking,* pp.114-115, and Stephen G. Walker and Mark Schafer, «The Political Universe of Lyndon B. Johnson and His Advisors: Diagnostic and Strategic Propensities in their Operational Codes,» *Political Psychology*, vol. 21, no. 3 (September 2000), pp. 529-543.

(وهي صناعة السياسات المتعلقة بفيتنام بين 1969 و1973). ويستنتج والكر:

لقد هيمن كيسينجر على مجريات السياسة الأميركية الخارجية التي أنهت تورط الولايات المتحدة في حرب فيتنام على الرغم من ضرورات السياسات البيروقراطية ودبلوماسية التحالف، وعلى الرغم من تدخل الرئيس نيكسون شخصيًا في الأوقات الحرجة. وتصرف كيسينجر وفق المبادئ الذرائعية لعقيدته السياسية[25].

ومنذ عام 1970 جرى نشر عدد هائل من تحليلات العقائد السياسية للقادة، وتبنى الجيل الجديد من الباحثين تكنيكات حسابية دقيقة طُوّرت لتقدير الإجابات المحتملة لفرد ما عن الأسئلة التي يطرحها مقياس العقيدة السياسية للقائد. إضافة إلى ذلك، أخذت البحوث الحديثة هذا التحليل في اتجاهات جديدة، مثيرة للاهتمام. فاستخدم سكوت كريشلو هذه المقاربة، على سبيل المثال، لدراسة التغير في اعتقادات القادة عبر الزمن[26]. وقد أظهر تحليله للعقيدة السياسية لإسحق رابين وشمعون بيريز كيف أن الاعتقادات الفلسفية لكلا القائدين أصبحت أقل صراعية في الفترة الواقعة بين السبعينيات والتسعينيات، إذ كان الرجلان يحملان وجهات نظر متشابهة حول البيئة السياسية المحيطة بهما في السبعينيات، وقد تغيرت وجهات النظر هذه في الاتجاه ذاته مع مرور الوقت. فوجد كريشلو:

أن كلا الرجلين شخّص عالمه السياسي في التسعينيات على نحو مختلف عما كان عليه في السبعينيات. ففي العقد المبكر من هذه الفترة رأى كل منهما البيئة السياسية من حوله بيئة صراع لا تتيح لهما فرصة كبيرة لتحقيق أهدافهما السياسية الأساسية. أما في فترة التسعينيات، فبدا لهما عالم السياسة عالمًا يصعب التنبؤ به، تتعادل فيه قوى التعاون وقوى الصراع على كفتي ميزان[27].

---

(25) Stephen G. Walker, «The Interface between Beliefs and Behavior: Henry Kissinger's Operational Code and the Vietnam War,» *Journal of Conflict Resolution*, vol. 21, no. 1 (March 1977), p. 147.

(26) Crichlow, «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres».

(27) المصدر نفسه، ص 695.

ومـن ناحيـة أخـرى، أظهـر التحليـل أن رابيـن كان فـي كلتـا الفترتيـن «ينـزع بوضـوح إلـى مسـار تعاونـي»[28]. هـذا، ويضيـف كريشـلو إلى مفهـوم جورج الأصلـي، بشـأن العقيدة السياسـية، تصنيفًـا للعقائـد النمطية يـراوح بين صنـف المثالييـن المغالين إلـى البراغماتيين إلـى الواقعييـن، مـع عـدد مـن الأصناف فـي ما بينهـا[29].

وقـد حلـل مـارك شـيفر وسـتيفن والكـر العقيـدة السياسـية لطونـي بليـر وبـل كلينتـون فـي دراسـة مقارنة للتحقـق مما إذا كانـت الاعتقادات بشـأن السـلام الديمقراطي - الأطروحـة الشـهيرة القائلـة إن الديمقراطيـات لا تتحـارب فيمـا بينهـا، ولكنهـا تكـون علـى اسـتعداد لمحاربـة غيـر الديمقراطيـات - تختلـف بيـن القـادة السياسـيين للـدول الديمقراطيـة. وتُطـرح هـذه النظريـة فـي الغالـب على مسـتوى ثقافـي بحـت، وتقترح أن جميـع السياسـيين داخـل الديمقراطيـة يذوتـون (أو يتبنـون) مفهـوم السـلام الديمقراطـي، ولـذا فإننـا يمكـن أن نتوقـع فروقًـا ضئيلـة بيـن الأفـراد داخـل الدولـة الديمقراطيـة، إذا كانـت ثمـة فـروق فـي مـا بينهـم[30]. ولكـن هـل هـذا هـو واقـع الحـال؟ لقـد وجـد شـيفر ووالكـر أن هنـاك فروقًـا فـي بعـض الحـالات. فعلـى سـبيل المثـال، اكتشـف هذان الباحثـان أنـه بالرغـم مـن أن بـل كلينتـون وطونـي بليـر يحمـلان وجهـات نظـر إيجابيـة جـدًا إزاء الديمقراطيـة، وسـلبية إزاء اللاديمقراطيـة، فإنهمـا يتباينـان فـي اعتقاداتهمـا بشـأن إمـكان التحكـم باللاديمقراطيـات؛ حيـث دلّـت درجـة كلينتـون فـي هـذا الشـأن علـى تقديـرٍ عـالٍ لإمـكان التحكـم، بينمـا لـم تـدل الدرجـة المناظـرة لبليـر علـى تقديـر عـالٍ لهـذا الإمـكان[31]. وعلـى الجانـب الذرائعـي مـن العقيـدة السياسـية، ظهـر أن تكتيـك كلينتـون إزاء اللاديمقراطيـات أكثـر تعاونيـة مـن بليـر. أمـا بليـر فظهـر أنـه يحمـل اعتقـادًا أقـوى مـن كلينتـون بقدرتـه علـى التحكـم فـي الأحـداث التاريخيـة، وأمـا

---

(28) «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres», p. 698.

(29) المصدر نفسه، ص 701.

(30) Mark Schafer and Stephen Walker, «Democratic Leaders and the Democratic Peace: The Operational Codes of Tony Blair and Bill Clinton,» *International Studies Quarterly*, vol. 50, no. 3 (September 2006), pp. 561-583.

(31) المصدر نفسه، ص 573.

فـي التعامـل مـع الأنظمـة غيـر الديمقراطيـة؛ فقـد وجـد شـيفر ووالكـر، «أن بليـر أقـل تعاونيـة مـن كلينتـون، مـن الناحيتيـن الاسـتراتيجية والتكتيكيـة، وأنه أكثـر ميلًا للجـوء إلى التهديـد فـي هـذا المجـال[32].

كذلك فقد استخدم ستيفن دايسون (Stephen Dyson) هـذه المقاربة استخدامًا مفيدًا كوسيلة تنبؤيـة[33]. ويؤكـد دايسـون أن تحليـل العقيـدة السياسـية يفيـد بوجـه خـاص في فهـم اللاعبيـن الجـدد، ممـن لا نعرف عنهـم إلا القليـل، كما في حالـة «مديـر تنفيذي» أو أي شـخصية تظهـر حديثًـا فـي دائـرة الضـوء، مـن دون - أن يكون لها سـجل معـروف في صناعـة القـرار، أو الأداء فـي الميـدان العـام - وهو مـا يمثّل الأسـاس للصـورة العامة للفرد فـي الغالب»[34]. ويوضح دايسـون إمكان اسـتخدام هذا التحليل وسـيلة تنبؤيـة في تحليله للرئيـس السـوفياتي فلاديمير بوتيـن، فيقول:

> يوحـي تحليـل عقيـدة بوتين السياسـية أنـه، كالحربـاء، يقلّـد بيئتـه، وعلينـا ألا نتوقع منـه الالتـزام بالمعاييـر حيـن لا يلتـزم بهـا مـن يتعامـل معهـم، كمـا علينـا ألا نتوقـع منـه التمسـك بالقواعـد مـع مـن ينحرف عـن هـذه القواعـد. (...) وبوجه عـام، يمكن لصانـع السياسـة الثقة بأن المبـادرات المُحكمة سـتأخذ لديه نصيبها مـن الرعاية، وأن بوتيـن لا يتخـذ فـي الغالـب خطـوات متسـرعة، أو مندفعـة، أو عاطفيـة (...) غير أن صانـع السياسـة عليـه أن يحـذر ميـل بوتين إلـى مبادلة الحسـنى بالحسـنى والسـيئة بمثلهـا، وأن يحـذر أي انقطـاع فـي أواصر التعاون مـع بوتين، لأن نتائجه سـتكون مُرّة وتسـتمر طويلًا[35].

وعلـى الرغـم مـن أن علمـاء السياسـة لا يتقنـون التنبـؤ بالقـدر الـذي يأملـون، فـإن ملاحظـات دايسـون - التـي نُشـرت فـي الأصـل عـام 2001 - تعكـس شـيئًا مـن

(32) *International Studies Quarterly*, vol. 50, no. 3 (September 2006), p. 575.

(33) Stephen Dyson, «Drawing Policy Implications from the «Operational Code» of a «New» Political Actor: Russian President Vladimir Putin,» *Policy Sciences*, vol. 34, nos. 3-4 (December 2001), pp. 329-346.

(34) المصدر نفسه، ص 329.

(35) المصدر نفسه، ص 344.

نفـاد البصيـرة في ضـوء التدهـور في العلاقـات الأميركيـة الروسـية المرتبط بقضايـا الدفاع الصاروخـي، وتوسـع حلف الناتـو، على سـبيل المثال.

لكـن واحـدة من نقاط الضعـف في مقاربة العقيدة السياسـية، هي أنهـا تعتمد في كثيـر مـن الأحيـان علـى الخطابـات، وغيرهـا من الرسـائل العامـة التـي تصدر عـن القائد. ومـع أنـه جـرى اعتمـاد المذكرات، وغيرهـا من المصـادر لتقصـي العقيدة السياسـية (كما فـي الدراسـة المتعلقـة بكيسـينجر والمشـار إليهـا سـابقًا)، إلا أن هنـاك بعض المشـكلات التـي تواجـه الباحـث عند الاعتمـاد على الأحاديـث الشـفوية كمصدر للبيانـات، من حيث إنهـا لا تعكـس اعتقـادات مُرسـلها، وإنمـا قـد تكـون موضوعـة لجمهـور محلـي أو دولي، أو كليهمـا، كمـا سـبق أن أشـرنا. ففـي عـام 2007 مثـلًا ألقـى الرئيـس الإيرانـي أحمـدي نجـاد سلسـلة مـن الخطـب الناريـة، بمـا فيهـا خطاب هـدّد فيه إسـرائيل بشـكل مباشـر. فهـل كانـت هـذه الخطابـات موجّهـة إلى الولايـات المتحـدة، أم هـي خرجت للاسـتهلاك الغربـي، أم اسـتهدفت كسـب الدعـم المحلي في ضـوء التراجـع الذي أصاب شـعبيته في الداخـل الإيرانـي؟ إضافـة إلـى أن الخطابـات لا تُكتـب بأقـلام القـادة فـي غالـب الأحيان. علـى أننـا يجـب أن ننوّه، وكما يشـير كريشـلو، إلـى أن الخطـاب وعلى الرغم مـن أنه قد يكـون مفصّـلًا لجمهـور أو لآخـر، فإنه نـادرًا مـا يختلف اختلافًـا بيّنًا عـن اقتناعـات القائد السياسـية فـي الحقيقـة، وبالقـدر ذاتـه، فـإن كاتب الخطـاب نادرًا مـا يضع مـادة تتناقض واعتقـادات القائـد[36]. كمـا أن مخاطـر الخطابات المعدّة مسـبقًا قد تتقلص عنـد الاعتماد علـى ملاحظـات القائـد التي تِـرد خارج نطاق الإعداد. فقد اكتشـف مارك شـيفر وسـكوت كريشـلو، على سـبيل المثـال، فرقًا كبيـرًا بيـن مضامين ملاحظـات كلينتون المعدّة مسـبقًا وملاحظاتـه غيـر المعدّة، وأشـار إلـى أن الثانية منهمـا تمثّل أساسًـا أمتن لتحليـل عقيدته السياسية[37].

---

(36) Crichlow, «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres,» pp. 689-690.

(37) Mark Shafer and Scott Critchlow, «Bill Clinton's Operational Code: Assessing Source Material Bias,» *Political Psychology*, vol. 21, no. 3 (September 2000), pp. 559-571.

خاتمة

هناك نقطة ضعف أخرى تكتنف تحليل العقيدة السياسية نجمت عن نشوءه قبل ما يُعرف بـ «الثورة المعرفية» في علم النفس - وهو موضوع سنناقشه في الفصل القادم - وعليه فإن هذا التكنيك قام على نظريات فقدت شعبيتها إلى حد ما (من مثل نظرية الاتساق المعرفي)[38]. ومن هنا، فإن تحليل عقيدة لا يُعرّفنا كثيرًا بالمصادر المعرفية للاعتقادات، على سبيل المثال. ومرة أخرى، نعاود القول إن هذه ربما لا تكون نقيصة جوهرية في هذا المنحنى من حيث إن الباحثين الحاليين فيه، ممن تدربوا في خلال ظهور النظريات المعرفية والوجدانية في علم النفس السياسي، أو بعدها، يعملون الآن على دمج الجسم النظري القديم لهذا المنحنى بالتطورات الأكثر حداثة في هذا المجال. ويرى والكر، مثلًا، أن تحليل العقيدة الحديث يدمج في أثنائه استبصارات مستوحاة من النظريات المعرفية والوجدانية الحديثة[39]. ويصدق ذلك أيضًا على أعمال شيفر، وكريشلو، ودايسون التي سبقت الإشارة إليها. ولأننا لم نعطِ القارئ فكرة عما نعنيه بـ «النظريات المعرفية والوجدانية»، فإننا سنتولى هذه المهمة في الفصل الآتي.

(38) Walker, «The Evolution of Operational Code Analysis,» p. 412.

(39) المصدر نفسه، ص 416.

9
المعرفة

إن ما يدعونا إلى وضع الشخصية والنظريات [المتصلة بها] المؤسسة على الاعتقادات تحت المظلة النزوعية لا المظلة الموقفية لا بد أن يكون واضحًا للقارئ الآن. فإذا كان الأفراد جميعًا يتصرفون بالطريقة ذاتها عندما يوضعون في موقف معين، لن يكون هناك داعٍ لدراسة خلفياتهم الذهنية. وإذا كان الموقفيون على صواب، فإننا لن نجني كثيرًا بالنظر «داخل العقول». فالموقفيون يرون أننا نستطيع الحصول على كل المعلومات اللازمة عن سلوك الناس بمعرفة طبيعية الموقف الذي يواجههم، لا بالبحث عن نزعاتهم. غير أن النزوعيين يفترضون أن الأفراد يتباينون في استجاباتهم للمواقف، ويحاولون تاليًا البحث عن العوامل التي تؤدي إلى هذه التباينات. علاوة على ذلك، ومنذ الثمانينيات، سعى علماء نفس السياسة العاملين في حقول البحث المختلفة - كصنع القرار في السياسة الخارجية، والسلوك الانتخابي - إلى تفسير الفروق الفردية هذه بالنظر إلى الأبنية المعرفية (cognitive structures) القائمة داخل العقول.

شهد علم النفس في خلال السبعينيات ما يسمى بـ «الثورة المعرفية» (cognitive revolution)، وطغت دراسة هذا الموضوع على ميدان علم النفس منذ ذلك الحين (ويشير مصطلح cognition في اللغة الإنكليزية إلى عمليات التفكير، أو المعرفة (knowledge)، والمشتقة من المصطلح اللاتيني cognoscere، أي «يعرف»). ويتصدى الدارسون في هذا المجال إلى الإجابة عن أسئلة من مثل: كيف نصنع القرارات؟ كيف نحل المشكلات؟ ما العمليات العقلية التي

تكوّن تفكيرنا؟ كيف نقوم بمعالجة المعلومات؟ كيف نكتسب المعرفة؟ كيف نصل إلى هذه المعرفة عند الطلب؟ ما العوامل التي تحدد إدراكنا للعالم؟ كيف نتعلم؟ وتقتضي دراسة هذه القضايا تحليل العمليات المعرفية، وتقدير الطرائق التي يعمل بها العقل الإنساني حق قدرها. وبينما احتفظ علم النفس بفكرة فرويد القائلة إن العديد من عملياتنا العقلية عمليات لا شعورية - سنرى لاحقًا في هذا الفصل أننا كثيرًا ما نستخدم «طرائق مختصرة» في التفكير من دون أن نعرف حقيقة ما نستخدم - إلا أن علم النفس المعرفي الراهن يبتعد كثيرًا عن أفكار التحليل النفسي التي بدأ بها. ومن حيث إن علم النفس السياسي يستعير بكثرة من ميدانه الأم، أصبح أنصاره مشغولين بالمعرفة السياسية، أي بكيف نفكر ونفسر سياسيًا[1].

إن العديد من افتراضات نموذج الإنسان النفساني (homo psychologicus)، الذي جئنا على وصفه في الفصل الثاني، مشتقة من علم النفس المعرفي بشكل مباشر، ومن الحقل الأوسع الذي أصبح يُعرف بعلم المعرفة (cognitive science). وهذا الحقل وإن كان يغطي الموضوعات ذاتها التي يغطيها علم النفس المعرفي، إلا أنه أكثر اتساعًا من حيث إنه لا يبني على أساس من علم النفس وحده، وإنما يأخذ أيضًا من اللغويات، وعلم الحاسوب، وعلم الأعصاب، والفلسفة، وميادين أخرى، ويعرّف دايفد غرين وزملاءه علم المعرفة على أنه:

> الدراسة العلمية البينية (interdisciplinary) للعقل(...) تسعى إلى فهم العمليات العقلية كعمليات قائمة على تمثيلات [ذهنية للعالم] (representations). ويُنظر إلى عمل العقل، ثمّ إلى أساس الفعل الذكي في العالم، على أنه عمل حسابي أو عمليات معلوماتيه[2].

والعقل الإنساني أداة مذهلة، لم يتمكن الذكاء الاصطناعي (artificial

---

(1) الكتابان اللذان أدخلا هذا التعبير الجديد إلى علم النفس السياسي خلال الثمانينيات هما: Susan T. Fiske and Shelley E. Taylor, *Social Cognition* (Reading, MA: Addison-Wesley, 1984), and Richard R. Lau and David O. Sears, *Political Cognition* (Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1986).

(2) David W. Green [et al.], *Cognitive Science: An Introduction* (Cambridge, MA: Basil Blackwell, 1996), p. 5.

(intelligence في ما يبتكره من برامج، مجرد الاقتراب مما يغطيه العقل الإنساني من مهمات. وكما يشير ستيفن بنكر (Steven Pinker)، فإن الحواسيب والروبوتات تفتقر إلى الحدس أو البديهة (common sense) في حين أن العقل الإنساني قادر على اكتساب هذه الملكة بيسر وسهولة، ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، برمجة «عقل» الحاسوب على هذه الخاصية[3].

ومع أن الحواسيب تستطيع القيام ببعض المهام أفضل مما نستطيع بكثير، فقدرتها على خزن البيانات واسترجاعها، على سبيل المثال، تفوق قدراتنا إلى حد مذهل، غير أن المثال التالي يبيّن (بشكل غير مباشر) ألمعية العقل الإنساني مقارنةً بالحاسوب. والمثال يشير إلى تجربة في التفكير لجون سيرل (John Searl) تم إجراءها في ما يُعرف بـ «الغرفة الصينية»، وهي تمثّل تحديًا للفكرة القائلة إن الحاسوب قادر على التفكير كالبشر[4]. ويرمي سيرل إلى تفنيد وجهة النظر التي يقدمها مناصرو الذكاء الاصطناعي المتشددن الذين يعتقدون أن الحواسيب قادرة على الوصول إلى فهم حقيقي، أو على تطوير ما نسميه الوعي (consciousness)، وقد اكتسبت هذه الفكرة شيوعًا من خلال أفلام سينمائية مثل «السفر في الفضاء» (2001: A Space Odyssey) و«بذرة الشيطان» (Demon Seed).

ويدعونا سيرل إلى تخيل حاسوب يبدو كأنه قادر على فهم اللغة الصينية، ثم يأتي شخص ناطق بالصينية ويقوم بإدخال سؤال إلى الحاسوب، ويجيب الحاسوب إجابة صحيحة باللغة الصينية. وتكون الإجابة المقدّمة على درجة من المتانة تجعل الشخص الناطق بالصينية يعتقد أنه يتحدث إلى شخص من أبناء لغته. ويطلب سيرل إلينا أن نتخيل أننا نقف داخل الحاسوب أو «الغرفة

---

(3) مثال الضيوف مأخوذ من: Steven Pinker, *How the Mind Works* (New York: W. W. Norton, 1997), p. 13.
ولكنه مأخوذ في الأصل عن عالِم الكمبيوتر تيري وينوغراد (Terry Winograd).

(4) John R. Searle, «Minds, Brains and Programs,» *Behavioral and Brain Sciences*, vol. 3, no. 3 (September 1980), pp. 417-457.
أثارت حجّة سيرل عاصفة من الجدل في علم المعرفة والذكاء الاصطناعي، والذي لا يزال جاريًا حتى الآن، حتى أنه استُعير في الروايات. على سبيل المثال، انظر: David Lodge's, *Thinks*... (New York: Viking Press, 2001).

الصينيـة» لنـؤدي المهمـة التـي يؤديهـا الحاسـوب (إننـي لا أسـتطيع التفوه بكلمـة واحدة مـن اللغـة الصينيـة، وربمـا لا يسـتطيع معظمكـم ذلـك، أمـا إذا كنـت تسـتطيع، تخيّـل أن الحاسـوب يتحـدث لغـة أخـرى لا تعرفهـا أنـت - لتنفيـذ تعلميـات التمريـن المطلـوب). وعندمـا تقـف داخـل الحاسـوب وتبـدأ بتلقـي الأسـئلة باللغـة الصينية يكـون عليـك العودة إلـى كتـاب قاعـدي يرشـدك إلى سلسـلة الحـروف الصينيـة التي تؤلـف الإجابة عن السـؤال المطـروح. وبذلـك تقـوم بإنتـاج السلسـلة المعينة مـن الحروف مـن دون تفكيـر. فلا يكون لديـك أي فكـرة عمـا تعنيـه تلـك السلسـلة التـي اسـتخدمتها فـي الإجابـة، تمامًـا كمـا أن الحاسـوب لا يحمـل أي فكـرة عما تعنيـه الحروف من الإنكليزيـة (أو غيرهـا) المدخلة فيه. ولكـن الشـخص الصينـي الواقـف خـارج الحاسـوب يظـل علـى ظنـه بـأن الحاسـوب يفهـم الصينيـة، وأنـه يُحـاوره عـن فهـم، كأي كائن بشـري. والفكـرة الأبعد التي يشـير إليها سـيرل هـي أن الحواسـيب لا تسـتجيب إلا وفـق القواعـد والتراكيـب التـي تمـت برمجتهـا عليهـا، ولكنهـا ليسـت قادرة علـى الفهـم الخالص. ومهمـا بلغت محاولاتنا تقليد السـلوك البشـري فـي أشـكال صناعيـة مـن القوة والإقنـاع، فـإن الحواسـيب أو الروبوتـات لن تقدر أبـدًا على القيـام بمـا يقوم بـه الدماغ البشـري.

ومـن حيـث إن الدمـاغ البشـري غايـة فـي التعقيـد - ولأن دراسـتنا لـه لا تـزال في مهدهـا - فإننـا نجـد، والحـال هـذه، كثيـرًا من الفـروق فـي الطرائق التـي ينتهجهـا علماء المعرفـة لمقاربة الأسـئلة المتعلقـة بمعالجة المعلومـات، والتي جرى طرحها في مسـتهل هـذا الفصـل. علـى أننـا سنسـلط الضـوء، فيمـا يلي، علـى اثنتيـن مـن النظريات لمـا كان لهمـا مـن تأثير خـاص في علـم نفس السياسـة فـي السـنين الأخيرة وهمـا: نظريـة العزو (attribution theory) (التـي تنظـر إلـى الفـرد كــ «عالـم بالفطـرة») ونظريـة السـكيما (schema theory) (التـي تـدور حول نزعتنا إلى «البخل المعرفـي»)، وذلك بعد أن نمهد لهذه الموضوعات بمناقشـة نظرية الاتسـاق المعرفي (cognitive consistency theory). وسـنختتم هـذا الفصـل بتنـاول موضـوع لصيق هـو التفكير من طريـق المماثلـة أو قياس التمثيل [وفق الترجمة التقليدية] (analogical reasoning). وسيتضح لنا أن مواضع العزو، والسـكيمات، والنصـوص أو السـيناريوهات (scripts) والمماثلة/قيـاس التمثيل، موضوعات

مترابطـة فـي ما بينهـا على نحو يجعـل النظريات القائمـة وراءها نظريـات متكاملة أكثر مما هي متنافسـة.

نظرية الاتساق المعرفي

لقـد فقـدت النظريـة السـلوكية - أو صيغتهـا التـي نوقشـت فـي الفصـل الثالـث - معظـم مؤيديهـا داخل التيـار الرئيس في علم النفـس في الوقت الراهـن. ويعود ذلك في الجـزء الأكبـر منـه إلى نظرتهـا الآلية للسـلوك الإنسـاني. ولكن هـذا التحول فـي الاهتمام بعيـدًا من السـلوكية حـدث نتيجة لتحول نحـو الاهتمام بعمـل العقـل أو بالمعرفة، ونحو الاهتمـام بعمـل الدمـاغ - الـذي أعـاد تأكيد نفسـه فـي الفتـرة ذاتهـا. أمَّا نظرية الاتسـاق المعرفي فقد اكتسـبت شـهرتها في الخمسـينيات والسـتينيات من القـرن الماضي. ويتمثل المنطلـق الأسـاس لهـذه النظريـة فـي افتراضها أن النـاس عندما يسـلكون طرائـق تتعارض مـع مـا يحملونه مـن اعتقـادات تنتابهم حالة مـن الضيق، إذا هـم أدركوا التعـارض القائم بيـن سـلوكهم واعتقاداتهـم. والافتـراض الضمنـي هنا هو أن البشـر لا يرغبون في السـلوك بطرائـق تخالف اعتقاداتهـم، ولا يرغبون في وجود تضارب بيـن مايحملونه من اعتقادات، ويتجنبون المعلومات، أو المواقف التي تسـبب ظهور هذه التناقضات في العلن. ويسـمي ليـون فسـتنغر (Leon Festinger) حالـة التعـارض هـذه بــ التنافـر المعرفـي(cognitive dissonance)[5]. وكان فرتـز هايـدر (Fritz Heider) قـد سـبق ليـون فسـتنغر فـي وضع نظريـة مماثلـة هـي نظريـة التـوازن المعرفـي[6] (cognitive balance theory). وكمثـال مـن مجـال السياسـة علـى التنافـر المعرفـي يمكننـا النظـر الـى الحالـة التي يختلـف فيها أعضـاء الحـزب المعين مـع حزبهم إزاء قضايا رئيسـية كالحقـوق المدنيـة أو الإجهاض، أو الحالـة التـي يعارضـون فيها ترشـيح حزبهم لشـخص ما لمنصـب الرئيـس أو منصب نائب

(5) Leon Festinger, *Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957).

(6) Fritz Heider: «Attitudes and Cognitive Organization,» *Journal of Psychology*, vol. 21 (1946), pp. 107-122, and *The Psychology of Interpersonal Relations* (New York: Wiley Press, 1958).

الرئيـس. حيـث تفتـرض النظريـة أن أعضـاء الحـزب يواجهـون حالـة مـن التنافر فـي مثل هـذه المواقـف، الأمـر الـذي يسـتثير لديهـم دافعًـا لإعـادة الأمـور إلـى التـوازن (وهـو مايدعـوه فسـتنغر بــ التناغـم (consonance)). وتتـم اسـتعادة التـوازن باللجـوء الـى تبريـر الموضـوع المختلـف عليـه، أو التقليـل مـن أهميـة موضـوع مرشـح الحـزب المختلـف عليـه، كالقـول مثـلًا إن «ديـك شـيني لـن يصبـح الرئيـس علـى أي حـال» أو القـول إن «قانـون الحقـوق المدنيـة لن يغير شـيئًا». وربمـا يقلل أعضاء الحـزب من التنافـر بإضافة اعتقـاد جديـد يتصـل بالموضـوع المختلـف عليه [يسـتعيدوا من خلالـه التـوازن]. وأخيرًا، يسـتطيع المـرء تغييـر ولائـه الحزبي ويجعـل انتخابه متسـقًا مـع ولائه - علـى الرغم من أن نظريـات السـلوك الانتخابـي توحـي بـأن ذلـك أمـر غيـر محتمـل مـع شـديدي الـولاء لأحزابهـم. ولكـن، مـا الـذي جعـل نظريـة الاتسـاق المعرفـي تفقـد جاذبيتها؟ ترد سـوزان فسـك وشـيلي تايلـر ذلـك إلـى أسـباب عـدة حيث تقـولان:

> مـا عـادت نظريـات الاتسـاق المعرفي تهيمـن علـى الميدان كمـا كانت لأنهـا تكاثرت إلـى حـد جعـل مـن المتعـذر التمييـز بينها، لسـوء الحـظ. علاوة علـى ذلـك، كان من الصعـب التنبـؤ بالحيثيـات التي تجعل الفـرد يرى عدم اتسـاقية في موقف مـا ويقدِّر مداهـا، والتنبـؤ بالطريـق الـذي سيسـلكه لتسـوية مـا هـو غيـر متسـق. وأخيـرًا، يبدو أن النـاس قـادرون علـى تحمـل قدر لا بـأس به من عـدم الاتسـاقية، لذا فـإن افتراض وجـود دافـع لتجنبها يصبـح موضع شـك، كمبدأ عـام[7].

ولقـد وضعـت مقاربـة الاتسـاق المعرفـي الأفـكارَ فـي خدمـة العمليـات الدافعيـة؛ فالنـــاس لا يغيـــرون اعتقاداتهـــم وســـلوكياتهم إلا عندمـــا يُدفعـــون إلـــى ذلـــك بتأثيـــر حـالات انفعاليـة قويـة ذات طبيعـة سـلبية. وكمـا أشـرنا قبـل قليـل، فـإن أنصـار هـذه المقاربـة يعترفـون أنـه مـن الصعـب التنبـؤ مسـبقًا بالطريـق الـذي سيسـلكه الفـرد لتقليـل التنافـر، علـى الرغـم مـن أن كثيريـن فـي عالـم السياسـة، علـى مـا يبـدو، يحتملـون عـدم اتسـاقية فـي الاتجاهـات إلـى حـد كبيـر. فعنـد اتخـاذ قـرار انتخابـي،

---

(7) Fiske and Taylor, *Social Cognition*, p. 10.

على سبيل المثال، يؤكد أنصار نموذج التماهي الحزبي (Party identification model) التماهي أو التوحد مع الحزب، وهو ما سيجري تناوله في الفصل الثاني عشر - حيث يُنظر إلى الانتخاب وفق هذا النموذج على أنه عملية آلية، أو ارتكاسية تقريبًا، بدافع من الولاء الطويل الأمد للحزب، وليس بناء على اعتبارات خاصة بالقضايا أو بالمرشحين)، يؤكد أنصار هذا النموذج أن معظم الناخبين يهملون الفروق القائمة بين مواقفهم الخاصة ومواقف الحزب إزاء مختلف القضايا أو يقللون من اعتبارهم لها. ففي عام 2008، على سبيل المثال، عارض الناخبون من المحافظين الجدد، وأعضاء اليمين المسيحي، المواقف السابقة لمرشح حزبهم، جون مكين، حين وصف بعض أعضاء تلك الحركة على أنهم «وسطاء عدم التسامح». وعلى الرغم من ذلك، تنبأ أتباع مقاربة التماهي الحزبي أن معظم الجمهوريين المحافظين سيصوتون لمكين في كل الأحوال متجاهلين التنافر المعرفي المتوقع في ظل هذا الموقف. ولكن إذا كان التنافر قوة مؤثرة إلى هذا الحد، لمَ يندر أن نشهد تغييرًا في اعتقادات الناس أو في سلوكهم الانتخابي؟ [الرد الممكن على هذا السؤال المهم هو أن عمليات تجسير التعارض أو تقليل التنافر تتكفل بتسوية الأمر، على ما يبدو، ولا يعود هناك حاجة إلى التغيير. ولعل السؤال المهم هنا هو، لمَ تقاوم الاتجاهات التغيير كل هذه المقاومة؟].

ونتيجة للاستياء المتنامي إزاء نموذج التناسق المعرفي في السبعينيات، أخذ علماء النفس المعرفي والاجتماعي يتجهون بشكل متزايد نحو منحيين جديدين كانا آخذين في التطور حينئذٍ هما على وجه الخصوص: نظرية العزو (attribution theory) ونظرية السكيما (schema theory).

نظرية العزو

ترى نظرية العزو أن البشر ليسوا «باحثين عن الاتساقية» بالدرجة الأولى وإنما هم علماء بالفطرة (naive scientists)، أو يسعون لحل المشكلات. هم ليسوا مدفوعين لاستعادة التوازن على الدوام في ما بين اعتقاداتهم، أو ما بين اعتقاداتهم وسلوكهم، وإنما هم مهتمون أساسًا بالكشف عن أسباب سلوكهم

وسلوك الآخرين. والبشر في حالة بحث مستمر عن الأسباب والنتائج [أو الآثار (effects) بحسب مصطلحات النظرية] - حيث يسأل الناس أول ما يسألون: «لمَ وقع الحدث المعين؟» - ولكن بحثهم عن الأسباب أقل دقة وتقدمًا من بحث عالِم يعمل في مختبره، بطبيعة الحال. هم يسعون باستمرار لفهم العالم المحيط بهم، وينطلقون في ذلك من افتراضات حول أنفسهم وحول الآخرين. ويُعتبر هارولد كيلي (Harold Kelley)، وريتشارد نيسبت (Richard Nisbett)، ولي روس (Lee Ross) من أبرز المساهمين في تطور هذا الاتجاه المعرفي[8].

وتأخذ نظرية العزو أهمية خاصة عند النظر إلى التمييز الذي أرسينا دعائمه في هذا الكتاب بين الموقفية والنزوعية، ويعود ذلك في جزء منه إلى أن دعاة هذه النظرية هم الذين روّجوا هذا التمييز بداية [التمييز بين العوامل المتعلقة بالفرد والعوامل المتعلقة بالموقف]. وترى هذه المقاربة أننا نعزو سلوك الفرد أحيانًا إلى الموقف [الذي أحاط بذلك الفرد]، بينما نعزوه في أحيان أخرى إلى نزعات داخلية لدى الفرد. وكثيرًا ما نرتكب أخطاء جسيمة ونحن نقوم بذلك. وكما يقول كل من فسك وتايلر، فإن الناس لا يراعون الحذر في ما يقومون به من عزو، «فعلى صعيد الحياة اليومية، يعزو الناس [الأحداث والأفعال] من دون تفكير نسبيًا. ولأن النسق المعرفي محدود السعة، لذا فإن الناس يأخذون فيه طرقًا مختصرة»[9].

ويبدو أن واحدًا من أبرز الأخطاء التي يرتكبها البشر في عملية العزو، هو ما يُعرف بالخطأ الأساس في العزو (the fundamental attribution error) الذي يترتب عليه نتائج سياسية مهمة. فعندما نفسر ما نقوم به نحن من سلوك، كثيرًا ما نرد ما فعلناه إلى أسباب موقفية، وكثيرًا ما نبالغ في ذلك الاعتبار. وبالمقابل، عندما نفسر سلوك شخص آخر ونسأل لمَ فعل ذلك الشخص ما فعل؟، كثيرًا ما نرتكب الخطأ المعاكس فنقلل من أهمية الموقف في توجيه

(8) على سبيل المثال، انظر: David E. Jones [et al.], eds., *Attribution: Perceiving the Causes of Behavior* (Morristown, NJ: General Learning Press, 1972), and Richard Nisbett and Lee Ross, *Human Inference: Strategies and Shortcomings of Social Judgment* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1980).

(9) Fiske and Taylor, Ibid., p. 11.

سلوكه (وبذلك فإننا نبالغ في تقديرنا لدور نزعات الشخص الداخلية [أو خصائصه الشخصية] في تحديد ما فعل). والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما أهمية هذا الموضوع لطلبة السياسة؟ تعطي ديبورا ويلش لارسون (Deborah Welch Larson) في دراستها الكلاسيكية عن الحرب الباردة واحتوائها، مثالًا موضحًا، حين تقول:

> إن صانعي السياسة يميلون إلى الاستنتاج أن أفعال دولتهم تكون مقيّدة بظروفها، حتى عندما يعزون سلوك الدول الأخرى إلى «خصائص» أساسية لدى الأمم أو قادتها. وعند تطبيق هذه المقاربة لتفسير التغير الذي حدث في صناعة السياسة الخارجية الأميركية إزاء الاتحاد السوفياتي، فإن نظرية العزو ترى أن المسؤولين في واشنطن كانوا على أتم الاستعداد لاختلاق دوافع أيديولوجية، توسعية لما يفعله السوفيات قد لا تعكس في الواقع سوى حسابات أمنية مماثلة للحسابات التي دفعت إلى سياسات مناظرة اتبعتها الولايات المتحدة»[10].

ووقوع بعض السياسيين في شرك العزو الخاطئ لا يعني أننا محكومون جميعًا بالوقوع في هذا الشرك. وبالرجوع إلى أزمة الصواريخ الكوبية، على سبيل المثال، نستطيع القول إن أحكام العزو كانت تمثل قضية حياة أو موت. حيث سأل أعضاء اللجنة المختصة أنفسهم على الفور في الاجتماعات المتوترة الأولى لبحث هذه القضية، «لماذا أقام السوفيات الصواريخ في كوبا؟»، «ما هي مقاصدهم؟» وقد بدا أن قائد القوات الجوية كيرتس ليميه (Curtis LeMay) عزا ذلك إلى دوافع شريرة لدى القيادة السوفياتية، في حين أن آخرين، أمثال روبرت مكنمارا (Robert McNamara)، والسفير تومي طومبسون (Tommy Thompson)، والرئيس كينيدي (Kennedy) كانوا أكثر ميلًا إلى افتراض أن أفعال كروتشيف (Khrushchev) ربما كانت مدفوعة بقوى موقفية ضاغطة أو مشجعة لذلك الفعل. وعلاوة على ذلك، كان الطرفان الأميركي والسوفياتي مدركين أن ثمة قوى موقفية قد تمسك بزمام الأمور وتسبب نشوب حرب غير

---

(10) Deborah Welch Larson, *Origins of Containment: A Psychological Explanation* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985), p. 38.

مقصودة. ويمثل التدرّب على التعاطف - أي وضع أنفسنا في موضع الخصم - طريقة مفيدة للحد من هذا النوع من أخطاء العزو، والتي يرتكبها «علماء بالفطرة» في كثير من الأحيان في مجال العلاقات الدولية - على الرغم من أن هناك مخاطر وتحيزات ترتبط بهذه الممارسة أيضًا. فعندما نحمل اتجاهات سلبية شديدة نحو بعض الناس نميل بوجه خاص، وفق ما يرى ياكوف فيرتزبيرغر (Yaacov Vertzberger)، إلى عزو ما يفعلون إلى نزعات سلبية لديهم، ويفيد فيرتزبيرغر بهذا الصدد أن «النفور يولد تفسيرات نزوعية للأفعال غير المستحبة التي تصدر عن الآخرين، بينما يقود التعاطف إلى تفسير هذه الأفعال ذاتها بعزوها إلى عوامل موقفية»[11].

ويؤكد أنصار نظرية العزو أن اثنين من الطرق المعرفية المختصرة (cognitive shortcuts) أو الموجهات الذهنية [التي قد تتمثل في قواعد عملية مبنية على الخبرة] (heuristics) يحتلان أهمية خاصة في صنع القرارات والتفكير لدى البشر وهما: مُوجِّه التمثيلية (representativeness heuristic) [تقدير ذاتي لمدى تمثيل شخص لفئة معينة] ومُوجِّه الحضورية [سهولة الاستحضار إلى الذهن] (availability heuristic). ويعرِّف صموئيل بوبكن (Samuel Popkin) التمثيلية بأنها «حساب تقريبي لاحتمال كون شخص ينتمي إلى نوع معين [من الأشخاص] بناء على مدى التشابه بينه وبين الصورة النمطية التي نحملها في أذهاننا عن ذلك النوع من الأشخاص»[12]. ويؤكد بوبكن أننا نعتمد هذا الطريق عندما نقوِّم المرشحين للرئاسة في الانتخابات الأولية، على سبيل المثال، حيث لا يكون لدينا معرفة كافية بهم. كما أن هذه القواعد تُستخدم لتقدير احتمال وقوع حدث ما بناء على تقديرنا لمدى التشابه بين ذلك الحدث وصنف معين من الأحداث، [من حيث المقدمات أو الظروف المحيطة]. والتشابه المقصود هنا هو التشابه المدرك (perceived similarity) [وليس التشابه الموضوعي]، غير أن المشكلة

(11) Yaacov Y. I. Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1990), pp. 162-163.

(12) Samuel Popkin, «Decision Making in Presidential Primaries,» in: Shanto Iyengar and William J. McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology,* Duke Studies in Policical Psychology (Durham, NC: Duke University Press, 1993), p. 363.

الرئيسـية - التـي تجعلنـا علمـاء سـذّج (naive scientist) - هي أننا عند تقديـر تلك الاحتمالات نهمـل المعلومات الأساسـية (القاعدية) أو الاحتمـالات الإحصائيـة (statistical probabilities) عادة، [أي المعلومـات المتعلقـة بتكـرار الحـدث ضمن فترة زمنيـة معينة وتقديـر الاحتمالات بناء علـى ذلـك]. فعندمـا يُطلـب إلينـا تقديـر احتمـال أن يكـون صـدام حسـين «هتلـر آخـر»، علـى سـبيل المثـال، يُحـاول معظمنا المناظرة بيـن الاثنين بناء علـى التشـابه الظاهر بينهما (فـكل منهما توسـعي، متسـلط محليًـا، وما إلى ذلـك). على أن مـا يغفله معظـم الناس هو النظـر فـي الاحتمـالات الإحصائية ليكون «صدام حسـين هتلـر آخر» (كما يُفتـرض أن يفعل العالِـم)، إذ لـم يشـهد التاريـخ الحديث قـادة من نوع هتلـر إلا نادرًا، لكن معظـم الناس لا يبنـون تقديراتهـم للاحتمالات على أسـاس موضوعي.

أمـا موجِّـه الحضوريـة (availability heuristic) فتُسـتخدم عنـد تقديـر احتمال وقوع شـيء بنـاء علـى مـدى حضـور ذلـك الشـيء فـي الذهـن. ويكـون الشـيء حاضـرًا فـي ذاكرتنـا أحيانًـا لمجـرد وقوعـه حديثًـا أو لأنـه كـوّن خبرة حيـة يُسـتبعد نسـيانها. فالحـرب العالمية الثانيـة وحـرب فيتنـام أحـداث حيّة فـي أذهان صنَّـاع السياسـة الخارجيـة الأميركيـة، تجري مقارنـة المواقـف الجديـدة بهمـا بصـورة مبالـغ فيهـا. ومن الواضـح أن الأحـكام التـي تتأثر بالحضوريـة لا تكـون «علميـة» لأنهـا تُهمل الاحتمـال الاحصائـي. فالنظر إلى شـيء على أنه محتمـل الوقـوع لمجـرد أن شـيئًا مشـابهًا حـدث فـي عهـد قريـب، أو لأنـك متأثـر بذكـرى حـدث حي فـي ذهنـك، يمثّـل أساسًـا ضعيفًـا لتقديـر الاحتمالات.

نظرية السكيما

يشـير جـون سـوليفان (John Sullivan) وزمـلاءه إلـى أن مصطلـح سـكيما (Schema) قـد خـرج تقريبًـا مـن نطـاق التـداول فـي علـم النفـس السياسـي منـذ التسـعينيات، ومـن مجـال دراسـة سـلوك الجمهـور بوجـه خـاص. ويعـود ذلـك جزئيًـا إلـى إفـادات علمـاء النفـس السياسـي أنهـا - أي السـكيما - لـم تضـف الكثيـر مـن الوضـوح إلـى مـا هـو قائـم مـن مفاهيـم سياسـية[13]. وفـي حقيقـة الأمـر ربمـا يكـون

(13) على سبيل المثال، انظر: James H. Kuklinski, Robert C. Luskin and John Bolland, «Where's the Schema?: Going Beyond the «S» Word in Political Psychology,» *American Political Science Review*, vol. 85, no. 4 (1991), pp. 1341-156.

ذلك ناتجًا من أن معظم الباحثين قبلوا الفكرة السياسية بأننا نمتلك بنى معرفية في عقولنا وغدوا أكثر اهتمامًا بكيفية تأثير هذه البنى في السلوك السياسي. ويُفيد ران، وسوليفان، ورودولف (Rahn, Sullivan, and Rudolph) أن «نظرية السكيما ربما ما عادت تتمتع برواج، لكن الأفكار التي ارتبطت بها تحت هذه التسمية لا زالت حية، ولم يجر سوى إعادة تكوينها تحت مسميات جديدة مثل التمثيلات المعرفية (cognitive representations) أو الصور النمطية (stereotypes)[14]. كما قلَّ استخدام علماء النفس المعرفي لمصطلح «سكيما» وأخذوا يشيرون الآن إلى الشبكات الرابطة (associationist networks)، أو النظرية الحسابية للعقل (the computational theory of the mind). ولكن ذلك كله أمر يتعلق بالتسمية في الواقع أكثر مما يتعلق بالمضمون. ومصطلح «السكيما» مألوف لدى قطاع عريض من علماء نفس السياسة، وسنستعمل هذه التسمية هنا لأنها تؤلف بين عدد كبير من البحوث التي أجريت في مجال سلوك النخبة ومجال سلوك الجمهور. وربما تكون هذه النظرية في الحقيقة (أو لعلها مجموعة من النظريات) هي التي جلبت دارسي العلاقات الدولية، من منظور معرفي، إلى خيمة واحدة مع دارسي سلوك الجمهور - من مثل سلوك الانتخاب[15].

وتشترك نظرية السكيما مع نظرية العزو بافتراض أن الإمكانات المعرفية للبشر محدودة، كما تتفق معها في العديد من الوجوه. ومن حيث إننا نواجَه كل يوم بوابل كثيف من المعلومات، فإن نظرية السكيما ترى أن النشاط المعرفي الرئيس للبشر هو التصنيف (categorization) والوسم (Labelling) (أو التسمية) وليس البحث عن أنماط الأسباب والنتائج أو العمل كعلماء بالفطرة. وللتعامل مع الأحمال الزائدة من المعلومات، نمارس الاقتصاد العقلي (mental economics)، فنحن بخلاء معرفيًا (cognitive misers). وبدل التعامل مع كل معلومة جديدة بحسب صفاتها الخاصة، فإننا نتمثل هذه المعرفة داخل التصنيفات المقامة مسبقًا

---

(14) Wendy M. Rahn, John L. Sullivan and Thomas Rudolph, «Political Psychology and Political Science,» in: James Kuklinski, ed., *Thinking About Political Psychology,* Cambridge Studies in Political Psychology and Public Opinion (New York: Cambridge University Press, 2002), p. 171.

(15) Deborah Welch Larson, «The Role of Belief Systems and Schemas in Foreign Policy Decision-Making,» *Political Psychology*, vol. 15, no. 1 (March 1994), pp. 17-33.

(والتـي تعـرف عـادة بالسـكيمات أو النصوص/السـيناريوهات (scripts)). ويعمـل هـذا النشـاط المعرفـي بفعالية، وبسـهولة نسـبيًا[16].

ويُسـتعمل مصطلـح السـكيما بصـورة فضفاضـة فـي كثيـر مـن الأحيـان، كمـا يُعـرّف تعريفـات متنوعـة. ولكننـا نعرفهـا هنـا بأنهـا نـوع من الصـور النمطيـة، من حيث الأسـاس، مخزنـة فـي الذاكـرة، وتزودنا معلومات عـن الملامـح النمطيـة أو النموذجيـة (typical features) لموضـوع، أو حدث، أو شـخص. والسـكيمات تمثل تجمعـات عامة لمعـارف: مفاهيم عامة، قواعـد، دروس، وصـور نمطيـة مخزونة فـي الذاكرة. والسـكيمات تذهب أبعد مـن أي مثال عليهـا، وتُقدم لنـا معلومات عن الحالة المعتـادة [للموضوع أو الحدث أو الشـخص]، ونحن نسـتعمل مثـل هـذه السـكيمات لتصنيـف المعلومـات التـي نتلقاهـا، ولإجـراء اسـتنتاجات بشـأنها تتجـاوز المعلومـات المعطـاة. كما يمكننـا تصور السـكيما كصنـدوق معرفي يحتوي المعلومـات النمطيـة [أو الأساسـية المتكـررة] المرتبطـة بشـيء مألـوف لنـا. افـرض أننـي أعطيتـك الأحجيـة البسـيطة التاليـة والتـي تقـول: إننـي أفكـر فـي «شـيء»، لـه فـراء، ولـه ذنـب، ولـه مخالـب، وتأخذه فـي نزهة.

عندمـا نتلقـى المعلومـة الأخيـرة يصبح الشـيء الذي أسـال عنـه واضحًا. ولكـن لماذا أصبـح واضحًـا؟ فأنا لـم أقل لك بعد ما هـو ذلك الشـيء، ولكننا نعلم جميعًـا أنني أتحدث عـن كلـب. وعندما يدور تفكيرك حوله، فإن ذلك يسـتدعي عملًا مذهلًا تتضافر فيه أنشـطة معرفيـة متعـددة، وهـذا هو تفسـير نظريـة السـكيما لما يحـدث. فأنت تبدأ قبل أي شـيء بإدخـال كل معلومـة تصلك (أن ذلك الشـيء «له فـراء»، وهكذا). ثم تقـارن تلك الخصائص بالعناصـر الأساسـية لسـكيمات مختلفـة مخزونـة فـي ذاكرتـك، ثـم تقـارن تلـك الخصائـص بخصائص الفئة العامة المسـماة «كلبًا» وتخرج باسـتنتاج لما أفكر فيـه. وبعبارة أخرى، أنت اسـتعملت المعلومـات لتقـوم بالتصنيف، ولتذهب إلى مـا وراء المعلومـات المعطاة. ولكن يجـدر بـك أن تلاحـظ أن اسـتعمال السـكيما محفـوف بخطـر الوقوع فـي الخطـأ، ذلك لأنه

(16) Susan T. Fiske and Philip W. Linville, «What Does the Schema Concept Buy Us?,» *Personality and Social Psychology Bulletin*, vol. 6, no. 4 (December 1980), pp. 543-557.

يتضمـن إجـراء اسـتنتاجات تتجاوز البيانـات المعطاة. فربما كنتُ أشـير في المثال السـابق إلـى قطـة، ومـا كان لـك أن تسـتنتج أننـي قصـدت كلبًـا فـي الأحجيـة مـن دون المعلومـة الأخيـرة المتعلقـة بالنزهـة، فمـا مـن عاقـل يمكـن أن يأخـذ قطـة فـي نزهـة. ولـولا تلـك المعلومـة الأخيـرة لـكان مـن الممكـن أن نخطـئ، لا باسـتدعاء سـكيما القطة فحسـب، بل باسـتدعاء العديـد مـن السـكيمات الأخـرى الخاصـة بأصدقائنـا ذوي الفراء.

وكمـا هـو الحـال فـي أخطـاء العـزو، هـذا لا يعنـي أننـا نقـع في شـرك السـكيمات بالضـرورة، أو أننـا محكومـون بالوقـوع فـي الخطـأ عنـد اسـتعمالها، غيـر أن هـذا القصور يكمـن فـي كل الطرائـق المعرفيـة المختصـرة التـي نسـلكها. كمـا أننـا لسـنا محكوميـن بإهمـال الفـرق بيـن المثـال أو النمـوذج الافتراضـي [أو السـكيما الموجـودة فـي الذهن] والشـيء الواقعـي، حيـث يـرى جوليـان هوتشـبرغ، مثلًا، أنـه «يجـري تمييز الشـيء بداية بتعييـن السـكيما التـي ينتسـب إليهـا، ثـم بملاحظـة عـدد مـن الملامـح التـي تميـز ذلك الشـيء عـن غيـره مـن النموذجات المسـتغرَقة فـي السـكيما التي ينتمـي إليهـا»[17]. لكن السـكيمات يمكـن أن تضللنـا أحيانًـا مـن حيـث إنهـا تُوظَـف بوصفهـا أدوات للاقتصـاد العقلـي، وقـد تُفضـي فـي عالـم السياسـة إلـى نتائـج خطيرة.

ومـا صلـة هـذا كلـه بالسياسـة؟ لعـل الصلـة الوثيقـة لهـذا الموضـوع بالسياسـة تأتي مـن أن النخبـة التـي تصنـع القـرارات (والناخبيـن كذلـك) يضطـرون إلـى اتخـاذ القـرارات بنـاء علـى معلومـات غيـر تامة بشـأن الموقـف موضـوع البحـث؛ إذ إن صنّاع السياسـة قد يقومـون باسـتنتاجات خاطئـة (وهـم يفعلـون ذلك من دون شـك) حيـن يضعون الأفـراد أو الأحـداث ضمـن فئـات ذهنية، أو سـكيمات غيـر صحيحة، ويعتمـدون في ذلك على تشـابه سـطحي جـدًا [بيـن الفـرد والفئـة التي نسـبوه إليهـا، مثـلًا]. وتُعطي ديبـورا ويلش لارسـون مثالًا كلاسـيكيًا مناسـبًا عن هـاري ترومان (Harry Truman) ورئيسـه القديم فـي الحزب توماس بندرغاسـت (Thomas Pendergast) فـي ولايـة ميسـوري، حيـث كان زعمـاء الأحـزاب المحليـون

(17) Julian E. Hochberg, *Perception*, 2nd ed. (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1978), p. 190.

فـي تلـك الأيـام يسـيّرون شـؤون السياسـة، علـى المسـتوى المحلي بوجـه خاص. وليتسـنى لعضـو الحـزب البـروز علـى المسـتوى الوطنـي، كان لا بـد لـه مـن شـيء مـن الدعـم فـي المراحـل المبكـرة. وقـد حفـظ ترومـان مـا تلقـاه مـن دعـم مـن بندرغاسـت، ولـم ينـس فضلـه عليـه فيما حققه فـي مهنته السياسـية، وكان بندرغاسـت النموذج المحتـذى للرئيس القـادم. وأخـذ عنـه ترومـان ضـرورة حفـظ الرجل لكلمتـه، وهـو ما دعـاه ترومان «دسـتور السياسـي»، إذ يقـول: لا تثـق ثانيـةً علـى الإطـلاق بمـن لـم يحفـظ كلمتـه[18].

وحيـن التقـى ترومـان الزعيـم السـوفياتي جوزيـف سـتالين وجـد ترومـان شـبهًا بيـن سـتالين ومرشـده السـابق فـي الحـزب بندرغاسـت. ونتيجـة لهـذا التشـابه السـطحي تعامل ترومـان مـع الزعيم السـوفياتي بكثيـر من الدفء. وفي عـام 1946 التقى الرجـلان لأول مرة وتأثـر ترومـان بسـتالين إلى حـد كبير:

> تعـزز لـدى ترومان فـي لقائه سـتالين اعتقاده بأن الدكتاتور السـوفياتي يشـبه رئيسـه بندرغاسـت. وأفصـح ترومـان بإعجـاب لأحـد المسـاعدين «إن سـتالين أقـرب إلـى بندرغاسـت مـن أي رجـل أعرفـه». وذهـب ترومـان أبعـد من التشـابه السـطحي بين سـتالين وبندرغاسـت، واسـتنتج أن الروسـي يشـترك بخصائـص شـخصية عديـدة مـع رئيسـه فـي ميسـوري. وأخبـر ترومـان طاقم موظفيـه «إن سـتالين إذا قـال كلمة ذات مـرة فإنـه يقول الشـيء ذاتـه المـرة الأخـرى [...] إنـه يمكن الاعتمـاد عليه». اسـتنتج ترومـان أن سـتالين، كبندرغاسـت، أهـل للثقـة ويحفـظ كلمتـه. ويذكـر ترومـان بأنـه تكـوَّن لديـه انطبـاع «...أن سـتالين يدافع عـن اتفاقياتـه، وأن لديه مكتبًا سياسـيًا كفؤًا تحت تصرفـه (كالكونغرس الثمانيـن)»[19].

وعلـى الرغـم مـن أن هـذا الخطـأ المعرفـي لـم يؤثـر فـي الأحـداث علـى المـدى الطويـل، بعـد أن ثبـت أن سـتالين لا يفـي بوعـوده وبأنـه غيـر جديـر بالثقـة. أمـا علـى المـدى القصيـر فقـد أدى ذلـك الخطـأ إلـى تضليـل ترومـان لأنـه أدى إلـى ثقتـه بالقائـد

(18) Larson, *Origins of Containment: A Psychological Explanation*, p. 132.

(19) المصدر نفسه، ص 197.

السوفياتي أكثر مما يجب، وظل ترومان ينظر إلى ستالين نظرة إيجابية حتى بعد أن أدرك أن ستالين خانه[20].

وهناك أمثلة أكثر شعبية يمكن أخذها من مجال السلوك الانتخابي، وهو مجال سيتم تناوله بتفصيل أكثر في الفصل الثاني عشر، غير أننا لا بد أن نشير هنا إلى أن وجهة نظر ويندي ران (Wendy Rahn) القائلة إن الناس يعتمدون على الأحزاب أو على الولاءات الأيديولوجية كنوع من الطرائق المعرفية المختصرة، وجهة نظر مقبولة لدى الباحثين في مجال الاختيار التصويتي. فقد وجدت ران أنه عندما يتلقى الناس معلومات محددة عن أحد المرشحين في الانتخابات، فإنهم يأخذون تلك المعلومات باعتبارهم ويعطونها وزنًا في تحديد صوتهم. أما عندما يتوافر للناخبين معلومات خاصة عن المرشح إضافة إلى الصورة النمطية للحزب الذي ينتمي إليه، فإنهم:

يفضلون المعالجة المعرفية القائمة على القواعد العملية (heuristic-based processing)؛ فيهملون المعلومات المتعلقة بالممارسات السياسية في تقويمهم [للساسة]؛ ويعتمدون على التسميات مثل [محافظ، ليبرالي] في استنتاجاتهم [إزاء الأشخاص] لا على خصائص السياسات؛ ويكونون أقل حساسية للمعلومات غير المتسقة [مع الأفكار المسبقة] فتظل معالجتهم للمعلومات تعتمد على النظرية التي يحملونها عن الحزب حتى عندما تأتيهم معلومات لا تتسق مع تلك النظرية إلى حد بعيد[21].

دعنا ننظر قليلًا إلى كيفية صنع القرارات حول مرشحين لوظيفة عليا لا نعرف عنهم كثيرًا. وكما رأينا في ما سبق، كثيرًا ما نأخذ الانتماء الحزبي للأشخاص كطريق معرفي مختصر نبني عليه قراراتنا، وخصوصًا عندما لا نعرف الشيء الكثير عن المرشح عدا انتمائه الحزبي. غير أن هذه ليست الوسيلة الاقتصادية العقلية الوحيدة التي يوظفها الناخبون. فكيف يتخذ الناخبون قراراتهم

(20) *Origins of Containment: A Psychological Explanation*, p. 197.

(21) Wendy M. Rahn, «The Role of Partisan Stereotypes in Information Processing about Political Candidates,» *American Journal of Political Science*, vol. 37, no. 2 (2003), p. 492.

من خلال فترة الانتخابات الرئاسية التمهيدية عندما يأتي المرشحون جميعًا من الحزب الواحد؟ ولقد طور صموئيل بوبكن في هذا الإطار نظرية حول جاذبية المرشح في الانتخابات التمهيدية تقوم على أفكار ذات طبيعة سكيماتية [نسبة إلى السكيما][22]. فالناس لا يعرفون كثيرًا في الغالب عمّن يدخلون إلى سباق الرئاسة للظفر بترشيح الحزب لهم للمنصب الرئاسي، حيث يكون معظمهم حكام ولايات لا يعرف الناس عنهم كثيرًا، أو أعضاء مجلس شيوخ لم يسمع بهم أحد. فمن كان يعرف شيئًا عن سجل أوباما في مجلس الشيوخ، أو ما هي مقترحاته السياسية على وجه التحديد قبل الانتخابات التمهيدية عام 2008؟ من كان يعرف سام براونبك أو بل ريتشاردسون؟ في ما عدا المرشحين الكبار، أمثال جون مكين وهيلاري كلينتون، لم يكن أي من المرشحين شخصية عامة معروفة على مستوى الأمة.

كيف نختار إذًا بين عدد من المغمورين؟ يعتقد بوبكن أننا نبني قراراتنا على أساس من بيانات قليلة، واضحة للعيان. نستخدم هذه البيانات لملئ المعلومات أو المعطيات الأساسية عن المرشح (default values) ونستنتج، بناءً على ذلك، مدى تمثيل المرشح لصورة نمطية ما (مثالية أو غير مثالية). وبعبارة أخرى نبحث للمرشح عن سكيما مناسبة نحشره فيها مهما كانت تفتقر إلى الدقة من بين السكيمات المخزونة في أذهاننا. وعلى غرار سكيما الكلب، المشار إليه سابقًا، نستخدم القليل المعلوم لملئ غير المعلوم، حتى نصل إلى استنتاج أو تقويم عام للشخص. وبحسب تعبير بوبكن، فإن:

> الناخبين يقررون نوع الحاكم الذي كان عليه جيمي كارتر [أي كحاكم ولاية]، وما نوع الرئيس الذي سيكونه، ليس بناء على ما يُعرف عن أدائه كحاكم لجورجيا، وإنما بناء على تقويمهم لجيمي كارتر كشخص، واحتمال أن يكون بهذه الصفات حاكمًا جيدًا[23].

ولا يستعير بوبكن من نظرية السكيما فحسب، وإنما يستعير أيضًا من نظرية العزو، حيث إنه يرى أن وضع المرشحين في صورة نمطية أو أخرى

---

(22) Popkin, «Decision Making in Presidential Primaries».

(23) المصدر نفسه، ص 365.

يتضمـن حكمًـا حـول التمثيليـة (representativeness) [أي مـدى تمثيلـه للفئـة موضـوع الصـورة النمطيـة]. [وكمـا نحمـل صـورًا أو سـكيمات عـن النـاس نحمـل صـورًا أو سـكيمات عـن الأحـداث وتسلسـلها، وهـي سـيناريوهات أو نصـوص (scripts)]. ويمكـن النظـر إلـى السـيناريوهات كسـكيمات أحـداث (event schemas)، وهـو نـوع خـاص مـن السـكيما يتضمـن التسلسـل الافتراضـي لنـوع معيـن مـن الأحـداث، مثـل صعـود درج السـلّم، الذهـاب إلـى السـينما أو إلـى مطعـم. كيـف يصعـد الإنسـان سـلّمًا لـم يـره مـن قبـل، حتـى تلـك الصيغـة اللولبيـة الفريـدة منـه؟ قـد يبـدو هـذا السـؤال سـخيفًا، لكـن السـبب الـذي يجعلـه سـخيفًا هـو أننـا نحمـل فـي رؤوسـنا جميعًـا سـيناريو أو سـكيما تتعلـق بكيفيـة صعـود الـدرج أو السـلّم تدلنـا كيـف نقتـرب مـن بيـت الـدرج، وكيـف نبـدأ بوضـع رجـل واحـدة علـى الدرجـة الأولـى، ونتبـع ذلـك بوضـع الرجـل الأخـرى علـى الدرجـة الأعلـى، وهكـذا. وبالمثـل، فإننـا لا نواجـه أي مشـكلة فـي مشـاهدة فيلـم فـي السـينما لـم يسـبق أن دخلناهـا؛ إذ إننـا نسـتخدم المعطيات/المعلومـات الأساسـية (default values) المخزونـة لدينـا فـي توجيـه سـلوكنا. وإذا مـا أخبرتـك أننـي ذهبـت بالأمـس لمشـاهدة فيلـم، تسـتطيع الرجـوع بسـهولة إلـى تلـك المعلومـات الأوليـة المحفوظـة فـي عقلـك، والمتصلـة بمثـل هـذه الزيـارات لتقـدِّر كيـف أمضيـت مسـائي علـى الأرجـح. فـلا بـد أننـي اشـتريت تذكـرة أولًا، ثـم أعطيـت تذكرتـي للموظـف المسـؤول عـن تنظيـم الجلـوس، وكمعظـم النـاس، ربمـا اشـتريت الكـولا والبوشـار، وجلسـت فـي السـينما، وشـاهدت الفيلـم حتـى النهايـة. وعندمـا انتهـى الفيلـم، غـادرت السـينما وفعلـت شـيئًا آخـر.

غيـر أن السـيناريوهات قـد تضللنـا أيضًـا كسـابقاتها. افـرض مثـلًا أننـي ذهبـت إلـى السـينما بالأمـس، وقـررت أن أدخـل إلـى السـينما مـن دون تذكـرة، لأن الجامعـة التـي أدرِّس بهـا فـي فلوريـدا بخيلـة فـي مـا تدفعـه مـن مرتَّبـات، فغافلـت الموظفـة ودخلـت. ولأنـي أتبـع حميـة لإنقـاص الـوزن، قاومـت محاولتهـم بيعـي الكـولا والبوشـار. ثـم وجـدت الفيلـم مملًا فاسـتغرقت فـي النـوم، وأيقظتنـي السـيدة التـي تجلـس خلفـي بغضـب لشـدة مـا أزعجهـا شـخيري، فخرجـت متعثـرًا إلـى ضـوء النهـار فـي الخـارج، نادمًـا علـى مـا أضعـت مـن وقـت فـي مشـاهدة ذلـك الفيلـم (علـى

الرغم من أنني لم أكلّف نفسي عناء دفع ثمن التذكرة). ففي هذه الحالة تؤدي «المعلومات الأولية» [أو السيناريو النمطي للحدث] إلى تضليلك، والسبب يعود مرة أخرى إلى البخل المعرفي. إذ إننا نقيم افتراضاتنا على أساس من السلوك النمطي المعتاد والذي قد يكون مضللاً تمامًا أو غير صحيح.

وتُستخدم السيناريوهات التاريخية على نطاق واسع في مجال السياسة الدولية. ويروي لنا سيناريو «ميونيخ»، على سبيل المثال، ما يحدث عندما يجري استرضاء طاغية ذي نزعة توسعية، ما يوحي أنك إذا لم تواجه الخطر مبكرًا، فإنك ستضطر إلى مواجهته لاحقًا لا محالة. فلقد تركت الحرب العالمية الأولى آثارًا مدمرة في أوروبا، ورغب رئيس الوزراء البريطاني نيفيل شمبرلين (Neville Chamberlain) (وغيره من القادة الأوروبيين) تجنب حرب جديدة أو ربما دمارًا أكبر، وهذا أمر مفهوم. وفي عام 1938جرى عقد مؤتمر سلام في ميونيخ، قبِل فيه هتلر كظم طموحه العدواني مقابل جزء من تشيكوسلوفاكيا في ذلك الوقت. واشتهر عن شمبرلين خروجه من المؤتمر ملوّحًا بالوثيقة التي تم الاتفاق عليها واعدًا: «سيحل السلام في زماننا». وقد ثبت أن تلك السياسة فشلت فشلًا ذريعًا، وأصبحت كلمة «استرضاء» كلمة قذرة في مجال العلاقات الدولية، وهدمت المهنة السياسية لمؤيديها (مثل السفير جوزيف كينيدي (Joseph Kennedy) في الولايات المتحدة). فقد خرج هتلر عن نصوص اتفاقية ميونيخ في السنة التالية، وغزا بلدًا أوروبيًا إثر الآخر، وقاد الولايات المتحدة في نهاية المطاف للتدخل نيابة عن حلفائها المحاصرين، المنهارين ماليًا. وقد جرى استدعاء هذا السيناريو والإشارة إليه في كثير من المناسبات أثناء الحرب الباردة، وبعد احتلال صدام حسين للكويت عام 1990؛ حيث كان جورج بوش الأب يؤكد أن عدم التصدي لصدام حسين مبكرًا - أي إذا جرى استرضائه - فإن الشرق الأوسط برمته سيكون عرضة لأطماعه التوسعية.

قياس التمثيل/المُماثَلة

وهو طريقة أخرى من الطرائق التي يسلكها العقل عند التفكير في التاريخ والسيناريوهات. فعندما نستخدم القياس، نقارن موقفًا جديدًا بشيء مشابه

واجهناه في الماضي (والأصح أن نقول، يبدو مشابهًا). وكثيرًا ما نستخدم التشبيهات التاريخية عندما نناقش الشؤون الدولية والسياسة الخارجية؛ وبحسب تعبير ألكسندر هييغ (Alexander Haig) وزير الخارجية الأميركي الأسبق، «السياسة الخارجية تجتذب التشبيهات كما يجتذب العسل النحل»[24]. ولقد بدا الجدل الذي دار حول السياسة الخارجية الأميركية منذ السبعينيات كأنه حرب بين تشبيهين تاريخيين: ميونيخ/الحرب العالمية الثانية، وفيتنام. الأول قائم على الرفض العام لسياسة استرضاء أدولف هتلر التي انتهت بالفشل - ما يؤكد الحاجة إلى مواجهة العدو مبكرًا وبأقصى قوة عسكرية متاحة؛ أما الثاني - فقائم على تجربة أميركا في فيتنام وعجزها عن هزيمة فيتنام الشمالية الشيوعية على الرغم من التفوق العسكري الصارخ للولايات المتحدة، والذي يذكِّر بمخاطر اللجوء إلى الخيار الأول. ولا تزال بعض التعبيرات القادمة من تلك الحقبة في السياسة الخارجية الأميركية قيد الاستخدام من قبيل السقوط في المستنقعات (bogged down) وأكياس الجثث (body bags) واستراتيجية الخروج (exit-strategy)، والتي توحي بالمخاطر الشديدة للجوء إلى القوة العسكرية، من دون تخطيط دقيق لأهداف استخدام القوة، ومعرفة طبيعة العدو الذي نواجهه.

ويتوافر في مجاليْ علم النفس المعرفي وعلم النفس الاجتماعي الآن قاعدة من البحوث في موضوع التفكير في استخدام القياس تتضمن عددًا من الاكتشافات الهامة عن القدرة على حل المشكلات تجدر الإشارة إليها. ومن أبرز هذه الاكتشافات أن القياس مكنزم معرفي يُستخدم في شروط تتسم بعدم اليقين أو الغموض، كأن يواجه الفرد ظروفًا جديدة أو غير مألوفة، أو يواجه موقفًا ضاغطًا شديدًا. ويلاحظ إيزنك وكين (Eysenck and Keane) أن البحوث النفسية الراهنة في حل المشكلات تبحث في كيفية تعامل الناس مع المواقف المألوفة، الروتينية والمتكررة، «لكن البشر يستطيعون حل المشكلات الجديدة

(24) على وجه الخصوص، انظر: Ernest R. May, *Lessons of the Past* (New York: Oxford University Press, 1973); Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976), pp. 217-287, and Richard E. Neustadt and Ernest May, *Thinking in Time: The Uses of History for Decision Makers* (New York: Freedom Press, 1986).

وغير المألوفة ويستطيعون أحيانًا الخروج بحلول خلاقة عندما لا تتوافر لهم معرفة قابلة للتطبيق المباشر على الموقف المشكل»[25]. ويتسنى لنا ذلك - أي الخروج بحلول خلاقة - من طريق البحث في خبراتنا السابقة عما يشبه، أو يبدو لنا شبيهًا بالمهمة التي بين أيدينا.

والاكتشاف المهم الثاني - الذي يتصل أساسًا بالعملية التي يأخذ قياس التمثيل مجراه من خلالها - هو أن القياس يتضمن ما يشير إليه العديد من الباحثين بعملية ترسيم (mapping). ويفيد إيزنك وكين أن «العديد من المنظرين ينظرون إلى قياس التمثيل على أنه نتاج لعمليات رسم للبنية المفهومية لمنظومة من الأفكار (تدعى الحقل القاعدي (base domain) على منظومة أخرى من الأفكار (تدعى الحقل المستهدف (target domain)»[26]. ولقد كان مبتكرو نظرية الترسيم هذه هم ديدري غنتنر (Dedre Gentner)، وبول ثغارد (Paul Thagard)، وماري جيك (Mary Gick)، وكيث هوليوك (Keith Holyoak). وترى جيك وهوليوك أن قياس التمثيل، «يقوم على نقل المعرفة من موقف إلى موقف آخر من خلال عملية ترسيم تستهدف التناظر (الذي يكون غير تام في كثير من الأحيان) بين عناصر جسم من المعلومات وعناصر جسم آخر»[27]. وفي عملية المماثلة هذه يتم اكتشاف «التماثل» بين حدث أو موقف أو موضوع وبين حدث أو موقف أو موضوع آخر».

أما النقطة الثالثة ذات الصلة التي تجدر ملاحظتها فهي أن قياس التمثيل عملية بنيوية (a structural process) فقد وجد ديدري غنتنر (Dedre Gentner) أن المماثلة (an analogy) ليست مجرد تعبير عن أن شيئًا يشبه شيئًا آخر؛ وإنما هي مقارنة يفترض فيها المرء أن التشابهات المدركة «بنيوية» (أو ذات أهمية سببية) وليست «سطحية»[28] وفي التطبيق العملي، طبعًا، كثيرًا ما يُجري الأفراد

---

(25) Michael W. Eysenck and Mark Keane, *Cognitive Psychology: A Student's Handbook* (Hove-London: Lawrence Erlbaum, 1990), p. 399.

(26) المصدر نفسه، ص 401.

(27) Mary L. Gick and Keith. J. Holyoak, «Schema Induction and Analogical Transfer,» *Cognitive Psychology*, vol. 15, no. 1 (January 1983), p. 2.

(28) Dedre Gentner, «Structure Mapping: A Theoretical Framework for Analogy,» *Cognitive Science*, vol. 7, no. 2 (April 1983), pp. 155-170.

قياسًا بين أشياء أو أحداث يظهر بينها تشابه سطحي فحسب. ويستطيع علماء النفس في العادة تصميم تجارب يسهل فيها إيجاد الفروق، لكن ذلك نادرًا ما يتحقق في عالم السياسة الخارجية، وصناعة قراراتها. وقد تعود رؤية ليندون جونسون ودين راسك وجود تماثل بين فيتنام وكوريا، أثناء جدال عام 1965 في مسألة التصعيد في فيتنام، ربما تعود إلى أن البلدين يقع في آسيا[29]. ففي مجال صنع السياسات يسهل الخلط عادة بين التشابهات السطحية والتشابهات البنيوية. ويجب وضع خرائط للعلاقات السببية أو العلاقات ذات المستوى الأرفع بين القاعدة (أي الموقف الماضي الذي تشير إليه المماثلة) والموقف المستهدف (أي الموقف الجديد الذي يُواجَه في الحاضر) لكي تكون المماثلة نافعةً لأغراض التنبؤ، وهو أمر يسير في صناعة القرار السياسي. غير أن الاعتماد على التشابه السطحي يقود إلى أخطاء وتحيزات بطبيعة الحال، ليس أقلها أن قياس التمثيل يتضمن في العادة الوصول إلى استنتاجات من حالة مفردة - وهي ممارسة معرضة للخطأ - كما يعلم أي طالب جيد في مناهج البحث.

وقد كان روبرت جيرفيز أول عالم نفس سياسي يمعن النظر في فوائد المماثلة، حيث كرّس فصلًا من كتابه **العلاقات الدولية بين الإدراك وسوء الإدراك** (*Perception and Misperception in International Politics*) للنظر في كيفية استخدام صنّاع القرارات للتاريخ، وقامت جميع البحوث الحديثة في مجال قياس التمثيل تقريبًا بوحي منه[30]. ويؤكد تحليل جيرفيز جذور قياس التمثيل في الخبرات الماضية لصناع القرارات، مبينًا كيف أن هذا القياس قد يقود إلى تحريف في إدراك صانع القرار لخصائص المواقف التي يواجهها، أو يقود إلى خيارات سياسية لا تتناسب وطبيعة المهمة التي يتعامل معها، أو كلا الأمرين. وحاول

---

(29) Yuen Foong Khong, *Analogies At War: Korea, Munich, Dien Bien Phu and the Vietnam Decisions of 1965* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992).

(30) المصدر نفسه؛ Alex Hybel, *How Leaders Reason: US. Intervention in the Caribbean Basin and Latin America* (Cambridge, MA: Basil Blackwell, 1990); David Patrick Houghton: «The Role of Analogical Reasoning in Novel Foreign-Policy Situations,» *British Journal of Political Science*, vol. 26, no. 4 (1996), pp. 523-552; *US. Foreign Policy and the Iran Hostage Crisis* (New York: Cambridge University Press, 2001), and Christopher Hemmer, *Which Lessons Matter?: American Foreign Policy Decision Making in the Middle East, 1979-1987* (Albany, NY: State University of New York Press, 2000).

أنصار المقاربة المعرفية في صنع القرارات في بحوثهم اللاحقة تطبيق ملاحظات جيرفيز على حالات متنوعة، مأخوذة من الولايات المتحدة جميعها تقريبًا.

ولا شك في أن كتاب يون فونغ كونغ (Yuen Foong Khong) **حرب المماثلات** (*Analogies at War*) يفوق جميع ما ظهر من كتب في هذا المجال في قوة تحليله لدور المماثلة في السياسة الخارجية. وقد فحص كونغ في كتابه قرارات إدارة جونسون لتصعيد التدخل الأميركي في حرب فيتنام عام 1965، ووجد أن المماثلة أدت دورًا بارزًا في عمليات تفكير أولئك المعارضين للتصعيد والداعمين له على حد سواء. وعلى سبيل المثال، أكد نائب وزير الخارجية جورج بول أن زيادة التدخل الأميركي هناك قد تقود قريبًا إلى «ديان بيان فو جديدة» (Dien Bien Phu)، تتكرر فيها التجربة الفرنسية الكارثية في الهند الصينية حيث فشل الفرنسيون في هزيمة المتمردين الشيوعيين، والقوميين في حرب عصابات، واضطروا إلى التخلي عن مستعمرتهم السابقة. أما الرئيس جونسون، إلى جانب العديد من مستشاريه، مثل دين راسك، فقد كان القياس على كوريا هو خيارهم.

ويؤكد كونغ أن جونسون «استقى العديد من الدروس بكل تأكيد من عدد من الحقب الماضية»، ويضيف كونغ:

> «ولكن كوريا سيطرت على تفكيره [...] ومهما يكن السبب وراء انجذاب جونسون إلى السابقة الكورية، فإن الدرس الذي استخلصه منها هو أن الولايات المتحدة أخطأت بانسحابها من كوريا عام 1949؛ إذ إن الانسحاب قوّى شكيمة الشيوعيين، ما اضطر الولايات المتحدة إلى العودة إلى كوريا بعد سنة لإنقاذ الجنوب. ولم يكن جونسون مستعدًا لتكرار الخطأ ذاته في فيتنام»[31].

بينما استخلص آخرون، مثل مكجورج بندي (MCGeorge Bundy) وهنري كابوت لودج (Henry Cabot Lodge) دروسًا من تجربة ميونيخ؛ الحرب العالمية الثانية في التنبؤ بالسيناريوهات الممكنة إذا لم تتدخل الولايات المتحدة[32].

---

(31) Khong, Ibid., pp. 110-111.

(32) المصدر نفسه، ص 134.

ويؤكد كونغ أننا نستطيع النظر إلى المماثلات كوسائل تشخيص تساعد صنّاع السياسة في أدائهم ست وظائف: وهي: «(1) مساعدة صانع السياسة في تحديد طبيعة الموقف الذي يواجهة، (2) مساعدته على تقدير المخاطر، (3) تزويد صانع السياسة وصفات علاجية. كما أن المماثلات تعين في تقويم البُدَلاء الأخر من خلال، (4) التنبؤ بفرص النجاح، (5) تقويم الصلاحية الأخلاقية للبُدَلاء، و(6) التحذير بشأن المخاطر المرتبطة بتلك البُدَلاء»[33]. وقد طور كونغ ما يدعوه إطار تفسير المماثلة (Analogical Explanation Framework)، وهو تعبير مختزل للاعتقاد بأن المماثلات وسائل معرفية أصيلة تؤدي المهمات المبينة أعلاه. والغرض الرئيسي لكتاب كونغ هو الوقوف ضد وجهة النظر القائلة إن المماثلات تستخدم «لدعم تعصبات الشخص» أو لتبرير قرارات تم اتخاذها بناء على أساس منطقي آخر، ووجد كونغ أن جماعة جونسون اعتمدت مماثلات تقوم على أحداث قريبة من مثل أزمة الصواريخ، أزمة برلين، كوريا، بيرل هاربر، وميونيخ. كما بيّن كونغ، بيانًا مقنعًا، أن مستشاري جونسون في انتقائهم للمشابه التاريخي الذي يفسر ما يجري في فيتنام [في حينه] انتقوا مثالًا تاريخيًا بناء على تشابهات سطحية مع الحالة موضوع الاهتمام[34].

وفي المجال ذاته، يرى بعضهم أن كثيرًا من وجوه أزمة الرهائن الإيرانية عام 1979-1981 - وخصوصًا تلك القرارات التي اتخذها الراديكاليون الإيرانيون والمسؤولون في إدارة كارتر - يمكن تفسيرها اعتمادًا على قياس التمثيل[35]. ففي تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1979 تسلق طلبة إيرانيون راديكاليون جدران السفارة الأميركية في طهران وأخذوا مبدئيًا ستة وستين أميركيًا أسرى. وعندما رفض الرئيس الإيراني في ذلك الوقت، آية الله الخميني، إعادة الرهائن إلى أميركا، أدى ذلك إلى إشعال أزمة امتدت على مدى 444 يومًا، وساهمت في تقويض رئاسة كارتر. وكانت الاستخبارات الأميركية والبريطانية قد عملت في الخمسينيات على إسقاط الزعيم الإيراني

(33) Khong, Ibid., p. 10.

(34) المصدر نفسه، ص 217-218.

(35) Houghton, *US. Foreign Policy and the Iran Hostage Crisis.*

المنتخب، محمد مصدق، ويبدو أن محتجزي الرهائن ظنوا أن الـ سي آي إي كانت على وشك إطاحة آية الله بطريقة مماثلة. حاول كارتر في البداية إطلاق الرهائن بوسائل دبلوماسية، وأيده في ذلك سايروس فانس (Cyrus Vance)، وزير الخارجية، بناءً على خبرته في أزمة رهائن بويبلو (Pueblo) عام 1968 - والتي فجر فيها الكوريون الشماليون أزمة مماثلة وجرى فيها التوصل إلى حل من طريق المفاوضات - واعتقد فانس أن استراتيجية من هذا النوع قد تنجح إذا تحلّى كارتر بدرجة كافية من الصبر. وأما الآخرون، ومن أبرزهم مستشار الأمن القومي زبيغنيو بريجنسكي (Zbigniew Brzezinski)، فكانوا غير مستعدين للانتظار. وبنى بريجنسكي موقفه هذا، بوجه خاص، على نموذج حملة عنتيبي التي شنتها قوة عسكرية إسرائيلية عام 1976 لغرض مماثل ونجحت فيها نجاحًا كبيرًا[36]. وفي مطلع عام 1980 أمر الرئيس بالشروع في عملية لإنقاذ الرهائن في طهران، وباءت العملية بفشل ذريع. غير أن الصورة الذهنية لـ «عنتيبي أخرى» تفك أسر الرهائن بنجاح هي التي دفعت إلى هذه الحملة، ولم يستطع كارتر وزملاءه مقاومتها. كانت هناك فروق عديدة بين الموقفين، ما جعل عملية طهران أصعب بكثير من ناحية عسكرية، لكن المماثلة يمكن أن تُغري وتُضلل صنّاع القرارات لإهمال مثل تلك الفروق، أو الاستخفاف بها.

غير أنه يجدر بنا أن نكرر، أن صنّاع القرار لا يعتمدون على قياس التمثيل كشكل وحيد من أشكال التفكير في السياسة الخارجية، وإنما هم يعتمدون التفكير القائم على القواعد العامة أو المجردة كذلك (أي التفكير القائم على السكيما). وعلى الرغم من شيوع قياس التمثيل في صنع قرارات السياسة الخارجية، إلا أنه قد لا يكون شائعًا كعمليات معرفية أخرى. وينوّه ماريجك برواننغ (Marijke Breuning)، على سبيل المثال، إلى ضرورة الانتباه إلى مثل هذه العمليات، أي إلى أشكال أخرى من التفكير غير قياس التمثيل، فيقول:

---

(36) ذاعت شهرة هجوم عنتيبي في السبعينيات، وجرى تصويرها في أفلام سينيمائية مرات عدّة، آخرها فيلم «آخر ملوك اسكتلاندا».

يقتضي التفكير المجرد تطبيق قواعد عامة أو مبادئ. فعوضًا عن الاقتصار على مقارنة حالتين أو أكثر، فإن حل المشكلة يتطلب فحصها لتحديد ما إذا كان لها خصائص بنيوية معينة، تجعلها تنتمي إلى صنف معين من المشكلات. وعليه، فإن هذا التفكير يكون له نكهة استدلالية أكثر مما هو قياس تمثيل (أو تفكير قائم على حالة واحدة). إن أحد أشكال التفكير المجرد هو التفكير المبني على التفسير، وبيان الأسباب بعبارات شرطية من مثل «إذا... فإنه...»[37].

ولدى فحص مناقشات مجلس الشيوخ حول المساعدات الخارجية عام 1950، وجد بروننغ أن التفكير المجرد كان أكثر شيوعًا بين الشيوخ من قياس التمثيل. وهذا يتوافق مع استنتاج دونالد سيلفان (Donald Sylvan) وزملاءه أن «التفكير في مجال السياسة الخارجية يتجه إلى الاعتماد على التفسير، إلى حد ما»[38].

خاتمة: مفاهيم متكاملة

كيف ترتبط مفاهيم العزو، والسكيمات، والنصوص/السيناريوهات وقياس التمثيل ببعضها؟ يعتمد الجواب عن هذا السؤال على الشخص المجيب. وإذا كنا ننتظر إجابة من علم المعرفة فهذا العلم لا يزال في مرحلة المهد، وليس هناك إجماع حتى الآن على المفاهيم والتسميات الواجب اعتمادها فيه. وقد طغى اهتمام بعض علماء المعرفة بقياس التمثيل على اهتمامهم بأي تنظيمات ذهنية أخرى. غير أن معظم علماء نفس السياسة - بمن فيهم مؤلف هذا الكتاب - ميالون إلى الانتقائية في هذا الموضوع، ويرون أن هذه المفاهيم مترابطة إلى حد كبير - وربما أنها تشير إلى العمليات المعرفية ذاتها. فربما لا يكون هناك فرق كبير في أن تصف العملية الذهنية التي وصل الرئيس إلى قرار بناء عليها،

(37) Marijke Breuning, «The Role of Analogies and Abstract Reasoning in Decision-Making,» *International Studies Quarterly*, vol. 47, no. 2 (June 2003), pp. 229-245.

(38) Donald A. Sylvan, Thomas M. Ostrom and Katherine Gannon, «Case-Based, Model-Based, and Explanation-Based Styles of Reasoning in Foreign Policy,» *International Studies Quarterly*, vol. 38, nos. 61-90 (1994), p. 88.

فتقـول: «بنـى الرئيـس قـراره علـى سـيناريو تاريخـي» أو «بنـى الرئيـس قـراره على سـكيما حـدث»، أو «بنـى الرئيـس قـراره على قيـاس تمثيـل»، لأن ما يهمنا فـي الواقع هـو العملية المعرفيـة التـي تـم الوصـول إلـى القـرار بنـاء عليهـا، وقـد تشـير جميـع التسـميات التـي أطلقناهـا إلـى الشـيء ذاته.

وقـد يكـون قيـاس التمثيـل مرتبـط ارتباطًـا وثيقًـا بالسـكيمات بطريقتيـن فـي الأقـل: **أولًا**، وقبـل كل شـيء، يتضمـن اسـتخدام السـكيما مكنزمـات «المناظـرة أو المماثلـة» (matching) ذاتهـا التـي تدخـل فـي قيـاس التمثيـل؛ فعندمـا تسـتدعي سـكيما الكلـب مثـلًا، فإنـك تقـوم بمناظـرة (الأوصـاف) المعطـاة حـول الفـراء، والذيـل، والنزهـات، ومـا إلـى ذلـك، مـع الصنـف العـام للكلبيـات (وهـذا يتضمـن اسـتخدام قاعـدة التمثيليـة (representativeness heuristic) لأن المثـال طلـب منـك تقويـم مـدى تمثيـل «الشـيء» غيـر المسـمى لأصنـاف أو مفاهيـم مختلفـة). **ثانيًـا**، يبـدو أن قيـاس التمثيـل يـؤدي دورًا رئيسًـا فـي تكـوّن السـكيما، إذ إنـه قـد يسـاعد علـى إنشـاء القواعـد العامـة لحـل صنـف خـاص مـن المشـكلات. ويـرى العديـد مـن علمـاء النفـس، وعلمـاء المعرفـة أن قيـاس التمثيـل يرتبـط بالمعالجـة السـكيماتية بهـذا المعنـى. ويفتـرض جيـك وهوليـوك، علـى سـبيل المثـال، أنـه عندمـا يحـل فـرد مشـكلة بنجـاح وبالطريقـة ذاتهـا مـرة أو مرتيـن أو فـي مناسـبات متعـددة، فإنـه سيُنشـئ فـي النهايـة «سـكيما مشـكلة»، أي منظومـة مـن المبـادئ المجـردة للتعامـل مـع هـذا النـوع مـن المشـكلات التـي يتـم اشـتقاقها مـن حـالات متماثلـة معينـة، ولكنهـا تكتسـب فـي مـا بعـد هويـة مسـتقلة خاصـة بهـا[39]. وبهـذه الطريقـة قـد تتكـوّن قواعـد عامـة يتـم اشـتقاقها مـن أي حالـة بعينهـا - وإن كانـت تتجاوزهـا فـي الوقـت ذاتـه - وتتكـوّن بنـاءً عليهـا اعتقـادات مجـردة تمدهـا التشـابهات بالأمثلـة، وتوفـر لهـا الدعـم الملمـوس. فعبـارة «العـدوان يجـب أن يُلجـم مبكـرًا» تمثـل قاعـدة سـكيماتية منفصلـة عـن أي حالـة بعينهـا، ولكـن عبـارة «صـدام حسـين هتلـر آخـر» هـي مماثلـة أو مقارنـة بيـن حالتيـن محددتيـن. وعلـى الرغـم مـن ذلـك، فـإن هاتيـن الحالتيـن مرتبطتـان بوضـوح. والسـكيما العامـة

(39) Gick and Holyoak, «Schema Induction and Analogical Transfer,» p. 32.

الخاصـة بالعـدوان قـد تتألـف مـن حـالات فرديـة متنوعـة أو مماثـلات تتضمـن هتلـر، وموسـوليني، وصـدام حسـين، وغيرهـم.

ولا يتعامـل معظم علماء النفس السياسـي مع نظرية العـزو وقياس التمثيل كنظريتين متعارضتيـن. كمـا أن العديـد مـن الباحثيـن فـي ميـدان تحليـل السياسـة الخارجيـة، علـى سـبيل المثـال، يمزجـون ويناظـرون بيـن مفاهيـم يسـتخرجونها مـن نظريـة العـزو، ونظرية السـكيما، وقيـاس التمثيـل، كمـا يفعـل الباحثـون فـي مجـال الاختيـار الانتخابـي. ويعتقـد كونـغ، على سـبيل المثـال، أن قاعدة الحضورية (أو سـهولة اسـتحضار الشـيء إلـى الذهن) (availability heuristic) تفسـر اسـتخدام جـورج بـول (George Ball) نمـوذج ديـان بيـان فـو كقياس؛ حيـث إنـه كان قـد عمـل محاميًـا لدى الفرنسـيين فـي خلال السـنوات العشـر الأخيـرة من الحكـم الكولنياليـ الفرنسـي للهنـد الصينيـة، فكانـت تجربـة ديان بيـان فو تجربة شـخصية بالنسـبة إليـه، بطريقـة مـا، خلافًـا لمعظـم مستشـاري الرئيـس جونسـون الآخريـن. ويعتقد كونـغ أن قاعـدة التمثيليـة أثـرت فـي تفكير لينـدون جونسـون في هذا الشـأن نظـرًا لتأثره بالتشـابه السـطحي بيـن كوريـا وفيتنـام. وبالمثـل، بـدت أحـداث 1979 لمعظـم الإيرانييـن ممثلـة لمـا جـرى عـام 1953، وكان مثـال بويبلـو حاضـرًا فـي ذهـن سـايروس فانـس لأنـه عمـل وسـيطًا أثنـاء الأزمـة. وكانـت عنتيبـي حاضـرة فـي ذهـن بريجنسـكي بشـكل خـاص، لأنـه صـادف أن كان فـي إسـرائيل عندما جـرى التخطيـط للعمليـة، وناقش مع المسـؤولين الإسـرائيليين فكـرة القيـام بعمليـة إنقـاذ [لتحريـر رهائـن إسـرائيليين فـي غينيـا] فـي ذلك الوقـت. وباختصـار، يمكننـا القول إن نظريـة العزو، ونظرية السـكيما، وقيـاس التمثيل مناحٍ أقـرب إلـى التكامـل مما هـي إلـى التنافس.

إلا أن هنــاك فرقًــا هامًــا بيــن العــزو ونظريــة الســكيما تجــدر الإشــارة إليــه، وفــي إطــار هــذا الكتــاب بوجــه خــاص. فنظريــة الســكيما أساسًــا نظريــة نزوعيــة (dispositionist)، مــن حيــث إن الأفــراد المختلفيــن يحملــون فــي عقولهــم «أحمــالًا ذهنيــة» متباينــة. وهــم يسـتخدمون تشـبيهات مختلفـة اسـتجابة للموقـف الموضوعـي الواحـد بنـاء علـى التجـارب الخاصـة التـي سـبق أن تعرضـوا لهـا. ولذلـك فـإن الأفـراد

يحملـون اتجاهـات متباينـة. وبالمثـل، وكمـا سـنرى عندمـا نتنـاول تفسـير نظرية السـكيما لاسـتخدامنا للصـور النمطيـة العنصريـة، فـإن الأفـراد يتباينـون فـي مقـدار مـا يطـوّرون من تصنيفـات ذهنيـة ومـدى مـا يوظفـون تلـك التصنيفات. أمـا نظريـة العـزو فهـي، بالمقابل، موقفيـة فـي طبيعتهـا، جزئيًـا فـي الأقـل، بمعنى أنهـا تتيح مجـالًا للموقفيـة والنزوعيـة معًا [فـي تفسـير السـلوك]، علـى الرغـم مـن أننـي وضعـت نظرية العـزو ضمـن البـاب الخاص بالنزوعيـة فـي هـذا الكتـاب بهـدف تيسـير عمليـة التحليـل. فـإذا مـا نظرنـا إلـى الخطـأ الأساسـي فـي عمليـة العـزو نجـد أنه يفسـح فـي المجال لإبـراز حقيقـة أن سـلوك الآخرين قـد يكـون محـددًا بعوامـل موقفيـة، وأن سـلوكنا [بوصفنـا فاعليـن] قد يكـون أحيانًـا عائدًا إلـى نزعاتنـا إلـى حـد كبيـر. ولمّـا كنـا سـنعود إلى تنـاول هـذه النقطة فـي الفصـل الأخير مـن الكتـاب، فإننـا سـنؤجل المزيـد من المناقشـة حتـى ذلـك الحين.

10

العاطفة والانفعال

إن أي استعراض لميدان علم نفس السياسة لا يكون كاملًا في أي حال إذا لم يتناول الدور الذي يؤديه الانفعال - أو العاطفة - في هذا المجال. فكثير من ظواهر عالم السياسة يكتنفها الانفعال والمشاعر وليس مجرد المعالجة «الباردة» للمعلومات مما بحثناه في الفصل السابق. وحقيقة الأمر أن جميع المفاهيم السياسية مشحونة بشيء من الانفعال، إما الإيجابي منه أو السلبي، وهو ما يشير إليه العديد من علماء النفس بـ «الأفكار الساخنة»[1] (hot cognitions). فالمثيرات (أو الموضوعات) السياسية كثيرًا ما تستدعي انفعالات قوية، ومشاعر، مثل الإعجاب، النفور، السعادة، الحزن، الغضب، الشعور بالذنب، والشكر، والتقزّز، الانتقام، الفرح، عدم الأمان، الخوف، القلق، وغيرها.

ونحن لا ننظر إلى السياسة بحيادية، على غرار كمبيوتر فائق التطور ومجهز بالذكاء الصنّاعي؛ فلا شك في أن قلة من الناس فقط هم من يستطيعون النظر إلى صورة لجورج دبليو بوش أو هيلاري كلينتون، على سبيل المثال، أو النظر إلى صورة الطائرة وهي تصدم مركز التجارة العالمي في الحادي عشر من

(1) أدخل روبرت أيبلسون (Robert Abelson) هذا التعبير إلى أدب علم نفس العاطفة في أوائل الستينيات وأصبح مألوفًا في هذا المجال. انظر: Robert Abelson, «Computer Simulation of 'Hot Cognitions,» in: Silvian Tomkins and Samuel Messick, eds., *Computer Simulation of Personality: Frontier of Psychological Theory* (New York: Wiley Press, 1963).

أيلول/سبتمبر عام 2001، من دون أن يشعروا بشيء ما. وقلة من الأميركيين من يستطيعون النظر إلى صورة لأسامة بن لادن من دون أن يشعروا بالغضب، أو النفور، أو أي انفعال سلبي آخر. وبالمثل، فإن كثيرًا من الإسلاميين المتطرفين في الشرق الأوسط ينظرون إلى الصورة ذاتها وهم يشعرون بالفخر، والإعجاب، وغير ذلك من المشاعر الإيجابية. ولا تقتصر هذه الظاهرة على السياسة، طبعًا؛ إذ يُبدي عالم النفس روبرت زيونك (Robert Zajonc) ملاحظة على دور الانفعال في لقاءاتنا الأولى بالآخرين يقول فيها:

> لا يمكن لأحد منا أن يُقدَّم لشخص للمرة الأولى من دون أن ينتابه شعور مباشر إما بالإعجاب أو النفور ومن دون أن يُقدِّر هو ذاته ما انتاب الشخص الآخر من هذه المشاعر. فنحن يُقَوِّم بعضنا سلوك بعض على الدوام؛ يُقَوِّم سلوك بعضنا بعضًا، كما نقوِّم دوافع السلوك وتبعاته.

علاوة على ذلك، وبغض النظر عن المواقف الاجتماعية، «ربما أن القليل جدًا من المفاهيم والأفكار المتصلة بالحياة اليومية لا ينطوي على جانب عاطفي مهم يتسم بالحرارة أو الفتور في أقل تقدير»[2].

ويميل معظم المنتمين إلى المقاربات المعرفية للنظر إلى عمليات معالجة المعلومات كعمليات عقلية خالصة. إلا أن هذا لا ينطبق على نظرية التناسق المعرفي التي وضعها ليون فستنغر (Leon Festinger)، [والتي يبرز فيها دور الانفعال وإن كان ضمنيًا]، حيث يرى فيها أن الضيق النفسي الذي يشعر به الفرد (والناجم عن التنافر) يدفع الناس إلى تعديل اتجاهاتهم، وهو ما يصدق أيضًا على معظم تطبيقات نظرية السكيما. ويزعم كونغ (Khong) أن «نظريات معالجة المعلومات التي ظهرت في السبعينيات والثمانينيات - بما فيها نظرية السكيما - نأت بنفسها، عن وعي، بعيدًا من الأفكار «الحارة»، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن «رؤية علم النفس المعرفي للعقل بُنيت على غرار الكمبيوتر»[3]. وظل موضوع الانفعالات مهملًا في

(2) Robert Zajone, «Feeling and Thinking: Preferences Need No Inferences,» *American Psychologist*, vol. 35, no. 2 (February 1980), pp. 153.

(3) المصدر نفسه، ص 225.

مجال السياسة لسنوات عدة بعد أن اكتسبت مفاهيم معرفية، مثل السكيما، رواجًا في هذا المجال. كذلك فإن ردلوسك (Redlawsk)، يشير إلى أن نظريات القرار العقلاني - المتصلة بمقاربة «الإنسان الاقتصادي» - أحلّت الانفعال حيزًا ضيقًا على الدوام، فضلًا عن أن مناصري النظريات المعرفية التي جرى بحثها في الفصل التاسع قللوا هم أيضًا من قدر هذه القوة تقليديًا، ويفسر ردلوسك ذلك بقوله:

> لأن قياس الاستجابة الانفعالية للمثيرات السياسية بدقة أمر صعب جدًا، اتجه علماء نفس السياسة الذين لا ينتمون بالضرورة إلى اتجاه القرار العقلاني، إلى علم النفس المعرفي لفهم الطرائق التي تتم بها معالجة المعلومات السياسية. وقد قادت الثورة المعرفية التي ظهرت في العقود القليلة الماضية، إلى التركيز على الأسس المعرفية للسلوك السياسي. إلا أن قافلة طويلة من البحوث السيكولوجية (...) تثبت أن العقل ليس خلوًا من التحيز؛ وأن الناس يمتلكون دوافع ذهنية، وانفعالية متنوعة تدفعهم إلى رؤية العالم بطرائقهم الخاصة. غير أن إدراك أهمية الانفعالات لم يأخذ طريقه بعيدًا في علم النفس السياسي. وبدلًا من ذلك أخذ المقاربة المعرفية الخاصة بمعالجة المعلومات بالتطور [في علم النفس السياسي] ويقود إلى التعامل مع مصطلحات من مثل «السكيما»، والقواعد العملية الموجهة لعمل العقل (heuristics)، وصنع القرار «العقلاني»، ولكنه لم يتطرق إلى الدوافع والانفعالات[4].

وظل هذا هو واقع الحال حتى عهد قريب، إلا أنه ما عاد كذلك لحسن الحظ، وخصوصًا في مجال السلوك السياسي للجماهير. وظهر فيض من الكتب عن الانفعال والسلوك الانتخابي في الآونة الأخيرة، على سبيل المثال، وكانت أعمال جورج ماركوس (George Marcus) وزملاؤه ذات أهمية خاصة في هذا الصدد[5].

---

(4) David P. Redlawsk, «Feeling Politics: New Research into Emotion and Politics,» in: David Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing* (New York: Palgrave Macmillian, 2006), p. 2.

(5) عدا المجلد الذي حرّره ردلوسك، انظر مثلًا: Russell Neuman [et al.], eds., *The Affect Effect: Dynamics of Emotion in Political Thinking and Behavior* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007); Drew Westen, *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation* (New York: Public Affairs, 2007); Ted Brader, *Campaigning for Hearts and Minds: How Emotional Appeals in Political Ads Work* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2006); George Marcus, *The Sentimental Citizen: Emotion in Democratic Politics* (University Park, PA: The Pennsylvania State University Press, 2002), and George Marcus, Russell Neuman and Michael MacKuen, *Affective Intelligence and Political Judgment* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2000).

إن السياسة شأن يتعلق بـ «المشاعر» كما هي شأن يتعلق بـ «التفكير»[6]. وليتسنَ لنا فهم الانفعالات السياسية فهمًا أفضل، يكون من المفيد أن نصف الأنواع المختلفة الممكنة للمشاعر السياسية، كما لا بد لنا من تمييز المعاني المختلفة لما نطلق عليه بالعامية مصطلح «انفعال»[7]. فهناك اختلاف بين المشاعر المحددة بموضوع ما (object-specific) (بعبارة أخرى، المشاعر الناجمة عن ردة فعل نحو شيء أو شخص معين) والمشاعر العائمة (أي تلك التي لا ترتبط بشيء أو شخص بعينه). ونستطيع أن نسمي هذا الشعور بـ «المزاج». فعلى سبيل المثال، عانى رئيس الوزراء البريطاني السابق ونستون تشرشل الاكتئاب طوال حياته، وكان يشير إلى حالته هذه بـ «الكلب الأسود». ومن الملامح المميزة لمثل هذا المزاج هو أن حامله لا يستطيع في الغالب عزو الشعور القاتم الذي ينتاب الشخص معه إلى أي موضوع أو سبب محدد.[8] وبالمقابل، شهد كل منا على الأرجح حالة الاستيقاظ بمزاج «مشرق»، وهذا المزاج بطبيعته أيضًا ربما لا يكون محددًا بشيء معين. ومن ناحية أخرى، فإن «الاستجابات الانفعالية»، قد تكون عابرة وعائمة مثل هذا النوع من المزاج اللطيف، ولكنها قد تكون ردود فعل استثارها شخص أو حدث معين، ونستطيع بذلك عزوها إلى سبب ما. وعلى سبيل المثال، أطلق رونالد ريغان فكاهة إبان فترة الحرب الباردة - لم تكن مناسبة على ما يبدو - عن عزم الولايات المتحدة قصف الاتحاد السوفياتي بالقنابل، فتباينت ردود الفعل لهذه النكتة من الغضب والانزعاج، إلى الضحك.

---

(6) Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing*, p. 2.

(7) Victor Ottati and Robert Wyer, «Affect and Political Judgment,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology* (Durham, NC: Duke University Press, 1993).

(8) أصبح واضحًا، مع التقدّم في علم الأعصاب، أن الاكتئاب ينتج في الغالب عن نقص في مادة السيروتينين الكيميائية في الدماغ، وهو ما يُعالج غالبًا بواسطة «مانع إعادة امتصاص السيروتينين» مثل البروزاك والعديد من مشابهاته الصيدلانية. وهذه الأدوية لم تكن متوافرة أيام تشرشل.

وتختلـف بعـض الانفعـالات عـن كل من الأمزجـة، والاسـتجابات الانفعاليـة، من حيث إنهـا أطـول عمـرًا. ومـن هـذه الانفعـالات مـا يتمثـل فـي اتجاهـات طويلـة الأمـد نحملهـا إزاء زعيـم سياسـي مـا أو حـزب معين، اتجاهـات ينـدر أن تتبدّل بيـن ليلـة وضحاها. هذه الاتجاهـات تنطـوي علـى «تقويمـات» (evaluations) لموضوعاتهـا [تتبايـن أساسًـا مـن حيـث الإيجابيـة أو السـلبية]؛ إذ نلاحـظ مثـلًا أن جـورج دبليـو بـوش وهيـلاري كلينتون يسـتثيران تقويمـات عاطفيـة قويـة لـدى الناخبيـن الأميركييـن [الـذي يعكـس وجـود اتجاهـات قويـة نحوهمـا]، تمامًـا كمـا يفعل جـون هوارد فـي أسـتراليا وطوني بلير فـي بريطانيـا. وبطبيعة الحـال، يمكننـا تقويـم القـادة السياسـيين مـن خـلال عمليـات معرفيـة «بـاردة» بالكامـل كالسـكيمات، أو بنـاء علـى مدى التوافق بيـن قيم السياسـي المعين وقيمنـا الخاصة. إلا أن هـذا أمـر بعيـد الاحتمال لأن السياسـيين يسـتثيرون على ما يبـدو ردود فعـل انفعالية لدى النـاس (مثـل «الإعجـاب» الشـديد أو «النفـور» الشـديد، أو مجـرد الحيادية).

هل الانفعالات «غير عقلانية»؟

يجـري النظـر إلـى الانفعـالات منـذ أمـد طويـل علـى أنهـا شـيء باطنـي، شـيء يأتي مـن الأحشـاء وليـس من العقـل. ففـي الفكر السياسـي القائـم على التـراث الغربـي لا تزال مقابلـة «العقـل» بــ «الانفعـال» شـائعة؛ حيث يقـف التفكيـر المنطقي المنظـم إلى جانب (وهـو شـيء مثيـر للإعجـاب ويجـب الطمـوح إليـه) ويقـف الاندفـاع اللاعقلانـي، الانفعالي إلـى الجانـب الآخـر (وهـو مـا يجـب تجنبـه). كمـا نجـد أن هـذا المبـدأ ذاتـه متضمَّن في تمييـز فرويـد بيـن الهـو، والأنـا، والأنـا الأعلـى، مثـلًا. ونحن فـي العـادة ننظر إلـى الانفعال كشـيء معيـق لصناعـة القـرار ذلـك لأن هـذه العمليـة يجـب أن تقـوم علـى المعلومـات والحقائق.

وهــذه النظــرة إلــى عمليــات العقــل البشــري ماثلــة بوضــوح فــي الثقافــة الشـعبية، وتعـود إلـى مئـات، إن لـم يكـن آلاف السـنين، وصـولًا إلـى قدمـاء اليونـان. ومـن رأى حلقـة مـن مسلسـل «حـرب النجـوم» أو أي مـن الأفـلام التـي تـدور حولـه، علـى سـبيل المثـال، يلاحـظ أن العلاقـة بيـن الكابتـن جيمـس كيـرك ومسـاعده السـيد سـبوك (Spock) تعكـس الفـروق فـي طريقـة التعامـل مـع العوالـم المحيطـة بهمـا.

فبينما نجد كيرك عاطفيًا وحنونًا من حيث إنه إنسان، نجد سبوك يوبخه بالقدر ذاته على مجانبته المنطق المجرد. وعندما تصدر عن كيرك استجابة انفعالية ما، كثيرًا ما يوبخه سبوك ببرود قائلًا، «هذا ليس منطقيًا يا كابتن»، ويتعرض سبوك نفسه باستمرار لحالة من الصراع النفسي بين نصفه الفضائي المفكر والمنطقي، ونصفه الانفعالي البشري.

على أن هذه المقاربة قد تكون مضللة إلى حد كبير في نظرتها إلى العقل والعاطفة، وهناك في علم النفس السياسي الآن وجهة نظر مختلفة (تزداد شعبية مع الوقت) تتعارض مع تلك القائلة بأن العمليات الانفعالية لا عقلانية في طبيعتها أو غير معرفية[9]. ولكن ما يبدو مؤكدًا هو أن الإدراكات الساخنة (hot cognitions) كثيرًا ما تتنافس مع الإدراكات الباردة. وكل من حاول التخلص من زيادة الوزن يعرف أن اتباع الحمية ينطوي على حرب مستمرة مع النفس، فالمنطق يحثنا على تجنب شراء الشوكولاته والبوظة من جانب، بينما تملي علينا الشهية (أو ربما الشره) عكس ذلك. وكما يشير ستيفن بنكر (Steven Pinker)، فإن «الحياة العقلية تبدو كبرلمان داخل الشخص؛ تتنافس فيه الأفكار والمشاعر في السيطرة كأنما كل منهما طرف لديه استراتيجيات للهيمنة على الشخص بأكمله، أي السيطرة عليك»[10]. ونحن نعرف جميعًا مقدار الضرر الذي قد يحدثه إطلاق العنان للانفعال - وخصوصًا الانفعال السلبي الشديد، كالغضب.

غير أن بنكر يؤكد أن الانفعال ليس أمرًا ضارًا بالضرورة، ويجمع بين مقاربة معرفية حديثة ومقاربة داروين التطوري (evolutionary)، ليؤكد أننا نمتلك انفعالات لأن الانفعالات أثبتت فائدتها لبقاء النوع. نشعر بالحب والترابط مع أولئك القريبين منا، على سبيل المثال، لأننا نرغب في المحافظة على بقاء جيناتنا. ويعترف بنكر أن وجهة النظر هذه غير رومانسية، ولكن قليلين منا يعتبرون مثل هذا الحب «لا عقلاني». هذا، وتُعتبر بعض الثقافات أكثر انفعالية من غيرها؛ خذ على سبيل المثال الصورة النمطية الشائعة عن «اللاتيني ذي الدم

---

(9) للمزيد، انظر: Marcus, *The Sentimental Citizen: Emotion in Democratic Politics.*

(10) Steven Pinker, *How The Mind Works* (New York: W. W. Norton, 1997), p. 419.

الحـار» أو «الألمانـي الخالـي مـن العاطفـة». لكـن بنكـر يؤكـد أن أبنـاء الثقافـات المختلفـة لا يختلفـون إلا فـي طريقـة تعبيرهـم عـن انفعالاتهـم، وليـس فـي مـدى مـا يشـعرون بهـا. فقـد تمـت برمجتنـا مـن خـلال عمليـة التطـور لنشـعر بالانفعـالات ذاتهـا مـن حيـث الأسـاس، لكـن الاختـلاف يكمـن فـي مـا يسـتثيرها - إذ نتوقـع ردود فعـل مختلفـة عبـر العالـم لرؤيـة صـورة لابـن لادن - إلا أننـا جميعًـا نملـك القابليـة لنشـعر بالانفعـالات المختلفـة ذاتهـا.

وتعمـل الاسـتجابات الانفعاليـة كذلـك علـى الأرجـح كقـوى دافعـة محرّكـة؛ فعندمـا يسـعى أحدنـا سـعيًا حثيثًـا لبلـوغ هـدف مـا، ويشـعر بمتعـة بالغـة عنـد تحقيقـه، نقـول إن لـدى هـذا الشـخص «شـغفًا» بـه وهـو وصـف ملائـم فـي الواقـع. وبالرجـوع إلـى مثال السـيد سـبوك، يشـير بنكر إلـى أن السـاعد الأيمن لكيـرك يفتـرض أن يكون رجـلًا خاليًا من العاطفـة، إلا أنه:

لا بـد أن يكـون لديـه دوافـع وأهـداف، شـيء مـا منعـه مـن قضـاء أيامه في حسـاب بـاي (Pi، نسـبة محيـط الدائـرة غلـى قطرهـا) إلـى الكوادريليـون (الرقم واحـد وأمامه (15) صفـرًا) أو محاولـة حفـظ دليـل هاتـف مانهاتـن. لا بـد أن شـيئًا مـا دفعـه لاكتشـاف عوالـم جديـدة غريبـة، والبحـث عـن حضـارات جديـدة، واقتحـام أمكنة لم يصلهـا أحـد مـن قبـل. ويفتـرض أن يعـود ذلـك إلـى الفضـول المعرفـي، وإلـى دافـع للتصـدي للمشـكلات وإيجـاد الحلـول لهـا، والترابـط مـع الحلفـاء ومسـاندتهم، وهذه جميعًـا انفعـالات. والانفعالات، هـي المكنزمات (الآليـات) التي تحدد الأهـداف العليا للدمـاغ، وحيـن تُسـتثار فـي اللحظـة المواتيـة، يُطلـق الانفعـال سلسـلة مـن الأهداف الفرعيـة المتلاحقـة تمثل مـا ندعوه التفكير والفعل. ولأن الأهداف والوسـائل تتشـابك معًـا فـي بنـاء متعـدد الطبقـات مـن الأهـداف الفرعيـة المنبثقة مـن أهـداف فرعية، والمنبثقـة بدورهـا مـن أهـداف فرعيـة سـابقة، ليـس هنـاك حـد فاصـل بيـن التفكير والشـعور، وليـس شـرطًا أن يكـون التفكيـر سـابقًا للشـعور بالضـرورة، أو العكـس (...)[11].

---

(11) المصدر نفسه، ص 373. لكن شخصية سبوك ليست متناقضة بالضرورة، حيث إننا نعرف أن أحد والديه كان آدميًا. وقد أدهشني العثور على كتاب في مكتبة جامعتي، خلال وضعي هذا الكتاب، مكرَّس كليًا لعلم نفس «حرب النجوم». انظر: Robert Sekuler and Randolph Blake, *Star Trek on the Brain: Alien Minds, Human Minds* (New York: W. W. Freeman, 1998).

ويستخدم المؤلفون هذا الكتاب أمثلة لتدريس علم الأعصاب.

ويأخـذ سـتيفن بنكـر الخـوف كمثـال علـى ذلـك، فيقـول: «إن الخـوف يُسـتثار مـن خـلال إشـارة إلـى وجود خطر داهـم، كمواجهـة معتدٍ، أو الوصـول إلى حافـة منحدر خطر، أو تهديـد كلامـي. فيتكـوّن لدينـا هدف قصير المـدى للهـرب، أو الاستسـلام، أو الابتعاد عن الخطـر، ويعطـي الخـوف هـذا الهـدف أولويـة نستشـعره كأمـر مُلـحّ»[12]. ويشـير بنكر إلى أن خبـراء الـذكاء الاصطناعـي يعترفون بـأن صناعة روبوت فعال تتطلب برمجة شـيء شـبيه بالانفعـالات داخلـة وذلـك: «ليعـرف الروبوت فـي كل لحظة مـا عليه أن يفعلـه في خطوة تالية»[13].

وسـبب آخـر لعـدم التعامـل مـع الانفعـالات كشـيء ضـار بعمليـات التفكير البـاردة، هـو أنهـا تسـاعد فـي تكويـن الصناعـة «الجيـدة» للقـرار، حتـى أنها قـد تكون أساسـية في هـذا المضمـار. ولكـي نصنـع قـرارات حصيفـة، مدروسـة علينـا قبـل كل شـيء أن نهتـم بتلـك القـرارات. ويلقـى هـذا الاسـتنتاج دعمًـا قويًـا مـن أعمـال عالـم الأعصـاب أنطونيـو داماسـيو (Antonio Damasio) وزملائـه. فقـد اكتشـف داماسـيو أن المرضـى الذين تضـرر لديهم الجـزء الجبهـي مـن القشـرة الدماغيـة - المنطقـة الدماغيـة التـي تسـيطر على الاسـتجابات الانفعاليـة - كثيـرًا مايتخـذون قـرارات متهـورة، علـى الرغـم من أنهم قـد يمتلكـون قدرات عقليـة عاليـة[14]. ويؤكـد داماسـيو أن هذا يعـود إلى غيـاب الانفعالات (كالخـوف) الذي قد يمنـع الأفـراد العادييـن مـن القيـام بأفعـال قد تكـون ضـارة بحياتهـم الاجتماعيـة والمهنية. وبعبـارة بسـيطة، هـم يتخـذون قرارات سـيئة لأنهـم أصبحـوا لامباليـن - بطريقـة أو أخرى. ويقـول عالـم السياسـة جوناثـان ميرسـر (Johnathan Mercer) فـي هـذا الصدد:

> إن النــاس مــن دون انفعــالات قــد يكونــون علــى وعــي بــأن عليهــم واجبــات أخلاقيــة وأن عليهــم أن يراعــوا المعاييــر، وألا يتخــذوا قــرارات ماليــة كارثيــة، ولكــن هــذه المعرفــة مجــردة، وقاصــرة، لا تتــرك أثــرًا فــي قراراتهــم [ومــن دون

---

(12) Pinker, Ibid., p. 374.

(13) المصدر نفسه، ص 374.

(14) انظر: Antonio R. Damasio, *Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain* (New York: Putnam Books, 1994).

الانفعـالات] يهتمـون بأنفسـهم ولا يهتمـون بالآخريـن، ولا يحاولـون تجنـب الوقـوع فـي الخطـأ، ولا هـم قـادرون أن يتعلمـوا مـن أخطائهـم [15].

ويرى ميرسـر الانفعال، مثلما يراه بنكر وداماسـيو، شـيئًا أساسـيًا للعقلانية، لا منافسًـا لهـا[16]. أمـا مـن حيث الأسـبقية، ومـا إذا كانـت الانفعـالات «تأتـي أولًا» أم الأفـكار الباردة، ومـا إذا كان علـى النظريـة الجيـدة فـي الفكـر السياسـي أن تبـدأ، تاليًـا، بالمـادة المقدّمـة فـي هـذا الفصـل أم بمـادة الفصـل السـابق - فهـذا جـدل قديـم قـدم علـم النفـس ذاتـه. ويأخـذ ياكـوف فيرتزبيرغـر (Yaacov Vertzberger) اتجاهًـا انتقائيًـا فـي هذه القضيـة، معللًا ذلك بـأن الانفعـالات قـد تسـبب الأفـكار، أو العكـس، إذ قـد تكـون الأفـكار هـي التـي تسـبب الانفعـالات. وتسـبب الانفعـالات الأفـكار عندمـا تعمل خبرة سـابقة علـى اسـتثارة ردة فعل انفعالية مباشـرة قبـل أن تأخذ العمليات البـاردة مجراها[17]. ومن ناحيـة أخرى، كان روبرت زيونـك أول مـن رأى أن الانفعـال قـد يسـبق الفكر البارد، ويتفـق العديد مـن علماء النفس السياسـي الآن مـع هـذا الـرأي. فكّر مثلًا في مـا يحدث إذا مـا رأيت أحدًا يقـف أمامك، أو ينظـر إليك من شـباك قريـب فجأة ومن دون سـابق إنذار. فـإذا لم تكن علـى وعي بوجود ذلـك الشـخص هنـاك علـى الإطـلاق، فإنك ستشـعر فجـأة، بالدهشـة أو الذعر، إلـى حد قد يقـود بعضنـا إلـى البـكاء أو الصـراخ. وفـي هـذه الحالـة نشـعر بالخـوف أو الدهشـة فـورًا تقريبًـا، قبـل أن يقـوم العقـل الواعـي بمعالجـة المعلومـات المتصلـة بمـا يحـدث. لكـن ما يحـدث لاحقًـا، هـو أننا إذا مـا رأينا صديقًا أو شـخصًا نعرفـه خلف ذلك الشـباك، فإن عقلنا سـيعالج (أو يتمثـل) هـذه المعلومـة، وقد نشـعر بالحـرج إزاء ردة الفعل التي صـدرت عنا. وهـذا مثال بسـيط لحالـة وقوع الانفعال قبـل الإدراك الواعـي، أو قبل معالجـة المعلومات.

مـرة أخـرى، نعـاود السـؤال ذاتـه، مـا صلـة هـذا كلـه بدراسـة السياسـة. ونسـتطيع

---

(15) Johnathan Mercer, «Rationality and Psychology in *International Politics*,» *International Organization*, vol. 59, no. 1 (Winter 2005), p. 93.

(16) المصدر نفسه، ص 94.

(17) Yaacov Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1990), p. 176.

الإجابـة عـن هـذا السـؤال علـى أفضـل وجـه مـن خـلال مناقشـة مختصـرة لاثنتيـن مـن المقاربـات الشـائعة التـي تؤكـد أسـبقية العاطفـة؛ فكلتاهمـا تتبنى الموقـف القائـل إننا لا نسـتطيع التفكيـر مـن دون أن نشـعر، وأن المشـاعر كثيـرًا مـا تكـون هـي الأسـبق.

نظرية الذكاء العاطفي

يرفـض جـورج ماركـوس وزملاؤه صراحـة وجهة النظـر الشـائعة والقائلة إننـا يجب أن «نفكـر» قبـل أن «نتمكن من الشـعور»[18]. ويميزون بيـن نظامين ذهنييـن يصطلحون على تسـميتهما: نظـام التصريف (disposition) ونظـام المراقبـة (surveillance)؛ يتعامل الأول منهما مع المعلومـات الروتينيـة، حيـث يُقـوّم هـذه المعلومـات بنـاء على الانفعـالات التي يسـتثيرها مثيـر مـا: وبوجـه خـاص المثيـر الـذي يبعـث علـى الحمـاس أو النفـور. وبينمـا يسـيّر هذا المكنـزم طرائـق التفكيـر الاعتياديـة العامـة، يتعامـل النظـام أو الآليـة الثانية مـع المثيرات الجديـدة وغيـر المتوقعـة. والانفعـال الغالـب الـذي يتعامـل معـه النظـام الثاني هـو القلق (anxiety)، ويوضـح ردلوسـك (Redlawsk) عمـل هـذا النظـام على النحـو التالي:

> عندمـا يُسـتثار نظـام المراقبة بمثير غيـر متوقع (يُـدرَك على أنه «خطـر») يعمل هذا النظـام علـى رفـع مسـتوى «القلـق» لدينـا، فيـؤدي هـذا الانفعـال بـدوره إلـى زيـادة الوعـي (بالموقـف المحيـط)، ويُجهّزنـا للاسـتجابة. هـذه العمليـة لا تحركهـا معالجـة معرفيـة للمحيـط، وإنمـا اسـتجابة انفعاليـة لمثيـر غيـر متوقـع. ومـن ثـم، فـإن حالة الاسـتثارة هـذه تـؤدي، فـي النتيجـة، إلـى تنشـيط عمليـة التعلـم؛ لأن الفـرد يكـون بحاجـة إلـى فهـم طبيعـة التهديـد الـذي يواجهه، مـا يدفعـه إلـى معرفـة المزيد عن ذلك المثيـر[19].

وحيـث إن مواجهـة هـذا النـوع مـن المثيـرات تسـتدعي مزيـدًا مـن اليقظـة والانتباه، فإننـا لا نسـتطيع الاعتمـاد معهـا علـى طرائـق التفكيـر المعتـادة فحسـب. وبذلك، فـإن نظام المراقبـة يعـزز التفكيـر التعليلي/التفسـيري (reasoned thought) لدينـا.

(18) Marcus, Neuman and MacKuen, *Affective Intelligence and Political Judgment* , p. 9.

(19) Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing*, p. 4.

نظرية التفسير المتحيز

قام ملتون لودج وتشارلز تابر بتطوير مقاربة مختلفة قليلًا عن المقاربة السابقة لفهم تأثيرات الانفعال في السياسة[20]. وعلى الرغم من أنهما يتفقان في عملهما الرائد هذا مع ماركوس وزملائه على اعتبار العاطفة سابقة للفكر البارد، فإنهما يقاربان الموضوع على نحو مختلف من حيث إنهما يعتبران:

(1) جميع المثيرات السياسية مشحونة عاطفيًا (وفق فرضية «الأفكار الساخنة»؛ (2) يحفظ الناس في أذهانهم سجلًا حيًا، مستمرًا، ومتجددًا يتضمن مشاعرهم إزاء هذه المثيرات؛ (3) إن مشاعر الشخص الراهنة تؤثر في استقباله للمثيرات كذلك. ويقول لودج وتابر بناء على هذه المعطيات: «إن ما يمكن توقعه بكل وضوح هو أن معظم المواطنين، إن لم نقل جميعهم، سيكونون مفكرين متحيزين وسيكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل عليهم تقويم أي معلومات جديدة بطريقة محايدة»[21].

يرى ردلوسك أن هذين المنظورين غير متكاملين تمام التكامل، فهما يختلفان بوجه خاص في ما إذا كانت مواجهة موقف جديد، أو غير متوقع، قد تؤدي إلى «تحسين» عملية صنع القرار. فبناء على نموذج ماركوس، قادت مكنزمات تطورية إلى تمكيننا من الاستجابة الفورية للمواقف قبل أن تأخذ عمليات التفكير البارد مجراها. ويتوقع أن تؤدي هذه الإمكانية إلى تحسين عملية صنع القرار، وليس الانتقاص منها. أما نموذج لودج وتابر، فإنه يرى، بالمقابل، أن العاطفة تؤدي إلى تحيز في تفسير المعلومات الجديدة. ويشير ردلوسك إلى أن لودج وزملاءه، «يجدون أن الناس ميالون إلى الإمساك ببندقياهم، ودعم اعتقاداتهم السابقة، لذا

---

(20) Milton Lodge and Charles Taber, «Three Steps Toward a Theory of Motivated Political Reasoning,» in: Arthur Lupia, Matthew McCubbins and Samuel Popkin, eds., *Elements of Reason* (New York: Cambridge University Press, 2000); Milton Lodge and Charles Taber: «The Automaticity of Affect for Political Leaders: Groups, and Issues: An Experimental Test of the Hot Cognition Hypothesis,» *Political Psychology*, vol. 26, no. 3 (2005), pp. 455-482, and «Motivated Skepticism in the Evaluation of Political Beliefs,» *American Journal of Political Science*, vol. 50, no. 3 (June 2006), pp. 755-769.

(21) Lodge and Taber, «Three Steps Toward a Theory of Motivated Political Reasoning,» p. 184.

فإنهم يسمحون للعاطفة بالتدخل في متابعة (المعلومات المستقاة حديثًا)»[22]. وعليه، فإن المقاربة الأولى يؤكد دور الانفعالات في مساعدتنا على التعلم، بينما يؤكد الثاني دور الانفعالات في تحيز وتشويه تلك العملية.

كيف ترتبط المعرفة الساخنة بالمعرفة الباردة؟

تمتاز الانفعالات بخاصية دفع ذاتية (أوتوماتيكية)، قد تعكس أحيانًا عمليات لا شعورية. ويُفيد جورج ماركوس في هذا المضمار: «القول إن العمليات الانفعالية تحدث خارج نطاق الوعي، وهي فكرة أحيطت بالشك مبدئيًا، ما عادت محل جدل في الوقت الحاضر»[23]. غير أننا لا نزال بحاجة إلى كثير من البحث عن كيفية تفاعل عمليات معرفية محددة مع الانفعال في مجال السياسة. وعلى الرغم من أن الأفكار الساخنة ليست الموضوع المحوري في كتاب كونغ (Khong) **القياس (التاريخي) في الحرب** (*Analogies at war*)، فإن كونغ يزعم أن قياس التمثيل/المُماثَلة ينطوي على جانب عاطفي إضافة إلى الجانب المعرفي الخالص، إذ يقول[24]:

> عندما قرر دين راسك (وزير الخارجية) أن الخطر في فيتنام مماثل للخطر في كوريا، فإن التشبيه لم يستحضر صور الجحافل الصينية تعبر نهر يالو فحسب، ولكنه بعث أيضًا مشاعر سلبية إزاء الحشود الصينية المبهمة.

ويشير كونغ إلى أن دين راسك، «شعر بالندم لفشله في التنبؤ بالتدخل الصيني في الحرب الكورية»[25]. فنحن لا نقوم بمجرد المقابلة بين خصائص موقف وخصائص موقف سابق بحيادية تامة؛ إذ إننا كثيرًا ما نختار التشابه الذي ينطوي على أهمية عاطفية خاصة لدينا، كما كانت كوريا بالنسبة إلى الرئيس

---

(22) Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing*, p. 4.

(23) George Marcus, «Emotions in Politics,» in: *Annual Review of Political Science*, vol. 3 (2000), pp. 231.

(24) Yuen Foong Khong, *Analogies at War: Korea, Munich, Dien Bien Phu and the Vietnam Decisions of 1965* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992), pp. 225-26.

(25) المصدر نفسه، ص 224.

جونسون ووزير خارجيته. لذا فإن سهولة الاستحضار المعرفي (cognitive availability) قد تكون ناتجة من عمليات ساخنة وعمليات باردة، غير أن هذا الموضوع، موضوع مهمل في علم النفس السياسي حتى الآن.

فضلًا عن أن الانفعالات - والخوف بشكل خاص - أدت دورًا قويًا في صنع قرارات جونسون بشأن فيتنام، وكان واحدًا من المخاوف التي ألمح إليها أمام موظفيه، هو خوفه من إشعال حرب عالمية ثالثة من دون قصد، نتيجة لدخول الصين إلى الحرب. حيث روى جونسون لدوريس كيرنز غودوين: «كنت أتمدد في فراشي في ظلمة الليل مستيقظًا، أتصور أولادي وهم يطيرون فوق فيتنام الشمالية، وأطرح على نفسي سلسلة لا نهائية من الأسئلة ماذا لو أن واحدًا ضمن الأهداف التي اخترتها اليوم استفزّ روسيا أو الصين؟ ما الذي سيترتب على ذلك»؟[26] ويبدو واضحًا أن حالة جونسون المشار إليها هنا، كانت قائمة في جانب منها على التشابه مع كوريا، ولكن المقارنة استثارت انفعالات قوية لدى جونسون أثّرت لا محالة في صنع سياسته. كذلك فإن تحليل بليما شتاينبرغ (Blema Steinberg) لصناعة القرارات الأميركية بشأن فيتنام يوحي بأن انفعالات الخجل والإهانة كانت تقف وراء قرارات جونسون وخَلَفه نيكسون، حيث تفيد شتاينبرغ أنه:

> كان ليندون جونسون وريتشارد نيكسون كلاهما نرجسيًا (Narcissistic) إلى حد كبير، عانى كل منهما الشعور بالخجل والمذلة. وقد لعبت هذه المشاعر، في إطار البنية النرجسية لشخصيتيهما، دورًا مهمًا في تكوين قراراتهما الرئاسية بشأن فيتنام[27].

ربما لا يتفق الجميع على التحليل النفسي الذي تورده شتاينبرغ بشأن الرجلين، إلا أنه ما من شك في أن هذه الانفعالات (وغيرها) كانت ذات أثر في الأحداث السياسية. ومن المخاوف الموثقة التي عاناها جونسون، خوفه من أن

(26) Doris Kearns Goodwin, *Lyndon Johnson and the American Dream* (New York: St. Martin's Press, 1976), p. 270.

(27) Blema S. Steinberg, *Shame and Humiliation: Presidential Decision Making on Vietnam* (Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1996), p. 7.

يكون «أول رئيس أميركي يخسر حربًا». ولربط البحوث في الانفعال بالمقاربات «الباردة» كنظرية السكيما ربما يكون من المفيد النظر إلى الانفعال كنوع من «الطرائق المعرفية المختصرة»، كما تقترح فسك وزميلها بافلشاك[28]. إذ يعتقد هذان الباحثان أننا حين ننظر إلى شخص ما كعضو نمطي من صنف أو جماعة معينة - فيبدو لنا، على سبيل المثال، كـ «ديمقراطي نمطي» أو «جمهوري نمطي»، فإننا نستجيب عاطفيًا لا لخصائص ذلك الشخص، وإنما لخصائص الجماعة التي ينتمي إليها عوضًا من ذلك. وما لم يكن الشخص غير نمطي (أو مختلفًا عن النمطي) بشكل واضح، فإننا ببساطة نُصنّف ذلك الشخص ضمن الصنف العام أو الفئة التي نرى أنه ينتمي إليها، ونهمل خصائصه الخاصة. ويبدو هذا معقولًا من الناحية المعرفية، من حيث إنه كطريق مختصر يخفف الضغط على إمكاناتنا المحدودة لمعالجة المعلومات. ويُتوقع أيضًا أن عواطف بعينها (كالسعادة، والحزن، والغضب، وغيرها) تُطلق أساليبَ معينة لمعالجة المعلومات.

ويبدو أن هذه المقاربة تفترض أن العاطفة ثانوية، وليست أولية، وهي المقاربة التي هيمنت في الواقع على دراسة صنع قرارات النخبة (بما فيها صنع قرارات السياسة الخارجية). إلا أنه ما من سبب يحول دون تطبيق النموذج الذي خرج من معسكر ماركوس، والنموذج الذي خرج من معسكر لودج - تابر على العلاقات الدولية، لما لهما من تأثير في دراسة سلوك الجمهور. ويلاحظ ردلوسك في هذا المضمار أن:

> «السلوك السياسي» يركز في العادة على سلوك الجمهور - في إطار الانتخاب في كثير من الحالات - أما علم النفس السياسي المتعلق بالانفعالات فقد استند في تطوره في الغالب إلى تحليل سلوك الفرد. ومن هنا، فإنه يُطبّق على المواقف التي تقتضي معالجة المعلومات عن ظروف

(28) Susan Fiske and Mark Pavelchak, «Category-Based vs. Piecemeal-Based Affective Responses: Developments in Schema-Triggered Affect,» in: Richard Sorrentino and E. Tory Higgins, eds., *Handbook of Motivation and Cognition,* Foundations of Social Behavior, 3 Vols. (New York: Guildford Press, 1986).

سياسـية معينة، سـواء تحدثنـا عن مواطنين يقوّمون مرشـحين، أو تحدثنـا عن النخبة وهي تتنـاول الأفكار المتعلقة بالحرب والسـلام[29].

المظاهر السلبية للانفعال

إذا اتفقنـا علـى اعتبـار الشـعور جـزءًا مكملًا للعمليـات المعرفيـة الإنسـانية، فيجب ألا يخفـى علينـا حقيقـة أن الانفعـالات السـلبية قـد يكـون لها أثـر ضار في السياسـة يقـود إلى مخرجـات غيـر عقلانيـة مطلقًـا. وسـنرى كثيـرًا مـن هـذه الآثـار عندمـا ننظـر إلـى الجوانـب السـلبية للقوميـة والصـراع العرقـي، علـى سـبيل المثـال، حيـث تمثّـل الانفعـالات الإنسـانية الشـديدة وقـود هـذه الظواهـر. وبالمثل، فإن بعض أشـكال المزاج قـد تضر بنوعيـة القرارات التـي يتـم اتخاذهـا. إذ يشـير فيرتزبيرغـر إلـى أن «الأكتئـاب يـؤدي إلـى معالجـة متصلبـة للمعلومـات تتسـم بضيـق الأفق»، وهو يؤدي بشـكل خاص إلـى تقويمات للموقـف (الراهن) ذات طبيعـة متطرفـة، ومغاليـة في التعميـم[30]. وقد كان ليندون جونسـون مكتئبًا بشـدة في خـلال الأيـام الأخيـرة لـه فـي المكتـب الرئاسـي، وربمـا تكـون هـذه الحالـة قد أسـهمت في سياسـته المغلقـة فـي فيتنـام، وعـدم اسـتعداده للإصغـاء إلـى النصائح المناهضـة لسياسـته تلـك. ويبـدو أن ريتشـارد نيكسـون قـد مـر بحالـة مماثلـة في خـلال فضيحـة ووترغيـت[31].

ويظهـر الميـل فـي دراسـة العلاقـات الدوليـة، والسياسـة الخارجيـة، إلـى التعامـل مـع الانفعـال بوصفـه قـوة سـلبية أكثـر ممـا يظهـر فـي دراسـة سـلوك الجمهـور كالتصويـت الانتخابـي والـرأي العـام، وهنـاك مبـررات لهـذه النزعـة: إذ إنـه مـن الصعـب النظـر إلـى الانفعـالات التـي تشـعل الكراهيـة العنصريـة، والقتـل الجماعـي، والتفرقـة العنصريـة، والإرهـاب، والحـرب بيـن الـدول، بوصفهـا قـوى إيجابيـة فـي العالـم. إلا أن الـدور الإيجابـي للانفعـال فـي صنـع القـرار بـدأ يحظـى بالاهتمـام داخـل فـرع العلاقـات الدوليـة مـن علـم النفـس السياسـي. وتمثـل بحـوث جوناثـان

(29) Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing*, pp. 5-6.

(30) Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking*, p. 177.

(31) المصدر نفسه، ص 177.

ميرسر حول الثقة ورالف وايت (Ralf White) حول التعاطف، مثالًا بارزًا على هذه المقاربة. وستتم في الفصل السادس عشر مناقشة أعمال هذين الباحثين، التي تتسق أيضًا مع الفرضية القائلة إن الانفعالات يمكن أن تترك أثرًا «جيدًا» في الأساس على صناعة القرار.

هل يمكن قياس الانفعالات؟

كثيرًا ما تعرّض موضوع الانفعال للإهمال، كما سبق أن أشرنا، من أصحاب مقاربة الإنسان الاقتصادي، ومقاربة الإنسان النفساني، ومنظري الخيار العقلاني، ودعاة تطبيق علم النفس المعرفي على حد سواء. غير أن الميل إلى تنحية موضوع العاطفة جانبًا يعود في جانب منه إلى صعوبة قياس الاستجابات الانفعالية ذاتها. فإذا أهديت شخصًا مقربًا، على سبيل المثال، قطعة ملابس في مناسبة ما، فأخذها الشخص بيديه وقال، معبرًا عن سروره بالمفاجأة: «هذا بالضبط ما كنت أريده دائمًا»!؟ كيف لك أن تعرف ما إذا كان هذا الشخص قد أحب القطعة حقيقة أم لا؟ ربما يكون أحبها فعلًا، وربما يكون قد خاب رجاءه، وقال لنفسه «هذا ليس ذوقي في الحقيقة» أو «كنت أريد سيارة جديدة». ربما يكون الشخص قد كره القطعة، ولكنه ادعى أنه أحبها لأننا عندما نحب أحدًا، نحاول وسعنا ألا نجرح مشاعره مهما كان الثمن.

وعلى الرغم من بساطة هذا المثال، فإن هناك عددًا من المشاعر التي قد تطفو على السطح في مثل هذه الحالة: الحب المتبادل، النفور من قطعة الملابس أو الإعجاب بها، عدم تقبل ذوق الشخص الآخر في الملابس، الرغبة في عدم جرح مشاعر الشخص، الطمع، خيبة الأمل، التعاطف، وما إلى ذلك. وبالرغم من حقيقة أن الشخصين اللذين يتواصلان انفعاليًا صديقان حميمان معتادان قراءة الاستجابات الانفعالية لبعضهما بعضًا، إلا أنه لا يمكن لأي منهما أن يكون متيقّنًا تمامًا بالانفعال الذي انتاب الشخص الآخر على وجه التحديد. فإذا كانت قراءة الانفعالات في الحالات الفردية على هذا القدر من الصعوبة، فكيف يتسنى لعلماء النفس قياس انفعالات الناس بصورة دقيقة؟

خاتمة

تتمثـل الطريقة الشـائعة في قياس الاسـتجابة الانفعالية في الطلـب إلى الناس وصف مشـاعرهم. وقـد اسـتخدم محللو سـلوك الجماهير هـذه الطريقة منذ زمن طويل لاسـتطلاع مشـاعر الأفـراد إزاء مثيـرات سياسـية أو غيرهـا. كذلـك فقد امتلكنـا منذ أمد طويـل طرائق أكثـر علميـة لقيـاس الاسـتجابة الانفعاليـة، مثـل قيـاس معـدل ضربـات القلـب، ومسـتوى التعـرق مسـتخدمين تكنولوجيـا مشـابهة تمامًا لتلـك المسـتخدمة في قياس كشـف الكذب (علـى الرغـم مـن أن هـذه التكنيـكات ليسـت مسـتخدمة في علـم النفـس السياسـي على نطـاق واسـع علـى الإطـلاق). ويواجـهِ هـذان النوعان مـن طرائـق القياس بعض المشـكلات ولا شـك؛ فالنـاس ربمـا لا يكونـون مسـتعدين أو قادرين على وصـف انفعالاتهـم بدقة، كما أن اسـتخدام التكنولوجيـا القديمـة لقياس الاسـتجابات الانفعالية ينطوي علـى قضايا أخلاقية مـن جهـة، وماليـة من جهـة أخـرى، إضافة إلـى أن هـذه التكنيـكات ربمـا لا تكـون دقيقة أو مناسـبة لبعـض الأغـراض. غير أننا سـنتطرق فـي الفصل القـادم إلى بعـض التطورات في تكنولوجيـا علـم الأعصـاب - أبرزها تكنيـكات تصوير الدماغ مثـل الإف إم آر آي والإم آر آي (fMRI and MRI) - التـي يسّـرت قيـاس الانفعـالات التـي يخبرهـا الأفراد بشـكل مباشـر. علاوة علـى ذلـك، بـدأ علمـاء نفـس السياسـة بالعمـل مع علمـاء الأعصـاب لإسـتخدام مثـل هذه التكنيـكات فـي بحوثهـم المشـتركة. ومـع أن البحـوث في هذا المجـال لا تزال فـي مهدها، ومـع أن نتائـج البحـوث القليلـة فيـه لا زالـت أوليـة جـدًا، غيـر أننـا سـنتناول بعضًـا مـن أحـدث البحـوث التـي أُجريت فـي هـذا المجال ونقـوّم نتائجها في الفصـل الآتي.

11
علم الأعصاب

تخيّـل مشـهدًا مـن المسـتقبل: تـرى قاعـة مـلأى بالمشـاهدين ينظـرون إلـى سلسـلة مـن الصـور علـى شاشـة عملاقـة، غيـر أن مـا يجـري عرضـه ليـس فيلمًـا عاديًـا يتنـاول معـه المشـاهدون الكولا والبوشـار وتُعـرض فيه دعايات للعروض السـينمائية القادمـة، وإنما يجلس كل مشـاهد وهـو يضـع علـى عينية نظـارات حمايـة (goggles) غريبة الشـكل، موثقـة إلى جهاز مثبـت فـي المقعـد المجـاور. كما أن ما يشـاهدونه ليـس مألوفًا كذلك، فهو شـيء لا يمارسـه إلا المولعـون بالسياسـة فـي أوقـات فراغهـم؛ حيـث يجـري عـرض بعـض الصـور لسياسـيين معروفيـن، أو غيـر معروفيـن، يظهـرون فيهـا مبتسـمين، يرتـدون بـدلات رسـمية. ثـم تتحـول الصـور الثابتـة تلـك - التـي عُرضـت بحجم ضخـم ملأ الشاشـة العملاقـة - إلى مقاطـع صوتية مـن خطابـات سياسـية تتضمـن دعايـات لمرشـحين مختلفين يظهـرون واحـدًا تلـو الآخر.

ويجـري ذلك فـي الوقت الذي يجلس فيه فريق من علمـاء الأعصاب، وعلماء المعرفة في غرفة البث يشاهدون صورًا مختلفة تمامًا. حيث تعرض سلسلة من الشاشات [الصغيرة] الموجـودة أمامهـم صـورًا ملونـة تُظهـر كل منهـا النشـاط العصبـي فـي الدمـاغ لواحـد مـن المشـاهدين. فحيـن يظهر على الشاشـة العملاقة أحـد الديمقراطيين البارزيـن ويبدأ بالكلام تضـيء أجـزاء مختلفـة مـن أدمغة المشـاهدين التـي تظهر عبر الشاشـات. [ومـن حيث إنه يكون قد سـبق التعرف إلى الاتجاه السياسـي لكل من المشـاهدين من خلال استبيان يجري

تطبيقه قبل العرض، يكون الباحثون على دراية بالاتجاه السياسي لكل مشاهد]. فحين يظهر المرشح الديمقراطي البارز، نلاحظ أن منطقة الجزيرة (insula) تضيء بقوة على الشاشة التي تعرض صورة دماغ مشاهد صرح على الاستبيان ذلك اليوم بأنه جمهوري. وهذا يشير بوضوح إلى أن المشاهد المعين هذا لا يحب ذلك المرشح الديمقراطي، حيث إن منطقة الجزيرة في الدماغ ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمشاعر السلبية كالشعور بالتقزّز. وحين ينتقل الفيلم إلى عرض صور سياسي جمهوري معروف، يتبدل نمط الإضاءة الذي يظهر على الشاشات. وبالنظر إلى الشاشة الخاصة بالناخب الجمهوري نلاحظ أن المنطقة الجبهية السفلى من القشرة الدماغية (inferior frontal cortex) هي التي تضيء بقوة في هذه الحالة، ما يشير إلى أن هذا الشخص يشعر بالتعاطف أو التماهي (identification) مع ذلك السياسي. غير أن نمطًا معاكسًا للنمط الذي لاحظناه هنا يظهر على الشاشة المجاورة التي تُظهر صورة دماغ شخص صرّح بأنه ديمقراطي.

وعلى الرغم من أن هذا السيناريو قد يبدو خيالًا علميًا أو شيئًا بعيد المنال، فإن علماء الأعصاب بدأوا فعليًا بإجراء تجارب من هذا القبيل. ومع أني بالغت في وصف حجم التجربة هنا وطورت التكنولوجيا المستخدمة فيها لإحداث تأثير دراماتيكي، إلا أن علماء الأعصاب جوناس كابلان (Jonas Kaplan) وجوشوا فريدمان (Joshua Freedman) وماركو لاكوبوني (Marco Lacoboni) من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (UCLA) قاموا بمثل هذه التجارب قبيل الانتخابات الرئاسية للولايات المتحدة عام 2004 و2008. وفي الوقت ذاته - أي قبل انتخابات 2004 - كان درو ويستن (Drew Westen) وزملاءه من جامعة إيموري (Emory) يُجرون مثل هذه التجارب بشكل مستقل عن زملائهم في جامعة كاليفورنيا[1]. واستخدم الباحثون في كلتا التجربتين تكنيكات التصوير الوظيفي

(1) انظر: Jonas Kaplan, Joshua Freedman and Marco Lacoboni, «Us Versus them: Political Attitudes and Party Affiliation Influence Neural Response to Faces of Presidential Candidates,» *Neuropsychologica*, vol. 45, no. 1 (2007), pp. 55-64, and Drew Westen [et al.], «The Neural Basis of Motivated Reasoning: An FMRI Study of Emotional Constraints on Political Judgment During the US Presidential Election of 2004,» *Journal of Cognitive Neuroscience*, vol. 18, no. 11 (2006), pp. 1947-1958.

الثاني منهما ملخص أيضًا في: Drew Westen, *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation* (New York: Public Affairs, 2007), especially x-xv.

بالرنيـن المغناطيسـي (functional magnetic resonance imaging (fMRI) لاكتشـاف الجوانـب العصبيـة من اسـتجابات الناخبيـن للصور السياسـية.

وقـد قـام كابـلان وفريدمـان ولاكوبونـي (Kaplan, Freedman and Lacoboni) فـي إحـدى تجاربهـم بربـط ناخـب ديمقراطي يدعـى جون غراهـام إلـى جهـاز إم آر آي (MRI) وعرضوا عليـه صـورًا صُمِّمت لاسـتثارة اسـتجابات انفعاليـة، من مثل دعايـة انتخابية لبـوش تضمنت صـورًا مـن أحـداث الحـادي عشـر مـن أيلول/سـبتمبر ودعايـة (daisy chain) السـيئة الصيـت مـن حملـة ليندون جونسـون للانتخابـات الرئاسـية عـام 1964. وأتبعوا ذلك دراسـة تتضمن تصويـراً لناخبيـن ديمقراطييـن وجمهورييـن وهـم ينظـرون إلـى صـور لجـورج دبليـو بـوش وجـون كيري[2]. وفي دراسـة أحـدث، قام لاكوبوني وزمـلاءه عام 2007 (حيـن كانت الحملة الانتخابيـة لعـام 2008 فـي أوجهـا) باختبـار عشـرين شـخصًا - عشـرة رجـال وعشـر نسـاء - ممـن صرحـوا بأنهـم متـرددون بشـأن التصويـت للديمقراطييـن أو للجمهورييـن، وعرضـو عليهـم وهـم يضعون نظـارات خاصة صـورًا ثابتة وصـورًا متحركـة لمرشـحين مختلفين وفق الترتيـب السـابق[3]. كمـا قـام المجربـون بالطلـب إلـى الأشـخاص المشـاركين فـي التجربـة تقويـم مشـاعرهم نحـو المرشـحين علـى «مقيـاس للمشـاعر» مـدرج مـن «مفضّـل إلى حد كبيـر» إلـى «غيـر مفضـل إلى حـد كبير».

---

(2) انظر: Jonas Kaplan, Joshua Freedman and Marco Lacoboni, «Us Versus them: Political Attitudes and Party Affiliation Influence Neural Response to Faces of Presidential Candidates,» *Neuropsychologica*, vol. 45, no. 1 (2007), and John Tierney, «The 2004 Campaign: Using MRIs to See Politics on the Brain,» *New York Times*, 20/4/2004.

يدين المؤلف بالشكر للدكتور ماركو لاكوبوني (Marco Lacoboni)، مدير مختبر «الإثارة المغناطيسية عبر الجمجمة» (Transcranial Magnetic Stimulation) في مركز أمانسون لوفليس للتخطيط الدماغي في جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس (UCLA) (Ahmanson Lovelace Brain mapping Centre)، والدكتور جفري بدويل (Jeffrey Bedwell) من المختبر العصبي المعرفي الكلينيكي (Clinical Cognitive Neuroscience Laboratory)، في جامعة وسط فلوريدا (University of Central Florida) على مساعدتهما في الإجابة عن أسئلة المؤلف حول استخدامات تكنيكات المسح ودورها في قياس الانفعالات. والشكر موصول لدايفد بيرل (David Pearl) من جامعة واشنطن على إثارة اهتمامي في موضوع علم الأعصاب بوجه عام والإي إي جي (EEG) بوجه خاص.

(3) Marco Lacoboni, Joshua Freedman and Jonas Kaplan, «This is Your Brain on Politics,» *New York Times*, 11/11/2007.

كانـت النتائـج التـي وصـل إليهـا علمـاء الأعصـاب مثيـرة للاهتمـام. ففـي دراسـة عام 2007 علـى سـبيل المثـال، لوحظ أن منطقـة «اللـوزة» (amygdala) ومنطقة «الجزيـرة» أضاءتا بشـكل ملحـوظ عندما عُـرض على الرجـال والنسـاء كلمة «جمهـوري» - وهاتـان المنطقتان مرتبطتـان بالقلـق والتقـزّز، في حيـن أنهما أضاءتا بدرجة أقل عندما شـاهد الرجال والنسـاء كلمـة «ديمقراطـي». هـذا وأثبتـت التجربـة أن المشـاعر منقسـمة تجاه السـيدة هيـلاري كلينتـون، بحسـب مـا كان متوقعًـا، لكـن مـا لـم يكـن متوقعًـا هـو أنهـم وجـدوا أن هـذا الانقسـام قائـم داخـل كل مـن الحزبيـن بالقـدر الـذي هو قائـم بينهمـا. ويصـف لاكوبوني وزمـلاءه مـا ظهر علـى هـذا المسـتوى العصبـي بقولهم:

«إن الناخبيـن الذيـن قوّمـوا السـيدة كلينتون تقويمًا سـلبيًا على الاسـتبيان لـم يكونوا مرتاحيـن تمامًـا لتقويمهـم. حيـث ظهـر لـدى هـؤلاء الناخبيـن نشـاطًا ملحوظًـا فـي القشـرة الطوقيـة الأماميـة (anterior cingulate cortex)، وهـي مركـز انفعالـي فـي الدمـاغ يُسـتثار عندمـا يشـعر الشـخص أنـه مضطر إلـى السـلوك بطريقتيـن مختلفتيـن ولكن عليـه أن يختـار واحـدة منهمـا. فبـدا أن الناخبيـن كانوا يصارعـون دوافعَ غيـر معترف بهـا لقبـول السـيدة كلينتون».

كذلـك وجـد لاكوبوني وزملاءه أن جون إدواردز (John Edwards) اسـتثار ردود فعل قوية. «عندمـا نظـر المشـاركون فـي التجربـة إلـى صـور السـيد إدواردز ظهـر لـدى مـن قوّمـوه تقويمًـا متدانيًـا نشـاطًا فـي منطقـة «الجزيـرة»، وهـي منطقـة مرتبطـة بالشـعور بالتقـزّز وغيـره من المشـاعر السـلبية، أمـا الناخبـون المتأرجحون الذين لـم يقوموه تقويمًـا متدانيًا، فإنهـم عندمـا نظـروا إلـى صـوره الثابتـة، أظهـروا نشـاطًا ملحوظًـا فـي المناطـق الدماغيـة التـي تحتـوي خلايـا عصبيـة مرآتيـة (mirror neurons)؛ وهـي مـن الخلايـا التـي تنشـط عندمـا يشـعر الفـرد بالتعاطف مع شـخص آخر، مـا يوحي أن هؤلاء الناخبين يشـعرون بشـيء من الارتباط معـه»[4].

وفــي ذات الوقــت - أي قبــل الانتخابــات الرئاســية لعــام 2004 مباشــرة - كان درو ويســتن وزمــلاءه فــي جامعــة إيمــوري يعملــون علــى مشــروع مشــابه

(4) «This is Your Brain on Politics,».

تقريبًا[5]. وفي حين أن كابلان وزملاءه درسوا ردود فعل أشخاص منتمين حزبياً لصور مرشح حزبهم ومرشح الحزب المعارض، درس ويستن وزملاءه ما يحدث داخل أدمغة المنتمين حزبيًا عندما يتلقون معلومات تزعزع الثقة بمرشح حزبهم من جهة، ومرشح الحزب المعارض، من جهة أخرى. فقد قام ويستن وزملاءه بداية بجلب خمسة عشر فردًا من الديمقراطيين المتشددين وخمسة عشر من الجمهوريين المتشددين. وعندما كان المشاركون في التجربة يوثقون إلى جهاز «إف إم آر آي» (fMRI)، كانوا يتلقون معلومات متناقضة بشكل سافر تُنسب إلى المرشح غير المفضل، وعلى نحو يكون الاقتباس الأول الذي يُنسب إلى المرشح يتناقض بوضوح مع الاقتباس الثاني الذي يُنسب إلى المرشح ذاته.

وقد افترض الباحثون أن هذا الوضع سيؤدي إلى استثارة أجزاء الدماغ التي تتعامل مع التناقض والعواطف السلبية على نحوٍ يؤدي إلى إزالة التعارض (أو عدم الاتساق في حالة المرشح المفضل)، وكان هذا ما جرى التوصل إليه في هذه التجربة فعلًا. ويقدم هذا البحث للمرة الأولى دليلًا عصبيًا مستقلًا يدعم النموذج النظري الخاص بالهوية الحزبية - وهو دليل بارز ومثير للاهتمام. ويجدر أن نذكر أن هذه الهوية هي في الأساس رابطة عاطفية أو انفعالية بحزب سياسي معين، وقد كان مؤسسو هذه النظرية متأثرين بنظرية الاتساق المعرفي إلى حد كبير - كما هو واضح. كذلك فإن دراسة ويستن وزملاءه توحي بأن الموالين لأحزابهم بقوة يحذفون (أو يتغاضون عن) المعلومات غير المرغوب فيها المتعلقة بمرشحهم، كما تكشف هذه الدراسة للمرة الأولى أن عملية من هذا النوع تظهر في صور المسح الدماغي على نحو ما.

بيّن الفصل السابق أن الطرائق الواعدة لقياس الانفعالات إنما تأتي من علم الأعصاب. وسنرى في هذا الفصل كيف أن التقدم في فهمنا لعمل الدماغ الإنساني يخلق فرصة لزيادة فهمنا لعمليات الإدراك والتفكير، وللطرائق التي تؤثر

(5) انظر: Westen [et al.], «The Neural Basis of Motivated Reasoning: An FMRI Study of Emotional Constraints on Political Judgment During the US Presidential Election of 2004,» and Westen, *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation*.

بهـا الانفعـالات فـي هـذه العمليـات بشـكل خـاص، غيـر أن دراسـة مـا يمكـن أن نسـميه علـم الأعصـاب السياسـي (political neuroscience) لا تـزال فـي مهدهـا فـي الوقـت الـذي نضـع فيـه هـذا الكتـاب، حيـث لا نجـد سـوى النـزر اليسـير مـن المقدمـات - ممـا قـد يصـل إلـى حجـم كتـاب - وُضعـت لعلمـاء السياسـة، إلـى جانـب عـدد محـدود مـن المقـالات العلميـة حـول صلـة علـم الأعصـاب بالسياسـة[6]. وهنـاك الكثيـر مـن الكتـب الدراسـية طبعًـا التـي تسـتهدف علمـاء الأعصـاب وطلبتهـم، ولكننـا كطلبـة سياسـة نواجـه مشـكلة داهمـة تتمثـل فـي عـدم أُلفتنـا بمـا يزخـر بـه الميـدان مـن مصطلحـات. ويعلِّـق جـون راتـي (John Ratey) علـى ذلـك قائـلًا:

> إن اللغـة المسـتعملة فـي وصـف الدمـاغ لغـة مبهمـة إلـى حـد يفـوق مـا كانـت عليـه مصطلحـات التحليـل النفسـي القديمـة مـن إبهـام. فقـد كانـت تلـك المصطلحـات مـن الصعوبـة والغمـوض مـا جعـل الخـوض فـي أدب ذلـك الموضـوع ومتابعتـه متعـذرًا إلا علـى المتخصصيـن المدربيـن فـي مجـال التحليـل النفسـي؛ فلـم يكتـرث معظـم النـاس بالإلمـام بهـا معتبريـن أن التعامـل

---

(6) انظر الاستثناء على ذلك في: Westen, Ibid., and George Marcus, *The Sentimental Citizen: Emotion in Democratic Politics* (University Park, PA: The Pennsylvania State University Press, 2002).

كذلك فإن بحوث دارن شرايبر في الاتصال السياسي مهمة أيضًا. انظر على وجه الخصوص بحوثه التالية: Darren Schreiber: «Political Cognition as Social Cognition: Are we all Political Sophistiates?,» in: Ann Crigler [et al.], eds., *The Affect Effect: Dynamics of Emotion in Political Thinking and Behavior* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007); «The Evolution of the Political Brain: An Agent-Based Model,» paper presented at: The Annual Meeting of the American Political Science Association, Philadelphia, 2006, and «Monkey See, Monkey Do: Mirror Neurons, Functional Brain Imaging, and Looking at Political Faces,» paper presented at: The Annual Meeting of the American Political Science Association, Washington, DC, 2005.

ومن البحوث مهمة أيضًا، انظر بحوث جويل واينبيرغر (Joel Weinberger) ودرو ويستن (Drew Westen) في «الإعلان السياسي دون مستوى الوعي» (Subliminal Political Advertising) في: Joel Weinberger and Drew Westen, «RATS, We Should Have Used Clinton: Subliminal Priming in Political Campaigns,» paper presented at: The International Society of Political Psychology Conference, Portland, OR, 2007.

وللاستزادة في استخدامات علم الأعصاب في السياسة والمناقشات الدائة حولها، انظر: Rose McDermott, «The Feeling of Rationality: The Meaning of Neuroscientific Advances for Political Science,» *Perspectives on Politics*, vol. 2, no. 4 (2004), pp. 691-706; *Political Psychology*, vol. 24. no. 4 (2003); George Marcus, «The Psychology of Emotion and Politics,» in: David Sears, Leonie Huddy and Robert Jervis, eds., *Oxford Handbook of Political Psychology* (New York: Oxford University Press, 2003), and Dustin Tingley, «Neurological Imaging as Evidence in Political Science: A Review, Critique, and Guiding Assessment,» *Social Science Information*, vol. 45, no. 1 (2006), pp. 5-33.

معها يجب أن يترك للمتبحرين في ذلك المجال على غرار ما كانت تُعتبر لغة علماء الكمبيوتر في بداية السبعينيات. وإذا شك أحد في ذلك، عليه أن يلقي نظرة سريعة إلى كتاب في فيزيولوجيا الأعصاب، لأن ذلك هو كل ما يحتاج إليه ليشعر برغبة في الهرب والاختباء(7).

وعلى الرغم من ذلك، فإن إدراك الإمكانات الكامنة في علم الأعصاب يقتضي الإحاطة ببعض مصطلحات الدماغ، من حيث إن هذه المصطلحات كما رأينا، أساسية لفهمنا لهذا الفرع المتطور من فروع علم المعرفة الذي قد يساعد على إلقاء الضوء على نطاق واسع من أشكال السلوك السياسي.

أُسس الدماغ البشري

لقد تطور الدماغ البشري عبر ملايين السنين. ويشير ويستن في هذا المضمار إلى أن «خلق الدماغ كان عملًا رائعًا، تركبت فيه الدوائر العصبية واحدة فوق الأخرى، وأخذ الصرح العتيد يزداد كبرًا وتعقيدًا»(8). وإذا ما انتقلنا من الطبقات الخارجية للدماغ إلى الحبل الشوكي (spinal cord)، نجد الدماغ البشري نوعًا من السجل «الأثري» الحي لتاريخه الخاص. فقد تطور جذع الدماغ (brain stem) بداية - وهو صيغة بدائية جدًا للأدمغة التي نمتلكها اليوم تتيح لنا الشعور والتفكير، وتنظيم دوافعنا الأساسية كالجوع. وبعد ذلك تطور المخ (cerebrum). ويشير ويستن إلى أن «التطور اللاحق أدى إلى نشوء تركيبات عليا شديدة الأهمية تتصل بخبرتنا الانفعالية». ومن أبرز هذه التركيبات اللوزة (amygdala)، «التي تدخل في كثير من العمليات الانفعالية، من التعرف إلى التعبيرات الانفعالية لدى الآخرين والاستجابة لهم، إلى إلصاق دلالة انفعالية بالأحداث، إلى تحديد شدة الخبرة الانفعالية، إلى توليد مشاعر الخوف وربطها بالخبرات المختلفة التي يمر بها الإنسان»(9).

---

(7) John Ratey, *A User's Guide To the Brain: Perception, Attention and the Four Theaters of the Brain* (New York: Vintage Books, 2001).

(8) انظر: Westen, *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation*, p. 50.

(9) المصدر نفسه، ص 57.

ويعمـل الدمـاغ البشـري في وضعـه الحالي عمـل سـكين سويسـري (a Swiss army knife) (أداة متعـددة الأجـزاء) بحيـث يقـوم كل مكـوِّن مـن مكونـات هـذه الأداة بتأديـة وظيفـة محـدّدة؛ وفـي جانـب آخـر نجـد مكونـات مختلفـة تشـترك فـي أداء وظائـف مختلفـة ولا تعمـل هذه المكونـات بصورة منفصلة عن بعضها بعضًا. ويقارن ويسـتن الدمـاغ بـ «النظام الفيديرالـي»[10]، إذ تعمـل بعـض المناطـق فيه، وخصوصًا تلـك التي تطـورت أولًا عندما كان الدمـاغ فـي حالتـه البدائية، تعمـل كمراكز متخصصـة في وظائـف معينة. «فاللـوزة» ترتبط بالخـوف والغضـب بوجـه خـاص، فـي حيـن أن «الجزيـرة» (insula) ترتبـط بالتقـزّز. غيـر أن مناطـق أخـرى مـن الدماغ تـؤدي دورًا فـي عمليـات متنوعة، مـا يجعل مـن الصعب إطلاق حكـم عام بشـأن مـا تقوم بـه مـن وظائف. وكما يشـير ويسـتن:

> لا يقـوم أي مكـوّن مـن مكونـات الدماغ بوظيفـة واحدة فحسـب، وكلما أفـاض علماء الأعصـاب فـي دراسـة الدمـاغ أيقنـوا أن أي نشـاط عقلـي ذي شـأن إنما يأخـذ مجراه مـن خلال اسـتثارة دوائر من مختلـف أجزاء الدماغ والتنسـيق بين هـذه الدوائر، بدءًا بالدوائـر البدائيـة فـي جـذع الدماغ إلـى الدوائـر الحديثة التطـور الواقعة فـي الفلوق الجبهية[11] (frontal lobes).

ويُحيـط بالمـخ القشـرة الدماغيـة، ويعـرف الجـزء الممتـد منهـا مـن وراء العيـون إلـى قمـة الـرأس بالقشـرة مـا قبـل الجبهيـة (prefrontal cortex) وهـي ذات أهميـة خصوصًـا فـي عمليـات التفكيـر. وتُعـرف المنطقـة الممتـدة مـن قمـة الـرأس إلـى الجانبيـن مـن القشـرة الدماغيـة بالقشـرة الجانبيـة مـا قبـل الجبهيـة - (dorsolateral prefrontal cortex)، وهـي منطقـة «تنشـط لـدى النـاس دائمًـا عندمـا يقومـون بإجـراء الخيـارات، «كمـا يشـير ويسـتن[12]. وتعمـل بوصفهـا «دوائـر تفكيـر» (reasoning circuits)، ويكـون لهـا دور عنـد الموازنة بيـن المكاسـب التـي تتحقـق مـن أفعـال معينـة والخسـائر التـي تترتـب علـى تلـك الأفعـال، وباسـتخدام اللغـة التـي اعتمدناهـا فـي هـذا الكتـاب، فـإن هـذه المنطقـة مـن القشـرة الدماغيـة تتضمـن أساسًـا عمليـات تفكيـر «بـاردة». ثـم نجـد المنطقـة الوسـطى

---

(10) Westen, The Political Brain, P. 53.

(11) المصدر نفسه، ص 60.

(12) المصدر نفسه، ص 60-61.

البطنية ما قبل الجبهية من القشرة الدماغية (ventromedial prefrontal cortex)، وهي منطقة ترتبط بالانفعالات والتفكير الانفعالي (emotional reasoning) (والذي سميناه الفكر «الحار» («hot» cognition)). كما يبدو أن هذه المنطقة تعمل حلقة وصل بين العمليات الحارة والعمليات الباردة.

وعندما بدأ الأطباء الأوائل بفتح الجمجمة البشرية والنظر إلى الكتلة الرمادية داخلها كانت معرفتهم بالدور الذي يؤديه كل جزء من أجزاء تلك الكتلة في التفكير محدودة. وبدأنا نتعرف إلى وظائف الدماغ البشري بالتدريج وذلك من خلال ملاحظة النتائج التي تظهر على سلوك الفرد إثر تعرضه لتلف عصبي من نوعٍ ما[13]. وقد عرضنا في الفصل السابق وصفًا مختصرًا لأعمال أنطونيو دماسيو (Antonio Damasio)، وهو عالم أعصاب كان لبحوثه أثر في شروع علماء نفس السياسة في الالتفات إلى الانفعالات. وقد كانت واحدة من أكثر القضايا التي أثارها دماسيو اجتذابًا للانتباه قضية التأثير المتبادل بين التفكير والانفعال. وكانت حجته في وجهة النظر هذه تقوم، في الجانب الأكبر منها، على ملاحظة ما يحدث لدى الأفراد الذين يتعرضون لتلف في القشرة الوسطى البطنية ما قبل الجبهية أو حولها وهي المنطقة التي تعمل على التكامل والتناسق بين التفكير والانفعالات. ويبدأ دماسيو كتابه المعنون **خطأ ديكارت** (*Descartes' Error*)، على سبيل المثال، برواية قصة فينيس غيج (Phineas Gage) الشهيرة[14]. فقد كان غيج ناظر بناء سكك حديد، تعرّض عام 1848، لحادث خطير عندما أدى انفجار هائل في موقع عمله إلى نفاذ شظية حديد إلى مقدمة رأسه وخروجها من الجزء العلوي من الرأس. لكن غيج لم ينج من الحادث فحسب، وإنما بدا سليمًا من أي خلل في وظائفه العقلية - حتى إنه كان قادراً على الجلوس ورواية ما حدث بهدوء وتعقل بعد وقوع الحادث مباشرة - مثيرًا بذلك دهشة طبيبه وزملائه في العمل.

وبدا فينس غيج كأنه قد تعافى تمامًا مما أصابه، على الصعيد الجسمي في

---

(13) للمزيد، انظر: Oliver Sacks, *The Man who Mistook his Wife for a Hat and Other Clinical Tales* (New York: Touchstone, 1998).

(14) Antonio Damasio, *Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain* (New York: Putnam Books, 1994).

الأقل. غير أن الذين يعرفونه لاحظوا تغيرًا واضحًا في شخصيته. ويقول دماسيو في وصفه للتغيرات التي طرأت عليه: إن «غيج ما عاد غيج»، حيث إن غيج «الجديد» فقدَ وقاره، وأصبح نزقًا، عديم الصبر في تعامله مع الآخرين، يُجادل بعناد مدافعًا عن أفكار سريعًا ما يتخلى عنها. وما عاد قادرًا على الاستقرار في عمل ثابت، كما أنه ما عاد يهتم بالتقاليد الاجتماعية، والقوانين الأخلاقية على الإطلاق وصار يأخذ قرارات سيئة في حياته، خلافًا لما كان عليه في السابق. فما الذي حدث؟ يؤكد دماسيو أن غيج تعرّض نتيجة للحادث إلى تلف في القشرة الوسطى البطنية ما قبل الجبهية، وهي منطقة «شديدة الأهمية لصنع القرارات السوية»[15]. وقد وصل دماسيو إلى هذا التشخيص بناء على صورة لدماغ غيج استخرجها معتمدًا على جمجمته وعلى أحدث تكنيكات التصوير الدماغي المعروفة. وبناء على حالات عديدة مماثلة، يقدم دماسيو أدلة مقنعة على أن الأجزاء «الانفعالية» من الدماغ تقوم بدور أساس في صنع القرارات السليمة، العاقلة. وبذلك، فإن دماسيو يقلب الفرضيات القديمة قدم الزمن رأسًا على عقب - تلك الفرضيات التي تقول إن الانفعال [أو العاطفة]، والعقل، خاصيتان، أو طريقان، منفصلان يمكن النظر إليهما بمعزل عن بعضهما بعضًا.

الإمكانات الواعدة للتصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي (fMRI)

سيكون جميلًا لو استطعنا أن نميز بدقة بين الانفعالات الإيجابية المختلفة (كالحب والتعاطف والفخر) والانفعالات السلبية المختلفة (كالتقزّز، والكراهية، والخوف) باستخدام التصوير، وإن كنا نستطيع ذلك الآن، إلى حد ما، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مثل هذه التكنيكات تستخدم بشيء من الحذر في الوقت الراهن، والدراسة التي أجراها كابلان (Kaplan) وزملاءه على انتخابات عام 2004 تشهد بذلك. ويُبيّن ماركو لاكوبوني (Marco Lacoboni) أن:

> هناك دليلًا لافتًا على وجود علاقات بين مناطق دماغية معينة وانفعالات معينة (منها العلاقة بين منطقة اللوزة والخوف، ومنطقة الجزيرة insula والتقزّز)، لكن ليس هناك خريطة محددة للموقع المعين والانفعال المعين.

---

(15) *Emotion, Reason and the Human Brain*, p. 32.

ويجب أن تفسّر كل استثارة في ضوء الشروط التجريبية التي تُلاحظ الاستثارة المعينة [للمنطقة الدماغية] ضمنها[16].

ويعود ذلك مرة أخرى إلى أن الدماغ البشري يشبه السكين السويسري (الأداة المتعددة المكونات) على نحو ما، إلا أن وظائفه موزعة على مناطق متعددة. وبالنظر إلى اللوزة، على سبيل المثال، يرى رالف أدولفز (Ralph Adolfs) أن:

التركيب المعين من تراكيب الدماغ قد يشترك في عدد من العمليات، وفقًا للوقت الذي يجري فيه رصد نشاط ذلك التركيب، ووفقًا لتفاصيل العمل المطلوب وسياقه. فمن الممكن أن تشترك اللوزة في التقويم المبدئي، السريع لأهمية المثيرات [التي يتعرض لها المجرب عليه]، كما تشترك في الوقت ذاته في التقويم اللاحق لتلك المثيرات ضمن سياق وهدف محدديْن[17].

وعلى الرغم من أن الخبراء قد يختلفون في تفسير نتائج التصوير الدماغي، فإن من الواضح أن هذا التكنيك يتفوق على الاستبيانات من نواحٍ عدة. وهناك سببان رئيسيان وراء ذلك. **أولهما** يتمثل في أننا لا نستطيع الثقة دائمًا بما يقوله لنا المجيبون على الاستبيانات بشأن الانفعالات التي تنتابهم (أو ما يقولونه بشأن اعتقاداتهم السياسية). ووفقًا لعالم النفس السياسي شانتو آينغار (Shanto Iyengar) فإن:

تسعين في المائة من نتائج البحث الأكاديمي في العلوم السياسية حول آثار الإعلانات التي تبث في الحملات الانتخابية، نتائج زائفة، من حيث إنها تقوم على التقارير الذاتية (self-reports) للأفراد حول الرسائل والصور الكثيرة والمتباينة التي يتعرضون لها في تلك الحملات. ومن هنا، فإن أي جهد يوجه نحو رصد الاستجابات الحقيقية للأفراد إزاء الإعلانات - سواء كانت استجابات عصبية أم لفظية أم سلوكية - يمثل خطوة في الاتجاه الصحيح[18].

---

(16) اتصال بين المؤلف والدكتور ماركو لاكوبوني في 7 كانون الأول/ديسمبر 2007.

(17) Ralph Adolphs, «Cognitive Neuroscience of Human Social Behavior,» *Nature Reviews: Neuroscience*, vol. 4, no. 3 (March 2003), pp. 165-178, and Tingley, «Neurological Imaging as Evidence in Political Science: A Review, Critique, and Guiding Assessment,» p. 19.

(18) مذكور في: Tierney, «The 2004 Campaign: Using MRIs to See Politics on the Brain».

ثانيًـا، ربما لا يكـون المجيبون عن الاسـتبيانات واعين تمامًا بالانفعـالات التي تنتابهم فـي حقيقـة الأمـر، أو ربمـا لا يكونـون قادرين علـى التعبيـر عنهـا بطريقة واضحـة. ويؤكد لاكوبونـي أن «الشـيء الجميـل فـي التصوير هو أنـه يزودنـا معلومات لا نسـتطيع الحصول عليهـا مـن التقارير اللفظية»، ليـس أقلها أن «هناك أدلـة وافرة على أن التمثيـل الماورائي/ الفوقـي (metarepresentation) للحـالات المعرفية يعمـل منفصلاً عن الحـالات المعرفية [الجارية في الواقـع] ذاتها»[19].

ولعـل واحـدًا مـن أهـم المحـددات المعروفـة لاسـتخدام المتخصصيـن للتصويـر الدماغـي فـي العلـوم الاجتماعيـة هـو كلفتهـا الماديـة. حيـث يفيـد لاكوبونـي أن، «كلفـة الجهـاز فـي مركزنـا تصـل إلـى 600 دولار فـي السـاعة، وهـذا هـو المعـدل السـائد». فـكل مـن أجـرى صـورة MRI فـي الولايـات المتحـدة ونظـر إلـى الحصـة التـي غطاهـا التأميـن الطبـي - أو اضطـر، لا قـدّر اللـه، إلـى دفعهـا بنفسـه بالكامـل - سيشـهد بكلفتهـا الباهظـة. وهـذا يعنـي أن اسـتخدام التصويـر الدماغـي فـي علـم النفـس السياسـي يعتمـد، لا محالـة، علـى قـدرة الباحـث علـى الحصـول على منح بحثيـة ضخمة. فالسـيناريو الـذي بدأنـا بـه هـذا الفصـل ممكـن تكنولوجيًـا، لكـن أكبـر معيـق لإجرائـه هـو كلفتـه. ومـن ناحيـة أخـرى، سيتسـاءل العديـد مـن علمـاء الأعصـاب عمـا إذا كان مـن الضـروري أخـذ جمهـور السـينما كامـلًا كمجـرب عليهـم للحصـول علـى البيانـات التـي تهم المتخصصيـن فـي العلـوم الاجتماعيـة الذين يفضلـون عينات كبيـرة من المبحوثين لأسـباب إحصائيـة، لكـن المتخصصيـن بالتصويـر الدماغـي يميلـون، كما يشـير لاكوبوني، إلـى النظر إلـى هـذه القضيـة بطريقـة مختلفـة، إذ يفيـد أنه:

> حتــى لــو أن الباحــث امتلــك مصــادر ماليــة غيــر محــدودة، فإنــه مــن الصعــب (وربمــا ليــس مــن المفيــد) إجــراء بحــوث علــى مئــات مــن المبحوثيــن. لأن التصويـر الوظيفـي بالرنيـن المغناطيسـي، **أولًا** وقبـل كل شـيء، يولّـد أطنانًـا مـن البيانـات حتـى لـو تـم أخـذ مبحـوث واحـد فـي جلسـة واحـدة. و**ثانيًـا**، لأنـه ليـس مـن المؤكـد مـا إذا كان أخـذ عـدد أكبـر مـن المبحوثيـن سـيوفر معلومـات

(19) انظر مثلًا بحوث جوناثات سكولر (Jonathan Schooler).

أفضل. والحجم الغالب للعينة هذه الأيام في دراسات التصوير يراوح بين 15 و25 مبحوثًا (وكان أقل من ذلك في ما سبق).

وقد خرج لاكوبوني من دراساته الخاصة في هذا المجال بانطباع مفاده «أن الباحث لا يجني كثيرًا من مجرد إشراك أعداد كبيرة من المبحوثين»[20]. غير أن الكثيرين لا يوافقون على أن الأعداد الصغيرة من المبحوثين ستكون كافية لتناول موضوعات كموضوع السلوك الانتخابي. ويشير الدكتور جفري بدويل (Jeffrey Bedwell) - وهو عالم نفس إكلينيكي (Clinical Psychologist) من جامعة سنترال فلوريدا ذو خبرة في التصوير الدماغي - إلى أن دراسات التصوير الدماغي لم تهتم تقليديًا بالمقارنات الاقتصادية الاجتماعية، على سبيل المثال. غير أن علماء نفس السياسة يعرفون أن أخذ عينات ممثلة لمجتمعها تمثيلًا جيدًا أمر أساسي للوصول إلى استنتاجات شاملة لذلك المجتمع. ويرى بدويل أن دماغ فرد لا يكون مطابقًا لدماغ فرد آخر بالضرورة، فالنمو الخاص بالدماغ يمكن أن يختلف باختلاف الجندر، والوضع الاقتصادي الاجتماعي، والعمر، على سبيل المثال. ويؤكد أن المقارنات المستهدفة في دراسات السلوك الانتخابي التقليدية لا بد أن تراعي ذلك عندما يقع الاختيار على التصوير الدماغي كوسيلة لدراسة هذا السلوك[21].

الإمكانات الواعدة للرسم الكهربائي لموجات الدماغ

يُستخدم الرسم الكهربائي لموجات الدماغ EEG تقليديًا لتقصي المستويات العامة لنشاط الدماغ لأغراض طبية. حيث يُستخدم هذا التكنيك، على سبيل المثال، لتقصي الانقطاعات في النشاط الدماغي لدى المرضى الذين يعانون نوبات مرضية. ويمكن استخدام هذا النوع من الوسائل لتقصي مكنزمات الانتباه (ما إذا كان الناس منتبهين للدعايات الانتخابية وغيرها من المثيرات السمعية أو البصرية، على سبيل المثال). وخلافًا للتصوير الدماغي (fMRI)،

(20) اتصال بين المؤلف وماركو لاكوبوني.

(21) اتصال بين المؤلف وجفري بدويل (Jeffrey Bedwell) في 13 كانون الأول/ديسمبر 2007.

لايوفر الرسم الكهربائي لموجات الدماغ الكثير من التفاصيل للأجزاء المحددة من الدماغ التي تجري استثارتها، وبذلك فإنه لا يُبلغنا سوى القليل عن المشاعر المحددة التي يخبرها الناس. وفي حين أنه يمكن أن يكشف لنا أن المرشح المعين يستثير استجابات انفعالية من نوع ما، إلا أنه لا يستطيع تحديد نوع تلك الاستجابة. غير أن المشكلة التي تواجهنا في استخدام الـ «إي إي جي» (EEG) كما يصفها لاكوبوني، هي أنه لايعطينا معلومات مكانية كافية لنعرف بالضبط من أين تأتي الإشارة [التي يرصدها الجهاز]، وخصوصًا عندما تتعلق تلك الإشارة بالانفعالات والمكافأة [أي الاستجابة الدماغية عند تلقي مكافأة]، والتي كثيرًا ما تتصل بالتركيبات الدماغية ما تحت القشرة الدماغية»[22]. ومن جهة أخرى، إذا احتجنا إلى توقيت العمليات بأجزاء من الثانية، فإن الـ إي إي جي (EEG) يكون أفضل من الـ إف إم آر آي (fMRI) (لأن الأخير أبطأ في سجله الزمني ويتعامل بالثواني لا بأجزائها)[23]. كما أن الإي إي جي (EEG) أقل سعرًا، وهذا يمثّل ميزة رئيسة فيه. وبالقدر الذي نحتمل فيه محدوديات هذه الوسيلة، فإنه يمكن استخدامها للقيام بأعمال بحثية مثيرة للاهتمام، والأجيال المستقبلية من علماء نفس السياسة سيتعهدون ذلك ولا ريب.

المحددات وإمكانات إساءة الاستخدام

ينظر معظم علماء الأعصاب - بما فيهم لاكوبوني - بحذر إلى ما يمكن أن يضيفه التصوير الدماغي إلى معرفتنا في السياسة. ويفيد جوناثان كوهن (Johnathan Cohen) مدير «مركز دراسة الدماغ والعقل والسلوك» في جامعة برنستون أن:

> التصوير الدماغي يعطي فرصة هائلة لدراسة استجابات الناس للمعلومات السياسية؛ لكن نتائج مثل هذه الدراسات كثيرًا ما تكون معقدّة، ويجدر أن نقاوم إغراء أن نقرأ فيها ما نرغب في أن نقرأه، قبل أن نفحص استنتاجاتنا بدقة كافية[24].

---

(22) اتصال بين المؤلف وماركو لاكوبوني.

(23) محادثة بين المؤلف وجفري بدويل.

(24) مقتبس من: Tierney, «The 2004 Campaign: Using MRIs to See Politics on the Brain».

لكـن كثيـرًا مـن الباحثيـن لا يشـعرون بالحرج مـن طرح أفـكار جريئـة لبحوث جديـدة. فقـد خـرج أحـد المعلقيـن باقتـراح، مثيـر للجـدل، طالب فيـه بإجراء مسـح دماغـي للمرشـحين الرئاسـيين قبـل النـزول إلـى الانتخابـات. ويؤكـد دانيـال آيمـن (Daniel Amen) أن «ثلاثـة من الرؤسـاء الأربعة الأواخـر في الولايات المتحـدة كان لديهـم أمـراض دماغيـة واضحـة المعالـم؛

فقـد كان مـرض الألزهايمـر واضحًـا لـدى ريغـان في خـلال فترة رئاسـته الثانيـة، وقام أنـاس غير منتخبين بتغطية نسـيانه وتسـيير شـؤون البـلاد. كنا نواجه أزمـة وطنية، لم يعلـم بهـا إلا القليلـون. ولقـد بيّنـت دراسـات الدمـاغ أننا نسـتطيع التنبـؤ بالألزهايمر قبـل خمس إلى تسـع سـنوات مـن ظهـور أعراضه الأولـى لدى النـاس[25].

ويبـدو هـذا الـرأي سـليمًا لأنـه يتفـق مـع السـجل التاريخـي لريغـان علـى نحـو مـا. وإضافـة إلـى ذلـك، يعزو آيمن «سـوء الأحـكام، والسـعي إلى الإثـارة» لدى بـل كلينتون إلى «مشـكلات فـي القشـرة مـا قبـل الجبهيـة»، وهذه قفـزة منطقيـة مشـكوك في صحتهـا، من حيـث إن آيمـن لـم يجـرِ أي نوع مـن التصوير الدماغـي لكلينتـون يدعم خروجه بـأي ادعاء مـن هذا القبيل. فما الذي يفسِّـر سـلوك كلينتون الشـديد الحـذر عامة فيما يتعلـق بأجندته السياسـية المحليـة، إذا كانت المشـكلة عصبية في واقـع الأمر؟ ويذهب آيمن بعيـدًا، دونما دليـل، مضيفًـا، «إن الصعوبـات التـي يكابدهـا الرئيـس الحالـي (أي جـورج دبليـو بـوش [في حينـه]) مـع اللغـة، وتصلبـه العاطفـي، هـي أعـراض لحالـة مرضيـة تتصـل بالفلـق الصدغـي (temporal lobe)» وتذكرنـا هـذه الادعـاءات بطبيعـة الحـال، بادعـاءات كُتّـاب السِـيَر النفسـية حيـن يعـزون أنمـاط سـلوك بالغـة التعقيد، إلـى أسـباب بالغـة التبسـيط، وغير موثـوق بها. كمـا أن هنـاك خطر إسـاءة اسـتخدام البحـوث العلمية الموثـوق بهـا، أو تحريفهـا، والخروج منهـا بادعـاءات حـول مـا يمكن ومـا لا يمكـن لعلـم الأعصاب الكشـف عنه.

---

(25) Daniel Amen, «Getting Inside their Heads... Really Inside,» *Los Angeles Times*, 5/12/2007.

إلّا أن التطوّر في تصوير الدماغ لم يصل بعد إلى مستوى يسمح بتنبؤات موثوقة حول الألزهايمر لاحقًا، على أي حال. والإشارة هذه مبنيّة على محادثة بين المؤلف وجفري بدويل.

كذلك، فإن واحدًا من المحددات الكامنة في الدراسات الراهنة حول صنع القرارات السياسية باستخدام التصوير الدماغي بتمثّل في أننا لا نزال غير قادرين على تحديد ما يجري بالضبط داخل أدمغة الذين يشاهدون الصور السياسية. صحيح أن لدينا قدر من معرفة الأدوار التي تقوم بها أجزاء مختلفة من الدماغ في استجاباتنا للمثيرات، إلا أن هذه المعرفة ما زالت محدودة. وفي حين أن علماء الأعصاب يستطيعون ملاحظة أجزاء الدماغ المرتبطة بالعمليات الانفعالية «حين تضيء» هذه الأجزاء [عند حدوث الانفعال]، غير أنه يكون من الصعب في بعض الحالات معرفة سبب حدوث ذلك بالضبط. ففي الدراسة التي قام بها كابلان وزملاءه، والتي ناقشناها في ما سبق، يعترف الباحثون أن بعض نتائجهم كانت متسقة مع فرضيات مختلفة. حيث وجدوا دليلًا، على سبيل المثال، على ظهور نشاط في القشرة الجانبية ما قبل الجبهية (dorsolateral prefrontal cortex) والقشرة الطوقية الأمامية (the anterior cingulate cortex) عندما كان الناخبون ينظرون إلى صور المرشح المنافس لمرشح حزبهم. على أنه ليس من الواضح ما إذا كان هذا يحدث لأن أنصار الحزب المعين يكبتون الانفعالات السلبية عمومًا لأنها انفعالات غير سارة، أم لأنهم يكبتون انفعالات إيجابية قد يضمرونها نحو المرشح المنافس، أم لأنهم يحاولون تضخيم مشاعرهم السلبية نحو ذلك المرشح[26].

كما أن علماء السياسة يجب أن يقاوموا إغراء استخدام التصوير الدماغي أو الرسم الكهربائي للدماغ كهدف بحد ذاته[27]. فهي كغيرها من وسائل البحث واحدة من العديد من الوسائل الممكنة. فقد يكون استخدام الـ إف إم آر آي (fMRI) ملائمًا في بعض الحالات - حين يكون لدينا ما يبرر الاعتقاد بأن تكنيكات التقرير الذاتي غير ملائمة للدراسة قيد البحث - غير أن هناك حالات أخرى تتاح لنا فيها وسائل أفضل - وإن كانت أقل بريقًا. كما أن هناك وسائل

(26) Kaplan, Freedman and Lacoboni, «Us Versus them: Political Attitudes and Party Affiliation Influence Neural Response to Faces of Presidential Candidates,» pp. 60-61.

(27) حول هذه النقطة، يمكن الرجوع إلى: Darren Schreiber, «Race and Social Norms: An FLVIRI Study,» paper presented at: The International Society of Political Psychology Conference, Portland, OR, 2007.

سلوكية تُغنينا عن التقارير الذاتية، كقياس زمن الرجع (reaction time) لمثيرات مقنّعة [ذات دلالة سياسية مثلا]. والتصوير الدماغي، وإن كان يزودنا صورًا متحركة للدماغ، فإنه ربما لا يخدم أغراضًا بحثية أخرى كتوضيح الصلة بين الفكر والسلوك - وهو غالبًا ما يكون عليه الحال في علم النفس السياسي. وبالنظر إلى الكلفة العالية لتكنيكات التصوير الدماغي على وجه الخصوص، علينا أن نسأل أنفسنا على الدوام ما إذا كان التصوير الدماغي سيوصلنا إلى معلومات بالغة القيمة لا يمكننا الوصول إليها بأي وسيلة أخرى.

الموقفية مقابل النزوعية، مرة أخرى

على الرغم من أن تطبيق علم الأعصاب على السلوك السياسي لا يزال في مراحله المبكرة، فإنه يمثّل منهجًا بالقدر الذي يكوّن فيه كيانًا نظريًا متكاملًا، وهو يمثل بوضوح مقاربة نزوعية، من حيث إنه يركز على النظر في الخصائص الفردية. وهو بذلك ينضاف إلى المنظورات التي تفترض أن خصائص الأفراد - المتمثلة في هذه الحالة بكيمائيات الدماغ - هي التي تكوّن سلوكهم. ولن يكون في علم الأعصاب ما يعني علماء السياسة في شيء ما لم يكن لنشاط الدماغ دور في تكوين السلوك السياسي. لكن علم الأعصاب في وضعه الراهن لا يحسم هذا الجدل بطريقة أو بأخرى. ولو نظرنا ثانيةً في بحوث ستانلي ملغرام (Stanley Milgram) الرائدة في مجال الطاعة، على سبيل المثال، والتي تناولناها في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وافترضنا أن تكنيكات الـ إف إم آر آي (fMRI) كانت متاحة في حينه، وأنه اختبر مبحوثيه وهو يلاحظ التغيرات في أنماط نشاطهم الدماغي في الوقت ذاته، لتوقعنا تزايدًا في نشاط أجزاء الدماغ المتعلقة بالصراعات الداخلية (مثل القشرة الطوقية الأمامية (anterior cingulate cortex) ومناطق أخرى تصاحب الانفعالات التي تستثيرها الطاعة أو عدم الطاعة. ولو كان ملغرام قد أدخل هذا التكنيك فهل يتبيّن لنا ما إذا كان النشاط العقلي هو الذي «يسبب» الطاعة أو عدم الطاعة؟ أم هو يُبيّن ما يحدث لكيمياء الدماغ ونحن نستجيب لموقف خارجي «يُفرض» علينا فيه أن نتصرف على نحوٍ مخالفٍ لاعتقاداتنا؟

هذا سؤال مثير، لسنا طبعًا في موقع يسمح لنا بإجابته في الوقت الراهن. فالجواب لن يكون قاطعًا، وإنما سيكون بصيغة احتمال نقول فيه «ربما، لكن

ليس بالضرورة». وفي هذه الحالة، سيُظهر لنا التصوير التغيرات التي تجري في الدماغ عندما يشعر المريء بأنه مضطر إلى أن يسلك بطريقة تتناقض مع أحكامه أو قيمه: وهو كشف ممتع بحد ذاته، لكنه لا يضيف كثيرًا إلى فهمنا للسلوك. وكما يشير داستن تنغلي (Dustin Tingley)، «إذا لاحظنا النمط «س» في نشاط الدماغ جنبًا إلى جنب مع السلوك «ص» فإن ذلك لا يقدم بالضرورة تفسيرًا لسبب حدوث «ص»، في إطار القضايا السياسية التي تهمنا»[28]. وهذه هي النقطة الأساس في الإجابة عن سؤال «ما أهمية علم الأعصاب لنا كطلبة سياسة؟» وبالنظر إلى تجارب ملغرام، مرة أخرى على سبيل المثال، إذا كان الموقف الذي أحاط به مبحوثيه هو العامل المسبب لسلوكهم، فإن أخذ صور للنشاط الدماغي للمبحوثين لن يضيف كثيرًا إلى فهمنا لسلوكهم، غير أن هذه الصور، من ناحية أخرى، قد تعزز تكهنات ملغرام بأننا جميعًا نمتلك نزعة إلى الطاعة بُنيت فينا في خلال تطورنا كنوع.

وعلى الرغم من هذا وذاك، يُجمع معظم الباحثين على التفاؤل بأن التقدم في علم الأعصاب سيفيد علم السياسة - ذات يوم في الأقل - ويقود إلى تقدم في فهمنا للسلوك السياسي. فالتصوير الدماغي يزخر بإمكانات تتيح لنا «رؤية» التفكير السياسي للعامة، وتكنيكات كالرسم الكهربائي للدماغ (وإن كانت محدودة الإمكانات) تكون ملائمة عندما نكون مهتمين بما إذا كان لرسالة سياسية ما صدى لدى الناخب. وقد اقتصر توظيف التطورات في علم الأعصاب حتى الآن على سلوك الانتخاب، والثقافة السياسية/الاطلاع السياسي (sophistication)، والتسامح، واستُخدمت بوجه خاص في دراسة استجابة الدماغ للأفراد من العنصر المغاير [العنصر الفرد]، وهو ما سنتناوله في الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب. وعلى أية حال، فإن هذه التكنيكات قد تُحدث تطورًا ثوريًا في نظرة علماء السياسة إلى جميع العمليات المعرفية [بما فيها المتعلقة بالانفعالات]، وليست تلك التي اعتبرت تقليديًا خاضعة لسيطرة العمليات المعرفية الحارة فحسب.

---

(28) Tingley, «Neurological Imaging as Evidence in Political Science: A Review, Critique, and Guiding Assessment,» p. 6.

خاتمة

يتضح لنا الآن جليًا أن هناك أشكالًا مختلفة من الموقفية والنزوعية على حد سواء. وسنحاول في الباب الأخير من هذا الكتاب التصدي لمهمة صعبة، يجب أن نعترف، لم يسبق أن تم تناولها على هذا النحو من قبل: وهي مهمة تناول عدد من المجالات الإمبيريقية التي أخضعها علماء نفس السياسة للدراسة - وذلك ضمن الإطار العام الذي اعتمدناه في هذا الكتاب - وعلماء نفس السياسة الذين درسوا هذه المجالات المتنوعة هم أيضًا جماعة متنوعة إلى حد كبير تعمل من منطلقات نظرية متعددة وتعكس اهتمامات مختلفة.

غير أنه ما من إطارٍ نظري يتصف بالكمال، كما اعترفنا في بداية هذا الكتاب، وقد يصادف القارئ، في ما سنتناوله من مجالات بحث [في الفصول الخمسة القادمة]، مناطق مبهمة؛ فربما نجد نظريةً ما لا تتلاءم مع مقاربة أو أخرى من هاتين المقاربتين، أو أنها تتلاءم مع كلتيهما، وهو الحال الأكثر شيوعًا، وهذا أمر متوقع، حيث إن قلّة من النظريات تؤكد أهمية اعتقادات الأفراد وشخصياتهم وتستبعد أثر السياقات، والبيئات، والمواقف التي تواجههم. وبالمثل فإن النظريات التي تأخذ اتجاهًا موقفيًا خالصًا ولا تتطرق على الإطلاق إلى التركيبة النفسية للأفراد نظريات قليلة. وكما سنرى لاحقًا، فإن معظم مجالات علم النفس السياسي تأخذ بأحد هذين الاتجاهين أو الآخر، مع تغير في ما يسود من اهتمامات مع الوقت.

الباب الثالث

ربط الاثنين معًا

12
علم نفس سلوك الانتخاب

أسهمت فروع عدة من علم النفس - أبرزها الفرعان الاجتماعي والمعرفي - إسهامات رئيسية في تطوير دراسة سلوك الانتخاب (أو التصويت، كما يشار إليه أيضًا). والبحوث المبكرة في هذا المجال (التي تأثرت بعلم النفس الاجتماعي إلى حد كبير) كانت ذات طابع موقفي بشكل واضح كما سنرى بعد قليل، بينما كانت البحوث اللاحقة (التي انبثقت من علم الاقتصاد، وعلم النفس المعرفي، والبحوث في العاطفة والانفعال) نزوعية في اتجاهها. والواقع، إن تطبيق السكيمات وغيرها من البنى المعرفية على السياسة يجري أكثر ما يجري في نطاق سلوك الانتخاب. وتظهر الفروق بين افتراضات النموذجات النظرية لسلوك الانتخاب القائمة على علم الاقتصاد وتلك القائمة على علم النفس واضحة بشكل خاص هنا. ويجدر أن نلاحظ منذ البداية أن دراسة الخيارات الانتخابية في الوقت الحاضر تتأثر بمنظوريْ «الإنسان الاقتصادي» (Homo economicus) و«الإنسان النفساني»[1] (Homo psycholgicus).

من الموقفية إلى النزوعية

كانت النموذجات الأولى التي ظهرت في مجال سلوك الانتخاب، من مثل دليل النزعة السياسية (index of political predisposition) (IPP) الذي وضعه بول

---

(1) أصبح أدب هذا الموضوع غاية في الاتساع ممّا يجعل التعريف به كلّه أمرًا مستحيلًا، ولكننا سنركز على بعض خطوطه الرئيسية.

لازرفيلد (Paul Lazarsfeld) وبرنارد بيرلسون (Bernard Berelson)، موقفية بالكامل في طبيعتها[2]. فقد رأت هذه المقاربة أن التنبؤ الدقيق بسلوك الانتخاب يمكن أن يُبنى على معرفتنا المستوى الاقتصادي الاجتماعي للناخب، ودينه، ومكان سكنه وغير ذلك من خصائصه الاجتماعية. فكانت تنظر إلى الانتخاب على أنه دالة البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الناخب، كما تنظر إلى الناخبين على أنهم يتقبلون الأوضاع الاجتماعية التي يجدون أنفسهم فيها بسلبية.

ولم يكن في هذا المنظور المبكر لسلوك الانتخاب كثير من علم النفس، غير أن الستينيات شهدت تحولًا أساسيًا نحو النزوعية عندما أضافت مقاربة التماهي الحزبي (party identification approach) - وهو إحدى الصيغ النزوعية التي أُخضعت لكثير من المراجعة - متغيرًا سيكولوجيًا صريحًا إلى ميدان البحث في سلوك الانتخاب. وتقول هذه النظرية بكل وضوح إن الموقف ليس كل شيء، وإن الاختيار الانتخابي لا يتحدد بالوضع الاجتماعي أو الاقتصادي فحسب. ويؤكد آنغوس كامبل (Angus Campbell) وزملاءه من جامعة ميشيغن في كتابهم الكلاسيكي **الناخب الأميركي** (*The American Voter*) أن معظم الناخبين يطورون مع الوقت رابطة عاطفية طويلة الأمد، أو نزعة، نحو حزب سياسي معين في خلال فترة تكوّنهم الحزبي أو فترة مراهقتهم[3]. وهذا يعني أننا نطور انتماء إلى واحد من الأحزاب إبان فترة نمونا السياسي - نتيجة لما نسمعه من الوالدين والجيران حول السياسة، أو ما يصلنا من خلال البيئة الاجتماعية التي نعيش فيها - وأن الرابطة التي تنشأ بيننا وبين حزب معين تحدد الجهة التي سنصوت لها بقية حياتنا (ما لم يقع شيء دراماتيكي جدًا يجعلنا نغير أفكارنا كما تتنبأ نظرية التناسق المعرفي). وبذلك تتكوّن النزعات الفردية نحو السياسة - والتي تتأثر بالتكوين الخاص لنظام الحزب (كأن يكون محافظًا «أو ليبراليًا»). ونتيجة لذلك تنقسم الكتلة التصويتية الأميركية إلى معسكرين ضخمين، أحدهما يتألف من المتماهين مع الحزب الجمهوري (Republican Party identifiers) ويتألف

---

(2) على سبيل المثال، انظر: Paul Lazarsfeld, Bernard Berelson and Hazel Gaudet, *The People's Choice* (New York: Columbia University Press, 1948).

(3) Angus Campbell [et al.], *The American Voter* (New York: Wiley Press, 1960).

يُعرف هذا المنحى أحيانًا كمدرسة ميشيغن (Michigan School).

الآخر من المتماهين مع الحزب الديمقراطي (Democratic Party identifiers). وقد استورد دايفد باتلر (David Butler) وزملاءه هذا النموذج إلى بريطانيا ورأوا أن الكتلة التصويتية البريطانية تمثل معسكرين ضخمين يضمان المتماهين مع حزبيْ المحافظين والعمال[4].

ومن الجدير بالملاحظة أن التماهي الحزبي يميل إلى الثبات عبر الزمن ويقاوم التغيير. فقد يخسر الحزب بعض الانتخابات، وقد يؤدي أداءً سيئًا عند وصوله إلى الحكم، وقد يتبنى سياسات في بعض القضايا لا تتفق مع ما تراه أنت، ولكنك تظل تدعم الحزب، لأنه حزبك. ويترتب على ذلك أن كثيرًا من الناس لا يأبهون للقضايا التي تُناقش في الانتخابات بقدر ما يأبهون للحزب ذاته. فالعضو المتماهي مع الحزب بقوة، على سبيل المثال، سيميل إلى «حذف» أو إهمال المعلومات غير المرغوب فيها المتعلقة بالحزب، حتى عندما لا يكون متفقًا مع مرشح الحزب في قضايا سياسية شديدة الأهمية. مثال ذلك أن كثيرًا من الجمهوريين كانوا يرغبون في إسقاط دان كويل (Dan Quayle) بوصفه نائب رئيس في انتخابات عام 1992. وكان بعض المتنفذين في الحزب يسعون وراء الكواليس لاستبداله بشخص يتمتع بقدر أكبر من الشعبية، مثل كولن باول (Colin Powell). ومع ذلك كان احتمال تصويت المتماهين مع الحزب الجمهوري بقوة ضد حزبهم عام 1992 بسبب كويل، احتمالًا ضعيفًا ذلك لأن المتماهين بقوة مع الحزب يحذفون المعلومات التي لا تعجبهم ويمارسون «إدراكًا انتقائيًا» [ينتقون من خلاله ما يعجبهم]، فهم بعبارة أخرى، يرون ما يريدون رؤيته.

ومن حيث إن فيليب كونفرس (Philip Converse) أحد مؤلفي كتاب **الناخب الأميركي** كان متخصصًا في علم النفس الاجتماعي، فإن تأثير هذا الميدان - في الوضع الذي كان عليه في الخمسينيات والستينيات - يبدو واضحًا في النموذج النظري الذي يعرضه الكتاب. فقد ركز النموذج بادئ ذي بدء، على التماهي مع الجماعات المرجعية (reference groups)، وأكّد أهمية الدافع للمحافظة على

(4) David Butler and Donald Stokes, *Political Change in Britain: Forces Shaping Electoral Choice* (New York: St. Martin's Press, 1969).

الاتساق المعرفي[5]. ولا بد أن القارئ يرى تأثير نظرية الاتساق المعرفي بوضوح بعد ما عرفناه عنها في الفصل التاسع. وكما رأينا في ذلك الفصل، تفترض النظرية أن الناس لا يحبون التصرف بشكل يتناقض مع اعتقاداتهم، أو أن يكون لديهم اعتقادات لا تنسجم في ما بينها، أو أن يواجَهوا بمعلومات تتعارض مع تلك الاعتقادات. وترى النظرية أن جميع هذه الشروط تخلق حالة من الضيق النفسي، وهذا ما يدعوه ليون فستنغر (Leon Festinger) بالتنافر المعرفي[6] (cognitive dissonance). ومن الحالات التي يعبر فيها التنافر المعرفي هذا عن نفسه، الحالة التي يجد فيها الشخص المتماهي بقوة مع حزبه أنه على خلاف مع الحزب إزاء قضية ذات أهمية خاصة، كالحقوق المدنية أو الإجهاض، أو حين يجد أنه لا يحب الشخص الذي رشحه الحزب للمنصب الرئاسي أو لمنصب نائب الرئيس. وتفترض النظرية أن حدوث مثل هذا التنافر يولد لدى الناخب دافعًا لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه من توازن (وهو ما يدعوه فستنغر بالاتساق (consistency). ويمكن استعادة ذلك الاتساق، من وجهة نظر فستنغر، بتبرير عدم الاتفاق الذي نشأ بين الناخب والحزب، أو تبرير عدم قبول الناخب لمرشح الحزب، وذلك بالتقليل من أهمية الأمر المختلف عليه (كالقول إن قانون الحقوق المدنية لن يغير كثيرًا)، أو القول إن «المحكمة العليا هي التي ستتخذ القرار المتعلق بالإجهاض على أي حال»، وهكذا....) أو ربما يضيف الشخص اعتقادًا جديدًا يقلل التنافر. وأخيرًا، يستطيع الناخب تغيير انتمائه الحزبي برمته ليستعيد توازنه ويلغي التعارض بين سلوكه الانتخابي وترشيح الحزب بالكامل، غير أن نموذج التماهي الحزبي يؤكد أن هذا الاحتمال الأخير احتمال ضعيف جدًا لأن تغيير الانتماء الحزبي للناخب يحتاج إلى حدث جلل كالحرب أو الانهيار الاقتصادي ليحدث في الواقع.

وقد اكتسب فيليب كونفرس شهرته بوجه خاص لطرحه وجهة النظر القائلة

---

(5) انظر موقع مؤتمر جامعة ديوك (Duke University) حول علم نفس الانتخاب،
<http://www.ssri.duke.edu/anes/voting.html>.

(6) Leon Festinger, *Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957).

إن الناخبيـن يفتقـدون مـا يصطلح عادة على تسـميته بضوابط الاتجـاه[7] (attitude constraint). حيـث أظهـرت المسـوحات العامـة التـي أجريـت منـذ الأربعينيـات أن الناخبيـن العادييـن مـن الأميركييـن ليسـوا علـى درجـة رفيعـة مـن الاطـلاع علـى شـؤون السياسـة، ولا يولـون مـا يجـري فـي عالـم السياسـة الكثيـر مـن الانتبـاه. ولاحـظ كونفـرس أن قلـة منهـم تمتلك «أيديولوجيـة» واعيـة، بالقـدر الذي نتوقع من شـخص مطلع سياسـيًا. فمعظمهـم، كما يؤكد كونفـرس، يحمـل اتجاهـات «مـن كل مـكان»، بحسـب وصـف أحد معلميـه، فهـم يأخذون موقفًـا ليبراليًـا مـن بعـض القضايـا ومحافظًـا مـن قضايـا أخـرى، وهـم لا يفهمـون تمامًا ما تعنيـه مصطلحـات «ليبرالـي» أو «محافـظ» فـي كثيـر مـن الأحيان.

وبنـاء علـى هـذا النموذج، فـإن غالبيـة النـاس لا يعنيهـم المرشـحون أو مواقفهـم إزاء قضايـا السـاعة، فالمنتمـون إلـى الحـزب الديمقراطي سـيصوتون على الـدوام لمرشـح الحزب الديمقراطـي، والمنتمـون إلـى الحـزب الجمهـوري سـيصوتون علـى الـدوام لمرشـح الحـزب الجمهـوري. فرغـم تعدد مرشـحي الحـزب الديمقراطـي للمنصب الرئاسـي عـام 2008، ومنهم بـاراك أوبامـا، وهيـلاري كلينتـون، وجـون إدواردز، فـإن منظري التماهـي الحزبـي يؤكدون أن المتماهيـن مـع الحـزب الديمقراطـي كانـوا سـيصوتون لمرشـح حزبهـم أيًـا كان مـن يحظـى بترشـيح الحـزب. وبالمثـل، سـواء اختـار الحـزب الجمهـوري للمنصـب الرئاسـي عـام 2008، مـت رومنـي (Mitt Romney)، أو رودي جوليانـي (Rudy Guiliani)، أو فريـد طومبسـون، أو مايـك هاكابـي (Mike Huckabee)، أو جـون مكيـن (John McCain) أو غيرهـم، فـإن المتماهيـن مع الحزب الجمهوري كانوا سـيصوتون لمرشـح حزبهم. وعليـه، يكون فعل الانتخاب بالنسـبة إلى معظم المواطنيـن منبثقًـا مـن «عـادة» أو «غريـزة» [بشـكل مـا] والمواطـن العـادي ليـس مطلعًـا فـي أمـور السياسـة اطلاعًـا وافيًـا، ولا يصـرف كثيـرًا مـن وقته فـي فحـص البرامـج الانتخابية للأحـزاب الرئيسـية وتمحيصهـا ليقرر مـن ينتخب، وإنمـا يأخـذ «طريقًا مختصـرة» يقطع من خلالهـا عمليـة القـرار المعقـدة بالتصويـت للحـزب الـذي طـور نحـوه ولاءً طويـل الأمـد منذ الشـباب المبكر.

(7) Philip Converse, «The Nature of Belief Systems in Mass Publics,» in: David Apter, ed., *Ideology and Discontent* (New York: Free Press, 1964).

هـذا وتتضمـن نظريـة التماهـي الحزبـي عنصـرًا نزوعيًـا آخر؛ فمـن حيـث إن الحزب الديمقراطـي يضـم معظـم المتماهيـن حزبيًـا مـن الناخبيـن الأميركييـن، فإنـه يُنتظـر أن يكونـوا قـد حققوا الفـوز في الانتخابات الرئاسـية جميعها منـذ الثلاثينيـات، إذا كان الانتماء الحزبـي هـو أهـم مـا فـي الأمـر. غيـر أن المناصريـن لهـذه المقاربـة يقولـون إن ثلثـيْ الكتلـة الانتخابيـة الأميركيـة تحمـل ولاءً حزبيًا ثابتًـا، ويصوتـون لحزبهم على الـدوام، إلا أن الثلـث المتبقي يشـمل أناسًـا غيـر وثيقـي الصلة بالأحـزاب، أو مسـتقلين، هـذا الثلث يضم المتقلبيـن (switchers) أو المتأرجحيـن (Swing Voters). وهـؤلاء هـم أفراد لا يحملـون ولاء حزبيًا مسـتقرًا، ويحتمـل أن يبدلـوا مواقفهم مـن انتخابات إلى أخـرى. وتكون لنزعـات هذه الفئة أهميـة تناظـر أهميـة نزعات المتماهيـن حزبيًا، وإن كانـت نزعات هذه الفئة أقل اسـتقرارًا وأكثـر تبـدلًا. ويتكـون هـذا الثلـث مـن أولئـك الذيـن يقـررون أصواتهـم بنـاء علـى القضايا الراهنـة، وهـذا القطـاع مـن المجتمـع الانتخابـي هو الذي يقـرر نتيجـة الانتخابـات. وعليه، فـإن نمـوذج التماهـي الحزبـي، يـرى أن السـلوك الانتخابـي يكـون نتيجـة لتفاعـل قـوى نزوعيـة طويلـة المـدى (أبرزها الـولاء الحزبي) وقـوى نزوعية أخـرى قصيرة المـدى (تتمثل فـي ردود فعـل الناخـب للقضايـا الراهنـة). إضافة إلـى «تقويم المرشـح لهـذه القضايا، كما يُصـوّر للناخبيـن، والقـوى الحزبيـة التي تحكم مواقـف الحزب مـن مختلف القضايـا»، وفق مـا يشـير إليـه ميلـر، وواتنبيـرغ، ومالانشـك[8] (Miller, Wattenberg, and Malanchuk).

بروز الانتخاب بناء على القضايا الراهنة ومقاربة الإنسان الاقتصادي

خـرج نمـوذج التماهـي الحزبـي مـن نطـاق الموضـة الشـائعة فـي السـنوات الأخيـرة إلـى حـد مـا، ويعـود ذلـك جزئيًـا إلـى أنـه أصبـح مـن الواضـح مـع مـرور الوقـت ومنـذ أن وضـع كامبـل وزمـلاؤه كتابهـم **الناخـب الأميركـي** أن المنتميـن انتمـاء حزبيًـا قويًـا يتناقصـون بيـن الناخبيـن هـذه الأيـام. وعلـى سـبيل المثـال، كان 29 فـي المئـة مـن الناخبيـن عـام 1992 ينتمـون انتمـاء وثيقًـا إلـى أحـد الحزبيـن الجمهـوري أو

(8) Arthur H. Miller, Martin Wattenberg and Oksana Malanchuk, «Schematic Assessments of Presidential Candidates,» *American Political Science Review*, vol. 80, no. 2 (June 1986), pp. 521-240.

الديمقراطي، بينما كانت نسبتهم عام 1964، 38 في المئة، أي بتناقص مقداره 9 في المئة. ويبدو أن الناخبين أصبحوا أكثر اطلاعًا أيديولوجيًا وسياسيًا منذ الستينيات. وقد أدت هذه التحولات إلى بروز مقاربة جديدة لتفسير الاختيار التصويتي يمثّل تحديًا لمقاربة التماهي الحزبي التقليدي؛ وذلك هو نموذج الانتخاب بناء على القضايا [ذات الشأن في الحاضر] (the issue voting model). إضافة إلى ذلك، فإنهذا الاتجاه قد ظهر لا بوحي من افتراضات مقاربة الإنسان النفساني، وإنما بوحي من مقاربة الإنسان الاقتصادي.

يذهب ناي، وفيربا، وبتروشك في كتابهم **الناخب الأميركي المتغير** (*The Changing American Voter*) إلى أن الناخبين الأميركيين الآن أكثر اطلاعًا مما حسبهم نموذج التماهي الحزبي[9]. ويتفق مؤلفو هذا الكتاب مع كامبل وزملائه في توجههم الضمني، أو نقطة انطلاقهم بأن نموذج التماهي الحزبي يصف سلوك الناخبين الأميركيين وصفًا صحيحًا حتى أواخر الستينيات. ولكنهم يؤكدون أن ما تكشفه بيانات الانتخابات الأميركية من اتجاهات يقتضي إعادة تقويم إمكانات الناخب الأميركي العادي، وسلوكه. حيث يؤكدون أن البيئة السياسية المحيطة بالناخب الأميركي تغيرت تغيرًا دراماتيكيًا في خلال الستينيات. فقد أدى الاتجاه الأيديولوجي المتشدد للمرشح الجمهوري السابق باري غولدووتر (Barry Goldwater)، وبروز «القضايا الجديدة» كالحقوق المدنية، وفيتنام وووترغيت، وتطور وسائل الإعلام الجماهيرية، والتغير في طبيعة الكتلة الانتخابية ذاتها، أدى ذلك كله إلى تغيير جوهري في البيئة السياسية. فأخذ ناخبون جدد يدخلون إلى الكتلة التصويتية ممن ينأون بأنفسهم عن الارتباط الملتزم بحزب سياسي بعينه.

ويزعم منظرو الانتخاب المبني على القضايا (issue voting) أن الولاءات الحزبية تتراجع بشكل ملحوظ كمحدد من محددات الانتخاب. ويؤكدون أن السنوات الأخيرة شهدت عملية فك ارتباط (dealignment) أخذ فيها الناخبون

(9) Norman H. Nie, Sidney Verba and John R. Petrocik, *The Changing American Voter* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1976), and Morris P. Fiorina, *Retrospective Voting in American National Elections* (London: Yale University Press, 1981).

يبتعـدون تدريجيًـا عـن ارتباطهـم بالأحزاب بوجـه عام، ويصبحون مسـتقلين بـدلًا من ذلك. فقـد ارتفـع عـدد الناخبيـن الذيـن يدعـون أنفسـهم مسـتقلين مـن 23 فـي المئـة إلـى 33 فـي المئـة، وإلـى 40 فـي المئـة وفـق بعـض المقاييـس. وبتراجـع تأثيـر الحـزب، ازدادت أهميـة القضايـا، وأهميـة خصائص المرشـحين، وفـق ما يقوله أنصـار التصويـت المبني على القضايـا. وفـي حيـن كان معظـم النـاس يصوتـون لمرشـح حزبهـم لأنـه «حزبهـم»، نجدهم هـذه الأيـام أكثـر انتقائيـة وأكثـر اطلاعًـا. ويـرى أنصار التصويـت للقضايـا إضافة إلـى ذلك، أن نسـبة الناخبيـن الذيـن يفعلـون ذلـك هي أكثر بكثيـر من الثلث الذي أشـار إليـه كامبل وزمـلاءه، وربمـا تصـل إلى 50 فـي المئـة أو أكثر.

وهنـاك طريقـان مـن حيث الأسـاس للتصويت بناء علـى القضايـا: اسـتباقي (prospective) واسـترجاعي (retrospective). والتصويـت الاسـتباقي يتطلب قـدرًا أكبر من المعرفـة والمعلومات مقارنـة بالتصويـت الاسـترجاعي، حيـث يتطلـب التصويـت الأول مـن الناخـب: (1) أن يطلع علـى سياسـات الحزبيـن، وعلـى المواقـف التـي يأخذانهـا مـن قضايـا السـاعة، (2) مقارنـة هاتيـن المنظومتيـن مـن السياسـات، و(3) اختيـار الحـزب الـذي يأخـذ المواقـف المشـابهة لمواقفـه الخاصـة. مثـال ذلـك، إذا كنـتُ محافظًـا فـي القضايـا الاجتماعيـة، وليبراليًـا فـي القضايـا الاقتصاديـة، ومحافظًـا في السياسـة الخارجية، فإننـي أرغب في اختيـار الحزب الذي يأخـذ المواقـف المشـابهة لمواقفي فـي هذه القضايـا. وعلـى الأرجح لن يكـون هناك حزب يتطابـق تمامًـا مـع تفضيلاتـي الخاصة، لكـن التصويت الاسـتباقي يقتضـي ببسـاطة أن أختار الحـزب الأقـرب إلـى مواقفي فـي القضايـا محـور الاهتمام.

أمـا التصويـت الاسـترجاعي فـلا يتطلـب الكثيـر مـن الناخـب العـادي، إذ يـرى فـي أو كاي (V. O. Key) فـي كتابـه **الكتلـة الانتخابيـة المسـؤولة** (*The Responsible Electorate*) أن الناخبيـن ليسـوا حمقـى؛ وإنمـا هـم أنـاس عقلانيـون يكافئـون المرشـحين علـى إنجازاتهـم الملموسـة ويعاقبونهـم علـى فشـلهم[10]. وهـم يسـتطيعون النظـر إلـى

(10) Valdimer Orlando Key, *The Responsible Electorate,* Rationality in Presidential voting, 1936-1960, with the Assistance of Milton C. Cummings; Foreword by Arthur Mass (Cambridge, MA: The Belknap Press, 1966).

الماضـي القريـب وتقويـم مـدى النجـاح الـذي حققتـه الإدارة القائمـة فـي الحكـم. ويأخـذ الأداء الاقتصـادي مكانًـا بـارزًا لـدى الناخبيـن؛ وبوجـه عـام، إذا كانـت الأمـور الاقتصاديـة علـى مـا يـرام سـيُعاد انتخـاب الحكومـة، أمـا إذا لـم تكـن علـى مـا يـرام فإنـه سـيُطاح بهـا. وهـذا النـوع مـن الانتخـاب المبنـي علـى القضيـة بسـيط نسـبيًا وواضـح الاتجـاه، ولا يتطلـب مـن الناخـب أن يكـون مطلعًـا علـى شـؤون السياسـة ووضـع السياسـات، أو حتـى أن يعـرف علـى وجـه التحديـد شـأنًا سياسـيًا واحـدًا لأي مـن الحزبيـن. وكل مـا هـو مطلـوب مـن الناخـب هـو أن يعـرف مسـتوى أداء الحـزب الـذي ينتمـي إليـه الرئيـس (مثـلًا). ويكـون بذلـك الانتخـاب المبنـي علـى القضايـا ذات الطابـع الاسـترجاعي أكثـر حكمـة مـن نظيـره الاسـتباقي، مـن حيـث إن كلفتـة المعلوماتيـة أقـل جـدًا. كمـا أنـه لا يكـون مـن الحكمـة تقويـم مواقـف الأحـزاب مـن القضايـا المختلفـة مسـبقًا لأننـا نعـرف أن السياسـيين يُخلُّـون بوعودهـم. وبأخـذ هـذه الحقيقـة بعيـن الاعتبـار لا يكـون الانتبـاه لمـا يقولـه القـادة فـي خـلال حملاتهـم الانتخابيـة مجديًـا؛ لأن النظـر فـي مـا فعلـوه حقيقـة فـي الماضـي القريـب يكـون أجـدى بكثيـر.

ولكـن، كيـف يتأتـى لكلتـا المدرسـتين [مدرسـة التماهـي الحزبـي، ومدرسـة التصويـت بنـاء علـى القضايـا] الادعـاء بـأن نموذجهـا الخـاص يفسـر الواقـع الإمبيريقـي/ الموضوعـي أفضـل تفسـير؟ ألا يمكـن لبيانـات الانتخابـات الرئاسـية الحديثـة تقديـم الإجابـة الصحيحـة بطريقـة أو بأخـرى؟ لكـن هـذا ليـس واقـع الحـال لسـوء الحـظ، لأن البيانـات الإحصائيـة لا تتحـدث عـن نفسـها؛ فهـذان المنحيـان المتنافسـان يفسـران البيانـات بطريقتيـن مختلفتيـن، والسـبب فـي ذلـك يعـود إلـى أن كلًا منهمـا يدافـع عـن نموذجـه الخـاص بادعائـه أنه هـو القـادر علـى تفسـير السـلوك الانتخابي لـذوي التماهي الحزبـي الضعيـف. حيـث تؤكـد مدرسـة التماهـي الحزبـي أن ذوي التماهـي الضعيـف يظلـون مواليـن لأحزابهـم، ويجـب بذلـك أن يُصنفـوا علـى أنهـم متماهـون مـع أحزابهـم؛ أمـا المناصـرون لمدرسـة الانتخـاب المبنـي علـى القضايـا، بالمقابـل، فيتعاملـون مع هذه الفئـة علـى أنهـم مسـتقلون، ومهيـأون للانتخاب بنـاء علـى القضايـا، ومواقف المرشـحين منهـا. وتؤكد مدرسـة التماهـي الحزبي أن مـا يوصف بتراجـع التماهي الحزبـي أمر مبالغ فيـه؛ إذ إن التراجـع فـي نسـبة الناخبيـن المنتميـن إلـى أحزاب في مـا بين عامـي 1960

و1988 تَمثّل في انخفاض من 75 في المئة إلى 63 في المئة، وهذا لا يمثّل تراجعًا حادًا بحد ذاته. ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض البحوث الحديثة في سلوك الانتخاب أعادت الاعتبار إلى موقف مدرسة التماهي الحزبي وحاولت دحض حجج ناي، وفيربا، وبتروشك(11).

تأثير الأفكار الحارة والباردة

أستند الباحثون في مجال الخيار الانتخابي حديثًا إلى افتراضات علم النفس المعرفي لإنشاء مناحٍ نزوعية لا تقوم على افتراضات ذات طبيعة اقتصادية، أو افتراضات الخيار العقلاني، وإنما تنظر إلى التماهي الحزبي نظرة معرفية أونظرة تقوم على أسس معرفية صرفة. فقد افترضت مقاربة التماهي الحزبي على الدوام أن الحملات الانتخابية، والرسائل التي تخرج من المرشحين أنفسهم لا تنطوي على كثير من الأهمية(12). ويؤكد أنصار هذه المقاربة أن الناخبين يزيحون كل «الضجيج» الذي ينتج من الحملات الانتخابية، ويسمع الواحد منهم «ما يريد أن يسمعه ويهمل الباقي»، كما قال سيمون وغارفنكل (Simon and Garfunkel) في أغنيتهما «ذي بوكسر». ويتفق هذا القول مع تنبؤات علماء نفس من أمثال فستنغر، كما سبق وأشرنا. على أن البحوث الحديثة المستوحاة من نظريات المعرفة، والعاطفة، ألقت بظلال الشك على وجهة النظر هذه(13).

لقد رأينا في الفصل التاسع أحد التطبيقات الخاصة بالمقاربة المعرفي على دراسة اختيار الناخبين للمرشحين في الانتخابات الأولية والمتمثل بنظرية صموئيل بوبكن (Samuel Popkin) حول جاذبية المرشح. وتستند هذه المقاربة إلى نظرية السكيما ونظرية العزو لتفسير القرار التصويتي في الانتخابات الأولية،

---

(11) على سبيل المثال انظر: Eric R. A. N. Smith, *The Unchanging American Voter* (Berkeley, CA: University of California Press, 1989), and Warren Miller and Merrill Shanks, *The New American Voter* (London: Harvard University Press, 1996).

(12) Milton Lodge, Patrick Stroh and John Wahlke, «Black Box Models of Candidate Evaluation,» *Political Behavior*, vol. 12, no. 1 (March 1990), pp. 5-18.

(13) انظر: James N. Druckman and Joanne M. Miller, «The Political Psychology of Electoral Campaigns,» *Political Psychology*, vol. 25, no. 4 (2004), pp. 501-506, and the accompanying *Symposium* in that issue.

وغيرها من الانتخابات حين لا نعرف إلا القليل نسبيًا عن المرشحين. إذ يعتقد بوبكن أننا نبني قراراتنا، في هذه الحالة، على قدر قليل من «المعروف» [عن المرشح] ونستخدم هذا «المعروف» لملء المعلومات الناقصة عن المرشح [والمتعلقة بالمعلومات الأولية الخاصة به]. وبهذه الطريقة نستطيع أن نقدّر مدى تمثيل المرشح لصورة نمطية معينة - مثالية أو غير مثالية[14].

ويحاول السياسيون على الدوام بعث سكيمات إيجابية في عقول الناخبين، وإن كانوا يفعلون ذلك بناءً على الحدس، أو على أساس من علم النفس الشعبي. ولعل ما يمكن أن نسميه «سكيما كينيدي» يعطي مثالًا مناسبًا لما نشير إليه هنا. فالمرشح المثالي في نظر كثير من الناخبين هو شخص صغير السن نسبيًا، معتدل سياسيًا، شديد الذكاء، موهوب خطابيًا، وجذاب الشكل، وجميع هذه الخصائص ترتبط لدينا اليوم بجون ف. كينيدي. إضافة إلى أن سيناتور مساشوستس السابق [أي كينيدي] كان بطل حرب، وهذه طبعًا سمة أخرى تحظى بإعجاب الناخبين. ونتيجة لذلك، يحاول الكثير من المرشحين للمقعد الرئاسي أحيانًا تقديم أنفسهم بصورة قريبة من كينيدي، وقد يعقدون مقارنة بينهم وبينه صراحة. وظهر أشهر مثال على ذلك في الحوار الذي أُجريَ بين المرشحين لمنصب نائب الرئيس عام 1988، عندما قال دان كويل (Dan Quayle) المرشح الجمهوري، إنه يمتلك من الخبرة السياسية ما امتلكه جون كينيدي عندما ترشح للرئاسة، فقاد هذا الادعاء إلى واحدة من أشهر المواجهات في تاريخ حلقات الحوار، إذ رد السيناتور ليود بنتسن (Liyod Bentsen) على ذلك الادعاء قائلًا: «أيها السيناتور، لقد عملتُ مع كينيدي، وأنا أعرف تمامًا من هو جاك (جون) كينيدي، فقد كان صديقًا لي. أيها السيناتور أنت لست بجاك كينيدي».

غير أن المرشحين للمنصب الرئاسي يسعون غالبًا للظهور بشخصية «كينيدية» على نحو أقل صراحة. فعندما ترشح بل كلينتون للرئاسة عام 1992، على سبيل المثال، استخدم فريق حملته الانتخابية صورًا فوت1وغرافية لكلينتون (كصبي كشافة في أوائل الستينيات) وهو يسلم على جون كينيدي. وجاء

(14) Samuel Popkin, «Decision Making in Presidential Primaries,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, Duke Studies in Political Psychology (Durham, NC: Duke University Press, 1993).

اكتشـاف هـذه الصـورة كهبة مـن السـماء لحملة كلينتـون الانتخابيـة من حيـث إنها أوحت للناخبيـن أنـه «مقـدّر» لكلينتـون أن يصـل إلـى المركـز الـذي وصـل إليـه كينيـدي. ومـن اللافـت أيضًـا أن حملـة بـوش الانتخابيـة عـام 2004 نجحت في إضاعـة الفرصـة على جون فوربـس كيـري (John Forbes Kerry) - وهـو المرشـح الشـبيه بكينيـدي ظاهريًـا فـي عـدد مـن الوجـوه، حتـى علـى صعيـد الأحـرف الأولـى من اسـمه - وذلـك بإبـراز الاختلاف بيـن كيري وكينيـدي مـن ناحيتيـن فـي الأقـل؛ إذ نجـح الجمهوريـون فـي تصويـر كيـري على أنـه أكثر ليبراليـة ممـا كان عليه كينيـدي، ونجحوا في إلقاء ظلال الشـك على سـجله الحربي بطرائق مختلفـة بـدت معهـا حملة كيـري غيـر قادرة علـى الدفـاع عنه.

ولـم يكـن بوبكـن الباحـث الوحيـد الـذي اتجـه إلـى علـم النفـس المعرفـي للبحـث عـن دلائـل عـن كيفية معالجـة النـاس العادييـن للمعلومـات السياسـية؛ فقد قامـت كاثلين مكغـرو (Kathleen McGraw) بتلخيـص البحـوث فـي هـذا المجـال علـى أسـاس مـن التمييـز بيـن [صنفيـن منهـا]: (أ) البحـوث التـي درسـت كيفيـة «تنظيـم» المعلومات السياسـية في الأذهـان وخزنهـا، و(ب) البحـوث التي درسـت «العمليـات» المعرفية التي تـؤدي إلى حكم، أو قـرار، أو اسـتجابة سياسـية مـا[15]. وهاتـان القضيتـان مرتبطتـان ارتباطًـا وثيقًـا، بطبيعـة الحـال؛ إذ إننـا حين نفهـم كيفية خـزن المعلومات السياسـية في الأذهان، فإننا سنسـعى لا محالـة إلـى فهـم الطرائق التي نصـل بها إلى تلـك المعلومـات [أو كيف نسـتعيدها]، وإلى فهـم العمليـة التي تؤثر بهـا هذه المعلومـات في مُخـرج سياسـي (political outcome) من نوعٍ ما، كقـرار مـن ننتخب.

وقـد قـام كنـدر (Kinder) وزمـلاءه بواحـدة مـن أُوليـات الدراسـات التـي أُجريـت فـي المضمـار الأول [أي مجـال تنظيـم المعلومـات وخزنهـا]، تعـود لعـام 1980، اختبـروا فيهـا كيفيـة تقويـم النـاس للمرشـحين الرئاسـيين مـن خـلال فحـص «بروتوتايـب الرئيـس» [الـذي يحملونـه فـي أذهانهـم]. والبروتوتايـب هـو صـورة نمطيـة مـن نـوع السـكيما يتضمـن الخصائـص المرغـوب فـي توافرهـا لـدى

---

(15) Kathleen McGraw, «Contributions of the Cognitive Approach to Political Psychology,» *Political Psychology*, vol. 21, no. 4 (December 2000), pp. 805-827.

المرشـح الرئاسـي. حيث يُفيد كندر وزمـلاءه أن «بروتوتايب الرئيس النموذجـي [...] يحتوي السـمات التـي يعتقـد المواطنـون أنهـا تمثّـل الرئيـس الـذي يجـب أن يكـون»، ويضيـف كنـدر وزمـلاءه أن بروتوتايبـات الأفـراد تختلـف باختـلاف قيمهم، ومـا يمثّل أهمية بالنسـبة إليهـم[16]. فالرئيـس النموذجـي فـي نظـر الأميركييـن علـى وجـه الخصـوص يتحلـى بالأمانة، وسـعة الاطـلاع، والذهن المتفتح، والشـجاعة، والـذكاء، والإلهـام - وهي الصفات التي يشـار إليهـا أكثـر مـا يُشـار فـي أدب الموضـوع. كمـا يضيـف كنـدر وزمـلاءه أن «بعـض معاييـر تقويـم المرشـحين الرئاسـيين قـد تكـون معتمـدة علـى نطـاق واسـع، ولكـن البعـض الآخـر منهـا قـد يكـون مرتبطًـا بصفـات مميـزة وبـارزة لـدى مرشـحين بعينهـم»[17]. وربمـا يلجـأ الناخبـون إلـى المعاييـر الخاصـة هـذه عندمـا يجـدون أن البروتوتايـب النموذجـي لا يكوّن أساسًـا قويًـا لدعـم مرشـح معيـن، إلا فـي الحالـة التـي يكون الشـخص قـد وصل فعـلًا إلى المنصـب الرئاسـي، أو ربمـا لأن الناخبيـن لا يعتمـدون علـى بروتوتايـب واحـد فـي تقويـم جميـع المرشـحين، علـى مـا يبدو.

غيـر أن التوقيـت الـذي جـرت فيه دراسـة عـام 1980 السـابقة، والتي جُمعـت فيها البيانـات إبـان الحملة الرئاسـية الجاريـة حينئذٍ، قـاد آرثـر ميلـر (Arthur Miller) وزملاءه إلى الخـروج باسـتنتاجات مغايـرة. إذ أكّـد ميلـر وزمـلاءه أن «بروتوتايـب الرئيـس، أو سـكيما الرئيـس، كمـا سـنصطلح تسـميته، لا بـد أن يسـتثار فـي خـلال الحملـة الانتخابيـة عندمـا يتلقى الناس المثيرات المناسـبة التي تسـتثير تلك الصور الذهنية المسبقة»[18]. فالناخبون يسـتخدمون «معاييـر عريضـة قليلـة العـدد، ولا يسـتخدمون معلومـات محـددة» للحكـم علـى المرشـحين [خلافًـا لما رآه كنـدر وزمـلاءه] - وهم يتجـاوزون المعلومـات المعطاة، كمـا جاء في الفصل التاسـع - وكلمـا كان الناخب أكثر اطلاعًا في شـؤون السياسـة، كانت

---

(16) Donald Kinder [et al.], «Presidential Prototypes,» *Political Behavior,* vol. 2, no. 4 (1980), pp. 316.

(17) المصدر نفسه، ص 333.

(18) Miller, Wattenberg and Malanchuk, «Schematic Assessments of Presidential Candidates,» pp. 523-324.

سكيماته أكثر «غنى»، ما يتيح له الوصول إلى قدر أكبر من الاستنتاجات [بشأن المرشح] مقارنة بالناخب الأقل اطلاعًا[19]. وعلاوة على ذلك، يؤكد ميلر وزملاءه أن الناخبين يحملون سكيمات ثابتة بشأن ما يجب أن يكون عليه الرئيس، ويحكمون على المرشحين المتقدمين للمنصب بناء على مدى مطابقتهم لعناصر تلك السكيمات»[20]. وربما تتفاوت أهمية الصفات المتضمنة في سكيما الرئيس من انتخابات إلى أخرى، فيختلف «المرشح النموذجي» باختلاف الزمن. مثال ذلك، كان الأميركيون، في غمرة اضطرابات عام 1968، يتطلعون إلى رئيس يحقق النظام والاستقرار، مثل ريتشارد نيكسون؛ وفي عام 1976، عقب فيتنام، كان المرشح المثالي هو من لا تطاول استقامته أي شكوك، مثل جيمي كارتر، وفي عام 1980، عندما بدت الولايات المتحدة في حالة تراجع اقتصادي وسياسي حادين، كانت البلاد تتطلع إلى مرشح يستعيد «القوة الأميركية» مثل رونالد ريغان.

كيف نقرر من ننتخب؟

هناك قدر وافر من البحوث حول الجانب الآخر من هذا الموضوع، والمتعلق بالعمليات التي يتم من خلالها استخدام البنى المعرفية [المنشأة في الذهن، كالسكيمات] لتقويم المرشحين. فكِّر لوهلة في نظريات سلوك الانتخاب التي عرضناها في هذا الفصل، وهي؛ «دليل النزعة السياسية»، ونظرية «التماهي الحزبي»، ونظرية «الانتخاب المبني على القضايا». إذ لا تتطرق أي منها إلى كيف نقرر من ننتخب؛ فكل منها تضع قائمة بالعوامل التي «تفسر» الاقتراع وتدعي شيئًا من القدرة على التنبؤ بالخيار الانتخابي، ولكن أيًا منها لا تتطرق كثيرًا (إذا كانت تتطرق على الإطلاق) إلى العمليات المعرفية التي تأخذ مجراها لدينا في خلال الحملة الانتخابية، أو عندما نقرر من ننتخب داخل حجرة التصويت ذاتها. وقد يُغرينا رد غياب هذه التفاصيل إلى تأثير [المدرسة] السلوكية - التي ترفض أي فحص «استبطاني»

(19) «Schematic Assessments of Presidential Candidates,» p. 524.

(20) المصدر نفسه، ص 535.

(introspective) لما يدور في الأذهان، كما سبق أن أشرنا في الفصل الثالث - لكن نظرية الاتساق المعرفي كانت قد حلّت محل سلوكية سكنر في الوقت الذي تطور فيه نموذج التماهي الحزبي، على سبيل المثال. غير أن المقاربات التي تم عرضها في هذا الفصل تتعامل مع عمليات اتخاذ القرار التي تجري لدى الناخب كصندوق أسود[21] [على غرار السلوكية].

وقد طوّر الباحثون في السلوك الانتخابي نظريتين رئيسيّتين تعالجان عملية تقويم الناخبين للمرشحين، يصطلح على تسميتهما بالمنظور القائم على التقويم المتواصل (online perspective) والمنظور القائم على الذاكرة (memory-based perspective). ويمكن توضيح منظور التقويم المتواصل على أفضل وجه بالنظر، على سبيل المثال، إلى فيلم شاهدتَه منذ فترة وجيزة (قبل شهر أو شهرين مثلًا) وحدث أن استمتعت به كثيرًا ورأيت أنه واحد من أفضل الأفلام التي شاهدتها العام الماضي، قد لا تستطيع استدعاء كثير من المشاهد التي أحببتها الآن، ولكنك تعرف أن الفيلم أعجبك، وإذا سُئلت عن سبب إعجابك بالفيلم فإنك قد تتمكن من إيراد بعض التفاصيل. وبالمقابل، ربما تكون قد شاهدت فيلمًا أعجبك في البداية، ولكنك تركته عند منتصفه، ولم تعد لمشاهدته قط. على غرار ما حدث معي لدى مشاهدتي فيلم «الاسترجاع الكامل» (Total Recall)، فقد وجدت في ذلك الفيلم متعة فلسفية في البداية - من حيث إنه يتطرق بصورة غير مباشرة إلى الإدراك، والذاكرة، والطبيعة الذاتية لما نراه واقعًا - لكنه ما إن شارف المنتصف حتى تَدانى ليصبح مجرد فيلم مغامرات، وما عدت أجده ممتعًا[22]. وأنا اليوم لا أستطيع استرجاع تفاصيل الفيلم «كاملة» بكل تأكيد إذ إنني قد أستطيع تذكر نتف مما أعجبني أو مما لم يعجبني، أما أكثر ما يعلق بذهني الآن فهو تقويمي «العام» للفيلم.

---

(21) Lodge, Stroh and Wahlke, «Black Box Models of Candidate Evaluation».

(22) يقوم الجزء الأول من هذا الفيلم على قصة قصيرة لكاتب الخيال العلمي العظيم الراحل فيليب ك. دك (Philip K. Dick)، بعنوان «نستطيع تذكره كله بالجملة من أجلك» (We Can Remember it for you Wholesale).

إن العمليـة التـي أخـذت مجراهـا فـي تقويمي للفيلـم هـي ذات العملية التـي تأخذ مجراهـا فـي تقويمنـا للمرشـحين، وفـق مـا تـرى نظريـة التقويـم المتواصـل[23]. فبنـاء على هـذه النظريـة نحـن نضـع سـجلًا جاريًـا (running tally) أو حكمًا جاريًـا (judgment tally) نسـجل فيـه انطباعاتنـا المتتاليـة نحـو مرشـح معيـن، تمامًا كمـا نسـجل تقويماتنـا المتتاليـة لفيلم معين ونحن نشـاهده، إذ إننا نُعدِّل السـجل المتعلق بذلك المرشـح باسـتمرار مع ورود أي معلومـة جديـدة، ولكننـا كثيـرًا مـا ننسـى المعلومات المحـددة التي أسـهمت فـي الوصول إلـى ذلـك الانطبـاع، وربمـا لا نسـتطيع تذكـر مـا أثـار إعجابنـا أو اسـتياءنا مـن مرشـح مـا عندمـا نُسـأل عنـه لاحقًـا فـي اسـتطلاع للـرأي. ووفـق مـا يـرى دروكمـان وميلـر، فـإن هذا النموذج:

> يختلـف اختلافًـا كبيـرًا عمـا سـبقه [مـن رؤى نظريـة] فـي تأكيـده أن الناخبيـن ربمـا يكـون لديهـم أسـباب واضحـة للأصوات التـي أدلوا بهـا، وربمـا يكونون قـد تأثـروا تأثرًا حقيقيًـا بالحملـة الانتخابية، ولكنهم ربما لا يسـتطيعون إيراد الأسـباب التـي دعتهم إلى التصويـت علـى النحو الـذي صوتوا بـه، أو تذكر أي معلومـة تتعلق بالحملـة الانتخابية. ويعـود السـبب فـي ذلـك إلـى أن الناخبيـن يحفظون سـجلًا جاريًـا للمرشـحين؛ وعندما يتلقـون معلومـات جديـدة، يحدّثـون تقويماتهـم للمرشـحين، ولكنهـم كثيـرًا ما ينسـون بعـد ذلـك المعلومـات المحـددة [التـي أدّت إلـى تحديـث تقويمهـم] لأنهـم مـا عادوا بحاجـة إلـى تلـك المعلومـات. لـذا، فـإن الناخبيـن يسـتطيعون اسـترجاع التقويـم العام (الـذي يعكـس تأثيـر الحملـة)، وليـس المعلومـات التي بنـوا التقويـم على أساسـها[24].

ويتسـق هـذا المنظـور إلـى حـد كبيـر مع مقاربـة «الإنسـان النفسـاني»، مـن حيث إنـه يعتبـر النـاس بخـلاء معرفيًـا يسـتعيدون تقويماتهـم مـن الذاكـرة فحسـب ولكنهـم يهملـون جزئيـات المعلومـات التـي اسـتخدموها لبنـاء تلـك التقويمـات. كذلـك فـإن

(23) Milton Lodge, Kathleen McGraw and Patrick Stroh, «An Impression-Driven Model of Candidate Evaluation,» *American Political Science Review*, vol. 83, no.2 (June 1989), pp. 399-419; Reid Hastie and Bernadette Park, «The Relationship between Memory and Judgment Depends on Whether the Task is Memory-Based or On-Line,» *Psychological Review*, vol. 93, no. 3 (July 1986), pp. 258-268, and Howard Lavine, «On-Line Versus Memory-Based Process Models of Political Evaluation,» in: Kristen Monroe, ed., *Political Psychology* (Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum, 2002).

(24) Druckman and Miller, «The Political Psychology of Electoral Campaigns,» p. 502.

المنظـور المنافـس لمقاربـة التقويـم المتواصـل هـذه، والمعـروف بمنظـور التقويـم المبنـي علـى الذاكـرة (memory-based perspective) يـرى الشـيء ذاتـه[25].

إلا أن هـذا المنظـور الأخيـر يختلـف اختلافًا كبيـرًا مع الفكـرة القائلـة إن المعلومات التـي تأتـي مع الحملة الانتخابيـة يجري إهمالها في غمرة الاشـتغال بالتقويـم المتواصل. إذ تـرى مقاربـة البنـاء علـى الذاكرة أننـا عندما نتلقـى معلومات سياسـية ما، نقـوم بخزنها في الذاكـرة الطويلـة المـدى (long-term memory)، بحسـب درجـة بروزهـا [أو اسـتثارتها للانتبـاه]، وفـي حـدود ما نسـتطيع خزنـه في أذهاننـا. ووفق تعبيـر مكغـرو (McGraw)؛

> عندمـا يكـون هنـاك حاجة إلـى إصدار حكم، يقـوم الفـرد بالبحث في ذاكرتـه الطويلة المـدى عـن معلومـات ثـم يدمـج المعلومـات التـي أمكنـه اسـتعادتها ليحسـب (to compute) الحكـم. وفـي النهاية، يكـون الرأي انعكاسًـا للمعلومات التي أمكن اسـتعادتها من الذاكـرة[26].

ويـوم تجـرى الانتخابـات، نقوم ببسـاطة بدمـج المعلومـات التي نسـتطيع اسـتعادتها ونؤلـف فـي مـا بينهـا للوصـول إلى حكـم مجمل.

ولتوضيـح الفـرق بيـن هذيـن المنحييـن، سـننظر لبرهـة فـي تقويمـات النـاس لباراك أوبامـا عندمـا ترشـح للرئاسـة عـام 2008. فبنـاء علـى مقاربـة التقويـم المتواصـل، يحفـظ الناخبـون فـي أذهانهم سـجلًا لأداء أوباما في خـلال الحملة الانتخابية، كلوحـة نقاط ذهنية [علـى غـرار اللوحة التي تسـجل عليها النقاط فـي المباريات الرياضية]، ويقومـون بتحديثها باسـتمرار بنـاء على مـا يأتيهم من معلومات، إضافة إلى معلومات سـابقة اسـتخدموها لبناء تقويماتهم له في خلال السـنة أو السـنتين السابقتين. وعلى سبيل المثال، قد يُعدّل الناخب تقويمـه الإيجابـي لبـاراك أوبامـا - الـذي رأى أوبامـا فيـه مرشـحًا ديناميكيًـا، كارزماتيًـا، فـي

(25) على سبيل المثال، انظر: Stanley Feldman, «Answering Survey Questions: The Measurement and Meaning of Public Opinion,» in: Milton Lodge and Kathleen M. McGraw, *Political Judgment: Structure and Process* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1995), and John R. Zaller, *The Nature and Origins of Mass Opinion* (New York: Cambridge University Press, 1992).

(26) McGraw, «Contributions of the Cognitive Approach to Political Psychology,» p. 813.

ضوء معلومات سلبية، كالادعاء الذي ظهر إبان حملة أوباما الانتخابية الذي يقول إن المرشد الأول له «لم يكن أميركيًا». ولكن الناخب ربما لا يتذكر هذه المعلومة يوم الانتخابات، على الرغم من أنها تكون قد أثرت في نقاط أوباما لديه، أو ربما تكون معلومة إيجابية ما قد حلّت في السجل محل المعلومة السلبية وحدّثت التقويم المتكوّن في ذهن الناخب. وبالمقابل، فإن تقويم أوباما عام 2008، وفق نموذج التقويم المبني على الذاكرة، يكون أكثر بساطة ووضوحًا؛ إذ إن الناخب سيعمل على «جمع» المعلومات الإيجابية والسلبية التي استقاها عن المرشح ليصل إلى تقويم له. ومرة أخرى، لا بد أن نشير إلى أن كلا المنحيين معرفي في طبيعته، من حيث إنهما ينطلقان من افتراض أن هناك حدودًا لكمية المعلومات التي يستطيع الناخبون خزنها في أذهانهم.

خاتمة: مستقبل البحث في الانتخاب

خلُص مؤتمر نظمته دراسات الانتخاب الوطنية الأميركية (American National Election Studies)، عُقد في جامعة ديوك (Duke University) في تشرين الأول/أكتوبر من عام 2006، حول موضوع الانتخاب، إلى أن أفضل تصور لسلوك الانتخاب ربما يكون باعتباره نتاج لتفاعل عوامل خارجية (موقفية) وعوامل داخلية (نزوعية)[27]. أما البحوث الحديثة في هذا الموضوع فتسلط الضوء على القوى المعرفية والعاطفية التي تعمل في أذهان الناس، وأما البحوث المستقبلية فربما يكون من واجبها أن تتناول هذه القوى جنبًا إلى جنب مع القوى الموقفية [التي تحيط بالانتخابات] من مثل التحولات في الاقتصاد الوطني والدولي، والحروب الرئيسية التي تنشب، والضغوط الاجتماعية التي تُمارس في محيط الناخب، والأحداث التي تقع في الحملة الانتخابية ذاتها والتي قد تغير في إدراكاتنا [أو تقويماتنا] للمرشحين.

---

(27) انظر: Duke Website, <http://www.ssri.duke.edu/anes/index.html>.

13

علم نفس القومية، والصراع الإثني، والإبادة الجماعية

أدى انفجار النزعة القومية والصراعات الإثنية التي نشهدها منذ أوائل التسعينيات، إلى تجدد الاهتمام بهذه المواضيع كمواضيع للدراسة الأكاديمية، ويتوافر الآن عدد من الدراسات التي عالجت الأبعاد النفسية لهذه المواضيع علاجًا مطوّلًا (مما قد يصل إلى حجم كتاب)[1]. والقومية والصراع الإثني ليست ظواهر جديدة، بطبيعة الحال، حيث إن فكرة القومية فكرة قديمة تعود إلى الثورة الفرنسية عام 1789 في الأقل، وقد كتب والكر كونور (Walker Connor) عام 1966 عن توترات قومية وإثنية ظاهرة في حينه وفي أماكن متعددة ومتباعدة تتراوح بين كندا، وغويانا، والهند، والسودان، ويوغسلافيا، وقبرص، ورواندا، والمملكة المتحدة، والعراق[2]. ونستطيع القول إن حدة الحرب الباردة أخفت حدة تلك القضايا؛ فكان يُنظر إلى الصراعات القومية والإثنية غالبًا من خلال الصراع بين الشيوعية والرأسمالية، ولعل حرب فيتنام تعطي المثال الأبرز على هذه النقطة.

---

(1) كان كتاب ليونارد دوب من أوائل الكتب في هذا الموضوع، انظر: Leonard W. Dobb, *Patriotism and Nationalism: Their Psychological Foundations* (New Haven, CT and London: Yale University Press, 1964).

وقد استند فيه إلى لغة «المثير - الاستجابة» الخاصة بالمدرسة السلوكية، وانظر أيضًا: Dusan Kecmanovic, *The Mass Psychology of Ethnonationalism* (New York and London: Plenum Press, 1996), and Joshua Searle-White, *The Psychology of Nationalism* (New York and Basingstoke: Palgrave, 2002).

(2) انظر: Walker Connor, *Ethnonationalism: The Quest for Understanding* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), p. 4.

وعلى الرغم من سيادة فكرة الدولة القومية (nation state)، فإن معظم الدول الراهنة لا تضم جماعة قومية أو عرقية واحدة فقط، وفي كثير من الحالات لا يكون هناك تطابق مناطقي (أو جغرافي) بين «القوميات» و«الدول» أو الحكومات التي تحكم الأمم. فالمملكة المتحدة، على سبيل المثال، دولة متعددة القوميات، تشمل إنكلترا، واسكتلاندا، وإيرلاندا الشمالية. والعراق، كما يعرف أي قارئ للعناوين الرئيسة في صحف اليوم، يضم أكرادًا، وسنة، وشيعة، وإن من يتماهون مع الكردية ينتشرون في شمال العراق، وبعض أجزاء من تركيا. ولأن الدول لا تطابق الأمم دائمًا فإن ذلك يفسح في المجال لظهور حركات انفصالية أو وحدوية، تسعى لتوحيد الأمة في دولة، ورقعة جغرافية.

وقد شهدت السنوات الأخيرة صراعات إثنية دامية في بلدان كيوغسلافيا، ورواندا، والسودان، وهي ثلاثة من الأماكن التي أشار إليها كونور (Connor) في أواسط الستينيات كمناطق توتر ساخنة. أما ما حدث في رواندا فقد بدأ بسيطرة متطرفي الهوتو (Hutu) على الحكومة في أبريل/نيسان من عام 1994 بعد أن تعرض الرئيس الرواندي هابياريمانا (Habyarimana) للقتل. وعلى مدى مئة يوم، جرى ذبح 8000 رواندي كل يوم، وهذا يمثل أسرع معدل للقتل الجماعي في القرن العشرين؛ وقد وصل عدد القتلى إلى 800000 شخص - أي حوالى 10 في المئة من السكان. وكان تسعون في المئة من الضحايا من التوتسي - رجالًا، ونساءً، وأطفالًا. وفي نهاية عام 2008 أخذ سيناريو مماثل مجراه في منطقة دارفور في السودان على يد الجنجاويد. والجنجاويد ميليشيا مسلحة من العرب المتطرفين ارتكبت مذابح جماعية في دارفور، وقتلت حتى الآن ما لا يقل عن 100000 من جماعات سودانية غير عربية. وقد تحالف الجنجاويد مع الحكومة، وذهبت محاولات قوات التحالف الأفريقي لحفظ السلام هباءً.

ويظل تعريف القومية والإثنية، كغيرها من المفاهيم في العلوم الاجتماعية موضع جدل؛ ومع ذلك؛ فإنه يسهل الوصول إلى تعريفات متفق عليها لهذه المفاهيم مقارنة بمفاهيم أخرى كالإرهاب (terrorism). وربما يغرينا [ونحن نسعى إلى تعريف القومية] اللجوء إلى تعريف على غرار تعريف بوتر ستيوارت Potter)

(Stewart للإباحيـة والـذي يقـول فيـه «أعرفها عندمـا أراهـا». ولكننـا كمتخصصيـن فـي العلـوم الاجتماعيـة، نحتـاج إلـى تعريـف محـدد، قابـل للتوظيـف للشـيء الـذي نحـاول أن نفهمـه. والتعريـف الـذي يقدمـه جوشـوا سـيرل - وايـت (Joshua Searle-White) تعريـف مفيـد بوجـه خـاص مـن حيـث إنـه يُبـرز العامـل النفسـي فـي القوميـة، أو ينظـر إلـى القوميـة كشـيء يوجـد فـي أذهاننـا مـن حيـث الأسـاس؛ إذ يـرى أن القوميـة،

> فـي أوسـع تعريـف ممكـن لهـا [...] هـي إحسـاس بالإنتمـاء أو التماهـي مـع جماعة مـن الناس تشـترك فـي التاريخ، واللغـة، والمنطقـة الجغرافية، والثقافة، أو تشـترك في تشـكيلة مـن هـذه العناصـر. وربمـا تدفـع القوميـة إلى تحـرك لإنشـاء دولة مسـتقلة لجماعـة قوميـة، وقـد لا تدفـع إلـى ذلـك، ولأن عالـم اليـوم يعطـي جل اعتبـاره لحق الشـعوب فـي تقريـر مصيرهـا، فـإن الدولـة القوميـة (الدولـة المسـتقلة التـي تقطنها جماعـة قوميـة واحـدة مـن حيـث الأسـاس)، تمثّـل هدفًا لكثيـر من الحـركات القوميـة[3].

وقد أبرز سير إرنست باركر (Sir Ernest Barker) هذه النقطة بوضوح بالغ، إذ قال:

> إن وعـي الأمـم بذواتهـا هو نتاج للقرن التاسـع عشـر. ولهذا الأمر أهميـة قصوى؛ ذلك لأن الأمـم كانـت موجـودة علـى الـدوام، وكانـت موجـودة لقـرون خلـت فـي الواقـع. لكـن الأمـور المهمـة فـي الحيـاة الإنسـانية ليسـت تلـك الموجـودة وحسـب، إن مـا يهـم فـي الحقيقـة، وفـي نهايـة الأمـر هو الشـيء الـذي يتحـول إلى فكـرة، وثـم إلى عاطفـة إلـى أن يصبـح قضيـة وباعثًـا علـى الفعـل. وفـي عالـم الفعـل يكـون للأفـكار فعـل الكهربـاء؛ ويجـب أن تكـون الأمة فكـرة إلى جانـب كونها حقيقة قبـل أن تصبح قوة محركـة[4].

ويركّـز معظـم الدراسـات اليـوم علـى الأسـاس الاجتماعـي الـذي تقـوم عليـه القوميـة[5]. وإذا سـلّمنا بـأن القوميـة أساسًـا هـي شـيء نفسـي - كمـا هـو حـال

---

(3) Searle-White, Ibid., p. 3.

(4) مقتبس من: Connor, Ibid., p. 4.

(5) Anthony D. Smith, ed., *Theories of Nationalism*, 2nd ed. (New York: Holmes and Meier, 1983).

التماهـي الحزبـي (party identification) فـي الديمقراطيات الغربية - فمـا النظريات التي يمكن أن تفسـر التماسـك الاجتماعي الـذي يربط الأمم مـن الداخل ويخلق الحـس القومي لديها؟ ومـا الـذي يمكـن لعلـم النفـس السياسـي أن يقوله عـن أسـباب الصراع بيـن القـوى الإثنية [الـذي قـد ينشـأ داخل المجتمعات]؟ إن ما أشـرنا إليه فـي الفصول السـابقة من نموذجات نظريـة يقـدم إجابـات - جزئية - عن بعض هذه الأسـئلة، لعـل أبرزها ما يتعلق بالشـخصية التسـلطية، ومـا يتعلـق ببحـوث ملغرام. وسـنبدأ بإلقـاء نظرة على خمسـة مقاربـات نظرية جـرى اسـتخدامها فـي السـنوات الأخيـرة لتفسـير القوميـة، وهـي: نظريـة الصـراع الواقعـي بيـن الجماعـات (realistic group conflict theory)؛ ونظريـة الهويـة الاجتماعيـة (social identity theory)؛ ونظريـة السـيطرة الاجتماعيـة (social Dominance theory)؛ والمنظور السـيكودينامي [أو المنظور التحليلـي الدينامـي النفسـي] (the psychodynamic perspective)؛ والمقاربـة البيوسياسـية(biopolitical approach)[6]. والمنظـوران الأولان موقفيـان بشـكل لا لبـس فيـه، فـي حيـن أن المقاربـات الثـلاث الأخيـرة نزوعيـة فـي طبيعتها مـن حيث الأسـاس، علاوة علـى ذلك، وكما سـنرى في الفصـل القـادم، يمكـن الاسـتناد إلـى هـذه المنظـورات لتفسـير أشـكال أخـرى مـن الهوية، والصراع بيـن الجماعات.

خمس مناحي لتفسير القومية

نظرية الصراع الواقعي بين الجماعات

تـرى هـذه النظريـة أن الصـراع ينشـأ حيـن يكـون هنـاك سـبب واقعـي، «عقلانـي» لـدى جماعـة مـا للتنافـس مـع جماعـة أخـرى أو محاربتهـا. وتُعنـى النظريـة فـي هـذا السـياق بالتمييـز الـذي يجـري بيـن مـا يسـميه علمـاء النفـس الاجتماعـي بالجماعـات الداخليـة (ingroups) والجماعـات الخارجيـة (outgroups) - أو التفكيـر بطريقـة «نحـن» و«هـم». وقـد قـام مظفـر شـريف (Muzafer Sherif)، عالـم النفـس الاجتماعـي، فـي أوائـل الخمسـينيات بتجربـة ميدانيـة مثيـرة للاهتمـام فـي روبـرز كيـف (Robbers’

(6) انظر: James Sidanius, «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology* (Durham, NC: Duke University Press, 1993).

(Cave) بولاية أوكلاهوما الأميركية. حيث أخذ اثنين وعشرين صبيًا إلى مخيم صيفي - لم يكونوا على معرفة ببعضهم بعضًا من قبل - ولدى وصولهم إلى المخيم قام بتوزيعهم عشوائيًا إلى جماعتين. ثم جرى فصل الجماعتين إحداهما عن الأخري لمدة أسبوع، حيث أقامت كل جماعة في كبائن بعيدة نسبيًا من كبائن الجماعة الأخرى - وذلك للحد من فرص التفاعل الاجتماعي بينهما - فما انقضت تلك الفترة إلا كانت كل جماعة قد اختارت لنفسها قائدها الخاص، وطوّرت هوية، وثقافة خاصة بها. وقام شريف بعد ذلك بوضع الجماعتين في مواجهة إحداهما في مواجهة الأخرى في سلسلة من الألعاب التنافسية. وسريعًا ما تولد عداء بينهما، حتى أصبح معه من المتعذر إجراء ألعاب غير تنافسية بين الجماعتين من دون أن تتبادلا الإهانة أو أن ينشب عراك بينهما.

ولا بد أن يلحظ القارئ مدى اتفاق هذه النتائج مع المعطى الأساس للمقاربة الموقفية. وكان شريف قد طبّق الإجراء الذي طبّقه زمباردو ليتحقق أن الصبية المجرب عليهم كانوا أفرادًا أسوياء، متكيفين، لا يعانون أي اضطرابات نفسية، فقام بتوزيعهم عشوائيًا إلى جماعتين، ليتصدى مسبقًا للحجة التي قد تثار ويُردُّ فيها السلوك التنافسي للأولاد إلى نزعات في شخصياتهم. وعلى الرغم من حقيقة أن توزيع الصبية إلى جماعتين لم يتم بناء على أسس إثنية أو غير ذلك من الروابط، فإن مجرد تصنيفهم عشوائيًا في جماعتين منفصلتين كان كافيًا ليخلق العداء بينهما عندما وضعتا إحداهما في مواجهة الأخرى. علاوة على ذلك، فإن النتائج التي وصل إليها شريف يجب ألّا تكون مستغربة لدى كل من لعب كرة قدم، أو بيسبول، أو كرة قدم أميركية، أو أي لعبة تتنافس فيها فرق رياضية على مستوى منظم، أو لدى أي شخص شاهد ألعابًا من هذا القبيل. فربما تتولد الكراهية بين فريقين - من مثل بتسبرغ ستيلرز (Pittsburgh Steelers) وبالتيمور رافنز (Baltimore Ravens)، أو مانشستر يونايتد (Manchester United) وأرسينال (Arsenal) - على الرغم من حقيقة أنه لم يتم تقسيمهم على أساس عرقي، أو طبقي، أو ديني، أو أي أساسٍ كان[7].

(7) الاستثناء (النادر في الوقت الحاضر) لهذا في فرق كرة القدم البريطانية فرق تشكّلت تاريخيًا على أساس ديني كما في حالة فريقي رينجرز (Rangers FC) وسيلتك (Celtic FC)، وهما من مدينة غلاسغو في اسكتلاندا. حيث يمثل الأول منهما البروتستانت، ويمثل الثاني الكاثوليك، مع أن قوى الانتماء الديني ضعُفت كثيرًا عما كانت عليه. كذلك كانت مدينة ليفربول في إنكلترا مقسّمة على أساس ديني بين فريق ليفربول (Liverpool FC)، وفريق إيفرتون (Everton

وبطبيعـة الحـال، نسـتطيع صـرف النظـر عـن هـذه الملاحظـات [كدليـل علـى أثـر الموقـف] واعتبارهـا دليـلًا مؤشـرًا علـى وجود نزعـة إنسـانية أساسـية للتنافـس، أو «غريزة تنافـس»، ونسـتطيع اعتبـار هـذا النقـد فـي حقيقـة الأمـر نقـدًا مبـررًا. غيـر أن مثـل هـذه الصراعـات قـد تظهـر فـي ظـروف معينـة، ولا تظهـر فـي غيرهـا، مـا يلقـي بظـلال الشـك علـى اعتبـار التنافسـية نوعًـا مـن الصفـات الموروثـة. علاوة علـى ذلك، فـإن هـذه النظرية قـد تمكننـا مـن تفسـير الصـراع الطويـل بيـن الفلسـطينيين والإسـرائيليين، مثلًا، مـن حيث إنهمـا يتنافسـان علـى منطقـة بعينهـا، يعتبر كل منهمـا أن له الحـق فيها. وعلـى الرغم من ذلـك، مـاذا لـو اسـتطعنا أن نبيّـن أن العـداء، والتعصـب، (prejudice)، والتمييـز (discrimination) قـد ينشـأ بيـن الجماعات حتى فـي غياب أي نوع مـن التنافس بينهـا؟ ماذا لو اسـتطعنا أن نبيّـن أن هـذا النـوع من العداء قد ينشـأ حتـى عندما لا يكـون هناك أي تواصـل أو تفاعل علـى الإطـلاق بين تلـك الجماعـات؟ هذا هـو على وجـه التحديد ما وجـده أنصـار النظرية الثانيـة التـي سـنتناولها في مـا يلي.

نظرية الهوية الاجتماعية

تأخـذ هـذه النظريـة منحـى موقفيـة إضافـة إلـى سـابقتها، ولعلهـا أضحـت الطريـق الأكثـر شـيوعًا لفهـم سـيكولوجية القوميـة، فهـي تنطـوي علـى اسـتبصارات خاصـة فـي العوامـل الاجتماعيـة والسياسـية التـي تـؤدي إلى تماسـك الأمم، وفـي العمليـات التي تدفع الجماعـات إلـى الصـراع فـي الوقـت ذاتـه[8].

وتــدور هــذه النظريــة، كســابقتها، حــول التمييــز بيــن الجماعــات الداخليــة

FC)، على الرغم من أن هذا ليس واقع الحال في الوقت الحاضر. ويجب ملاحظة أنه حتى السنوات العشر الأخيرة، لم تكن فرق كرة القدم البريطانية مختلطة عنصريًا كما هي عليه الآن. غير أن هذه الفرق أصبحت «معولمة» إلى حدّ أن كل فرق (الدرجة الأولى، في الأقل) مختلطة عنصريًا وإثنيًا إلى حدٍّ كبير، ويتضمّن كل منها عددًا كبيرًا من اللاعبين غير البريطانيين.

(8) انظر الملخص الممتاز لهذا الموضوع في كتاب جيمس والر الذي أُخِذَت عنه بتصرف، في: James Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing* (New York: Oxford University Press, 2002), pp. 238-244, from which I have drawn freely here.

والجماعـات الخارجيـة [ونتائجـه]. فقـد تجـاوز عالـم النفس الاجتماعـي البريطانـي، هنري تاجفـل (Henry Tajfel) وزمـلاءه مقاربـة شـريف حيـن وجـد - خلافًـا لتوقعاتـه المبدئيـة - أن العـداء نحـو الجماعـات الخارجيـة ومحابـاة الجماعـة الخاصـة بالفـرد يمكـن أن يحدث في غيـاب أي تفاعـل بيـن الجماعتين المعنيتين، وفـي غياب أي فروق «معقولـة» أو «عقلانية» بينهمـا. وبكلمـات أخـرى، تؤكـد نظريـة الهويـة الاجتماعيـة أن الصـراع يمكـن أن يحـدث حتـى حيـن لا يكـون لدى الجماعـة الداخلية «أي شـيء» يمكـن أن تجنيه مـن التنافس مع الجماعـة الخارجية[9].

وقـد قـام تاجفـل، علـى غـرار مـا قـام بـه شـريف مـن قبلـه، بأخـذ مبحوثيـن غربـاء تمامًـا عـن بعضهـم، وعينهـم عشـوائيًا كذلـك فـي جماعـات - لأسـباب مماثلـة [لأسـباب شـريف]. وقـد قسّـم تاجفـل المبحوثيـن فـي تجاربـه إلـى جماعـات بنـاء على أسـباب غير ذات معنـى مـن الناحيـة النظريـة، كأن قسّـمهم بنـاء علـى تفضيلاتهـم الموسـيقية. ويقـول والـر (Waller) بهـذا الصـدد:

> كان يُطلـب إلـى المشـاركين [أو المبحوثيـن] فـي السلسـلة الأكثـر شـهرة مـن دراسـات تاجفـل أن يعطـوا آرائهـم حـول لوحـات تجريديـة لفنانين لم يسـبق أن سـمعوا بهـم، وكان يتـم تعيينهـم عشـوائيًا بعـد ذلك لجماعـة تفضل أسـلوب بول كلـي (Paul Klee style) أو أسـلوب ويسـلي كاندنسـكي[10] (Wassily Kandinsky style).

وبعـد توزيـع المبحوثيـن بنـاء علـى هـذه التصنيفـات الاعتباطيـة إلـى جماعتيـن، لـم يكـن يتـاح لهمـا اتصـال إحداهمـا بالأخـرى قـط. غيـر أن مـا أثـار دهشـة تاجفـل أن أعضـاء كل مــن الجماعتيــن ظلــوا يُظهــرون محابــاة شــديدة لجماعتهــم الداخليــة، وقـدرًا مماثـلًا مـن العـداء للجماعـة الخارجيـة. وقـد اسـتُخدم هـذا النمـوذج [البحثـي]

---

(9) انظر: Henri Tajfel and John Turner, «The Social Identity Theory of Intergroup Behavior,» in: John T. Jost and Jim Sidanius, eds., *Political Psychology: Key Readings* (New York: Psychology Press, 2004); and S. Worchel and L.W. Austin, eds., *Psychology of Intergroup Relations* (Chicago, IL: Nelson-Hall, 1986); Henri Tajfel: «Experiments in Intergroup Discrimination,» *Scientific American*, no. 223 (1970), pp. 96-102; *Human Groups and Social Categories* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981), and *Social Identity and Intergroup Relations* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982).

(10) Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*, p. 241.

المعروف باسـم نمـوذج الحد الأدنى من التعـارف بين الجماعـات (The minimal group paradigm) كإجـراء مبدئـي تمهيـدًا للتجريـب اللاحـق، ولـم يكن تاجفـل يتوقع ظهـور تأثيـر لإجرائه هذا مشـابهًا لتأثيـر روبـرز كيـف (Robbers' Cave) الذي ظهر في تجربة شـريف. لكـن تاجفل وزميله جـون تيرنـر (John Turner) وجـدا أن «ذلـك التصنيف السـطحي، الذي جـاء لاحقًا [وليس سـابقًا للقـاء الأفـراد بعضهـم بعضًا] قـاد إلى محابـاة الجماعـة الداخلية، وإلـى التحيز ضـد الجماعة الخارجيـة». فعندمـا طُلـب إلـى المشـاركين توزيـع المـوارد الماليـة بيـن الجماعتيـن، علـى سـبيل المثـال، فضّـل أعضـاء الجماعـة الداخليـة عقـاب الجماعـة الخارجيـة على أخـذ المزيد لأنفسـهم، بحيـث أن الأعضـاء «أعطـوا قـدرًا أقل مـن المـال للجماعـة الخارجية، حتـى عندما كان إعطـاء تلـك الجماعـة أكثـر لا يؤثر في مـا تنالـه الجماعة الداخليـة»[11].

وفـي حيـن نظـر تاجفل إلـى نموذجه فـي البدايـة كنموذج معرفي، شـعر بأنـه لا بد أن يكـون هنـاك دوافع أخرى وراء تماهي (identification) الفرد الشـديد مـع جماعته الداخلية [أو الخاصـة]. وقـد عثـر تاجفـل علـى هـذا العامـل الدافعـي في فكـرة تقديـر الـذات (self-esteem). فالتماهـي مـع الجماعـة - وخصوصًـا عندمـا تتمتـع تلـك الجماعـة بمكانـة عاليـة، أو عندمـا تعتقـد الجماعـة أنهـا تتمتـع بهـذه الميـزة - يعطـي العضـو فيهـا الفرصـة ليعـزز تقديـره لذاتـه. وهذه هـي الحاجة الأسـاس التي رأى تاجفل أنهـا تدفعنا إلـى محاباة أعضاء جماعتنـا وإلـى التقليل مـن قـدر الجماعة الأخـرى، أو التحيـز ضدها.

ويسـتند جوشـوا سـيرل - وايـت (Joshua Searle-White) إلـى هـذه النظريـة فـي تحليـل مثيـر للاهتمـام لظاهـرة القوميـة مـن زاويـة نفسـية اجتماعيـة[12]. ومـن حيـث أن سـيرل - وايـت يعمـل علـى تدريـس مسـاقات علـم نفـس القوميـة فإنـه عمـل علـى تطبيـق نمـوذج الحـد الأدنـى مـن التعـارف بيـن الجماعـات ليُبيـن لطلبتـه بطريقـة تقـوم علـى الخبـرة المباشـرة، كيـف يمكـن إنشـاء هويـات متصارعـة بنـاء علـى قـدر محـدود مـن التفاعـل [فـكان يقسّـم طلبتـه فـي مجموعـات عشـوائية ويلصـق بهـا تسـميات عديمـة المعنـى ليتيـح لهـم فرصـة اختبـار الاثـار النفسـية الاجتماعيـة المترتبـة علـى

(11) Tajfel and Turner, «The Social Identity Theory of Intergroup Behavior,» p. 282.

(12) Searle-White, *The Psychology of Nationalism.*

ذلـك]. وإضافـة إلـى ذلـك، يُقر سـيرل - وايـت أن الأفراد قـد يمتلكون عـددًا مـن الهويات، وأن هـذه الهويـات المتعـددة قـد تخـدم أغراضًـا مختلفـة، ويؤكـد أن الهويـات القوميـة بدورهـا تخـدم أغراضًـا متعـددة ذات فائـدة خاصـة فـي العصـر الحديـث. ويعتمـد سـيرل - وايـت التفسـير الدافعـي الـذي تقدمـه نظريـة الهويـة الاجتماعيـة فيقول إن شـعور الفرد بأنـه ينتمـي إلـى أمـة متفوقة يخـدم حاجة إنسـانية أسـاس لديـه لتقديـر الـذات. ويضيف سـيرل - وايـت إلـى ذلك عـددًا مـن النقاط الخاصـة به لتفسـير التماهـي القومـي، تتضمن القـول إن اعتقادنـا بـأن «قضيتنـا قضيـة عادلـة»، علـى سـبيل المثـال، يُشـبع حاجة إنسـان أساسـية أخـرى لدينـا جميعًـا. وعندمـا يُصاحـب ذلـك إحسـاس بـأن الجماعة ضحيـة (لعدو مـا) فإن ذلـك يعزز شـعورنا بأننا على صـواب، ويعطينا المبـرر للعقاب أو الانتقـام. وأخيرًا، يعتقـد سـيرل - وايـت أن الهويـة القوميـة تسـاعدنا علـى إيجـاد معنى لحياتنـا[13].

علـى أن تفسـير نظريـة الهويـة الاجتماعيـة للقوميـة يتعـرض للنقـد نظـرًا إلـى مغالاته فـي التبسـيط، كمـا أن بعضًـا يسـلط الضـوء علـى المشـكلات التـي تواجههـا هـذه النظريـة في تفسـيرها للظواهر السياسـية بشـكل عـام. ويؤكـد ألان فاينلسـون (Alan Finlayson)، مثلًا، أن الجماعـات القوميـة تختلـف اختلافًـا نوعيًـا عـن الجماعـات التـي توضـع تحـت الملاحظة في المختبـر أو حتـى الملاحظـة فـي المواقـف الطبيعيـة، ليـس أقلهـا أن التصنيـف علـى أسـاس القوميـة يسـتثير عواطف عميقة جـدًا يصعب أن يسـتثيرها أي تصنيف اجتماعـي آخر: ويصر فاينلسـون على ذلـك قائلًا:

> نحـن لا نسـتطيع نقـل نتائـج الدراسـات النفسـية الاجتماعيـة للجماعـات إلى دراسـة الأمـم (...) فالأمـم ليسـت مجـرد جماعـة يتماهـى معهـا النـاس، إنهـا نوع خـاص من القـوى السياسـية الجماهيريـة الحديثـة والمرتبطـة أساسًـا بالشـكل الحديـث للدولـة[14].

(13) *The Psychology of Nationalism*, pp. 87-100.

(14) Alan Finlayson, «Psychology, Psychoanalysis and Theories of Nationalism,» *Nations and Nationalism*, vol. 4, no. 2 (April 1998), pp. 145-162.

إن النقد المتعلّق بتفرّد الأمة [كجماعة واختلافها عن الجماعات التجريبية] يمكن أن يوجه إلى نظرية الصراع الواقعي ونظرية السيطرة الاجتماعية.

أمـا ليونـي هـادي (Leonie Huddy)، فإنها تتجاوز حجـة تميّز الولاء القومـي عن الولاءات الأخـرى التـي يقـول بهـا فاينلسـون، وتُسـلّط الضـوء علـى مشـكلات أخـرى (أكثـر عمومية) تعتـرض نظريـة الهويـة الاجتماعيـة عنـد تطبيقهـا علـى السياسـة. ويتصـل كثيـر مـن هـذه المشـكلات بحقيقـة أن هـذه النظريـة موقفية أساسًـا، وهي بذلـك قد تقلل من دور البشـر فـي صنـع الهويـات، وقدرتهـم علـى تغييرهـا تاليًا (فهـي تقـول، بعبـارة أخـرى، إن النزوعية مهمة هنـا أيضًا).

وتلفـت هـادي (Huddy) النظـر إلـى ملاحظة هامة وهـي أن الجماعـات لا تتصارع مع بعضهـا بعضًـا فـي كل الحـالات - وهـذه ملاحظـة تعجـز نظرية عامـة كنظريـة تاجفل عن تفسـيرها فـي الواقـع. كما تشـير هـادي إلى مشـكلة أخـرى في نظريـة الهويـة الاجتماعية تتمثـل فـي «أن الأفـراد يختلفـون في درجـة تماهيهم مع الجماعـة»[15]. فضلًا عـن ذلك، لا بـد مـن الإشـارة إلـى أن الهويات كانت تتسـم بالثبات في مـا مضى - حيث يولد الشـخص علـى ديـن معيـن أو في طبقـة اقتصاديـة معينة «وانتهـى الأمر» - أمـا اليوم فـإن الهويات أصبحـت مجـال اختيـار؛ إذ يسـتطيع الفـرد أن يغيـر قوميته مثـلًا، والكثيـرون يفعلون ذلك فعـلًا، ويسـتطيع الفـرد حتـى أن يغيّـر جنسـه، وهـو مـا كان مسـتحيلًا قبـل عقـود قليلـة. وتؤكـد هـادي «أنـه لا بـد لنـا والحـال هـذه أن نتبيّـن كيـف تتحـول هويـة ضعيفـة، أو حتـى غيـر موجـودة، إلـى شـيء قـادر علـى بعـث الكراهيـة الإثنيـة». وتسـتدرك فتقـول: «لكنـه يصعـب فهـم هـذه العمليـة إذا كان كل مـا نختبـره هـو تلـك الهويـات الواهيـة التـي تنشـأ ضمـن موقـف الحـد الأدنـى مـن التعـارف بيـن الجماعـات، فـي المختبـر، أو الهويات المتشـددة التـي تقف وراء الصراعات الإثنيـة أو القوميـة»[16]. وإضافة إلى التعلق بالجماعـة ودوره فـي الصـراع بيـن الجماعـات، كمـا سـنلاحظ لاحقًـا، هنـاك عمليـات نفسـية متنوعـة يتعيـن النظـر فيهـا لأهميتهـا البالغـة فـي تكـوّن الكراهيـة الإثنيـة - مثـل «تجريـد الآخـر مـن إنسـانيته» (dehumanization) - لكـن نظريـة الهويـة الاجتماعيـة لـم تلتفـت إلـى تلـك العمليـات. إضافـة إلـى ذلـك، هنـاك دليـل علـى أن

(15) Leonie Huddy, «From Social to Political Identity: A Critical Examination of Social Identity Theory,» *Political Psychology*, vol. 22, no. 1 (March 2001), pp. 127-156.

(16) المصدر نفسه، ص 137.

الفـروق الشـخصية بيـن الأفـراد قـد تؤثـر فـي درجـة تبنيهـم هويـة الجماعة (وفـي درجة تبنيهـم الهويـة القوميـة تاليًا).

نظرية السيطرة الاجتماعية

تأخـذ نظريـة السـيطرة الاجتماعيـة علـى عاتقهـا، هـي الأخـرى تحليـل القوميـة، إضافـة إلـى تحليـل أشـكال أخـرى مـن الصـراع بيـن الجماعـات، وترتبـط هـذه النظريـة بوجـه خـاص باسـم جيـم سـيدانيوس (Jim Sidanius) وزمـلاءه[17]. وتعكـس هـذه النظريـة تأثـرًا عميقًـا بعلـم النفـس التطـوري (Evolutionary Psychology) حيـث يؤكـد سـيدانيوس أن هـذه المقاربـة، إذا شـئنا وصفهـا بأبسـط عبـارة ممكنـة «تـرى المجتمـع كيانًـا اضطهاديًا بطبيعتـه، وتـرى أن اضطهـاد الجماعـة للفـرد يمثـل الوضـع الطبيعي/العـادي (the «normal condition») فـي العلاقـات بيـن البشـر»[18].

ويقول سيدانيوس:

> إن معظـم أشـكال الاضطهـاد، بمـا فيهـا العنصريـة (racism)، والتمركـز الإثنـي (ethnocentricism) (بمـا فيـه اضطهـاد الأقليات الدينيـة)، والجنسـوية (Sexism)، والتعصب القومـي (nationalism)، والطبقيـة (classism)، إضافـة إلـى العديـد مـن الاتجاهـات الاجتماعيـة، والدوافـع الإنسـانية، والمؤسسـات الاجتماعيـة - تنشـأ جميعهـا للحفـاظ علـى تماسـك هـذا البنـاء التراتبـي القائـم علـى أسـاس جماعـي[19].

ويـرى أنصـار هـذه النظريـة أن جميـع المجتمعـات الإنسـانية قائمـة علـى أسـاس

---

(17) للمزيد، انظر: James Sidanius and Felicia Pratto, «The Inevitability of Oppression and the Dynamics of Social Dominance,» in: Paul Sniderman and Philip Tetlock, eds., *Prejudice and Politics in American Society* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1991); James Sidanius, «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective,» Duke University Press (1993), and James Sidanius [et al.], «Social Dominance Theory: Its Agenda and Method,» *Political Psychology*, vol. 25, no. 6 (December 2004), pp. 845-880.

(18) Sidanius, «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective,» p. 217.

(19) المصدر نفسه، ص 214.

تراتبـي (hierarchial) إلـى حـد مـا، يكـون فيهـا جماعـة مسـيطرة واحـدة فـي الأقـل، وجماعة خاضعـة أو تابعـة. ووفـق تعبيـر مونـرو، وهانكـن، وفـان فشـتن (Monroe, Hankin, and Van Vechten) «يكـوّن التوجـه نحـو السـيطرة الاجتماعيـة (social dominance orientation) رغبـة أسـاس لـدى الأفـراد فـي رؤيـة الجماعـة التـي ينتمـون إليهـا بصـورة إيجابيـة، وعلـى أنهـا تحتـل مكانـة أرفـع مقارنـة بالجماعـات الأخـرى ذات الصلـة»[20]. ويعمـل التوجـه نحـو السـيطرة الاجتماعيـة بوصفـه أيديولوجيـة تسـبغ شـرعية علـى عـدم المسـاواة، والاضطهـاد، والتمييـز الـذي يجـري داخل النظـم التراتبية جميعهـا. وعلى غرار ملغـرام، يرى سـيدانيوس أن هذه التراتبيـة تنبثـق طبيعيًـا لأن مثـل هـذه المجتمعـات امتلكت ميـزة تطورية جعلتهـا تنافس المجتمعـات التـي لـم تكـن منظمـة علـى هـذا النحـو، وهـو كملغـرام يركـز علـى الجانـب المظلـم مـن هـذه «الحقيقـة» التطوريـة، ويمثـل التمييـز داخـل هـذه الأنظمـة، حتـى في أشـكاله الخفيـة، حقيقـة مـن حقائـق الحيـاة اليوميـة. وخلافًـا لنظريـة الهويـة الاجتماعيـة، تـرى نظريـة السـيطرة الاجتماعيـة أن الجماعـات الأدنـى مكانة تحابـى أو تنزل عنـد رغبات الجماعـات الأعلـى مكانـة (وليـس جماعتهـا) فـي كثيـر مـن الحـالات (ويُعطـي سـيدانيوس محابـاة السـود للبيـض والإذعـان لرغباتهـم، في خـلال فتـرة التمييـز العنصري فـي الولايات المتحـدة، كأوضـح مثال علـى ذلك فـي العصور الحديثـة)[21]. كذلـك فإن الجماعـات الأدنى مكانـة ربمـا لا تحقق الإنجاز الذي تسـتطيعه بسـبب ما يحيـط بهم من توقعـات اجتماعية متدانيـة، وهـو ما يمثـل شـكلًا مـن أشـكال الإعاقـة الذاتيـة[22] (self-handicapping).

وعلـى الرغـم مـن أن هـذه النظريـة تُقـدر أهميـة القـوى الموقفيـة والقـوى الفرديـة علـى حـد سـواء، كثيـرًا مـا يُنظـر إليهـا كنظريـة نزوعيـة أكثـر ممـا ينبغـي. ويُفيـد سـيدانيوس وزمـلاءه أن النموذجـات النظريـة الأخـرى كنظريـة الهويـة الاجتماعيـة تعجـز عـن تفسـير الفـروق الفرديـة فـي التعصـب والتمييـز ضـد «الآخـر» لـدى الذيـن

(20) Kristen Monroe, James Hankin and Renee Van Vechten, «The Psychological Foundations of Identity Politics,» *Annual Review of Political Science*, vol. 3 (2000), p. 431.

(21) Sidanius, Ibid., p. 202.

(22) المصدر نفسه، ص 204.

تجمعهم بـ «الآخر» الروابط ذاتها[23]. كذلك فإن سيدانيوس كثيرًا ما يشير إلى مفهوم «التوجه نحو السيطرة الاجتماعية» كمفهوم مركزي في نظريته؛ وهذا التوجه يشير إلى مدى الرغبة لدى الأفراد في السيطرة على الآخرين - مع أنه يُبين أن التوجه نحو السيطرة يمكن أن يختلف باختلاف الجنس على سبيل المثال، حيث يُظهر الذكور ميلًا أشد للسيطرة من الإناث[24]، غير أن النظرية تهتم بالتنافسية لدى الجماعات وليس الأفراد (وما يعتقدونه أو ما لا يعتقدونه). ويؤكد سيدانيوس وزملاءه أن السياق الاجتماعي، والتنشئة الاجتماعية، والأدوار الاجتماعية تؤدي دورًا رئيسًا في نظريتهم - وهي جميعًا عوامل تأخذنا نحو الاتجاه الموقفي ما أن نتخطى الجذور التطورية لهذا المنظور [القائمة على نظرية التطور].

غير أن نظرية السيطرة الاجتماعية في وضعها الحالي قد تكون غامضة ومُحرجة، وتبدو أحيانًا كأنها تُزاوج بين عوامل نزوعية وعوامل موقفية غير متلائمة، ما يجعل من الصعب دحضها. وعلى الرغم من ذلك، فإن النتائج التي تشير إلى أن «محاباة» الجماعة الخارجية ليست ممكنة فحسب، بل كثيرًا ما تحدث داخل التراتيب الاجتماعية، هي دليل مهم مخالف لنظرية الهوية الاجتماعية، على سبيل المثال. كما أن ميل البشر عبر الثقافات المختلفة إلى تنظيم أنفسهم في بنى تراتيبية، حقيقة يصعب إنكارها.

المقاربة السيكودينامية

تتسم هذه المقاربة التي جاء بها صديقنا القديم فرويد في نظرية التحليل النفسي، بطابع نزوعي واضح في تفسيره [للصراعات] القومية، وهو يحجم (كما في دراسته للإرهاب) عن الذهاب بعيدًا في علم النفس السياسي. فعلى صعيد العلاقات بين الجماعات، تحدث فرويد عن «نرجسية الفروق الطفيفة» (the narcissism of minor differences)؛ ويشير بذلك إلى ميل البشر إلى الصراع ليس مع الذين يسكنون قريبًا منهم فحسب ولكن مع الذين يشبهونهم إلى حد

(23) Sidanius [et al.], «Social Dominance Theory: Its Agenda and Method,» p. 846.

(24) Sidanius, Ibid., p. 210.

كبيـر أيضـا[25]. وإذا ما نظرنا إلـى الصراع بين البروتسـتانت والكاثوليك في إيرلندا الشـمالية ربمـا نجـد لهـذه الفكـرة وقعًـا خاصًـا مـن حيـث أن الصـراع الـذي ينشـب بينهـم يمثـل نموذجًـا واضحًـا لهـذه الحالـة؛ فهم جيران متشـابهون مـن نواحٍ مختلفـة، وكثيـرًا ما يصعب علـى العالـم الخارجـي التمييـز بينهـم. أما الفكـرة الأخـرى ذات الصلـة التي قال بهـا فرويد فهـي أن العـدوان دافـع إنسـاني فطـري، غيـر أن المجتمع يُنشـئنا علـى كبته.

وفـي مـا عدا هـذه الإشـارات، لـم يكن لـدى فرويد كثيـر ليقوله بشـأن علـم نفس القوميـة، وكمـا هو الحـال في غيره مـن المجالات تُـرك الأمر لأتباعـه ليبنوا علـى أفكاره. ولعـل أبـرز الذيـن طـوّروا هـذه الأفـكار لتتـلاءم مـع موضـوع القوميـة والصـراع الإثنـي، هـو فاميـك فولـكان (Vamik Volkan) وزمـلاءه. يبـدأ فولـكان في كتابـه **الحاجة إلـى الأعداء والحلفـاء** (The Need To Have Enemies and Allies) بفكـرة فرويـد الكلاسـيكية حـول «الفصـل» (splitting)؛ والتـي تقـول إننـا نميـل فـي مرحلـة النمـو المبكـر مـن حياتنـا إلـى أن نفصـل العالـم إلـى مـا هـو «حسـن»، ومـا هـو «سـيىء»، ثـم نقـوم بإسـقاط الجوانـب التـي لا نحبهـا في أنفسـنا، أو مـا نجده غير مقبـول فينا، علـى الآخرين. لذا، فإننا عندما نسـخط علـى أعدائنـا فإننـا لا نسخط عليهـم فقـط، وإنمـا علـى مـا لا نحبه فـي أنفسـنا؛ ونحن بذلـك نُسـقط الجوانب غيـر المرغوبة في أنفسـنا علـى العالـم الخارجي. ومـن هنا، فإن الأعـداء يخدمـون غرضًا مهمًـا وإن كان غرضًا لا شـعوريًا. فالغضب والنقمة اللذان نشـعر بهمـا نحـو الآخريـن يُخلصاننـا مـن الغضب والنقمـة التي نشـعر بهـا تجاه أنفسـنا[26].

قـد يكـون فولـكان محقًـا فـي أن هنـاك شـيئًا لا نكـون واعيـن بـه، يأخـذ مجـراه فعـلاً علـى مسـتوى اللاشـعور فـي الصراعـات الدوليـة جميعهـا. ومـن ناحيـة أخـرى،

---

(25) Sigmund Freud, *Civilization and Its Discontents* (New York: W. W. Norton, 1961), p. 61.

(26) Vamik Volkan: *The Need to Have Enemies and Allies: From Clinical Practice to International Relationships* (Northvale, NJ: J. Aronson, 1988); *Bloodlines: From Ethnic Pride To Ethnic Terrorism* (New York: Farrar, Strauss and Giroux, 1997), and Finlayson, «Psychology, Psychoanalysis and Theories of Nationalism».

نجد أنه من الصعب للغاية تأكيد الحجج المتعلقة باللاشعور رفضًا أو قبولًا. وفي الوقت الذي لا يزال فيه علم الأعصاب يجمع أدلة متواترة على أن اللاشعور موجود فعلًا، إلا أننا لا نزال غير قادرين على اختبار نظريات معقدة من هذا القبيل [على أساس عصبي] (فنحن نستطيع - أن نميز في ما إذا كان الفرد يشعر بالتقزّز، من خلال تكنيكات إف إم آر آي (fMRI)، ولكننا لا نستطيع أن نميز في ما إذا كان ذلك الشعور هو تقزّزًا من الذات (أو من شيء آخر، على سبيل المثال)). علاوة على ذلك، وكما يفيد سيرل - وايت، فإن «القفز» في التحليل من المستوى الفردي إلى المستوى الجماعي ينطوي على مشكلات. لأن الجماعات، كما رأينا حتى الآن، تحمل دينامياتها الخاصة، وهي ليست مجرد تجمع أفراد[27]. والواقع أن دوسان كشمانوفيش (Dusan Kecmanovic) - وهو مؤلف كتاب في هذا الموضوع - يذهب بعيدًا فينفي أن يكون هناك نظرية نفسية في القومية، ويعود السبب في ذلك جزئيًا، إلى أن المقاربة السيكولوجية، من وجهة نظره، ليست الطريقة الأفضل لتفسير الحدث الاجتماعي[28]. وقد يكون هذا دفعًا مبالغًا فيه للقضية، غير أن هناك مشكلات معروفة تعترض الانتقال من الملاحظات المبنية على الممارسات الإكلينيكية إلى الاستنتاجات المتعلقة بالسلوك الاجتماعي. وتصبح النظريات النفسية الاجتماعية أكثر فائدة في هذه الحالة، من حيث إنها تُصَمّم لتفسير سلوكيات مجمّعة من عينة من الأفراد [في مواقف اجتماعية وليس لأفراد في مواقف إكلينيكية؛ ففي الحالة الأولى يكون الاهتمام منصبًا على التحقق من معرفة كيف يسلك الأفراد في الغالب في موقف معين، بينما يكون الاهتمام منصبًا في الحالة الثانية على فهم حالة فرد معين وعلاجها].

المقاربة السياسية البيولوجية

يتمثّل واحد من التفسيرات البيولوجية الرائجة للقومية والصراع الإثني - وجميع أنواع الصراع في الواقع - في الفكرة البسيطة القائلة إن عملية الاختيار الطبيعي قد وضعت في البشر غريزة عدوان فطرية[29]. وهذه فكرة معقولة،

(27) Searle-White, *The Psychology of Nationalism*, p. 41.

(28) Dusan Kecmanovic, «Review of Joshua Searle-White: The Psychology of Nationalism,» *Nations and Nationalism*, vol. 9, no. 3 (2003), pp. 459-461.

(29) للمزيد، انظر: Konrad Lorenz, *On Aggression* (New York: Harcourt Brace, 1966).

ذلك لأن البشر قبل أن يتمكنوا من الحصول على حاجياتهم من محالّ السوبر ماركت، كانوا يضطرون إلى القتل لتوفير القوت. ولكن، حتى لو كانت هذه المقولة صحيحة، فإن غالبية البشر ليسوا عدوانيين طوال الوقت، الأمر الذي يثير السؤال عن ماهية الظروف التي تستدعي تلك الغريزة. ويحاول بعض الباحثين التوسع في البحث في هذا النطاق ويطرحون مقاربة بيولوجية في مجال السياسة، وهو منظور دارويني يرى أن عملية التطور جعلتنا نفكر ونتصرف بطرائق محددة يمكن التنبؤ بها، في نطاق معين على الأقل. والحقيقة أن هذه النظرة الموحدة لنظرية التطور خادعة؛ ففي حين أن علماء نفس التطور، والإثنولوجيين [الذين يدرسون سلوك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية]، والبيولوجيين قد يشاطرون الرأي القائل إن عمليات التطور هيّأتنا جينيًا بطريقة ما - ويرفضون بذات القدر فكرة سكنر بأننا نولد صفحات بيضاء - غير أنهم يختلفون في القضية الرئيسة المتعلقة بماهية تلك التهيئة الجينية وما تتضمنه من خصائص.

فلو قارنا، مثلًا، بين كتاب ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) **الجين الأناني** (*The Selfish Gene*)، وهو من الكتب الأكثر مبيعًا، وكتاب ماري كلارك (Mary Clark) **البحث في الطبيعة الإنسانية** (*In Search of Human Nature*)، نجد أن دوكنز يرى عالمًا تطوّر فيه لدى البشر القدرة على السلوك بما يخدم مصلحتهم الذاتية، إذ يرى،

> أن الخاصية الغالبة المتوقعة في الجين الناجح، هي الأنانية المطلقة. وهذه الأنانية الجينية تؤدي عادة إلى أنانية في السلوك الفردي (...) غير أن هناك ظروفًا خاصة يمكن فيها للجين تحقيق أهدافه الأنانية على أفضل وجه بتبني شكل محدود من الإيثار على المستوى الفردي لدى الحيوانات. وكلمتا «خاصة» و«محدود» هامتان في هذه الجملة الأخيرة؛ ذلك لأنه وعلى الرغم من أمنياتنا بألّا يكون هذا هو واقع الحال، فإن الحب الشامل والاهتمام بالصالح العام للنوع [الإنساني] هي ببساطة مفاهيم ليست ذات قيمة بالمعنى التطوري[30].

(30) Richard Dawkins, *The Selfish Gene*, 30th anniversary edition (New York: Oxford University Press, 2006), p. 2.

لكـن كلارك تـرى أن نظريـة «جينـات الأنانيـة» التي يقول بهـا دوكنز لا تعطـي مجالًا للحـب، والتعاطـف، والفضيلـة. لأن كل هـذه الأمـور مرفوضـة تطوريًـا، وليسـت فعالـة؛ من حيـث إنهـا تقلـل صلاحيـة الفـرد للبقاء [بحسـب ما يـرى دوكنـز][31]. غيـر أنه مـن الصعب حقيقـة تفسـير الأفعـال الإيثاريـة العديـدة التـي نلاحظهـا في عالـم الواقـع - أفعـال الذين يجازفـون بسـلامتهم لإنقـاذ الآخريـن - مـن أمثـال راؤول والنبيـرغ (Raoul Wallenberg) وبيـر آنجـر (Per Anger) -، إذا كان هـذا هـو حـال «تمديداتنـا» الجينيـة. وتتصـدى كلارك لوجهـة النظـر هـذه قائلـة، «لا يمكننـي أن أرى كيـف تسـنى لنـا أن نتطـور علـى الإطـلاق لـو أننـا بُنينـا علـى هـذه الشـاكلة». وتضيـف، «لا يمكننـي أن أرى فـي الحقيقـة كيـف تسـنى لأي مـن الثدييـات الاجتماعيـة - بمـا فيهـا الحيوانـات الرئيسـة الأخـرى، والدلافيـن، والفيلـة - أن تظهـر إلـى حيـز الوجـود لو كانـت قوانين الانتقـاء الطبيعـي المطبقة على السـلوك هي تلـك القوانيـن»[32]. وتؤكـد كلارك أن وجهـة النظـر هـذه لا تعجـز عن تفسـير سـلوك الإيثار والتعاطـف فـي الحيـاة الاجتماعيـة فحسـب، وإنما تعجـز أيضًا عن تفسـير حقيقـة امتلاكنا مشـاعر الحـب والحزن، وسـعينا إلـى الالتئام معًـا في جماعـات على الإطلاق. وبـدلًا من أن تكـون «جينـات الأنانية» هـي التي كوَّنتنا، نحـن في الواقع معـدّون جينيًـا، أو نمتلك البنية الأسـاس، لمد يد المسـاعدة لغيرنا من البشـر. ولكي يتسـنى للنـوع التوالد والاسـتمرار، فانه لـن يحقق الهـدف المرجـو إلا إذا كان مُعدًا لمسـاعدة بعضه بعضًا.

أمـا ج. فيليـب رشـتون (J. Philippe Rushton)، فإنـه يؤكـد، بالمقابـل، أننـا نسـتطيع تفسـير إيثارنـا لجماعتنـا الإثنيـة وعدائنـا لسـواهم، علـى حـد سـواء، باسـتخدام نظريـة التشـابه الجينـي (genetic similarity theory)، والقائلـة إننـا نميـل إلـى تفضيـل أولئـك المشـابهين لنـا جينيًـا[33]. ويـرى أن هـذا النـوع المحـدود مـن الايثـار تكـوّن لأغـراض تطوريـة، مـن حيـث أنـه يعمـل علـى تكـرار جيناتنـا الخاصـة ونقلهـا إلـى الأجيـال

---

(31) Mary Clark, *In Search of Human Nature* (New York: Routledge, 2002), p. 55.

(32) المصدر نفسه.

(33) J. Philippe Ruston, «Ethnic Nationalism, Evolutionary Psychology and Genetic Similarity Theory,» *Nations and Nationalism*, vol. 11, no. 4 (2005), pp. 489-507.

اللاحقـة. فنحـن نميـل إلـى الـزواج بمن يشـبهوننا إثنيًـا، على سـبيل المثـال، وبمـن يقاربوننا عمريًـا، وتعليميًـا، وبالذين يشـبهوننا فـي الاتجاهات، وحتى بمن يشـبهوننا في الشـخصية[34]. ومـع أن تحليـلات مـن هـذا النـوع تعتبـر تحليـلات اختزاليـة (reductionist) [بمعنـى أنهـا تـرد ظواهـر معقـدة إلـى عوامـل محـدودة]، إلا أن رشـتون ينكـر اسـتخدامه تحليـلًا جينيًـا صرفًـا للسياسـة، ويبـدو أنـه ينظـر إلـى الاتجاهـات السياسـية كتبريـر لاشـعوري لمصالـح جينيـة [كمناصـرة جماعتنـا الخاصـة بهـدف المحافظة علـى بقـاء جيناتها]. وهـو افتراض يتـرك كثيرًا مـن الأمـور المعلقـة[35]. وكمـا أن هـذا النـوع مـن التحليـل لا يحـدد المكنزمـات التـي يجري مـن خلالهـا ترجمـة الدوافـع الجينيـة إلـى فعـل سياسـي، إضافة إلـى أنـه يواجـه صعوبة في تفسـير العـداء نحـو الذيـن لا يشـاطروننا البنـاء الجينـي ذاتـه. ولكـن رشـتون بعـد أن يطـرح مقولتـه بـأن «القوميـة الإثنيـة، والخـوف مـن الأجانـب، والقتـل الجماعـي قـد تمثـل الجانـب المظلـم مـن الإيثـار»، لا يعلّـل لمـاذا تقـود الجينات إلى العـداء للجماعـة الخارجيـة أو يعلّل عمق تلـك المشـاعر[36].

غيـر أن عـزو القوميـة إلـى عمليـات تطورية يواجه مشـكلة أكثر أساسـية مـن حيث إنه لا يوضـح مـا تـم تمديـده فينـا جينيًا علـى وجـه التحديد، ومـن حيـث صعوبة فصـل العوامل الوراثيـة أو البيولوجيـة عـن السـلوكات الاجتماعيـة المتعلمـة [أو فصـل ما هو وراثـي عمّا هو متعلـم]؛ وحتـى لـو اسـتطعنا تحديـد طبيعة التمديـدات الجينيـة لدينا، فإننا سـنواجه مشـكلة فـي تبيـان الطريقة التي تتفاعل فيها هـذه العوامل التطورية مع القوى الاجتماعية والسياسـية (لأن البيولوجي وحده لا يفسـر كل شـيء، بالتأكيد). والمشكلة الحقيقية التي تواجه أي نظرية تـرد الصـراع القومـي الحـاد إلـى شـيء فطـري، هـي أنهـا لا تفسـر ميلنا إلـى مسـاعدة بعضنا بعضًـا، كمـا توحي بحوث كلارك، على الرغم مـن أن هناك ضغوطًا اجتماعيـة [موقفية] عديدة تحـد مـن هذا الميل، كما سـبق أن رأينـا. وبعبارة أخـرى، ربما تكون مصادر الصـراع قابعة في مـكان ما غير بيولوجية الإنسـان، وهذه المشـكلة لا تواجـه النظريات البيوسياسـية وغيرها من

(34) «Ethnic Nationalism, Evolutionary Psychology and Genetic Similarity Theory,» p. 495.

(35) المصدر نفسه، ص 501.

(36) المصدر نفسه، ص 503.

النظريات التي ترى أن التعصب والتمييز أمور «ملازمة» للطبيعة البشرية فحسب، ولكنها تواجه مناحي أخرى كنظرية السيطرة الاجتماعية التي تفترض أن مجرد وجود التراتيبية (الاجتماعية) كافٍ لإنتاج الاضطهاد والاستغلال.

علم نفس الإبادة الجماعية

ترى كرستن مونرو (Kristen Monroe) وزملاءها أن نظرية الهوية الاجتماعية تدعو إلى كثيرًا من القلق، ذلك لأنها «توحي أن الإبادة الجماعية والعنصرية ربما لا تكون في الحقيقة سوى امتداد متطرف للسلوك الجماعي العادي، والتماهي الطبيعي مع الجماعة»[37]. والنظريات الموقفية العامة كنظرية الهوية الاجتماعية، لا تستطيع على أي حال، إيضاح الأسباب التي تأخذ معها الهويات الإثنية أحيانًا شكل سلوكات متطرفة، حيث يقول جيمس والر:

> إن التصنيف الاجتماعي، وما له من دور في التفكير بطريقة «نحن» و«هم»، لا يؤدي إلى كراهيتنا لكل الجماعات الخارجية. كما أن الاستبعاد الاجتماعي، فضلًا عن المجازر والإبادة الجماعية، ليست نتائج حتمية لهذا التصنيف. إلا أن التصنيف الاجتماعي يذكرنا، أننا حين نتماهى مع جماعة، نميل إلى تضخيم الفروق بيننا وبين الآخرين، وإلى تضخيم العداء للجماعات الأخرى في كثير من الأحيان، ونميل بالمقابل إلى تعزيز التعاون داخل جماعتنا وتعزيز فعاليتها[38].

إن ما يُفضي إليه هذا كله هو أننا لا نستطيع تفسير القومية والصراع الإثني تفسيرًا تامًّا استنادًا إلى النظريات التي ترى أن مجرد الأخذ بمنظور «نحن» و«هم» كافٍ لفهم تلك الظواهر. وإذا كان الأخذ بهذا المنظور يمثل شرطًا ضروريًا لنشوء الصراع، فإنه لا يكون شرطًا كافيًا في كثير من الأحيان. ومن الواضح أننا نحتاج في تحليل القومية والصراع الإثني إلى فهم التفاعل بين مكنزمات «نحن مقابل هم» الموقفية [في الأساس] والعوامل النزوعية

(37) Monroe, Hankin and Van Vechten, «The Psychological Foundations of Identity Politics,» p. 436.

(38) Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*, p. 243.

كالشـخصية والاعتقـادات - ذلـك التفاعـل الـذي يـؤدي إلـى سـلوكات متطرفـة - ولا يتصـدى لهـذه المهمـة حاليًـا إلا قـدر ضئيـل مـن البحـوث.

كذلـك، فـإن الطبيعـة «المفاجئـة» لكثيـر مـن أحـداث الإبـادة الجماعية يُظهـر ضعفًا آخـر فـي النظريـات التـي تناولناهـا فـي هـذا الفصـل. وتعطـي الأحـداث التـي وقعـت في يوغسـلافيا فـي بدايـة التسـعينيات مثـالًا مناسـبًا علـى مـا نرمـي إليـه. فقـد عـاش الصـرب، والبوسـنيون، والكـروات كجماعـات إثنيـة جنبًا إلـى جنب في انسـجام على ما يبدو لسـنين عديـدة - ولكنهـم لـم يدخلـوا فـي حـرب ضـد بعضهـم بعضًـا فجـأة فحسـب، بـل وأخـذوا يدمـرون بعضهـم بعضًـا على نطـاق واسـع. وبعـد أن أصبحت تعابيـر «صربي» و«بوسـني» تعابيـر قديمـة ليـس لهـا مـن صلـة (بالواقـع الحديـث) إلا فـي معـرض اختبـار فـي تاريـخ الحـرب العالميـة الأولـى، فإن الإبـادة الجماعية فـي يوغسـلافيا كانت صدمة مذهلـة للعالم الغربـي. كذلـك فـإن أحـداث روانـدا عـام 1994 أخـذت الكثيريـن علـى حيـن غـرة - علـى الرغـم مـن أن القتـل الجماعـي كان يحدث هناك بشـكل متقطـع، وإن كان ممنهجًا، سـنين عـدة. ولأن النظريـات التـي تناولناهـا فـي هذا الفصـل لا تُعنـى بالتغيير - حيـث إن جميع هـذه النظريـات تتسـم بالجمـود إلـى حـد مـا - فإنهـا مـن هنـا لا تقـدم سـوى تفسـيرات جزئيـة لأحـداث الإبـادة الفجائية.

فمـا هـي الإبادة الجماعيـة على وجه التحديـد؟ وفقًا لمـا تفيده مونرو، فـإن «الإبادة الجماعيـة تشـير إلـى التدميـر المقصـود والممنهـج للبشـر، ليـس بسـبب أفعـال فرديـة أو ذنـوب ارتكبوهـا، وإنمـا بسـبب انتمائهـم إلـى جماعـة قوميـة، أو إثنيـة، أو عرقيـة، أو دينيـة»[39]. لقـد اطّلعنـا فـي هـذا الكتاب حتـى الآن علـى تفسـيرات متنوعة للهولوكوسـت النـازي، ولكـن كيـف لنـا أن نفسـر الإبـادة الجماعيـة - أشـد أشـكال الصـراع الإثني فتـكًا - بوجـه عـام؟ وبحسـب مـا تفيـد مونـرو، مـرة أخرى.

> هنـاك تفسـيران كثيـرًا مـا يقدمـان لهـذه الظاهـرة؛ الأول منهمـا يتعلـق بالفـوارق بيـن الجماعـات فـي الظـروف السياسـية - الاقتصاديـة، ورغبـة الجماعـة

(39) Kristen Monroe, «Review Essay: The Psychology of Genocide,» *Ethics and International Affairs*, vol. 9, no. 1 (March 1995), pp. 216.

المسيطرة، من ثمّ، في استخدام قوتها لتحقيق ظروف معيشية أفضل، أو الحصول قدر أكبر من الأراضي، والثروة المادية التي تمتلكها أقلية إثنية.

ويتصل هذا التفسير بمقاربة الإنسان الاقتصادي على نحو ما أو بنظرية الصراع الواقعي بين الجماعات - وتعتقد مونرو أنه يمثل «ومضة من العقلانية» - وهو من هنا يبدو تفسيرًا معقولًا خلافًا للتفسير الآخر، حيث تقول «وفي مقابل هذا التفسير العقلاني، يذهب التفسير الثاني إلى رد الإبادة الجماعية إلى الأحقاد القديمة العالقة في الكيان السياسي، أحقاد لم تجلِها المفاوضات السياسية المعتادة نظرًا إلى تأصلها وجموحها». وتعتقد مونرو أن كلا التفسيرين قاصر، لسوء الحظ، لأننا يمكن أن نجد التنافس للحصول على الموارد المحدودة كما يمكن أن نجد الأحقاد القديمة في كثير من الأماكن، غير أننا لا نرى الأحداث تتفاقم بالضرورة لتصل حد الإبادة الجماعية[40].

وتقترح مونرو تفسيرًا آخر للإبادة الجماعية متعدد الطبقات والمستويات ويتمتع بقدر أكبر من الدقة، حيث تؤكد فيه ضرورة وجود عوامل عدة لوقوع الإبادة الجماعية - كثير من هذه العوامل موقفي في طابعه، إضافة إلى عوامل أكثر نزوعية. وترى مونرو أنه أولًا وقبل كل شيء لا بد أن يكون هناك تقسيمات إثنية واضحة، أو مجتمعًا «تعدديًا» - وتعتبر هذا العامل شرطًا ميسرًا أو ضروريًا، ولكنه ليس شرطًا كافيًا طبعًا. ويأتي على المستوى الثاني بعد ذلك عوامل موقفية تقبع فوق هذه التقسيمات (من قبيل ضائقة اقتصادية، أو عدم استقرار سياسي، أو حرب أو ثورة). ومن ثمّ، تعمل هذه الظروف على تقسيم المجتمع ضد نفسه، فينقسم بشكل مؤقت، أو دائم، إلى عناصر متصارعة وفقًا للخطوط الإثنية القائمة داخله. وتمثل هذه الخطوة خطوة مهمة في عملية الإبادة ولكنها لا تقود بالضرورة إلى ذبح أعضاء جماعة على يد جماعة أخرى. وفي المستوى الثالث تأتي التصورات الذهنية المتبادلة، إذ لا بد للجماعات المختلفة أن تأخذ في النظر إلى جيرانهم على أنهم «الآخرون». ولا بد من النظر إليهم «نظرة نمطية»، كما لا بد من التعامل معهم بوصفهم

(40) «Review Essay: The Psychology of Genocide,» pp. 215-216.

«كبـش فـداء» لتحميلهـم اللوم علـى ما تواجهه «الضحيـة» من ظروف صعبـة. علاوة على ذلـك، فـإن كبـش الفـداء لا بـد أن يُجـرد مـن إنسـانيته لاحقًـا على نحـو يجعـل الجماعة المسـيطرة تشـعر بأنهـا مُحقّـة أخلاقيًا في ارتـكاب الفظائـع المخيفة ضـد الجماعة الأدنى منزلة.

ولعـل المتطلـب المسـبق أو المسـتوى الأول مـن العوامل الـذي تقترحه مونـرو يبدو واضحًـا بدرجـة كافيـة الآن؛ ذلك لأن الإبـادة الجماعيـة لا تحدث داخل مجتمعـات مختلطة أصـلًا لا تكـون الخطـوط الإثنيـة بـارزة فيهـا لتسـتخدم بوصفهـا خطـوط تصنيـف، علـى الرغـم مـن أن الإبـادة الجماعيـة قد تقـع بين مجتمعـات من هـذا القبيل (وليـس داخلها). عـلاوة علـى ذلك، تلاحـظ مونـرو أن «اللامسـاواة المزمنة في المشـاركة السياسـية والفروق الاقتصاديـة والاجتماعيـة المرتبطـة بها تفسـح في الطريق لحـدوث الإبـادة وخصوصًا عندما يكـون هناك تاريـخ طويل للصـراع بين الجماعـات»[41].

أمـا المسـتوى الثانـي مـن العوامـل، وفـق مـا تفيد مونـرو، فيتمثـل في ظهـور أوضاع اقتصاديـة وسياسـية تزعـزع الاسـتقرار «وتهـدد النظـام الاجتماعـي»[42]. وتقـدم سـوزان وودوارد (Susan Woodward) تفسـيرًا ممتـازًا لانهيـار يوغسـلافيا فـي كتابهـا **مأسـاة البلقان** تركز فيـه علـى النـوع الثاني مـن العوامل المفسَّـرة هـذه[43]. فقد اعتُبـرت يوغسـلافيا حتى عهد قريـب، قـد يصـل إلـى أواخـر السـبعينيات بشـيرًا لاقتصـاد المسـتقبل، إذ رأى العديـد مـن الاقتصادييـن الليبرالييـن أن نظامهـا الاقتصـادي يمثّـل زواجًـا مثاليًـا بيـن النظـام الاشـتراكي ونظـام السـوق[44]. كمـا أنهـا تجـاوزت محنـة مـوت «رجلهـا القـوي» المارشـال تيتـو (Tito)، الـذي يعتبـره العديـد مـن المراقبيـن اللاعـب الرئيـس فـي التطـور السياسـي والاقتصـادي ليوغسـلافيا كدولـة. ولكـن أوصـال يوغسـلافيا تقطعت سـريعًا بعد الحـرب البـاردة، وعادت

---

(41) «Review Essay: The Psychology of Genocide,» p. 218.

(42) المصدر نفسه، ص 218.

(43) Susan Woodward, *Balkan Tragedy: Chaos and Dissolution after the Cold War* (Washington DC: Brookings Institution, 1995).

(44) للمزيد، انظر: Charles Lindblom, *Politics and Markets: The World's Political Economic Systems* (New York: Basic Books, 1977).

إلـى «الأجـزاء» القديمـة التـي تألفـت منهـا (وكان قـد ألّفهـا الحلفـاء المنتصـرون بعـد الحـرب العالميـة الأولـى، كمـا كان الحـال مـع العـراق). كيـف لنـا أن نفسـر هـذا الحـدث المفاجئ؟

لقـد لجـأ العديد مـن المراقبين الدوليين سـريعًا إلى حجـة «الأحقـاد القديمة». فقال رئيـس الـوزراء البريطاني جـون ميجـر (John Major) لمجلس العموم إن الإبـادة وقعت نتيجة:

> سـقوط الاتحاد السـوفياتي وسـقوط الانضباط الـذي فرضه على الأحقـاد التاريخية في يوغسـلافيا القديمـة، ومـا أن اختفـى ذلـك النظـام حتـى عـادت الأحقـاد القديمة إلى الظهـور وبدأنـا نرى نتائجهـا عندما وقـع القتال.

غيـر أن هـذا التحليـل بالـغ فـي درجـة التحكـم التـي كان السـوفيات يمارسـونها علـى يوغسـلافيا وهـي لـم تكن دولـة حليفـة لهـم، وأهمل حقيقـة أن الصـرب، والكـروات، والبوسـنيين، وغيرهـم تعايشـوا فـي انسـجام معقـول داخـل حيِّـز قومـي مشـترك لسـنين عديـدة، كمـا أن هـذا التحليـل قلل من حقيقـة أن الدولة ثبتـت بعد فقدان الشـخص الذي كان ممسـكًا بمكوناتهـا الإثنيـة المتنوعـة بالقـوة[45]. لكـن سـوزان وودوارد (Susan Woodward) أعرضـت عـن مثـل هـذه الآراء الشـائعة فـي حينـه، وقدمـت تفسـيرًا اقتصاديًـا جليًـا لمـا حـدث رأت فيـه أن الضائقـة الاقتصاديـة - التـي نجمـت عـن تفكيـك الترتيبـات الاقتصادية القائمـة والدخـول سـريعًا في الميـاه الباردة لنظام السـوق العالمي، وهو ما سـمته وودوارد «برنامـج عـلاج بالصدمـة للتطويـر الاقتصـادي» - خلقـت) توتـرات أدت إلـى تمـزق الدولـة الحديثـة نسـبيًا عنـد الأطـراف[46]. وبالمثـل، أدى نقـص الأراضـي في روانـدا، والناجـم جزئيًا عـن تدفـق التوتسـي إليهـا، إلـى عـدم اسـتقرار اقتصـادي، أرسـى القاعـدة أو مهَّـد للرعـب الذي جـاء لاحقًـا[47].

---

(45) يجب ملاحظة أن والكر كونور أشار إلى يوغسلافيا كمنطقة توتر إثني منذ منتصف الستينيات (انظر بداية هذا الفصل).

(46) Woodward, *Balkan Tragedy: Chaos and Dissolution after the Cold War*, p. 1.

(47) Philip Gourevitch, *We Wish to Inform You that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda* (New York: Picador, 1998), p. 73.

هـذه الشـروط الموقفيـة العامـة طبعًـا - وإن كانـت تمثـل قـوى حاسـمة وملازمـة لحـالات الإبـادة إلا أنهـا ليسـت كافية لحدوثهـا. لقد كان بإمـكان يوغسـلافيا أن تنفصل إلى أجزاءهـا المتنوعـة بسـلام - كمـا حدث فـي تشيكوسـلوفاكيا السـابقة، أو ربما كان بوسـعها أن تلجـأ إلـى حـرب دون أن تسـمح بوقـوع الإبـادة الواسـعة التـي وقعـت. ومن هنـا، فإن منطـق الأمـور يقضي بـأن تكون هناك خطوة، أو سلسـلة مـن الخطوات قبل وقـوع الإبادة؛ وتنـدرج هـذه الخطـوات ضمـن المسـتوى الثالـث أو المسـتوى النفسـي، وعند ذلـك تصبح اسـتبصارات علـم النفـس ذات فائـدة عظيمـة، حيـث يصبـح للتصـورات والنزعـات الثقافيـة والفرديـة دور حاسـم في حـدوث الإبـادة الجماعية.

وبحسـب مـا تـرى مونـرو، تكـون الخطـوة الأولى ضمـن المسـتوى السـيكولوجي هذا متمثلـة بظهـور نـوع مـن الأيديولوجيـة التـي تعمـل علـى إسـباغ الشـرعية وتبريـر الذبـح الـذي سـيقع. وكثيـرًا مـا يأخذ هـذا التبرير شـكلًا «علميًـا» مريبًا. وتقـول مونـرو إن «المثير للسـخرية هـو أن الاعتقـاد بالحتميـة البيولوجيـة يتـم توظيفـه لتبريـر الإبـادة الجماعيـة [والتطهيـر العرقـي] وتصويرهـا علـى أنهـا حـرب مقدسـة لتحريـر الجسـم السياسـي مـن الأنسـجة المريضـة». لـذا، تصبـح الإبـادة الجماعيـة إجـراءً علميًـا واقيًـا مـن العـدوى التـي يأتـي بهـا وسـطاء «التلـوث العنصـري» الذيـن يُنظـر إليهـم بوصفهـم فطريـات وبكتيريـا مسـببة للمـرض والتدهور والموت لدى الشـعوب المضيفة[48]. وينجم عـن تلك الأيديولوجية الراديكاليـة اتجـاه لشـيطنة (demonization) جماعـة الأقليـة، ورؤيتهـم كخطر، وشـعور بالتفوق العنصـري أو الدينـي عليهم[49].

---

(48) *We Wish to Inform You that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families,* p. 220. and Richard Lerner, *Final Solutions: Biology, Prejudice, and Genocide* (University Park, PA: Pennsylvania State Press, 1992).

يُفصّل ريتشارد ليريز في كتابه هذا كيف استخدمت الحجج البيولوجية لتبرير الهولوكوست. وليس مستغربًا خروج هذه الحجج عن التداول الشائع لسنوات عدة بعد الحرب العالمية الثانية من حيث إنها تذكر بالتصورات النازية.

(49) ويماثل ذلك وصف التوتسي بـ «الصراصير»، بكل ما يحمله هذا الوصف من معان سلبية مهينة لإنسانيتهم.

أما الخطوة التالية فتتمثل في نقلة في إدراكنا (أو رؤيتنا) لأنفسنا مقارنة بالآخرين. وهناك دليل أخذته مونرو عن كتاب كريستوفر براوننغ (Christopher Browning) حول **النازي باتاليون 101** (*Nazi Battalion 101*) يوحي أن البروتوكول الاجتماعي والرغبة في عدم «إراقة ماء الوجه» أمام الزملاء تصبح أكثر أهمية من حياة «الآخر» في ظل هذه الظروف [فنجاريهم في ما يعملون][50]. وقد نرى أنه «ليس لدينا الخيار» إلا أن نفعل ما نفعله. أما التغير السيكولوجي الثالث فهو أننا قد ننظر إلى أنفسنا كأننا نتصرف بوحي من عاطفة مقلوبة (twisted compassion)؛ فنرى أنفسنا مخلوقات أخلاقية (تتصرف بوازع من ضمير) تسعى لتخليص «الآخر» من بؤسه، فقد رأى بعض أعضاء البتاليون (101) أن قتل الأطفال عمل أخلاقي، من حيث إن تعرض والديهم للإعدام سيجعل حياتهم لا تُحتمل في كل الحالات. وأخيرًا، ولعلها النقلة الرئيسية التي تسبق كل ما عداها، فتتمثل بحدوث الابتعاد (نفسيًا) عن الضحية وتجريده من إنسانيته (distancing and dehumanization). أما الابتعاد فلا يشير بالضرورة إلى المسافة الفيزيقية التي ألقت آيخمان بعيدًا عن أولئك الذين كان يُساهم في قتلهم - ولكنه يشير إلى المسافة النفسية والانفعالية التي يخلقها المعتدون بينهم وبين ضحاياهم الذين يُحمّلوا لاحقًا اللوم على ما حاق بهم من مصير[51].

خاتمة

بالعودة إلى موضوع علم الأعصاب الذي سبقت مناقشته، هناك ما يشير إلى حدوث تغيرات في الدماغ الإنساني عندما يقوم الجيران بقتل جيران عرفوهم لسنين عديدة - وهو ما يحدث في حالات الإبادة في كثير من الأحيان[52]. ففي ما يتعلق بالقتل في ساحة الحرب، يفيد ديف غروسمان (Dave Grossman) أنه:

---

(50) Christopher Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland* (New York: Harper Collins, 1992).

(51) Monroe, «Review Essay: The Psychology of Genocide,» p. 236.

(52) انظر: Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*, p. 244.

عندما يخاف الإنسان، يتوقف الدماغ الأمامي (forebrain) لديه عن التفكير (وهو الذي يمثل العقل لدى البشر) ويبدأ بالتفكير من خلال الدماغ الأوسط (midbrain) (أي من خلال الجزء من الدماغ الذي لا يتميز أساسًا لدى الإنسان عما هو عليه لدى الحيوان)[53].

والحقيقة أن الانفعال النفسي الذي يخبره الإنسان السوي عندما يُقدِم على قتل فرد من أبناء نوعه ليس الخوف، وإنما الشعور برادع يردعه عن الإقدام على ذلك الفعل. وسيكون من الأهمية بمكان، بحسب ما يرى غروسمان، معرفة ما إذا كان شيء من هذا القبيل يجري لدى الذين يرتكبون أفعال الإبادة. ولعله من المعقول افتراض أن الأجزاء الأكثر بدائية من الدماغ تُستثار عندما ينخرط الأفراد في سلوكيات إبادة، ولكن لسوء الحظ، لا يتوافر لدينا الآن كثيرًا من البحوث حول هذه القضية.

وبعيدًا عن النقاط التي تثيرها مونرو، وكما ذكرنا في الفصل الرابع، علينا أن نتذكر أن الإنسان يحمل نزعة إلى الطاعة - وعلى الرغم من أنه لا يكون هناك سلطة مهيمنة تقف فوق رؤوسنا على الدوام لنحقق من أننا نذعن - فإن هذه النزعة تمثل عاملًا قويًا يُسهم في حدوث الإبادة؛ ذلك لأن الإبادة الجماعية تتطلب عددًا كبيرًا من الناس ليقوموا بالقتل وعددًا كبيرًا من الضحايا [لينطبق عليها وصف إبادة]، ومن هنا، فإن الإبادة لا تكون ممكنة لو لم يكن هناك ميل أساس لدى الإنسان إلى طاعة السلطة. وما هو مثير للاهتمام، فضلًا عن ذلك، أن ملغرام استطاع استثارة درجة عالية من الطاعة لدى مبحوثيه حتى دون تجريد «الضحية» من إنسانيته [وهو أحد الشروط النفسية التي اقترحتها مونرو لحدوث الإبادة]؛ ويلفت والر (Waller) النظر إلى حقيقة أن الممثل اللطيف [الذي قام بدور التلميذ في تجربة ملغرام] والذي ادّعى أنه يتلقى الصدمات الكهربائية - عومل من المبحوثين باحترام بوصفه شخصًا (لا ضحية)، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأن الطاعة في مواقف السياسة الواقعية ربما تكون أعلى مما

(53) Dave Grossman, *On Killing: The Psychological Cost of Learning to Kill in War and Society* (Boston, MA: Little and Brown, 1995).

نتصور [بمعنى أن تنفيذ الأوامر التي تقضي بإيذاء الآخر لا تتطلب بالضرورة تجريده من إنسانيته لكي ننفذ الأوامر التي تقضي بإيذائه][54].

وتبرز طبيعة السلطة بحد ذاتها كقضية مساوية في الأهمية في هذا السياق؛ إذ يجب علينا أن نضيف إلى وجهة نظر مونرو التي يمكن اعتبارها شاملة من دون هذه الثغرة، إمكانات التأثير والتغيير التي يمتلكها القادة، وغيرهم من الوسطاء، كمتغيرات حاسمة في حدوث الإبادة. وفي حين أن أدولف هتلر (Adolf Hitler) وسلوبودان ميلوسوفيتش (Slobodan Milosevic) برّرا المذابح التي ارتُكبت تحت إمرتهما في ظروف اجتماعية وسياسية خارجة عن نطاق تحكمهما، فإن كليهما أدى دورًا حاسمًا في «تشكيل» مجرى الأحداث في أوروبا في خلال اثنتين من الإبادات الجماعية. وعلى الرغم من أن هتلر لم يواجه العدالة نظير ما فعل، فإن ميلوسوفيتش خضع للمحاكمة، ولم يشكك عالِم اجتماعي واحد في مسؤوليته، جزئيًا في الأقل، عن الإبادة الجماعية التي حدثت في يوغسلافيا. وبالمثل، أدى قادة الهوتو في رواندا أدوارًا متكاملة في خلق الممارسات التمييزية ضد التوتسي على مستويات مختلفة، وفي منطقة دارفور في السودان قام قادة البلاد بتشجيع الإبادة الجماعية. وفوق نزعة القيادة إلى الشر، ونزعة كثير من الناس للانقياد إلى ما يُطلب منهم فعله (كما ظهر في تجربة زمباردو)، وإلى فعل أشياء يعرفون في قرارة أنفسهم، أو يشكون، أنها خطأ (كما وجد جانيس (Janis) وآش (Asch))، لا يعود وقوع جرائم الإبادة الجماعية مستغربًا - فعندما تضاف هذه العوامل النزوعية - والمتمثلة هنا بالميل إلى الخضوع للأوامر، والميل إلى الإنسياق للآخرين - إلى عوامل موقفية عامة كالضائقة الاقتصادية، والتفكير من منطلق «نحن» و«هم»، وتجريد الآخر من إنسانيته، وشيطنته، وزراعة العقائد الأيديولوجية، والقوة الهائلة للقواعد الاجتماعية، إضافة إلى غير ذلك من العوامل، نجد الإبادة الجماعية أمرًا شائعًا، وملمحًا متكررًا من ملامح تاريخ البشر.

---

(54) Waller, Ibid., p. 249.

14

علم نفس العنصرية وعدم التسامح السياسي

يرى فيديريكو ولاكس (Federico and Luks) أن «العنصر (race) لازال يؤدي دورًا مهمًا، ليس في تحديد ما يصل إليه الأفراد في حياتهم فحسب، وإنما في اتجاهاتهم الاجتماعية والسياسية أيضًا»[1]. وهذا القول يصدق على الولايات المتحدة، كما يصدق على أوروبا ومعظم بلدان العالم الأخرى. وليس مستغربًا والحال هذه أن علماء نفس السياسة كانوا ولا زالوا مهتمين بجذور التعصب العنصري. فما الذي يجعل أفرادًا عاديين، عقلانيين، وأصحاء نفسيًا يتحيّزون - ظاهريًا أو باطنيًا - ضد شخص معين أو جماعة بكاملها، ليس لأي سبب سوى أن ذلك الشخص أو تلك الجماعة صدف أن لون جلده/أو جلدها، يختلف عن لون جلده؟ ويمثّل هذا التحيز في الحقيقة واحدًا من أكبر الألغاز التي يواجهها علم النفس الاجتماعي والسياسي - وربما العلوم الاجتماعية قاطبة، ومن هنا نجد الكثير من هؤلاء العلماء يتصدى لدراسة أسباب انتشار هذه الظاهرة.

ووفقًا لسوزان فسك (Susan Fiske) فإن القدر الأكبر من البحوث التي أُجريت حول العنصرية (racism) والتعصب (prejudice) والتمييز (discrimination) خرج من الولايات المتحدة. وتفسر فسك ذلك بقولها، «إن قرونًا من الهجرات

(1) Christopher Federico and Samantha Luks, «The Political Psychology of Race,» *Political Psychology*, vol. 26, no. 5 (October 2005), pp. 661-666.

الشـديدة التنـوع التـي دخلـت فـي أمـة واحـدة، دفعـت القضايـا الإثنيـة إلـى السـطح في الولايـات المتحـدة أسـرع مـن أي مـكان آخـر». ولكنهـا تُؤكـد أن كثيـرًا مـن النظريـات التـي اسـتُخدمت لتفسـير العنصريـة تنطبـق علـى التعصـب فـي السياسـة الأوروبيـة بالقـدر الـذي تنطبـق فيـه علـى التعصـب فـي السياسـة الأميركيـة[2]. والحقيقـة أن معظـم النظريـات التـي سـنتناولها فـي هـذا الفصـل يمكـن تطبيقهـا علـى أي منطقـة مـن العالـم حيثمـا يكـون هنـاك فـروق عنصريـة وإثنيـة بـارزة داخـل الدولـة الواحـدة.

والنظريات النفسـية التي تصدت لتفسـير العنصرية ونشـوء التوترات العنصرية عديدة ومتنوعـة إلـى حـد يبعث علـى الدوار فـي الحقيقـة، ولا يسـعنا إعطاءهـا جميعًـا حقها من البحـث علـى قـدم المسـاواة هنـا، ولكننـا نسـتطيع الإشـارة إلـى الخطـوط العامـة للواحـدة منهـا بالتأكيـد. ومـن حيـث إننـا ناقشـنا بعض هـذه النظريـات فـي الفصـول السـابقة، فإننا سـنتناولها هنـا تنـاولًا سـريعًا (ونوضح بطبيعـة الحال كيف يمكننـا تطبيقها علـى الاتجاهات العنصريـة مقارنـة باتجاهـات أخـرى). ولأن الصـراع بيـن الجماعـات يأخـذ أشـكالًا متعـددة [بمـا فيهـا الصراعـات العنصريـة]، فـإن النظريـات التـي تناولناهـا فـي الفصل السـابق يمكن أن تسـتخدم أيضًـا لتفسـير التمييـز العنصـري، إضافـة إلـى نظريـات أخـرى أكثر تحديـدًا تم تطويرهـا لتفسـير العنصريـة والتعصـب ضمـن السـياق الأميركـي حصريًـا. وتفيـد فسـك أننا نسـتطيع تصنيـف جميـع هـذه النظريـات فـي صنفيـن: نظريـات تفسّـر ظاهـرة التعصـب علـى مسـتوى فـردي (individual-level theories) ونظريـات تفسـرها علـى مسـتوى السـياق [أو الإطـار المحيـط] (contextual-level theories) وبوجـه عـام، يمكننـا النظـر إلـى هاتيـن التسـميتين كمصطلحيـن بديلين للمقاربة الموقفيـة والمقاربة النزوعية اللتين نقول بهمـا[3]. والعنصرية، كغيرهـا مـن الظواهـر السياسـية التـي ناقشـناها، قد تكـون نتاجًـا لاعتقـادات يحملهـا أفراد معينـون أو نتاجًـا للشـخصيات الخاصـة بهـؤلاء الأفـراد، أو قـد تكـون نتاجًـا لعوامـل موقفية تُشـجّع أو تسـمح بممارسـة سـلوك عنصري.

---

(2) Susan Fiske, «Stereotyping, Prejudice, and Discrimination at the Seam between the Centuries: Evolution, Culture, Mind, and the Brain,» *European Journal of Social Psychology*, vol. 30, no. 3 (May-June 2000), p. 302.

(3) المصدر نفسه.

ما الذي يُفسّر العنصرية؟

نظرية الشخصية التسلطية

ربما تكون قد خرجتَ من مناقشتنا في الفصل الرابع بانطباع مفاده أن نظرية الشخصية التسلطية (authoritarian personality) قد قضت في الستينات، وسقطت كشجرة ضخمة بقوة فأس الموقفية الذي رفعه عليها ملغرام وآخرون. لكن هذه النظرية عادت إلى حيز الوجود في السنوات الأخيرة، من خلال بحوث بوب ألتيماير (Bob Altemeyer) على وجه الخصوص[4]. وقد احتفظ ألتيماير أساسًا بنظرية الشخصية التسلطية «القديمة» التي ارتبطت بتيودور أدورنو (Theodore Adorno) وزملائه، ولكنه حاول أن يزيل شيئًا من الغموض الذي اعترى تلك النظرية. فقد حددت نظرية أدورنو في الأصل تسع سمات شخصية يُفترض أن تميز الجناح اليميني التسلطي من الناس، لكن ألتيماير تخلص من بعض هذه السمات واختصرها في ثلاثة «عناقيد/تجمعات من الاتجاهات» (attitudinal clusters)، وهي: الخضوع للسلطة (authoritarian submission) (ويعني ذلك ميلًا شديدًا لدى الفرد إلى الخضوع للسلطة)، والعدوان التسلطي (authoritarian aggression) (العدائية تجاه الجماعات الخارجية)، والتقليدية (conventionalism) (وتشير إلى الامتثال للمعايير الاجتماعية وعدم الاستعداد للتصدي للواقع القائم). وأطلق ألتيماير على الصيغة المنقحة من النظرية تسمية «تسلطية الجناح اليميني» (right-wing authoritarianism) وطوّر مقياسًا لقياس درجة اتسام الأفراد بهذه الصفات.

ويمكن النظر إلى العنصرية ببساطة، من وجهة نظر ألتيماير، كواحدة من خصائص هذا الصنف من الشخصية - التي تتسم بالتعصب الشديد إزاء

---

(4) Bob Altemeyer: *Right - Wing Authoritarianism* (Winnipeg: University of Manitoba Press, 1981); *Enemies of Freedom: Understanding Right - Wing Authoritarianism* (San Francisco, CA: Jossey-Bass, 1988), and *The Authoritarian Specter* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996).

للحصول على ملخّص النهج «القديم»، انظر: Roger Brown, «The Authoritarian Personality and the Organization of Attitudes,» in: Roger Brown, ed., *Social Psychologie* (New York: Free Press, 1965).

لرؤية حديثة، انظر: Bob Altemeyer, «The Other 'Authoritarian Personality',» in: John Jost and Jim Sidanius, eds., *Political Psychology*: *Key Readings* (New York: Psychology Press, 2004).

الجماعات الخارجية من أي نوع، بما في ذلك الأميركيين من أصول أفريقية، والمثليين. ويقول ألتيماير بهذا الصدد:

> يحمل أصحاب هذه الشخصية الكثير من التعصبات؛ فهم معادون لكثير من الأقليات، ويُظهرون تعصبًا على الجميع على قدم المساواة. ولكنهم لا يدركون في العادة أنهم متمركزون حول ذواتهم، ولا يرغبون في اكتشاف ذلك [...] وهم على استعداد دائمًا لمساعدة الحكومة في اضطهاد أي جماعة تخطر ببالك، بما في ذلك هم أنفسهم[5]!

ويتفق هذا الوصف مع وصف فرانك دو جورجيو (Frank De Georgio) لهاري كالاهان (Harry Callahan) الشرطي الخيالي في فيلم «هاري القذر» (Dirty Harry)، إذ يصفه لزميله الجديد قائلًا، «هناك شيء خاص لدى هاري، أنه غير مستعد لمحاباة أحد، فهو يكره الجميع». ويوصف هاري بعد ذلك في الفيلم بسلسلة من النعوت التعصبية. ويبدو أن «هاري القذر» ليس إلا «العنصري - كاره الجميع على قدم المساواة» (equal opportunity racist) الذي يشير إليه ألتيماير - على الرغم من أن الفيلم اللاحق بعنوان «ماغنوم فورس» (Magnum Force) أظهر بوضوح أنه لم يكن متعصبًا بذلك القدر (فقد تبين أن له صديقة آسيوية، وشريك عمل أسود. ولعل هذا التحول في سيناريو الفيلم استهدف تخفيف النغمة العنصرية التي طغت على الفيلم الأصلي، وتجنب ما قد تجلبه تلك النغمة من نقد).

وتثير نظرية «التسلطية اليمينية» التي يطرحها ألتيماير إشكالية أخرى تتعلق بالتمييز الذي أشرنا إليه في الفصل الأول بين الموقفية والنزوعية. فمن الناحية الأولى، ليس هناك من شك في أن الأفراد يصبحون متعصبين نتيجة للبيئات أو الظروف التي يجدون أنفسهم فيها، وليس لأنهم ولدوا على هذه الشاكلة. وبهذا المعنى تكون معظم النظريات «موقفية» في جذورها، لأن الناس لا بد أن يحصلوا على نزعاتهم من مكان ما (والاستثناء على ذلك هو النظريات البيولوجية التي تؤكد أننا نولد بشيء من النزعات الموروثة في الأقل ولا نولد

---

(5) Altemeyer, «The Other 'Authoritarian Personality',» p. 87.

«صفحـات بيضـاء»). ويعتقـد ألتيمايـر أن اليمينييـن التسـلطيين يتعلمـون اعتقاداتهـم التسـلطية فـي الطفولـة - كمـا يفعـل ذلـك غيـر التسـلطيين - لكـن الفـروق تكمـن فـي أن غيـر التسـلطيين يكونـون أكثـر وعيًـا بأنفسـهم، ويعملـون علـى تعديـل اعتقاداتهـم المبكـرة بالخبـرة، فـي حيـن أن التسـلطيين يحافظـون علـى تلـك الاعتقـادات[6]. ومـن ناحيـة ثانيـة يمكـن اعتبـار هـذه النظريـة نظريـة نزوعيـة مـن حيـث إن الاتجاهـات التسـلطية، وإن كانـت متعلمـة، إلا أنهـا تمثّـل نزعـات تسـتعصي علـى التغييـر لاحقًـا، وتسـتمر مـدى الحيـاة. ومـع أن السـبب البعيـد لهـذه النزعـات قـد يتصـل بعوامـل موقفيـة، إلا أن السـبب المباشـر، أو القريـب، يكـون سـببًا نزوعيًـا.

ومـع أن نظريـة ألتيمايـر أصبحـت معروفـة علـى نطـاق واسـع الآن واكتسـبت بعض المناصريـن، إلا أنهـا لا تتمتـع بالقبـول الـذي تتمتـع بـه نظريـات أخـرى فـي هـذا المجال. وبعيـدًا مـن الانتقـادات الأساسـية التـي أثرناهـا حـول هـذه النظريـات المبسـطة فـي الشـخصية، فـإن نظريـة الشـخصية التسـلطية تدعـو إلى التسـاؤل عن السـبب الـذي يجعل مناطـق بكاملهـا تعبـر عـن عواطـف عنصريـة شـديدة إزاء جماعـة أو جماعـات معينـة أو تمـارس التمييـز ضدهـم، أو تفعل الأمرين معًـا. وقد يكون نظـام جيم كـرو (Jim Crow) الذي قـام علـى الفصـل العنصري فـي الولايـات المتحـدة الجنوبيـة قديمًا هـو المثال الكلاسـيكي لهـذه الحالـة [والإشـارة هنـا إلـى تعصـب جماعـة بكاملهـا وليس إلـى تعصب أفـراد].

نظرية السيطرة الاجتماعية

رأينـا فـي الفصـل السـابق أن جيـم سـيدانيوس (Jim Sidanius) هـو المدافـع البـارز عـن نظريـة السـيطرة الاجتماعيـة فـي العلاقـات بيـن الجماعـات[7]. وهـذه النظريـة، خلافًـا لسـابقتها، نظريـة عامـة فـي العلاقـات بيـن الجماعـات، ويمكـن الاسـتناد إليهـا لفهـم أنـواع مختلفـة مـن الصراعـات غيـر الصراعـات القوميـة. وتركـز هـذه النظريـة

(6) Bob Altemeyer, «Reducing Prejudice in Right-Wing Authoritarians,» in: Mark Zanna and James Olson, eds., *The Psychology of Prejudice,* Ontario Symposium, vol. 7, (Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1994).

(7) Jim Sidanius and Felicia Pratto, *Social Dominance: An Intergroup Theory of Social Hierarchy and Oppression* (New York: Cambridge University Press, 1999).

علـى الدافـع إلـى السـيطرة الاجتماعيـة [والمقصـود هنـا سـيطرة الجماعـة التـي ينتمـي إليهـا الفـرد]، وتميـز بيـن الأفـراد مـن حيـث توجهاتهـم نحـو هـذا النـوع مـن السـيطرة؛ فالأفـراد الذيـن يُظهـرون توجهًـا قويًـا نحـو السـيطرة الاجتماعيـة يـرون جماعتهـم علـى أنهـا جماعـة «مختلفـة» - تتميـز عـن الآخريـن - ويرغبـون فـي أن تحتـل مركـز السـيطرة فـي المجتمـع. هـذه النظريـة وإن كانـت أكثـر تعقيـدًا مـن سـابقتها، إلا أنهـا تشـترك معهـا فـي جذورهـا النظريـة. وكمـا سـبق أن أشـرنا، فـإن هـذه النظريـة تزعـم أن الأفـراد ذوي المكانـة المتدانيـة يمكـن أن يأخـذوا بالأسـاطير التـي تسـبغ شـرعية علـى التراتبيـة القائمـة فـي المجتمـع إلـى حـد يجعلهـم يحابـون الجماعـة الخارجيـة ذات المنزلـة العاليـة[8]. ويَعتبـر سـيدانيوس تفضيـل السـود لِـ «العـم تـوم» [الأبيـض] أثنـاء حقبـة الفصـل العنصـري فـي الولايـات المتحـدة، أوضـح مثـال علـى هـذه الظاهـرة فـي العصـر الحديـث، والتـي نجمـت عـن خضـوع السـود للبيـض تاريخيًـا[9].

ولقـد كـرّس أنصـار هـذه المقاربـة الكثيـر مـن الجهـد لدراسـة العنصريـة علـى وجـه الخصوص. ووفقًا لما ترى فيليشيا براتو (Felicia Pratto) وزملاؤها، فإن التوجه للسيطرة الاجتماعية يرتبـط ارتباطًـا وثيقًا بالعنصريـة المناوئة للسـود؛ والتعصب على مجموعات الأقليات بشـكل عـام[10]. وتؤكد فيليشـيا براتـو وزملاؤهـا أن «أيديولوجية العنصرية المناوئة للسـود لم تتمثل في أفعال شـخصية تمييزية فحسـب، بل شـملت تمييزًا مُؤسّسـيًا ضد الأميركيين الأفارقة في المجـالات المختلفة، مثل البنوك، وهيئات النقل العـام، والمدارس، والكنائس، وقوانين الزواج، ونظـام العقوبـات»[11]. ولا تأتـي النظريـة بالكثير عـن المصدر الـذي خرجت منه «الأسـاطير

(8) Felicia Pratto [et al.], «Social Dominance Orientation: A Personality Variable Predicting Social and Political Attitudes,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 67, no. 4 (1994), pp. 741.

(9) James Sidanius, «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology* (Durham, NC: Duke University Press, 1993), p. 202.

(10) Pratto [et al.], Ibid., and Jim Sidanius, Erik Devereaux and Felicia Pratto, «A Comparison of Symbolic Racism Theory and Social Dominance Theory as Explanations for Racial Policy Attitudes,» *Journal of Social Psychology*, vol. 132, no. 3 (1992), pp. 377-395.

(11) Pratto [et al.], Ibid., p. 741.

المشـرّعة» للعنصريـة أو طبيعـة هذه الأسـاطير أكثر من القـول إنه يجري تناقلها من خلال االجماعـات المسـيطرة، غيـر أن أنصـار هـذه النظريـة يـرون أن المصـدر الـذي تنبثـق منـه الأيديولوجيـة العنصريـة، والأشـكال التي تأخذها ليسـت ذات أهميـة[12]. ومن هنـا فإن هذه النظريـة لا تمتلـك الكثيـر لتقوله عن المكنزمات النفسـية التي تعزز التفكيـر العنصري، على الرغـم مـن أن طبيعتها غير المحددة تسـمح بتطبيقها على نطاق واسـع مـن مواقف الصراع بين الجماعات.

نظرية السكيما/التنميط

وهـي واحـدة من النظريـات الواقعة ضمـن المعسـكر النزوعي التي حظيـت باهتمام واسـع فـي السـنوات الأخيـرة. وكواحـدة مـن نظريـات العنصرية، تـرد نظرية السـكيما هذه الظاهـرة إلـى الطريقـة التـي يصنـف بهـا العقـل البشـري المعلومـات. وكثيـرًا مـا يواجهني الطلبـة الذيـن أدرسـهم بسـؤال عمـا إذا كانـت هـذه النظريـة تنطبـق أيضًـا علـى الصـور النمطيـة العنصريـة (racial stereotypes)، وتكـون إجابتـي علـى الـدوام: «نعـم يمكننـا ذلـك، وقـد جـرى تطبيقها فعـلًا فـي هـذا النطـاق». وينبثـق التنميـط العنصـري (racial stereotyping) جزئيًـا، وفـق هـذا المنظور، من حاجة الإنسـان الأساسـية إلى تبسـيط الواقـع، ووضع الناس والأشـياء فـي أصنـاف. وتفيد فسـك وتايلـر (Fiske and Taylor) فـي كتابهما الكلاسـيكي **المعرفة الاجتماعيـة** (*Social Cognition*)، الصـادر عـام 1984 أن النظـرة إلـى الصـور النمطيـة كجانـب اعتيـادي مـن جوانـب العمليـة المعرفيـة، حيـن تُطبّـق علـى النـاس، أصبحـت مقبولـة على نطاق واسـع، وهـي تختلف اختلافًـا بيّنًا عـن النظرة التقليديـة إلى الصـور النمطية كظاهرة غيـر عقلانيـة معزولـة [عن غيرهـا مـن العمليـات المعرفيـة][13]. ويبـدو أن الصـور النمطية السـلبية تتكـوّن، فـي جانـب منهـا، نتيجـة لنزعتنـا إلـى إقامـة «ارتباطـات وهميـة» (illusory correlations) بيـن الأفـراد والجماعـة التـي ينتمـون إليهـا فـي نظرنـا، وتفيـد فسـك وتايلر، في هـذا الصدد:

---

(12) Pratto [et al.], Ibid., p. 742.

(13) Susan T. Fiske and Shelley E. Taylor, *Social Cognition* (Reading, MA: Addison-Wesley, 1984), p. 166.

قليلًا ما يتصل أعضاء جماعة الأكثرية بأعضاء من جماعة الأقلية [هذا من جهة، ومن جهة أخرى] قليلًا ما يصدر عن الناس سلوك سلبي [لأن السلوك الإيجابي أو المحايد هو الغالب]؛ وربما تُقيم جماعة الأكثرية ارتباطًا وهميًا بين مثل هذين الحدثين النادرين [أي عندما يصدر سلوك سلبي عن فرد من جماعة أقلية]، وتستنتج أن أعضاء جماعة الأقلية أكثر ميلًا إلى القيام بالسلوك السلبي [من جماعة الأكثرية][14].

ولعل المثال التالي يوضح مفهوم الارتباط الوهمي هذا. تخيّل، مثلًا، أنك طالب جامعي أبيض من منطقة ريفية تستأجر شقة من مالك باكستاني في مدينة ليدز بإنكلترا. والباكستانيون يشكّلون أقلية كبيرة في المملكة المتحدة، ولكنهم يفضلون الإقامة في المدن الكبرى في الشمال والوسط، مثل بيرمنغهام، ومانشستر، وليدز. ودعنا نتخيل أن الماء أخذ يتسرب من سقف شقتك، لكن المالك، لشدة استغرابك، لم يرد على مكالماتك ورسائلك المتكررة طالبًا إليه إجراء الاصلاح اللازم، ونتيجة لذلك نشأ لديك نفور شديد منه، وقررت الانتقال من الشقة بأسرع ما يمكن. ففي مثل هذا الموقف، وخصوصًا إذا لم يكن لديك أصدقاء باكستانيون، ولم يكن لديك كثير من العلاقات مع باكستانيين آخرين، إذا كان لديك أي علاقة بأحدهم على الإطلاق، فإنك ستميل على الأرجح إلى استنتاج وجود صلة (أو ارتباط وهمي) بين سلوك هذا الشخص والباكستانيين كجماعة. وقد تجد نفسك تنعت الباكستانيين جميعًا بنعوت عنصرية، على الرغم من أنك لم تعتبر نفسك يومًا شخصًا متعصبًا. ومن حيث إن هذه المقاربة المعرفية التي نحن بصددها تفترض كذلك أننا «علماء بالفطرة»، فقد يجد الواحد منا نفسه منقادًا إلى بناء استنتاج غير سليم على أساس من حالة منفردة واحدة.

وليس مستبعدًا أن تتطور لدينا مشاعر عنصرية إزاء الباكستانيين في المثال السابق. أما إذا كان لدينا معرفة بعدد كبير من المالكين وكان لدينا خبرة مماثلة مع معظمهم، فإننا قد نُلحِق هذا الفرد بـ «سكيما المالكين» بدلًا من «سكيما

---

(14) *Social Cognition* (Reading, MA: Addison-Wesley, 1984), p. 265. and David L. Hamilton and Robert K. Gifford, «Illusory Correlation in Interpersonal Perception: A Cognitive Basis of Stereotypic Judgments,» *Journal of Experimental Social Psychology*, vol. 12, no. 4 (1976), pp. 392-407.

الباكستانيين»[15]. وستؤدي تلك الحالة إلى مشاعر تعصبية على جميع المالكين بدلًا من الباكستانيين، وعليه، فإن نظرية السكيما ترى أن العنصرية ليست أمرًا حتميًا؛ فهي تعتمد على السكيما المستثارة، وعلى مخزون السكيمات الذي يمتلكه الفرد ومضامينها. وهذا هو العنصر الذي يجعل مقاربة السكيمات مقاربة نزوعية من حيث الأساس.

وقد جرت دراسة التنميط ودوره في التعصب منذ بداية الثلاثينيات في الأقل[16]، وكانت معظم البحوث فيه تنطلق من منطلق فرويدي كلاسيكي، أو تحليلي نفسي، وتنظر إلى العنصرية كشكل من الإسقاط يقوم فيه أفراد مضطربون نفسيًا بإسقاط مشاعر النقص التي يحملونها على الآخرين. ولكن الرائد الحقيقي لدراسة هذه الظاهرة كان عالم النفس الاجتماعي الشهير غوردون ألبورت (Gordon Allport) الذي ظل كتابه **طبيعة التعصب** (*The Nature of Prejudice*) (الذي صدرت طبعته الأولى عام 1954) مؤثرًا في هذا المجال لفترة طويلة بعد وفاته[17]. وقد نظر ألبورت إلى التعصب على أنه «كراهية مبنية على تعميم خاطىء ومتصلب، قد يظل شعورًا أو يجري التعبير عنه، وقد يتجه نحو جماعة أو نحو فرد من تلك الجماعة»[18]. وعندما وضع ألبورت كتابه، كان يُنظر إلى التنميط العنصري كخلل في الشخصية، ولكنه كان أول من تطرق إلى الفكرة المقلقة بأن العنصرية قد تنجم عن عمليات طبيعية لا تعدو أن تكون جزءًا من العمل «المعتاد» للذهن الإنساني. وأصرّ ألبورت على أن «العقل الإنساني لا بد أن يستند إلى التصنيفات ليفكر» ويضيف «ما أن تتكوّن التصنيفات حتى تصبح الأساس المعتاد للأحكام المسبقة»[19]. ويشير دوفيديو (Dovidio) وزملاؤه إلى أن ألبورت مهّد لتطوير المقاربة المعرفية في التعصب،

---

(15) Fiske and Taylor, Ibid., p. 166.

(16) انظر: Daniel Katz and Kenneth Braly, «Racial Stereotypes of 100 College Students,» *Journal of Abnormal and Social Psychology*, vol. 28 (1933), pp. 280-290.

(17) Gordon W. Allport, *The Nature of Prejudice* (Reading, MA: Addison Wesley, 1954).

(18) المصدر نفسه، ص 9.

(19) المصدر نفسه، ص 20.

ولكنه تبنى وجهة النظر القديمة، واعتبر التعصب «كراهية غير عقلانية متجذّرة تنجم عن الجهل وتعكس مناورات دفاع نفسية يتوسلها ذوو البناء الشخصي الضعيف من الناس»[20]. كما أكد ألبورت دور العوامل الانفعالية والدافعية في التعصب، الأمر الذي مهّد لأجيال من الباحثين أخذ أفكاره والانطلاق بناء عليها في اتجاهات مختلفة.

وبنى الباحثون لاحقًا على أساس من هذا البعد المعرفي في تحليل ألبورت بوجه خاص، على الرغم من أنهم خالفوا حججه أحيانًا، كما يمكن أن نتوقع[21]. وقد افترض ألبورت، كما غيره من الباحثين، أن وجود الصور النمطية يقود إلى اتجاهات تعصبية لا محالة[22]. والمثال الذي أعطيناه أعلاه المتعلق بالمالكين الباكستانيين في بريطانيا، على سبيل المثال، يوحي بأن مجرد وجود صورة نمطية في أذهاننا - سواء كانت تتعلق الباكستانيين أم المالكين، أم كليهما - يقود إلى التعصب حتمًا. لكن بحوث باتريسيا ديفاين (Patricia Devine) تشير إلى أن هذا ليس واقع الحال، وأن التنميط لا يقود بالضرورة إلى التعصب أو التمييز. واللافت أن باتريسيا ديفاين وجدت أن المتعصبين وغير المتعصبين يحملون صورًا نمطية عنصرية، ولكن غير المتعصبين يكبتون هذه الصور ذهنيًا، في حين أن المتعصبين لا يكبتونها[23]؛ ما قد يفسر أو يلقي شيئًا من الضوء على الأفكار المتناقضة التي يحملها الكثير من الناس إزاء التعصب.

ومع الاعتراف بأن المثال التالي لا يعدو أن يكون تطبيقًا قصصيًا لبحوث ديفاين، دعنا ننظر قليلاً في آراء ليندون جونسون الرجل الذي فاق الجميع في الحكومة الأميركية في سعيه لإنهاء التمييز تجاه الأميركيين الأفارقة، فعلى الرغم من أنه كان يرى ضرورة الأخذ بقانون الحقوق المدنية لعام 1964 كقضية

---

(20) John F. Dovidio, Peter Glick and Laurie Rudman, eds., *On the Nature of Prejudice: Fifty Years after Allport* (Malden, MA: Blackwell, 2005), pp. 1-2.

(21) للحصول على ملخص جيّد انظر: Susan Fiske, «Social Cognition and the Normality of Prejudgment,» in: Dovidio, Glick and Rudman, eds., Ibid.

(22) Allport, *The Nature of Prejudice.*

(23) Patricia Devine, «Stereotypes and Prejudice: Their Automatic and Controlled Components,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 56, no. 1 (1989), pp. 5-18.

أخلاقيـة، كثيـرًا مـا كان يشـير إلـى السـود فـي جلسـاته الخاصـة بوصفهـم «الزنـوج» (niggers) (وكانـت واحـدة مـن هـذه الجلسـات بحضـور روجـر ولكنـز (Roger Wilkins) المـؤرخ الأسـود الـذي عمـل صحافيًـا لاحقًـا ومسـاعدًا للنائـب العـام). وهـذا يوحـي أن جونسـون - القـادم مـن «الجنـوب القديـم»، حيـث كان التمييـز العنصـري أسـلوب حيـاة - ربمـا كان يكبـت الصـور النمطيـة العنصريـة فـي ذهنـه معظـم الوقـت، ولكـن تلـك الأفـكار كانـت متمكنـة منـه بالسـليقة إلـى حـد جعلهـا «تنطلـق مـن عقالهـا» فـي حديثـه الخـاص. ومـن جهـة أخـرى، يـرى راسـل فيزيـو (Russell Fazio) وزمـلاؤه أن نمـوذج ديفايـن لا ينطبـق إلا علـى بعـض الأفـراد[24]. وقـد أشـارت بحوثهـم إلـى أن هنـاك مـن يحمـل صـورًا نمطيـة سـلبية ولكنهـم يكبتونهـا فعـلًا، كمـا أن هنـاك مـن لا يخـزه ضميـره لوجـود مشـاعر سـلبيه لديـه نحـو السـود، ولكـن هنـاك أيضًـا مـن لا يحملـون، علـى مـا يبـدو، أي صـور نمطيـة سـلبية إزاء الأميركييـن الأفارقـة علـى الإطـلاق، وقـد سـمّى فيزيـو وزمـلاؤه هـذه الجماعـة بغيـر المتعصبيـن حقًـا[25] (truly nonprejudiced).

ويُفيـد جـون هورويتـز ومـارك بيفلـي (Jonn Hurwitz and mark Peffley) أن للصـور النمطية العنصريـة تداعيـات مهمـة، مـن حيـث إنهـا تؤثـر فـي الاتجاهـات العامـة نحـو الجريمـة والطبيعـة العقابيـة لكثيـر مـن السياسـات المضـادة للجريمـة[26]. ولكنهـم لاحظـوا، بالقـدر ذاتـه، أن النـاس لا يعتمـدون علـى الصـور النمطيـة دائمًـا، واسـتندوا إلـى الأدب [البحثـي] المعرفـي ليختبـروا الظـروف التـي تحـدد الأثـر النسـبي للصـور النمطيـة - فمتـى تؤثـر صـور البيـض النمطيـة للأميركييـن الأفارقـة فـي مـدركات البيـض وسياسـاتهم بهـذا الشـأن. ويسـتدعي فيزيـو وزمـلاؤه مـن علـم النفـس المعرفـي مفهـوم أسـلوب المعالجـة لإجـراء التمييـز المطلـوب. فقـد يتبـع النـاس في تحليلهـم للمعلومات الـواردة عن الآخرين أسـلوب المعالجـة النازل (مـن الأعلى إلى الأسـفل) (top-down processing)، أو أسـلوب المعالجة الصاعد

(24) Russell H. Fazio [et al.], «Variability in Automatic Activation as an Unobtrusive Measure of Racial Attitudes: A Bona Fide Pipeline?,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 69, no. 6 (December 1995), pp. 1013-1027.

(25) المصدر نفسه، ص 1025.

(26) John Hurwitz and Mark Peffley, «Public Perceptions of Race and Crime: The Role of Racial Stereotypes,» *American Journal of Political Science,* vol. 41, no. 2 (April 1997), pp. 375-401.

(مـن الأسـفل إلـى الأعلـى) (bottom-up processing). وعندمـا يعتمـدون الأسـلوب الأول يتخذون الصـور النمطيـة والسـكيمات قاعـدة لهم فـي تحليـل المعلومات الـواردة عـن الآخرين [أي يعتمـدون أسـلوب المعالجة النـازل من الأعلى إلى الأسـفل؛ ويصـدرون تاليًـا أحكامًا نمطية علـى الآخرين]. وهذا أسـلوب سـهل فـي التعامل مـع المعلومات لأنـه لا يتطلـب كثيرًا من الجهـد المعرفـي. أمـا عندمـا يعتمـدون أسـلوب المعالجـة الصاعـد من الأسـفل إلـى الأعلى فإنهـم يعالجـون المعلومـات بنـاء علـى دلائلهـا الخاصـة [المتعلقـة بالفـرد وسـلوكه] وليس بناء علـى أحكام مسـبقة[27].

ويعتمـد النـاس على الصـور النمطيـة العنصرية عندما يـرون أنها «مناسـبة» للموقف، وخصوصًـا عندمـا لا يكـون هنـاك معلومـات متعارضـة [أو ملتبسـة] يمكـن أن تـؤدي إلـى معالجـة الحالة بأسـلوب المعالجـة «الصاعد»، أو بناء على القيمة الخاصـة لتلك المعلومات. ويعبّـر هورويتـز وبيفلي عن ذلـك بقولهما:

> عندمـا تبـدو خصائص الفـرد الملاحَـظ متطابقة مع الصـورة العامة لصنف مـن الناس، تعمـل الصـور النمطيـة بوصفها موجِّهـات ذهنية قويـة، ومريحـة. أما فـي الحالة التي تتناقـض فيهـا المعلومـات المتعلقة بالفرد المعيـن مع الصور النمطيـة [المحمولة عن الجماعـة التـي ينتمـي إليهـا] (كما في الحالـة التي يوصـف فيها مجرم أسـود على أنه يبـذل جهـدًا جادًا لإصلاح نفسـه) فـإن الصـور النمطية للجماعـة تصبح أقـل أهمية[28] [حيـث يُنظـر إليه كفـرد، ويتبع الناس معه في هـذه الحالة أسـلوب المعالجة الصاعد لا علـى أنـه عضو في جماعة وحسـب].

فقـد وجـد هورويتـز وبيفلـي، علـى سـبيل المثـال، أنـه عندمـا يُطلـب إلـى أفـراد مـن البيـض تقديـر احتمـال أن يكـون رجـل أسـود قـد ارتكـب جريمـة، فإنهـم يميلـون

(27) انظر: Susan Fiske and Steven Neuberg, «A Continuum of Impression Formation, from Category-Based to Individuating Processes: Influences of Information and Motivation on Attention and Interpretation,» in: Mark Zanna, ed., *Advances in Experimental Social Psychology* (New York: Academic Press, 1990), vol. 23.

(28) Hurwitz and Peffley, Ibid., p. 381.

إلـى اعتبـاره «مذنبًـا» عندمـا لا يـزودون معلومـات إضافيـة عنـه [وبذلـك يقـوم معظـم النـاس معرفيًـا بالـزجّ بـه داخـل الصـور النمطيـة الأوسـع]، أكثـر ممـا لـو قيـل لهـم إن الرجـل الأسـود عضـو نموذجـي فـي المجتمـع؛ إذ إن النـاس فـي هـذه الحالـة يتعاملـون مـع المعلومـات المتعلقـة بـه كفـرد بـدلًا مـن التعامـل مـع الصـور النمطيـة). ويأتـي دعـم غيـر مباشـر لهـذه الحجـة، كمـا سـنرى فـي مـا بعـد، مـن بعـض البحـوث التـي تسـتخدم تكنيـكات الإف إم آر آي (fMRI) لقيـاس الاتجاهـات والاسـتجابات العنصريـة.

المقاربات العاطفية

قـد يبـدو تنـاول التعصـب فـي التـراث المعرفـي غريبًـا بعـض الشـيء - إذ ينظـر إليه كمظهـر «عـادي» مـن مظاهـر التفكيـر الإنسـاني - ولمّـا كانـت المقاربـة المعرفيـة تعتبـر النـاس «علمـاء بالفطـرة» فـإن فطـرة الأفـراد المتعصبيـن تبـدو سـاذجة جـدًا. والمشـكلة الهامـة التـي تواجـه المقاربـة المعرفيـة التقليديـة هـي أنهـا لا يعطـي تفسـيرًا وافيًـا لهـذه الظاهـرة. لأن العنصريـة تنطـوي علـى مـا هـو أكثـر مـن فكـرة التصنيـف «البـاردة» (وهذا نقـد شـائع للعديـد مـن المقاربـات المعرفيـة الأولـى التـي ناقشـناها فـي الفصـل التاسـع)؛ فالتعصـب العنصـري يتضمـن عمليـات انفعاليـة شـديدة، وواضحـة جـدًا، إضافة إلـى عملية التصنيـف[29].

ويشــهد علــم النفــس الاجتماعــي حديثًــا بحثًــا وافــرًا فــي الأســس الانفعاليــة للتنميـط (stereotyping) وفــي التفاعـل الممكـن بيــن العوامـل الانفعاليـة هــذه والأفـكار البـاردة[30]. وبالنظــر إلــى بحــوث عالمــة النفــس الاجتماعــي والسياســي ســوزان فســك، علــى ســبيل المثــال، نجــد أنهــا أخــذت فــي التركيــز حديثًــا علــى دراســة الجانــب «الســاخن» أو الانفعالــي مــن هــذا الموضــوع، علــى الرغــم مــن أن بحوثهــا الســابقة كانــت تنصــبّ علــى المظاهــر المعرفيــة البــاردة للســلوك الاجتماعــي. فقــد

---

(29) Molly Tapias [et al.], «Emotion and Prejudice: Specific Emotions Towards Outgroups,» *Group Processes and Intergroup Relations*, vol. 10, no. 1 (January 2007), pp. 27-39.

(30) انظر مثلًا: Diane Mackie and David Hamilton, eds., *Affect, Cognition and Stereotyping: Interactive Processes in Group Perception* (San Diego, CA: Academic Press, 1993), and D. M. Mackie and Eliot Smith, eds., *From Prejudice to Intergroup Emotions: Dierentiated Reactions To Social Groups* (Philadelphia, PA: Psychology Press, 2002).

وجدت فسك في تحليل ما ورائي (meta-analysis) لبحوث خمسين عامًا في التعصب العنصري والتحيز، بالتعاون مع زميلتيها كارا تالاسكا وشيلي شايكن (Cara Talaska and Shelly Chaiken)، وجدت فسك أن الانفعالات تتنبأ بالسلوك أفضل من الصور النمطية وغيرها من الاعتقادات؛ إذ إن التعصبات الانفعالية تتنبأ بالسلوك التمييزي بقدر أكبر من الدقة في الواقع من العوامل المعرفية [المتمثلة هنا بالصور النمطية والاعتقادات] حيث اكتشفت هي وزميلتاها أن[31]:

الدور المركزي الذي ظهر للانفعالات مقارنة بصغر دور الاعتقادات [في البحوث المراجَعة] يوحي بأن الناس يجنِّدون الاعتقادات كتبريرات لاحقة لسلوكهم المدفوع انفعاليًا [في حقيقة الأمر]. فالشخص الذي يحمل بغضًا لجماعة من عنصر ما، يتجنب الجلوس إلى جانب عضو من تلك الجماعة في مترو الأنفاق، وبعد أن يلحظ سلوكه هذا، يقوم بتبريره. وفي موقف أكثر أهمية [كموقف انتقاء موظف للعمل] ينتاب صاحب العمل شعور بالزهو عند مقابلته مرشحًا للعمل من جماعته، بينما تنتابه مشاعر متناقضة إزاء مرشح من جماعة خارجية (كالشفقة أو الامتعاض) أو حتى الازدراء، وتكون نتيجة الانتقاء للوظيفة واضحة تاليًا[32].

ومع أن فسك تعترف أنه من الصعب قياس الانفعالات قياسًا علميًا، إلا أننا نتوقع أن تجلب مناهج علم الأعصاب نفعًا خاصًا لدراسة العنصرية، كواحد من مجالات علم النفس السياسي، للأسباب التالية في أقل تقدير: (أ) تزايد النظر إلى العنصرية كاستجابة انفعالية في أساسها، (ب) ملاءمة تكنيكات الـ إف إم آر آي (fMRI) لقياس الانفعالات بوجه خاص، (ج) تأكيد بعض المقاربات - كمقاربة العنصرية الرمزية (symbolic racism) الذي سنتناوله لاحقًا في هذا الفصل - على أن العنصرية قد نزلت «تحت الأرض» منذ الستينيات. وإذا كنا لا نتوقع من الناس التصريح بأمانة عن أفكارهم حول القضايا العنصرية وجهًا

---

(31) Tara Talaska, Susan T. Fiske and Shelly Chaiken, «Legitimating Racial Discrimination: A Meta-Analysis of the Racial Attitude-Behavior Literature Shows that Emotions, Not Beliefs, Best Predict Discrimination,» *Social Justice Research: Social Power in Action,* vol. 21 (2008).

يتوجه المؤلف بالشكر لسوزان فسك على تزويده بنسخة من هذه المقالة.

(32) المصدر نفسه.

لوجـه مـن خـلال الاسـتبيانات، أو عبـر الهاتـف، فلعلنـا نسـتطيع اسـتخدام التصويـر العصبـي للكشـف عـن الانفعـالات الشـعورية واللاشـعورية إزاء هـذا الموضـوع. وهنـاك شـك فـي أن المقاربـات التقليديـة لدراسـة العنصريـة تتعامـل مـع دواخـل البشـر كـ «صنـدوق أسـود» [غيـر قابـل للدراسـة]، وتركـز علـى الاتجاهـات الظاهـرة كمـا تقـاس فـي الدراسـات المسـحية، عوضًـا مـن فحـص العمليـات العقليـة التـي يتـم مـن خلالهـا اتخـاذ القـرارات المتعلقـة بالعنصـر.

ولقـد أسـفر التصويـر العصبـي فـي الحقيقـة عن نتائـج أولية شـديدة الأهميـة في ما يتعلـق بالطريقـة التـي ننظـر بهـا إلـى الجماعـات الخارجيـة. حيـث رصـدت لازانـا هاريس وسـوزان فسـك اسـتجابات تنـم عـن التقـزّز لـدى الناس عنـد مشـاهدة صـور لجماعات من هـذا القبيـل، على سـبيل المثال، وتكتسـب هـذه الأعمال البحثيـة أهمية خاصـة لأنها تؤكد أن بوسـعنا «رؤيـة» عمليـات [نفسـية] كعمليـة انتقاص إنسـانية الآخـر وهي تأخـذ مجراها فـي الدمـاغ البشـري[33]. وقـد تـم فـي هـذه الدراسـة [التـي نشـير إليهـا هنـا] عـرض عـدد كبيـر مـن الصـور الفوتوغرافيـة لجماعـات مختلفـة (شـملت رياضييـن أولمبييـن، ومدمنـي مخـدرات) وصـور لأشـياء (شـملت مكـوك فضـاء، ومرحاضًـا فائضًـا)، إذ جـرى تصميـم هذه الصـور لاسـتثارة انفعـالات الزهـو/أو الفخـر، أو الحسـد، أو الشـفقة، أو التقزّز.

وقـد تـم اختبـار مسـبق لهـذه الصـور لتحديـد [أو تسـمية] الانفعـال الـذي «تسـتثيره» كل صـورة بنـاء علـى تقديـرات طلبـة جامعييـن عملـوا كمبحوثيـن فـي هـذه الدراسـة. ثـم قامـت الباحثتـان بمقارنـة تقديـرات المفحوصيـن للانفعـالات التـي اسـتثارتها هـذه الصـور بصـور دماغيـة تكشـف النشـاط الدماغـي لديهـم فـي منطقـة القشـرة الوسـطى مـا قبـل الجبهيـة (medial prefrontal cortex (mPFC)) للتحقـق مـن مـدى دقـة الطلبـة فـي تحديـد الانفعـال الـذي اسـتثارته كل صـورة لديهـم فعـلًا. وهـذه المنطقـة مـن الدمـاغ لا تنشـط إلا عندمـا نفكـر فـي النـاس أو فـي أنفسـنا [بهـدف

(33) Lasana Harris and Susan Fiske: «Dehumanizing the Lowest of the Low: Neuro Imaging Responses to Extreme Outgroups,» *Psychological Science*, vol. 17, no. 10 (October 2006), pp. 847-853, and Lasana Harris and Susan Fiske, «Social Groups that Elicit Disgust are Differentially Processed in MPFC,» *Social Cognitive and Affective Neuroscience*, vol. 2, no. 1 (March 2001), pp. 45-51.

المعرفـة - والمعرفـة الاجتماعيـة علـى وجـه التحديـد (social cognition)]. لكـن الصـور الدماغيـة لـم تُبيِّـن نشـاطًا ذا دلالـة فـي هـذه المنطقـة عنـد مشـاهدة الطلبـة صـورًا لجماعـات اجتماعيـة خارجـة عـن المألـوف، والتـي يفتـرض أن ترتبـط بمشـاعر التقـزّز - كصـور مدمنـي المخـدرات، أو المشـردين، فظهـر أن المنطقـة الوحيـدة التـي نشـطت فـي هـذه الحالـة كانـت منطقـة اللـوزة (amygdala) - وهـي واحـدة مـن أكثـر مناطـق الدمـاغ بدائيـة والتـي يرتبـط النشـاط فيهـا غالبًـا بالشـعور بالخـوف أو التقـزّز. وهـذا يوحـي أن الأفـراد قـد يميـزون علـى المسـتوى الشـعوري أنهـم ينظـرون إلـى صـور بشـر [مدمنـي المخـدرات، أو المشـردين]، غيـر أن أدمغتهـم، علـى المسـتوى اللاشـعوري، تعاملـت مـع صـور الجماعـات غيـر المقبولـة اجتماعيًـا هـذه كأنهـا تـرى صـور أشـياء منفـرة كمرحـاض فائـض. ودعـت هـذه النتائـج الباحثتيـن هاريـس وفسـك إلـى الاسـتنتاج أن غيـاب نشـاط المنطقـة الوسـطى مـا قبـل الجبهيـة مـن القشـرة الدماغيـة عنـد النظـر إلـى صـور جماعـات خارجيـة غيـر مقبولـة اجتماعيًـا، يوحـي «أن النـاس ينتقصـون إنسـانية هـذه الجماعـات، ولا يـرون أنهـم بشـر بالقـدر الـذي يـرون فيـه جماعاتهـم أو الجماعـات الخارجيـة المعتدلـة»[34].

وتتسـق نتائـج هـذا البحـث مـع نتائج بحـوث علميـة عصبيـة أُجريت حـول التعصب الانفعالـي والعنصريـة علـى وجـه التحديد، حيـث وصلت الدراسـة التي قام بهـا ألان هارت (Allen Hart) وزمـلاؤه فـي هـذا المجـال إلـى نتائـج «تتسـق مـع الفكـرة القائلـة إن اللـوزة قـد تكـون حساسـة للصـور النمطيـة المتعلّمـة أو إنهـا تسـاهم في تطور هـذه الصـور»[35]. ومـن الدراسـات الأخـرى فـي هـذا المجـال دراسـة مقارنـة، مثيـرة للاهتمـام بوجـه خـاص، أجرتهـا إليزابـث فيلبـس (Elizabeth Phelps) وزملاؤهـا. حيث عرض الباحثون علـى مبحوثين من الطلبـة البيـض صورَ وجوه لأشـخاص سـود مألوفين، ويحظون بالتقدير بشـكل عـام، كمارتن لوثـر كينـغ، ومحمـد علـي، ودينـزل واشـنطن. كمـا عرضـوا عليهم صورًا لأشـخاص سـود غير

(34) Harris and Fiske, «Dehumanizing the Lowest of the Low: Neuro Imaging Responses to Extreme Outgroups,» p. 849.

(35) Allen Hart [et al.], «Differential Response in the Human Amygdala to Racial Outgroup vs Ingroup Face Stimuli,» *Neuroreport*, vol. 11, no. 11 (August 2000), p. 2354.

معروفيـن. فظهـر نشـاط ملحوظ فـي منطقة اللـوزة لـدى المبحوثيـن عندما شـاهدوا صور السـود غيـر المعروفيـن مـا يوحـى بوجـود «اتجاه سـلبي لا شـعوري نحـو الوجوه السـوداء أو اتجـاه إيجابـي نحـو البيـض»[36]. أمـا عندمـا شـاهد المبحوثـون صـور الأشـخاص السـود المألوفيـن والذيـن يحظـون بالتقديـر لـم يظهـر لديهـم نشـاط ملحوظ فـي منطقـة اللوزة. وتعطـي هـذه النتائـج دعمًـا لاسـتنتاج هورويتـز وبيفلـي القائـل إن النـاس يسـتخدمون المعلومـات الخاصـة بالفـرد (individuated information) عندمـا يتعاملـون مـع أشـخاص يناقضون الصـورة الاجتماعيـة الشـائعة عـن الجماعـة التـي ينتمـون إليهـا [كالسـود الذيـن يحظـون بالتقديـر]، ولكنهـم يلجـأون إلـى الصـورة النمطيـة عندمـا لا يتوافـر لهـم معلومـات خاصـة بالفـرد المعيـن مـن تلـك الجماعـة [كالأشـخاص السـود غيـر المعروفين].

وعـلاوة علـى ذلـك، وجـد ماثيـو ليبرمـان (Matthew Lieberman) وزمـلاؤه أن الأميركييـن الأفارقة أنفسـهم يحملـون الصور النمطية السـلبية ذاتها التي يحملهـا الأميركيون البيـض إزاءهـم. إذ لاحـظ ليبرمان وزمـلاؤه نشـاطًا عصبيًا في منطقـة اللوزة لـدى مبحوثين مـن البيـض والسـود، عند مشـاهدتهم صور أشـخاص سـود (غيـر معروفيـن)[37]. ولأن اللوزة تنشـط لـدى رؤيتنا وجوهًـا جديـدة، فهنـاك احتمـال أن تعـود النتائـج الملاحظـة في هذه الدراسـة إلـى جدة الوجوه لا إلـى العنصر الذي تنتمي إليـه، إلا أن ليبرمان وزملاءه يؤكدون أن النشـاط الملاحـظ في اللـوزة ناتج، على الأرجح، مـن الصور النمطيـة المتعلمة. ويقولون إنـه «علـى الرغم من أن دراسـة واحدة لا تسـتطيع بت هـذه القضية بشـكل قطعي، إلا أن الدراسـة الحاليـة توحـي أن نشـاط اللوزة الـذي يرتبط عـادة بمعالجة المعلومـات المتعلقة بالعنصـر قـد يكـون انعكاسًـا للارتباطـات الثقافية السـلبية المتعلمـة والمتعلقـة بالأميركيين الأفارقـة»[38]. ويلقـى هـذا الاسـتنتاج دعمًـا مسـتقلًا مـن دراسـة مسـحية لسـنيدرمان

---

(36) Elizabeth Phelps [et al.], «Performance on Indirect Measures of Race Evaluation Predicts Amygdala Activation,» *Journal of Cognitive Neuroscience*, vol. 12, no. 5 (September 2000), p. 731.

(37) Matthew Lieberman [et al.], «An FMRI Investigation of Race-Related Amygdala Activity in African-American and Caucasian American Individuals,» *Nature: Neuroscience*, vol. 8, no. 6 (June 2005), pp. 720-722.

(38) المصدر نفسه، ص 722.

وبيـازّا (Sniderman and Piazza) وجـدت أن الكثيـر مـن السـود يشـاركون البيـض فـي النظـرة السـلبية إلـى السـود ذاتهـا[39].

غيـر أن رالـف أدولفـز (Ralph Adolphs) يُفيـد أن، «دور اللـوزة فـي معالجـة المعلومات المتعلقـة بالعنصـر مـازال غيـر واضـح» ومـا زال المجـال بحاجـة إلـى كثيـر من البحـث[40]. فإلـى جانـب اللـوزة، تنشـط مناطـق أخـرى فـي الدمـاغ عندمـا نصـدر أحكامًـا تتعلـق بالعنصـر، كمـا تشـير البحوث التـي أجريت في هـذا المجال حتـى الآن، وإضافـة إلى ذلك، علينـا أن نتذكـر هنـا كل المحاذيـر المتعلقـة باسـتخدام تكنيـكات الــ إف إم آر آي (fMRI) كمقيـاس لظواهـر سياسـية، ممـا جئنـا علـى مناقشـته فـي مـا سـبق. كذلـك، فـإن البحـوث الجاريـة التـي يقوم بها عالم النفس السياسـي دارين شـرايبر (Darren Schreiber)، تكشـف مدى التعقيـد الـذي ينطـوي عليـه هـذا المجـال من مجـالات البحـث[41]. وعلـى الرغم مـن ذلك، فـإن البحـث في هـذا المجـال لا زال يفتـح طرقًا جديـدة واعدة [الدراسـة المظهـر العصبي للعنصريـة] فـي الوقـت الـذي ندفـع فيه هـذا الكتـاب إلى النشـر.

النظريات الموقفية

لا تُبلـي النظريـات النزوعيـة - ونظريـات الشـخصية منهـا بوجـه خـاص - بـلاء حسـنًا فـي توضيـح الأسـباب التـي تدفـع جماعـات كاملـة، أو مناطـق برمتهـا، إلى إظهـار عواطف عنصريـة أو قيـام هـذه الجماعـات بممارسـات تمييزيـة أو كليهمـا. لـذا، فـإن النظريـات الموقفيـة تلقـى قبـولًا مناظـرًا، إن لـم يـزد، كأطـر مفسِّـرة للتعصبـات العنصريـة. وتأخـذ نظريتـان مـن النظريـات التي نوقشـت فـي ما تقـدم، أهمية خاصة فـي هذا السـياق، علمًا بـأن أدب الموضـوع يسـلط الضـوء علـى مشـكلات بـارزة تعتـرض سـبيل كل منهمـا.

---

(39) Paul M. Sniderman and Thomas Piazza, *The Scar of Race* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993).

(40) Ralph Adolphs, «Cognitive Neuroscience of Human Social Behavior,» *Nature Reviews: Neuroscience*, vol. 4, no. 3 (March 2003), pp. 169.

(41) Darren Schreiber, «Race and Social Norms: An FMRI Study,» paper presented at: The International Society of Political Psychology Conference, Portland, OR, 2007.

أولـى هاتيـن النظريتين هـي نظرية الصـراع الواقعـي (realistic conflict theory)، التي جرى توظيفهـا، كمـا رأينـا في الفصل السـابق، لتفسـير الصـراع الإثنـي، ولتفسـير العنصرية داخل المجتمـع الواحـد. وكمـا رأينـا فـي الفصـل السـابق فـي مناقشـتنا لتجربـة «روبـرز كيـف»، تنظـر هـذه المقاربـة إلـى الصـراع بيـن الجماعـات (سـواء كان عنصريًـا أم غيـره) علـى أنه يتمحـور حـول التنافـس على مـوارد محـدودة. وتتعامل هـذه المقاربـة مع السياسـة كلعبة حاصلهـا «إمـا الربـح كلـه وإمـا عدمـه» (zero-sum game): أي إنها تمثـل موقفًا مـا يتحقق فيه لأحـد الطرفيـن مـن ربـح يُحـدث خسـارة للطرف الآخـر بالضـرورة. فكمـا هو حـال الأطفال وهـم يتأرجحـون علـى لـوح «السـي سـو» لا بد أن يـؤدي ارتفـاع الواحـد منهم إلـى الأعلى إلـى نـزول الآخـر فـي الاتجـاه المعاكـس. وهـذه نظريـة موقفيـة مـن حيـث إنهـا تفتـرض أن موقـع الفـرد فـي البنيـة المجتمعيـة يحـدد تطلعاتـه. وبنـاء علـى بحـوث هربـرت بلامر (Herbert Blumer) المبكـرة حـول أهميـة موقـع الجماعـة فـي المجتمـع، عمـل لورنـس بوبـو (Lawrence Bobo) علـى تطبيـق هـذا التحليـل علـى العنصريـة. ويركـز بوبـو فـي أكثـر مقالاتـه شـهرة ضمـن هـذا المنظـور علـى موقـف [الأميركييـن] البيـض مـن «النقـل بالباصـات» (busing) الـذي طُبـق فـي الولايـات المتحـدة [فـي السـتينيات بهـدف الدمـج العنصـري فـي المـدارس][42]. حيـث يؤكـد بوبـو أن نجـاح نظريـة الصـراع الواقعـي كإطـار مفسّـر للصـراع العنصـري لا يعتمـد علـى رؤيـة البيـض للنقـل بالباصـات، وغيـره مـن الإجـراءات الداعمـة للدمـج العنصـري، على أنهـا تمثّل تهديـدًا مباشـرًا «أو موضوعيًـا» لمصالحهـم؛ وإنما يعتمد علـى مـدى إدراك البيـض والسـود كليهمـا أن مصالـح الطـرف الواحـد منهـم تتعـارض مـع مصالـح الطـرف الآخر. ويؤكـد بوبـو أن «الاتجاهات العنصريـة تعكس العلاقـات الاقتصادية، والاجتماعيـة، والسياسـية القائمـة بيـن السـود والبيـض الأميركييـن، أو بعبارة أخـرى، تعكس الملامـح «الواقعيـة» للعلاقـات الجماعيـة والصـراع في داخلهـا»[43].

(42) Lawrence D. Bobo, «Whites' Opposition to Busing: Symbolic Racism or Realistic Group Conflict?,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 45, no. 6 (December 1983), pp. 1196-1210, and Lawrence D. Bobo and Mia Tuan, *Prejudice in Politics: Group Position, Public Opinion, and the Wisconsin Treaty Rights Dispute* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006).

(43) Bobo, Ibid., p. 1198.

غيـر أن تطبيـق هـذه المقاربـة علـى العنصرية يُواجـه عددًا مـن المشـكلات؛ أولها أن العلاقـات العنصريـة فـي العديـد مـن الـدول لا تمثـل لعبـة «الربـح كلـه أو عدمـه» بشـكل واضـح - بمعنـى أن تكـون ناشـئة مـن تنافـس حقيقـي علـى مـوارد محـدودة. ففـي دولـة طافحـة بالمـوارد الاقتصاديـة كالولايـات المتحـدة، مثـلًا، يبـدو الصـراع رمزيًـا أكثـر ممـا هـو واقعـي، وهـو أحـد الانتقـادات التـي قـادت إلـى إقامـة مدرسـة العنصريـة الرمزيـة (symbolic racism) فـي الولايـات المتحدة (والتي سنناقشـها لاحقًـا). إضافة إلى ذلك، فـإن إعادة الصياغة المفهوميـة لمصطلـح «المصالـح» والنظـر إليـه كشـيء ذاتـي - كمـا فعـل بوبـو - قـد يمزق قلـب نظريـة الصراع الواقعـي، من حيـث إن الصراعات العنصريـة ربما تكون «غيـر واقعية» علـى الإطـلاق [لأن الموارد فـي هذه الحالة وافرة وليسـت نـادرة]. أما المشـكلة الثانية التي تواجهها هـذه النظريـة فتكمـن فـي مـا بيّنه هنـري تاجفـل وزمـلاؤه مـن أن التنافـس على المـوارد لا يمثّـل شـرطًا ضروريًـا لظهور التحيـز أو المحابـاة للجماعـة الداخلية.

أمـا النظريـة الثانيـة التـي يمكـن تطبيقهـا علـى دراسـة العنصريـة، فهـي نظريـة الهويـة الاجتماعيـة (social identity theory) علمًـا بـأن هنـاك مناحـي مختلفـة ضمـن هـذه النظريـة. ويذكـر القـارىء أن هنـري تاجفـل [أحـد المنظريـن الرئيسـيين لهـذا الاتجـاه] يـرى أن الأفـراد يملكـون دافعًـا قويًـا للتماهـي مـع الجماعـة الداخليـة لأن ذلـك يقـوي مـن تقديرهـم لذواتهـم. ولهـذا السـبب، نسـعى إلـى التماهـي مـع جماعـات ذات مكانـة عاليـة، كمـا يـرى تاجفـل أن هـذه الحاجـة الدافعـة هـي التـي تقودنـا إلـى محابـاة أعضـاء جماعتنـا الداخليـة والتحيـز ضـد أعضـاء الجماعـة الخارجيـة. وتتـم ممارسـة هـذه المحابـاة فـي ظـل غيـاب كامـل لأي مبـرر «عقلانـي» يجعلهـا مفهومـة للآخريـن، لأن مجـرد التصنيـف بحـد ذاتـه، حتـى مـا يُبنـى منـه بنـاء علـى أسـس مصنوعـة أو عديمـة المعنـى، يمكـن أن يـؤدي إلـى محابـاة الجماعـة الداخليـة والتحيـز ضـد الجماعـات الخارجيـة. وقـد تبـدو هـذه النظريـة صالحـة ظاهريًـا لتفسـير العـداء العنصـري بقـدر معقـول، مـن حيـث إن الفـروق العنصريـة - علـى الرغـم مـن سـطحيتها - تبـدو مفهومـة لأعضـاء المجتمـع الـذي توجـد فيـه ويمكـن تمييزهـا علـى الفـور. وعـلاوة علـى ذلـك، ومـن حيـث إن الأفـراد حتـى فـي الدولـة المتعـددة عنصريًـا ربمـا لا يتواصلـون مـع الجماعـات الخارجيـة إلا فـي

الحدود الدنيا، فإن هذا الوضع يحقق شروط «نموذج الحد الأدنى من الاتصال بين الجماعات» [الذي تعتمده نظرية الهوية الاجتماعية لإثبات فرضياتها][44].

إلا أن جيمس غيبسون (James Gibson) يثير تساؤلات حادة عن إمكان تطبيق هذه النظرية لتفسير الصراع العنصري وعدم التسامح[45]. ويختار جنوب أفريقيا في عهد التفرقة العنصرية «كأبسط حالة لمواجهة إدعاءات تاجفل وتيرنر (Tajfel and Turner) النظرية. ويفيد غيبسون، بقدر من المنطقية، أنه لكي يكون لنظرية الهوية الاجتماعية أية فائدة لفهم العلاقات بين الجماعات، عليها أن تفسر الوضع القائم في جنوب أفريقيا، حيث تظهر الهويات والفروق الاجتماعية واضحة للعيان. وهذه الهويات والفروق لم تنشأ اجتماعيًا وجرى استغلالها عبر فترة طويلة من الزمن فحسب، ولكنها دخلت ضمن القوانين المتشددة لدولة التمييز العنصري[46].

لكن ما وجده غيبسون في دراسته كان مثيرًا للدهشة، حيث بيّنت نتائج تلك الدراسة، أن معظم مظاهر الارتباط بالهوية [من المظاهر التي تم قياسها] لا ترتبط بالتسامح العنصري. مثال ذلك، أن السود والبيض المرتبطين بجماعاتهم ارتباطًا شديدًا ليسوا أقل تسامحًا مع الآخرين من العنصر المقابل. فمعرفة الجماعة التي ينتمي إليها الفرد لا تتنبأ بمدى التسامح العنصري لديه [أو بمدى عدم التسامح].

وبتعبير أكثر بساطة، فإن تفضيل الفرد لجماعته العنصرية - السود أو البيض في هذه الحالة - لا يعني أنه يتحيز ضد الجماعة الأخرى بالضرورة [خلافًا لما تتنبأ به نظرية الهوية الاجتماعية]. ويؤكد غيبسون أنه يصعب بناء على ما وصل إليه من بيانات استنتاج أن نظرية الهوية الاجتماعية تفسر المستويات المختلفة

(44) Henri Y. Tajfel: *Human Groups and Social Categories* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981), and *Social Identity and Intergroup Relations* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982).

(45) James Gibson, «Do Strong Group Identities Fuel Intolerance?: Evidence from the South African Case,» *Political Psychology*, vol. 27, no. 5 (October 2006), pp. 665-705.

(46) المصدر نفسه، ص 667.

مـن التسـامح بيـن السـود والبيـض[47]. وفـي حيـن أن غيبسـون يعتـرف أن نتائجـه قـد تكـون متأثـرة بالفتـرة الزمنيـة التـي أُجريـت فيهـا الدراسـة [وهـي الفتـرة التـي أعقبـت سـقوط نظـام الفصـل العنصـري]، فجنـوب أفريقيـا تعيـش حالـة مـن السـيولة فـي الوقـت الراهـن - ويحتمـل أن يكـون الاختـراق الطبقـي المتـاح (كصعـود السـود إلـى الطبقـة الوسـطى، علـى سـبيل المثـال) قـد عمـل علـى إضعـاف تأثيـر الهويـات العنصريـة. وبتعبيـر مختلـف، ليـس قـرب النـاس مـن جماعتهـم الداخليـة هـو الـذي يحـدد مسـتوى التسـامح لديهـم مـع العناصـر الأخـرى، ولكـن ازديـاد التنـوع داخـل المجتمـع هـو الـذي يعمـل علـى تشـجيع التسـامح.

أما زال الأميركيون عنصريين؟

تنطـوي النظريـات التـي تناولناهـا حتـى الآن علـى إمكانـات تطبيقيـة واسـعة، مـن حيـث إن معظمهـا نظريـات فـي الصـراع بيـن الجماعـات (وليسـت نظريـات فـي أسـباب نشـوء العنصريـة بحـد ذاتهـا) ومـن الناحيـة الجغرافيـة تصلـح هـذه النظريـات للتطبيـق فـي بلـدان غيـر الولايـات المتحـدة. غيـر أن هنـاك نظريـات «أميركيـة» بوجـه خـاص، مـن حيـث إنهـا تركـز علـى تفسـير العنصريـة ضمـن السـياق الأميركي ولا تحـاول تفسـير وجود العنصريـة مـن حيـث الأسـاس. وهنـاك نظريتـان مـن هـذا القبيـل همـا نظريـة العنصرية الرمزيـة (symbolic racism)، ونظريـة المحافظـة الملتزمـة (principled conservatism).

العنصرية الرمزية أو العنصرية الجديدة

ترتبـط هـذه المقاربـة بدايفـد سـيرز (David Sears) وزملائـه، وتركـز بوجـه خـاص علـى العاطفـة السـلبية التـي يحملهـا البيـض نحـو السـود. ويؤكـد سـيرز، وغيـره مـن الباحثيـن، أن العنصريـة كمنظومـة مـن الاعتقـادات مـا عـادت تظهـر علـى السـطح وإنمـا نزلـت «تحـت الأرض»، علـى نحـو مـا، فـي الولايـات المتحـدة. ولأن التعبيـر عـن وجهـات نظـر عنصريـة علانيـة مـا عـاد مقبـولًا اجتماعيًـا، أخـذت العنصريـة تعبّـر

(47) «Do Strong Group Identities Fuel Intolerance?: Evidence from the South African Case,» p. 684.

عـن نفسـها بطرائـق خفيـة تصعـب ملاحظتهـا. ويلخـص سـنيدرمان (Sniderman) وزمـلاؤه وجهـة النظـر هـذه بالقـول:

> يعتبـر التعصـب العنصري الآن أمـرًا غير مرغوب فيه، لـذا فإن الناس يفضلـون التعبير عنـه بطرائـق خفيـة، غير مباشـرة. فهم لـن يقولوا إنهـم يعارضون حصول السـود على مسـاعدة الحكومـة لمجـرد أنهم سـود، وإنما سـيقولون إنهم يعارضون تلك المسـاعدة لأن السـود لا يبذلـون جهـدًا كافيًـا لحـل مشـاكلهم بأنفسـهم، وهو ما يجـب على كل فـرد أن يفعله[48].

العنصريـة الباقيـة ليسـت عنصريـة الجنـوب الأميركـي القديـم، والفصـل العنصـري، وجيـم كـرو، ومحافـظ ألاباما السـابق جـورج والاس (George Wallace)، وإنما هـي عنصرية من النـوع المضمـر بشـكل مـا. وتدمـج العنصريـة الرمزيـة الجديـدة العاطفـة المناوئة للسـود مـع القيـم الأميركيـة التقليديـة، والقيـم الفرديـة منهـا بوجـه خـاص[49] التي تطالب السـود مثـلًا بالاعتمـاد علـى أنفسـهم وليس الاتـكال علـى الدولة.

المحافظة الملتزمة

إذا كان سـيرز (Sears) هـو حامـل لـواء مقاربـة العنصريـة الرمزية، فإن بول سـنيدرمان وزميله دونالد كندر هما المناصران الرائدان للمقاربة المنافسـة التي يصطلح على تسـميتها أحيانًـا المعارضـة المبدئيـة (principled objection) أو نموذج السياسـة المعتـادة (politics-as-usual). ويؤكد سـنيدرمان وزملاؤه أن معارضة سياسـات تحقيق المسـاواة، كالنقل بالباصات، لا تدل بحد ذاتها على «العنصرية»[50]. وفي حين أنهم لا يخالفون فكرة أن العنصرية لا تزال سائدة،

---

(48) Paul Sniderman [et al.], «The New Racism,» *American Journal of Political Science*, vol. 35, no. 2 (May 1991), p. 424.

(49) Donald Kinder and David Sears, «Prejudice and Politics: Symbolic Racism Versus Racial Threats to the Good Life,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 40, no. 3 (March 1981), pp. 414-431; David Sears and P. J. Henry, «Over Thirty Years Later: A Contemporary Look at Symbolic Racism and its Critics,» *Advances in Experimental Social Psychology*, vol. 37 (2005), pp. 95-150, and David Sears [et al.], «Is it Really Racism?: The Origins of White Americans' Opposition to Race Targeted Policies,» *Public Opinion Quarterly*, vol. 61, no. 1 (Spring 1997), pp. 16-53.

(50) Sniderman [et al.], «The New Racism».

فإن معارضة تحقيق المساواة من خلال التمييز الإيجابي (affirmative action) تمثل على الأرجح معارضة للسياسات الليبرالية التي تم اتباعها منذ أيام ليندون جونسون. ويُفيد جيرمي وود أن إثبات المقولة الأساسية في مقاربة العنصرية الرمزية يتطلب من كندر وسيرز تقديم الدليل على أن «العاطفة السلبية إزاء السود هي التي تقف وراء معارضة كثير من البيض للسياسات العنصرية الليبرالية. ويعتقد مناصرو العنصرية الرمزية أن هذا هو واقع الحال؛ أما معارضوها فيرون أن هذا ليس صحيحًا؛ ومن هنا فإن الجدل برمته إنما يدور حول مسألة الدافعية [وفي ما إذا كان الموقف انفعاليًا في الأساس أم لا][51] وما يُزعج مناصري هذه المقاربة هو أن مقاربة العنصرية الرمزية في طبيعتها غير قابلة للدحض - ظاهريًا. فإذا كان الناس يُحجمون عن التعبير عن وجهات نظرهم العنصرية علانية، فكيف لنا أن نعرف أنهم في أعماقهم عنصريون أم لا؟

التسامح وعدم التسامح

لا شك في أن النظر في مستويات التسامح السياسي العام الغالبة في المجتمع يُمثل إشارة مهمة إلى كيفية تعامل الناس مع الجماعات الخارجية في ذلك المجتمع. وقد تطورت دراسة هذا المجال من العلوم السياسية تطورًا واضحًا في الولايات المتحدة - على الرغم من ازدياد الدراسات عبر الثقافية (cross-cultural studies) فيه كذلك. أما النمط الأساس الذي اكتشفه الباحثون مرارًا لدى الأميركيين، وعبر الزمن، فهو أنهم يعبرون عن دعمهم للتسامح السياسي، نظريًا، إلا أنهم عندما يُواجهون حالات فردية يُعتقد أنها مخالفة للمعايير التقليدية، نجد كثيرًا من الأميركيين أقل تسامحًا[52]. ولكي نقيس التسامح، يبدو واضحًا أننا لا نكون بحاجة إلى قياس اتجاهاتنا نحو جماعات نحبها؛ لأن جوهر التسامح يكمن في الاستعداد للعيش جنبًا إلى جنب مع أفراد

---

(51) Jeremy Wood, «Is 'Symbolic Racism' Racism?: A Review Informed by Intergroup Behavior,» *Political Psychology*, vol. 15, no. 4 (1994), p. 677.

(52) George Marcus [et al.], *With Malice Toward Some: How People Make Civil Liberties Judgments,* Cambridge Studies in Political Psychology and Public Opinion (New York: Cambridge University Press, 1995), p. 8.

نعارضهـم، وأفـكار لا نتفـق معهـا. ويقـوم هـذا التعريف علـى مقولة فولتيـر الشـهيرة، «أنا أمقـت وجهـات نظرك، ولكننـي علـى اسـتعداد لأن أمـوت دفاعًـا عـن حقـك فـي التعبيـر عنهـا». والواقـع أن الفـرد المتسـامح ليس مضطـرًا إلى الذهاب بعيـدًا إلى هـذا الحد - لأن ذلـك قـد يمثـل شـكلًا متطرفًـا مـن التسـامح - إلا أنـه يجـب أن يكـون قـادرًا علـى تحمّـل الأفـكار والممارسـات السياسـية التـي تختلـف اختلافًـا حـادًا عن أفـكاره وممارسـاته.

وقـد أجـرى عالـم الاجتمـاع صموئيـل سـتوفر (Samuel Stouffer) دراسـة كلاسـيكية فـي هـذا الموضـوع عـام 1954، ضمّـن نتائجهـا فـي كتابـه **الترابـط المجتمعـي، والامتثـال، والحريـات المدنيـة**[53] (*Communism, Conformity and Civil Libirties*). ففـي صيف 1954 قام سـتوفر ومسـاعدوه بانتقـاء عينـه ممثلة مـن المجتمع الأميركـي ليتحقق من مدى تسـامح المواطن الأميركـي العـادي، وليتحقـق بوجـه خـاص مـن رأي المواطـن الأميركـي العادي في السـلوك غيـر الممتثـل للمعاييـر (واتجاهـه نحـو الشـيوعية). وقـد جلبـت النتائـج التي توصـل إليها سـتوفر لـه الشـهرة، لأن تلك النتائج كانـت «مقلقة» لكثيريـن، وفق ما يرى جون سـوليفان، وجيمس بيرسـون وجورج ماركوس (John Sullivan, James Piereson and George Marcus) حيث أشـارت تلـك النتائـج إلى أن:

> أغلبيـة كبيـرة [مـن الأميركييـن] قالـت إن مـن يعلـن انتمـاءه إلـى الشـيوعية يجـب ألا يسـمح لـه بمخاطبـة جمهـور، أو يسـمح لـه أن يـدرس فـي المـدارس الثانويـة أو الجامعـات، أو حتـى العمـل ككاتـب فـي متجـر. ووافقـت الأغلبية كذلك على سـحب الجنسـية من الشـيوعيين، وسـحب الكتب التي ألفها شـيوعيون من المَكتبـات العامة، ووافقـت الأغلبيـة علـى أن يُسـمح للسـلطات بالتنصـت علـى المكالمـات الهاتفيـة الشـخصية للحصـول علـى أدلـة ضـد الشـيوعيين، وعلـى أن يُلقـى بمـن يعتـرف أنـه شـيوعي فـي السـجن[54].

---

(53) Samuel Stouffer, *Communism, Conformity and Civil Liberties: A Cross Section of the Nation Speaks its Mind* (New York: Doubleday, 1955).

(54) John Sullivan, James Piereson and George Marcus, *Political Tolerance and American Democracy* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1982), p. 28.

وأشارت نتائج دراسة ستوفر إلى أن معظم المستجيبين كانوا غير متسامحين إزاء الاشتراكيين والملحدين كذلك، وإن كان عدم تسامحهم مع هؤلاء ليس بدرجة عدم تسامحهم مع الشيوعيين. وقد تم إجراء دراسة ستوفر هذه في الفترة المكارثية، والتي يُفترض أن المواطن الأميركي العادي كان أقل تسامحًا فيها مما هو عليه قبلها أو بعدها. وقد يقودنا هذا إلى التصور أن الناس في الولايات المتحدة هم أكثر تسامحًا الآن. ولكن، ما مدى صحة هذا تصور في حقيقة الأمر؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ليست قاطعة بالقدر المتوقع، من حيث إنها تعتمد إلى حد كبير، على كيفية قياس التسامح. ففي دراسة لسوليفان، وبيرسون، وماركوس (Sullivan, Piereson, and Marcus) أُجريت في بداية الثمانينات واكتسبت شهرة بقدر ما اكتسبته دراسة ستوفر الأصلية تقريبًا - رغب الباحثون في التحقق مما إذا كان قد حصل شيء من التغيير لدى الأميركيين خلال تلك الفترة [أي منذ الخمسينيات حين أجرى ستوفر دراسته]، وانتهوا إلى استنتاج أن التغيير «لم يكن كبيرًا»[55]. إذ يؤكد هؤلاء الباحثون أنه على الرغم من أن الناس في الثمانينيات لا يشعرون بالتهديد الشيوعي بالقدر الذي كانوا عليه في الخمسينيات - إذ أصبحوا أكثر استعدادًا لمنح الشيوعيين حرياتهم المدنية الأساس - فإن معظم الأميركيين ليسوا أكثر تسامحًا، بوجه عام، لأن عدم التسامح اتجه نحو جماعات أخرى. وبعبارة أخرى، ما تغير هو السياق والأهداف الرئيسة لعدم التسامح، ولكن ليس مقدار عدم التسامح بحد ذاته. ويؤكد سوليفان وزملاؤه أننا لكي نقيس عدم التسامح علينا أن نركز منطقيًا على دراسة أولئك الذين يقولون إنهم لا يحبون جماعة معينة، ولكي لا نوجّه أحكام الأفراد نحو جماعة معينة، علينا أن نتيح لهم انتقاء الجماعة التي «لا يفضلونها»، وقياس اتجاهاتهم نحوها، وليس التركيز على الشيوعية، مثلًا. وعندما اتبع سوليفان وزملاءه هذا الإجراء في دراستهم وجدوا أن مستوى عدم التسامح [نحو الجماعات غير المفضلة] لم يتعدّل كثيرًا منذ دراسة ستوفر.

ولكن بول سنيدرمان (Paul Sniderman) وزملاءه وصلوا إلى نتائج

---

(55) *Political Tolerance and American Democracy.*

مغايـرة[56]. فهـم يعتبـرون دراسـة سـوليفان وزملائـه «مبتكـرة، ولكنهـا قـد تكـون مضلّلـة»[57]. والسـبب الرئيـس الـذي جعلهـم يـرون ذلـك هـو أن دراسـة تسـامح الأفـراد [كمـا فعـل سـوليفان وزمـلاؤه] إزاء الجماعـات غيـر المفضلـة [مفهـوم] وسـببه واضـح؛ فمـن السـهل «التسـامح» مـع الجماعـات التـي نحبهـا ونتماهـى معهـا؛ ولكـن قيـاس التسـامح واللاتسـامح بهـذه الطريقـة [مقتصريـن علـى الجماعـات غيـر المفضلـة] سـيقلل مـن تقديرنـا لمـدى التسـامح الـذي أصبـح عليـه غالبيـة الأميركييـن. فعلـى سـبيل المثـال، لا يجـوز اعتبـار «تسـامح» مـن يقولـون إنهـم لا يحبـون الأميركييـن الأفارقـة كافيًـا [كإشـارة إلـى مـدى تسـامح الأميركييـن مـع السـود فـي الوقـت الحاضـر]. فـلا بـد أن نقيـس، إضافـة إلـى ذلـك، تسـامح مـن يقولـون إنهـم غيـر مباليـن بشـأن السـود، وحتـى مـن يقولـون إنهـم يحبـون السـود[58]. مـرة أخـرى، لا بـد مـن التأكيـد أن تحديـد درجـة التسـامح الموجـود فـي مجتمـع مـا يعتمـد علـى الطريقـة التـي نقيـس بهـا التسـامح، رغـم أن النمـوذج الـذي اقترحـه سـوليفان وزمـلاؤه يبقـى المرجـع التقليـدي فـي دراسـة هـذا الموضـوع.

هـل نملـك الدليـل علـى أن المسـلمين أصبحـوا «الشـيوعيين الجدد» عقـب هجمات 9/11؟ فمـع أننـا قـد نجـد دليـلًا علـى وجود قـدر من عدم التسـامح تجاه المسـلمين منذ 9/11 (وقبـل ذلـك، فـي الحقيقـة)، إلا أنه لا يقـارن بمقـدار العدائية تجاه الشـيوعيين التي وجدهـا سـتوفر فـي الخمسـينيات. وبينمـا لا نسـتطيع مقارنـة البيانـات التـي جُمعـت فـي الفترتيـن [الخمسـينيات والحاضـر] مـن حيـث إن صياغة الأسـئلة يختلـف اختلافًا كبيـرًا، إلا أننا لا نرى عدائية كاسـحة تجاه المسـلمين بالمستوى الذي رصده سـتوفر تجاه الشيوعيين. فالبيانات العلمية تشـير إلى أن النظرة السـلبية إلى المسلمين تباينت كثيرًا عبر استطلاعات الـرأي المختلفـة منـذ 9/11، الأمـر الـذي يشـير إلـى عـدم ثبـات الآراء فـي هـذا الموضوع، علـى مـا يبدو. فضلًا عن ذلك، أشـار اسـتطلاع للرأي أجـراه مركز بيـو للبحـوث (Pew Research

---

(56) Paul Sniderman, Richard Brody and Philip Tetlock, *Reasoning and Choice: Explorations in Political Psychology* (New York: Cambridge University Press, 1991).

(57) المصدر نفسه، ص 220.

(58) المصدر نفسه، ص 134-136.

(Center، إلـى أن العديـد مـن المسـلمين الأميركييـن صرحـوا بأنهـم يلقـون دعمًـا إيجابيًا من غيـر المسـلمين، مـن حيث إن غير المسـلمين يـرون أن المسـلمين غدوا «ضحايـا» للتمييز أو عـدم التسـامح بسـبب معتقدهـم: إذ صـرح 33 فـي المئـة بأنهـم يعاملـون بريبـة، أو يقذفـون بنعـوت مهينة، أو يُسـتقصدون من الشـرطة أو يعتدى عليهم جسـديًا أو يتعرضون للتهديـد. ولكـن 32 فـي المئـة منهم صرحـوا بأنهم تلقـوا دعمًا مـن أحد من النـاس. وفوق ذلـك، أشـارت الدراسـة ذاتها إلى أن نسـبة الأميركييـن الأفارقـة الذين صرحوا بأنهـم تعرضوا لواحـد مـن أشـكال المعاملـة غير المتسـامحة تلـك كانت أعلـى من النسـبة المناظـرة لدى المسـلمين (حيث أشـار 46 فـي المئة مـن الأميركيين الأفارقـة إلى أنهم تعرضـوا لواحد من أشـكال المعاملـة غير المتسـامحة في الأقـل)[59].

ويمكـن رد هـذا الفـرق فـي مسـتوى التسـامح لـدى الأميركييـن، جزئيًـا فـي الأقـل، إلـى الفـرق فـي سـلوك النخبـة بيـن الخمسـينيات وبدايـة الألفيـة الثالثـة. ويعتقـد جيمـس غيبسـون أن معظـم اللاتسـامح الـذي ظهـر فـي الفتـرة المكارثيـة كان نابعًـا مـن النخـب لا مـن الأميركييـن العاديين[60]. حيث كانـت نخبة السياسـة الخارجية الأميركية في الخمسـينيات تُمعن في تصوير الشـيوعية كشـر مسـتطير - وكان «الشـيوعي شيوعيًا وحسـب» - لكن إدارة بـوش عمـدت منـذ الحادي عشـر مـن أيلول/سـبتمبر إلى التمييـز بيـن المسـلمين المعتدلين والمسـلمين المتطرفيـن، أو أولئـك الذين يوسـمون علـى نحو مضلل بــ «الأصولييـن»[61]. وإذا كانـت مقولـة «فـي أو كاي (V. O. Key)» إن عامـة الشـعب مـا هـم إلا «صدى للحاكـم» مقولة صحيحـة، فـإن شـدة اللاتسـامح الـذي شـهدته الولايـات المتحـدة فـي الخمسـينيات تجـاه الشـيوعيين، والمسـتوى الأكثـر اعتـدالًا، نسـبيًا، الـذي شـهدته تجـاه المسـلمين بعـد الحـادي عشـر مـن أيلول/سـبتمبر إنمـا يعكسـان نوعيـة الرسـائل التـي بثتهـا النُخـب فـي الحالتيـن.

---

(59) انظر: *Muslim Americans: Middle Class and Mostly Mainstream* (New York: Pew Research Center, 2007), p. 38, <http://www.pewresearch.org/files/old-assets/pdf/muslim-americans.pdf>.

(60) James Gibson, «Political Intolerance and Political Repression during the McCarthy Red Scare,» *American Political Science Review*, vol. 82, no. 2 (June 1988), pp. 511-529.

(61) Bernard Lewis, *The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror* (New York: Random House, 2003), p. xv.

وربما تُبين ردود أفعال الأميركيين العاديين بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر صعوبة الأخذ بالتوجه الموقفي الصرف من قضية التسامح. فما يغذي اللاتسامح تجاه الجماعات الخارجية ليس مجرد وجود تهديد موضوعي»، وإنما إدراكنا لطبيعة ذلك التهديد. وبالعودة إلى المماثلة (analogy) التي استخدمناها في الفصل الأول، بشأن اختلاف تقديرات الأفراد لخطر «الحريق في البناية»، فإن اختلاف هذه التقديرات سيؤدي إلى اختلاف في مدى تأييد المواطنين العاديين للحد من الحريات المدنية للمسلمين الأميركيين وغيرهم من الجماعات. ومع ذلك، لا نستطيع إنكار أن هناك دليلا على وجود قدر من اللاتسامح تجاه المسلمين في الولايات المتحدة، أو ما يشار إليه أحيانًا بـ «الخوف من الإسلام» (Islamophobia). فقد بيّن استطلاع للرأي أُجري في جامعة كورنيل عام 2004، أن 27 في المئة من المستجيبين الأميركيين يعتقدون أن على المسلمين إبلاغ الحكومة الفدرالية أماكن وجودهم، وقال 26 في المئة منهم بضرورة وضع المساجد تحت المراقبة الحثيثة، ورأى 22 في المئة أن على السلطات الفدرالية مراقبة الأفراد ذوي الخلفيات الإسلامية أو الشرق الأوسطية، ووافق 29 في المئة على ضرورة اختراق الروابط الإسلامية المدنية بواسطة عملاء فدراليين لمراقبة نشاطاتها. وإضافة إلى ذلك، رأى 44 في المئة من المستجيبين أنه يجب فرض واحدة من القيود، السابقة الذكر، في الأقل على الحريات المدنية للمسلمين الأميركيين[62]. وفي حين أن هذه الأرقام لا تقترب من حجم الأكثرية التي طالبت بمنع الشيوعيين من التعبير الحر في دراسة ستوفر في الخمسينيات[63]، إلا أن ظهورها بهذا الحجم يظل مثيرًا للقلق في دولة ديمقراطية متطورة. وقد وجد إريك نيسبت وزملاؤه أن أكثر الجماعات استعدادًا لفرض القيود على الحريات المدنية للمسلمين هم السياسيون المحافظون والداعمون الأشداء للقيم الدينية المسيحية - مقارنة بغيرهم من الجماعات[64].

(62) انظر: Erik Nisbet and James Shanahan, «MSRG Special Report: Restrictions on Civil Liberties, Views of Islam, and Muslim Americans,» (December 2004), <http://www.eriknisbet.com/pdfs/reportla>.

(63) رأى 27 في المئة فقط من المستجيبين أن الشيوعيين يجب أن يعطوا الحرية لفعل ذلك.

(64) Erik Nisbet, Ronald Ostman and James Shanahan, «Shaping the Islamic Threat: The Influence of Ideology, Religiosity, and Media Use on Public Opinion Toward Islam and Muslim Americans,» in: Abdulkader Sinno, ed., *Muslims in Western Politics* (Bloomington, IN: University of Indiana Press, 2008).

خاتمة

تتبنى غالبية البحوث في التسامح السياسي، ومنذ دراسة ستوفر، منحى نزوعية. وقد وجدت الدراسات المبكرة منها أن التسامح يرتبط بنزعات شخصية معينة تتسم بالثبات [نسبيًا] - منها التصلب بالرأي، والتسلطية، والتفاؤل - التي ظهرت في دراسة ستوفر وزملائه؛ ومنها عدم الأمن النفسي (psychological insecurity) والدوغمائية (dogmatism) أو التصلب بالرأي أيضًا، وعدم الثقة بالآخرين - التي ظهرت في دراسة سوليفان وزملائه. وقد تابع جورج ماركوس، وجون سوليفان، وزملاؤهما هذا الإرث البحثي بتحليل العوامل التي تؤثر في صنع القرارات المتعلقة بالتسامح، وذلك في كتابهم **الحقد على البعض**[65] (*With Malice Toward Some*). ويركز المنظور الذي تبنوه في هذا الكتاب على دور الانفعال في صنع القرارات، وهو منظور نزوعي أيضًا من حيث إنه يركز على الفروق بين الأفراد في الاستجابة للبيئة المعلوماتية المحيطة بهم ذاتها. ويشير ماركوس وزملاؤه إلى أنهم يستخدمون مصطلح فروق فردية (individual differences) للإشارة إلى اختلاف الناس في الطريقة التي يصنعون بها الأحكام المتعلقة بالتسامح، وفي الطريقة التي يتعاملون بها مع المعلومات الراهنة. ويفيد ماركوس وزملاؤه، «أن الناس يختلفون في ما يحملونه من نزعات وفيما يصلون إليه من قرارات، وقراراتهم القائمة تلك تؤثر في مدى تسامحهم أو عدم تسامحهم»[66]. فقد يختلف الناس، مثلًا، في مستوى معرفتهم السياسية وخبرتهم، وطريقة معالجتهم للمعلومات الجديدة [وهو ما تناوله في الفصل التاسع]، ومدى ما يعالجونه من تلك المعلومات، وما إلى ذلك. ويؤكد ماركوس وزملاؤه أن القرارات المتعلقة بالتسامح هي في نهاية المطاف نتيجة لمزيج من العوامل، تتضمن: النزعات القائمة لدى الأفراد والمتعلّمة مبكرًا في الحياة، والاعتقادات المتصلة بالقيم الديمقراطية، والمعلومات المحددة المتعلقة بالحالة قيد البحث.

---

(65) Marcus [et al.], *With Malice Toward Some: How People Make Civil Liberties Judgments.*

(66) المصدر نفسه، ص 23.

15

علم نفس الإرهاب

لعلنا لا نتجاوز الحقيقة حين نقول إن الدراسة النفسية للإرهاب لا تزال في مهدها. ويفيد ركس هدسون (Rex Hudson) بهذا الخصوص [مقارنًا المقاربة النفسية في دراسة الإرهاب بمقاربة علم السياسة، وعلم الاجتماع]:

> إن علماء السياسة وعلماء الاجتماع يُعنوْن بدراسة السياقات السياسية والاجتماعية المحيطة بالجماعات الإرهابية، أما علماء النفس (القليلون، نسبيًا) الذين يدرسون الإرهاب فيتناولون الفرد الإرهابي أو الجماعة الإرهابية على مستوى جزئي (at a micro-level) من الدراسة. ذلك لأن المقاربة النفسية تركز على دراسة الإرهابيين بحد ذاتهم؛ كيف يتم تجنيدهم، وكيف يتم دمجهم في الجماعات الإرهابية، إضافة إلى أنه يبحث في نوعية شخصياتهم، واعتقاداتهم، واتجاهاتهم، ودوافعهم، ومهنتهم كإرهابيين[1].

وكما سنرى في هذا الفصل، فإن موضوع الإرهاب يُجسد التمايز بين النظريات النزوعية والنظريات الموقفية بشكل جلي. فقد سعى الباحثون عبثًا لسنين عديدة للكشف عما يصطلح جون هورغان (John Horgan) على تسميته

---

(1) Rex Hudson, «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist and Why?,» Report Prepared under an Interagency Agreement by the Federal Research Division, Library of Congress (Washington, D.C.) (September 1999), p. 17, <http://www.loc.gov/rr/frd/pdf-files/Soc_Psych_of_Terrorism.pdf>.

بــ «الشـخصية الإرهابيـة»[2]. وعلـى الرغم من اعتمـاد الباحثين فـي ذلك علـى النظريات التي تؤكد «الغرابة» أو «الشـذوذ النفسـي» في الشـخصية الإرهابية، فإن وجهة النظر الشـائعة الآن تـرى الإرهـاب بالطريقـة التـي يرى فيها سـتانلي ملغـرام القتـل الجماعـي؛ أي كنتـاج للظروف البيئيـة المحيطـة بالفـرد من حيث الأسـاس، وليس كنتـاج للخصائص الشـخصية للإرهابي، آخذًا بذلـك وجهة نظر موقفيـة صرفة.

وبالمثـل، يعتقـد معظـم المحلّليـن اليـوم أن ليـس هنـاك شـخصية إرهابيـة ذات طابـع واحـد، فضـلًا عـن أن هنـاك قبـول متزايـد للـرأي القائـل إن المتطرفيـن سياسـيًا «أسـوياء» بشـكل عـام فـي العديـد مـن الوجـوه (أي إنهـم ليسـوا مجانيـن)، علـى الرغـم مـن أنهـم يظلـون، مـن دون شـك، موجَّهيـن بأيديولوجيـة «تبـرّر» أفعالهـم. وبعـد أن نقـوم بمراجعـة الأدب النزوعـي القديـم فـي هـذا الموضـوع، ومراجعـة نظريـات مـن مثـل نظريـة الإحبـاط - العـدوان (frustration-aggression theory) ونظريـة النرجسـية - العـدوان (narcissism-aggression theory)، سـنقوم بتنـاول المقاربـات البـارزة فـي دراسـة الإرهاب الآن مـن مثـل «نمـوذج العمليـة» (process model) لجـون هورغـان الـذي يأخـذ اتجاهًـا أكثـر موقفيـة ولكنـه يُدخـل نزعـات الفـرد إلـى التحليـل إضافـة إلـى العوامـل الموقفيـة. وبعـد تعزيـز هـذا الإتجـاه بمـا نعرفـه عـن الإرهـاب الانتحـاري (suicide terrorism)، سـنخلص إلى أن الإرهـاب ظاهـرة معقدة لا يتسـنى لنا ردّهـا حصريًا إلى عوامـل نزوعية أو عوامـل موقفية، وأن تفسـيرًا مقبـولًا لهـذه الظاهـرة يجـب أن يدمـج كلا النوعيـن مـن العوامل.

ما هو الإرهاب

يحمـل مفهـوم الإرهـاب الكثيـر مـن الأحـكام القيميـة السـيئة والشـائعة علـى نطـاق واسـع - حتـى أن تعبيـر «الإرهابـي فـي نظـرك، قـد يكـون المدافـع عـن الحريـة فـي نظـر شـخص آخـر» أصبـح تعبيـرًا شـائعًا. وسـنأخذ تعريـف بريـان جنكنـز (Brian Jenkins)، الخبيـر الشـهير بموضـوع الإرهـاب، كنقطـة بدايـة مفيدة فـي تناولنـا لهـذا الموضوع، حيـث يقـول جنكنز:

(2) John Horgan, «The Search for the Terrorist Personality,» in: Andrew Silke, ed., *Terrorists, Victims and Society: Psychological Perspectives on Terrorism and its Consequences* (Chichester, UK: Jon Wiley Press, 2003).

إن ما يميز الإرهاب عن غيره من أشكال العنف هو أن الإرهاب يتضمن أفعالًا تُرتكب بطريقة دراماتيكية لجذب الانتباه العام، وخلق مناخ من الرعب يتجاوز الضحايا الذين تعرضوا له. والحقيقة أن هوية الضحايا تكون ثانوية أو غير مهمة للإرهابيين لأن عنفهم يتجه إلى الناس الذين يشاهدون ذلك العنف. والتفريق بين الضحايا الواقعيين والجمهور المستهدف هو المَعلم الرئيس للإرهاب الذي يميزه عن الأشكال الأخرى من النزاع المسلح؛ فالإرهاب مسرح[3].

ويختلف الإرهاب عن القتل الجماعي أو الإبادة الجماعية من حيث إن الأخير منهما يرمي إلى قتل جماعة بالكامل، بينما يرمي الإرهاب إلى قتل عدد محدود من الناس للتأثير على جمهور أوسع. فقد استهدف هتلر والنازيون إبادة اليهود، تمامًا كما استهدف الهوتو قتل التوتسي في رواندا. وبالمثل، فإن الضحية المستقصدة في معظم المذابح هي الضحية ذاتها، أما في حالة الإرهاب، فإن الهدف الحقيقي هو الجمهور المشاهد للضحية، فالإرهابيون يحاولون إيصال رسالة إلى قطاع واسع من الأفراد، وبهذا المعنى تكون ضحاياهم شيئًا عارضًا في خدمة قضاياهم.

وقد استند الباحثون الذين حاولوا فهم الأفعال الإرهابية من منظور نفسي إلى نظريات قائمة على التحليل النفسي، تقليديًا. وكثيرًا ما وظفت نظريتا الإحباط - العدوان، والغضب النرجسي (narcissistic rage) وغيرها من النظريات ذات الجذور التحليلية النفسية، لفهم الأسباب التي تؤدي بالناس إلى الإرهاب[4]. وتعتبر بحوث الخبير بشؤون الإرهاب، جيرولد بوست (Jerrold Post)، على سبيل المثال، مساهمات مهمة في هذا المجال[5]. وتتسم هذه

(3) انظر: The Christian Science Monitor Website, <http://www.csmonitor.com/specials/terrorism/lite/expert.html>.

(4) لنظرة عامة إلى هذه المناحي، انظر: Andrew Silke, «Cheshire-Cat Logic: The Recurring Theme of Terrorist Abnormality in Psychological Research,» *Psychology, Crime and Law*, vol. 4, no. 1 (1998), pp. 51-69, and Hudson, «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist And Why?».

(5) للمزيد، انظر: Jerrold Post, «Terrorist Psycho-Logic: Terrorist Behavior as a Product of Psychological Forces,» in: Walter Reich, ed., *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind* (New York: Cambridge University Press, 1990), and Jerrold Post, *Leaders and Their Followers in a Dangerous World: The Psychology of Political Behavior*, Psychoanalysis and Social Theory (New York: Cornell University Press, 2004).

يعتقد بوست (Post) الآن أن الإرهابيين «أسوياء» ولكنه يصرّ على أن معظمهم يحملون خصائص نرجسية.

المقاربات التحليلية جميعها، كما سنرى في هذا الفصل، بطبيعة نزوعية إلى حد كبير.

نظرية الإحباط - العدوان

وهي واحدة من النظريات النزوعية التي اكتسبت شعبية واسعة في مجال تفسير الإرهاب، والعنف السياسي بوجه عام، وقد جرى تطويرها بداية على يد جون دولارد (John Dollard) وزملائه في كتابهم **الإحباط والعدوان** في أواخر الثلاثينيات[6]. ونظرية الإحباط - العدوان نظرية بسيطة ومباشرة، تذهب إلى القول إن العدوان يحدث عندما تتعرض أهداف الفرد إلى الإحباط أو الإعاقة. ويؤكد دولارد، علاوة على ذلك، أن الإحباط يؤدي إلى العدوان دائمًا، وأن العدوان هو نتيجة للإحباط دائمًا كذلك. وعند تطبيق هذه النظرية على الإرهاب، يكون الفعل الإرهابي شكلًا من أشكال الإبدال (Displacement) (أو الإحلال) وهي فكرة تحمل جذورًا فرويدية أو تحليلية واضحة. تخيّل أنك فقدت وظيفتك توًّا، وانتابك شعور حانق، ثم عدت إلى البيت، ورفست كلب العائلة. لا شك في أن عدوانك في هذه الحالة تم إحلاله على ذلك الحيوان العاثر على الرغم من أنه لم يفعل شيئًا يستحق تلك المعاملة الجائرة. وبالمثل، ترى هذه النظرية أن الإرهاب عدوان يتم إحلاله على موضوع آخر (غير موضوعه الأصلي)؛ فالشخصيات المضطربة للإرهابيين، النابعة من الإحباطات الشخصية في حياتهم الخاصة، تقودهم إلى القيام بأفعال عنف متطرفة ضد الآخرين.

ويبدو أن الإحباط يؤدي دورًا مهمًا في النشاط الإرهابي، وخاصة عندما

---

(6) John Dollard [et al.], *Frustration and Aggression* (New Haven, CT: Institute of Human Relations, 1939).

كثيرًا ما تُنسب هذه النظرية أيضًا إلى ليونارد بيركوويتز. انظر: Leonard Berkowitz, «Some Aspects of Observed Aggression,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 2, no. 3 (September 1965), pp. 359-369, and Ted Robert Gurr, *Why Men Rebel* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1970).

لا يتيح النظام السياسي للدولة مخرجًا «سويًا» آخر للنشاط السياسي. إضافة إلى ذلك، يلقى هذا المنحى شيئًا من الدعم في أدبيات هذا الموضوع؛ فعلى سبيل المثال، وجدت دراسة شهيرة، أجريت على إرهابيين في ما كان يدعى ألمانيا الغربية عام 1981، أن كثيرين منهم عانوا مصاعب شخصية في حياتهم المبكرة. حيث كشفت الدراسة أن حوالى ربع أولئك الإرهابيين فقدوا أحد الوالدين في طفولتهم. ويفترض أن فقدان أحد الوالدين يسبّب استياء أو شعورًا بالنقص يستدعي الحاجة إلى منفذ ما (لتصريفه) - من حيث إن معظم الأطفال يعيشون مع والديهم، فإن العيش مع واحد منهما فقط قد يُطوّر شعورًا بالإحباط تجاه العالم الخارجي لدى الفرد. غير أن نقل هذا التفسير من المستوى الفردي، الذي تعمل نظرية الإحباط - العدوان بناء عليه، إلى مستوى المجتمع أو مستوى جماعة واحدة، يُواجه النظرية بعدد من الصعوبات. والسبب في ذلك يعود - كما رأينا في الفصل السادس - إلى أن الجماعات ليست مجرد تجمع أفراد، ففي كثير من الأحيان، تعمل ديناميات الجماعة على التأثير في سلوك الفرد وتوجيه قراراته على نحو يجعلها مغايرة لما يمكن أن يتخذه منها على انفراد. وهذه المشكلة تواجه المنحيين الآخرين اللذين سنتناولهما في ما يلي.

نظرية النرجسية - العدوان

يأتي مصطلح «النرجسية» من أسطورة نارسيسوس اليونانية، الشاب الوسيم الذي وقع في حب صورته، كما تقول الرواية. ولعل هناك شيء من النرجسية - أو الغرور في الأقل - لدى كل منا، لأن ذلك يؤدي دورًا في المحافظة على تقدير الذات. ويرى بعض الباحثين - أبرزهم ريتشارد بيرلشتاين (Richard Pearlstein) في كتابه **عقل الإرهابي السياسي** (*The Mind of The Political Terrorist*)، كذلك جون كريتون (John Crayton) وجيرولد بوست (Jerrold Post) يرون أن النرجسية في حالتها المتطرفة يمكن أن تعطي تفسيرًا للنشاط الإرهابي[7]. فالشخص الإرهابي، وفقًا لهذه النظرية يكون على اقتناع تام بأهميته في هذا العالم؛ لكن العالم - لسوء الحظ - لا يشاطره هذا الاقتناع،

---

(7) Richard Pearlstein, *The Mind of the Political Terrorist* (Wilmington, DE: SR Books, 1991).

الأمر الذي يؤدي به إلى الغضب النرجسي ومن ثم إلى العدوان. ويُعبّر هدسون (Hudson) عن وجهة النظر هذه بقوله:

> إذا لم يتم تحييد الذات المعظمة (grandiose-self) كشكل أولي للنرجسية، في ضوء الاختبار الواقعي (والتعامل مع إمكاناتها الواقعية)، فإن الذات المعظمة تُنتج أفرادًا معادين للمجتمع، متغطرسين، ولا يكنون احترامًا للآخرين. وبالمثل، إذا لم يتم تحييد الأنا الوالدية المثالية (the idealized parental ego)، كحالة نفسية، في ضوء الاختبار الواقعي، فإنها قد تؤدي إلى إحساس بالهزيمة البائسة، وهذه الهزيمة النرجسية قد تؤدي إلى ردات فعل غاضبة، ورغبة في تدمير مصدر الجرح النرجسي [أي العالم الخارجي أو جزء منه، بطبيعة الحال][8].

ومرة أخرى، هناك بعض الأدلة الداعمة لهذه الدعوة؛ فقد شحذت الدراسة الألمانية الغربية (المشار إليها أعلاه) التي أجريت عام 1981 الاهتمام بهذه النظرية. فإضافة إلى النتائج التي أشرنا إليها، وجد مناصرو نظرية الغضب النرجسي دليلًا على أن العديد من الإرهابيين (الذين أُخضعوا للدراسة) واجهوا عقبات شديدة في حياتهم الخاصة (كالفشل الدراسي، مثلًا) ويستنتج المحللون من أمثال بوست (Post) بناء على ذلك، أن الإرهاب ينتج من الضرر الذي يحيق بتقدير الذات، والإحساس بالغضب الذي ينجم عن مثل هذا الفشل.

تفسيرات التحليل النفسي/الفرويدية

بينما تنبثق النظريتان السابقتان من جذور تحليلية نفسية، هناك أشكال أخرى (أكثر «نقاء») لهذه المقاربة تتجلى في أدب الموضوع كتفسيرات للإرهاب. فقد زعم فرويد، كما رأينا في الفصول السابقة، أن البشر كثيرًا ما يُضمرون دوافع لا يكونون واعين بها أنفسهم (فهي دوافع «لا شعورية») وهذه الدوافع كثيرًا ما تنطوي على رغبات مكبوتة لأن تلك الرغبات تكون غير مقبولة اجتماعيًا. وتتمثل واحدة من هذه الرغبات بالعقده الأوديبية (Oedipal Complex) التي تظهر

(8) Hudson, «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist and Why?,» p. 17.

فـي مرحلـة مـن مراحـل النمـو النفسـي - الجنسـي (psychosexual development) التـي يمـر بهـا الفـرد فـي الطفولـة، كمـا يـرى فرويـد، حيـث يأخـذ الطفـل فـي النظر إلـى الأب كخصـم ومنافـس لـه علـى حـب الأم. وعندمـا لا يتـم حـل هـذا الصـراع بنجـاح، فإنـه قـد يـؤدي إلـى مشـكلات مختلفـة فـي حيـاة الفـرد لاحقًا.

ويؤكـد كونـراد كيليـن (Konrad Kellen) فـي تحليلـه للإرهابييْـن هانـز - جواشـيم كلاين، وكارلوس المأجور (Hans-Joachim Klein and Carlos the Jackal) أن الكراهية الشـعورية أو اللاشعورية لـلأب قادتهمـا إلـى التمرد على السـلطة، أو على «الرمـوز الأبوية»، إلى أن وصـل بهما الأمر إلـى العنـف في نهايـة المطـاف. وتحولهمـا إلى الإرهـاب ثم كان إخـراج الصراع الشـخصي (مـن الداخـل) - بطريقة لا شـعورية - وتحويله إلـى الحياة العامة (وهذه الحجة تسـتدعي إلـى الذهن تصوير لاسـويل (Lasswell) الشـهير لـ «الشـخصية السياسـية» بوجه عـام)[9]. وبناء علـى هـذه الخلفيـة النظريـة أيضًـا، طـوّر إريـك إريكسـون (Eric Erikson) أحـد أتبـاع فرويـد نظريـة الهويـة السـلبية (negative identity theory) رأى فيهـا أن الصراعـات الشـخصية التـي لـم تُحـل، والفشـل فـي تكامـل الشـخصية [بين الهـو، والأنـا، والأنا الأعلـى] يقود إلـى صعوبات عميقـة فـي الحيـاة لاحقًا. وتُطبّـق جيـن ناتسـون (Jeanne Knutson) هذه المقاربة فـي تحليلها لإرهابـي كرواتـي، وصفـه هدسـون أحد أنصـار نظرية النرجسـية - العـدوان بأنه؛

> خـاب أملـه نتيجـة لفشـله فـي تحقيـق طموحاتـه بالحصـول علـى شـهادة جامعيـة، فتبنـى هويـة سـلبية وتحـول إلـى الإرهـاب. وتنطـوي الهويـة السـلبية علـى رفـض انتقامـي للـدور الـذي تعتبـرُه عائلـة الفـرد ومجتمعـه دورًا مقبـولًا ومناسـبًا[10].

ويبـدو هـذه المقاربـة مشـابهة لنظريـة الإحبـاط - العـدوان، والواقـع أن هنـاك نقطـة تلتقـي عندهـا هـذه النظريـات المتعـددة (والمتشـابهة جـدًا) وتمتـزج بعضهـا ببعـض.

---

(9) Konrad Kellen, *On Terrorists and Terrorism* (Santa Monica, CA: Rand Corporation, 1982).

(10) Hudson, Ibid., p. 17.

مشكلات تواجهها هذه النظريات

على الرغم مما تبدو عليه هذه النظريات من جاذبية للوهلة الأولى، فإن هناك مشكلات تواجهها جميعًا كتفسيرات للنشاط الإرهابي، كما أن النظريات التحليلية وغيرها من المقاربات المرتكزة إلى الشخصية في تفسيرها لسيكولوجية الإرهاب أصبحت موضع تساؤل بشكل متزايد[11]. وتتصل إحدى التساؤلات بـ «القفزة» التي لا بد من القيام بها عند الانتقال من تحليل سلوك أفراد معينين إلى تحليل سلوك جماعة [كمنظمة إرهابية]، كما سبق أن أشرنا. أما القضية الأخرى فتتصل بحقيقة أن جميع النظريات التي تطرقنا إليها في أعلاه خرجت من دائرة قبول علم النفس في نطاقه الواسع. وإذا ما عادت هذه النظريات تتمتع بالصدقية في نظر العديد من علماء النفس، فلماذا يستمر تداولها في دراسة الإرهاب والعلوم الاجتماعية عمومًا؟ وفي حين أننا يجب ألّا نشك في قيمتها أوتوماتيكيًا بناء على هذا الأساس فحسب - ذلك لأن النظريات الأكاديمية قد تبرز وتتراجع مع الوقت - إلا أن هناك أسبابًا عملية أخرى جعلت كثيرين ممن يدرسون الإرهاب غير راضين عن هذه المقاربات.

أما المشكلة **الأولى** فتتعلق بالإتجاه السيكولوجي الاختزالي في علم النفس الذي واجهناه سابقًا في أعمال باحثين من أمثال جيمس دايفد باربر (James David Barber). وتتمثل هذه المشكلة بالميل إلى رد الظواهر الاجتماعية والسياسية المعقدة إلى معادلات سيكولوجية غاية في التبسيط. وقد يكون دعاة هذه النظريات جميعهم ضحايا لما يصطلح مناصرو نظرية العزو على تسميته بِـ «الخطأ الأساس في العزو» (fundamental attribution error) (كما رأينا في الفصل التاسع). ويذكر القارئ أن هذا الخطأ يشير إلى الميل إلى المبالغة في تقدير دور العوامل (الشخصية) النزوعية في توجيه سلوك «الآخر» - وهو الإرهابي في هذه الحالة - مقارنة بدور الظروف المحيطة التي يعيشها.

(11) للاطلاع على البحوث الحديثة المهمة في هذا المجال، انظر: Silke, ed., *Terrorists, Victims and Society: Psychological Perspectives on Terrorism and its Consequences*; Fathali Moghaddam and Anthony Marsella, eds., *Understanding Terrorism: Psychosocial Roots, Consequences, and Interventions* (Washington D.C.: American Psychological Association, 2004), and John Horgan, *The Psychology of Terrorism* (London: Taylor and Francis, 2005).

وأما المشكلة **الثانية** المشتركة بين هذه النظريات جميعها فهي أنها تنطوي على إيحاء شديد بأن الإرهابيين «مضطربين» عقليًا بوجه عام، إذ تفترض أن «الأفعال الشاذة» لا يرتكبها إلا من هو «شاذ». لكن هورغان، الخبير بموضوع الإرهاب، وغيره من الخبراء، يرفضون مقاربة الاضطراب العقلي. وعلى الرغم من أنه لا يتاح لنا المجال لدراسة إرهابيين واقعيين لنصل إلى تشخيص موثوق به بشأنهم، فإن ما يتوافر لنا من أدلة يوحي أن معظم الإرهابيين أصحاء نفسيًا، وأنهم ليسوا مجانين بالتأكيد. ويشير هورغان إلى أن المقاربات النفسية جميعها تشدد على دور السيكوباثية (psychopathy) [أي العدائية والعنف بدم بارد] في تكوّين شخصية الإرهابيين، «إلا أن الدليل على أن السيكوباثية عنصر من العناصر السيكولوجية للمنظمات الإرهابية، دليل ضعيف»[12]. وبالمثل، يؤكد أندرو سيلك (Andrew Silke) أن الكُتّاب الذين يدّعون أن الإرهابيين «مضطربون» نفسيًا، على نحو ما، هم من لم يتسن لهم الاتصال بالإرهابيين إلا لمامًا، في حين أن من يدّعون العكس، هم الذين أجروا الكثير من الاتصال بهم[13]. وإذا أمعنا النظر في الأمر، نجد إن هذا الاستنتاج ينطوي على شيء من المنطقية، حيث إن المنظمات الإرهابية تقوم على درجة عالية من التنظيم، والسرية، والانضباطية، ويبدو أنها تستبعد من صفوفها الأفراد المضطربين الذين قد يُعرِّضوا متطلباتها التنظيمية هذه للخطر.

ثالثًا، وفي إطار متصل بالمشكلة الثانية، لا بد من أخذ الدليل على وجود «شخصية إرهابية» واحدة، على أنه دليل ضعيف إلى حد بعيد. ويعتبر هورغان المناهج التي اتبعها من يدعون اكتشاف نمط واحد من الشخصية الإرهابية مناهج «مثيرة للشفقة»[14] وما وصلت إليه بعض الدراسات التي أُجريت بهذا الشأن خرج باستنتاجات مغايرة (مثال ذلك الدراسة الألمانية الغربية)، حيث وجدت معظم هذه الدراسات أن شخصيات الإرهابيين لا تحمل سمات خاصة

---

(12) Horgan, «The Search for the Terrorist Personality,» p. 7.

(13) Andrew Silke, «Becoming a Terrorist,» in: Silke, ed., *Terrorists, Victims and Society: Psychological Perspectives on Terrorism and its Consequences*, p. 32.

(14) المصدر نفسه، ص 10.

بها تميزها على الدوام عن أفراد المجتمع «العاديين». والواقع أن التشخيصات، والنتائج المتضاربة التي انبثقت من تلك الدراسات تُضعف الادعاءات التي تأتي بها النظريات المختلفة في هذا الموضوع. ومن ناحية أخرى، فإننا نملك أدلة قوية على أن العديد من الإرهابيين يجدون صعوبة في القتل، وأن ضحاياهم يقعون عرضًا في طريق تحقيقهم لأهدافهم.

وأما المشكلة **الرابعة** - التي تظهر أكثر وضوحًا في نظرية النرجسية - العدوان - فهي أن الإرهابيين يمثّلون ضحايا لما يسميه المتخصصون في العلوم الاجتماعية بمغالطة التركيب (fallacy of composition)، والتي تشير هنا إلى العجز عن دراسة المجتمع السكاني المحيط بالجماعة موضوع الاهتمام، والميل إلى التركيز الوسواسي على خصائص الجماعة بحد ذاتها. فالنرجسية، مثلًا، حالة شائعة، على الأرجح، في المجتمع السكاني عمومًا، ولا يتبنى النرجسيون جميعًا، في أي حال، أسلوب حياة الإرهابي. ويفيد ركس هدسون (Rex Hudson)، على سبيل المثال، أن العديد من الصفات التي تُعزى إلى الإرهابيين كدوافع لنشاطاتهم توجد أيضًا لدى المجتمع السكاني العام[15]. ويُرجح هدسون أن النرجسيين، بوجه خاص، لا يتحولون إلى إرهابيين انتحاريين. كما أنه يتساءل عما إذا كان الإرهاب ينتج في الواقع من غضب نابع من الفشل الشخصي، ويفيد قائلًا: «إن ظهور عدد متزايد من الإرهابيين المهنيين ذوي التحصيل العلمي العالي، كالكيميائيين، والمهندسين، والفيزيائيين ينقض النظرية»[16]. وتبرز هذه المشكلة كمشكلة رئيسة لنظريات أخرى كنظرية الإحباط - العدوان التي تزعم أن الإرهاب يمثل تفريغًا للإحباط الشخصي على العالم المحيط. ولعله من الواضح والحال هذه، أن هناك شيء ما يأخذ مجراه في عملية التحول إلى الإرهاب، يتعدى أي سمة شخصية.

وأخيرًا، فإن التركيز الوسواسي على الشخصية يقلل من أهمية الدافع الأكثر

---

(15) Hudson, «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist and Why?,» p. 27.

(16) المصدر نفسه.

قـوة فـي تحريك الإرهابـي، ألا وهـو الأيديولوجيـة. فالإرهابيون جميعًا يشـتركون فـي التزام أهـداف سياسـية، قد تكـون دينية، أو قوميـة، أو اقتصادية فـي طبيعتها. وقـد يكون البحث فـي الاعتقـادات الفرديـة للإرهابييـن أكثـر أهميـة مـن البحـث غيـر المثمـر عـن شـخصية إرهابيـة خاصـة. فضـلًا عن ذلك، لا بد مـن أن نلفت النظـر إلى أن الاعتقـادات، نزوعية في طبيعتهـا - ويأتـي هـذا النقد من المعسـكر النزوعي، لا مـن خارجه - ومن هنـا فإن الخطأ فـي أدب الموضـوع الحالـي لا يكمـن في تركيـزه على الفرد بحـد ذاته، بل فـي تركيزه على الخصائـص الخطـأ لـدى ذلـك الفرد (وهو ما سنتوسـع فـي تناوله بعـد قليل).

العوامل الموقفية

ثمـة ميـل طبيعـي لدى الإنسـان إلـى الاعتقاد بـأن مـن يرتكبون عمـلًا كارثيًـا كتدمير مركـز التجـارة العالمـي في مدينـة نيويورك في الحادي عشـر من أيلول/سـبتمبر عام 2001، أو تفجيـر قطـار مدريـد في الحـادي عشـر مـن آذار/مـارس2004، أو مترو أنفـاق لندن في السـابع مـن تموز/يوليـو 2005 - هنـاك ميـل إلى الاعتقـاد بـأن مرتكبي هذه الأفعـال لا بد مـن أن يكونـوا مجانيـن أو «مشوشـين» علـى نحو مـا، وبأنهم ليسـوا أسـوياء نفسـيًا كبقية النـاس بـكل تأكيـد، ولا يمكـن لطبيب نفسـي أن يشـخّصهم كـ «عقـلاء»، ليقحموا أنفسـهم فـي مثـل هـذه الأعمـال ويتحملـوا مسـؤوليتها. وتتعـزز وجهـة النظـر هـذه فـي الإرهـاب بالصـور التلفزيونيـة التـي تُظهرهـم وهـم يلوحـون بأصابعهـم بعلامـات النصر بعـد ارتكاب الأعمـال الإرهابيـة - كمـا ظهر أسـامة بـن لادن الذي بدت قضيتـه غير مفهومـة للغربيين - وبصور تلفزيونية لأشـخاص مثل تيودور كازينسـكي (Theodore Kaczynski) - الذي أوحى منظره الأشعث، وأسلوب حياته، وأفعاله - أنه كان يعاني اضطرابًا عقليًا. وبالمقابل كثيرًا ما نَعجب لصـور إرهابييـن يظهـرون كأنـاس عاديين، وأسـوياء تمامًا كغيرهـم من أفـراد المجتمع؛ فقد ظهـر تيموثـي مكفيه (Timothy McVeigh) الذي أدى دورًا رئيسًـا في تفجيـرات مدينة أوكلاهوما عـام 1995 - ونُفّـذ حكم الإعدام فيه بسـببها - ظهر شـخصًا حسـن المظهر، مبتسـمًا (كأحد أبنـاء الجيـران الطيبيـن)، علـى عكس ما ظهـر عليه كازينسـكي. ومهمـا يكن من أمـر، فإننا

نعتقد أن مرتكبي الأفعال الشاذة لا بد من أن يكونوا مضطربين إلى حد كبير. غير أن هناك أسبابًا عديدة تُلقي بظلال الشك على هذا الاستنتاج عدا الأسباب التي ناقشناها حتى الآن.

ويتمثل **أحد** هذه الأسباب في أن البحوث المتعلقة بصنوف أخرى من التطرف السياسي مما ناقشناه في الفصول السابقة - والمتعلقة منها بسيكولوجية الإبادة بوجه خاص - تشير إلى أن ثمة قوى محيطية قد ترغمنا على السلوك بما يتعارض مع ما نحمله من قيم؛ فقد رأينا أشخاصًا «عاديين» كأدولف آيخمان تحملوا مسؤولية أعمال شنيعة ومروعة. وإذا كان بإمكان أشخاص أسوياء ارتباك مثل هذه الأفعال، يجب ألّا نستغرب تاليًا، أن يقوم أشخاص أسوياء بالقدر ذاته بارتكاب فظائع مشابهة باسم قضية أيديولوجية في ظل الإغراءات الاجتماعية المناسبة. كما أن الذين قاموا بالأفعال المشينة في أبو غريب كانوا، بالمثل، أسوياء بالمعنى السيكولوجي، مثلهم مثل المبحوثين في تجربة ستانفورد. ويوحي تحليل فيليب زمباردو (Philip Zimbardo) لسيكولوجية الشر في كتابه **تأثير الشيطان**، على الرغم من أنه ليس تحليلًا للإرهاب بحد ذاته، أن هناك خطًا رفيعًا بين الصواب والخطأ، خطًا يمكن أن يكون استعدادنا لقطعه أقوى بكثير مما نعتقد.

والسبب **الثاني** الذي يجعلنا ننحو إلى الموقفية في تفسير الإرهاب يعود إلى أن هناك دليلًا على أن معظم الإرهابيين يشعرون بأنهم ليس لديهم خيارًا آخر غير أن يقوموا بالأعمال الإرهابية. وربما يشعرون أنهم في شرك (أو أن الأبواب قد سدت في وجوههم)، ولا يستطيعون إلا اللجوء إلى العنف السياسي للوصول إلى أهدافهم. وقد وجد تايلر وكويل (Taylor and Quayle) في مقابلاتهم لإرهابيين، أن القاسم المشترك بينهم هو الاعتقاد بأنهم في حالة دفاع عن النفس ضد عدو[17]، وبأنهم يشعرون بأن العنف ما هو إلا «الاستجابة الحتمية» لذلك التهديد الخارجي[18]. وربما يكون هؤلاء الأفراد قد وقعوا

---

(17) Maxwell Taylor and Ethel Quayle, *Terrorist Lives* (London and Washington DC: Brass Eys, 1994).

(18) المصدر نفسه، ص 90.

ضحايا للشق المعاكس من الخطأ الأساس في العزو؛ أي أنهم يبالغون في تقدير دور الظروف الخارجية في توجيه سلوكهم. ولعله من المعقول أن نفترض أن بعض الظروف لا تتيح لنا كثيرًا من الخيارات؛ ففي الأنظمة السياسية القامعة، بوجه خاص، قد يكون الإرهاب حقيقة هو المسار الوحيد المتاح لأولئك الذين يسعون إلى التغيير. فالمجتمعات القمعية تفتقر إلى الأبطال الرمزيين، ويبرز واحد كأسامة بن لادن ليكون نموذجًا أكثر جاذبية من أي شيء حوله، وتبدو طرائقه أكثر جاذبية من أي شيء متاح[19]. ويقدم بيورغو (Bjorgo) قائمة طويلة بالعوامل الموقفية التي تمثّل «الأسباب العميقة» للإرهاب، وتشمل[20]:

- الافتقار إلى الديمقراطية، والحريات المدنية وسيادة القانون
- فشل الدولة أو ضعفها
- تحديث البلاد بوتيرة سريعة
- ظهور أيديولوجيات متطرفة ذات طبيعة علمانية أو دينية
- سوابق تاريخية من العنف السياسي، أو الحروب الأهلية، أو الثورات، أو الدكتاتوريات، أو الفساد
- الهيمنة وعدم المساواة في القوة
- الحكومات الفاسدة أو غير الشرعية
- وجود قوى خارجية متنفذة داعمة للحكومات غير الشرعية
- التعرض لقمع الاحتلال الأجنبي أو القوى الكولونيالية
- التعرض للتمييز على أساس إثني أو ديني
- عدم استعداد الدولة لدمج الجماعات المتحدرة من أصول مختلفة أو دمج الطبقات الاجتماعية المنبثقة حديثًا
- التعرض للغبن الاجتماعي (أو عدم العدالة)

---

(19) Fareed Zakaria, *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad* (New York: W. W. Norton, 1993).

(20) Tore Bjorgo, ed., *Root Causes of Terrorism* (Oslo: Norwegian Institute of International Affairs, 2003), Quoted in: Horgan, *The Psychology of Terrorism*, p. 83.

- ظهور قادة كاريزماتيين مؤدلجين

- وقوع أحداث مثيرة تهيِّىء للتطرف.

وبطبيعة الحال، لا بد من أن يكون لبعض هذه العوامل تأثير أكثر من غيرها. وكما أن النزعات لا تحكي قصة النشاط الإرهابي وحدها، كذلك فإن لأثر العوامل الموقفية حدودًا أيضًا. وإذا ما أخذنا العوامل الاقتصادية كمثال، يظهر جليًا أن هذه العوامل وحدها لا تقدم تفسيرًا كافيًا لأسباب لجوء بعض الناس إلى النشاط الإرهابي. فعلى سبيل المثال، تنتشر الوهابية الراديكالية؛ وهي طريقة متشددة من الطرق الإسلامية، والتي ينتمي إليها أسامة بن لادن في العربية السعودية الغنية بالنفط. وإذا كان الفقر هو السبب الرئيس وراء الإرهاب، فلمَ لم تُهاجَم الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية من أفراد معوزين من جنوب الصحراء الأفريقية؟ ويقول فريد زكريا (Fareed Zakaria) بهذا الخصوص،

> إن الأرضية المولّدة للإرهاب هي التي شهدت أغزر تدفق للثروة عبر الثلاثين سنة الماضية. لقد كان خمسة عشر من خاطفي الطائرات الأربع في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والبالغ عددهم تسعة عشر، كانوا من العربية السعودية، أكبر الدول المصدرة للنفط في العالم، ويُستبعد، والحال هذه، أن يكون الفقر هو القابع في قلب غضبهم[21].

وفي حين أن بعض الجماعات الإرهابية تعاني ضائقات اقتصادية في طبيعتها، فإن هذا بالتأكيد ليس حال القاعدة، لأن اهتمامات قادتها اهتمامات دينية وسياسية بكل وضوح، لا اقتصادية. علاوة على ذلك، ما الذي يجعل أفرادًا بعينهم ممن يعانون ظروفًا اقتصادية صعبة يستجيبون لهذه الظروف بشكل عنيف، بينما يبدو آخرون متقبلين لها كجانب محتوم من جوانب مصيرهم؟

وبينما تعاني المنظمات الإرهابية جميعها قدرًا من المصاعب تستخدمها لتبرير عنفها السياسي وإسباغ الشرعية عليه، إلا أن بعض هذه الجماعات تتمكن من التغلب على معاناتها مع الوقت. ويفيد هورغان بهذا الشأن:

---

(21) Zakaria, Ibid., p. 137.

نحـن نعـرف أن الإرهـاب كثيـرًا مـا يقـوم علـى أسـاس مـن «مظالـم حقيقيـة» أو متخيلـة، وبغـض النظـر عمـا إذا كانـت تلـك المظالـم قـد وقعـت فـي وقـت أو آخر، فـإن المنظمـات الإرهابية تسـتطيع تغيير هوية هـذه المظالم وطبيعتهـا بمهارة بالغة (لتجعلها تتناسـب مـع عهودهـا المعلنـة)[22].

وتمثـل قائمـة المظالـم (والمبـررات تاليًـا) التـي سـاقها أسـامة بـن لادن مثـالًا جيـدًا علـى هـذه الحالـة؛ فبينمـا أدعـى فـي كلمتـه الأصليـة والفوريـة علـى الفيديـو أن وجـود القـوات الأميركـة علـى أرض العربيـة السـعودية يمثّـل إهانة للإسـلام، لم يؤدِّ انسـحاب تلك القـوات إلـى تغييـر ملحوظ فـي مواقـف القاعدة المعلنـة، أو فـي اسـتراتيجياتها، وإنما قاد ذلـك ببسـاطة إلـى تركيـز المنظمـة علـى شـكاوي أخـرى ضـد الولايـات المتحـدة. والنقطة الأوسـع هنـا هـي أن الجماعـات الإرهابيـة ليسـت كيانـات سـلبية تنبثـق اسـتجابة لعامـل موقفـي معيـن فـي المحيـط؛ ولكنها كثيرًا مـا تتغيـر وتتكيف حتـى بعـد زوال المظلمة، أو الشـكوى الأصليـة التـي اسـتخدمتها لتبريـر وجودها.

نموذج «العملية» لهورغان

أخـذ هورغـان بتطويـر نموذجـه النظـري لتفسـير ظاهـرة الإرهـاب فـي ضـوء نقـاط الضعـف التـي تكتنـف النظريـات النزوعيـة، والمشـكلات التـي تُواجـه الحجـج الموقفيـة المبسـطة [فـي سـعيها لتفسـير هـذه الظاهـرة]. ويعتـرف نمـوذج هورغـان بإسـهامات كلا المعسـكرين، ويدعـى إطـاره النظـري هـذا بــ «نمـوذج العمليـة» (Process Model). ويؤكـد هورغـان أنـه لا بـد لنا من فهـم المواقف التـي تجعل أفـرادًا معينيـن عرضة للاسـتجابة لها بالانضمـام إلـى جماعـات إرهابيـة.

ويـرى هورغـان أن القـوى الموقفيـة المتضمّنـة فـي القائمـة السـابقة مـا هـي إلّا شـروط مسـبقة لظهـور النشـاط الإرهابـي؛ وبعبـارة أخـرى، هـي شـروط ضروريـة وإن لـم تكـن كافيـة لوقـوع الإرهـاب. ولكـي يحـدث الإرهـاب لا بـد لهـذه العوامـل الموقفيـة مـن أن تتفاعـل مـع نزعـات معينـة موجـودة لـدى الفـرد. ويفيـد هورغـان

(22) Horgan, Ibid., p. 84.

أن «السعي لتحديد الأحداث الحافِزة التي تعمل كعوامل «دفع» واضحة [تدفع نحو الإرهاب]، قد يكون سعيًا مضللاً... فقد يكون من الأجدى البحث عن الأسباب التي تجعل أفرادًا بعينهم يتأثرون بهذه الأحداث وتجعل خبرتهم فيها عاملاً حافزًا يزيد من انغماسهم في تلك الأحداث»[23].

ويعترف هورغان أن مهمة إيجاد تلك العوامل الفاعلة على المستوى الفردي مهمة صعبة، ويعترف أيضًا أننا نفتقر إلى بحوث تتعلق بكيفية تجنيد الإرهابيين، للوصول إلى إجابات قاطعة في هذه المسألة. وعلى الرغم من ذلك، يرى هورغان أن عملية التحول إلى الإرهاب عملية متدرجة في العادة، تتضمن سلسلة من الخطوات الصغيرة، وأن هناك عددًا من العوامل التي قد تكون حاسمة، على الأرجح، في هذه العملية. وتشمل هذه العوامل: حساسية الفرد للمكافآت الإيجابية التي يأتي بها انضمامه إلى جماعة إرهابية (فقد تحظى هذه العضوية بمكانة اجتماعية متميزة، والانتحاريون قد يحققون مكانة عظيمة بعد موتهم)؛ وقد تجلب مثل هذه العضوية رضًا مجتمعيًا وترابطًا أيديولوجيًا مع أفراد من عقلية مماثلة؛ وقد يدفع الاحترام لرموز الحركة إلى الانخراط في نشاط إرهابي؛ وقد تؤدي الضغوط المجتمعية، وحتى التجنيد الإلزامي، دورًا كذلك في دفع الفرد إلى الانضمام إلى الجماعة إرهابية؛ وقد يكون هناك تأثير لتشجيع الأشخاص المهمين في حياة الفرد، كالزوج أو الزوجة بوجه خاص، على الانضمام إلى مثل هذه الجماعات. وعلى الرغم من صعوبة تحديد ما يجعل أفرادًا بعينهم أكثر قابلية من غيرهم للانضمام إلى جماعة إرهابية، فإن هورغان يرى أن الاعتقادات التي يحملها الفرد، وتنشئته الاجتماعية، وخبراته الحياتية، وإحساسه بعدم الرضا عن الحياة، وقدرته على تخيل أبدال أخرى لحياته، تؤدي جميعها دور في ذلك. وعلى أي حال، يبدو واضحًا أن علينا، من وجهة نظر هورغان، إعطاء ديناميات الجماعة، والضغوط الاجتماعية التي تقود أفرادًا بعينهم إلى الانضمام إلى منظمة إرهابية، حق قدرها، ويرى أننا بحاجة إلى فهم ما يجعل بعض الأفراد يأخذون هذا الطريق دون غيرهم فهمًا أفضل، لأن قدرتنا على الإجابة عن هذه الأسئلة ما زالت، مع الأسف، بدائية إلى حد ما.

---

(23) Horgan, Ibid., p. 88.

«سر» الإرهابي الانتحاري

ربما نستطيع تعريف الإرهاب الانتحاري من دون عناء، نسبيًا، على الرغم من اختلاف التعريفات الواردة في أدب الموضوع من حيث الاتساع. ومن التعريفات الواسعة للإرهاب الانتحاري، تعريف أمي بيدازر (Ami Pedahzur) الذي تذهب فيه إلى أن «الإرهاب الانتحاري يشمل أشكالًا متنوعة من الأفعال العنيفة يرتكبها أشخاص يعرفون حق المعرفة أن احتمال عودتهم بعد القيام بها قريب من الصفر»[24]. أما أسّاف مغادام (Assaf Moghadam) فيُعرّف الإرهاب الانتحاري تعريفًا إجرائيًا أكثر تحديدًا فيقول «إن نجاح الهجوم (في هذا النوع من الإرهاب) يعتمد على موت المهاجم»، ويلفت مغادام النظر إلى أن «مثل هذا التعريف يستبعد من النقاش الحالي كل هجوم يتوقع فيه المهاجم التعرض للموت أثناء الهجوم، من دون أن يكون موقنًا ذلك»[25]. ومن حيث إن المعنى (أو التعريف) الثاني هو التعريف المتعارف عليه، فإنه سيكون التعريف الذي نتبناه هنا، على الرغم من أن القضايا الرئيسة [المتعلقة بالموضوع] تبقى هي ذاتها على أي حال.

وعلى الرغم من وجود هذا التكتيك منذ أجل طويل في الواقع، فإن ممارسة التفجير الانتحاري تعدّ حديثة، وهناك اتفاق بوجه عام على أنه بدأ في أوائل الثمانينيات، وخصوصًا بعد تفجير السفارة الأميركية وثُكَن مشاة البحرية الأميركية في بيروت عام 1983. والدراسة الممنهجة لهذا الموضوع، كما هو حال دراسة الموضوع العام للإرهاب، تسير خطواتها الأولى في الحقيقة، ولدينا عددٌ من الكتب ظهرت في السنوات الأخيرة، والتي تتناول هذا الموضوع من زاوية نفسية، جزئيًا في الأقل[26]. كما ظهر عدد وافر من الأفلام الوثائقية عن هذا الموضوع،

---

(24) Ami Pedahzur, *Suicide Terrorism* (Malden, MA: Polity Press, 2005), p. 8.

(25) Assaf Moghadam, «The Roots of Suicide Terrorism: A Multi-Causal Approach,» in: Ami Pedahzur, ed., *Root Causes of Suicide Terrorism: The Globalization of Martyrdom* (New York: Routledge, 2006), p.82.

(26) للمزيد، انظر: Pedahzur, *Suicide Terrorism*; Robert Pape, *Dying To Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism* (New York: Random House, 2005); Mia Bloom, *Dying to Kill: The Allure of Suicide Terror* (New York: Columbia University Press, 2005); Diego Gambetta, ed., *Making Sense of Suicide Missions* (New York: Oxford University Press, 2005), and Pedahzur, ed., *Root Causes of Suicide Terrorism: The Globalization of Martyrdom.*

تحمـل عناويـن مـن مثـل: «زمـرة التفجيـر الانتحـاري» و«داخـل عقـل المفجـر الانتحـاري»، و«القتلـة الانتحاريـون»، تحـاول جميعهـا سـبر الأسـباب المركزية لهـذه الظاهـرة (وإن كانت تحقـق فـي مهمتهـا هـذه درجـات متفاوتـة مـن النجاح).

يُفنِّـد روبـرت بيـب (Robert Pape) القـول بوجـود علاقـة وثيقة بيـن الإرهـاب الانتحاري والإسـلامية المتطرفـة، وهـي الفكـرة التـي خرجـت تلقائيًـا بعـد 9/11. وعلـى الرغـم مـن أن القاعـدة هـي واحـدة مـن الجماعـات التـي مارسـت، ولا تـزال تمـارس وسـائل الرعـب الانتحـاري، فـإن بيـب - الذي قـام بإنشـاء قاعدة بيانـات للهجمـات الانتحاريـة التي وقعت مـن 1980 إلـى 2003، وبلـغ عددهـا 315 - يفيـد أن معظـم هـذه الهجمـات (تاريخيًـا في الأقـل) كانـت مسـتوحاة علمانيًـا وليـس دينيًـا. إذ يقـول بيـب بهذا الشـأن:

> تشـير البيانـات إلـى أن العلاقـة بيـن الإرهـاب الانتحـاري والأصوليـة الإسـلامية، أو أي مذهـب دينـي مـن العالـم علاقـة محـدودة. والحقيقـة أن قـادة الهجمـات الانتحارية هـم نمـور التاميل في سـريلانكا، وهم جماعـة ماركسـية ينتمي أعضاءهـا إلى عائلات هندوسـية، ولكنهـم معـادون للديـن بشـدة (...) غيـر أن مـا تشـترك فيـه الهجمـات الانتحاريـة جميعها هـو هدف علماني، اسـتراتيجي محـدد، كدفع الـدول الديمقراطية المتطـورة إلـى سـحب قواتهـا العسـكرية مـن مناطـق يعتبرهـا الإرهابيـون وطنهـم. ونـادرًا مـا يكـون الديـن أصـل القضيـة، علـى الرغـم مـن أنـه كثيـرًا مـا يُسـتخدم من جهـة المنظمـات الإرهابيـة كأداة لتجنيـد الأعضاء، وغيـر ذلك من الجهـود التي تبذلها المنظمـات فـي خدمـة أهدافها الاسـتراتيجية الأوسـع[27].

كيـف لنـا والحـال هـذه أن نفسـر شـيوع هـذه الممارسـة؟ إن ظاهـرة الإرهـاب الانتحـاري تُحْـدث مشـكلة للمنظـورات النفسـية التـي أتينـا علـى مناقشـتها فـي هـذا الكتـاب جميعهـا. فقتـل النفـس مـن أجـل قضيـة يبـدو خـارج حـدود المعقـول، ولكـن هـذه الظاهـرة تُحْـدث مشـكلة بنـوع خـاص لاثنيـن مـن المنظـورات النفسـية - البيوسياسـية علـى وجـه الخصـوص. أولًا، تواجـه المنظـورات البيوسياسـية التـي تركـز علـى مـا يشـير إليـه ريتشـارد دوكنـز بــ «الجيـن الأنانـي» مشـكلات خاصـة فـي تفسـير

---

(27) Pape, Ibid., p. 4.

الإرهـاب الانتحـاري - وسـنتناول هـذه النظريـات بقـدر أكبـر مـن التفصيـل فـي الفصـل القـادم. أمـا رشـتون (Rushton) الذي يأخـذ بنظرية التشـابه الجينـي (Genetic Similarity Theory) والقائلـة بـأن إيثـار الأفـراد لـذوي البنـاء الجينـي المشـابه لبنائهـم إنمـا تطـور للمحافظـة علـى المخـزون الجينـي الخـاص بهـم، ويـرى رشـتون أنـه قـد تطـور لـدى البشـر «وحـدة معرفية/إدراكيـة» للتضحيـة الإيثاريـة بالنفس التي تخـدم مخزونهـم الجيني. ويمكن النظـر إلـى التفجيـر الانتحـاري كاسـتراتيجية لتعزيـز الصلاحيـة الشـاملة للبقـاء [للمشـابهين لهـم جينيًـا] علـى المـدى الطويـل وليس القصيـر»[28]. ولكـن السـؤال الذي يطرح نفسـه هو لـمَ يقـود الدافـع التطـوري لاسـتمرار الذريـة إلى قـرار تدميـر البنـاء الجينـي الخـاص بالفرد (المنتحر) نفسـه؟ ومن حيث إن الغرض الأسـاس لهذه الممارسـة هو إرسـال رسـالة سياسـية للخصـم، فكيـف يسـاعد قتـل الآخريـن علـى نقـل المخـزون الجينـي الخـاص بالفـرد إلـى الأجيـال القادمة؟

وأمـا مارثـا كرنشـو (Martha Crenshaw)، الخبيـرة المعروفـة بقضايـا الإرهـاب، (والتـي تتبنـى منظـور الإنسـان الاقتصـادي لتفسـير الإرهـاب)، فتشـير إلـى أن معظـم السـلوك الإرهابـي يمكـن تفسـيره كأسـتجابة عقليـة، ذرائعيـة للموقـف الـذي يواجهـه الفـرد، تقـوم علـى تحليـل للأربـاح والتكاليـف[29]. ولكـن الإرهـاب الانتحـاري يمثـل تحديًـا قويًـا لمنظور الإنسـان الاقتصـادي أو الخيـار العقلانـي هـذا، فمـا الـذي يجعـل الفـرد العقلانـي الـذي يسـعى لتعظيـم أرباحـه [من وجهـة نظرهم] يختـار تدمير حياته بنفسـه؟ ويتصـدى محمد حافـظ (Mohammed Hafez) لهـذا المنظـور، علـى سـبيل المثـال، فيبيّـن محدوديـة التفسـيرات العقلانيـة لهـذه الظاهـرة[30]. فمـن الناحيـة الأولى يسـتطيع المـرء، كما يفيد محمـد حافظ، أن يجـد أسـبابًا معقولـة تمامًا لاسـتخدام القاعدة، ونمـور التاميل، لهذه الوسـائل فالهجمات الانتحاريـة تمثّـل «قنابـل ذكيـة» غيـر مكلفة نسـبيًا، ولكـن هذه التفسـيرات تصلح لتفسـير «القـرار العقلانـي» للمنظمة الإرهابية لا لتفسـير قـرار الفرد [الذي يقـوم بالعمل الإرهابي].

(28) J. Philippe Ruston, «Ethnic Nationalism, Evolutionary Psychology and Genetic Similarity Theory,» *Nations and Nationalism*, vol. 11, no. 4 (October 2005), p. 501.

(29) Martha Crenshaw, «The Logic of Terrorism: Terrorist Behavior as a Product of Strategic Choice,» in: Reich, ed., *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind*.

(30) Mohammed Hafez, «Dying To Be Martyrs: The Symbolic Dimension of Suicide Terrorism,» in: Pedahzur, ed., *Root Causes of Suicide Terrorism: The Globalization of Martyrdom*, pp. 56-60.

ومـن ناحيـة أخـرى، فـإن هـذا المنظـور لا يبيّـن سـبب قبـول أفـراد معينيـن القيـام بهـذه الأعمـال. والواقـع أن نموذجـات الإنسـان العقلاني الكلاسـيكية تفترض أن الأفراد سـيختارون «السـير فـي ركاب الجماعـة إذا كانـوا سـيجنون الأربـاح ذاتها سـواء قامـوا هـم شـخصيًا بالعمـل أو لـم يقومـوا بـه (فـإذا حققت الجماعـة ربحًـا بالعمـل الإرهابي فإنه سـيصل إلى الفـرد شـيء مـن هـذا الربـح، فلمـاذا يكـون هـو مـن يقـوم بالإرهـاب الانتحـاري؟) وتؤكـد مقاربـة الإنسـان الاقتصـادي أن الأفـراد سـيختارون البديـل الـذي يحقـق القـدر الأكبـر مـن الفائـدة لهـم نسـبة إلـى التكاليـف، ولكن أربـاح المنظمة لـن تكون كافيـة للفـرد، إذ لا بد مـن أن تفـوق الأربـاح الشـخصية للعمليـة الانتحاريـة تكاليـف «الشـهادة» فـي نظـر الفرد.

ولعـل واحـدًا مـن سـبُل الخـروج مـن هـذه الأحجيـة يكـون بافتـراض أن حيـاة الفـرد لـن تنتهـي بموته في حقيقـة الأمـر، وأن هناك أرباحًا سـماوية تفـوق التكاليـف (الدنيوية) فـي نهايـة المطاف. وهذا يصـدق طبعًا، على مـن يحملون هـذه الاعتقـادات، ولكننا نعرف اليـوم أن معظـم الإرهابييـن الانتحارييـن لا يحملونهـا. ومـن ناحيـة أخـرى، يبـدو أن هـذا ينطبـق علـى المتدينيـن الراديكاليين، الأمـر الذي يضع مبـدأ العقلانية برمته موضع تسـاؤل [وهـو المنطلـق الأسـاس لمنظـور الإنسـان الاقتصـادي هـذا]. وإذا كنـا نسـتطيع الاحتفـاظ بالجانـب الذرائعـي مـن العقلانيـة، فـإن ذلـك سيشـمل، علـى نحـو مـا، أي شـيء عقلانـي يعتقـده الفـرد. وعليـه فـإن ذبـح هتلـر لليهـود يمكـن اعتبـاره عمـلًا «عقلانيًـا» بالمعنـى الذرائعـي، لأنـه يخـدم نظـام اعتقـادات هتلـر؛ فبنـاءً علـى طريقته فـي التفكير، فـإن أرباح ذلـك العمـل [أي ذبـح اليهـود] تفوق خسـائره إلـى حد كبيـر. والسـؤال الذي يطرح نفسـه هنـا هـو، كيـف يمكـن لمخلـوق، يُفتـرض أنـه عاقـل، أن يقـوم الأربـاح والخسـائر بهـذه الطريقـة العجيبـة (؟!) سـؤال قـد يكـون المنظـور الوحيـد القـادر علـى إعطـاء إجابـة مـا بشـأنه هـو منظور الإنسـان النفسـاني.

وسـبيل آخـر للخـروج مـن المشـكلة، مـن وجهـة نظـر محمـد حافـظ، يكـون فـي تحويـل الفوائـد التـي تُجنـى لأفـراد العائلـة: إذ إن عائلـة المنتحـر قـد تنـال فوائـد ماليـة ومكانـة اجتماعيـة، إضافـة إلـى مكانـة الفـرد الخاصـة كشـهيد بعـد موتـه؛ هـذه الفوائـد فـي مجملهـا تفـوق التكاليـف، بنـاء علـى [الحسـابات القائمـة علـى هـذا البديـل]. ولكـن هـذا البديـل [وحسـاباته] يهمـل التكاليـف البالغـة التـي قـد تُفـرض علـى عائلـة

الشـهيد بعـد الهجـوم الانتحـاري. ويسـتدرك حافـظ عنـد هـذه النقطـة ويقـول، لكـن دافـع الشـهادة للانتحاريين الإسـلاميين، علـى سـبيل المثـال، يجـب أن يكـون نقيًـا، مـن أي اعتبـارات ماديـة أو اعتبـارات الشـهرة بعـد المـوت، وإلا فإنـه يكـون ببسـاطة مجـرد انتحـار، يُعاقَـب فاعلـه باللعنـة الأبديـة.

ويظـل هنـاك نقد أبلـغ لهذا المنظـور، يعكس وجهة النظـر التي تبنيناهـا على الدوام فـي هـذا الكتـاب، والـذي يتمثل فـي أن الدليـل علـى أن الناس يجـرون حسـابات تفصيلية للأربـاح والخسـائر فـي أي مجـال مـن مجـالات السـلوك السياسـي دليل غيـر قاطـع. ويبدو أن الاحتمـال الأقـوى، كمـا يفيـد حافـظ، هـو أن التفسـيرات الثقافيـة، والرمزيـة، والدينيـة أكثـر جـدوى لفهـم هـذا الشـكل مـن السـلوك، والاحتمـال الآخـر هـو أن الرغبـة فـي إزالة القـوى العسـكرية الأجنبيـة (التـي يشـدد عليهـا بيـب)، بحـد ذاتهـا، هـي الدافـع الحاسـم. وإذا سـلّمنا جـدلًا بـأن النـاس يقومون فعلًا بحسـاب الأربـاح والخسـائر، فإن هـذا الافتراض يثيـر قضيـة أخـرى مهمـة تتعلـق بكيفية وصـول الأفراد إلـى الاعتقـادات [أو القواعـد] التي يبنـون عليهـا حسـاباتهم. وإضافة إلى ذلك، فـإن النظريـات المعرفية، والنظريـات العاطفية، المبنيـة علـى المعرفـة بطرائـق تفكير البشـر [من حيـث إنها تعتمـد على الدراسـة العلمية لهـذه الطرائـق] يمكـن أن تطـرح تفسـيرات أكثـر فائدة، علـى الأرجح.

وإذا قصـرت هاتـان المقاربتان عن تفسـير الإرهـاب الانتحاري، فما الذي يفسـر هذه الظاهـرة؟ علينـا هنـا أن نتجنـب، كمـا هـو الحال فـي موضـوع الإرهـاب عامة، التفسـيرات النزوعيـة المبسـطة التـي تعـزو سـلوك الإرهـاب الانتحـاري إلـى السـيكوباثية أو غيـر ذلـك مـن السـمات الشـخصية. ولعـل الإطـار الذي طـوره أسّـاف مغادام يمثـل أفضـل المنظورات وأكثرهـا شـمولًا، لفهـم الإرهـاب حتى هـذا التاريـخ[31]. ويؤكـد مغـادام أن تفسـير الإرهاب الانتحاري تفسـيرًا وافيًا، يتطلب المقاربة سـببية متعددة المسـتويات (a multi-causal approach)، مـن حيـث إن أي هجـوم انتحـاري يكون نتيجة لثلاث مسـتويات مـن المتغيرات: المسـتوى الفردي، ومسـتوى المنظمة، ومسـتوى البيئة[32].

---

(31) Moghadam, «The Roots of Suicide Terrorism: A Multi-Causal Approach».

(32) المصدر نفسه، ص 83.

أما المستوى **الأول** فيمثل العوامل النزوعية، وأما المستوى الثاني فيمثل العوامل الموقفية، وأما المستوى الثالث فيمثل القوى الموقفية الأبعد: الاجتماعية - الثقافية، والاقتصادية، والسياسية. وبدءًا بالمستوى الفردي، يرى مغادام أن معظم المفجرين الانتحاريين يحملون عددًا من الدوافع لسلوكهم الإرهابي، على الأرجح. وبينما شدد بعض المعلقين على سيكوباثية المفجرين الانتحاريين - في مقاربة مشابهة لتلك التي بدأنا بها هذا الفصل، حيث يرى فاميك فولكان، على سبيل المثال، أن التعرض للإهانة في الحياة المبكرة يؤدي إلى نشوء شخصيات مضطربة[33]. ويقف مغادام إلى جانب الإجماع الأكثر قبولًا في أدب الموضوع ويقول إن المفجرين الانتحاريين يكونون مدفوعين بانفعال الانتقام (بعد فقدان أحباء لهم أو بدافع النقمة على الظلم الاجتماعي) وهو ما ينطبق على المفجّرين الانتحاريين من الشيشان والفلسطينيين، بوجه خاص. أما في الحالات الدينية، فيكون الدافع إلى نيل الثواب في الحياة الآخرة أمرًا مهمًا، لكن ليس في الحالات العلمانية والتي بيّن بيب أنها الأكثر شيوعًا. وفي كثير من الأحيان، يكون الإحساس بالواجب عاملًا محركًا؛ حيث يفيد حافظ أن التفجير الانتحاري قد ينجم عن «إحساس بالواجب تجاه القيم الخاصة للفرد، أو تجاه العائلة، أو الأصدقاء، أو المجتمع، أو الدين، وقد يُنظر إلى التقاعس عن الفعل كخيانة للمثل العليا، أو الأحبة، أو البلاد، أو خيانة لله، أو لقيمة الرجولة»[34].

ومثل هذه الدوافع والإدراكات من لا بد أن تأتي من مكان ما، ويبدو واضحًا أنها في حالة التفجير الانتحاري تأتي من الظروف الموقفية الأوسع. ووفقًا لمغادام، «نادرًا ما يقوم فرد بعمل إرهابي على عاتقه، وإنما يتم القيام بالعمل الإرهابي من أفراد ينتمون إلى منظمات، أو جماعات، أو خلايا تابعة لشبكة أوسع»[35]. فالمفجر الانتحاري يحتاج إلى خبرة تقنية، ومساعدة مالية، ودعم اجتماعي، ومساعدة في التخطيط، وما إلى ذلك. ويحتل المستوى التنظيمي المباشر أهمية كذلك، لأن دوافع المنظمة ودوافع الفرد قد تختلف،

---

(33) Vamik D. Volkan, «September 11 and Societal Aggression,» *Group Analysis*, vol. 35 (2002), pp. 456-483.

(34) Mohammed H. Hafez, *Manufacturing Human Bombs: The Making of Palestinian Suicide Bombers* (Washington DC: United States Institute of Peace, 2005).

(35) Moghadam, «The Roots of Suicide Terrorism: A Multi-Causal Approach,» p. 93.

كما رأينا حتى الآن، وهي تختلف فعلًا. فقد تشعر المنظمات، وقادتها بأن الوسائل الانتحارية غير مكلفة، أو أنهم قد يتبنونها لأن غيرها قد فشل، أو لأنها تعزز قوة المنظمة وتزيد حضورها، أو لأن الهجمات الانتحارية تلقى اهتمامًا إعلاميًا على مستوى وسائل الإعلام العالمية مثل الـ سي إن إن (CNN)، فتجتذب قضية الجماعة اهتمام العالم، ولعل هذا هو السبب الأهم[36].

وأخيرًا، يأتي المستوى البيئي الذي يُهيِّىء الشروط المولدة للإرهاب، بما في ذلك النوع الانتحاري منه (انظر القائمة التي وضعها تور بيورغو والواردة في أعلاه للتعرف إلى مدى تنوع هذه العوامل). ويفيد مغادام أن تأثير القوى التاريخية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية المحيطة يتباين بتباين الموقف، ولكن هناك ميل إلى المبالغة في تأثير العوامل الاقتصادية، كما أشرنا. كذلك فإن تأثير الإطار السياسي قد يختلف من حالة إلى أخرى؛ فلم تُخرج الدول الفقيرة جميعها فيالق من الإرهابيين، و«ليس كل المجتمعات التي خضعت للاحتلال أنتجت مفجرين انتحاريين، وإلا فإن علينا أن نضيف التيبيتيين، والكوزوفيين، والكمبوديين وغيرها من الجماعات المحتلّة أو التي احتلت حديثًا إلى قائمة المفجرين الانتحاريين»[37]. وبالمقابل، هناك عوامل ثقافية ودينية قد تمنع التفجير الانتحاري، الأمر الذي لم يلقَ الاهتمام الكافي من معظم المعلقين. فالرهبان البوذيين في جنوب فيتنام أشتهروا بالاحتجاج على حكم نو دنه ديام القمعي بحرق أنفسهم حتى الموت، وهو احتجاج رمزي يتجنب فاعله - عن قصد - تعريض الآخرين للموت. ومع ذلك، فإنه من الواضح في كثير من الحالات أن الإطار الديني والسياسي يؤدي بشكل مباشر إلى ظهور الصراع الاجتماعي، والذي يؤدي بدوره إلى الإرهاب الانتحاري، كما هو الحال في الضفة الغربية والشيشان. ويفيد مغادام، أن العامل المشترك بين جميع المناطق والأمم التي يُمارس فيها التفجير الانتحاري يتمثل في وجود «ثقافة الشهادة»، والتي تشير إلى «منظومة من الأعراف الاجتماعية تسمح أو تشجع قتل الإنسان لنفسه كعمل نبيل، أو شجاع، أو بطولي على نحو ما». غير أن

---

(36) «The Roots of Suicide Terrorism: A Multi-Causal Approach,» pp. 93-96.

(37) المصدر نفسه، ص 97.

القـوى الموقفيـة، كمـا هـو حـال القـوى النزوعيـة، لا تسـتطيع تفسـير الإرهـاب الانتحـاري وحدهـا، وتتمثـل مسـاهمة مغـادام العظيمة هذه فـي تأكيـده أن الإرهاب الانتحـاري ينتج مـن تفاعـل هذيـن النوعين مـن القوى.

خاتمة

هنـاك إجمـاع عـام الآن علـى أن الإرهابيين - حتى أولئـك الذين يقتلون أنفسـهم من أجـل قضيتهـم - هـم أفـراد أسـوياء وليسـوا نفسـيًا سـيكوباثيين[38]. إضافـة إلى ذلـك، أدت سـيطرة المقاربـات التابعـة للتحليل النفسـي على دراسـة الإرهاب إلى ظهور دراسـات كأنها تنتمـي إلـى عصـر آخر مـن عصـور العلـوم الاجتماعية، لأنهـا تركز علـى «شـذوذ» الإرهابي، مـن جهـة، ولأنهـا تعانـي قصـورًا علـى الصعيديـن المنهجـي، والنظـري مـن جهة أخـرى[39]. وكمـا يفيـد سـيلك (Silke) «كل مـا يسـتطيع علمـاء النفـس قولـه بثقة بعـد ثلاثين سـنة من البحـث فـي الإرهـاب هـو أن أبـرز خصائـص الإرهابييـن أنهـم أسـوياء»[40]. ولكـن الخطـوة المنطقيـة اللاحقـة، تتمثـل فـي تطبيـق النموذجات المسـتخدمة سـابقًا لفهم سـلوك الأفراد الأسـوياء علـى السـلوك الإرهابـي لكـي يتسـنى لنا فهـم هذا السـلوك فهمًـا أفضـل، وهو ما لـم يجـر الأخذ بـه حتى الآن فـي أدب الموضوع. وكما تفيـد مارثا كرنشـو (Martha Crenshaw)، «إن اسـتخدام علـم النفـس المعرفي والأطـر النظريـة المفسّـرة لمعالجة المعلومـات يمكن أن تزودنـا اسـتبصارات غنيـة فـي السـلوك السياسـي، بمـا فـي ذلـك سـلوك الإرهـاب»[41]. وبعبـارة أخرى، لا يزال المجال واسـعًا أمامنا لتطبيق اسـتبصارات مقاربة الإنسـان النفسـاني في دراسـة سـيكولوجية الإرهاب.

(38) Martha Crenshaw, «The Causes of Terrorism,» *Comparative Politics*, vol. 13, no. 4 (July 1981), pp. 379-399, and Silke, «Becoming a Terrorist».

(39) حول هذه النقطة، انظر: Maxwell Taylor, *The Terrorist* (New York: Brasseys, 1988), p. 140.

(40) Andrew Silke, «An Introduction to Terrorism Research,» in: Andrew Silke, ed., *Research on Terrorism: Trends, Achievements and Failures* (London: Frank Cass, 2004), p. 1.

(41) Martha Crenshaw, «Questions to be Answered, Research to be Done, Knowledge to be Applied,» in: Reich, ed., *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind*, p. 259.

لمحاولة القيام بذلك في حالة احتجاز الرهائن، انظر: David Patrick Houghton, «Explaining the Origins of the Iran Hostage Crisis: A Cognitive Perspective,» *Terrorism and Political Violence*, vol. 18, no. 2 (2006), pp. 259-279.

16

علم نفس العلاقات الدولية

لعلنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن إهمال العوامل السيكولوجية في دراسة العلاقات الدولية قد أعاق هذه الدراسة. ووفقًا لجيمس غولدغييه (James Goldgeier):

إن واحدًا من المعيقات الرئيسية التي تعيق ميدان العلاقات الدولية والسياسة الخارجية من تطوير التفسيرات والتنبؤات، يتمثل في تقاعس كثير من الأكاديميين في هذا الميدان عن النظر بجدية إلى الدور الذي تلعبه العوامل النفسية في صنع القرارات الفردية، وفي العلاقات بين الدول. ويُعطي البحث في هذين المجالين الدليل على وجود تحيزات ممنهجة، وشائعة تعود إلى محددات معرفية وحاجات انفعالية لدى متخذي القرارات. وستظل الألغاز الكبرى من دون حل إذا لم نقم بدمج الاستبصارات النفسية في الأطر التحليلية التي نستخدمها لحل هذه الألغاز[1].

وتمثّل دراسة الجوانب النفسية للعلاقات الدولية جزءًا مكملًا لدراسة هذا الموضوع لأسباب عدة ليس أقلها أن التفسيرات الموقفية للعلاقات الدولية تظل محدودة[2]. وليس صحيحًا، في الوقت ذاته، أن حقل العلاقات الدولية قد

(1) James Goldgeier, «Psychology and Security,» *Security Studies*, vol. 6, no. 4 (1997), pp. 137-166.

(2) Ole R. Holsti, «The Political Psychology of International Politics: More than A Luxury,» *Political Psychology*, vol. 10, no. 3 (September 1989), pp. 495-500.

المصطلح الأكثر شيوعًا في مجال العلاقات الدولية هو «البنيوي» وليس «الموقفي»، ولكنهما يشيران إلى الظاهرة ذاتها، على الرغم من أن الموقفية تشمل أكثر من البنية الخاصة بالنظام الدولي.

أهمـل علـم النفـس إهمـالًا تامًـا. فقـد رأينـا حتـى الآن (تحـت عناويـن مختلفـة، وفـي فصـول مختلفـة) بعـض البحـوث التـي أجريـت عـن سـيكولوجية صنـع القـرارات فـي السياسـة الخارجيـة، بمـا فيهـا البحـوث المتعلقـة بنظـم الاعتقـاد، وقيـاس التمثيـل/ المماثلـة (Analogical Reasoning) [لـدى صنّـاع القـرار فـي السياسـة الخارجيـة]. وسـنتناول فـي هـذا الفصـل بشـيء مـن التفصيـل، بعـض الأعمـال الكلاسـيكية التـي أُجريـت فـي حقـل العلاقـات الدوليـة مـن زاويـة سـيكولوجية، بمـا فـي ذلـك أعمـال روبـرت جيرفيـز (Robert Jervis) وريتشـارد نـد ليبـو (Richard Ned Lebow). كمـا سـننظر فـي مجموعـة ممثلـة لأكثـر البحـوث ابتكاريـة فـي مجـال علـم نفـس العلاقـات الدوليـة، قـام بهـا ثلاثـة مـن الباحثيـن الشـباب، ممـن يحظـون بتقديـر متزايـد فـي هـذا المجـال، هـم: جـاك هايمانـز (Jacques Hymans) وروز مكديرمـوت (Rose McDermott) وجوناثـان ميرسـر (Johnathan Mercer)، ثـم نختتـم هـذا الفصـل بإلقـاء نظـرة إلـى بحـوث رالـف وايـت (Ralf White) فـي التعاطـف (Empathy) التـي تنطـوي علـى تصحيـح فقيـر لمـا وصفنـاه فـي الفصـل التاسـع علـى أنـه الخطـأ الأسـاس فـي العـزو (the fundamental attribution error).

وتقـوم إسـهامات ميرسـر ومكديرمـوت، بوجـه خـاص، علـى نظريـة العـزو (Attribution Theory) التـي سـتزودنا كذلـك سـندًا مفيـدًا لهـذا الفصل لأسـباب عدة - ليـس أقلهـا أنها تركز علـى العوامـل الموقفيـة والعوامـل النزوعيـة علـى حـد سـواء - وسـيتبين لنـا أن الدارسـين للعلاقـات الدولية مـن الأكاديميين قد بالغوا في الاعتماد على الموقفية في تفسـير السـلوك، فـي حيـن أن العاملين فـي السياسـة، أو صنّاع القـرار، بالغوا فـي التقليل من شـأنها. وبعبارة أخـرى، بينمـا اتجـه معظـم منظـرو العلاقـات الدوليـة إلى إهمـال النزعـات النفسـية للاعبين السياسـيين - لأنهـم عدّوا مثـل هذه التفسـيرات في العادة [أي التفسـيرات التـي تدور حول النزعات النفسـية] تفسـيرات مشوشـة، أو لأنها قد تسـلب نموذجهم النظرية قيمتها التنبؤية - أو لهذيـن السـببين معًـا، وبالمقابـل اتجـه معظم صنّاع السياسـات، إلى التقليـل من أهمية

المواقف على سلوك الخصم، وكيف أنها قد ترغمه على القيام بأفعال أو التعبير عن آراء، لا تعكس حقيقة نزعاته، أو قِيَمِه، أو تفضيلاته.

الموقفية ونظرية العلاقات الدولية

يعتمد العديد من النظريات القائمة في مجال العلاقات الدولية [منهج] التحليل على مستوى النظام (the systemic level of analysis). وفي حين أن المجال لا يتسع هنا لتقديم عرض شامل لتلك النظريات - من حيث إن ذلك العرض قد يأخذ، وهو قد أخذ فعلًا، مساحة كتاب قائم بذاته[3] - إلا أننا نستطيع القول بكل تأكيد أن نظريات الواقعية الحديثة، (neorealism)، والليبرالية الحديثة (neoliberalism)، والنظم العالمية (world systems)، والاعتمادية (dependency theory)، وصيغة ألكسندر وندت (Alexander Wendt) من البنائية (constructivism)، تعمل جميعها على مستوى النظام هذا. وتمثل نظريات العلاقات الدولية هذه جميعها صيغًا متشددة من صيغ المقاربة الموقفية - وينطبق هذا بوجه خاص على الواقعية الحديثة التي أنشأها كينيث والتز (Kenneth Waltz). وسنستخدم الواقعية الحديثة هنا كمثال، لأنها تمثل ما يمكن تسميته الموقفية المفرطة (hyper-situationism)، في العديد من النواحي، على الرغم من أن كثيرًا من النقاط التي سترد بشأنها تنطبق كذلك على النظريات الأخرى المذكورة في أعلاه. كما أن وصف ما تتضمنه الواقعية الحديثة سيجعل ما نعنيه بمقاربة مستوى النظام (systemic level) في السياسة الدولية أكثر وضوحًا.

ويؤكد الواقعيون المحدثون أن الخصائص الخاصة للدولة - بما في ذلك خصائص قادتها، ووضعها السياسي الداخلي - وما إذا كانت ديمقراطية أو دكتاتورية - ليس لها أثر يذكر في تحديد ما يجري على صعيد سياستها الدولية، لأن «الموقف يحدد كل شيء»، أي وضعها الدولي[4]. والمحدّد الرئيس لسلوك

---

(3) للمزيد، انظر: Scott Burchill [et al.], *Theories of International Relations*, 2nd ed. (New York: Palgrave Macmillan, 2001), and Paul Viotti and Mark Kauppi, *International Relations Theory: Realism, Pluralism, Globahsm, and Beyond*, 3rd ed. (New York: Prentice Hall, 1998).

(4) Kenneth Waltz, *Theory of International Politics* (Reading, MA: Addison Wesley, 1979).

للمقارنة بين منظور الواقعية المحدثة والمنظور السيكولوجي للعلاقات الدولية، انظر: Brian Ripley, «Psychology, Foreign Policy, and International Relations Theory,» *Political Psychology*, vol. 14, no. 3 (September 1993), pp. 403-416.

الدولـة فـي النظـام الدولي هـو موقعها داخل هـذا النظام. وتخلـص الواقعيـة الحديثة، على سـبيل المثـال، إلـى أن جميـع القوى العظمـى متشـابهة، من حيث أنهـا تميل إلى السـلوك بالطريقـة ذاتهـا، كمـا تفعـل الـدول المتوسـطة القوة والـدول ذات القـوة الضعيفـة (middle-range and weak powers). ومـع أن هـذا الـرأي لا يبدو راديكاليًا إلى حد بعيـد، إلا أنه قد يحمل منطويـات راديكاليـة عندمـا تفكـر فيه. فإذا نظرنـا إلى الفكـرة القائلة بأن «القـوى العظمى هـي القـوى العظمـى»، فـإن ذلـك يعنـي أن الحـرب البـاردة كان لا بـد مـن أن تقـع حتـى لـو كانـت القوتـان العظميان بعـد الجـرب العالمية الثانيـة هما الولايـات المتحدة وفرنسـا، أو الولايـات المتحـدة وكنـدا. فبنـاء علـى وجهة نظـر الواقعييـن المحدثين، تكون المنافسـة الشـديدة بيـن القوتيـن العظمييـن متوقعـة حتـى لـو لـم يكـن التنافـس الأيديولوجـي بيـن الولايـات المتحـدة والاتحاد السـوفياتي قائمًا، لأن السياسـة الدولية لا تتعلـق بالأفكار، وإنما هـي كفـاح من أجـل الأمـن القومـي للدولة قبل كل شـيء.

ومـا يفسـر مجريـات السياسـة الدوليـة، مـن وجهـة نظـر الواقعييـن المحدثيـن، ليس البنيـة المحليـة للـدول أو الخصائـص النفسـية للأفـراد الذيـن يقودونهـا (لأن «الدولـة هـي الدولـة» كمـا يرونهـا، والـدول جميعهـا تحمـل أهدافًا متشـابهة)، وإنمـا عدد القـوى الكائنة فـي النظـام الدولـي. ويميـز الواقعيـون المحدثون بوجه خـاص بين النظـم الثنائيـة القطبية (a bipolar system) والنظـم المتعـددة القطبيـة (multipolar system)، أي بيـن نظم يكون فيها قوتان مسـيطرتان ونظـم يكـون فيها أكثر مـن قوتين (أو ثـلاث أو أربع أو خمس قـوى مثلًا) ذات نفـوذ. ويـرى أنصـار هـذه النظريـة، مـن مثـل جـون ميرشـايمر (John Mearsheimer)، أن النظام المتعـدد القطبيـة خطيـر ويُهيِّـئ لإنتـاج صـراع بيـن الـدول، فـي حيـن أن النظـام الثنائـي القطبيـة أكثـر اسـتقرارًا، واحتمـال نشـوب الحـرب فـي ظلـه أقل جـدًا. ولهـذا السـبب، تنبأ ميرشـايمر (Mearsheimer) فـي التسـعينيات أننـا قـد «نفقتد الحرب البـاردة قريبًـا»، حيث رأى أن وجـود قوتـان عظميـان فـي النظـام العالمـي فـي خـلال تلـك الحقبـة قـاد إلى اسـتقرار دولي[5].

(5) John J. Mearsheimer, «Back To The Future: Instability in Europe after the Cold War,» *International Security*, vol. 15, no. 1 (Summer 1990), pp. 5-56.

للاطلاع على صيغة أقصر وأكثر مقروئية، انظر: John Mearsheimer, «Why We Will Soon Miss the Cold War,» *Atlantic Monthly*, vol. 266, no. 2 (1990), pp. 35-50.

وقـد يجـد القـارئ أن نظرية والتـز هـذه [أي الواقعية الحديثـة] نظرية مقنعـة، وربما لا يجدهـا كذلـك، ولكـن النقطـة التـي نرغـب الإلتفات إليهـا هـي أن نظرية والتـز - وغيرها مـن النظريـات التـي تبحث فـي السياسـة الدوليـة على هـذا المسـتوى الموقفـي الغامض - لا تُبيـن كيـف يتسـنى للـدول معرفـة الأدوار التـي يُفتـرض أن تقوم بها فـي النظـام الدولي. وبالرجـوع إلـى نظرية سـتانلي ملغـرام في الطاعة نجد أنهـا توضح على وجـه التحديد لماذا يذعـن النـاس للضغـوط المحيطيـة، ولكـن والتـز - وفقًـا لمـا ذهـب إليـه العديـد مـن نقـاد هـذه النظريـة - لا يقـدم توضيحًـا مناظرًا للأسـباب التي تدعو الـدول للإذعان لـ «الإشـارات» الصـادرة عـن النظـام الدولـي، وبـأي وسـائل. وتشـترك نظريـات النظام فـي السياسـة الدولية [نظريـة والتـز ومثيلاتها] فـي أنها تسـتحضر صيغة ما من مقاربة الإنسـان الاقتصـادي (Homo economicus) - فتـرى أن الدولـة تـدرك العالم من حولهـا إدراكًا عقلانيًا، صحيحًـا، وتميز وضعها كدولـة متوسـطة القـوة مثـلًا، وأن عليهـا ألّا تتصـرف كقـوة عظمـى. ولكـن والتـز ينكـر أنـه يضـع مثـل هـذه الافتراضـات، ويؤكد أن الـدول التـي لا تميز «دورها المناسـب» فـي الحياة تتراجـع أو تمـوت (وهـذه الحجة تجلـب الداروينيـة (Darwinism) وعلـم النفس التطـوري إلى الذهـن، بطبيعـة الحـال). ويؤكـد والتـز ضـرورة ملاحظـة «أن النظريـة لا تفتـرض العقلانيـة أو ثبـات الإرادة لـدى مـؤدي الأدوار السياسـية؛ فهـي لا تقـول سـوى إن بعضهـم يبلـون بلاء حسـنًا، وبعضهـم الآخـر يقتفـون أثرهـم أو يسـقطون علـى قارعـة الطريـق»[6]. أمـا نظريات «مسـتوى النظـام» الأخـرى فإنها أكثـر ميلًا إلـى الافتـراض أن الدولة تعمل كلاعب (سياسـي) عقلانـي (أمـا الليبراليـة المحدثـة التـي يتبناها روبـرت كيوهايـن (Robert Keohane)، على سـبيل المثـال، فإنهـا تأخـذ بافتـراض العقلانيـة صراحـة). غيـر أن مقاربـة الاختيـار الحر هـذا تقبل فكـرة أن الدولـة وقادتهـا يمكـن أن يسـيئوا إدراك طبيعـة الموقف الـذي يواجهونـه، كما أن والتـز فـي حجتـه التطوريـة السـابقة الذكر يفتـرض، ضمنيًـا، أن الـدول قد تخطئ فـي إدراك الموقـف المحيـط بهـا. ولكننـا مـا أن نسـلّم بهـذه النقطـة حتـى نجـد أنفسـنا نعـود إلـى المربـع الأول، ذلـك لأننـا نُتـرك ونحـن نتسـاءل: مـا العوامـل النفسـية التـي تـؤدي بالـدول وقادتهـا إلـى إسـاءة إدراك الموقف الـذي يُواجهونه؟

(6) Waltz, *Theory of International Politics*, p. 118, and Robert Keohane, ed., *Neorealism and its Critics* (New York: Columbia University Press, 1986).

ويشير مارتن هوليز وستيف سميث (Martin Hollis and Steve Smith) إلى أن الموقفية في العلاقات الدولية تأخذ أشكالًا متنوعة[7]، فكل ما هو فوق مستوى النزعات الفردية يكون موقفيًا. ويمكننا النظر إلى هذه الأنواع المختلفة من الموقفية كشيء مشابه لدمية روسية، يؤدي فتح جزء منها إلى جزء أصغر وهكذا... وبالمثل، عندما نفتح النظام الدولي نجد دولًا، وعندما نفتح الدولة نجد بيروقراطيات، وعندما نفتح البيروقراطيات نجد جماعات، فهذا الخط ينقلنا من مستوى موقفي إلى مستوى موقفي آخر. ولكننا حين نأخذ الجماعات بعين الاعتبار نصل عند ذلك إلى مستوى الأفراد والنزعات. وعندما ننتقل عبر سلّم التحليل من النظام الدولي إلى الأسفل نصل إلى أشكال أقل عمومية من المواقف التي تؤثر في السلوك؛ حيث نجد نظريات موقفية تركز على البيئة الاجتماعية، ونظريات تتعامل بشكل أكثر مباشرة مع المعيقات التنظيمية والبيروقراطية التي تؤثر في السلوك في السياسة الخارجية. وضمن الصنف الأخير من النظريات، كان لأعمال غراهام أليسون (Graham Allison) تأثيرًا مميزًا، وخصوصًا كتابة الكلاسيكي الذي ألّفه مع فيليب زيليكوف بعنوان **جوهر القرار**[8] (Essence of Decision). وفي معرض الحديث عن المستويات المختلفة للموقفية، لا بد من الاشارة إلى أن ضغوط الجماعة تُمثل مستوى موقفيًا آخر.

وعلى غرار والتز (Waltz)، يفسر أليسون سلوك القادة تفسيرًا موقفيًا متجاوزًا أي اعتبار سيكولوجي، ولكن التشابه بينهما ينتهي عند هذه النقطة. ويعتمد أليسون وزميله زيليكوف (Zelikow) تفسيرًا بيروقراطيًا للسياسة الدولية - يشار إليه غالبًا في أدب الموضوع بنظرية السياسة البيروقراطية (bureaucratic politics theory) - حيث ينظر أليسون وزميله إلى سلوك صنّاع القرار على أنه يتحدد في الغالب (وليس حصريًا) بالمواقع المعينة لهم داخل البيروقراطية. وتُعتبر مقولة «إن موقفك يعتمد على موقعك» - والتي تُنسب إلى رافوس مايلز ودون برايس (Rufus Miles and Don Price) - مقولة معبرة تمامًا عن وجهة النظر هذه. وبناء

(7) Martin Hollis and Steve Smith, *Explaining and Understanding International Relations* (New York: Oxford University Press, 1990).

(8) Graham Allison and Philip Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Missile Crisis*, 2nd ed. (New York: Longman, 1999).

علـى ذلـك، فـإن وجهـات نظر أولئـك الذيـن يحتلـون مواقـع بيروقراطيـة، تصطبـغ إلى حد بعيـد برؤيـة الكيانـات البيروقراطيـة التي يعملـون فيها ورسـالتها. فـوزراء الخارجية يدفعون باتجـاه المفاوضـات والدبلوماسـية، مثـلًا، لأن هـذه هـي مهمـة وزارة الخارجيـة؛ أمـا وزراء الدفـاع فيدفعـون باتجـاه الحلـول العسـكرية التقليديـة، وفـي الوقت ذاتـه يدعـو ممثلو الـ سـي آي إي (CIA) إلـى القيـام بعمليات سـرية.

غيـر أن هـذا الجانـب مـن نمـوذج أليسـون وزيليكـوف لـم يحـظ بأدلـة داعمـة فـي السـنوات الأخيـرة، لأنـه يُهمل قـوة الاعتقادات القائمـة لدى الأفـراد الذين يحتلـون المواقع البيروقراطيـة المختلفـة، والشـخصيات والقيـم الأخـرى التـي يمتلكونهـا[9]. فعندمـا كان كولـن بـاول رئيسًـا لهيئـة الأركان أثنـاء حـرب الخليـج الأولـى، كان آخـر المتمسـكين بالرأي المعـارض للتدخـل الأميركـي، بينمـا دافع ديـن راسـك بحماس عـن تصعيد التدخـل الأميركي فـي فيتنـام؛ وفـي كلتـا الحالتيـن كان الموقـف الفلسـفي (المعلـن) يتعـارض إلى حـد كبير مـع أدوارهمـا البيروقراطيـة (حيـث كان كولـن بـاول وزيـر دفـاع، وكان ديـن راسـك وزيـر خارجيـة). ويفيـد كثيـر من النقـاد أن الموقع البيروقراطـي أو «الموقف» أقـل دقة، كمتنبئ بـالآراء المتصلـة بالسياسـة الخارجيـة، مـن نزعـات القـادة الشـخصية. ولكـن تنبـؤات هـذه المقاربـة تصـدق أحيانًـا - فعلـى الرغـم مـن أن كولـن بـاول كان يعـارض غـزو العـراق عام 2003، ويؤكـد ضـرورة الاسـتمرار بالنهـج الدبلوماسـي (إلا أنه بـدى داعمًا لقـرار الحرب في مـا بعـد، مما يعطـي دليلاً على صـدق النظريـة) - لكن ما يبـدو دعمًا لقـدرة النظرية على «تفسـير» السـلوك قـد يأتـي من قبيـل المصادفـة (أو ضغوط الواقـع). وما يمكـن أن نقوله بشـأن كولـن بـاول هـو أنه ظـل متحفظًا بشـدة على قـرار الحرب بغـض النظر عـن الموقع البيروقراطـي الـذي كان يحتله.

الأخطاء الإدراكية، الحارة والباردة

هنــاك عــدد مــن الأعمــال الكلاســيكية التــي تتنافــس، فــي تقديــر بريــان ربلــي (Brian Ripley)، علــى موقــع الريــادة فــي مجــال الدراســة النفســية للسياســة الدوليــة

(9) للمزيد، انظر: David Patrick Houghton, «Essence of Excision: A Critique of the New Version of Essence of Decision,» *Security Studies*, vol. 10, no. 1 (2000), pp. 162-191.

والسياسة الخارجية[10]. ويُعتبر كتاب **صناعة القرار في السياسة الخارجية** (*Foreign Policy Decision making*) لمؤلفيه سنايدر وبراك وسابن (Snyder, Bruck, and Sapin) المحاولة الأولى لتطبيق استبصارات علم النفس على العلاقات الدولية، وكانوا أول من قال بفكرة أن الأفراد يؤدون دورًا مهمًا في تكوّين القرارات المتعلقة بالسياسة الخارجية[11]. وبعد بضعة سنوات ظهر عمل كلاسيكي آخر لجوزيف دو ريفيرا (Joseph de Rivera) بعنوان **الأبعاد السيكولوجية للسياسة الخارجية** (*The Psychological Dimensions of Foreign Policy*)، طبق فيه المؤلف بعض استبصارات علم النفس الاجتماعي على تحليل السياسة الخارجية[12]. وعلى الرغم من كل ما تستحقه هذه الجهود المبكرة من اعتبار، فإن الباحث الذي بذل أكبر جهد لإقناع المتخصصين في العلاقات الدولية بأهمية الأخذ باستبصارات علم النفس في بحوثهم كان روبرت جيرفيز.

ففي كتابه الرائد **الإدراك وسوء الإدراك في السياسة الدولية** (*Perception and Misperception in International Politics*) - الذي نُشر بدايةً في منتصف السبعينيات - دفع روبرت جيرفيز علم النفس إلى موقع الصدارة في مجال العلاقات الدولية. وأستند أساسًا إلى نظرية التناسق المعرفي (cognitive consistence theory) ليسلط الضوء على دور القادة وخصائصهم في هذا المجال. وبدأ بحجة قوية مؤكدًا أن المنطلقات الموقفية لا تكفي لتفسير القرارات التي يصل إليها القادة - ولتفسير مجريات السياسة الدولية تبعًا لذلك - ومحللًا طرائق التفكير التي تؤدي بالقادة إلى سوء تفسير الإشارات التي يتعمّد القادة الآخرون إرسالها، والطرائق التي تعمل بها نزعات القادة على التأثير في عمليات صنع القرار لديهم.

لقد رأينا في ما سبق أن البشر يميلون إلى تفسير الأدلة على نحو ينسجم مع اعتقاداتهم القائمة، وإلى إهمال المعلومات التي لا تنسجم مع تلك الاعتقادات. ويطبق جيرفيز هذه الأفكار في مجال السياسة قائلًا:

---

(10) Ripley, «Psychology, Foreign Policy, and International Relations Theory,» p. 405.

(11) Richard Snyder, H. W. Bruck and Burton Sapin, eds., *Foreign Policy Decision - Making: An Approach to the Study of International Politics* (New York: Free Press, 1962).

(12) Joseph de Rivera, *The Psychological Dimension of Foreign Policy* (Columbus, OH: Charles Merrill, 1968).

هـذا لا يعنـي أن رجـل الدولـة الـذي رسـم فـي ذهنـه صـورة معينـة لدولـة أخـرى سـيحتفظ بنظرتـه تلك عنـد مواجهة قدر كبير مـن المعلومات المخالفة لها، فحسـب؛ ولكـن مـا يحملـه فـي ذهنـه مـن توقعـات وقوانيـن عامـة عـن الصلات بيـن أوضـاع الـدول وخصائصهـا مـن جهـة، ومقاصـد سياسـتها الخارجيـة مـن جهـة أخرى، [سـتؤثر تلـك التوقعـات والقوانيـن العامـة] علـى الصـور التـي تُرسـم لديه عـن الـدول الأخرى [وعلـى تفسـيره لسـلوك تلـك الـدول]. لـذا، فـإن الساسـة الغربييـن سيسـارعون إلـى رؤيـة دولـة أخـرى على أنهـا عدوانيـة إذا آلـت مقاليـد الحكم فيهـا إلى دكتاتـور مما لو كانـت ديمقراطيـة مسـتقرة[13].

ويعطـي جيرفيـز عـددًا كبيرًا من الأمثلـة على تأثير الاعتقادات المسـبقة علـى إدراكنا للآخريـن، ومـا يقومـون بـه مـن أفعـال. ويفيـد أن توقعاتنـا المسـبقة تؤثـر تأثيـرًا حاسـمًا فـي مـا «نـراه». مثـال ذلـك حادثـة قصـف البريطانييـن لإحـدى سـفنهم الحربية (السـفينة شـيفيلد) خطـأ فـي خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة[14]. والسـبب فـي ذلـك يعود إلـى أنهم كانـوا يتوقعـون مواجهـة السـفينة الألمانيـة «بسـمارك»، والتـي كانـوا فـي الواقـع يبحثـون عنهـا. والمثيـر للأسـى، أن السـفينتين لم تكونـا متشـابهتين، وكان فريق الطياريـن على ألفة بالسـفينة البريطانيـة، ولكـن التوقـع كان من القوة بحيث إنـه أدّى إلى خطـأ إدراكي كارثي (وتقـف هـذه الظاهـرة السـيكولوجية مـن دون شـك وراء العديـد مـن أحـداث «النيـران الصديقـة» التـي شـهدناها فـي خـلال حـرب الخليـج الأولـى، وفـي غـزو الولايـات المتحـدة للعـراق). كذلـك فـإن جيرفيـز يسـلط الضـوء علـى التفكيـر المبنـي علـى المماثلـة/قيـاس المماثلـة (Analogical Reasoning) وأهميتـه فـي اسـتخلاص الـدروس مـن الأحـداث السياسـية؛ كمؤتمـر ميونيـخ عـام 1938 الـذي جرى فيـه اسـترضاء هتلر قبـل الحـرب العالميـة الثانية، ويفيـد جيرفيـز بهـذا الخصـوص أن «الشـيء الوحيـد الـذي لـه مـن الأهميـة لأمـة مـا بقدر مـا لثورتهـا مـن أهميـة، هـو الحـرب الكبـرى الأخيـرة التـي شـهدتها تلـك الأمـة» [ذلك لأن تشـدد هتلـر - وخطأ اسـترضائه - يُردّ إلى الشـروط القاسـية التي وضعت علـى ألمانيا بعد الحـرب العالمية الأولـى][15].

---

(13) Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976), p. 146.

(14) المصدر نفسه، ص 92.

(15) المصدر نفسه، ص 266.

وهنـاك دراسـة أخـرى نُشـرت بعـد بضع سـنوات مـن كتـاب جيرفيـز الرائد هـذا، قام بهـا ريتشـارد ند ليبـو تحت عنوان **بين السـلام والحـرب**[16]. ويلفـت ليبو النظر في دراسـته هـذه إلـى أن العوامـل الدافعيـة والانفعاليـة «الحارة» تـؤدي دورًا كبيـرًا في توليـد الأخطاء الإدراكيـة، وتتمثـل هـذه العوامـل بالتفكيـر القائـم علـى التمنـي (wishful thinking)، والشـعور بالذنـب، والخجـل، والقلـق. وقـام ليبو بفحص سـتة وعشـرين أزمـة، هي مواقـف تصاعدت إلـى أن وصلـت إلى حـرب، وحالات بـدت فيها الحـرب محتملة ولكـن تم تداركهـا، وغطّت الأزمـات المدروسـة هـذه فتـرة سـبعين عامًـا. وقـد ركـز ليبـو خصوصًـا علـى أزمـة فاشـودا (Fashoda) (1898)، وأزمـة تموز/يوليـو (1914)، وميونيـخ (1938)، وكوريـا (1950)، والخـلاف الصينـي - الهنـدي (1962)، وأزمـة الصواريـخ الكوبيـة (1962). ويسـلط ليبـو الضـوء علـى العوامـل المعرفيـة والدافعيـة التـي تعيـق التعلـم السياسـي - موازنًـا بيـن الدافـع النظـري الـذي يحـرك عالِـم السياسـة، والهاجـس إلـى معرفـة التفاصيـل الـذي يحـرك المـؤرخ، ثـم يسـتخدم تلـك الدراسـات لوضـع جـدول تصنيفـي بالأنمـاط المختلفـة (a typology) للأزمات.

ويتمثـل واحـد مـن أنمـاط الأزمـات التـي تتطـور إلى حـرب، على سـبيل المثـال، في الحالـة التـي يواجـه فيهـا القائـد أزمـة داخلية فيقـوم بشـن حـرب [مـع طـرف خارجـي] ليكسـب الدعـم الداخلـي مـن خـلال «تبريـر العـدوان» ويصـف ليبـو هـذه الحالـة (مبيّنًـا ملابساتها)؛

> تنفـرد أزمـات تبريـر العدوان فـي أن القائد الذي يبـادر إلى الحرب يتخـذ قرار الحرب قبـل بـدء الأزمـة. ولا يكون هـدف الأزمة فرض تسـوية وإنمـا إحداث ذريعـة للحرب. ويحـاول صنّـاع هـذه الأزمـات علـى الـدوام جعـل الخصم مسـؤولًا عـن الحـرب. وهم يسـعون مـن خـلال ذلـك إلـى كسـب الدعـم لأنفسـهم فـي الداخـل والخـارج وكـف الدعـم عن خصومهـم[17].

(16) Richard Ned Lebow, *Between Peace and War: The Nature of International Crisis* (Baltimore, MD: The Johns Hopkins University Press, 1981).

(17) المصدر نفسه، ص 25.

بعض الابتكارات الحديثة

تناولنا في ما سبق بعض الأعمال المبتكرة في الدراسة النفسية لصنع القرارات في السياسة الخارجية التي ظهرت في مجالات المعرفة، والشخصية، وسلوك الجماعة، والقيادة بوجه عام، ويستطيع القارئ الرجوع في ذلك إلى الفصول من 6 إلى 10 بوجه خاص. ولا شك في أن محاولة تلخيص كل ما يمكن أن يندرج تحت هذا العنوان مهمة مستحيلة، غير أنني سأحاول هنا تناول ثلاث ابتكارات حديثة منها تتعلق بسيكولوجية الانتشار النووي (the psychology of nuclear proliferation)، وسيكولوجية المخاطرة (the psychology of risk taking)، وسيكولوجية الردع (the psychology of deterrence) على التوالي - لأنها تحظى، في تقدير المؤلف، بأهمية خاصة، ثم أختتم بتناول بعض الاستبصارات القديمة حول سيكولوجية العلاقات الدولية مما تجدد الاهتمام به حديثًا.

علم نفس الانتشار الذري

تُمثل خشية وصول السلاح النووي إلى الجماعات الإرهابية، وما يسمى بـ «الدول الشريرة»، واحدًا من دواعي القلق الرئيسة لصنّاع السياسة في حقبة ما بعد الحرب الباردة. وتمثل كوريا الشمالية (التي تمتلك الآن أسلحة نووية وفقًا لمعظم التقديرات) وإيران، دولتان باعثتان على القلق بشكل خاص لمعظم الساسة الغربيين، وللولايات المتحدة على وجه الخصوص. لكن الجانب الأكبر من الأدب المتصل بالانتشار الذري ظل معياريًا - فيدعو إلى «وجوب منع دولة معينة من تطوير قدرة نووية» - أو أنه كان تقنيًا في طبيعته. والسؤال الذي يبرز هنا هو: ما الذي يجعل بعض الدول تقرر السير في الطريق النووي في حين يُحجم غيرها عن هذا المسعى؟ ويبدو واضحًا هنا أن الموقفية وحدها لا تستطيع تفسير هذه الأحجية، من حيث إن التكنولوجيا النووية متاحة لدول كثيرة، لكن عددًا محدودًا منها فقط يقرر الوصول إلى هذه التكنولوجيا. والجواب تاليًا لا بد من أن يتعلق بنزعات تلك الدول ونزعات قادتها. وقد طور جاك هايمانز نظرية مثيرة للاهتمام تتصدى لحل هذه الأحجية، مستخدمًا الأدب السيكولوجي المتصل بالعلاقات الدولية، استخدامًا ابتكاريًا متقدمًا[18].

---

(18) Jacques Hymans, *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotions and Foreign Policy* (New York: Cambridge University Press, 2006).

ولتعليل مسعى بعض الدول لامتلاك القدرة النووية وعزوف بعضهم الآخر عن ذلك، طور هايمانز فكرة تدور حول عامل نزوعي خاص لدى القائد يتمثل في مفهوم الهوية القومية (national identity conception). وقد رأينا كيف استُخدمت نظرية الهوية الاجتماعية لتفسير النزاعات بين الجماعات (والتي يُنظر إلى الهوية الاجتماعية فيها كعامل مشترك بين أعضاء الجماعة)، غير أن مفهوم الهوية القومية هنا يمثّل عاملًا فرديًا يختلف من قائد إلى آخر؛ أي إن القادة المختلفين ضمن الدولة الواحدة قد يختلفون اختلافًا بيّنًا في مفاهيمهم بشأن أمتهم. وبعبارة أكثر تحديدًا، يشير مفهوم الهوية القومية إلى «مفهوم القائد لما تقف أمته من أجله في طبيعتها، وقيمة ما تقف من أجله مقارنة بغيرها من الأمم»[19]. ويحمل هايمانز مفهومه هذا قُدمًا ويميز بين بُعدين فيه: التماسك/التضامن (solidarity)، والمكانة (status). وإذا ما أخذنا البُعد الأول نجد أن جميع القادة يميلون إلى النظر إلى دولتهم بمنظور «نحن مقابل الآخرين» - إلا أن بعضهم يذهب أكثر من غيره في هذا الاتجاه فيراه بصيغة التضاد أو التعارض (in oppositional terms)، بينما يتبنى آخرون ما يسميه هايمانز الهوية «المتسامية» («transcendent» identity). وهذه طريقة أخرى للقول إن بعض القادة يمتلكون إحساسًا بالإنسانية المشتركة، أو المصير المشترك مع الآخرين، في حين أن قادة آخرين لا يمتلكون هذا الإحساس. وبأخذ البُعد الثاني (المكانة) نجد أن بعض القادة يرون دولتهم أعلى مكانة، أو مساوية في المكانة للدول الأخرى، بينما نجد بعضهم الآخر يرى أن دولتهم «أدنى» مكانة، أو أنها تابعة لدول أخرى[20]. وإذا ما أخذنا هذين البعدين معًا فإننا نخرج بتصنيف رباعي أو جدول يتضمن 2×2 خلية (انظر الجدول (16-1) أدناه)، (والذي يشير إلى أنماط من القيادة الأربعة المشتقة من هذا التصنيف)[21].

ويفترض هايمانز أن الرغبة في تطوير القدرة النووية تظهر حصريًا لدى القادة القوميين التعارضيين (oppositional nationalists) أي أولئك الذين تجتمع

---

(19) *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotions and Foreign Policy*, p. 21.

(20) المصدر نفسه، ص 21-25.

(21) المصدر نفسه، ص 25.

لديهم نظرة التضاد المتشددة (إزاء الجماعات أو الدول الأخرى، أو من يحملون منظور «نحن» و«هم» بتشدد) مع نظرة التفوق القومي، أو تفوق الدولة. وقام هايمانز باختبار نظريته من خلال دراسة أربع حالات؛ اثنتان منها (فرنسا والهند) اتخذتا القرار بالسير في الطريق النووي، واثنتان (أستراليا والأرجنتين) قررتا بعد مداولات مطوّلة عدم السير في الطريق النووي. وكانت أستراليا قد بدأت في تطوير برنامج سلاح نووي قبل عام 1972 أثناء وجود جون غورتون (John Gorton) رئيسًا للوزراء، والذي يصفه هايمانز بـ «القومي التعارضي». وعندما تولى غوف وايتلام (Gough Whitlam) عام 1972 عَكَس الاستراتيجية النووية التي تبناها الرئيس السابق - ويرد هايمانز هذا القرار إلى قلة اهتمام وايتلام بالنيات الصينية بوجه عام، ويرده بالتحديد إلى اعتقاداته السيكولوجية كتابع ذي روح رياضية[22] (sportsmanlike subaltern).

الجدول (16-1)

بُعدا التضامن والمكانة

نحن ضدهم	نحن وهم	بُعد التضامن
قومي تعارضي	قومي ذو روح رياضية	بُعد المكانة نحن بطبيعتنا مساوون لهم إن لم نكن متفوقون عليهم
تابع تعارضي	تابع ذو روح رياضية	نحن بطبيعتنا أدنى منهم

المصدر: Jacques Hymand, *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotions and Foreign Policy* (New York:Cambride University Press, 2006), p. 25.

ليس هناك إطار نظري قادر على تفسير كل شيء، بطبيعة الحال، ولعل هناك حالات لم يفحصها هايمانز، لا تتفق مع حجته. غير أن جيرفيز يؤكد أن، «هذه الحجة تكتسب أهمية خاصة من حيث أنها تبيّن وأنها ليست «فرنسا» [كدولة] التي اختارت الطريق النووي، وأنها ليست «أستراليا» التي اختارت ذلك الطريق، بل إن قادة هذه الدول - الذين وقعوا في مواقع مختلفة من جدوله الرباعي - هم الذين حددوا هذه الخيارات، وإن حقيقة من هو الذي

(22) *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotions and Foreign Policy*, pp. 62-63.

يحتل موقع السلطة في أوقات حاسمة - وهو أمر يأتي بالصدفة غالبًا - هو الذي يحدد ما ستختاره الدولة. وهذا ليس إنكارًا لأهمية أوضاع الدولة وخصائصها العقلية والثقافية في تكوّين سياستها القومية، وإنما هو تأكيد أن هناك دائمًا مجالًا للاختيار الفردي في هذه السياسة[23].

كانت إدارة بوش في سنواتها الأخيرة قلقة قلقًا شديدًا من إمكان تطوير إيران قوة نووية وكانت هذه القضية واحدة من قضاياها الأكثر إلحاحًا. وكان الرئيس الإيراني أحمدي نجاد قد صرح بهذا الشأن مؤكدًا «إننا لن نتراجع قيد أنملة عن حقوقنا النووية (...) وإيران اليوم بلد نووي، والمعرفة النووية والعلم النووي موجودان الآن في عقول علمائنا»[24]. ولا شك في أن تطبيق نظرية هايمانز على الحالة الإيرانية مثير للاهتمام، وقد أخضعها تيد رينولدز (Ted Reynolds) للاختبار في مقالة مشوّقة[25]. ولكن رينولدز يعترف في مقالته هذه أن نموذج هايمانز يصعب تطبيقه «في الحالات التي يكون قرار الانتشار الذري فيها موزعًا (وليس مرتكزًا إلى شخص واحد)، أو عندما لا يتوافر [للباحث] بيانات عن البروفايل النفسي للقائد [أي توليفة خصائصه النفسية] أو تكون مثل هذه المعلومات محجوبة نتيجة للطبيعة المغلقة لجهاز الدولة». كذلك لفت رينولدز النظر إلى صعوبة تطبيق نظرية هايمانز في الحالات التي يكون فيها قرار الانتشار الذري بيد منظمة وليس دولة، كالقاعدة وغيرها من المنظمات الإرهابية. ويفيد رينولدز أن زعيما كوريا الشمالية كيم إيل سونغ (Kim Il Sung) وكيم يونغ إيل (Kim Young Il) كلاهما يبدو قوميًا تعارضيًا عند التمعّن في خطاباتهما العامة، على غرار أحمدي نجاد، حيث إنهم ينتمون جميعًا للفئة نفسها من القادة، على الرغم من أنه ليس واضحًا ما إذا كانت الخطب العامة التي استند إليها رينولدز في حالة الزعيمين الكوريين مجرد دعاية، وما إذا كان أحمدي نجاد هو القائم فعليًا على السياسة النووية في بلاده. وعلى الرغم من ذلك، فإن نموذج هايمانز

(23) Robert Jervis, «Review of the Psychology of Nuclear Proliferation,» *Political Psychology*, vol. 28 (2007), pp. 269-272.

(24) «Iran Says More UN Steps Won't Stop Its Nuclear Work,» Reuters (3 June 2007).

(25) Ted Reynolds, «Understanding Nuclear Weapons Proliferation,» Unpublished Manuscript.

يصنفهم جميعًا كقوميين تعارضيين ولا يصنفهم في أي من الفئات الثلاث الأخرى، ويتنبأ النموذج أن برامجهم الذرية ستنمو وتتسع. وتضيف مقاربة هايمانز شيئًا جديدًا ومهمًا لفهمنا للقومية، يتعلق أساسًا بدور القادة ومفاهيمهم المتعلقة بالهوية القومية، وهو موضوع ناقشناه في الفصل الثالث عشر وتناولناه كمفهوم ينطبق على مستوى الجماعة أو المجتمع لا على مستوى الفرد.

علم نفس المخاطرة

متى يُخاطر القادة في السياسة الدولية؟ وهل المخاطرة أمر يتعلق بالشخصية، وما إذا كان لدى الشخص ميل إلى المقامرة، أم هو أمر يعود أساسًا إلى طبيعة الموقف الذي يواجهه القائد؟ أم هو يتعلق بكيف يُدرك الشخص الموقف الذي يواجهه؟ لقد أخذت روز مكديرموت (Rose McDermott) موقع الريادة في تطبيق نظرية المرتقب (Prospect Theory) - التي طورها دانيال كانمان وعاموس تفيرسكي (Daniel Kahneman and Amos Tversky) في أواخر السبعينيات - والتي تقدم إجابة مثيرة للاهتمام عن هذه الأسئلة. وتفترض هذه النظرية أن الإطار الذهني الذي نُدرك الموقف من خلاله يؤثر إلى حد بعيد على جاذبية البُدَلاء المختلفة التي يأخذها صنّاع القرار في السياسة الخارجية بالاعتبار[26]. وعلى وجه التحديد، ترى النظرية أننا إما أن نرى أنفسنا نعمل في «وضع خاسر» وإما نرى أنفسنا نعمل في «وضع رابح»، وهذا الإدراك للموقف المحيط بنا يحدد درجة استعدادنا للمخاطرة. فإذا رأينا أنفسنا في موقف خاسر نكون على استعداد أكبر للمخاطرة مما نكون لو اعتقدنا أننا في وضع رابح. وتاليًا، سيكون الفرد «متجنبًا للمخاطرة» (Risk Averse) عندما يتعامل مع الربح، ولكنه سيكون متقبلاً للمخاطرة (Risk Acceptant) عندما يتعامل مع الخسارة.

ولإيضاح هذه المعطيات بصورة أخرى، تخيل أنك في كازينو، ولنقل أنه كازينو بالمز (Palms) في لاس فيغاس. ودعنا نتخيل أنك حققت ربحًا في بعض الألعاب وأن جيوبك ملأى بالفيشات (chips) التي تتطلع إلى استبدالها

(26) Daniel Kahneman and Amos Tversky, «Prospect Theory: An Analysis of Decision under Risk,» *Econometrica*, vol. 47, no. 2 (March 1979), pp. 263-291.

بالمـال. وفـي هـذه الحالـة، تحسـبك النظريـة فـي وضـع رابـح - لأنـك تربـح بعبـارة أخـرى - ومـن هنـا، يُسـتبعد أن تقـوم بمخاطـرة متهـورة لـكل مـا لديـك مـن فيشـات. فعلـى سـبيل المثـال، يُسـتبعد أن تضـع جميـع مـا لديـك فـي دورة واحـدة علـى عجلـة الروليـت وأنـت تعـرف جيـدًا أن فرصتـك فـي مضاعفـة مـا لديـك مرتيـن أو ثـلاث مـرات ضئيلـة (مـع أن الكازينـو سـيرحب بهـذه الخطـوة). ووفـق مصطلـح كانمـان وتفيرسـكي (Kahenman and Tversky) فإنـك سـتكون فـي هـذه الحالـة «متجنبًـا للمخاطـرة».

والآن، تخيـل السـيناريو المقابـل؛ عندمـا تكـون قـد خسـرت كثيـرًا علـى موائـد اللعـب وليـس لديـك إلا فيشـات معـدودة، ولا تشـعر بكثيـر مـن الاسـتمتاع، بـل تشـعر بالنـدم على دخولـك هـذا المـكان. وستحسـبك النظريـة في هـذه الحالة فـي وضع خاسـر، وأنك سـتكون مسـتعدًا للمجازفـة بـكل مـا لديـك فـي مسـعى يعـدك بمـردود كبيـر إذا ربحـت - علـى الرغـم مـن أن احتمـال الربـح ليـس عاليًا فـي الوقـت ذاته، فتكـون في هـذه الحالـة «متقبلًا للمخاطـرة» وفـق مصطلحـات نظريـة المرتقـب، وتكـون علـى اسـتعداد لوضـع كل مـا لديك علـى دورة واحـدة لعجلـة الروليـت. ففي النهايـة، لديك فرصة لاسـتعادة قدر لا بـأس به مما خسـرت. وبعبـارة روبـرت جيرفيز؛

> إن النـاس أكثـر ميـلًا لتجنـب الخسـارة مـن حيـث أن الخسـارة تلـوح بقـوة أكبـر مما تلـوح الأربـاح؛ فخسـارة عشـر دولارات تضايقنـا أكثر مما يسـعدنا ربح عشـر دولارات (...) والخسـارة المرتقبـة تُنشـط الأفـراد، وتدفعهم وتشـحنهم بالطاقة أكثـر مما يفعل الربـح المرتقـب، الأمـر الـذي يدفـع إلـى المزيـد مـن المخاطرة (غيـر المحسـوبة في كثيـر مـن الأحيـان) والتـي كثيرًا مـا تؤدي إلـى المزيد مـن الخسـائر[27].

وتطبـق روز مكديرمـوت (Rose McDermott) هـذه النظريـة فـي كتابهـا **المخاطرة فـي السياسـة الدوليـة** (*Risk Taking In International Relations*) علـى حـالات متنوعـة مـن صنـع القـرار فـي السياسـة الخارجيـة، كالحملـة الكارثيـة لأنقـاذ الرهائـن فـي إيـران

---

(27) Robert Jervis, «Political Implications of Loss Aversion,» *Political Psychology*, vol. 13, no. 2 (June 1992), p. 187.

عـام 1980، والقـرار بالسـماح لشـاه إيـران الدخـول إلـى الولايـات المتحـدة، وأزمـة (U-2)، وأزمـة قنـاة السـويس[28].

وتؤكـد مكديرمـوت أن جيمـي كارتر رأى نفسـه قُبيل حملـة إنقاذ الرهائـن، في آذار/ مـارس مـن عـام 1980 فـي حالٍ خاسـر (ولـم يكـن إدراكه غير سـليم فـي الحقيقـة)، وهذا مـا جعلـه يتقبـل المخاطـرة أكثـر ممـا لـو كان في وضـع مغايـر. حيـث كانت شـعبيته في تراجـع، وكان قد خسـر اثنتين من حملات الانتخابـات الأولية أمام السـناتور إدوارد كينيدي، وبـدت المفاوضـات لإخـراج الرهائـن سـلميًا قد أنزفـت كل الإمكانـات. وتعتقـد مكديرموت أن كارتـر قبيـل الحملـة، كان قائـدًا مسـتعدًا للمقامـرة لإعـادة الأمـور إلـى نصابهـا، وإعـادة الرهائـن إلى الوطن، واسـترداد الشـرف القومي والكبريـاء الدولية، ودفْع حظوظه السياسـية عاليًـا (...) وباسـتخدام مصطلحـات نظريـة المرتقـب كان كارتـر يواجه وضعًا خاسـرًا[29].

وبالمثـل، تؤكـد باربـرا فارنهـام (Barbara Farnham) أن نظريـة المرتقـب تلقـي كثيـرًا من الضـوء علـى قـرارات فرانكلـن روزفلـت (Franklin Roosevelt) في خـلال أزمة ميونيـخ في أواخر الثلاثينيات[30].

وكأي نظريـــة فـــي الســـلوك السياســـي، تنطـــوي نظريـــة المرتقـــب علـــى عـــدد مـــن المشـــكلات[31]. فربمـا تكـون المخاطـرة أساسًـا أمـرًا يتعلـق بالشـخصية لا بـإدراك

---

(28) Rose McDermott: *Risk - Taking in International Politics: Prospect Theory in American Foreign Policy* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1998), and «Prospect Theory in Political Science: Gains and Losses from the First Decade,» *Political Psychology*, vol. 25, no. 2 (April 2004), pp. 289-312.

(29) Rose McDermott, «Prospect Theory in International Relations: The Iranian Hostage Rescue Mission,» *Political Psychology*, vol. 13, no. 2 (June 1992), pp. 241-242.

(30) Barbara Farnham, *Roosevelt and the Munich Crisis: A Study of Political Decision-Making* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997).

(31) لتقويم نقاط القوة والضعف في نظرية المرتقب عامة، انظر: Jervis, «Political Implications of Loss Aversion;» Jack Levy, «Prospect Theory and International Relations: Theoretical Applications and Analytical Problems,» *Political Psychology*, vol. 13, no. 2 (1992), pp. 283-310, and Eldar Shafir, «Prospect Theory and Political Analysis: A Psychological Perspective,» *Political Psychology*, vol. 13, no. 2 (1992), pp. 311-322.

تظهر مقالات مكديرموت، وجيرفيز، وليفي كجزء من العدد الخاص من مجلة **علم نفس السياسة** (*Political Psychology*) المكرّس لنظرية المرتقب.

الموقـف، علـى سـبيل المثـال[32]. وربمـا إدراك الخسـارة لا يقـود تلقائيًـا إلـى المخاطـرة في اتخـاذ القـرارات المعقـدة فـي الحيـاة الواقعيـة. كذلـك قـد يصعـب اختبارهـا فـي بعـض الظـروف، كمـا هـو حـال نظريـة هايمانـز المتعلقـة بالانتشـار الـذري. والسـؤال الـذي يطرح نفسـه هنـا يتعلـق بما إذا كنـا نعتبر نظريـة المرتقب نظريـة نزوعية أم موقفيـة. فمن حيث إن العنصـر المهـم فـي النظريـة ليـس الصيغـة الموضوعيـة للموقـف، وإنمـا الصيغـة التـي يدركـه فيهـا صانـع القـرار - الأمـر الـذي يجعلهـا نظرية نزوعيـة - إذ إننـا لا نكون علـى بيّنة مـن أمرنـا، فـي بعـض الأحيـان في الأقـل، فـي مـا إذا تـم إدراك الموقـف كموقف خاسـر أم رابـح، ونُتـرك لنسـتنتج ذلـك مـن المعلومـات المتاحـة. كذلـك فإنـه يكـون علينا أن نسـتنتج مـن المعلومـات المتاحـة مـدى خطـورة البُـدَلاء المختلفـة فـي نظـر صانـع القـرار - والواقع أن هـذه مشـكلة تواجـه أي نظريـة تسـعى لفهـم الحـالات الذهنيـة لصنّـاع القـرار وتقديـر نزعاتهـم الشـخصية. غيـر أن مكديرموت ترى أننا نسـتطيع تأكيد جميـع المعلومات المتعلقة بأزمـة الرهائـن التـي واجهها كارتر فـي أذار/مارس 1980، إذ إنه رأى نفسـه يعمـل في ميدان خاسـر، وإنـه رأى حملـة إنقـاذ الرهائن كأكثـر الأبـدال المتاحـة مخاطرة.

علم نفس الردع

رأينـا فـي مـا سـبق أن المجـال الـذي تتضـارب فيـه رؤيـة الإنسـان الاقتصـادي برؤيـة الإنسـان النفسـاني أكثـر مـا تتضـارب، هـو مجـال سـلوك الانتخـاب. غيـر أن هنـاك مجـال يكـون فيـه التضـارب علـى درجـة أكبـر مـن الأهميـة، لأنـه يتصـل بأمـور الحيـاة والمـوت، ذلكـم هـو مجـال نظريـة الـردع (deterrence theory). ووفقًـا لنـد ليبـو وجانيـس شـتاين (Ned Lebow and Janice Stein)، فـإن صيغـة الإنسـان العاقـل (الاقتصـادي) لنظريـة الـردع (التـي يقـوم عليهـا معظـم التنظيـر فـي السياسـة الدوليـة) صيغـة خاطئـة، لأنهـا تسـتند إلـى افتراضـات يجافيهـا البشـر فـي الواقـع العملـي - كمـا رأينـا مـرارًا وتكـرارًا فـي هـذا الكتـاب - لأسـباب معرفيـة وأسـباب انفعاليـة علـى حـد سـواء. وقـد اسـتوحى اثنـان مـن الأفـلام السـينمائية: «دكتـور سـترينجلوف» (Doctor

---

(32) حول هذه النقطة، انظر: Yaacov Vertzberger, *Risk Taking and Decision Making: Foreign Military Intervention Decisions* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1998), p. 30.

(Strangelove و«فيـل - سـيف» (Fail-Saif)، أزمـة الصواريـخ الكوبيـة عـام 1962، وصـوّرًا وقـوع خطـأ بشـري يقـود الولايـات المتحـدة إلـى شـن هجـوم ذري علـى الاتحـاد السـوفياتي، ثـم إلـى انـدلاع حـرب شـاملة. غيـر أن ليبـو وشـتاين ينتقـدان الافتراضـات الأساسـية التـي تسـتند إليهـا نظريـة الـردع العقلانيـة فـي كتابهمـا **كلنـا خسـر الحـرب البـاردة** (*We All Lost the Cold War*) التـي يُفتـرض أن تحـول دون وقـوع حـرب تقليديـة أو نوويـة بيـن القـوى العظمـى فـي ضـوء المصلحـة الذاتيـة المبنيـة علـى التقديـرات العقلانيـة لـكل طـرف[33].

وتفتـرض نظريـة الـردع العقلانيـة (rational deterrence theory) أساسًـا، علـى النحـو الـذي يبينـه ليبـو وشـتاين، أن القـادة جميعهـم «مسـتعدون للمخاطرة وتعظيـم المكاسـب» (risk-prone gain maximisers) وبعبـارة أخـرى، تفـرض المصلحـة الذاتيـة العقلانيـة (أو المبنيـة علـى الحسـابات العقلانيـة) علـى القـادة جميعًـا السـعي لتوسـيع مناطـق نفوذهـم على حسـاب الآخريـن، والإحجـام عـن ذلـك (بالقـدر ذاتـه) عندمـا تفـوق تكاليـف ذلـك الفعـل فوائـده. وبعبـارة كريسـتوفر آتشـن ودنـكان سـنايدل (Christopher Achen and Duncan Snidal)؛

> إذا كانـت الدولـة تعـرف أنهـا قـد تتعـرض لحـرب قاسـية طويلـة فـي تلـك العمليـة، فإنهـا لـن تحاول الضغـط على الدولـة المنافسـة بمطالبهـا. والبراعة تكمن فـي تقدير احتمـال لجـوء الدولـة المنافسـة إلـى الحـرب - وتقديـر احتمـال انتصارهـا فـي ما لو لجـأت إلى الحـرب[34].

لـذا، فـإن قـدرة الدولـة علـى إقنـاع منافسـيها بأنهـا عازمـة علـى الحـرب، وبأنهـا قـادرة علـى هزيمتهـم، أمـر بالـغ الأهميـة. ويناصـر بعضهـم هـذا الـرأي بشـدة إلـى حــد ينـادون معــه بالانتشـار الـذري، ويشـجعون دولًا كألمانيـا واليابـان علـى امتـلاك

(33) Richard Ned Lebow and Janice Gross Stein, *We All Lost the Cold War* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), and Richard Herrmann, «Image Theory and Strategic Interaction in International Relations,» in: David Sears, Leonie Huddy and Robert Jervis, eds., *Oxford Handbook of Political Psychology* (New York: Oxford University Press, 2003), pp. 300-303.

(34) Christopher Achen and Duncan Snidal, «Rational Deterrence Theory and Comparative Case Studies,» *World Politics*, vol. 41, no. 2 (January 1989), p. 149.

الأسـلحة النوويـة، علـى سـبيل المثـال[35]. ويعلـل المحللـون مـن أمثـال جـون ميرشـايمر (John Mearscheimer) مناصـرة هــذا الــرأي بــأن الــردع العقلانــي شــديد الأثــر، وأن لــه مــن القــوة مـا يجعلـه ضامنًـا لقـدر أكبـر مـن السـلام والاسـتقرار فـي العالـم.

غيـر أن هـذه النظريـة تنطـوي علـى العديـد مـن الأخطـاء، أولهـا، مـا يتصـل بافتـراض أن القـادة جميعهـم «مسـتعدون للمخاطـرة وتعظيـم المكاسـب»، حيـث يتصـدى ليبـو وشـتاين لهـذا الافتـراض ويؤكـدان أن بعـض القـادة فحسـب هـم كذلـك - ويعطيـان هتلـر وسـتالين كمثاليـن علـى ذلـك - ولكنهمـا يعتقـدان أن هـذا غيـر مألـوف نسـبيًا فـي السياسـة الدوليـة[36]. علاوة على ذلك، رأينا في القسـم السـابق من هـذا الفصل أن النزعـة إلـى المجازفـة تختلـف باختـلاف إدراك القائـد للموقـف، مـا يثيـر التسـاؤل عـن مـدى العقلانيـة فـي صناعـة السياسـة، فضـلًا عن أنهمـا يُسـلّطان الضـوء على حـالات أظهر القـادة فيها الاسـتعداد للمخاطرة وتعظيم المكاسـب، ولكنهـم لم يوازنـوا التكاليف والفوائد علـى النحـو الـذي تفترضـه مقاربـة الإنسـان الاقتصـادي. ويفيـد ليبـو وشـتاين أن «التحليل الإمبيريقـي للحـالات التـي لـم تلتـزم الردع، كشـف عن حـالات قام فيهـا القادة بحسـاباتهم وفقًـا لتوقعـات نظريـات الـردع ولكنهـم تصرفـوا بطرائـق معاكسـة لتوقعاتهـم أنفسـهم». ويضيـف ليبـو وشـتاين أن أولئـك القـادة، «قـدّروا أن تكاليـف الحرب سـتكون باهظـة، وأن احتمـال النصـر ضئيـل، وأن احتمـال انتقـام الخصم مؤكـد، ولكن ذلـك كله لم يردعهـم»[37]. ويشـير ليبـو وسـتاتن إلـى هجـوم اليابان علـى الولايـات المتحدة عـام 1941، وهجـوم أنور السـادات علـى إسـرائيل عـام 1973 كأمثلـة علـى ذلـك. ومـن هنـا، فـإن المنطـوق البـارز لمقاربـة ليبـو وشـتاين هـو أن نظرية الردع لا تخطىء في تفسـير سـلوك القـادة في العالم الواقعـي فحسـب، ولكـن الاعتمـاد عليها يمثّـل خطـرًا محققًا.

ويسـتند جوناثـان ميرسـر إلـى النظريـة النفسـية ليقـدم واحـدًا مـن الإسـهامات

---

(35) Mearsheimer, «Why we Will Soon Miss the Cold War».

(36) Richard Ned Lebow and Janice Gross Stein, «Rational Deterrence Theory: I Think, Therefore I Deter,» *World Politics*, vol. 41, no. 2 (1989), pp. 208-224.

(37) المصدر نفسه، ص 211.

المتميـزة والمعارضـة تمامًـا لنظريـة الـردع[38]. ويأخـذ نظريـة العـزو التـي تناولناهـا فـي الفصـل التاسـع - كمنطلـق فـي نقـده هـذا، ومـا يتصـل منهـا بمـا دعـاه عالـم النفـس الاجتماعــي لــي روس (Lee Ross) «الخطــأ الأســاس فــي العــزو» (the fundamental attribution). ويشـير هـذا الخطـأ إلـى ميـل الفـرد إلـى عـزو أفعـال الآخريـن إلـى نزعـات فيهـم، وقـد تكـرر ظهـور هـذا الميـل فـي عـدد كبيـر مـن الدراسـات النفسـية. فحيـن يـرى النـاس شـخصًا يتصـرف بلطـف، يفترضـون أن الشـخص تصـرف علـى ذلـك النحـو لأنـه شـخص لطيـف، ولكـن هـذا الاسـتنتاج يُهمـل أثـر الموقـف علـى السـلوك. فـإذا رأينـا شـخص يتشـح بالكآبـة فـي جنـازة (حتـى لـو كان يبكـي) فـإن مظهـره هـذا يجـب ألّا يدعـو إلـى افتـراض أنـه شـخص كئيـب، لأن الموقـف الاجتماعـي يقتضـي أن نظهـر بهـذا الشـكل (حتـى لـو كنـا لا نأبـه للمتوفَّـى)، فالقواعـد الاجتماعيـة تقضـي بـأن يكـون المظهـر المناسـب فـي مثـل هـذه المواقـف هـو مظهـر الكآبـة، حتـى لـو كنـا نفكـر فـي حقيقـة الأمـر فـي الطعـام والشـراب الـذي يُقـدم لاحقًـا فـي العـادة.

ويسـتخدم ميرسـر هـذه الاسـتبصارات ليخـرج بمقاربـة جديـدة تتصـل بالسـمعة/ الصدقيـة (reputation) مخالفـة للمنطـق المألـوف، ومخالفـة لنظريـة الـردع تمامًـا. فقـد رأينـا فـي مـا سـبق أن نظريـة الـردع العقلانيـة تؤكـد أنـه لا بـد للدولـة الرادعـة مـن أن تُرسـل «الإشـارات الصحيحـة» ليأخـذ الـردع مفعولـه، فـإذا شـكّت الدولـة المنافسـة فـي اسـتعداد الدولـة الرادعـة الوثيـق للحـرب فـإن الدولـة المنافسـة قـد تُهاجِـم. عـلاوة علـى ذلـك، يخشـى بعـض القـادة علـى سـمعتهم كأصحـاب عزيمـة (a reputation for resolve) [والتـي تعنـي هنـا الاسـتعداد لتحمـل تبعـات المواجهـة مـع الخصـم]. فـكان لينـدون جونسـون يخشـى إن تراجـع عـن الحـرب فـي فيتنـام وتـرك جنـوب فيتنـام يقـع بيـد هـو شـي منـه والشـيوعيين، فـإن ذلـك سـيضر بسـمعة الولايـات المتحـدة وموقفهـا أمـام الأعـداء والحلفـاء علـى حـد سـواء. أمـا المنطـق وراء هـذا الاعتبـار فهـو أن تراجعنـا عـن قـرار الحـرب سـيعطي الأعـداء الجـرأة علـى السـير قدمًـا، فـي حيـن أن الحلفـاء (وعلـى رأسـهم الأوروبييـن) سيسـاورهم الشـك فـي مـا إذا كانـت التزاماتنـا نحوهـم تسـتحق الـورق الـذي كتبـت عليـه. فـإذا تقاعسـنا عـن الوقـوف فـي وجـه الشـيوعيين فـي

---

(38) Jonathan Mercer, *Reputation and International Politics* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1996).

فيتنام، فإننا لن نتمكن من الحد من انتشار الشيوعية عالميًا، لأن أحدًا لن يأخذنا بجدية بعد الآن، وسينظر إلينا الجميع كـ «نمور من ورق»، ويبدو أن العديد من الرؤساء الأميركيين - من ترومان إلى فورد - شاطروا جونسون هذا الرأي.

ويعتقد جوناثان ميرسر أن مثل هذه الاعتبارات - التي كثيرًا ما تُفضي إلى خسائر فادحة في الأرواح والمال - تكون في غير محلها، ويستند ميرسر في اعتقاده هذا إلى منطق بسيط نسبيًا، يستخدم فيه الاستبصارات المنبثقة من نظرية العزو. حيث يؤكد بداية أنه من المستحيل - أو أنه من الصعب جدًا في الأقل - اكتساب قادة الأعداء سمعة افتقار العزيمة (lacking resolve)[39]. لأن الخطأ الأساسي في العزو شائع إلى حد كبير (وهو الخطأ المتمثل في عزو سلوك العدو أو الشخص المنافس إلى أسباب نزوعية)، حتى أن السلوك غير الخبيث وغير العدائي إما أن يُهمل وإما أن يردّ إلى أسباب موقفية خارجية لكي نحافظ على الصورة السلبية التي نحملها عن ذلك الشخص أو الطرف (كما فعل جون فوستر دالاس عندما صرف النظر عن إشارات انبعثت من الجانب السوفياتي تشير إلى رغبتهم في تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة). [وتاليًا، فإن اعتبارات المحافظة على الهيبة أو السمعة لا تستحق العناء لأن الخصوم يبنون استنتاجاتهم حول نيات دولة المواجهة في ضوء معطيات الأزمة الراهنة وليس بناء على سلوك الدولة السابق - وفق ما يرى ميرسر]. ومن جهة أخرى، نميل إلى عزو سلوك حلفائنا إلى عوامل موقفية[40]؛ وبناء على هذه النظرية نرى الحلفاء يتصرفون وفق متطلبات الموقف أو ما تقتضيه الضرورة، ولا نعطيهم الفضل بالنظر إليهم كأصحاب عزيمة، بل إننا نعزو سلوكهم إلى الضرورة. فعلى سبيل المثال، عزا كثير من المراقبين في الولايات المتحدة دعم العربية السعودية لبلادهم في حرب الخليج الأولى إلى الموقف الذي كانت تواجهه السعودية في ذلك الوقت (سواء كانوا محقين في ذلك أو غير محقين)؛ فعندما غزا صدام حسين الكويت عام 1990، خَشِيت السعودية (وغيرها من دول الخليج التي دعمت الحرب) أن تصبح هي الضحية التالية.

(39) *Reputation and International Politics*, p. 213.

(40) المصدر نفسه، ص 214.

التفهم: مضاد خطأ العزو، وأمور أخرى

تشير بحوث ميرسر إلى أن صنّاع السياسة لا يقدرون في الغالب الدور الذي يؤديه الموقف في تكوّين السلوك حق قدره (ومن المثير للدهشة أن نرى عكس هذه المشكلة لدى منظري العلاقات الدولية) [أي إنهم يبالغون في التركيز على دور الموقف في تكوّين السلوك]. ويتفق هذا الاستنتاج مع ما وصل إليه رالف وايت (Ralf White) في أعماله الكلاسيكية في موضوع التفهم (empathy)، ويوضح وايت بداية الفرق بين التعاطف (sympathy) والتفهم (empathy)، ويرى أن هناك فرقًا كبيرًا بينهما. أما التعاطف فيعني الإحساس بحالة الآخر والشعور معه، وأما التفهم فيتطلب وضع النفس مكان الآخر لفهم دوافعه على نحو أفضل. ويُعرّف وايت التفهم بأنه «فهم واقعي لمشاعر وأفكار الآخرين»، أما التعاطف من وجهة نظره فيُعرّف «وفقًا للاشتقاق اليوناني (للكلمة)، كشعور مع الآخرين؛ حيث نسعد لأنهم سعداء أو نحزن لأنهم حزانى؛ ما يعني في كثير من الأحيان أن يفعل المرء ما يستطيع لمساعدتهم. والتفهم معرفي أساسًا، بلغة علم النفس، أما التعاطف فعاطفي[41].

ويعتقد وايت أن التفهم غاية في الأهمية، لأنه وفق تعبيره «يمثل المصحح الأعظم لجميع أشكال سوء الإدراك المشجعة على الحرب»[42]. وهو مصحِّح ممكن للخطأ الأساس في العزو، من حيث إنه يُجبر صانع القرار على تقدير الموقف الذي يواجهه الخصم [لا أن يرد سلوكه إلى نزعات شخصية فيه وكفى]. ولقد أخذت أعمال وايت موقع الريادة في تراث غني من الدراسات الجارية حتى اليوم عن العلاقات الدولية وصلتها بالتفهم، والإدراك، وسوء الإدراك[43].

---

(41) Ralph K. White, «Empathizing with the Soviet Government,» in: Ralph White, ed., *Psychology and the Prevention of Nuclear War: A Book of Readings* (New York: New York University Press, 1986), p. 82.

(42) Ralph White, *Fearful Warriors: A Psychological Profile of U.S.-Soviet Relations* (New York: Free Press, 1984), p. 160, and James Blight and Janet Lang, *The Fog of War: Lessons from the Life of Robert S. McNamara* (New York: Rowman and Littlefield, 2005), p. 28.

(43) إضافةً إلى البحوث الموثّقة هنا، انظر على سبيل المثال: Ralph White, *Nobody Wanted War: Misperception in Vietnam and other Wars* (Garden City, NY: Doubleday, 1968); Robert Jervis: «Hypotheses on Misperception,» *World Politics*, vol. 20, no. 3 (October 1968), pp. 454-479; *Perception and Misperception in International Politics*; Jack Levy, «Misperception and the Causes of War: Theoretical Linkages and Analytical Problems,» *World Politics*, vol. 36, no. 1 (October 1983), pp. 76-99; Yaacov Vertzberger, *The World in their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, CA: Stanford University Press,

وعلـى الرغم مـن أهمية هذا المسـعى لصنّاع السياسـة وجدارته بالثنـاء، فإنه صعب التحقيـق فـي بعـض الظـروف. ولا شـك فـي أن فهـم الأحـداث اسـترجاعيًا (in retrospect) أسـهل مـن فهمهـا حـال وقوعهـا، إضافـة إلـى مشـكلة أخـرى - صورهـا إيـرول موريـس (Errol Morris) فـي فيلـم وثائقـي متميـز عـن حياة روبـرت مكنمـارا (Robert McNamara) بعنوان «ضبـاب الحـرب» (The Fog of War) تنـاول التصعيـد الأميركـي للحرب في فيتنـام. وتتمثل هذه المشـكلة بالحاجـة إلـى معرفـة الخصم جيـدًا حتى يمكنـك وضع نفسـك مكانـه، وباعتراف مكنمـارا لـم يكـن هذا واقـع الحال فـي فيتنام؛ إذ لـم يكن لدى لينـدون جونسـون وأعوانه الرئيسـيين مـن جماعـة غـداء الثلاثـاء (Tuesday Lunch Group) إلا القليـل مـن المعرفـة بتاريـخ العلاقـات الفيتناميـة الصينيـة؛ ولـو كان لديهم معرفة كافيـة بذلك، من وجهة نظـر مكنمارا، لمـا نظروا إلـى الفيتناميين الشـماليين كمجـرد قمر صناعي يـدور في فلـك الصينيين. وكان يمكـن للمعرفـة الحقـة بالجانـب القومـي مـن تفكيـر «هوشـي منـه» - مقابـل اعتقاداتـه الشـيوعية التـي كانت مفهومـة تمامًا - أن تحد من الميـل إلى رؤية فيتنام الشـمالية مجرد دميـة بأيـدي الاتحـاد السـوفياتي. وللأسـف، كان الذيـن يمتلكـون المقـدرة علـى تفهـم هو شـي منـه يُهمّشـون أو يُعتَبـرون «مشـاغبين» وفق تعبيـر جيمـس طومسـون(James Thomson)[44]. وبالمثـل، وجـدت إدارة كارتـر صعوبـة فـي تفهـم سـلوك الطلبة الذيـن احتلوا السـفارة الأميركيـة فـي طهـران عـام 1979، وهـو الحـدث الـذي قاد إلـى أزمـة الرهائن فـي إيران.

1990), especially Chapter 1; Ralph White and Richard Wagner, «The Earliest Pioneer: Ralph K. White,» *Peace and Conflict*, vol. 10, no. 4 (2004), pp. 313-315; Mike G. Wessells, Micheal D. Roe and Susan McKay, «Pioneers in Peace Psychology: Ralph K. White,» *Peace and Conflict*, vol. 10, no. 4 (2004), pp. 317-334; M. Brewster Smith, «Realistic Empathy: A Key to Sensible International Relations,» *Peace and Conflict*, vol. 10, no. 4 (2004), pp. 335-339; James Blight and Janet Lang, «Lesson Number One: Empathize with your Enemy,» *Peace and Conflict*, vol. 10, no. 4 (2004), pp. 349-468, and Ralph White, «Misperception and War,» Peace and Conflict, vol. 10, no. 4 (December 2004), pp. 399-409.

(44) انظر: Robert S. McNamara and James Blight, *Wilson's Ghost: Reducing the Risk of Conflict, Killing and Catastrophe in the 21 Century* (New York: Public Affairs, 2001), pp. 64-73, and Blight and Lang, *The Fog of War: Lessons from the Life of Robert S. McNamara*, pp. 27-57.

وببسيط العبارة، كانت المشكلة الرئيسة التي واجهها كارتر ومستشاروه عام 1979 - تفوق ما واجهه جونسون وحاشيته عام 1965 - إذ لم يكن أحد منهم يعرف كثيرًا عن آية الله الخميني والحركة التي يمثلها في ذلك الحين. وقد ناضل أعضاء إدارة كارتر، بما في ذلك الاختصاصيون في شؤون الشرق الأوسط لفهم ما كانت تعنيه تصرفات آية الله. وكان الخطر الذي تمثله الراديكالية الإسلاموية (radical Islamism) - والتي أصبحت تعرف بالأصولية الإسلامية (Islamic fundamentalism) - منطقه مجهولة في حينه. ففي غياب أي إطار معرفي لفهم الراديكالي الإيراني، كثيرًا ما كان كارتر يصرف النظر عن أفعال الخميني ويعتبرها غير عقلانية، وحتى مجنونة - وذلك في الأيام الأولى لأزمة الرهائن. كذلك، لم يقدّر صنّاع القرار الأميركيين، أو يفهموا، أهمية التاريخ في الشرق الأوسط، وتأثير ذكرى عام 1953 - حين ساعدت الـ سي آي إي (CIA) على إسقاط محمد مصدق القائد الإيراني الذي جرى انتخابه ديمقراطيًا.

الخاتمة

ومهما يكن من أمر، فإن تفهم صنّاع القرار لخصومهم أمر ممكن حين يبذلون جهدًا واعيًا ومقصودًا لوضع أنفسهم مكان الخصم؛ ولكي يحقق صنّاع القرار التفهم الواقعي لا بد لهم من «المعرفة» الحقة بخصمهم. وقد أدى نجاح كتاب **ضباب الحرب** إلى تجدد الاهتمام بموضوع التفهم كوسيلة لحل النزاع في مجال العلاقات الدولية والسياسة الخارجية. وتردد صدى هذا الموضوع في كتاب مكنمارا **شبح ولسون** (*Wilson's Ghost*)، بمشاركة جيمس بلايت (James Blight)، وفي كتاب آخر لجيمس بلايت وجانيت لانغ (Janet Lang)، إضافة إلى فيلم عن هذا الموضوع[45]. ويصور الفيلم حالة تفهم من هذا القبيل، شُهد لها بالنجاح، تلك هي الحالة التي تعامل بها جون كينيدي مع أزمة الصواريخ الكوبية. أما مكنمارا، فيؤكد في كتابه أن ما قادنا قي الأزمة الكوبية بعيدًا من

---

(45) Blight and Lang, Ibid., and McNamara and Blight, Ibid.

شـفير الهاويـة، إلـى جانـب «ضربـة الحـظ الأحمـق» وفـق تعبيـر ديـن آتشيسـون (Dean Acheson) الشـهير - هـو قـدرة جـون كينيدي علـى تفهم موقف كروتشـيف. فقـد نجح جون كينيدي مسـتندًا إلى لويلن «تومي» طومبسـون (Llewellyn «Tommy» Thomson) في وضع نفسـه مـكان خصمـه، وتجنّب كارثة نووية. إذ أدرك السـفير طومبسـون أن كروتشـيف، بعد بضعة أيـام مـن نشـوب الأزمة، أيقـن أنه أرتكـب خطأ فادحًـا في نصـب الصواريخ في كوبـا، وأنه سـيبحث عـن حـل يحفـظ مـاء وجهـه؛ وبنـاء علـى ذلـك، يكـون الحـل الناجـح للأزمـة حل يتيـح لـكلا الطرفيـن الخـروج معه وقـد حقـق نوعًا مـن «النصر».

17

خاتمة

وجهة نظر شخصية

أشرنا في الفصل الأول إلى أن تقدير الميزة النسبية للمنحيين الموقفي والنزوعي متروك للطلبة أنفسهم. وقد تبنينا هذين المنحيين في هذا الكتاب كـ «منحيين ما ورائيين» (meta-approaches) [في دراستنا لعلم النفس السياسي]. وتاليًا (وكما يشير العنوان الفرعي لهذا الفصل)، فإن كيفية التوفيق بينهما تعتمد على الرأي الشخصي. وبذلك، فإنني أدعو الطلبة والمدرسين الذين يرغبون حقيقة في تقرير الأمر بأنفسهم، بعيدًا كل البعد من وجهة نظري الخاصة، أن يتركوا هذا الفصل جانبًا لكي يصلوا إلى رأي مستقل. ومن حيث إن المشتغلين في هذا الميدان نادرًا ما يصنّفون موضوعات المادة التي ندعوها الآن «علم النفس السياسي» على النحو الذي صنفناه في هذا الكتاب، فإن أمر الوصول إلى استنتاجات بشأن القضية محور البحث يكون متروكًا لنا. غير أنني أستدرك وأقول أن الأمر ليس متروك لنا دونما ظهير، حيث إن علماء السياسة المختلفين، (وخصوصًا أولئك المتأثرين بنظرية العزو وبعلم النفس الاجتماعي عامة) لم يكفوا عن التفكير المتعمق في هذه القضية.

عودة إلى النظر في الموقفية مقابل النزوعية

ربما يكون بعضكم قد وصل إلى اقتناعه الخاص بشأن القضية المحورية التي نُعنى بها وفيما إذا كان المحدّد الأقوى للسلوك الإنساني هو المواقف التي

يُواجهها الأفراد أم النزعات التي يحملونها، ويأمل المؤلف أن تكونوا قد وصلتم إلى إجابة أولية عن هذا السؤال في الأقل، لأن الكتاب برمته صُمّم ليحثكم على التمعن في هذه المسألة. وربما يكون بعضكم قد حسم موقفه وأيّد جانبًا على حساب الجانب الآخر في هذه القضية. ومهما تكن استنتاجاتكم عليكم أن تأخذوا الاعتبارات التالية في الحسبان وأنتم تختتمون دراسة هذا الكتاب.

أولًا، نجد لزامًا علينا أن نقول أن أي من المعسكرين الموقفي أو النزوعي لم يخرج رابحًا من دون منازع في جميع المجالات الإمبيريقية التي تناولناها في الباب الثالث من هذا الكتاب. وربما لاحظ القارىء عدم وجود تحيز دائم لمصلحة النزوعية أو الموقفية في المجالات المختلفة التي تناولناها وهي: الإرهاب، القومية والصراع الإثني، والعنصرية والتسامح، وسلوك الانتخاب، والعلاقات الدولية. هذا، ولم نحاول تقديم ملخص عن لما كتب عن كل منها، ولكننا حاولنا تلخيص التوجهات البحثية الراهنة وتحيزات الباحثين الخاصة بكل موضوع منها.

وما يثير الاهتمام هو أن الباحثين يذهبون في اتجاهات مختلفة اختلافًا أساسيًا في تناولهم لتلك الحالات. ففي الدراسة السيكولوجية للإرهاب، عُني الباحثون بداية بالبحث عن «الشخصية الإرهابية»، ولكنهم تحولوا الآن بعيدًا من ذلك الاتجاه بعد أن اكتشفوا قصوره وأخذوا يفضلون المقاربات التي تؤكد أهمية الموقف. وفي دراسة القومية والصراع، كان لكلا الاتجاهين النظريين هذين حضور قوي، غير أن الإبادة الجماعية، تُفسِّر على أفضل وجه ممكن، على ما يبدو، بمزيج من العوامل النزوعية والموقفية. وحين تناولنا موضوعات العنصرية وعدم التسامح، وسلوك الانتخاب، من ناحية أخرى، رأينا أن تركيز الباحثين أنصب تقليديًا على نزعات الأفراد أكثر مما أنصب على العوامل الموقفية. وبالمقابل، لاحظنا أن المقاربة الموقفية هي المهيمنة على نظرية العلاقات الدولية في تفسيرها لسلوك الدول، وأما النزعات النفسية، فمع أنها دُرِست باستفاضة، إلا أنه لم يجر تناولها كمقاربة شاملة قائمة بذاته في هذا المجال إلا نادرًا. ويبدو أن الباحثين في العلاقات الدولية لم يعرفوا كيف

يتعاملون مع علم النفس، فهو يثير تساولات أساسية عن الكثير من الفرضيات التي تتبناها النموذجات الرائجة في هذا الميدان، و«يعرقل» السعي للوصول إلى نظريات مقتصدة (parsimonious) فيه.

ثانيًا، وضمن النطاق ذاته، تبدو النقطة السابقة كأنها تقول إن الأهمية التي تُسبغ على الموقفية أو النزوعية تختلف باختلاف موضوع الدراسة[1]. ومن ناحية أخرى، يبدو أن هناك ظروفًا يعمل فيها البيئة، أو السياق المحيط بالفرد، في فرض أثره/أثرها في السلوك بشدة - كما في الظروف المخبرية أو التجريبية في الأقل. ويقع العديد من هذه الحالات ضمن ما يسميه مورتون هانت (Morton Hunt) في كتابه الرائج عن تاريخ علم النفس ضمن باب **المواضيع المغلقة** (وهي موضوعات أو قضايا ما عادت تُدرس، لأن نتائج البحث فيها تكررت كثيرًا ما عاد هناك حاجة للتحقق منها)[2]. فقد بيّنت تجارب ملغرام وزمباردو على وجه الخصوص، أن الضغوط والقيود الاجتماعية، التي تبدو ظاهريًا ليست بذات أثر، تؤدي دورًا أساسيًا في توجيه السلوك. وعلينا في هذا الإطار أن ننظر في أعمال أثنين من علماء النفس الاجتماعي، هما جون دارلي وبيب لاتيني (John Darley and Bibb Latané) اللذان لم نناقش أعمالهما في هذا الكتاب، مع أننا تطرقنا في الفصل الأول إلى حادثة مقتل كيتي جينوفيز وما يُعرف في علم النفس الاجتماعي بـ «أثر عابر السبيل» (bystander effect).

ألهمت هذه الحادثة التي شاهدها أكثر من ثمان وثلاثين شخصًا من نوافذ منازلهم، ولم يتقدم أحد منهم لمساعدة المرأة وهي تتعرض للقتل، هذه الحادثة دارلي ولاتيني للشروع في البحث في هذا الموضوع. وقد أثار سلوك المشاهدين غضبًا عارمًا في حينه، وصدرت دعوات من عامة الناس لإلقاء القبض عليهم جميعًا (كما صدرت دعوات لما هو أسوأ من ذلك). ووفقًا لما تفيده لورين سلاتر (Lauren Slater)، تساءل دارلي ولاتيني «لما لم يقم أحد بمد يد المساعدة؟

(1) لا نستطيع كذلك استبعاد احتمال أن يكون التحيّز راجع في بعض الحالات إلى عوامل خاصة بعلم السياسة بحدّ ذاته، بالطبع (أي يما هو شائع بالبحث فيه ومتداول في أوقات معينة، بعبارة أخرى).

(2) Morton Hunt, *The Story of Psychology*, updated and revised edition (New York: Anchor Books, 2007).

هـل هـي لا مبـالاة أم هنـاك عوامـل سـيكولوجية أخـرى أخـذت مجراهـا؟ ويذكـر دارلـي أنـه عكـف لفتـرة مـن الزمـن يفكـر فـي هـذه الحادثـة نظـرًا لتفردهـا مـن جهـة، وصلتهـا بحياتنـا الراهنـة، مـن جهـة أخـرى»[3] فالمنطـق العـام يقـول إن واحـدًا علـى ألأقـل مـن بيـن الثمانيـة والثلاثيـن الذيـن شـاهدوا الحادثـة كان يتوقـع أن يرفـع سـماعة الهاتـف ويطلـب رقـم (911) [أي يطلـب الشـرطة]. لكـن التناقـض المثيـر للدهشـة يكمـن فـي مـا وجـده دارلـي ولاتينـي مـن أن هـذا الحجـم مـن المشـاهدين هـو الـذي حـال دون قيـام أحدهـم بمـد يـد المسـاعدة لكيتـي جينوفيـز. فكانـت مهمـة الاسـتجابة لمحنتهـا موزعـة علـى عـدد كبيـر مـن النـاس - وهـو مـا يدعـوه دارلـي ولاتينـي «تـوزع المسـؤولية» ويبـدو أن كلًا مـن أولئـك المشـاهدين افتـرض أن شـخصًا مـا سـيقوم بشـيء لمسـاعدتها[4]. وقـد شـرع هـذان الباحثـان فـي اختبـار فرضيتهمـا هـذه تجريبيًـا - والتـي اسـتوحياها مـن حفلـة اسـتغرقت طـوال الليل وكانـت حادثـة جينوفيز فيهـا موضوع النقـاش - وكغيرهـا مـن التجارب في علـم النفس الاجتماعـي في ذلك الوقـت، انطوت تلك التجربـة علـى كثير من الإيهـام أو الخـداع (deception).

حيـث قـاد الباحثـان الطلبـة الذيـن شـاركوا فـي هـذه التجربـة إلـى الاعتقـاد بأنهـم يشـاركون في نقاش المشـكلات الشـخصية للطلبة، كصعوبة التكيف مع الحيـاة الجامعية[5]. ولتبريـر وضـع المشـاركين كل فـي حجـرة منفصلـة مـن حجـرات المختبـر، قيـل لهـم إن الحديـث فـي المشـكلات الشـخصية قـد يكـون محرجًـا، لذلـك تـم ترتيـب جلوسـهم علـى هـذا النحـو ليتواصلـوا مـن خلال أجهـزة اتصال داخـل المختبر، وليـس وجهًا لوجـه. والواقع أن أولئـك المبحوثيـن كانـوا ينصتـون إلـى تسـجيلات صوتيـة لطلبة آخريـن يقومـون بأدوار مرسـومة لهم مسـبقًا. فكان الطلبة يوهمون في بعض الحالات بأنهم يتناقشـون مع شـخص واحـد، وفـي أحيـان أخـرى بأنهـم يتناقشـون مع ثـلاث أشـخاص، أو أربـع أشـخاص، وهكذا،

---

(3) Lauren Slater, *Opening Skinner›s Box: Great Psychological Experiments of the Twentieth Century* (New York: W. W. Norton, 2004), p. 98.

(4) John Darley and Bibb Latane: «Bystander Intervention in Emergencies: Diffusion of Responsibility,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 8 (1968), pp. 377-383, and *The Unresponsive Bystander: Why Doesn't He Help*? (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1970).

(5) Darley and Latane, «Bystander Intervention in Emergencies: Diffusion of Responsibility».

ولكنهـم فـي الحقيقـة كانـوا يسـمعون أشـرطة مسـجلة مسـبقًا. وكان الشـريط الأول علـى الـدوام هـو الشـريط ذاتـه، حيـث يُسـمع فيـه صـوت طالـب يتحـدث عـن الضغـوط التـي يواجههـا فـي الجامعـة، وحقيقـة أنـه يعانـي نوبـات صـرع. وكان الطالـب فـي الحقيقـة يمثـل ذلـك الـدور (علمًـا بـأن الطالب الـذي أدى ذلك الـدور هو ريتشـارد نيسـبت (Richard Nisbett) الـذي كان يتابـع دراسـته العليا فـي جامعة كولومبيـا في حينه، وهـو الآن أحد رواد المقاربـة الموقفيـة ونظريـة العـزو)[6].

وبعـد برهـة، كان يبـدو الصـوت على الشـريط فزعًـا ومشوشًـا، إذ كان نيسـبت يؤدي دور مـن أصابتـه نوبـة صرع بطريقـة مقنعة. فأشـارت نتائج الدراسـة إلـى أن 85 في المئة مـن الطلبـة الذيـن أعتقـدوا بأنهـم كانـوا وحدهم مع الشـخص المصـاب في ذلـك الموقف هبـوا فـورًا طلبًـا للمسـاعدة. أم الذيـن اعتقـدوا أنهم مـع خمسـة آخرين، فلم يسـع لطلب المسـاعدة منهـم غير 31 فـي المئة. ومن هنـا، فإن حضـور الآخرين أحدث عائقًـا اجتماعيًا أدى إلـى إحجـام المبحوثيـن فـي الموقـف الأخير عـن القيام بمسـاعدة شـخص يُفترض أنه يتعرض لضائقة.

وبعـد بضـع سـنوات قـام دارلـي وباتسـون (Darley and Batson) بإجـراء تجربة أكثـر إثارة للاهتمـام، أشـركا فيها طلبـة من كلية لاهـوت لاختبار أثر المشـاهد/أو عابر السـبيل اعتمادًا علـى إجراء إيهام كلاسـيكي مـن إجراءاتهمـا التجريبية[7]. فـأوكلا إلى الطلبة مهمـة التحضير لموعظـة حـول حكايـة «السـامري الطيـب» التـي يقـوم فيهـا عابـر سـبيل بتقديـم الطعـام واللبـاس لرجـل جريـح يجـده ملقـى فـي الشـارع. ويبـدو أن المجربيْـن أدخـلا عـن قصـد عنصـرًا تهكميًـا في الوضـع التجريبي، ولكنـه في الوقت ذاتـه يمثّل تحديًـا لفرضيتهما، حين اسـتخدما أفـرادًا - يُفتـرض أن يكون لديهم نزعة دينية قويـة - كمبحوثين في هذه التجربة. فهـل يمكـن وضع هؤلاء الأفراد في موقـف تجعلهم الضغوط التي يواجهونها فيه «ينسـون» تلـك القيـم؟ ماذا لو طُلب إلـى أولئك الطلبة تحضيـر موعظة حول حكاية السـامري الطيب

(6) انظر: Hunt, *The Story of Psychology*, pp. 483-484.

(7) John Darley and Daniel Batson, «From Jerusalem to Jericho: A Study of Situational and Dispositional Variables in Helping Behavior,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 27, no. 1 (July 1973), pp. 100-108.

وتتهيأ عقولهم تاليًا (لمساعدة المحتاج) ثم يقابلون «رجلًا جريحًا»، على أرض الواقع؟ لقد كان هذا هو بالضبط الموقف الذي صنعه دارلي وباتسون، لكنهما أضافا إليه عامل ضغط آخر هو عامل ضغط الوقت.

ويُعتبر التزام الوقت واحدًا من أبسط القواعد الاجتماعية التي يجب على الأفراد مراعاتها، ولكن معظم الناس يتصورون أن مفعول هذه القاعدة ليس أقوى في حال من مفعول الاعتقادات أو القيم. غير أن هذا التوقع لم يثبت أمام التجربة؛ إذ طلب المجربان إلى بعض الطلبة إنجاز الموعظة في وقت محدد، بينما قيل لبعضهم الآخر إن لديهم الوقت الكافي لإنجاز المهمة. ثم قاما بترتيب جعل المبحوثين جميعًا يمرون (كل على انفراد) بشخص جريح (هو في الواقع ممثل يقوم بالدور). وخلافًا لما يمكن أن يتوقعه معظم الناس، وليس خلافًا لما توقعه المجرِّبان طبعًا، ظهر أن تأثير الضغوط الاجتماعية فاق تأثير النزعات حين كان الطلبة يرزحون تحت ضغط الوقت لإنجاز المهمة المطلوبة، لكن تأثير النزعات كان أقوى لدى الذين أعطوا الوقت الكافي لإنجازها فكان «السامري الطيب» منهم هو من توافر لديه الوقت؛ حيث قام 63 في المئة من هؤلاء بتقديم المساعدة، مقابل 10 في المئة فقط من الفريق الأول[8].

وتكشف لنا مثل هذه التجارب، بوجه خاص، أوضاعًا تطغى فيها ضغوط المواقف الاجتماعية على القيم الأخلاقية، ومن حيث أن المواقف التي نعيشها في حياتنا اليومية نادرًا ما تخلوا من نوع ما من أنواع هذه الضغوط - إلا إذا اخترنا أن نعيش حياة الناسك كما فعل تيد كازينسكي (Ted Kaczynski) - فإننا نتوقع أن يكون للمواقف اليد الطولى في معظم، إن لم يكن في جميع الظروف التي نعيشها. ومن ناحية أخرى، نجد مبالغة شديدة في تقدير «القوة الفاعلة» للمواقف في بعض المجالات. ففي نظرية العلاقات الدولية، وكما رأينا في الفصل السابق، فإنه كثيرًا ما يُنظر إلى القادة على أنهم يستجيبون «عقلانيًا» للإشارات الواضحة التي تأتي من البيئة المعلوماتية، وقد عجز علماء نفس السياسة عن تطوير نظريتهم

(8) «From Jerusalem to Jericho: A Study of Situational and Dispositional Variables in Helping Behavior,» p. 105.

الخاصة في العلاقات الدولية (أو في الأقل، نظرية مقبولة من الباحثين الآخرين في هذا المجال، كنظرية في العلاقات الدولية، ترجح كفة المواقف أو النزعات أو تأخذهما معًا). كما رأينا أن نزعات البشر تؤدي في العديد من الحالات دورًا أقوى من دور الموقف الذي يجدون أنفسهم فيه.

ما نوع الظروف التي تجعل لنزعات الأفراد أثرًا أقوى من أثر الموقف في سلوكهم؟ إننا لا نستطيع ببساطة أن نقول «إن ذلك يعتمد»، ونترك الأمر عند هذا الحد، حيث إن القارئ يملك الحق في نوع ما من الإجابة عن ماهية ذلك الشيء الذي يحدد الدور النسبي للنزعات مقابل المواقف.

أولًا وقبل كل شيء، قد يغرينا استنتاج أن الموقفية تُفسر سلوك العامة، وأن النزعات تفسر سلوك النخبة؛ إذ أن الناس العاديين ربما يكونون أكثر عرضة للضغوط الاجتماعية، أما النخب فتتميز بالمعرفة. غير أنني أرى أن هذا استنتاج مغلوطًا فيه ضوء ما استعرضناه في هذا الكتاب. فقد اعتمد الباحثون في الخيار الانتخابي على نظريات نزوعية منذ الستينيات في الأقل، كما فعل العديد من منظري التعصب العنصري والتسامح. وكما رأينا عند تناول التفكير الجمعي، فإن صنّاع القرار - وحتى الأفضل والألمع منهم - ليسوا أقل عرضة لتأثير الضغوط الاجتماعية من عامة الناس. وهناك من دون شك فاصل بين أولئك الذين يدرسون سلوك الجماهير في علم النفس السياسي، والذين يدرسون النخب السياسية، ولكنه ليس فاصلًا واضحًا بين الموقفية والنزوعية (يريحنا من عناء الموازنة بين هاذين المنحيين).

وقد تكون هناك إجابة أخرى مفادها أن الموقفية تفسر السلوك السيىء أو «الشرير»، في حين أن النزوعية تفسر السلوك «الخيِّر» أو المرغوب فيه، كالإيثار. ولكن فيليب زمباردو يؤكد في كتابه **أثر الشيطان** - الذي أصبح الداعي الرئيس لوجهة النظر الموقفية في علم النفس السياسي - أننا نهمل الدرس الذي تنطوي عليه الموقفية إهمالًا خطرًا؛ وهذا الدرس، كما يقول زمباردو،

> كان يجب أن نتعلمه مرارًا وتكرارًا من التحولات التي ظهرت على حراس معسكرات الاعتقال النازية، وأولئك الذين ينضمون إلى طوائف التدين

المدمـرة، مــن أمثـال جماعــة جيــم جونــز (Jim Jones)، وجماعــة «أوم - شــنريكيو» (Aum Shinrikyo) اليابانيــة الحديثــة العهــد. كمــا أن المجــازر والإبــادات الجماعيــة التــي ارتكبــت فــي البوســنة، وكوســوفو، وروانــدا، وبورونــدي، وفــي منطقــة دارفــور فــي الســودان أخيــرًا، تعطــي دليــلًا قويًــا علــى اســتعداد النــاس للتنــازل عــن إنســانيتهم وعاطفتهــم كبشــر، والإذعــان للسـلطة الاجتماعيـة، وأيديولوجيـات السـيطرة، والحـرص علـى الأمـن القومـي. إن أي فعـل قـام بـه أي إنسـان، مهمـا كانـت بشـاعته، يمكـن لأي واحـد منا أن يرتكبــه فــي الظــروف الموقفيــة المناســبة أو غيــر المناســبة[9].

وقـد دخـل كتـاب زمبـاردو حـول سـيكولوجية الشـر، والعوامـل الموقفيـة المؤثـرة فيه، ضمـن الأدب الخـاص بموضـوع الإرهـاب والصـراع الإثنـي، على سـبيل المثـال. ولكـن زمباردو كمعظـم علمـاء النفـس الاجتماعـي، يقـرّون أن القـوى الموقفيـة يمكـن أن تكـون مسـؤولة عـن السـلوك المرغـوب فيـه اجتماعيًـا إلـى جانـب مسـؤوليتها عـن السـلوك غيـر المرغـوب فيـه؛ ولعـل تطبيق النظريـات الموقفية علـى العدوان وغيره من السـلوكات الضـارة اجتماعيًا، بوجـه خـاص، يعود إلى اهتمـام الباحثين (المبرّر) في تفسـير ذلك السـلوك (والمسـاعدة في تجنبـه، تاليًـا). لكننـا نجد مـن الصعب، بالقدر ذاته، تفسـير السـلوك القيادي لواحـد كأدولف هتلـر مـن دون تحليـل نزعاته، لذا فإن الإجابة البسـيطة القائلة «إن الموقفية تفسـر السـلوك المرغـوب فيـه والنزوعيـة تفسـر السـلوك غيـر المرغوب فيه» ليسـت شـافية فـي أي حال.

إلــى أيــن تأخذنــا هــذه المعطيــات؟ يأتــي واحــد مــن مفاتيــح حــل هــذه الأحجيـة مـن بحـوث دارلـي ولاتينـي (Darley and Latané)، مـرة أخـرى. إذ يبـدو أننـا حيـن نتخـذ قراراتنـا علـى انفـراد، لا وسـط جماعـة - أي عندمـا تكـون الضغـوط الموقفيـة غائبــة إلــى حــد كبيــر - تــزداد أهميــة النزعــات؛ تذكّــر أن 85 فــي المئــة مــن المبحوثيــن الذيــن كانــوا وحدهــم اســتجابوا لاســتغاثة ريتشــارد نيســبت حيــن تعــرض لــ «نوبــة الصــرع»، علــى ســبيل المثــال. وإلــى جانــب التجربــة المذكــورة ســابقًا، قــام دارلــي ولاتينــي (Darley and Latané) بتجربــة أخــرى شــهيرة طلبًــا فيهــا إلــى المبحوثيــن

(9) Philip Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil* (New York: Random House, 2007), p. 211.

الجلـوس فـي غرفـة مخبريـة وتعبئـة اسـتبيان، ثـم جـرا تسـريب دخـان إلـى الغرفـة مـن خـلال فتحـة فيهـا[10]. وقـد أخضـع المجربـان مبحوثيهـم لهـذا الوضـع إمـا فـرادى وإمـا فـي جماعـات - حيـث يكـون الأفـراد الآخريـن فـي الوضـع الجماعـي، معاونيـن للمجربيـن يقومـون بتمثيـل دور المبحوثيـن، وينفـذون تعليمـات بـأن لا يبـدوا حـراكًا عنـد رؤيـة الدخـان. دلـت نتائـج هـذه التجربـة علـى أن جميـع المبحوثيـن تقريبًـا هبـوا علـى الفـور وأبلغـوا المجـرب بشـأن الدخـان المتسـرب عندمـا كانـوا علـى انفـراد، غيـر أن 90 فـي المئـة منهـم تجاهلـوا الدخـان عندمـا كانـوا مـع آخريـن ولـم يحركـوا سـاكنًا إزاء مـا يحـدث - حتـى عندمـا ازدادت كثافـة الدخـان وتعـذرت معـه الرؤيـة، وأخـذ الأفـراد يسـعلون بتأثيـره. وبالمثـل، لوحظـت آثـار الإنسـياق للآخريـن بوضـوح فـي تجـارب آش التـي تطلبـت تقديـر أطـوال خطـوط [إمـا علـى انفـراد أو مـع جماعـة متحالفـة مـع المجـرب تُجمـع علـى تقديـرات خاطئـة]. وتتعـزز نتائـج تجـارب دارلـي ولاتينـي هـذه بنتائـج الظـروف الجماعيـة التـي صنعهـا ملغـرام فـي تجاربـه [وأشـارت إلـى أن الطاعـة تـزداد برؤيـة نموذجـات تذعـن للأوامـر][11].

إن المنطـوى العـام لهذا كله لا بـد من أن يكون واضحًا الآن؛ وهـو أن غياب الجماعة أو الضغـط الاجتماعـي يعـزز دور النزعـات. وعلـى الرغـم مـن أننـا جميعًـا عرضـة لتأثيـر وسـائل الإعـلام والمحيـط مـن حولنا، فـإن خيارنـا الانتخابـي (فـي الديمقراطيـات الحقيقية، فـي الأقـل) هـو فـي الأسـاس خيـار فـردي، هـو أمر خـاص بنـا نقـوم به بسـرية فـي حجرة التصويـت. وقـرار القائـد - وإن كان يعتمـد جزئيًـا علـى طريقـة تنظيمـه لطاقـم العمـل، ومـدى تأثـره بـآراء الآخريـن - هـو فـي النهايـة قـرار عليـه اتخـاذه بمفـرده. وتعبّـر مقولـة هـاري ترومـان عـن هـذه الحالـة بدقـة حيـن قـال، «إن مـن يجلـس علـى القمـة يجلـس وحيـدًا»، مـا يعكـس حالـة الوحـدة التـي تنتاب صانـع القـرار وهو يجلـس على قمـة البنية السياسية.

ومـع أن الضغـط الاجتماعـي يمثّـل عامـلًا مؤثـرًا فـي صانـع القـرار السياسـي، إلا أنـه لا بـد مـن وجـود عوامـل مؤثـرة أخـرى، إلـى جانـب ذلـك، بطبيعـة الحـال. ويُقـدم

(10) Darley and Latane, *The Unresponsive Bystander: Why Doesn't He Help?*.

(11) للاطلاع على مناقشة لهذا الموضوع، انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

أول هولستي قائمة شديدة الأهمية بالشروط التي تجعل للقادة كأفراد دورًا مهمًا في صنع قرارات السياسة الخارجية - ولكننا نستطيع تعميم هذه العوامل على مواقف أخرى، كالمواقف المتعلقة بالتصويت، والتسامح، والقرارات التي يتخذها عامة الناس بهذه الشؤون[12]. وفي ما يلي قائمة بالشروط التي تجعل للنزعات أهمية خاصة، من وجهة نظر هولستي:

1- «المواقف غير الروتينية التي تتطلب أكثر من مجرد تطبيق الإجراءات المعمول بها والقواعد المرعية؛ مثال ذلك، قرارات المبادرة بإقامة مشاريع دولية كبيرة أو إنهائها، بما في ذلك قرارات الحرب، والتدخل، والتحالف، وبرامج المساعدة، وما أشبه». والمواقف الجديدة وغير المألوفة التي تختلف في كثير من الوجوه عن المواقف التي واجهناها سابقًا تعزز كذلك دور النزعات والأحكام الشخصية، وذلك بسبب عدم وجود توقعات محددة تُملي الاستجابة المطلوبة - سواء كانت توقعات اجتماعية، أم تنظيمية، أم ما شابه - وتنطوي أزمة الصواريخ الكوبية على مثال ممتاز هنا؛ فعند نشوء تلك الأزمة عام 1962 لم يكن هناك «قواعد» محددة للتعامل مع أزمة نووية يجد فيها كل طرف نفسه ينساق تدريجيًا إلى مواجهة مميته. حيث قام كينيدي في حينه بإنشاء لجنة «إكس كوم» (ExComm) [اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومي] محطمًا بذلك القوالب البيروقراطية القائمة لصنع القرار، إدراكًا منه أن الروتين البيروقراطي والإجراءات المعمول بها في حينه يمكن أن تجر الولايات المتحدة إلى الحرب[13].

2- «قرارات القادة الذين يجلسون على قمة الهرم الحكومي، المتحررين نسبيًا من القيود التنظيمية، وغيرها من القيود - أو الذين يتعاملون مع أدوارهم بطرق تزيد حرية الخيار لديهم». والنموذج التجريبي المماثل لهذا الوضع هو نموذج دارلي ولاتيني الذي ضم شخصين فقط (المبحوث والضحية التي تحتاج

(12) Ole Holsti, «Cognitive Process Approaches to Decision-Making: Foreign Policy Actors Viewed Psychologically,» *American Behavioral Scientist*, vol. 20, no. 1 (September-October 1976), p. 18.

(13) Graham Allison and Philip Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Missile Crisis*, 2nd ed. (New York: Longman, 1999).

إلـى المسـاعدة)، ونمـوذج آش (Asch) فـي وضـع القـرار المنفـرد الـذي يأخـذ فيـه الفـرد قـراره بشـأن أطـوال الخطـوط [وهـي المهمـة التجريبيـة التـي اسـتخدمها آش فـي تجاربـه فـي الانسـياق] مـن دون الضغـط الاجتماعـي الـذي يأتي مـن الوجـود داخل جماعـة. هذه الأوضـاع مشـابهة لوضـع صانـع القـرار الـذي يجلـس وحـده علـى القمـة. أما على مسـتوى القـرارات التـي يأخذهـا عامـة النـاس (مقابـل النخبـة)، فلا نكـون فيها بصـدد أفـراد يقفون على قمة الهرم السياسـي، ولكننا نسـتطيع توسـيع نقطة هولسـتي هذه لتشـمل أي موقف يجـد المـرء نفسـه فيه - سـواء كان مـن النخبة أم مـن عامة النـاس - متحررًا مـن الضغوط الاجتماعيـة والمحيطيـة التـي يمكـن أن تحـدد قراراتـه بطريقـة أو بأخـرى. وبعبـارة أخرى، يكـون العامـل الفاعل هنا هو الإحسـاس بالحرية النسـبية من القيـود (constraints) - بحسـب تعبير هولسـتي.

3- «التخطيـط للسياسـة الطويلة المدى؛ وتنطـوي هذه المهمـة بطبيعتها على كثير مـن عـدم اليقيـن (uncertainty)، وتحتـل فيهـا المفاهيـم المتعلقـة (بمـا هـو كائـن)، و(مـا هـو مهـم)، و(مـا هـو محتمـل)، و(مـا هـو مرغـوب فيـه)، و(مـاذا يتعلـق بمـاذا)، تحتـل هـذه المفاهيـم قلـب العملية السياسـية». ومـن البداهي أن ينطبـق هذا العامـل أكثر ما ينطبـق علـى صناعـة القـرار على مسـتوى النخبـة، ولكن قـد يكون هـذا العامـل ذو صلة أيضًـا بصناعـة القـرار لـدى عامة النـاس حين يجب علـى الفرد إجـراء تقديـرات لما يمكن أن يحـدث في المسـتقبل.

4- «عندمـا يعتـرى الموقـف ذاتـه الكثيـر مـن الغمـوض، ويكـون بذلـك مفتوحًـا علـى العديـد مـن التفسـيرات. وقـد يعـود غمـوض الموقـف إلـى نـدرة المعلومـات؛ أو تدانـي نوعيتهـا أو صدقيتهـا، أو التناقـض فـي مـا بينهـا، أو اتسـاقها مـع تفسـيرين مختلفيـن إلـى حـد كبيـر، أو أكثـر مـن تفسـيرين، وإذا مـا تـلازم هـذا الوضـع مـع غيـاب وسـائل موثـوق بهـا للاختيـار بيـن تلـك المعلومـات». إن حـالات الغمـوض، والتناقـض، وعـدم اليقيـن تدفـع جميعهـا إلـى الاعتمـاد علـى النزعـات فـي عمليـات صنـع القـرار[14]. وبالعـودة إلـى الفصـل الأول و«سـيناريو البنايـة المحترقـة» الشـهير، تسـاءلنا عمـا إذا

(14) انظر: Jacques Hymans, *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotion and Foreign Policy* (New York: Cambridge University Press, 2006), pp.17-18.

كنـا نحتـاج إلـى دراسـة نزعـات الأفـراد الذيـن هربـوا للبحـث عـن مخـرج عندمـا شـب الحريـق فـي المبنـى؛ فهـذا الموقـف يتسـم بدرجـة عاليـة مـن الوضـوح، ولا ينتابنـا فيـه شـك فـي مـا يجـب علينـا فعلـه للحفـاظ علـى حياتنـا. ولكننـا لفتنـا النظـر إلـى أن مواقـف مـن هـذا النـوع قليلة نسـبيًا فـي عالـم السياسـة، مـن حيـث إن أشـخاصًا، يتمتعـون بالذكاء والفطنـة قـد ينظـرون إلـى ذات الموقـف ويخرجـون باسـتنتاجات مختلفـة[15]. ومثـل هـذه المواقـف الغامضـة تسـتثير نزعـات الأشـخاص الذيـن يواجهوهـا، ونلاحـظ تباينًـا عاليًا نسـبيًا فـي الاسـتجابات الفرديـة لهـا. وكمـا أن قـرارات السياسـة الخارجيـة تُتخـذ اسـتجابة لمواقـف شـديدة الغمـوض، كذلـك فـإن قـرار التصويـت ومـا يسـبقه مـن أحـكام معرفيـة وانفعاليـة يكـون اسـتجابة لمواقـف مـن هـذا النـوع. فقـد رأينـا كثيـرًا مـن التبايـن داخـل الحـزب الديمقراطـي فـي خـلال موسـم الانتخابـات التمهيديـة عـام 2008، حـول المرشـح الأفضـل للحـزب، ولكننـا رأينـا قـدرًا أكبـر مـن التبايـن داخـل الحـزب الجمهـوري حـول مرشـحهم المفضـل. ومـن هنـا، فـإن أحكامًـا مـن هـذا النـوع تتسـم بالخصوصيـة والذاتيـة وتعتمـد علـى تقديـرات الأفـراد لاحتمـال فـوز المرشـح (أ) مثـلاً من مرشـحي حزبهـم فـي الانتخابات الرئاسـية المقبلـة، مقارنـة باحتمـال فـوز المرشـح (ب) مـن مرشـحي الحـزب الآخـر؛ كمـا أن أحكامًـا مـن هـذا النـوع تعتمـد علـى تقديـرات الأفـراد لمـدى تمثيـل المرشـح المعيـن لأفكارهـم واعتقاداتهـم إذا تـم انتخابـه، وخـلاف ذلـك مـن الاعتبـارات غيـر الملموسـة.

5- «الظـروف التـي يتوافـر فيهـا لصنّـاع القـرار فيـض مـن المعلومـات يضطـرون معـه إلـى اسـتخدام اسـتراتيجيات معرفيـة مختلفـة (مـن مثـل التصفيـف (queuing)، والتصفيـة (filtering)، والحـذف (omission) واختـزال التصنيفـات للتعامـل مـع المشـكلة بيسـر». وصنّـاع القـرار (كغيرهـم مـن النـاس) يعتمـدون طرقًـا معرفيـة مختصـرة، كالتنميـط (stereotyping)، واسـتخدام السـكيمات (use of schemas)، والقيـاس بالمماثلة (analogies) والاقتنـاع بالحـد الأدنـى [أو المتـاح مـن العلومـات] (satisficing). وقـد مناقشـة العديـد مـن هـذه الطـرق فـي الفصـل التاسـع، إلا أن واحـده منهـا لـم نـأت علـى تناولهـا، وهـي ذات أهميـة خاصـة هنـا، تلـك هـي الطريـق المعروفـة

---

(15) Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976), pp. 19-20.

ببحـث السـكير[16] (drunkard's search). وقـد بيّـن روبـرت جيرفيـز أن العديـد مـن النظريـات التـي توحـي باتسـام صنّـاع القـرار بالبخـل المعرفـي يمكـن احتوائهـا ضمـن مبـدأ بحـث السـكير الـذي نشـير إليـه هنـا. وتتلخـص القصـة وراء هـذا المبـدأ بـأن سـكيرًا أضـاع مفاتيـح بيتـه، وراح يبحـث عنهـا تحـت ضـوء الشـارع. ويأتـي عابـر سـبيل ليقـدم لـه المسـاعدة ويسـأله عـن المـكان الـذي أضـاع فيـه المفاتيـح. فيجيـب السـكير إن المفاتيـح سـقطت منـه فـي ممـر مظلـم، فيسـأله عابـر السـبيل متعجبًـا، لمـا لا تبحـث فـي المـكان الـذي وقعـت فيـه المفاتيـح، فيجيـب السـكير «الإنـارة أفضـل هنـا». والـدرس الـذي يمكـن اسـتخلاصه مـن هـذه الحكايـة هـو أن صنّـاع القـرار قـد يبحثـون عـن الدليـل فـي الأماكـن المريحـة لهـم نفسـيًا لا الأماكـن الأجـدر بالبحـث حتـى فـي مواجهـة النقـاد الذيـن لا ينفكـون يسـألون عـن حقيقـة مـا يجـري البحـث عنـه. ويظهـر هـذا الميـل بوضـوح أيضًـا فـي ميـدان البحـث فـي العلـوم الاجتاعيـة، حيـث يتـم التركيـز علـى مـا هـو قابـل للقيـاس والتقديـر الكمـي، وليـس علـى مـا يقـع فـي دائـرة الغمـوض وعـدم اليقيـن[17].

وعلـى الرغـم مـن أننـا مـا زلنا نجهـل الكثيـر عـن عملية صنـع القـرار المتعلقـة بغزو الولايـات المتحـدة للعـراق عام 2003، فإن ما تكشّـف عنها قد يوضح الظاهرة النفسـية التي نحـن بصددهـا بجلاء. حيـث أقـرّت الــ سـي آي إي (CIA) في حينـه أن علاقة صدام حسـين بأحداث الحادي عشـر من أيلول/سـبتمبر علاقة واهية، إن لم تكن معدومة، وأشـارت إلى أن مـا حـدث له علاقة بأفغانسـتان، كما يبدو واضحًـا الآن، إلا أن وزير الدفاع دونالد رامسـفيلد (Donald Rumsfeld)، ونائبـه بـول ولفويتـس (Paul Wolfowits) شـعرا بـأن العـراق يمثّـل «هدفًـا أفضـل» مـن أفغانسـتان[18]. واكتشـف بـوب وودوارد (Bob Woodward) أن ولفويتـس كان قلقًـا

(16) George Farris, «The Drunkard's Search in Behavioral Science,» *Compensation Benefits Review*, vol. 1, no. 2 (January 1969), pp. 29-33; Robert Jervis, «The Drunkard's Search,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology* (Durham, NC: Duke University Press, 1993), and Samuel Popkin, «Decision Making in Presidential Primaries,» in: Iyengar and McGuire, Ibid.

(17) Richard Betts, «Conventional Strategy: New Critics, Old Choices,» *International Security*, vol. 7, no. 4 (Spring 1983), p. 142.

(18) Richard Clarke, *Against All Enemies: Inside America›s War on Terror* (New York: Free Press, 2004), p. 31.

بشأن احتمال حصار (100000) من عداد القوات الأميركية في الجبال الغادرة، السيئة الصيت [في أفغانستان]، بعد ستة أشهر من ذلك الحين. وبالمقابل، كان العراق في قبضة نظام قمعي، هش، يسهل كسره، ولديه معارضة متحمسة لإطاحة صدام»[19].

ويروي ريتشارد كلارك (Richard Clarke) ما جرى في واحد من الاجتماعات الأولى بعد ظهر الثاني عشر من أيلول/سبتمبر عام 2001:

كان رامسفيلد يقول إننا بحاجة إلى أن نقصف العراق، وقلنا جميعًا (...) لا، لا، القاعدة في أفغانستان، إننا بحاجة إلى قصف أفغانستان. فقال رامسفيلد: ليس هناك أهدافًا جيدة في أفغانستان، وهناك كثير من الأهداف الجيدة في العراق. فقلت، «حسنًا، هناك كثير من الأهداف الجيدة في كثير من الأماكن، ولكن العراق ليس له صلة بالأمر». لقد ظننت في البداية أنه كان يمزح. ولكنني أعتقد أنهم رغبوا في أن يكون للعراق صلة بالأمر، ولكن الـ سي آي إي (CIA) كانت جالسة هناك، والإف بي آي (FBI) كانت جالسة هناك، وكنت أنا جالس هناك، وقلت إننا بحثنا الأمر لسنوات، بحثنا لسنوات ولم نجد هناك أي صلة [للعراق بأحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر][20].

6- «الأحداث غير المتوقعة التي تُظهر ردود الفعل الأولية إزاءها وجود تصورات مسبقة [تتعلق بصنّاعها]». على سبيل المثال، كانت أزمة الرهائن الإيرانية، غير مسبوقة، في كثير من الوجوه، وغير متوقعة لمعظم أعضاء إدارة كارتر، كما كان حال الثورة الإسلامية التي سبقتها، على ما يبدو. وكان الاستيلاء على السفارة الأميركية، وتورط الدولة المضيفة في ذلك، حدثًا نادرًا من الناحية التاريخية، ولم يكن هناك إجراءات قائمة للتعامل مع مثل هذا الموقف.

7- «الظروف التي يتعرّض فيها كبار المسؤولين إلى ضغوط متنوعة، ما يعيق أو يؤثر تأثيرًا جوهريًا في العمليات الذهنية المعقدة المرتبطة بصناعة القرار». وتشير البحوث حول تأثير الضغوط في صناعة القرار إلى أن القدر القليل من الضغط يحسّن عملية صنع القرار في الحقيقة، في حين أن القدر

(19) Bob Woodward, *Plan of Attack* (New York: Simon and Schuster, 2004), p. 26.

(20) انظر:

«Clarke's Take on Terror,» CBS News Website (21 March 2004), <http://www.cbsnews.com/stories/2004/03/19/60minutes/main607356.shtml>.

الكبيـر مـن الضغـط قـد يضـر بتلـك العمليـة، ولكننـا لا نُجانـب الصـواب إذا افترضنـا أن طرائـق التفكيـر المختصـرة - المعرفيـة منهـا والانفعاليـة - تـؤدي دورًا مهمًـا فـي مثـل هـذه الظـروف.

وبأخـذ هـذه العوامـل مجتمعـة بغـرض التبسـيط، نسـتطيع القـول إن الظـروف التي تتسـم بالجـدّة، والغمـوض، وعـدم اليقيـن، بوجـه عـام - والبعيـدة نسـبيًا مـن الضغـوط الاجتماعيـة أو الموقفيـة - كلهـا ظـروف تعـزز دور النزعـات فـي صناعـة القـرار. وأمـا إذا تسـاءلنا عمـا إذا كانـت الغلبـة للنزعـات أم للمواقـف، فـإن الراغبيـن فـي إجابـة بسـيطة وقاطعـة - وينتظـرون منـا أن نقـول: «الموقفيـة هـي التـي تفسـر السـلوك السياسـي» أو «النزعـات أقـوى مـن المواقـف دائمـا» - سـيجدون اسـتنتاجنا غيـر مُـرضٍ أو حتـى واهـن؛ ولكـن المؤلـف يـرى أنـه لا مفر مـن اسـتنتاج أن لكل منهمـا دورًا مهمًـا؛ وذلك يعـود بكل بسـاطة إلـى أن هنـاك قـدرًا كبيـرًا مـن الأدلـة (يأتي معظمهـا من علـم النفـس الاجتماعي) علـى أن بعـض المواقـف تسـتدعي سـلوكات، معيارية، ومحـددة، كمـا أن هناك قـدرًا كبيرًا مـن الأدلـة (يأتـي معظمهـا من علـم النفـس المعرفي) علـى أن لنزعاتنـا أهميـة خاصة في ظـروف أخـرى، هـذه الأدلـة تحـول دون إعطـاء إجابـة مبسـطة عـن السـؤال الـذي بعـث الحيـاة فـي هـذا الكتاب.

الثبت التعريفي

الإبـدال (displacement)**:** اسـتبدال موضـوع (الشـعور أو الانفعـال) بموضـوع آخـر لأن العامـة الموجهـة للموضـوع الأصلي تكـون محرّمة أو غير مقبولـة اجتماعيًا (كـره أحد الوالدين وتوجيـه الكـره أو التعصـب نحو شـخص أو جماعـة أخرى).

الاتجـاه (attitude)**:** نزعـة لتقويـم موضـوع مـا والاسـتجابة لـه باسـتمرار (بدرجة من السـلبية أو الإيجابيـة). ويتضمـن الاتجـاه مكونًـا عاطفيًـا (مشـاعر)، ومكونًـا معرفيًـا (أفـكار ومعلومـات)، ومكونًـا سـلوكيًا (اسـتجابات وأفعال).وتتشـكّل لدينـا اتجاهـات نحـو أشـخاص، وأفـكار (أو أيدولوجيـات)، وأشـياء وموضوعـات مختلفـة ممـا يحيـط بنـا (وليـس كل مـا يحيـط بنـا بطبيعـة الحـال).

الاسـتكفاء (Satisficing)**:** وهـي فـي اللغـة الإنكليزيـة كلمـة مركبـة مـن كلمتـي satisfy بمعنـى يُرضـي وSuffice بمعنـى يكفـي أو يفـي بالغـرض. يُشـار إلـى أنهـا مـن اشـتقاق هربـرت سـيمون (Herbert Simon) فـي مقالـة لـه عـام 1956، واسـتخدمها لتعنـي إمـكان الاكتفـاء أو القناعـة بمـا هـو متـاح مـن معلومـات للوصـول إلـى قـرار أو حـل مشـكلة. وذلـك لأن البشـر يفتقـرون إلـى المـوارد المعرفيـة اللازمـة للوصـول إلـى القـرار الأمثـل، فيندر أن نكـون علـى معرفـة كافيـة بـكل الاحتمـالات الممكنـة، والذاكـرة الإنسـانية وغيرهـا مـن العمليـات محـدودة ومعرضـة للخطـأ. وينعكـس الميـل إلـى الاسـتكفاء فـي صنـع القـرارات باختيـار البديـل الأول الـذي يحقـق الحاجـة المطلوبـة أو يُرضـي مختلـف الأطـراف، وليـس الحـل الأمثـل. وإن لـم تكـن هـذه الاسـتراتيجية مناسـبة لصنـع القـرارات فـي كل الحـالات حيـن يكـون البحـث عـن الحل الأمثل ضـرورة حياتيـة، إلا أن

هنـاك مواقـف يكـون فيهـا الاسـتكفاء ملائمًـا ومقبـولًا. ويظهـر الاسـتكفاء أيضًـا كسـمة شـخصية، ممـا يعني أن الأفـراد يتباينون من حيث ميلهم إلى الاسـتكفاء أو إلى السـعي للوصـول إلى الحلـول المثلى.

الاشـتراط (Conditioning)**:** عمليـة التغييـر المنهجـي لسـلوك الكائـن الحي من خلال السـيطرة أو التحكـم فـي البيئـة المحيطة به.

إشـراط (Conditioning)**:** وهـي الحالـة التـي يـزداد فيهـا احتمـال تكـرار السـلوك - المرغـوب فـي العـادة - بعـد أن يلقـى تعزيـزًا أو مكافـأة. وقـد اسـتغرق البحـث فـي الإشـراط، والمنظـور السـلوكي العـام الـذي يتبنـاه، الجـزء الأكبـر مـن القـرن العشـرين وشـهد تطبيقـات واسـعة، ولا يـزال، فـي مجـالات التربيـة، والصناعـة، ومؤسسـات العمـل المختلفـة، والعـلاج النفسـي، والصحـة. وتطـورت حـول الإشـراط مفاهيـم وممارسـات تطبيقيـة كتعديـل السـلوك، والبرمجـة السـلوكية، والتحفيـز وغيرهـا.

الامتثال/الانسـياق (conformity)**:** النزعـة إلـى السـير فـي ركاب الأخرين سـلوكًا وفكـرًا (وربما شـعورًا أيضًـا). وينتـج الانسـياق عـن رغبـة الفـرد فـي فعـل «الصـواب» (حيـث يكـون مـا تفعلـه الجماعـة هـو معيـار الصـواب فـي نظـره)، أو ينتـج عـن رغبتـه فـي قبـول الآخريـن لـه، أو لـكلا الأمريـن معًا.

الأنـا الأعلـى (Super Ego)**:** الضميـر فـي نظريـة فرويـد، ويمثـل الجانـب مـن الشـخصية الذي يعكـس القيـم الاجتماعيـة والمعاييـر والأحـكام السـائدة فـي مجتمـع مـا. وهـي تبـدأ مـع التربيـة الوالديـة المبكـرة وتعلـم الطفـل التمييـز بيـن الصـواب والخطـأ - وفـق المعتقـدات الدينيـة والاجتماعيـة التي تأخذ بها الأسـرة. ويتمثل الفرد تلـك المعطيات ويسترشـد بهـا على المسـتويين الشـعوري واللاشـعوري.

الإنســان الاقتصــادي (Homo Economicus)**:** منظــور ســائد فــي العديــد مــن النظريــات الاقتصاديــة يقــوم علــى افتــراض النفعيــة فــي الطبيعــة الإنســانية والرغبــة فــي امتـلاك الثـروة، ويعـود هـذا المفهـوم أساسًـا إلـى جـون سـتيوارت مـل فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر الـذي رأى أن الإنسـان مخلـوق عقلانـي يرغـب فـي تحقيـق

المنفعـة الذاتيـة وكسـب الثـروة وهـو قـادر علـى تقويـم الوسـائل المتاحة واتبـاع ما يحقـق لـه هـذا الهـدف بأقـل قـدر مـن الجهـد. ويشـير افتـراض العقلانيـة إلـى قدرة الإنسـان علـى إدراك الفـرص المتاحـة وتقويمهـا واختيـار مـا يحقـق المنفعـة الذاتيـة بأقـل قـدر مـن التكاليـف، لا لأن أهدافه عقلانيـة بالمعنـى الاجتماعـي أو الأخلاقي أو الإنساني.

الإنسـان النفسـاني (Homo Psychologicus)**:** وهـو منظـور قائـم علـى علـم النفـس عمومًـا وعلم النفـس الاجتماعي والمعرفـي خصوصًا. ومقارنة بمنظور الإنسـان الاقتصـادي، يُنظر إلى العقلانيـة علـى أنهـا محـدودة بحـدود العقل الإنسـاني من حيـث قدرته علـى معالجة المعلومـات، ووسـائله فـي التعامل مـع «الأحمال الزائـدة» منها وما تنطـوي عليه هذه الوسـائل مـن معيقـات ذهنيـة وانفعاليـة تحـد مـن العقلانيـة. ويعطـي هـذا المنظـور اعتبـارًا للضغـوط الاجتماعيـة التـي يمكـن أن تقـود الفـرد إلـى السـلوك بطرائـق غيـر عقلانيـة أو مناقضـة لاعتقاداتـه وقيمه.

تجريـد الآخـر مـن إنسـانيته (Dehumanization)**:** وتتمثـل فـي النظـر إلـى الآخـر، أو الآخريـن علـى أنهـم مجـردون مـن الصفـات التـي تجعلهـم بشـرًا، والتعامـل معهـم فـي ضـوء هـذا الإدراك. وتسـاهم عمليـة التجريد من الإنسـانية في احتمال ممارسـة العنف ضد الافـراد أو الجماعـات موضـوع هـذه العملية.

تحليـل عقيـدة صانـع القـرار (Operational Code Analysis)**:** أرسـى ليتـس (Leits, 1951-1953) قواعـد هـذا التحليـل في بدايـة الخمسـينيات وطـوره ألكسـندر جـورج (Alexander George) 1969-1979)، وهولسـتي (Holsti, 1977) وولكلـر (Walker, 1990). وتعتبر اعتقادات القادة السياسـيين موجهـات مهمـة إن لـم تكـن مسـببات رئيسـة، لقراراتهـم السياسـية. ووفقًـا لهـذا المفهـوم، فـإن نظـام الاعتقـاد لـه مكونـان: الاعتقـادات بالفلسـفة العامـة للفـرد حول طبيعـة الحيـاة السياسـية)، والاعتقـادات الذرائعيـة (instrumental beliefs) (كيـف يمكـن لصانـع القـرار لتحقيـق أهدافـه). وهاتـان المنظومتان مـن الاعتقادات تفسـران نزعات الاختيـار لـدى صنّـاع القرار.

التحليـل الماورائـي (meta-analysis)**:** تكنيـك إحصائـي يلخـص نتائـج الدراسـات المتعـددة في موضـوع مـا ويقـوِّم اتجاههـا العام.

التذويـت (Internalization)**:** عمليـة اسـتدخال المعاييـر والقيـم والموجهـات الاجتماعيـة فـي الـذات لتصبـح جـزءًا مـن نسيجها، وتتحول عمليـة التوجيـه بالتالـي من الخـارج (من وسـطاء التنشـئة الاجتماعيـة) إلى الـذات فيعمل الفرد باتسـاق مع متطلبـات المحيط الاجتماعـي بدوافـع ذاتية.

التركيـب التكاملـي (integrative complexity)**:** ويشـير إلـى أسـلوب اتخـاذ القـرار مـن حيـث التبسـيط (فـي التعامل مـع المعلومات والأفـكار) أو التركيب. ويميز سـودفيلد وتتلوك بيـن أسـلوبين فـي صنـع القـرار: أسـلوب مبسّـط وآخـر مركـب. (وتتميـز القـرارات المبسـطة فـي أنهـا تتمحـور حـول النقـاط البـارزة فـي القضيـة، والنظـر إلـى الأبـدال علـى أنهـا إمـا حسـنة وإما سيئة، والسـعي إلى حلـول سـريعة. أمـا القـرارات المركبة فتتميـز بمعالجـة منفتحـة ومرنـة للمعلومـات، والنظـر إلـى الأبعـاد المختلفـة للقضية والبحـث المتواصـل عـن الجديـد، وتنـاول وجهـات نظـر متعـددة وربطهـا علـى نحـو متكامـل، والاسـتجابة بمرونـة.

التصنيـف (categorization)**:** عمليـة ذهنيـة نـرى من خلالها الأشـخاص أو غيرهـم مـن المثيرات (الموضوعـات أو الأشـياء) كأعضـاء فـي جماعـات لا كأفـراد مسـتقلين بذواتهـم (أو وحـدات مسـتقلة بذاتهـا). وتمثـل هـذه العمليـة أسـاس التصويـر النمطـي للجماعات المختلفة.

التعزيـز (Reinforcement)**:** العمليـة التـي تـؤدي بالإنسـان أو الحيـوان إلـى تعلـم سـلوك مـا (فينـزع إلـى تكـرار ذلـك السـلوك) حيـن يكافـأ علـى القيـام بـه.

التعصـب (Prejudice)**:** تعنـي كلمـة تعصـب فـي اللغـة الإنكليزيـة الحكـم المسـبق، وتعبـر فــي علــم النفــس الاجتماعــي المظهــر أو المكــون العاطفــي مــن الاتجــاه نحــو جماعـة مـا ويتمثـل بمشـاعر القبـول أو النفـور مـن أعضـاء تلـك الجماعـة. فهـو لا يقتصـر علـى كراهيـة جماعـة مـا وإن كان يسـتخدم مصطلـح التعصـب فـي إطـار المنـاوَأة والنفـور. وقـد يتطـور التعصـب ضـد الجماعـة المغايـرة للفـرد فـي العنصـر أو الإثنيـة أو القوميـة أو الجنـس وغيرهـا مـن الفـروق بيـن الجماعـات.

ويصاحب التعصب اعتقادات، وصور نمطية، وغير ذلك من الإدراكات غير المبنية على أسس عقلانية تنعكس على الممارسات التي يتلقاها أو يتعرض لها الفرد بناء على انتمائه إلى الجماعة.

التفكير الجمعي (group think)**:** حالة ذهنية تعيق الجماعة عن الوصول إلى قرارات سديدة وأحكام راشدة تكون فيها الجماعة، وفق ما يرى جانيس (Janice) واضع هذا المصطلح، متماسكة تماسكًا شديدًا تصبح معه رغبتها في توحيد الكلمة والوصول إلى إجماع أقوى من حاجتها إلى تقويم البُدَلاء (أو المعلومات) المتاحة تقويمًا واقعيًا - ويتجلى ذلك في إهمال المعلومات المخالفة للرأي المجمع عليه، والوقوف بحزم في وجه الخارجين على الإجماع.

التمييز (Discrimination)**:** ويشير إلى الممارسات الفعلية التي تتبع ضد فئة أو جماعة، ويمثّل تاليًا المكون السلوكي من الاتجاه نحو تلك الجماعة. ويتمثل في حرمان أعضاء الجماعة فرص التعليم أو التوظيف وغير ذلك من أشكال التمييز، ومن أبرز أشكاله التمييز العنصري، والتمييز الجندري/الجنوسي.

التنافر المعرفي (Cognitive Dissonance)**:** حالة من الضيق يستشعرها الفرد عندما يدرك وجود عدم توافق بين اثنين أو أكثر من الأفكار أو المعتقدات أو القيم لديه. ويعتقد فستنغر، واضع هذا المصطلح، أن الإنسان يمتلك دافعًا يدفعه إلى التخلص من التنافر أو التناقض ويعيد التوازن أو الانسجام بين الأفكار. ويتحقق ذلك بتغيير واحد من الأفكار المتعارضة أو تعديله، أو إضافة أفكار جديدة تسد الفجوة، أو التقليل من أهمية عنصر ما من العناصر الباعثة على التنافر.

التوزيع العشوائي (Random Assignment)**:** توزيع الأفراد على مجموعات التصميم التجريبي، بحيث يكون لكل فرد فرصة مساوية لفرصة أي فرد آخر في الوقوع في أي مجموعة من المجموعات التي يشملها التصميم سواء التجريبية منها أو الضابطة. ويرمي هذا الإجراء إلى تحييد الفروق

الفردية (العقلية أو الشخصية أو الاجتماعية) بين المجموعات قبل البدء بالتجريب.

الثقافة السياسي (Political Sophistication)**:** يشير هذا المصطلح إلى مقدار ما يحمل الفرد من المعرفة المنظمة بالشؤون السياسية. ويُبيّن الباحثون المهتمون بهذا المجال أن للثقافة السياسية آثارًا على جوانب مختلفة من جوانب السلوك السياسي للجماهير سياسيًا وآرائهم السياسية ويشير الباحثون إلى اختلافات بين المثقفين وغير المثقفين في معالجتهم للمعلومات السياسية، وفي سلوكهم وتفضيلاتهم الانتخابية، ومشاركتهم السياسية. ويتضمن أدب الموضوع مقاييس لقياس هذا المتغير، مثال ذلك مقياس روبرت لاسكن وجون بولوك.

الخطأ الأساس في العزو (Fundamental Attribution Error)**:** الميل إلى المبالغة في عزو سلوك الشخص الملاحظ (في موقف ما من مواقف الحياة اليومية) إلى أسباب شخصية، نزوعية لدى ذلك الشخص، والتقليل من أهمية الموقف الذي أحاط به عند القيام بذلك السلوك. ويعتبر هذا الميل مصدرًا من مصادر التوتر والخلاف في العلاقات بين الأشخاص.

سكيما (Schema)**:** السكيمات هي الوحدات الأولية للمعرفة، تنتظم فيها الأفكار والمعلومات المتعلقة بالعالم الخارجي - والمتعلقة بالذات (Self) كذلك. وما أن تتكوّن السكيما حتى تأخذ دورة حياة خاصة فقد تنمو وتتسع وتتفرع أو تظل ضامرة ومحدودة وفقًا للمدخول المعلوماتي الذي يُتاح لها. وهي تنظم المدخول الجديد وتتمثله على نحو يتناسب معها، أو تتعدل وتتواءم مع ذلك المدخول إذا كان مختلفًا مع معطياتها. واستخدام السكيمات يسرع التعامل مع المعلومات الجديدة ويقلل الجهد المطلوب ويساعد على الاستجابة للمواقف في ضوء ذلك. وتتسم السكيمات بمقاومتها للتغيير وتؤثر في مجمل العمليات المعرفية على نحو يجعل معالجة المعلومات تأتي بنتائج متسقة معها، فتُنشىء نوعًا من الثبات في رؤية الإنسان للعالم.

السلوك السياسي (Political Behavior)**:** يشير السلوك السياسي في تعريفه الواسع،

وفـق مـا يـرى مؤلف هـذا الكتـاب، إلـى أي نشـاط يرمـي إلـى تحقيـق غاية سياسـية. ويشـمل بذلـك النشـاطات التـي يمارسـها النـاس العاديـين فـي المشـاركة السياسـية - مـن الانضمـام إلـى الأحـزاب، والتصويـت فـي الانتخابـات، إلـى الاحتجـاج والتظاهـر وحتـى السـلوك المتطـرف - كما يشـمل سـلوك النخبة السياسـية مـن صنّاع القـرار في حكومـات الدول.

السـيرة النفسـية (Psychobiography)**:** كتابـة للسـيرة الحياتيـة الخاصـة لأشـخاص ذوي أهميـة كالقـادة السياسـيين أو الفنانيـن، بالاسـتناد إلـى أحـد المنظـورات النفسـية إلـى الشـخصية الإنسـانية وكيفيـة تشـكيلها. وقـد احتلـت مدرسـة التحليـل النفسـي موقـع الصـدارة بوصفـه أساسًـا لوضـع السـير النفسـية التـي ظهـرت حتـى الآن.

الصـورة النمطيـة (Stereotype)**:** منظومـة مـن الاعتقـادات بشـأن جماعـة مـا، ومـا تمتلكـه مـن خصائـص شـخصية وأنمـاط سـلوكية (قد تكـون إيجابيـة أو سـلبية فـي طبيعتها)، وتشـكل هـذه الاعتقـادات المكـون المعرفـي مـن الاتجـاه نحـو الجماعـة. وتنطـوي الصـورة النمطيـة علـى تضخيـم الخصائـص المميـزة للجماعـة فـي نظرهـا، وتقليـص للفـروق بيـن أعضـاء الجماعـة موضـوع الصـورة. وترتبـط الصـور النمطيـة بتميـزات معرفيـة (فـي معالجـة المعلومـات المتعلقـة بهـا) وبتميزات سـلوكية قد تقـود الأفراد موضـوع الصـورة إلـى السـلوك بالطريقـة المتوقعة منهـم «نمطيًـا»، وهو مـا يعرف بـ «النبـوءة المحققـة لذاتهـا».

علـم النفـس الاجتماعـي (Social Psychology)**:** الدراسـة العلميـة لعمليـات التأثيـر الاجتماعـي، والمعرفـة الاجتماعيـة والعمليـات الذهنيـة التـي تكتنفهـا، والعلاقـات الاجتماعيـة وتطورهـا. ويُعنـى بوجـه خـاص بأثـر الموقـف فـي السـلوك والأفـكار والمشـاعر.

علـم النفـس البيولوجـي (Biological Psychology)**:** الفـرع مـن علـم النفـس الـذي يبحـث فـي الأسـس البيولوجية/العصبيـة للسـلوك والعمليـات العقليـة، وخصوصًـا مـا يتعلـق منهـا بالدمـاغ والجهـاز العصبـي المركـزي.

علـم النفس التطـوري (Evolutionary Psychology)**:** دراسـة للأصول البيولوجية للسـلوك الإنسـاني (بمـا فيـه السـلوك الاجتماعي) التي تشـكلت من خلال عمليـات الانتقـاء الطبيعي لما هو صالـح للبقاء.

علـم النفـس السياسـي (Political Psychology)**:** ميـدان أكاديمـي يجمـع بيـن دراسـة علـم النفـس والعلـوم السياسـية (وميادين أخـرى كالاقتصـاد، وعلـم الاجتمـاع، والفلسـفة والتاريـخ والصحافـة وغيرهـا) يـدرس السياسـيين والممارسـات السياسـية مـن منظـور نفسـي. ويركـز فريـق مـن الباحثيـن فيـه في الغالـب على دراسـة السـلوك والقـرارات السياسـية للنخبة في حين يركز فريق آخر على دراسـة السـلوك السياسـي والمشـاركة السياسـية للعامـة. ويتناول السـلوك السياسـي كظواهـر تتأثـر بالأفراد والسـياقات التي يتفاعلـون معهـا فتدخل دراسـة الشـخصية والدوافع والنشـاطات الذهنيـة والاعتقادات كمدخـلات أساسـية تتفاعل مع قـوى المحيط السياسـي وطبيعة المهمـات التي يجري التصـدي لهـا. وبطبيعـة الحـال، فإن دراسـة هـذه المدخلات فـي ضوء منظور سياسـي سـيكولوجي يقـدم التفسـير للسياسـات والقرارات.

علـم نفـس الغشـتالت (Gestalt Psychology)**:** مـن أوائـل النظريـات المعرفيـة في علـم النفس، تطـورت على يـد كوهلر (Kohler)، وكوفـكا (Koffka)، وليفين (Levin) قبيـل الحرب العالمية الثانيـة. وتعطـي هذه النظرية أهمية كبرى لإدراك الإنسـان للمحيـط ودوره في توجيه السـلوك. ومـن ثم تركـزت بحوث هـؤلاء الرواد علـى دراسـة خصائص الإدراك البشـري وانعكاسـها علـى المعرفـة والسـلوك والتعلـم. وجـاءت تسـمية غشـتالت (والتـي تعني «الـكل» بالألمانيـة) من «الشـكل الكلـي» التي ينطلـق منها الإدراك البشـري في رؤيته للعالـم بحسـب اعتقـاد هـذه المدرسـة، واعتمـدت مقولـة أرسـطو فـي «أن الـكل هو أكبـر من مجمـوع الأجـزاء». وأكدت هذه المدرسـة الطبيعـة المتغيرة لإدراك الإنسـان للأشـياء وفقًـا للسـياق الكلـي الـذي يحتويها. وقـد نقل ليفيـن معطيات هـذه النظرية وطبقهـا علـى دراسـة الإدراك والسـلوك الاجتماعييـن، وكان رائـد المقاربـة الموقفيـة حيـث رأى أن السـلوك لا يُفهـم إلا فـي ضوء الموقـف المحيط.

علـم النفـس المعرفـي (Cognitive Psychology)**:** الدراسـة العلميـة للعمليـات العقليـة العليـا، يتنـاول الذاكرة كجهـاز لحفظ المعلومـات، طبيعتـه ومكوناته وكيفية عملها، والنسـيان والعوامـل المؤثـرة فـي الاحتفـاظ بالمعلومـات أو خسـرانها ومـا قـد يعتريهـا مـن تغييـر أو تحريـف، والإعاقـات التـي قـد تتعـرض لهـا الذاكـرة وما تكشـفه عن أسسـها البيولوجيـة. ويتنـاول عمليـات التفكيـر من حيث مكوناتـه من مفاهيم، وأطـر معرفية، وصـور؛ وعمليـات صنـع القـرارات والاسـتراتيجيات المتبعـة فيهـا ومصادر الخطـأ فيها. ويتنـاول عمليـات حـل المشـكلات، وعمليـات الإبـداع والتفكيـر الابتكاري.

قيـاس التمثيل/المماثلـة (Analogical Reasoning)**:** وهـو عمليـة معرفيـة يجـري فيهـا اسـتنتاج شـيء عـن موضـوع لصلاحيـة الاسـتنتاج فـي حالـة موضـوع آخـر [الحكـم علـى الجزئي لثبـوت الحكـم فـي جزئي آخـر، عـن **المعجـم الفلسـفي** لجميـل صليبـا، 1971، ص68]. وقيـاس المماثلـة مظهـر مـن مظاهـر التفكيـر الإنسـاني كمـا هـو الاسـتقراء والاسـتنباط يجـري اسـتخدامه فـي العلـوم والفلسـفة واللغـة والعلـوم الاجتماعيـة. وتـؤدي المماثلة دورًا هامًـا فـي حـل المشـكلات وصنـع القـرارات، وعمليـات التعـرف والتذكـر وغير من العمليـات المعرفية.

اللاشـعور (Unconscious)**:** ذلـك الجـزء مـن العقـل الـذي يختزن الصراعـات والخبـرات المؤلمة المكبوتـة والتـي لا يتـم اسـترجاعها إلا مـن خـلال التحليـل النفسـي. وقد تتسـرب من خـلال الأحـلام وزلات اللسـان وغيـر ذلـك مـن أشـكال التعبيـر التـي لا تخضـع للعقـل الواعي.

اللـوزة (Amygdala)**:** جـزء من الجهـاز العصبي يتحكم بالانفعـالات، والعدوان وتشـكّل الذاكرة الانفعالية.

المقاربـة السـيكوديناميكية (Psychodynamic Approach)**:** منظـور مـن علم النفس يـرى بأن الجزء الأعظـم من السـلوك البشـري هو نتـاج قوى ودوافع لاشـعورية.

المكنزمات/الآليـات الدفاعيـة (Defense-Mechanisms)**:** اسـتراتيجيات تسـتخدمها الأنـا من وجهة نظـر التحليل النفسـي للتخفيف مـن حالة القلق الناجـم عن الصراع (بيـن الأنا والهو) والتـي تعمل على تشـويه الواقع وخـداع الذات.

الموقفيـة (Situationism)**:** مدخـل (أو منظـور) لفهـم السـلوك الإنسـاني تُعتبـر فيـه البيئـة، أو الموقـف المحيـط بالفـرد، العامـل الأكثـر أهمية فـي تشـكيل أو توجيه سـلوكه.

النزوعيـة (Dispositionism)**:** مقاربـة (أو منظـور) يُعتبـر فيـه الفـرد ومـا يحملـه مـن قيـم واعتقـادات وخصائـص شـخصية العامـل الأكثـر أهميـة فـي توجيـه سـلوكه.

نظريـة الإحبـاط - العـدوان (Frustration-Aggression Theory)**:** نظريـة تفسـر العـدوان بـرده إلى الإحبـاط الناجـم عـن إعاقـة الفـرد مـن الوصول إلـى هدف.

نظريـة التحليـل النفسـي (Psychoanalytic Theory)**:** هـي نظرية فرويد في الشـخصية والسـلوك الإنسـانيين؛ تعطـي الأهميـة الكبـرى للغرائـز، والدوافـع اللاشـعورية، وآليـات الدفـاع النفسـية التـي يسـتخدمها الفـرد فـي مواجهـة الدوافـع غيـر العقلانيـة الكامنـة لديه.

نظريـة العـزو (Attribution theory)**:** تتضمـن فـي الواقـع عددًا مـن النظريات التي تشـترك في سـعيها لتحديـد المبـادئ التـي تحكـم اسـتنتاجاتها للأسـباب التـي تقـف وراء السـلوك والآثـار المترتبـة علـى العـزو السـببي/التحليلي (Casual attributions) الـذي نصـل إليـه أو نستنتجه.

نمـوذج الإشـراط الإجرائـي (Operant Conditioning Model)**:** نمـوذج طـوره سـكنر أحـد رواد المدرسـة السـلوكية، ويـرى أن السـلوك يـزداد قـوة بالتعزيـز ويضعـف بتوقـف التعزيـز.

الهويـة الاجتماعيـة (Social Identity)**:** جانـب مـن جوانـب مفهـوم الفـرد لذاتـه ينبثـق عـن عضويتـه فـي جماعـة أو جماعـات معينـة (وفـق تصنيـف الفـرد لنفسـه وتصنيـف الآخريـن لـه)، ومـا يصاحـب ذلـك المفهـوم مـن ارتباطـات عاطفيـة، واعتبـارات اجتماعيـة تتصـل بمكانـة الجماعـة مقارنـة بغيرهـا مـن الجماعـات.

ثبت الأعلام

آش، سـولومون (Asch, Solomon) (1907-1996): يعتبـر سـولومون آش رائـدًا مـن رواد علـم النفـس الاجتماعـي، سـاهم مسـاهمة فاعلـة فـي إرسـاء قواعـد المنهـج التجريبـي في علـم النفـس الاجتماعـي. اختـط طرائـق مبتكـرة لدراسـة الإدراك الاجتماعـي، وتكوين الانطباعـات مسـتلهمًا النظريـة الغشـتالتية (ذات الأصـول الألمانيـة) فـي علـم النفـس لاسـتخلاص المبـادئ العامة لهـذه العمليات الذهنيـة - الاجتماعية وآثارها في السـلوك والتفاعـل الاجتماعييـن. لكـن بحوثـه فـي مجـال التأثيـر الاجتماعـي وفـي ظاهـرة الامتثال/الانسـياق علـى وجه التحديـد تعد أبرز إنجازاتـه وأكثرها إبداعًا. فقد اسـتطاع آش مـن خـلال إجـراءات تجريبية بسـيطة الكشـف عن حقائـق عميقة تتصـل بطبيعة التأثيـر الاجتماعـي ودوره فـي فهمنا لأحكام البشـر على الواقـع ورؤيتهم له. واسـتنادًا إلـى خلفيتـه الغشـتالتية أكد أن السـلوك الاجتماعي يجـب أن يُفهم في ضوء السـياق الـذي يجـري فيـه، وأنـه يفقـد معنـاه بمعزل عـن ذلك السـياق.

أولبـرت، غـوردون (Allport, Gordon) (1897-1967): عالـم نفـس أميركي، يُعد واحدًا من مؤسسـي ميـدان علم النفس بوجه عام، وعلم نفس الشـخصية بوجه خاص (personality psychology). أخـذ اتجاهًـا مسـتقلًا فـي دراسـة الشـخصية الإنسـانية مغايـرًا للمنظوريْـن الفرويـدي والسـلوكي اللذيـن كانـا مهيمنيـن فـي حينـه (والمتباعديـن نظريًـا إلـى حـد كبيـر)، ومشـددًا علـى تفرد الشـخصية، وأهمية السـياق الراهـن لفهمها. انصبّ اهتمامه على دراسـة السـمات الشخصية وقياسـها، ومن ثم على دراسـة ظواهر اجتماعية كالتعصب. وكان يبحـث فـي مناطـق بكـر غيـر مطروقـة، وبأدواتـه الخاصـة. تـرك أثـرًا قويًـا فـي

طلبتـه فـي هارفـرد، وبـرز منهـم كثيريـن فـي مـا بعـد. لـه مؤلفات فـي سـيكولوجية التعصـب، والشـخصية، والديـن. عمـل فـي جامعـة هارفـرد مـن 1930-1967، ومُنـح جائـزة الميداليـة الذهبيـة مـن مؤسسـة علـم النفـس الأميركيـة عـام 1963، وجائـزة الإنجـاز العلمـي المتميـز مـن الرابطـة الأميركيـة لعلـم النفـس.

بنكـر، سـتيفن (Pinker Steven) (- 1954): عالـم نفـس كنـدي، متخصـص فـي علـم المعرفـة، واللغـة، وأسسـها البيولوجيـة. تتمحـور بحوثه حـول المعرفـة البصرية واكتسـاب اللغة المبكـر مـع التركيـز علـى الأبعـاد العصبيـة لهـذه العمليـات. وقع ضمـن قائمـة المئة لأكثـر العلمـاء والمفكريـن تأثيـرًا فـي العالـم عـام 2004 وفق **مجلـة التايم**. مـن أكثر كتبه تـداولًا: «غريزة اللغـة»، و«كيف يعمل الدمـاغ»، «الكلمات والقواعـد»، «الصفحة البيضـاء»، «مـادة الفكر»، وهـي تدمج علـم المعرفة بعلـم النفس التطـوري والجينات السلوكية.

جانيـس، إيرفنـغ (Janis, Irving) (1918-1990): حصـل علـى الدكتـوراه فـي علم النفـس من جامعة كولومبيـا، والتحـق عـام 1947 بهيئـة التدريـس فـي جامعـة ييـل، حيث عمل مـا يقارب أربعيـن عامًـا، ثـم عمـل كأسـتاذ شـرف فـي جامعـة بيركلـي. بحث فـي موضـوع تغيير الاتجاهـات ثـم أخـذ فـي دراسـة ديناميـات الجماعـة، وصُنـع القـرارات ممـا قـاده إلـى الكشـف عمـا سـماه ظاهـرة التفكيـر الجمعـي (groupthink)، والتـي تشـير إلـى ميـل الجماعـات إلـى الوصـول أحيانًا إلـى إجمـاع بتأثير الضغـوط الخفية للجماعـة، ولأهداف اجتماعيـة ليسـت ذات صلـة بمضمـون القـرار، مـا يُعيقهـا عـن معالجـة المعلومـات المتاحـة بطرائـق بنـاءه. ووضـع تاجفـل مـا يزيـد عـن عشـرة كتـب فـي هـذا المجـال، ونـال جائـزة الرابطـة الأميركيـة لتقـدم العلـوم، وجائـزة الإسـهام العلمـي المتميـز مـن الرابطـة الأميركيـة لعلـم النفـس، وجائـزة مماثلـة مـن جمعيـة علـم النفـس الاجتماعـي التجريبي.

جيرفيـز، روبـرت (Jervis, Robert) (- 1940): حصـل علـى الدكتـوراه فـي العلـوم السياسـية مـن جامعـة بيركلـي، ويعمـل أسـتاذًا للعلاقـات الدوليـة فـي جامعـة كولومبيـا. تتمحـور بحوثـه حـول التحيـزات الإدراكيـة التـي تكتنـف عمليـة صنـع القـرار فـي العلاقـات الدوليـة، ومـن كتبـه المعروفـة فـي هـذا الإطـار **الإدراك وسـوء الإدراك فـي العلاقـات الدوليـة**، و**منطـق الصـور فـي العلاقـات الدوليـة**، و**النظـام**

وتعقيدات الحياة السياسية والاجتماعية. وله كتابات ينتقد فيها سياسة بوش نقدًا شديدًا. ساهم في مشاريع بحثية حول الانتشار الذري ووضع كتابًا في هذا الموضوع. وعمل رئيسًا للجمعية الأميركية للعلوم السياسية.

زمباردو، فيليب (Zimbardo, Philip) (- 1933): عالم نفس اجتماعي أميركي، درس علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجي في دراسته الأولى، ثم حصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة ييل. يعمل في جامعة ستانفورد منذ عام 1967. وتمثل التجربة التي أجراها ورد حول حياة السجن أشهر إنجازاته، وقد قدم فيها الدليل على أثر المواقف والأوضاع الاجتماعية على السلوك الإنساني. له بحوث في نظرية «المنظور الزمني» و«المُخيلة البطولية» عن إمكان تعديل السلوك العدواني. وقد أعادت فضيحة سجن أبو غريب في العراق الاهتمام بأعماله ووضع كتابًا حول سيكولوجية التأثير الاجتماعي بعنوان **تأثير الشيطان** (*The Lucifer Effect*). ترأس الجمعية الأميركية لعلم النفس، ونال عددًا من الجوائز القيمة على إسهاماته العلمية في هذا المجال.

زيليكوف، فيليب (Zelikow, Philip) (- 1954): دبلوماسي، ومحام، وأكاديمي أميركي. يعمل استاذًا للتاريخ في جامعة فيرجينيا. وعمل مديرًا تنفيذيًا للجنة الحادي عشر من سبتمبر لدى الحكومة الأميركية ومستشارًا في وزارة الخارجية. التحق بالعمل الحكومي في الشؤون الخارجية، وشؤون الأمن القومي، وتولى مهام رسمية عديدة من خلال مجلس الأمن القومي الأميركي، ووضع مع كونداليزا رايس دراسة حول الوحدة الألمانية. تولى مهمات تتعلق بالحرب على الإرهاب، وكان ناقدًا لممارسات الحكومة الأميركية فيها، ولسياستها في الشرق الأوسط.

سكنر، بوروس فريدريك (Skinner, Burros Fredric) (1990-1904): أحد رواد المدرسة السلوكية وأبرزهم. أسهمت نظريته في وضع أسس علم النفس الحديث، ارتأى فيها أن يُقيم علمًا دقيقًا على غرار المنهج العلمي في العلوم الطبيعية، وركز في دراسته للسلوك تاليًا على المشاهَد القابل للملاحظة والقياس، واعتقد أن البحث في العقل والإرادة الحرة لا يستوفي

شـروط المنهج العلمـي الصارم. مناقضًـا بذلك موقف المدرسـتين المعرفية والإنسـانية فـي علـم النفٍـس. ولكن فحصـه الدقيـق لآليات الإشـراط من خـلال «صندوق سـكنر» والتحليـل التجريبـي للسـلوك، أغنـى المعرفـة النفسـية، وأسـهم فـي ابتـكار تطبيقـات جوهريـة فـي مجـالات علـم النفـس التربـوي، والتنظيمـي، والعـلاج النفسـي، والكثيـر غيرهـا. وهـو واحـد مـن أغـرز رواد علـم النفـس انتاجًـا، نشـر مـا يقـارب 200 مقالـة علميـة و20 كتابًـا. واعتُبـر فـي اسـتطلاع للـرأي بيـن علمـاء النفـس أُجري عـام 2002 أكثـر علمـاء النفس فـي القـرن العشـرين تأثيرًا.

فـروم، إريـك (1900-1979) (Fromm Erich): باحـث ألمانـي يُعـدّ مـن أبرز مؤسسـي علـم النفس الاجتماعـي والسياسـي. هاجـر إلـى الولايـات المتحـدة مـن ألمانيا عنـد ظهـور النازية فـي ثلاثينيـات القـرن الماضـي وعمـل أسـتاذًا فـي عـدد مـن الجامعـات الأميركيـة وممارسًـا للتحليـل النفسـي. يعتبـر مـن جملـة الباحثيـن الذين ينسـبون إلى «مدرسـة فرانكفـورت» تأثـر بمؤلفـات ماركـس الفلسـفية المبكـرة والمدرسـة النيوفرويديـة في التحليل النفسـي. شـرح نظرياته في العلـوم الاجتماعية في مؤلفات وضعهـا بالألمانية والإنكليزيـة، مـن أشـهرها **الهـروب مـن الحريـة** (1941) (*Escape from Freedom*). ويـرى فروم أن حريـة الإرادة عنصـر جوهـري فـي الشـخصية، فإمـا أن يعتنقهـا الشـخص فيتمتـع بالعافيـة والاسـتقرار النفسـي، أو يهـرب منهـا فتغـدو دليـلًا علـى الاضطـراب والصـراع الداخلـي. وثمـة ثـلاث آليات للهـروب مـن الحريـة هـي: الامتثـال (conformity) للمعايير التـي يفرضهـا المجتمـع، والخضـوع للسـلطة التسـلطية (authoritarianism)، والانجراف مع النزعـة التدميريـة (destructivism) الراميـة إلـى القضـاء علـى الآخرين.

فرويـد، سـيغموند (1865-1939) (Freud, Sigmund): درس الطـب فـي فيينـا وقـاده تخصصـه فـي علـم الأعصـاب إلـى التعامـل مـع المرضـى النفسـيين، فمهّـدت خبرتـه هـذه لإنجازاتـه العلميـة المبهـرة فـي علـم النفـس، وفـي مجـال الشـخصية والعـلاج النفسـي بوجـه خـاص. علـى الرغـم مـن الشـكوك والجـدل الـذي أثارتـه نظريتـه فـي التحليـل النفسـي، فـإن مفاهيمـه لا تـزال تمثّـل جـزءًا مـن أسـس علـم

النفس. رأى أن الشخصية الإنسانية تتضمن ثلاثة أنظمة: الهو (id) والأنا (ego) والأنا الأعلى وأن الانسجام بينها يمثّل أساس التكيف النفسي. وقال بوجود آليات تدافع بها الذات عن نفسها كالكبت والإنكار والإبدال وغيرها لتساعد في تحقيق التوازن بين تلك الأنظمة الثلاث. وتبرز فكرة اللاشعور، وأثر الخبرات الطفولية المبكرة في نمو الشخصية كأكثر الأفكار إبداعًا في علم النفس، وما ينسجم مع معطياته الحديثة. استمر الإرث الفرويدي عبر تلامذته الذين عملوا على تطوير أفكاره وإنشاء مدارسهم الخاصة على أساس من لبناته الأولى في التحليل النفسي. وينصبّ معظم النقد الذي يوجّه إلى فرويد على صعوبة التحقق الإمبيريقي من كثير من مفاهيمه وفرضياته.

فستنغر، ليون (Festinger, Leon) (1919-1989): يحتل فستنغر مكانة رفيعة بين علماء النفس، واعتبر في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي عالم النفس الاجتماعي الأبرز، تتلمذ على يد كيرت ليفين الذي يعتبر من مؤسسي علم النفس الاجتماعي الحديث، وأسهم في إثراء الميدان على الصعيدين المنهجي والنظري. قادته دراساته للاتصال والعلاقات الاجتماعية إلى استبصارات عميقة في طبيعة العمليات النفسية التي تحافظ على الاتساق بين أعضاء الجماعة في رؤيتهم للواقع الاجتماعي، والاتساق المعرفي لدى الفرد ذاته، وإلى استبصارات عميقه في الدوافع التي تكمن وراء تلك العمليات. وانبثقت نظرياته في المقارنة الاجتماعية (social comparison) والتنافر المعرفي (cognitive dissonance) عن منظور معرفي يتعارض إلى حد كبير مع المنظور السلوكي الذي هيمن على علم النفس في النصف الأول من القرن العشرين. ويُنسب إليه الفضل في تحويل التجربة المخبرية إلى أداة قوية في البحث عن المعرفة.

فسك، سوزان (Fiske, Susan) (1952 -): عالمة نفس اجتماعي أميركية، تعمل في جامعة برنستون، لها بحوث أصيلة في مجالات التعصب والصور النمطية والمعرفة الاجتماعية. حصلت على الدكتوراه من جامعة هارفرد. لها ما يزيد عن 250 مقالة علمية منشورة وعدد من الكتب، كما تشارك في

تحرير كتب سنوية تتضمن البحوث الحديثه في ميدان المعرفة الاجتماعية بوجه خاص، وتتمثل أبرز إسهاماتها في نموذج «مضمون الصورة النمطية» و«نظرية التناقض في الاتجاهات الجنسوية». وأدخلت فسك مصطلح «البخل المعرفي» المتداول على نطاق واسع في ميدان المعرفة الاجتماعية لوصف ميل البشر إلى الاقتصاد في التعامل مع المعلومات الاجتماعية. ترأست رابطة العلوم النفسية، وجمعية الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، ومؤسسة التقدم بالعلوم السلوكية والدماغ.

فولكان، فاميك (Vamik, Volkan): أستاذ شرف في الطب النفسي من أصل تركي - قبرصي، يعمل في جامعة فرجينيا. درس الطب في جامعة أنقره، ثم تخصص في الطب النفسي على قاعدة التحليل النفسي الفرويدية. احتل مواقع أكاديمية قيادية عديدة في جامعات أميركية كبرى، وعمل في مهمات استشارية سياسية تتصل بالتفاوض وحل النزاعات وشارك في لجان رفيعة ذات صلة بهذا المجال. أسس مركزًا لدراسة الدماغ والتفاعل الإنساني في جامعة فرجينيا مع خبراء في التحليل والطب النفسي، والدبلوماسية، والتاريخ، والعلوم السياسية لتطبيق المعرفة العلمية الحديثة في معالجة التوترات الإثنية والعنصرية، والإرهاب، والصراعات الدولية.

لاسويل، هارولد (Lasswell, Harold) (1976-1902): من رواد علماء السياسة الأميركيين، يُعتبر من أغزر معاصريه إنتاجًا وأصالة في البحث. درَس في جامعة شيكاغو وتأثر بالمفكرين البراغماتيين كما تأثر بفرويد ومدرسة التحليل النفسي. عمل أثناء الحرب العالمية الثانية على تحليل الدعاية النازية، وتركت تحليلاته بصمات هامة في موضوع الدعاية والاتصال. ربط بين علم النفس والسياسة، وبحث في أهمية الشخصية، والبنية الاجتماعية والثقافية في تحليل الظواهر السياسية. اعتمد طرائق منهجية مبتكرة في دراسة موضوعاته، تضمنت أساليبه جمع بيانات، وطرائق تحليل أخذت طريقها إلى حقول مختلفة من العلوم الاجتماعية.

لوك، جون (John Locke) (1632-1704): فيلسوف إنجليزي يعتبر والد الليبرالية الكلاسيكية ومن أهم المفكرين التنويريين وأكثرهم تأثيرًا، ومن أوائل

البريطانييـن التجريبيين، متابعًـا لخطـى فرنسـيس بيكـون (Francis Bacon). أسـهم فـي بلـورة نظريـة العقـد الاجتماعـي، وكان لعملـه تأثيـر كبيـر فـي تطـور نظريـة المعرفة والفلسـفة السياسـية، وأثـرت كتاباتـه فـي فولتيـر (Voltaire) وروسـو (Rousseau) وعلـى العديـد من زعمـاء الثـورة الأميركييـن. كان أول من عـرّف الذات من خلال اسـتمرارية الوعـي، وافتـرض أن العقـل لائحـة بيضـاء، وأن المعرفـة يتـم تحديدهـا مـن خـلال الخبـرة المسـتمدة من معنى الإدراك فحسـب، مناقضًـا أفكار الفلسـفة الديكارتية التي افترضـت وجـود أفـكار ومقـولات فطريـة فـي العقل البشـري.

ماركـس، كارل (1818-1883) (Marx, Karl): فيلسـوف واقتصـادي اشـتراكي ألمانـي، طـوّر نظريـة وأيديولوجيـا أصبحـت تحمـل اسـمه وأصبحـت لهـا صيـغ وتنوّعـات فـي التجـارب التـي طبقـت فيهـا. وقـد بنيت الماركسـية علـى المبـدأ المادي فـي تحريـك الاقتصـاد، والتاريخ، والأيديولوجيـا والمجتمـع، وهـو ما تمثلـه الماديـة الجدلية (وسـائل الإنتاج ملكيـة جماعية تمثـل البنيـة التحتية، وعلاقـات الإنتاج تمثّـل البنية الفوقيـة) والمادية الاجتماعيـة (التحوّل مـن الرأسـمالية إلـى الشـيوعية التي تسـود فيهـا البروليتاريـا). كمـا بنيت أيضًـا على رفض مهمـة التفسـير بـل الدعـوة إلـى التغيير الـذي يحمـل بُعـدًا ثوريًا، وعلـى الصـراع الطبقي. أعلـن مـع إنغلـز البيان الشـيوعي سـنة 1848، وأسـس الأممية الأولـى. من كتابـات ماركس التـي أثـرت في التاريـخ الحديث والمعاصر نذكر: **نقد الفلسـفة السياسـية** لهيغـل (1843)، **أطروحـات حـول فيوربـاخ** (1844)، **العائلـة المقدسـة** (مـع إنغلـز 1845)، **بـؤس الفلسـفة** (1847)، **خطـاب حـول التبـادل الحـر** (1848)، **أسـس نقـد الاقتصـاد السياسـي** (1858-1857)، **رأس المـال** (1865-1867) (*Das Kapital*).

ملغـرام، سـتانلي (1933-1984) (Stanley, Milgram): عالـم نفـس اجتماعـي أميركـي، حصـل بدايـةً علـى شـهادة البكالوريـوس فـي العلـوم السياسـية، ولكنـه اتجـه إلـى دراسـة علـم النفـس الاجتماعـي فـي مـا بعـد، والتحـق بجامعـة هارفـرد، حيـث أعـد أطروحـة الدكتـوراه تحـت إشـراف غـوردون ألبـورت، أحـد أعـلام هـذا الميـدان، كمـا عمـل مسـاعد بحـث لـدى سـولومون آش، أحـد رواد المنهـج التجريبـي فـي دراسـة الظواهـر النفسـية الاجتماعيـة. وقـد انعكسـت آثـار خبرتـه

في هذا المنهج على استقصاءاته اللاحقة في سلوك الطاعة لدى البشر. أجرى ملغرام سلسلة من التجارب بأسلوب مبتكر أفضى إلى نتائج مثيرة للاهتمام والجدل في آن. حيث كشفت تجاربه استعداد الناس لإطاعة السلطة حتى عندما تتعارض الأوامر المعطاة مع القيم الأخلاقية لمتلقيها. وعلى الرغم من أن تفسيراته أخذت مقاربة موقفية شدّدت على دور الظروف المحيطة في توجيه السلوك الإنساني، إلا أنه، في الوقت ذاته، أشار في كتابه **طاعة السلطة** إلى احتمال وجود نزعة فطرية لدى البشر للخضوع للسلطة - وإن كان يظل للمواقف تأثيرها في الانصياع أو التمرد. وقد أهلته إنجازاته العلمية للحصول على جائزة الرابطة الأميركية للتقدم العلمي عام 1965.

مكديرموت، روز (McDermott, Rose): أكاديمية أميركية، تعمل أستاذة في جامعة براون، ترأست الجمعية الدولية لعلم النفس السياسي. نالت الماجستير في العلوم السياسية، والدكتوراه في علم النفس الاجتماعي التجريبي من جامعة ستانفورد. حصلت على زمالة مركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية في ستانفورد، وموقعًا مماثلًا للدراسات المتقدمة في هارفرد. ونالت جوائز على التميز في الإنجاز العلمي المبكر. ألّفت ثلاث كتب ولها ما يزيد عن 90 مقالة علمية منشورة في حقول مختلفة. تُجري بحوثًا في «نظرية المرتقب»، والسياسة الخارجية الأميركية، وعلم النفس السياسي والعلاقات الدولية، والهوية، والانفعالات، وصنع القرارات، وعلم النفس التطوري، وقضايا جندرية، والأسس البيولوجية والجينية للسلوك السياسي، والعدوان على وجه الخصوص.

هادي، ليوني (Huddy, Leonie) (- 1958): أكاديمية أميركية من أصل استرالي، تبحث في موضوعات الجندر والسلوك السياسي، والهوية، والتعصب العنصري، والإرهاب، والشعور بالخوف والتهديد، والعلاقات بين الجماعات. نشرت ما يزيد على 60 مقالة علمية، وفصولًا في كتب محررة، وحررت كتاب أكسفورد السنوي في علم النفس السياسي، وكتابين في علم السياسة الجزئي (micropolitics)، وكتابًا عن الاتجاهات الحديثة في علم النفس السياسي.

هوبـز، تومـاس (Hobbes, Thomas) (1679-1588): عالـم رياضيـات وفيلسـوف إنجليـزي يُعـدّ أحـد أكبـر فلاسـفة القـرن السـابع عشـر وأكثرهـم شـهرة، خصوصًـا فـي المجـال القانونـي. وعرف بمسـاهمته في التأسـيس لكثيـر من المفاهيم التـي أدت دورًا كبيـرًا ليس على مسـتوى النظريـة السياسـية فحسـب، بـل كذلـك علـى مسـتوى الفعـل والتطبيـق فـي كثيـر مـن البلـدان. كذلـك يعتبـر مـن الفلاسـفة الذين وظفـوا مفهـوم الحـق الطبيعي فـي تفسـيرهم لكثيـر مـن القضايـا المطروحة فـي عصرهم واشـتهر اليـوم بأعماله في الفلسـفة السياسـية. ووضـع كتابـه الصـادر عـام 1651 تحـت اسـم **لوياثـان** الأسـاس لمعظم الفلسـفة السياسـية الغربية مـن منظور نظريـة العقد الاجتماعـي. كان مناصرًا للملكيـة المطلقـة، ولكنـه طـور أيضًـا بعـض أسـس الفكـر الليبرالـي الأوروبـي: حـق الفـرد والمسـاواة الطبيعيـة بين جميـع البشـر والشـخصية الاعتبارية للنظام السياسـي (التـي أدت لاحقًـا إلـى التمييـز بيـن المجتمـع المدنـي والدولة).

هولسـتي، أُول (Holsti, Ole) (- 1932): أكاديمـي أميركـي متخصـص فـي العلـوم السياسـية يبحـث فـي العوامـل النفسـية المؤثـرة فـي صنـع القـرارات السياسـية والدبلوماسـية. وضـع نموذجًـا نظريًـا فـي دور النوايـا المدركـة لـدى الخصـم السياسـي علـى تحليـل المعلومـات المسـتقاة عـن ذلـك الخصـم، ويعرف باسـم نمـوذج سـوء النيـة المتأصل (inherent bad faith model) يفتـرض فيـه أن سـوء النيـة ينطوي على نزعـة عدائية، وتجاهل للمؤشـرات المنافيـة لهـذا الإدراك، مـا يؤثر سـلبًا في عمليـة صنع القرار فـي العلاقات الدولية.

هيرمـان، مارغريـت (Hermann, Margaret) (- 1938): أكاديميـة أميركيـة انصبـت بحوثهـا علـى القيـادة السياسـية، وصناعـة القـرارات فـي السياسـة الدوليـة، والسياسـية الخارجيـة المقارنـة، وإدارة الأزمـات. عملـت علـى تطويـر أسـاليب لتقويـم الأسـاليب القياديـة لرؤسـاء الـدول عـن بُعـد وآثـار أسـاليب القيـادة المختلفـة وعمليـات اتخاذ القـرارات علـى إدارة الأزمـات. ولهـا عـدد كبير من المقـالات، وما يقارب عشـرة كتـب في هذه الموضوعـات. ترأسـت الرابطـة الدوليـة لعلـم النفـس السياسـي، ورابطـة الدراسـات الدوليـة، وعملـت محـررة لمجلـة **علـم النفـس السياسـي**.

المراجع

Books

Adorno, Theodore [et al.]. *The Authoritarian Personality*. New York: Harper and Row, 1950.

Allison, Graham and Philip Zelikow. *Essence of Decision*: *Explaining the Cuban Misssile Crisis*. 2nd ed. New York: Longman, 1999.

Allport, Gordon. *The Nature of Prejudice*. Reading, MA: Addison Wesley, 1954.

Altemeyer, Bob. *The Authoritarian Specter*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996.

_______. *Enemies of Freedom*: *Understanding Right-Wing Authoritarianism*. San Francisco, CA: Jossey-Bass, 1988.

_______. *Right-Wing Authoritarianism*. Winnipeg: University of Manitoba Press, 1981.

Apter, David (ed.). *Ideology and Discontent*. New York: Free Press, 1964.

Arendt, Hannah. *Eichmann in Jerusalem*: *A Report on the Banality of Evil*. New York: Viking Press, 1963.

Barber, James David. *The Presidential Character*: *Predicting Performance in the White House*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1985; 3rd ed., 1992.

Barrett, David. *Uncertain Warriors*: *Lyndon Johnson and his Vietnam Advisers*. Lawrence, KN: University Press of Kansas, 1993.

Beschloss, Michael R. *Reaching For Glory*: *Lyndon Johnson's Secret White House Tapes*, *1964-1965*. New York: Simon and Schuster, 2001.

_______. *Taking Charge*: *The Johnson White House Tapes*, *1963-1964*. New York: Simon and Schuster, 1997.

Bjorgo, Tore (ed.). *Root Causes of Terrorism*. Oslo: Norwegian Institute of International Affairs, 2003.

Blight, James and Janet Lang. *The Fog of War*: *Lessons from the Life of Robert S. McNamara*. New York: Rowman and Littlefield, 2005.

Bloom, Mia. *Dying to Kill*: *The Allure of Suicide Terror*. New York: Columbia University Press, 2005.

Bobo, Lawrence and Mia Tuan. *Prejudice in Politics*: *Group Position*, *Public Opinion*, *and the Wisconsin Treaty Rights Dispute*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006.

Brader, Ted. *Campaigning for Hearts and Minds*: *How Emotional Appeals in Political Ads Work*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 2006.

Brown, Roger (ed.). *Social Psychologie*. New York: Free Press, 1965.

Browning, Christopher. *Ordinary Men*: *Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland*. New York: Harper Collins, 1992.

Burchill, Scott [et al.]. *Theories of International Relations*. 2nd ed. New York: Palgrave Macmillan, 2001.

Burgess, Anthony. *A Clockwork Orange*. Restored Version. New York: W. W. Norton, 1986.

_______. *You've Had Your Time*. New York: Penguin Books, 1990.

Burke, John and Fred Greenstein. *How Presidents Test Reality*: *Decisions on Vietnam*, *1954 and* 1965. New York: Russell Sage Foundation, 1989.

Butler, David and Donald Stokes. *Political Change in Britain*: *Forces Shaping Electoral Choice*. New York: St. Martin's Press, 1969.

Butler, Gillian and Freda McManus. *Psychology*: *A Very Short Introduction*. New York: Oxford University Press, 1998.

Campbell, Angus [et al.]. *The American Voter*. New York: Wiley Press, 1964, and 1960.

Clark, Mary. *In Search of Human Nature*. New York: Routledge, 2002.

Clarke, Richard. *Against All Enemies*: *Inside America's War on Terror*. New York: Free Press, 2004.

Connor, Walker. *Ethnonationalism*: *The Quest for Understanding*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Crigler, Ann [et al.] (eds.). *The Affect Effect*: *Dynamics of Emotion in Political Thinking and Behavior*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007.

Dallek, Robert. *Flawed Giant*: *Lyndon Johnson and his Times*, *1961-1973*. New York: Oxford University Press, 1998.

Damasio, Antonio. *Descartes' Error*: *Emotion*, *Reason and the Human Brain*. New York: Putnam Books, 1994.

Darley, John and Bibb Latane. *The Unresponsive Bystander*: *Why Doesn't He Help?*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1970.

Davis, Peter (dir.). *Hearts and Minds*. Los Angeles, CA: BBS Productions, 1974.

Dawkins, Richard. *The Selfish Gene*. 30th anniversary edition. New York: Oxford University Press, 2006.

De Rivera, Joseph. *The Psychological Dimension of Foreign Policy*. Columbus, OH: Charles Merrill, 1968.

Dobb, Leonard W. *Patriotism and Nationalism*: *Their Psychological Foundations*. New Haven, CT and London: Yale University Press, 1964.

Dollard, John [et al.]. *Frustration and Aggression*. New Haven, CT: Institute of Human Relations, 1939.

Dovidio, John, Peter Glick and Laurie Rudman (eds.). *On the Nature of Prejudice*: *Fifty Years after Allport*. Malden, MA: Blackwell, 2005.

Downs, Anthony. *An Economic Theory of Democracy*. New York: Harper and Row, 1957.

Eulau, Heinz. *The Behavioral Persuasion in Politics*. New York: Random House, 1963.

Eysenck, Michael and Mark Keane. *Cognitive Psychology: A Student's Handbook*. Hove-London: Lawrence Erlbaum, 1990.

Falkowski, Lawrence (ed.). *Psychological Models in International Politics*. Boulder, CO: Westview Press, 1979.

Farnham, Barbara. *Roosevelt and the Munich Crisis: A Study of Political Decision-Making*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997.

Festinger, Leon. *Theory of Cognitive Dissonance*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1957.

Fick, Paul. *The Dysfunctional President: Inside the Mind of Bill Clinton*. New York: Birch Lane Press, 1995.

Fiorina, Morris. *Retrospective Voting in American National Elections*. London: Yale University Press, 1981.

Fiske, Susan and Shelley Taylor. *Social Cognition*. Reading, MA: Addison Wesley, 1984.

Frank, Justin. *Bush on the Couch: Inside the Mind of the President*. New York: Harper Collins, 2004.

Freud, Sigmund. *Civilization and Its Discontents*. New York: W. W. Norton, 1961.

_______. *Leonardo da Vinci: A Memory of His Childhood*. London: Routledge, 1999.

_______ and William Bullitt. *Thomas Woodrow Wilson, Twenty-Eighth President of the United States: A Psychological Study*. Boston, MA: Houghton Mifflin, 1967.

Gambetta, Diego (ed.). *Making Sense of Suicide Missions*. New York: Oxford University Press, 2005.

George, Alexander. *Presidential Decisionmaking in Foreign Policy: The Effective Use of Information and Advice*. Boulder, CO: Westview Press, 1980.

_______ and Juliette George. *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study*. New York: Dover Publications, 1956, and 1964.

Glad, Betty. *Jimmy Carter: In Search of the Great White House*. New York: W. W. Norton, 1980.

Goldhagen's, Daniel. *Hitler's Willing Executioners*: *Ordinary Germans and the Holocaust*. New York: Alfred Knopf, 1996.

Golding, William. *The Lord of The Flies*. London: Faber and Faber, 1954.

Goodwin, Doris Kearns. *Lyndon Johnson and the American Dream*. New York: Harper and Row, 1976.

Goodwin, Richard. *Remembering America*: *A Voice from the Sixties*. New York: Perennial Books, 1989.

Gourevitch, Philip. *We Wish to Inform You that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families*: *Stories from Rwanda*. New York: Picador, 1998.

Green, David [et al.]. *Cognitive Science*: *An Introduction*. Cambridge, MA: Basil Blackwell, 1996.

Green, Donald and Ian Shapiro. *Pathologies of Rational Choice*: *A Critique of Applications in Political Science*. New Haven, CT: Yale University Press, 1994.

Greenstein, Fred. *The Hidden-Hand Presidency*: *Eisenhower as Leader*. New York: Basic Books, 1982.

Grossman, Dave. *On Killing*: *The Psychological Cost of Learning to Kill in War and Society*. Boston, MA: Little and Brown, 1995.

Gurr, Ted Robert. *Why Men Rebel*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1970.

Hafez, Mohammed. *Manufacturing Human Bombs*: *The Making of Palestinian Suicide Bombers*. Washington DC: United States Institute of Peace, 2005.

Hart, Paul't, Eric Stern and Bengt Sundelius (eds.). *Beyond Groupthink*: *Political Group Dynamics and Foreign Policy-Making*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1997.

Heider, Fritz. *The Psychology of Interpersonal Relations*. New York: Wiley Press, 1958.

Hemmer, Christopher. *Which Lessons Matter?*: *American Foreign Policy Decision Making in the Middle East*, *1979-1987*. Albany, NY: State University of New York Press, 2000.

Hermann, Margaret (ed.). *A Psychological Examination of Political Leaders*. New York: Free Press, 1977.

Hershman, D. Jablow. *Power Beyond Reason*: *The Mental Collapse of Lyndon Johnson*. Fort Lee, NJ: Barricade Books, 2002.

Hochberg, Julian. *Perception*. 2nd ed. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1978.

Hollis, Martin and Steve Smith. *Explaining and Understanding International Relations*. New York: Oxford University Press, 1990.

Horgan, John. *The Psychology of Terrorism*. London: Taylor and Francis, 2005.

Houghton, David Patrick. *US. Foreign Policy and the Iran Hostage Crisis*. New York: Cambridge University Press, 2001.

Hunt, Morton. *The Story of Psychology*. updated and revised edition. New York: Anchor Books, 2007.

Hybel, Alex. *How Leaders Reason*: *US. Intervention in the Caribbean Basin and Latin America*. Cambridge, MA: Basil Blackwell, 1990.

Hymans, Jacques. *The Psychology of Nuclear Proliferation*: *Identity*, *Emotion and Foreign Policy*. New York: Cambridge University Press, 2006.

Iyengar, Shanto and William McGuire (eds.). *Explorations in Political Psychology*. Durham, NC: Duke University Press, 1993.

Janis, Irving. *Groupthink*: *Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*. Boston, MA: Houghton Mifflin, 1982.

_______. *Victims of Groupthink*: *A Psychological Study of Foreign-Policy Decisions and Fiascoes*. Boston, MA: Houghton Mifflin, 1972.

Jervis, Robert. *Perception and Misperception in International Politics*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976.

Jones, Adam. *Genocide*: *A Comprehensive Introduction*. New York: Routledge, 2006.

Jones, David [et al.] (eds.). *Attribution*: *Perceiving the Causes of Behavior*. Morristown, NJ: General Learning Press, 1972.

Jost, John T. and Jim Sidanius (eds.). *Political Psychology*: *Key Readings*. New York: Psychology Press, 2004.

Kauppi, Mark. *International Relations Theory: Realism, Pluralism, Globahsm, and Beyond*. 3rd ed. New York: Prentice Hall, 1998.

Kecmanovic, Dusan. *The Mass Psychology of Ethnonationalism*. New York and London: Plenum Press, 1996.

Kellen, Konrad. *On Terrorists and Terrorism*. Santa Monica, CA: Rand Corporation, 1982.

Keneally, Thomas. *Schindler's Ark*. London: Hodder and Stoughton, 1982.

Keohane, Robert (ed.). *Neorealism and its Critics*. New York: Columbia University Press, 1986.

Key, Valdimer Orlando. *The Responsible Electorate*. Cambridge, MA: The Belknap Press, 1966.

Khong, Yuen Foong. *Analogies at War: Korea, Munich, Dien Bien Phu and the Vietnam Decisions of 1965*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992.

Knutson, Jeanne (ed.). *Handbook of Political Psychology*. San Francisco, CA: Jossey Bass, 1973.

Kuklinski, James (ed.). *Thinking About Political Psychology*. New York: Cambridge University Press, 2002.

Larson, Deborah Welch. *Origins of Containment: A Psychological Explanation*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985.

Lasswell, Harold. *Power and Personality*. New York: W. W. Norton, 1948.

_______. *Psychopathology and Politics*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1930.

Lau, Richard and David Sears. *Political Cognition*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1986.

Lazarsfeld, Paul, Bernard Berelson and Hazel Gaudet. *The People's Choice*. New York: Columbia University Press, 1948.

Lebow, Richard Ned. *Between Peace and War: The Nature of International Crisis*. Baltimore, MD: The Johns Hopkins University Press, 1981.

_______ and Janice Gross Stein. *We All Lost the Cold War*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Lerner, Richard. *Final Solutions*: *Biology*, *Prejudice*, *and Genocide*. University Park, PA: Pennsylvania State Press, 1992.

Lewis, Bernard. *The Crisis of Islam*: *Holy War and Unholy Terror*. New York: Random House, 2003.

Lindblom, Charles. *Politics and Markets*: *The World's Political Economic Systems*. New York: Basic Books, 1977.

Lodge's, David. *Thinks*... New York: Viking Press, 2001.

Lodge, Milton and Kathleen McGraw. *Political Judgment*: *Structure and Process*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1995.

Lorenz, Konrad. *On Aggression*. New York: Harcourt Brace, 1966.

Lupia, Arthur, Matthew McCubbins and Samuel Popkin (eds.). *Elements of Reason*. New York: Cambridge University Press, 2000.

Mackie, Diane and David Hamilton (eds.). *Affect*, *Cognition and Stereotyping*: *Interactive Processes in Group Perception*. San Diego, CA: Academic Press, 1993.

Mackie, Danie and Eliot Smith (eds.). *From Prejudice to Intergroup Emotions*: *Di erentiated Reactions To Social Groups*. Philadelphia, PA: Psychology Press, 2002.

Marcus, George. *The Sentimental Citizen*: *Emotion in Democratic Politics*. University Park, PA: The Pennsylvania State University Press, 2002.

_______, Russell Neuman and Michael MacKuen. *Affective Intelligence and Political Judgment*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 2000.

Marcus, George [et al.]. *With Malice Toward Some*: *How People Make Civil Liberties Judgments*. New York: Cambridge University Press, 1995.

May, Ernest. *Lessons of the Past*. New York: Oxford University Press, 1973.

McDermott, Rose. *Political Psychology and International Relations*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2004.

_______. *Risk-Taking in International Politics: Prospect Theory in American Foreign Policy*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1998.

McNamara, Robert, James Blight and Robert Brigham. *Argument without End: In Search of Answers to the Vietnam Tragedy*. New York: Public Affairs, 1999.

_______ and _______. *Wilson's Ghost: Reducing the Risk of Conflict, Killing and Catastrophe in the 21 Century*. New York: Public Affairs, 2001.

Mercer, Jonathan. *Reputation and International Politics*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1996.

Milgram, Stanley. *Obedience to Authority: An Experimental View*. New York: Harper and Row, 1974.

Miller, Warren and Merrill Shanks. *The New American Voter*. London: Harvard University Press, 1996.

Moghaddam, Fathali and Anthony Marsella (eds.). *Understanding Terrorism: Psychosocial Roots, Consequences, and Interventions*. Washington D.C.: American Psychological Association, 2004.

Monroe, Kristen (ed.). *Political Psychology*. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum, 2002.

Muslim Americans: Middle Class and Mostly Mainstream. New York: Pew Research Center, 2007.

Neuman, Russell [et al.] (eds.). *The Affect Effect: Dynamics of Emotion in Political Thinking and Behavior*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007.

Neustadt, Richard and Ernest May. *Thinking in Time: The Uses of History for Decision Makers*. New York: Freedom Press, 1986.

Nie, Norman, Sidney Verba and John Petrocik. *The Changing American Voter*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1976.

Nisbett, Richard and Lee Ross. *Human Inference: Strategies and Shortcomings of Social Judgment*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1980.

Oliner, Samuel and Pearl Oliner. *The Altruistic Personality: Rescuers of Jews in Nazi Europe*. New York: Free Press, 1988.

Pape, Robert. *Dying To Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism*. New York: Random House, 2005.

Pearlstein, Richard. *The Mind of the Political Terrorist*. Wilmington, DE: SR Books, 1991.

Pedahzur, Ami (ed.). *Root Causes of Suicide Terrorism*: *The Globalization of Martyrdom*. New York: Routledge, 2006.

_______. *Suicide Terrorism*. Malden, MA: Polity Press, 2005.

Pinker, Steven. *The Blank Slate*: *The Modern Denial of Human Nature*. New York: Viking Press, 2002.

_______. *How the Mind Works*. New York: W. W. Norton, 1997.

Post, Jerrold. *Leaders and Their Followers in a Dangerous World*: *The Psychology of Political Behavior*. New York: Cornell University Press, 2004. (Psychoanalysis and Social Theory)

_______ (ed.). *The Psychological Assessment of Political Leaders*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2003.

Preston, Thomas. *The President and His Inner Circle*: *Leadership Style and the Advisory Process in Foreign Affairs*. New York: Columbia University Press, 2001.

Ratey, John. *A User's Guide To the Brain*: *Perception*, *Attention and the Four Theaters of the Brain*. New York: Vintage Books, 2001.

Redlawsk, David (ed.). *Feeling Politics*: *Emotion in Political Information Processing*. New York: Palgrave Macmillian, 2006.

Reich, Walter (ed.). *Origins of Terrorism*: *Psychologies*, *Ideologies*, *Theologies*, *States of Mind*. New York: Cambridge University Press, 1990.

Rosenau, James (ed.). *International Poltics and Foreign Policy*. 2nd ed. New York: Free Press, 1969.

Ross, Lee and Richard Nisbett. *The Person and the Situation*: *Perspectives of Social Psychology*. Philadelphia, PA: Temple University Press, 1991.

Sacks, Oliver. *The Man who Mistook his Wife for a Hat and Other Clinical Tales*. New York: Touchstone, 1998.

Schafer, Mark and Stephen Walker (eds.). *Beliefs and Leadership in World Politics*:

Methods and Applications of Operational Code Analysis. New York: Palgrave Mcmillan, 2006.

Searle-White, Joshua. *The Psychology of Nationalism*. New York and Basingstoke: Palgrave, 2002.

Sears, David, Leonie Huddy and Robert Jervis (eds.). *Oxford Handbook of Political Psychology*. New York: Oxford University Press, 2003.

Sekuler, Robert and Randolph Blake. *Star Trek on the Brain*: *Alien Minds*, *Human Minds*. New York: W. W. Freeman, 1998.

Shepsle, Kenneth and Mark Bonchek. *Analyzing Politics*: *Rationality*, *Behavior and Institutions*. New York: W. W. Norton, 1997.

Sidanius, Jim and Felicia Pratto. *Social Dominance*: *An Intergroup Theory of Social Hierarchy and Oppression*. New York: Cambridge University Press, 1999.

Silke, Andrew. *Research on Terrorism*: *Trends*, *Achievements and Failures*. London: Frank Cass, 2004.

_______ (ed.). *Terrorists*, *Victims and Society*: *Psychological Perspectives on Terrorism and Its Consequences*. Chichester, UK: Jon Wiley Press, 2003.

Simon, Herbert Alexander. *Models of Man*, *Social and Rational*: *Mathematical Essays on Rational Human Behavior in a Social Setting*. New York: Wiley Press, 1957.

_______. *Reason in Human Affairs*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1983.

Singer, Eric and Valerie Hudson (eds.). *Political Psychology and Foreign Policy*. Boulder, CO: Westview Press, 1992.

Sinno, Abdulkader (ed.). *Muslims in Western Politics*. Bloomington, IN: University of Indiana Press, 2008.

Skinner, B. F. *Beyond Freedom and Dignity*. Indianapolis, IN: Hackett Publishing, 2002.

_______. *Walden Two*. Indianapolis, IN: Hackett Publishing, 2005.

Slater, Lauren. *Opening Skinner's Box*: *Great Psychological Experiments of the Twentieth Century*. New York: W. W. Norton, 2004.

Smith, Anthony (ed.). *Theories of Nationalism*. 2nd ed. New York: Holmes and Meier, 1983.

Smith, Eric. *The Unchanging American Voter*. Berkeley, CA: University of California Press, 1989.

Sniderman, Paul and Philip Tetlock (eds.). *Prejudice and Politics in American Society*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1991.

Sniderman, Paul and Thomas Piazza. *The Scar of Race*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993.

Sniderman, Paul, Richard Brody and Philip Tetlock. *Reasoning and Choice*: *Explorations in Political Psychology*. New York: Cambridge University Press, 1991.

Snyder, Richard, H. W. Bruck and Burton Sapin (eds.). *Foreign Policy Decision-Making*: *An Approach to the Study of International Politics*. New York: Free Press, 1962.

Sorrentino, Richard and E. Tory Higgins (eds.). *Handbook of Motivation and Cognition*. New York: Guildford Press, 1986.

Steinberg, Blema. *Shame and Humiliation*: *Presidential Decision Making on Vietnam*. Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1996.

Stone, William and Paul Schaffner. *The Psychology of Politics*. 2nd ed. New York: Springer-Verlag, 1988.

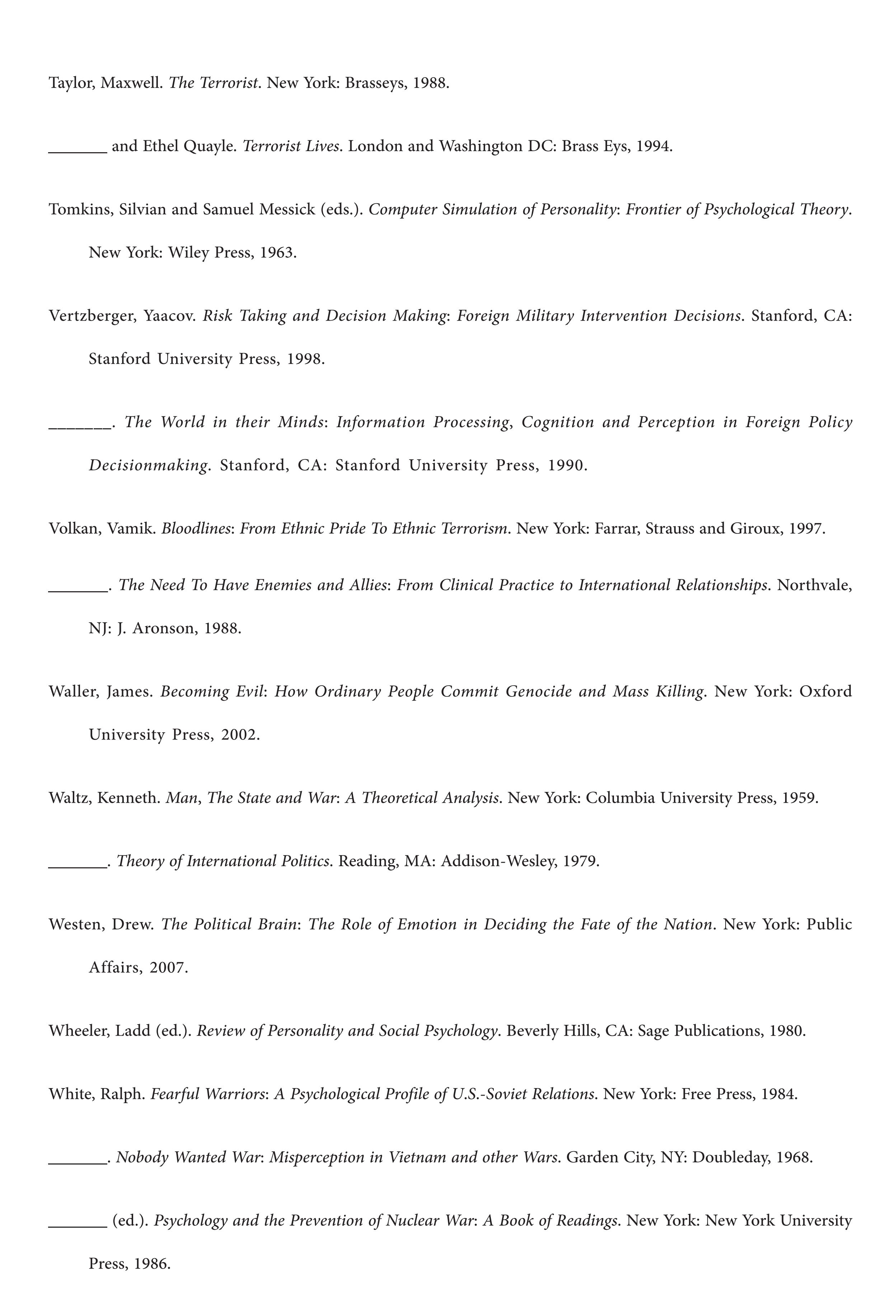
Stouffer, Samuel. *Communism*, *Conformity and Civil Liberties*: *A Cross Section of the Nation Speaks its Mind*. New York: Doubleday, 1955.

Strasser, Steven (ed.). *The Abu Ghraib Investigations*. New York: Public Affairs, 2004.

Sullivan, John, James Piereson and George Marcus. *Political Tolerance and American Democracy*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1982.

Tajfel, Henri. *Human Groups and Social Categories*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981.

_______. *Social Identity and Intergroup Relations*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982.


Taylor, Maxwell. *The Terrorist*. New York: Brasseys, 1988.

_______ and Ethel Quayle. *Terrorist Lives*. London and Washington DC: Brass Eys, 1994.

Tomkins, Silvian and Samuel Messick (eds.). *Computer Simulation of Personality*: *Frontier of Psychological Theory*. New York: Wiley Press, 1963.

Vertzberger, Yaacov. *Risk Taking and Decision Making*: *Foreign Military Intervention Decisions*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1998.

_______. *The World in their Minds*: *Information Processing*, *Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1990.

Volkan, Vamik. *Bloodlines*: *From Ethnic Pride To Ethnic Terrorism*. New York: Farrar, Strauss and Giroux, 1997.

_______. *The Need To Have Enemies and Allies*: *From Clinical Practice to International Relationships*. Northvale, NJ: J. Aronson, 1988.

Waller, James. *Becoming Evil*: *How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*. New York: Oxford University Press, 2002.

Waltz, Kenneth. *Man*, *The State and War*: *A Theoretical Analysis*. New York: Columbia University Press, 1959.

_______. *Theory of International Politics*. Reading, MA: Addison-Wesley, 1979.

Westen, Drew. *The Political Brain*: *The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation*. New York: Public Affairs, 2007.

Wheeler, Ladd (ed.). *Review of Personality and Social Psychology*. Beverly Hills, CA: Sage Publications, 1980.

White, Ralph. *Fearful Warriors*: *A Psychological Profile of U.S.-Soviet Relations*. New York: Free Press, 1984.

_______. *Nobody Wanted War*: *Misperception in Vietnam and other Wars*. Garden City, NY: Doubleday, 1968.

_______ (ed.). *Psychology and the Prevention of Nuclear War*: *A Book of Readings*. New York: New York University Press, 1986.

Woodward, Bob. *Plan of Attack*. New York: Simon and Schuster, 2004.

Woodward, Susan. *Balkan Tragedy*: *Chaos and Dissolution after the Cold War*. Washington DC: Brookings Institution, 1995.

Worchel, S. and L.W. Austin (eds.). *Psychology of Intergroup Relations*. Chicago, IL: Nelson-Hall, 1986.

Zakaria, Fareed. *The Future of Freedom*: *Illiberal Democracy at Home and Abroad*. New York: W. W. Norton, 1993.

Zaller, John. *The Nature and Origins of Mass Opinion*. New York: Cambridge University Press, 1992.

Zanna, Mark (ed.). *Advances in Experimental Social Psychology*. New York: Academic Press, 1990.

_______ and James Olson (eds.). *The Psychology of Prejudice*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1994.

Zimbardo, Philip. *The Lucifer Effect*: *Understanding How Good People Turn Evil*. New York: Random House, 2007.

Periodicals

Achen, Christopher and Duncan Snidal. «Rational Deterrence Theory and Comparative Case Studies.» *World Politics*: vol. 41, no. 2, 1989.

Adolphs, Ralph. «Cognitive Neuroscience of Human Social Behavior.» *Nature Reviews*: *Neuroscience*: vol. 4, no. 3, March 2003.

Amen, Daniel. «Getting Inside their Heads... Really Inside.» *Los Angeles Times*: 5/12/2007.

Anderson, James William. «The Methodology of Psychological Biography.» *Journal of Interdisciplinary History*: no. 11, Winter 1981.

Barrett, David. «The Mythology Surrounding Lyndon Johnson, His Advisers, and the 1965 Decision to Escalate the Vietnam War.» *Political Science Quarterly*: no. 103, 1988.

Berkowitz, Leonard. «Some Aspects of Observed Aggression.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 2, no. 3, 1965.

Betts, Richard. «Conventional Strategy: New Critics, Old Choices.» *International Security*: vol. 7, no. 4, 1983.

Blight, James and Janet Lang. «Lesson Number One: Empathize with your Enemy.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

Bobo, Lawrence. «Whites' Opposition to Busing: Symbolic Racism or Realistic Group Conflict?.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 45, no. 6, 1983.

Breuning, Marijke. «The Role of Analogies and Abstract Reasoning in Decision-Making.» *International Studies Quarterly*: vol. 47, no. 2, 2003.

Crenshaw, Martha. «The Causes of Terrorism.» *Comparative Politics*: vol. 13, no. 4, 1981.

Crichlow, Scott. «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres.» *Political Psychology*: vol. 19, no. 4, 1998.

Darley, John and Bibb Latane. «Bystander Intervention in Emergencies: Diffusion of Responsibility.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 8, 1968.

Darley, John and Daniel Batson. «From Jerusalem to Jericho: A Study of Situational and Dispositional Variables in Helping Behavior.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 27, no. 1, 1973.

Devine, Patricia. «Stereotypes and Prejudice: Their Automatic and Controlled Components.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 56, no. 1, 1989.

Dyson, Stephen. «Drawing Policy Implications from the «Operational Code» of a «New» Political Actor: Russian President Vladimir Putin.» *Policy Sciences*: vol. 34, nos. 3-4, 2001.

_______. «Personality and Foreign Policy: Tony Blair's Iraq Decisions.» *Foreign Policy Analysis*: vol. 2, no. 3, 2006.

_______ and Thomas Preston. «Individual Characteristics of Political Leaders and the Use of Analogy in Foreign Policy Decision Making.» *Political Psychology*: vol. 27, no. 2, 2006.

Elias, Marilyn. «Freud: So Wrong and Yet So Right.» *USA Today*: 4/5/2006.

Farris, George. «The Drunkard's Search in Behavioral Science.» *Compensation Benefits Review*: vol. 1, no. 2, 1969.

Fazio, Russell [et al.]. «Variability in Automatic Activation as an Unobtrusive Measure of Racial Attitudes: A Bona Fide Pipeline?.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 69, no. 6, 1995.

Federico, Christopher and Samantha Luks. «The Political Psychology of Race.» *Political Psychology*: vol. 26, no. 5, 2005.

Finlayson, Alan. «Psychology, Psychoanalysis and Theories of Nationalism.» *Nations and Nationalism*: vol. 4, no. 2, 1998.

Fiske, Susan. «Stereotyping, Prejudice, and Discrimination at the Seam between the Centuries: Evolution, Culture, Mind, and the Brain.» *European Journal of Social Psychology*: vol. 30, no. 3, 2000.

_______ and Philip Linville. «What Does the Schema Concept Buy Us?.» *Personality and Social Psychology Bulletin*: vol. 6, no. 4, 1980.

Gentner, Dedre. «Structure Mapping: A Theoretical Framework for Analogy.» *Cognitive Science*: vol. 7, no. 2, 1983.

George, Alexander. «The «Operational Code»: A Neglected Approach to the Study of Political Leaders and Decision Making.» *International Studies Quarterly*: vol. 13, 1969.

Gibson, James. «Do Strong Group Identities Fuel Intolerance?: Evidence from the South African Case.» *Political Psychology*: vol. 27, no. 5, 2006.

_______. «Political Intolerance and Political Repression during the McCarthy Red Scare.» *American Political Science Review*: vol. 82, 1988.

Gick, Mary and Keith Holyoak. «Schema Induction and Analogical Transfer.» *Cognitive Psychology*: vol. 15, no. 1, 1983.

Goldgeier, James. «Psychology and Security.» *Security Studies*: vol. 6, no. 4, 1997.

Greenstein, Fred. «The Impact of Personality on Politics: An Attempt to Clear Away the Underbrush.» *American Political Science Review*: vol. 61, 1967.

Hamilton, David and Robert Gifford. «Illusory Correlation in Interpersonal

Perception: A Cognitive Basis of Stereotypic Judgments.» *Journal of Experimental Social Psychology*: vol. 12, no. 4, 1976.

Harris, Lasana and Susan Fiske. «Dehumanizing the Lowest of the Low: Neuro Imaging Responses to Extreme Outgroups.» *Psychological Science*: vol. 17, no. 10, 2006.

_______ and _______. «Social Groups that Elicit Disgust are Differentially Processed in MPFC.» *Social Cognitive and Affective Neuroscience*: vol. 2, 2007.

Hart, Allen [et al.]. «Differential Response in the Human Amygdala to Racial Outgroup vs Ingroup Face Stimuli.» *Neuroreport*: vol. 11, 2000.

Hastie, Reid and Bernadette Park. «The Relationship between Memory and Judgment Depends on Whether the Task is Memory-Based or On-Line.» *Psychological Review*: vol. 93, 1986.

Heider, Fritz. «Attitudes and Cognitive Organization.» *Journal of Psychology*: no. 21, 1946.

Hermann, Margaret. «Explaining Foreign Policy Behavior Using the Personal Characteristics of Political Leaders.» *International Studies Quarterly*: vol. 24, 1980.

_______ and Thomas Preston. «Presidents, Advisers, and Foreign Policy: The Effect of Leadership Style on Executive Arrangements.» *Political Psychology*: vol. 15, 1994.

Holsti, Ole. «Cognitive Process Approaches to Decision-Making: Foreign Policy Actors Viewed Psychologically.» *American Behavioral Scientist*: vol. 20, no. 1, 1976.

_______. «The Political Psychology of International Politics: More than A Luxury.» *Political Psychology*: vol. 10, no. 3, 1989.

Houghton, David Patrick. «Essence of Excision: A Critique of the New Version of Essence of Decision.» *Security Studies*: vol. 10, no. 1, 2000.

_______. «Explaining the Origins of the Iran Hostage Crisis: A Cognitive Perspective.» *Terrorism and Political Violence*: vol. 18, no. 2, 2006.

_______. «The Role of Analogical Reasoning in Novel Foreign-Policy Situations.» *British Journal of Political Science*: vol. 26, no. 4, 1996.

Huddy, Leonie. «From Social to Political Identity: A Critical Examination of Social Identity Theory.» *Political Psychology*: vol. 22, no. 1, 2001.

Hurwitz, Jon and Mark Peffley. «Public Perceptions of Race and Crime: The Role of Racial Stereotypes.» *American Journal of Political Science*: vol. 41, no. 1, 1997.

Jervis, Robert. «Hypotheses on Misperception.» *World Politics*: vol. 20, no. 3, 1968.

_______. «Political Implications of Loss Aversion.» *Political Psychology*: vol. 13, no. 2, 1992.

_______. «Review of the Psychology of Nuclear Proliferation.» *Political Psychology*: vol. 28, 2007.

Kahneman, Daniel and Amos Tversky. «Prospect Theory: An Analysis of Decision under Risk.» *Econometrica*: vol. 47, no. 2, 1979.

Kaplan, Jonas, Joshua Freedman and Marco Lacoboni. «Us Versus them: Political Attitudes and Party Affiliation Influence Neural Response to Faces of Presidential Candidates.» *Neuropsychologica*: vol. 45, no. 1, 2007.

Katz, Daniel and Kenneth Braly. «Racial Stereotypes of 100 College Students.» *Journal of Abnormal and Social Psychology*: vol. 28, 1933.

Kecmanovic, Dusan. «Review of Joshua Searle-White: The Psychology of Nationalism.» *Nations and Nationalism*: vol. 9, no. 3, 2003.

Kinder, Donald and David Sears. «Prejudice and Politics: Symbolic Racism Versus Racial Threats to the Good Life.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 40, no. 3, 1981.

Kinder, Donald [et al.]. «Presidential Prototypes.» *Political Behavior*: vol. 2, no. 4, 1980.

Kowert, Paul. «Where Does the Buck Stop?: Assessing the Impact of Presidential Personality.» *Political Psychology*: vol. 17, no. 3, September 1996.

Kramer, Roderick. «Revisiting the Bay of Pigs and Vietnam Decisions 25 Years Later: How Well has the Groupthink Hypothesis Stood the Test of Time?.» *Organizational Behavior and Human Decision Processes*: no. 73, 1998.

Kuklinski, James, Robert Luskin and John Bolland. «Where's the Schema?: Going

Beyond the «5» Word in Political Psychology.» *American Political Science Review*: vol. 85, no. 4, 1991.

Lacoboni, Marco, Joshua Freedman and Jonas Kaplan. «This is Your Brain on Politics.» *New York Times*: 11/11/2007.

Larson, Deborah Welch. «The Role of Belief Systems and Schemas in Foreign Policy Decision-Making.» *Political Psychology*: vol. 15, no. 1, 1994.

Lebow, Richard Ned and Janice Gross Stein. «Rational Deterrence Theory: I Think, Therefore I Deter.» *World Politics*: vol. 41, no. 2, 1989.

Levy, Jack. «Misperception and the Causes of War: Theoretical Linkages and Analytical Problems.» *World Politics*: vol. 36, no. 1, 1983.

_______. «Prospect Theory and International Relations: Theoretical Applications and Analytical Problems.» *Political Psychology*: vol. 13, no. 2, 1992.

Lieberman, Matthew [et al.]. «An FMRI Investigation of Race-Related Amygdala Activity in African-American and Caucasian American Individuals.» *Nature*: *Neuroscience*: vol. 8, no. 6, 2005.

Link, Arthur. «The Presidential Election of 1916, S. D. Lovell.» *Political Science Quarterly*: vol. 96, no. 1, 1981.

Lodge, Milton and Charles Taber. «The Automaticity of Affect for Political Leaders: Groups, and Issues: An Experimental Test of the Hot Cognition Hypothesis.» *Political Psychology*: vol. 26, no. 3, 2005.

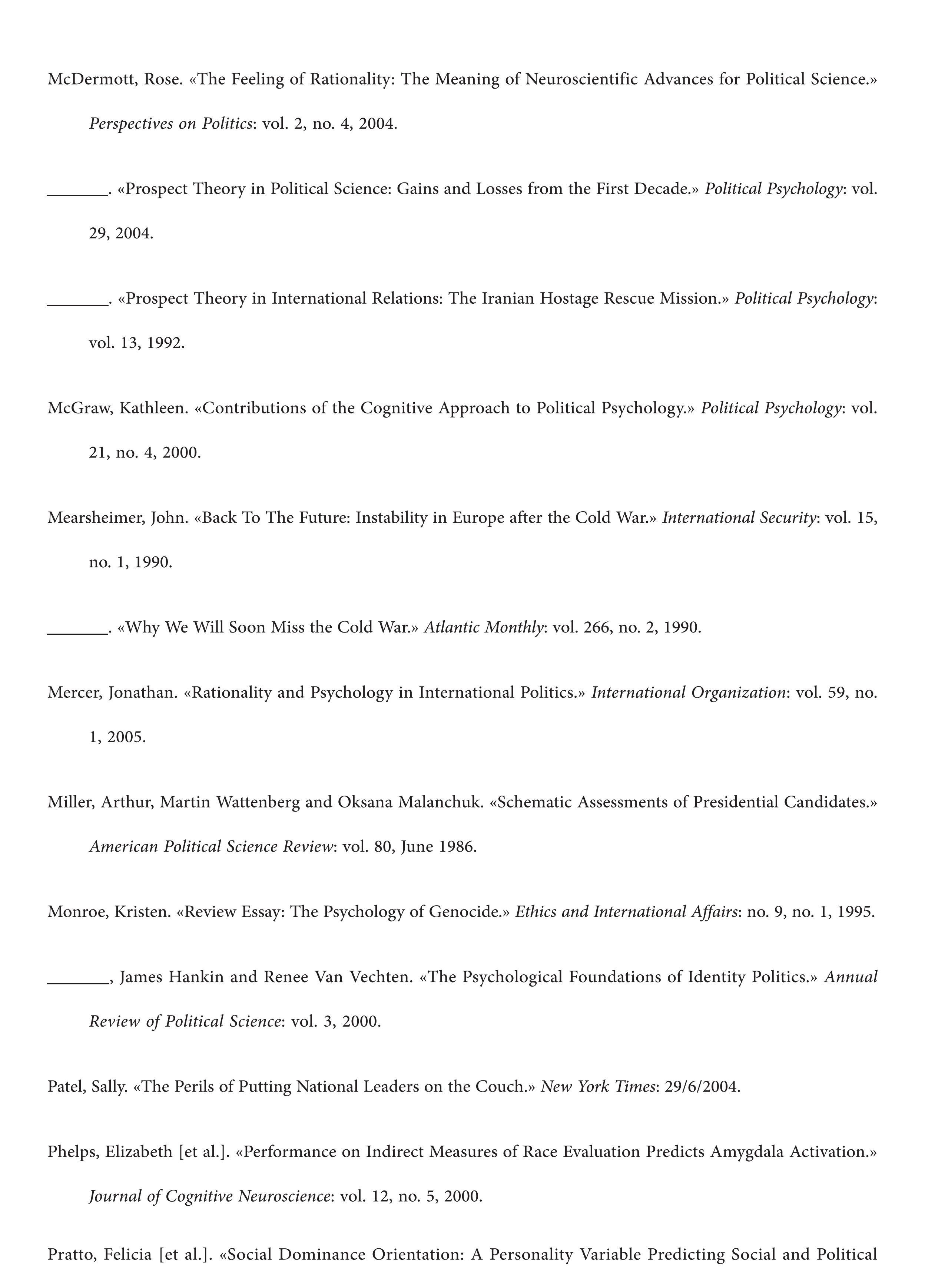
_______ and _______. «Motivated Skepticism in the Evaluation of Political Beliefs.» *American Journal of Political Science*: vol. 50, no. 3, 2006.

Lodge, Milton, Patrick Stroh and John Wahlke. «Black Box Models of Candidate Evaluation.» *Political Behavior*: vol. 12, no. 1, 1990.

Lodge, Milton, Kathleen McGraw and Patrick Stroh. «An Impression-Driven Model of Candidate Evaluation.» *American Political Science Review*: vol. 83, 1989.

Mantell, David. «The Potential for Violence in Germany.» *Journal of Social Issues*: vol. 27, no. 4, 1971.

Marcus, George. «Emotions in Politics.» *Annual Review of Political Science*: vol. 3, 2000.



McDermott, Rose. «The Feeling of Rationality: The Meaning of Neuroscientific Advances for Political Science.» *Perspectives on Politics*: vol. 2, no. 4, 2004.

_______. «Prospect Theory in Political Science: Gains and Losses from the First Decade.» *Political Psychology*: vol. 29, 2004.

_______. «Prospect Theory in International Relations: The Iranian Hostage Rescue Mission.» *Political Psychology*: vol. 13, 1992.

McGraw, Kathleen. «Contributions of the Cognitive Approach to Political Psychology.» *Political Psychology*: vol. 21, no. 4, 2000.

Mearsheimer, John. «Back To The Future: Instability in Europe after the Cold War.» *International Security*: vol. 15, no. 1, 1990.

_______. «Why We Will Soon Miss the Cold War.» *Atlantic Monthly*: vol. 266, no. 2, 1990.

Mercer, Jonathan. «Rationality and Psychology in International Politics.» *International Organization*: vol. 59, no. 1, 2005.

Miller, Arthur, Martin Wattenberg and Oksana Malanchuk. «Schematic Assessments of Presidential Candidates.» *American Political Science Review*: vol. 80, June 1986.

Monroe, Kristen. «Review Essay: The Psychology of Genocide.» *Ethics and International Affairs*: no. 9, no. 1, 1995.

_______, James Hankin and Renee Van Vechten. «The Psychological Foundations of Identity Politics.» *Annual Review of Political Science*: vol. 3, 2000.

Patel, Sally. «The Perils of Putting National Leaders on the Couch.» *New York Times*: 29/6/2004.

Phelps, Elizabeth [et al.]. «Performance on Indirect Measures of Race Evaluation Predicts Amygdala Activation.» *Journal of Cognitive Neuroscience*: vol. 12, no. 5, 2000.

Pratto, Felicia [et al.]. «Social Dominance Orientation: A Personality Variable Predicting Social and Political Attitudes.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 67, no. 4, 1994.

Rahn, Wendy. «The Role of Partisan Stereotypes in Information Processing about Political Candidates.» *American Journal of Political Science*: vol. 37, no. 2, 2003.

Ripley, Brian. «Psychology, Foreign Policy, and International Relations Theory.» *Political Psychology*: vol. 14, 1993.

Ruston, J. Philippe. «Ethnic Nationalism, Evolutionary Psychology and Genetic Similarity Theory.» *Nations and Nationalism*: vol. 11, no. 2, 2005.

Schafer, Mark. «Issues in Assessing Psychological Characteristics at a Distance.» *Political Psychology*: vol. 21, no. 3, 2000.

_______ and Scott Critchlow. «Bill Clinton's Operational Code: Assessing Source Material Bias.» *Political Psychology*: vol. 21, 2000.

Searle, John. «Minds, Brains and Programs.» *Behavioral and Brain Sciences*: vol. 3, no. 3, 1980.

Sears, David and P. J. Henry. «Over Thirty Years Later: A Contemporary Look at Symbolic Racism and its Critics.» *Advances in Experimental Social Psychology*: vol. 37, 2005.

Sears, David [et al.]. «Is it Really Racism?: The Origins of White Americans' Opposition to Race Targeted Policies.» *Public Opinion Quarterly*: vol. 61, no. 1, 1997.

Shafer, Mark and Stephen Walker. «Democratic Leaders and the Democratic Peace: The Operational Codes of Tony Blair and Bill Clinton.» *International Studies Quarterly*: vol. 50, no. 3, 2006.

Shafir, Eldar. «Prospect Theory and Political Analysis: A Psychological Perspective.» *Political Psychology*: vol. 13, no. 2, 1992.

Sidanius, James [et al.]. «Social Dominance Theory: Its Agenda and Method.» *Political Psychology*: vol. 25, no. 6, 2004.

Sidanius, Jim, Erik Devereaux and Felicia Pratto. «A Comparison of Symbolic Racism Theory and Social Dominance Theory as Explanations for Racial Policy Attitudes.» *Journal of Social Psychology*: vol. 132, 1992.

Silke, Andrew. «Cheshire-Cat Logic: The Recurring Theme of Terrorist Abnormality in Psychological Research.» *Psychology*, *Crime and Law*: vol. 4, no. 1, 1998.

Singer, J. David. «The Level-of-Analysis Problem in International Relations.» *World Politics*: vol. 14, no. 1, 1961.

Smith, M. Brewster. «Realistic Empathy: A Key to Sensible International Relations.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

Sniderman, Paul [et al.]. «The New Racism.» *American Journal of Political Science*: vol. 35, 1991.

Stern, Eric and Bengt Sundelius. «The Essence of Groupthink.» *Mershon International Studies Review*: vol. 38, no. 1, 1994.

Suedfeld, Peter. «President Clinton's Policy Dilemmas: A Cognitive Analysis.» *Political Psychology*: vol. 15, no. 2, 1994.

_______ and Philip Tetlock. «Integrative Complexity of Communications in International Crises.» *Journal of Conflict Resolution*: vol. 21, 1977.

Sylvan, Donald, Thomas Ostrom and Katherine Gannon. «Case-Based, Model-Based, and Explanation-Based Styles of Reasoning in Foreign Policy.» *International Studies Quarterly*: vol. 38, nos. 61-90, 1994.

Tapias, Molly [et al.]. «Emotion and Prejudice: Specific Emotions Towards Outgroups.» *Group Processes and Intergroup Relations*: vol. 10, no. 1, 2007.

Tetlock, Philip [et al.]. «Assessing Political Group Dynamics: A Test of the Groupthink Model.» *Journal of Personality and Social Psychology*: no. 63, 1992.

Tierney, John. «The 2004 Campaign: Using MRIs to See Politics on the Brain.» *New York Times*: 20/4/2004.

Tingley, Dustin. «Neurological Imaging as Evidence in Political Science: A Review, Critique, and Guiding Assessment.» *Social Science Information*: vol. 45, no. 1, 2006.

Volkan, Vamik. «September 11 and Societal Aggression.» *Group Analysis*: vol. 35, 2002.

Walker, Stephen. «The Evolution of Operational Code Analysis.» *Political Psychology*: vol. 11, no. 2, June 1990.

_______. «The Interface between Beliefs and Behavior: Henry Kissinger's Operational Code and the Vietnam War.» *Journal of Conflict Resolution*: vol. 21, no. 1, 1977.

_______ and Mark Schafer. «The Political Universe of Lyndon B. Johnson and His Advisors: Diagnostic and Strategic Propensities in their Operational Codes.» *Political Psychology*: vol. 21, no. 3, 2000.

Weinstein, Edwin, James William Anderson and Arthur Link. «Woodrow Wilson's Political Personality: A Reappraisal.» *Political Science Quarterly*: vol. 93, no. 4, 1978.

Wendt, Alexander. «The Agent-Structure Problem in International Relations Theory.» *International Organization*: vol. 41, no. 3, Summer 1987.

Wessells, Mike G., Micheal D. Roe and Susan McKay. «Pioneers in Peace Psychology: Ralph K. White.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

Westen, Drew [et al.]. «The Neural Basis of Motivated Reasoning: An FMRI Study of Emotional Constraints on Political Judgment During the US Presidential Election of 2004.» *Journal of Cognitive Neuroscience*: vol. 18, no. 11, 2006.

White, Ralph. «Misperception and War.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

_______ and Richard Wagner. «The Earliest Pioneer: Ralph K. White.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

Winter, David. «Things I've Learned about Personality from Studying Political Leaders at a Distance.» *Journal of Personality*: vol. 73, no. 3, June 2005.

Wood, Jeremy. «Is 'Symbolic Racism' Racism?: A Review Informed by Intergroup Behavior.» *Political Psychology*: vol. 15, no. 4, 1994.

Zajonc, Robert. «Feeling and Thinking: Preferences Need No Inferences.» *American Psychologist*: vol. 35, 1980.

Congresses

The Annual Meeting of the American Political Science Association, Washington, DC, 2005.

The Annual Meeting of the American Political Science Association, Philadelphia, 2006.

The International Society of Political Psychology Conference, Portland, OR, 2007.

Reports and Websites

The Christian Science Monitor Website, <http://www.csmonitor.com/specials/terrorism/lite/expert.html>.

«Clarke's Take on Terror.» CBS News Website: 21 March 2004, <http://www.cbsnews.com/stories/2004/03/19/60minutes/main607356.shtml>.

Comedy Central Website, <http://www.comedycentral.com/motherload/ index. jhtml?ml_video =84518>.

Duke Website, <http://www.ssri.duke.edu/anes/index.html>.

Hudson, Rex. «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist And Why?.» Report Prepared under an Interagency Agreement by the Federal Research Division, Library of Congress (Washington, D.C.): September 1999, <http://www.loc.gov/rr/frd/pdf-files/Soc_Psych_of_Terrorism.pdf>.

«Iran Says More UN Steps Won't Stop Its Nuclear Work.» Reuters: 3 June 2007.

M. C. Eschers Website (2008), <http://www.mcesher.com>.

Nisbet, Erik and James Shanahan. «MSRG Special Report: Restrictions on Civil Liberties, Views of Islam, and Muslim Americans.» December 2004, <http://www.eriknisbet.com/pdfs/reportla>.

PBS American Experience, Woodrow Wilson Website, <http://www.pbs.org/wgbh/amex/wilson/>.

Reynolds, Ted. «Understanding Nuclear Weapons Proliferation.» Unpublished Manuscript.

Sidanius, James. «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective.» Duke University Press: 1993.

Talaska, Cara, Susan Fiske and Shelly Chaiken. «Legitimating Racial Discrimination: A Meta-Analysis of the Racial Attitude-Behavior Literature Shows that Emotions, Not Beliefs, Best Predict Discrimination.» Social Justice Research: Social Power in Action (in press).

Film

Kennedy, Rory (dir.). «Ghosts of Abu Ghraib». Moxie Firecracker Films: 2007. (DVD)

فهرس عام

-أ-

آتشن، كريستوفر: 375

آتشيسون، دين: 382

آدمز، شيرمان: 177

آربنز، جياكومو: 133

آسيا: 208

آش، سولومون: 83-85، 97، 119، 301، 391، 393

آنجر، بير: 93، 291

آيخمان، أدولف: 39، 88-89، 299، 344

آير، فريدريك: 14

آيمن، دانيال: 249

آينغار، شانتو: 59، 245

الإبادة الجماعية: 19، 22، 29، 33، 275، 293-296، 298، 300-301، 335، 384

الإبدال: 55، 142، 336

الاتحاد السوفياتي: 45، 57، 175، 178، 195، 220، 297، 360، 375، 380

اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية: 117

اتفاقية عصبة الأمم (1919): 145

الإحلال: 55، 142-143، 336

إدواردز، جون: 238، 261

أدورنو، تيودور: 82-83، 305

أدولفز، رالف: 245، 320

أربلاستر، أنطوني: 10

الأرجنتين: 88، 369

أرسطو: 47

أرندت، حنة: 10، 39، 88-89، 97

الإرهاب: 22، 33، 46، 231، 276، 333-336، 338-340، 342-351، 353، 356، 384، 390

الإرهاب الانتحاري: 334، 349-353، 355-356

إريكسون، إريك: 339

أزمة برلين (1948): 210
أزمة الرهائن الإيرانية (1979-1981): 12، 210، 396
أزمة رهائن بويبلو (1968): 211
أزمة الصواريخ الكوبية (1962): 45، 120، 136، 195، 366، 375، 381، 392
أزمة فاشودا (1898): 366
أزمة قناة السويس (1956): 373
أزمة كوريا (الحرب الأهلية (1950)): 366
الاستخبارات الإسرائيلية: 88
أستراليا: 49، 221، 369
الاستشراف: 174
الإسقاط: 142، 311
الإشراط: 69، 72، 75-76، 79
- الاجتماعي: 78
- الإجرائي: 69
- البيئي: 68
- الكلاسيكي: 69، 76
إشير، موريتس كورنليس: 100-101
الأصولية الإسلامية: 350، 381
الاعتقادات الأدواتية: 178
- الذرائعية: 174، 180
- الفلسفية: 174، 180، 182
- المركزية: 174
- المعيارية: 174
- المنغلقة: 174
- المنفتحة: 174
- الهامشية: 174
الإعدام الفوري: 18
إعلان الاستقلال الأميركي (1776): 127
إعلان هو شي منه (1945): 126، 127
أفغانستان: 46، 395-396
أفلاطون: 69
الاقتراع: 58، 270
الاقتصاد الجزئي: 9، 10، 21، 64
الاقتصاد العالمي: 157
الاقتصاد الكلي: 21
الاقتصاد المعرفي: 32
الاكتئاب: 147، 220
ألبورت، غوردون: 311-312
ألتيماير، بوب: 305-307
ألمانيا: 39، 88، 92، 365، 375
- الغربية: 337
أليسون، غراهام: 118، 362-363
الإمبيريقية: 33، 122، 129، 177، 253، 384

الامتثال: 91، 96، 117، 119، 133-134، 305، 327

الأمن الدولي: 33

أميركا اللاتينية: 122

الأنا: 53-55، 141-142، 144، 148، 221، 338-339

الأنا الأعلى: 54- 55، 141، 144، 221، 339

الأنثروبولوجيا: 47

أندرسون، داشيا: 14

أندرسون، وليام: 147، 162

الإنسان الاقتصادي: 59، 62-64، 114-115، 118، 219، 232، 257، 262-263، 295، 351-352، 361، 374، 376

الإنسان النفساني: 60، 62-64، 188، 232، 257، 272، 352، 356، 374

أنسولابير، ستيفن: 59

الأنظمة غير الديمقراطية: 184

انقلاب 1953 (إيران): 381

الإنكار: 55، 139، 142

أوباما، باراك: 203، 261، 273-274

أوروبا: 49، 90، 94، 127، 205، 301، 303

- الغربية: 73، 176

أوشويتز (معتقل): 82

أوكلاهوما (ولاية أميركية): 279، 343

أوهايو (ولاية أميركية): 73

الأيديولوجية: 120، 202، 301، 309، 343

- الراديكالية: 298

- العقائد: 301

إيران: 73، 367، 370، 372-373، 380

إيرلندا الشمالية: 288

إيزنك، مايكل: 206

أيزنهاور، دوايت: 122، 132، 135، 155، 158، 175، 177

إيغلتون، توماس: 161

-ب-

باتسون، دانيال: 387-388

باتل، سالي: 162

باتلر، دايفد: 141، 259

البارانويا (مرض جنون العظمة): 149-151

باربر، جيمس دايفد: 31، 152-157، 162، 172، 340

باركر، إرنست: 277

باريت، دايفد: 130-131

باريس: 49
بافلشاك، مارك: 230
بافلوف، إيفان: 69، 76
باندي، وليام: 129
باول، كولن: 25، 259، 263، 363
بايرن، بريندان: 14
بتروشك، جون: 263، 266
بدويل، جفري: 13، 247
براتو، فيليشيا: 308
براك، هنري: 364
براندت، غريتشن: 92
براون، غوردون: 172-173
براونبك، سام: 203
براوننغ، كريستوفر: 39، 89، 299
برايس، دون: 362
البرتغال: 49
بروت، دين: 130
البروتستانت: 288
البروتوتايب: 268-269
بروننغ، ماريجك: 211-212
بريجنسكي، زبيغنيو: 211، 214
بريستون، توماس: 170-172
بريطانيا: 9، 126، 172، 221، 259، 312
بلامر، هلابرت: 321
بلايت، جيمس: 381
بليـر، طونـي: 170، 172-173، 183-184، 221
بن لادن، أسامة: 218، 223، 343-347
البنتاغون (مقر وزارة الدفاع الأميركية): 37، 111
بنتسن، ليود: 267
بندرغاست، توماس: 200-201
بندي، مكجورج: 209
بنكر، ستيفن: 68، 189، 222-225
بوبر، كارل: 160
بوبكن، صموئيل: 196، 203، 266-268
بوبو، لورنس: 321-322
بوتين، فلاديمير: 176، 184
بورتلاند (مدينة بولاية أوريغون): 49
بورغس، أنطوني: 70-72، 74
بوروندي (دولة أفريقية): 390
بوست، جيرولد: 335، 337-338
البوسنة: 390
بوش، باربرا: 140
بوش، جورج (الأب): 97، 140، 172-173
بوش، جورج دبليو (الابن): 45-46،

111، 152، 157، 165، 168، 217، 221، 237، 249

بول، جورج: 128-129، 131، 209، 214

بوليت، وليام: 55، 143

بونتنغ، كلايف: 43

بونهوفير، ديتريش: 93

بويزجولي، روجر: 40، 114

بيازا، توماس: 320

بيب، روبرت: 350، 353-354

البيت الأبيض: 111، 115، 131، 151، 166، 177

بيدازر، أَمي: 349

بيرسون، جيمس: 327-328

بيرل، دايفد: 13

بيرل هاربر (قاعدة عسكرية): 46، 210

بيرلسون، برنارد: 258

بيرلشتاين، ريتشارد: 337

بيرمنغهام (مدينة إدارية في إنكلترا): 310

البيروقراطية: 44، 113، 182، 362-363، 392

بيريز، شمعون: 182

بيست، جورج: 76

بيسيل، ريتشارد: 126

بيفلي، مارك: 313-314، 319

بيليه (إديسون أرانتيس دو ناسيمنتو): 76

بيم، داريل: 177

بيورغو، تور: 345، 355

-ت-

تابر، تشارلز: 227

تاتشر، مارغريت: 43

تاجفل، هنري: 281-282، 284، 322-323

التاريخ النفسي: 30، 53، 140، 163

تالاسكا، كارا: 316

التأمل: 100

تايلر، شيلي: 22-23، 192، 194، 309، 344

التبرير: 121، 142، 298

تجربة ستانفورد: 29، 77، 101، 103-104، 106- 107، 109-113، 344

التدمير الذاتي: 159

التذويت: 134

التركيب التكاملي: 167-168

تروتسكي، ليون: 178

ترومان، هاري: 153- 154، 156-157، 200-202، 378، 391

التشخيص: 155، 174، 244

تشرشل، ونستون: 220

تشيكوسلوفاكيا: 205، 298

التصنيف: 156، 172، 198-199، 282-283، 293، 315، 322، 368

التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي (إف إم آر آي): 32، 233، 239، 246، 289، 315-316، 320

التعصب: 22، 280، 286، 293، 303-305، 308، 311-312، 315-316، 325، 389

التفكير الجمعي: 26، 29، 118-122، 126-127، 129-130، 133، 136، 389

تفيرسكي، عاموس: 371-372

تقاليد الفاتيكان: 128

تكمان، بروس: 134

التمثيل الماورائي: 246

التمييز العنصري: 286، 303-304، 313، 323

تنغلي، داستن: 252

التنميط العنصري: 309، 311

التوتاليتارية: 75

تيتلوك، فيليب: 129، 167

تيتو، جوزيف: 296

تيرنر، جون: 282، 323

تين، هيبوليت: 50

-ث-

ثغارد، بول: 207

الثقافة الشعبية: 221

الثورة الإسلامية (1979): 396

الثورة المعرفية: 31، 186-187، 219

ثورندايك، إدوارد: 68

-ج-

جانيس، إيرفنغ: 29، 114، 118-123، 125-130، 132-134، 136، 301، 374

جزر الفوكلاند: 43

جماعة أوم شنريكيو: 390

جماعة جيم جونز: 390

جماعة غداء الثلاثاء: 127، 380

الجمعية الدولية للعلوم السياسية: 49

جنكنز، بريان: 334

جنوب شرق آسيا: 127

جورج، ألكسندر: 11، 30، 56، 144-147، 158، 174-175، 178، 180-181، 183

جورج، جولييت: 30، 56، 144-147، 158

جورجيو، فرانك دو: 306

جوريفيتش، فيليب: 93

جولياني، رودي: 261

جونز، آدم: 95

جونسون، بيرد: 150

جونسون، ريبيكا بينس: 148-149

جونسون، سام: 147

جونسون، ليندون: 116، 126-129، 131، 147-151، 154، 156-158، 161، 180-181، 208-210، 214، 229، 231، 237، 312-313، 326، 377-378، 380-381

جيرفيز، روبرت: 12، 41-42، 57، 208-209، 358، 364-366، 369، 372، 395

جيك، ماري: 207، 213

جينوفيز، كيتي: 40، 385-386

-ح-

حافظ، محمد: 351-354

حالة اللانشاط - التوجه الإيجابي: 154

حالة اللانشاط - التوجه السلبي: 154-155

الحرب الباردة: 175، 178، 195، 205، 220، 275، 296، 360، 367

حرب الخليج الأولى (1991): 363، 365

الحرب العالمية الأولى (1914/ 1918): 24، 205، 294، 297، 365

الحرب العالمية الثانية (1939/ 1945): 24، 34-35، 57، 126، 157-158، 197، 206، 209، 365

حرب فيتنام: 24-25، 122، 125-126، 128، 132-133، 136، 156، 182، 197، 209، 275

الحرية: 75، 334، 393

الحزب الجمهوري: 59، 155، 258-259، 261، 394

حزب العمال البريطاني: 172

حسين، صدام: 17، 43، 108، 197، 205، 213-214، 378، 395-396

حقوق الإنسان: 18

الحقوق المدنية: 191-192، 260، 263، 312

حلف الناتو: 127، 153، 185

حملة خليج الخنازير (1961): 122-123، 131-136

حملة عنتيبي (1976): 211

-خ-

خروتشوف، نيكيتا: 45

خطة مارشال: 153

الخلاف الصيني - الهندي (1962): 366

خليج غوانتانامو: 37، 99

الخميني، روح الله (آية الله): 210، 381

الخيار العقلاني: 47، 63، 232، 266، 351

-د-

داتخاو (منطقة ألمانية): 34

داربي، جوزيف: 44، 112-113

دارفور (منطقة في السودان): 276، 301، 390

دارلي، جون: 385-388، 390-392

داشاو (معتقل): 82

دافنشي، ليوناردو: 142-143

دالاس، جون فوستر: 175-178، 378

دالز، ألان: 126، 178

داليك، روبرت: 149-150

داليبل، تام: 43

داماسيو، أنطونيو: 224-225، 243-244

دانر، مارك: 108

داوري، ترافيس: 14

داونز، أنطوني: 59

دايسون، ستيفن: 13، 170، 175، 184، 186

دراسة الشخصية: 53، 165-166

دروكمان، جيمس: 272

الدوغمائية: 332

دوفيديو، جون: 311

دوكنز، ريتشارد: 290-291، 350

دولارد، جون: 336

الدولة القومية: 276-277

ديفاين، باتريسيا: 312-313

ديفيز، جافال: 111

ديفيز، كين: 44

الديمقراطية: 78، 183-184، 332، 345

-ذ-

الذكاء الاصطناعي: 188-189، 224

-ر-

رابلي، بريان: 11، 363

رابين، إسحق: 182-183

راتي، جون: 240

الراديكالية: 70، 99-100، 298، 346، 381

راسك، دين: 117، 125، 127، 150، 208-209، 228، 363

راسل، ريتشارد: 131

الرأسمالية: 275

رامسفيلد، دونالد: 111، 395-396

ران، ويندي: 198، 202

ردلوسك، دايفد: 219، 226-227، 230

الرذيلة: 100

الرسم الكهربائي لموجات الدماغ: 247-248

رشتون، ج. فيليب: 291- 292، 351

رواندا (دولة أفريقية): 91-92، 94-95، 275-276، 294، 297، 301، 335، 390

رودولف، توماس: 198

روزفلت، فرانكلن: 46، 153، 156-158، 373

روس، لي: 194، 377

روستو، والت: 128

روسو، جان جاك: 50

روسيا: 177، 229

روسيساباجينا، بول: 93

رومني، مت: 261

ريتشاردسون، بل: 203

ريغان، رونالد: 115، 154-155، 157، 178، 220، 249، 270

ريفيرا، جوزيف دو: 364

رينولدز، تيد: 370

رينير، إليزابث: 13

-ز-

زكريا، فريد: 346

زمباردو، فيليب: 18-19، 21، 26، 29، 40-41، 77، 99-107، 109-113، 136، 279، 301، 344، 385، 389-390

زيليكوف، فيليب: 118، 362-363

زيونك، روبرت: 218، 225

-س-

سابن، بورتون: 364

السادات، أنور: 376

سبوك (شخصية خيالية): 221-223

سبيلبرغ، ستيفن: 43

ستالين، جوزيف: 178، 201-202، 376

ستوفر، صموئيل: 327-329، 331-332

ستون، وليام: 50

ستيرن، إريك: 133-135

ستيفنسون، أدلاي: 59
ستيوارت، أبيغل: 168
ستيوارت، بوتر: 276
ستيوارت، جون: 104
سجن أبو غريب: 17-19، 29، 38، 40، 43-44، 77، 96-97، 99-100، 108-113، 344
سكنر، بوروس فريدريك: 28، 68-75، 77-78، 96، 136، 271، 290
سلاتر، لورين: 385
السلطة: 18، 26، 39-40، 53، 72، 81، 90-92، 97، 105، 117، 119، 131، 153، 300-301، 370
السلوك الاجتماعي: 9، 20، 289
السلوك الاقتصادي: 9
السلوك الانتخابي: 19، 187، 192، 202، 219، 247، 262، 271
سلوك التصويت: 32
سلوك الجمهور: 32، 197-198، 230-231
السلوك السياسي: 9-10، 12، 19-20، 22، 27، 30، 44، 45-46، 48، 63-64، 78، 96، 99، 136، 165، 180، 198، 219، 230، 241، 251، 353، 356، 373، 397
السلوك المتطرف: 22
سلوك النخبة: 32، 48، 198، 330، 389
السلوكية: 28، 68-71، 75، 78-79، 90، 96، 99، 136، 168، 161، 270-271
سميث، ستيف: 362
سنايدر، ريتشارد: 364
سنايدل، دنكان: 375
سنديليوس، بنغت: 133-134
سنيدرمان، بول: 319، 325، 328
سودفيلد، بيتر: 167
سورنسين، تيد: 125
سوليفان، جون: 197-198، 327-329، 332
سويفت، كمبرلي: 14
سيادة القانون: 345
سياسة الاحتواء: 153
السياسة الخارجية: 11-12، 20-21، 48، 51، 62، 116، 132-133، 135، 171-172، 175، 177، 187، 208-209، 211-212، 214، 230-231، 264، 357-358، 362-364، 367، 371-372، 381، 392، 394
- الأميركية: 119، 153، 195، 197، 206، 330

سيدانيوس، جيم: 285-287، 307-308

السـيرة النفسـية: 30، 53، 136، 140-141، 143، 152، 163، 165-166

- المقارنة: 152

سيرز، دايفد: 324-326

سيرل، جون: 189-190

سيرل - وايت، جوشوا: 277، 282-283، 289

السيكوباثية: 341، 353-354

السيكولوجية: 46

- الانتشار النووي: 367

- البحوث: 219

- التفسيرات: 146

- الدراسة: 384

- الردع: 367

- الظاهرة: 365

- العناصر: 341

- العوامل: 357

- المخاطرة: 367

- المقاربة: 289

سيلفان، دونالد: 212

سيلك، أندرو: 33، 341، 356

سيمون، هربرت: 11، 61، 266

-ش-

شافنر، بول: 50

شايكن، شيلي: 316

شتاين، جانيس: 374-376

شتاينبرغ، بليما: 229

الشخصية الإنسانية: 151

الشخصية التسلطية: 81-82، 88، 278، 305، 307

الشخصية السادية: 88

شرايبر، دارين: 320

شرق آسيا: 129

الشرق الأوسط: 166، 205، 218، 381

شركة مورتون - ثيوكول: 35-37، 40، 114

شريف، مظفر: 278-279، 281-282

شلزنجر، آرثر: 125

شمبرلين، نيفيل: 205

الشمولية: 75، 175

الشيشان: 354-355

شيفر، مارك: 175، 183-186

شيكاغو (مدينة أميركية): 45

شيندلر، أوسكار: 43، 93

شيني، ديك: 111، 178، 192

الشيوعية: 75، 275، 327-328، 330، 378، 380

-ص-

الصراع الإثني: 275، 288-289، 293-294، 321، 384، 390

الصراع العرقي: 33، 231

الصراعات القومية: 307

الصراعات اللاشعورية: 141-142

الصناعة الجماعية للقرار: 117-119

صندوق فاسد: 103، 113

صنع القرار: 11-12، 22، 29، 59، 60، 63، 115-116، 118، 122، 125، 135، 167، 187، 219، 227، 231، 364، 372، 393، 395-396

الصور النمطية: 34، 196، 198-199، 202، 204، 222، 309، 313-316

الصين: 181، 229

-ض-

ضرورة الفاعل: 165-166

ضرورة الفعل: 165-166

-ط-

الطاعة السياسية: 81-82

طالبان (حركة): 46

طومبسون، تومي: 195، 382

طومبسون، فريد: 261

طومسون، جيمس: 380

-ع-

عالم الواقع: 10، 291، 376

عدم الأمن النفسي: 332

عدم التسامح: 33، 82، 193، 323، 326، 328-330، 384

العراق: 17-18، 37، 46، 108، 112، 165-166، 170، 173، 275-276، 297، 363، 395-396

العربية السعودية: 346-347، 378

العلاقات الأميركية الأوروبية: 166

العلاقات الأميركية الروسية: 185

العلاقات الدولية: 12، 20، 51، 57، 62، 175، 196، 198، 208، 230-231، 357-359، 362، 364، 367، 379، 381، 384، 388-389

علم الأعصاب: 13، 32، 188، 233، 239-241، 249، 251-252، 289-299، 316

- السياسي: 32، 240

علم الاقتصاد: 62، 64، 257

علم المعرفة: 188، 212، 241

علـم النفـس الاجتماعـي: 11، 19-22، 28، 40، 48، 52، 64، 97، 133، 206، 257، 259، 303، 315، 364، 383، 385-386، 397

علم النفس التحليلي: 28

علم النفس التطوري: 285، 361

علم نفس القومية: 282، 288

علم النفس المعرفي: 11، 21، 28، 48، 64، 175، 188، 193، 198، 206، 218-219، 232، 257، 266، 268، 313، 356، 397

العلوم السياسية: 10-11، 20، 30-31، 44، 46-53، 62، 67-68، 81، 245، 326

العنصرية: 33، 95، 231، 285، 293، 303-305، 308-309، 311، 315-318، 321-325، 384

-غ-

غارفنكل، آرثر: 266

غراهام، جون: 237

الغرفة الصينية: 189-190

غروسمان، ديف: 299-300

غرين، دايفد: 188

غرينشتاين، ديل: 14

غرينشتاين، فريد: 165-166، 177-178

غلاد، بيتي: 56، 158

غنتنر، ديدري: 207

غودوين، دوريس كيرنز: 30، 56، 147-151، 161، 229

غودوين، ريتشارد: 150-151

غور، آلبيرت: 46، 166

غورباتشوف، ميخائيل: 178

غورتون، جون: 369

غولدغييه، جيمس: 357

غولدنغ، وليام: 103-104

غولدهاغن، دانيال: 39

غولدووتر، باري: 59، 263

غيبسون، جيمس: 323-324، 330

غيج، فينيس: 243-244

-ف-

فارنهام، باربرا: 373

فان فشتن، رينيه: 286

فاندورا، ماغي: 14

فانس، سايروس: 25، 211، 214

فاينشتاين، إدوين: 146-147

فاينليسون، ألان: 283-284

فتزباترك، ليسي: 14
فرانك، جستن: 139-140، 151، 159، 163
فرانكفورت: 50
فرنسا: 50، 126، 360، 369
فروم، إريك: 51
فرويد، سيغموند: 21، 30، 49، 51، 53-55، 67، 141-144، 160، 188، 221، 287-288، 311
فريدريك، شب إيفان: 100، 112
فريدمان، جوشوا: 236-237
فريدمان، ميلتون: 10
فستنغر، ليون: 57، 191-192، 218، 260، 266
فسك، سوزان: 22-23، 192، 194، 230، 303-304، 309، 315-318
فضيحة أبوغريب: 29، 40، 43-44، 77، 96، 108
فضيحة ووترغيت (1968): 231
الفضيلة: 100، 291
فك، بول: 159-160، 163
فلوريدا (ولاية أميركية): 13-14، 36-37، 114، 118، 122، 204، 247
- الجنوبية: 122
فورد، جيرالد: 153، 156-157، 378
فولبرايت، وليام: 128، 131
فولتير (فرانسوا ماري أرويه): 327
فولكان، فاميك: 288، 354
فيتنام الجنوبية: 158
فيتنام الشمالية: 126، 158، 206، 229، 380
فيديريكو، كريستوفر: 303
فيربا، سيدني: 263، 266
فيرتزبيرغر، ياكوف: 116-117، 174، 196، 225، 231
فيزيو، راسل: 313
فيلبس، إليزابث: 318
فيليبس، سارة: 13
فيينا: 49، 51

-ق-

القاعدة (تنظيم): 38، 46، 78، 347، 350-351، 370، 388، 396
قانون الأمن القومي الأميركي (1948): 117
قانون الحقوق المدنية (1964): 312
القتل الجماعي: 39، 82، 90، 92، 94-97، 231، 292، 294، 334-335
قضية وايت ووتر: 158
القوة العسكرية: 25، 206

القومية: 33، 275-278، 280، 282-285، 287-289، 292-293، 370، 384

قياس التمثيل: 12، 62، 190، 205، 207-208، 210-214، 228، 358

-ك-

كابلن، جوناس: 236-237، 239، 244، 250

الكاثوليك: 288

كارتر، جيمي: 25، 56، 154-155، 157، 203، 270، 373

كارسون، جوني: 35

كارلوس المأجور: 339

كارول، أنَّا: 13

كازينسكي، تيد: 343، 388

كاسترو، فيديل: 45، 122-124، 133

كالاهان، هاري: 306

كامبل، آنغوس: 57-58، 258، 262-264

كانمان، دانيال: 371-372

كاي، فالديمر أورلاندو: 264، 330

الكبت: 53، 142، 413

الكرامة الإنسانية: 75

كرانو، مايكل: 14

كرنشو، مارثا: 351، 356

كرو، جيم: 307، 325

كروتشيف، نيكيتا: 195، 382

كريتون، جون: 337

كريشلو، سكوت: 175، 180، 182-183، 185-186

كريمر، رودريك: 132

كشمانوفيش، دوسان: 289

كلارك، ريتشارد: 396

كلارك، ماري: 290-292

كلامبر، كيني: 14

كلاي، محمد علي: 318

كلاين، ميلاني: 139

كلاين، هانز - جواشيم: 339

كليفورد، كلارك: 131

كلينتون، بل: 153، 156، 158-160، 172-173، 183-185، 249، 267-268

كلينتون، روجر: 159

كلينتون، هلاري: 203، 217، 221، 238، 261

كلينتون، وليام جفرسون: 159

كمبوديا (دولة آسيوية): 126، 154

كندر، دونالد: 268-269، 325-326

كوبا: 45، 122-124، 195، 382

كوربرك، ستانلي: 71

كوريا الشمالية: 153، 208-210، 214، 228-229، 366-367، 370

كوسوفو: 390

كونغ، يون فونغ: 209-210، 214، 218، 228

الكونغرس: 46، 135، 201

كونفرس، فيليب: 58، 259-261

كونور، والكر: 275-276

كوهن، جوناثان: 248

الكويت: 369

كويل، إيتل: 344

كويل، دان: 259، 267

كوويرت، بول: 152، 166

كيب كانافرال (قاعدة للقوات الجوية والفضائية الأميركية): 36-37

كيرك، جيمس: 221-223

كيرنز، كارل: 13

كيري، جون: 166، 237، 268

كيسينجر، هنري: 181-182، 185

كيلي: هارولد: 194

كيلين، كونراد: 339

كيم إيل سونغ: 370

كيم يونغ إيل: 370

كين، مارك: 206

كينغ، مارتن لوثر: 318

كينيدي، إدوارد: 373

كينيدي، جون: 157-158، 168، 195، 267-268، 381-382، 392

كينيدي، روبرت: 123، 125

كينيدي، روري: 40، 108

كينيلي، توماس: 43

كيوهاين، روبرت: 20، 361

-ل-

لاتاني، بيب: 385-386، 390-392

لارسون، ديبورا ويلش: 195، 200

لازرفيلد، بول: 58، 258

لاسويل، هارولد: 30، 44، 49، 55-56، 143-144، 339

اللاشعور: 55، 141-142، 288-289

لاكس، ساماتا: 303

لاكوبوني، ماركو: 13، 236-238، 244، 246-248

لانغ، جانيت: 381

لاوس (دولة آسيوية): 126

لوبون، غوستاف: 50

مصدق، محمد: 211، 381

معاهدات جنيف (1949/1864): 38

معاهدة الأمم المتحدة ضد التعذيب (1984): 38

معاهدة عصبة الأمم (1946/1919): 31

معاهدة فيرساي العقابية (1919): 95

المعززات الإيجابية: 75

المعززات السلبية: 75

مغادام، آساف: 349، 353-356

مفهوم الارتباط الوهمي: 310

مفهوم السلام الديمقراطي: 183

مفهوم نسق الاعتقاد: 174

المقاربة البيوسياسية: 278

مقاربة داروين التطوري: 222

مقاربة العنصرية الرمزية: 316، 325-326

المقاربة السيكودينامية: 287

مكديرموت، روز: 21، 358، 371-374

مكغرو، كاثلين: 268، 273

مكغواير، وليام: 52-53، 60، 68

مكغوفيرن، جورج: 161

مكفيه، تيموثي: 343

مكمانس، فريدا: 141

المكنزمات: 223، 292، 309

مكنمارا، روبرت: 45، 117، 127، 129، 131، 195، 380-381

المكوك تشالنجر: 114

مكيافيلي، نيكولا: 25، 50

مكين، جون: 193، 203، 261

ملغرام، ستانلي: 10، 21، 26، 28-29، 33، 39-41، 79، 81-83، 85-97، 99، 102، 105-107، 109، 119، 136، 251-252، 278، 286، 300، 305، 334، 361، 385، 391

المملكة المتحدة: 43، 275-276، 310

المنظمات الإرهابية: 341، 346-347، 350، 370

المنظور السيكودينامي: 278

مؤتمر الجمعية الأميركية لعلم النفس (1990): 68

مؤتمر ميونيخ (1938): 205، 365

مورغنثاو، هانز: 25-26

موريس، إيرول: 380

موسوليني، بينيتو: 214

الموقفيـــة: 19، 21، 23، 25، 27، 30، 33، 41، 52، 64، 68، 77، 79، 112، 173-174، 187، 194، 251، 253، 274، 293، 304-306، 344، 359، 362،

نظرية الردع: 374-377

نظريـة السـكيما: 190، 193، 197-199، 203، 214-215، 218، 230، 266، 309، 311

النظرية السلوكية: 57، 64، 67، 191

نظرية السياسة البيروقراطية: 362

نظريــة الســيطرة الاجتماعيــة: 278، 285-287، 293، 307-308

نظرية الشخصية التسلطية: 305، 307

النظرية الشكلية: 47

نظريـة الصـراع الواقعـي (روبـرز كيـف): 278، 282، 295، 321-322

نظريـة العـزو: 190، 193-196، 198، 203، 214-215، 266، 340، 358، 377-378، 383، 387

نظرية اللعبة: 47

النظرية الماركسية: 51

نظرية المحافظة الملتزمة: 324

نظريـة النرجسـية - العـدوان: 334، 337، 339، 342

نظريـة الهويـة الاجتماعيـة: 278، 280-281، 283-284، 286-287، 293، 322-323، 368

نظرية الهوية السلبية: 339

النظرية الواقعية: 51

النظم الثنائية القطبية: 360

النظم المتعددة القطبية: 360

نكورونزيزا، فرانسوا كزافييه: 91

نموذج الإنسان النفساني: 188

نموذج التماهي الحزبي: 193، 260، 262-263، 271

نموذج ديان بيان فو: 214

نموذج الهوية الحزبية: 59، 239

نيسبت، ريتشارد: 194، 387، 390

نيفادا (ولاية أميركية): 73

نيكسون، ريتشارد: 115، 150، 154، 157، 181-182، 229، 231، 270

نيوأورليانز: 73

نيومان، بول: 105

نيويورك: 35، 39، 45، 343

-هـ-

هابياريمانا، جوفينال: 276

هادي، ليوني: 284

هارت، ألان: 318

هاريس، لازانا: 317-318

هاكابي، مايك: 261

هالبرستام، دايفد: 127

هانت، مورتون: 385

هانكن، جيمس: 286

هايدر، فرتز: 191

هايمانز، جاك: 358، 367-371، 374

هاينز، باتريك: 14

هتلر، أدولف: 39، 90، 197، 205-206، 213-214، 301، 335، 352، 365، 376، 390

هدسون، ركس: 333، 338-339، 342

همفري، هيوبرت: 131

الهُوَ: 53-55، 141، 144، 221، 339

هوارد، جون: 221

هوبز، توماس: 25، 50، 103-104، 113، 180-181

هوتشبرغ، جوليان: 200

هورغـان، جـون: 33، 333-334، 341، 346-348

هورويتز، جون: 11، 313-314، 319

هوفر، هربرت: 157

هولستي، أول: 12، 175-178، 392-393

هولندا: 73

هوليز، مارتن: 362

هوليوك، كيث: 207، 213

الهوية القومية: 283، 285، 368، 371

هيئة الأركان المشتركة: 45

هيرشمان، جابلو: 151

هيرمان، مارغريت: 169-170

هييغ، ألكسندر: 206

-و-

واتنبيرغ، مارتن: 262

واشنطن: 13، 127، 140، 195

واشنطن، دينزل: 318

واطسون، جون: 68، 71، 78

واكر، ستيفن: 175، 181-184، 186

والاس، جورج: 325

والتز، كينيث: 20، 26، 44، 359، 361-362

والر، جيمس: 82، 94، 281، 293، 300

والنبيرغ، راؤول: 93، 291

وايت، رالف: 232، 358، 379

وايتلام، غوف: 396

وست، دين: 145

وكالة الفضاء الأميركية (ناسا): 35-37، 40، 114

وكالة المخابرات الأميركية (سي آي إي): 45، 110، 123-127، 131-133، 211، 363، 381، 395-396

الولايات المتحدة: 9، 11، 18، 27، 37-38، 49، 51، 57، 73، 76، 88، 106، 108، 111، 118، 124، 126-127، 132-133، 166، 176، 182، 185، 195، 205، 209، 220، 246، 249، 270، 286، 303-304، 307-308، 321-322

ولاس، غراهام: 50

ولسون، جوزيف : 31، 145

ولسون، ودرو: 30، 56، 143-147، 157

ولفويتس، بول: 395

ولكنز، روجر: 313

ونتر، دايفد: 166، 168-170، 172

وندت، ألكسندر: 359

وود، جيرمي: 326

وودوارد، بوب: 156، 395

وودوارد، سوزان: 296-297

ويستن، درو: 142، 236، 238-239، 241-242

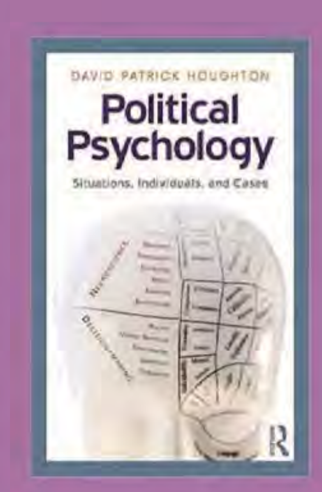
-ي-

اليابان: 46، 126، 375-376

اليوتوبيا: 70

يوغسلافيا: 275-276، 294، 296-298، 301

هذا الكتاب



مع أن علم النفس السياسي قد نشأ، تاريخيًا، في مرحلة متأخرة نسبيًا من تطور العلوم الاجتماعية، إلا أن موضوعه الأساس قديم قدم السلوك السياسي، بل النشاط الإنساني في المجال العام. فحين يسأل سائل: "لماذا يفعل الناس ما يفعلونه في سلوكهم العام؟"، فإن أول ما يكتشفه هو أن كل نظرة سياسية إلى العالم تبنى في النهاية على نظرة في الطبيعة البشرية والنفس الإنسانية.

ومن خلال استعراض تحليلي نظري وتطبيقي لطيف واسع من الآراء، قديمها وحديثها، وما طرحته شتى النظريات في ميادين علم النفس والفلسفة والسياسة، يخلص هذا الكتاب إلى أن ثمة نمطين أساسيين من المقاربات لفهم السلوك السياسي الإنساني: أولهما مقاربة موقفية تعتبر البيئة، أو الموقف المحيط بالفرد، أكثر أهمية في تشكيل سلوك الفرد أو دوره في المجال العام من نزعاته أو خصائصه الشخصية أو انتمائه الحزبي؛ أما الأخرى فهي المقاربة النزوعية التي ترى أن شخصية الفرد وما لديه من اعتقادات وقيم أو حتى موروثات جينية، أكثر تأثيرًا في هذا المضمار؛ بل يمكن، على العموم، النظر إلى السلوك السياسي على أنه حدث مدفوع بأسباب داخلية أو مؤثرات خارجية أو بمزيج من هذين النوعين.

المؤلف

دايفد باتريك هوتون (David Patrick Houghton) أكاديمي بريطاني يعمل أستاذًا في جامعة وسط فلوريدا في الولايات المتحدة، وعمل قبل ذلك في جامعات بريطانية وأميركية. ومن مجالات اهتمامه: علم النفس السياسي، صنع القرار في السياسة الدولية، السياسة الخارجية الأميركية والعلاقات الإيرانية - الأميركية. له خمسة كتب وعدد من المقالات والدراسات العلمية.

المترجمة

ياسمين سالم حداد تحمل الدكتوراه في علم النفس الاجتماعي من جامعة روتشستر في الولايات المتحدة الأميركية. عملت في الجامعة الأردنية أستاذة ورئيسة لقسم علم النفس، وتعمل الآن في جامعة الإمارات العربية المتحدة. شاركت في ترجمة وتحرير كتابين مرجعيين في علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التطبيقي.

- فلسفة وعلم نفس
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنثروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 15 دولارًا

ISBN 978-614-445-046-8
9 786144 450468



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies